

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تأليف

القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي

المتوفى ٩٨٢ هـ

تحقيق

خالد عبد الغني محفوظ

الجزء الثالث

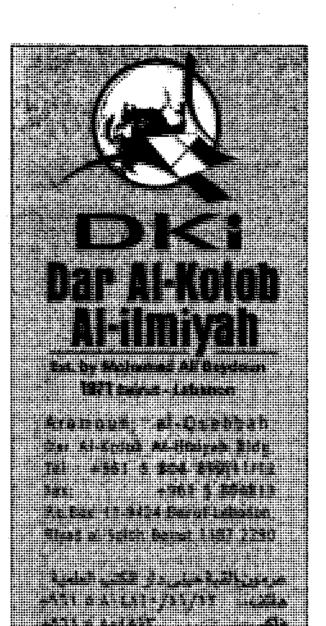
المحتوى

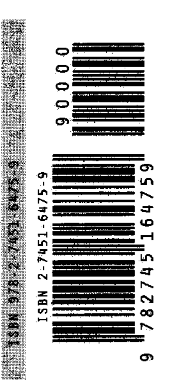
أول سورة المائدة - آخر سورة الأعراف



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title :	**THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN**	**تفسير أبي السعود** :	**الكتاب**
Classification:	Exegesis of The Qur'an	: تفسير قرآن	**التصنيف**
Author	: Al-qāḍi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi	:أبو السعودمحمد بن محمد العمادي	**المؤلف**
Editor	: Ḫālid Abdul-Ğani Maḥfūẓ	: خالد عبد الغني محفوظ	**المحقق**
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	: دار الكتب العلميـــة – بيروت	**الناشر**
Pages	: 4160 (8 volumes)	: 4160 (8 أجزاء)	**عدد الصفحات**
Size	: 17*24	: 17*24	**قياس الصفحات**
Year	: 2010	: 2010	**سنة الطباعة**
Printed in	: Lebanon	: لبنـــان	**بلد الطباعة**
Edition	: 1st	: الأولى (لونان)	**الطبعة**





ISBN 978-2-7451-6475-9

سورة المائدة

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا أَوْفوا بالعُقود**﴾ الوفاءُ القيامُ بموجَبِ العَقْد، وكذا الإيفاء، والعقد هو العهدُ الموَثَّقُ المشبَّه بعقد الحبل ونحوه.

والمراد بالعقود ما يعمّ جميعَ ما ألزمه الله تعالى عبادَه وعقَده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقِدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها، مما يجب الوفاء به، أو يحسنُ دِينًا بأن يُحمل الأمرُ على معنىً يعمّ الوجوبَ والندبَ.

أُمرَ بذلك أولًا على وجه الإجمال.

ثم شُرِعَ في تفصيلِ الأحكام التي أمر بالإيفاء بها وبُدِئ بما يتعلّق بضروريات مَعايشِهم فقيل:

﴿**أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام**﴾ البهيمةُ كلُّ ذات أربع، وإضافتُها إلى الأنعام للبيان كثوب الخزّ، وإفرادُها لإرادة الجنس، أي أحِلّ لكم أكلُ البهيمة من الأنعام، وهي الأزواجُ الثمانية[١] المعدودة في سورة الأنعام، وأُلحِق بها الظباءُ وبقَرُ الوَحْش ونحوُهما، وقيل: هي المرادة بالبهيمة هاهنا لتقدّم بيان حِلِّ الأنعام، والإضافةُ لما بينهما من المشابهة والمماثلة في الاجترار وعدم الأنياب، وفائدتُها الإشعارُ بعِلة الحكم المشتركة بين المضافَيْن، كأنه قيل: أُحلت لكم البهيمةُ الشبيهة بالأنعام التي بَيَّن إحلالَها فيما سبق، المماثِلةُ لها في مَناطِ الحُكم[٢]. وتقديم الجارّ والمجرور على القائم مَقام الفاعل لما مر مرارًا من إظهار العناية بالمقدَّم، لما فيه من تعجيل المسرَّة والتشويق إلى المؤخَّر، فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقِّبةً إلى وروده، فيتمكّن عندها فضلُ تمكّن.

﴿**إلا ما يُتْلىٰ عليكم**﴾ استثناء من (بهيمةُ) أي إلا مُحرَّمَ ما يتلى عليكم من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عليكم الميتة﴾ [المائدة: ٣] ونحوَه، أو إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه. ﴿**غيرَ مُحِلِّي الصيد**﴾ أي الاصطيادِ في البَرّ أو أكلِ صيده، وهو نصبٌ على الحالية من ضمير لكم، ومعنى عدمِ إحلالِهم له تقريرُ حرمته عملًا واعتقادًا، وهو شائع في الكتاب والسنة.

وقوله تعالى: ﴿**وأنتم حُرُمٌ**﴾ أي مُحرمون، حال من الضمير في مُحِلِّي. وفائدةُ تقييد إحلالِ بهيمةِ الأنعام بما ذُكر من عدم إحلالِ الصيد حالَ الإحرام، على تقدير كونِ المراد بها الظباءَ ونظائرَها، ظاهرةٌ، لما أن إحلالها غيرُ مُطلق، كأنه قيل: أحل لكم الصيدُ حالَ كونِكم ممتنعين عنه عند إحرامكم.

وأما على التقدير الأول ففائدته إتمامُ النعمة وإظهارُ الامتنان بإحلالها بتذكير

---

(١) وهي اثنان من الضَّأن واثنان من المعِز واثنان من الإبل واثنان من البقر، على ما ورد في سورة الأنعام، الآيتين: (١٤٣، ١٤٤).

(٢) يقال: ناط الشيء من باب علقه، والمناط هنا ما أضاف الشرع الحكم إليه وناطه به ونصبه علامة عليه.
ينظر: النزهة مع الروضة (٢/ ١٩٨)

احتياجهم إليه، فإن حرمةَ الصيد في حالة الإحرام من مظانِّ حاجتهم إلى إحلال غيرِه حينئذ، كأنه قيل: أحلت لكم الأنعام مطلقًا حالَ كونكم ممتنِعين عن تحصيل ما يُغنيكم عنها في بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها. وفي إسناد عدم الإحلال إليهم بالمعنى المذكور، مع حصول المراد بأن يقال: غيرُ محلَّلٍ لكم، أو محرمًا عليكم الصيدُ حال إحرامكم، مزيدُ تربيةٍ للامتنان، وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة، فإن تحريم الصيد عليهم إنما يوجب حاجتهم إلى إحلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملًا واعتقادًا، مع ما في ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم.

﴿**إن الله يحكمُ ما يريد**﴾ من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئتُه المبْنيةُ على الحِكَم البالغة، فيدخل فيها ما ذُكر من التحليل والتحريم دخولًا أوليًّا، ومعنى الإيفاء بهما الجرَيانُ على موجبهما عقدًا وعملًا، والاجتنابُ عن تحليل المحرمات وتحريم بعضِ المحلَّلاتِ كالبَحيرة[(١)] ونظائرِها التي سيأتي بيانها.

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائِرَ الله**﴾ لمّا بيّن حُرمةَ إحلال الإحرام الذي هو من شعائر الحج عقّب ذلك ببيان حرمة إحلال سائر الشعائر، وإضافتُها إلى الله عز وجل لتشريفها وتهويلِ الخطب في إحلالها، وهي جمع شعيرةٍ وهي اسم لما أُشعِر، أي جُعل شِعارًا وعَلَمًا للنُسُك من مواقيت الحج ومرامي الجمار والمطافِ والمسعى، والأفعالِ التي هي علاماتُ الحج يُعرف بها، من الإحرام والطوافِ والسعْي والحلق والنحر، وإحلالُها أن يُتهاوَن بحرمتها ويُحال بينها وبين المتنسّكين بها ويُحدَثَ في أشهر الحج ما يُصَدّ به الناسُ عن الحج. وقيل: المراد بها دينُ الله لقوله تعالى: ﴿ومن يعظِّمْ شعائِرَ الله﴾ [الحج، الآية ٣٢] أي دِينه، وقيل: حرماتِ الله، وقيل: فرائضَه التي حدّها لعباده، وإحلالُها الإخلالُ بها، والأول أنسبُ بالمقام. ﴿**ولا الشهرَ الحرامَ**﴾ أي لا تُحِلّوه بالقتال فيه، وقيل: بالنّسيء[(٢)]، والأول هو الأولى بحالة المؤمنين، والمراد به شهر الحج، وقيل: الأشهر الأربعة الحرم، والإفراد لإرادة الجنس.

﴿**ولا الهَدْيَ**﴾ بأن يُتعرَّضَ له بالغَصْب أو بالمنع عن بلوغ مَحِلّه، وهو ما أُهدِيَ إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاءٍ، جمعُ هَدْيَة كجَدْي وجَدْية ﴿**ولا القلائِدَ**﴾ هي جمعُ قِلادة، وهي ما يُقلَّد به الهدْيُ من نعلٍ أو لِحاءِ شجرٍ ليُعلم به أنه هدْيٌ فلا يُتعرَّضَ

---

(١) البحيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر شقّوا أذنها وحرّموا ركوبها ودرَّها ولا تُطرد عن ماء ولا عن مرعى، وسيأتي في تفسير الآية: ١٠٣.

(٢) هو تأخير حرمة المحرَّم إلى صفر أيام الجاهلية.

له، والمراد النهيُ عن التعرض لذوات القلائد من الهدْي وهي البُدْن، وعطفُها على الهدي مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ما عداها، كما عَطفَ جبريلَ وميكالَ على الملائكة عليهم السلام، كأنه قيل: والقلائدَ منه خصوصًا، أو النهيُ عن التعرض لنفس القلائدِ مبالغةً في النهي عن التعرض لأصحابها، على معنى لا تُحِلّوا قلائدَها فضلًا عن أن تحلوها، كما نهىٰ عن إبداء الزينة بقوله تعالى: ﴿ولا يُبْدينَ زينَتَهن﴾ [النور، الآية ٣١] مبالغةً في النهي عن إبداء مواقِعِها.

﴿ولا آمّين البيتَ الحرام﴾ أي لا تُحلّوا قومًا قاصدين زيارته بأن تصُدّوهم عن ذلك بأي وجه كان، وقيل: هناك مضافٌ محذوف أي قتالَ قومٍ أو أذى قوم آمين إلخ، وقرئ[1] ولا آمّي البيتِ الحرامِ بالإضافة.

وقوله تعالى: ﴿يبتغون فضلًا من ربِّهم ورِضوانًا﴾ حالٌ من المستكنِّ في آمين لا صفةٌ له، لأن المختار أن اسم الفاعل إذا وُصف بطَلَ عملُه أي قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يُثيبَهم الله تعالى ويرضَى عنهم. وتنكيرُ (فضلًا ورضوانًا) للتفخيم، و﴿من ربهم﴾ متعلق بنفس الفعل، أو بمحذوفٍ وقع صفة لفضلًا مُغنيةً عن وصفِ ما عُطف عليه بها، أي فضلًا كائنًا من ربهم ورضوانًا كذلك.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم والإشعارِ بحصول مبتغاهم. وقرئ[2] (تَبْتغون) على الخطاب، فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطَبين في (لا تُحلوا) على أن المرادَ بيانُ منافاة حالهم هذه للمنهيِّ عنه لا تقييدُ النهي بها، وإضافة الرب إلى ضمير الآمّين للإيماء إلى اقتصار التشريف عليهم، وحِرمانِ المخاطَبين عنه وعن نيل المُبتغىٰ، وفي ذلك من تعليلِ النهْي وتأكيدِه والمبالغة في استنكار المنهيّ عنه ما لا يخفى.

ومن هاهنا قيل: المراد بالآمّين هم المسلمون خاصة، وبه تمسك من ذهب إلى أن الآية مُحْكمة، وقد رُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «سورة المائدة من

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٩٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٤٨٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١١٩)، والبحر المحيط (٣/ ٤٢٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢١)، والمعاني للفراء (١/ ٢٩٨).

(٢) قرأ بها: حميد بن قيس، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٢٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٢١)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٢).

آخِرِ القرآن نزولًا فأَحِلّوا حَلالَها وحرِّموا حرامَها»[١]. وقال الحسن رحمه الله تعالى: ليس فيها منسوخ، وعن أبي ميسرة: فيها ثماني عشرةَ فريضةً وليس فيها منسوخ[٢].

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ٤٥)- باب فضل المائدة والأنعام- قال: حدثنا أبو اليمان عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ فذكره.
قلت: وهذا الإسناد فيه علتان:
الأولى: الإرسال: فإن ضمرة بن حبيب، وعطية بن قيس لم يسمعا من النبي ﷺ شيئا وإنما يرويان عن بعض الصحابة عن النبي...
راجع ترجمة ضمرة - تهذيب الكمال (١٣/ ٣١٤/ ٢٩٣٦)، وترجمة عطية بن قيس - تهذيب الكمال (١٠/ ١٥٣/ ٣٩٦١).
الثانية: ضعف أبي بكر بن عبد الله.
وورد هذا الحديث موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى عائشة.
أما حديث عبد الله بن عمرو:
فأخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١) كتاب تفسير القرآن (٤٨)، باب (ومن سورة المائدة) (٣٠٦٣) بلفظ «آخر سورة أنزلت المائدة...» وقال: هذا حديث حسن غريب، وروي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت «إذا جاء نصر الله ....» ا هـ.
والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١١) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وحديث عائشة:
أخرجه النسائي في تفسيره(١/ ٤٢٧/ ١٥٨)، وأحمد في المسند (٦/ ١٨٨) والحاكم في مستدركه (٢/ ٣١١) وعنه البيهقي في سننه (٧/ ١٧٢)... كلهم من طريق معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير قال...
وقال الحاكم «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبي.
قلت: وفي ذلك نظر- فإن معاوية وأبا الزاهرية وجبير لم يخرج لهم البخاري».

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ٤٦)- باب فضل المائدة والأنعام (٤٤٧)... من طريق عبد الرحمن عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة قال... فذكره.
وذكر هذه الرواية السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٤٧)- بلفظ أتم من هذا - وعزاه للفريابي وأبي عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.
قلت: وأخرجه أيضًا سعيد بن منصور في تفسيره (٤/ ١٤٣٥/ ٧١١)- من طريق حديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة قال «آخر سورة أنزلت في القرآن، سورة المائدة، وإن فيها لسبع عشرة فريضة».
ولعل الرواية السابقة أرجح من رواية حديج، لأن حال إسرائيل في جده أبي إسحاق أحسن من حال حديج. كما قرر ذلك أئمة الجرح والتعديل.
قال أبو حاتم الرازي: إسرائيل ثقة متقن، من أتقن أصحاب أبي إسحاق.
وقال الترمذي: إسرائيل ثبت في أبي إسحاق.
راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٣٥٥/ ١٣٣).

وقد قيل: هم المشركون خاصة لأنهم المحتاجون إلى نهي المؤمنين عن إحلالهم دون المؤمنين، على أن حرمة إحلالهم ثبتت بطريق دلالة النص، ويؤيده أن الآية نزلت في الحطم بنِ ضبيعة البَكْري وقد كان أتى المدينة فخلّف خيلَه خارجها فدخل على النبي عليه الصلاة والسلام وحده ووعده أن يأتيَ بأصحابه فيُسلموا، ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسَرْح المدينة فاستاقه، فلما كان في العام القابل خرج من اليمامة حاجًا في حُجّاج بكرِ بنِ وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلّدوا الهدْي، فسأل المسلمون النبي ﷺ أن يُخلِّيَ بينهم وبينه فأباه النبي عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الآية[١].

وفُسِّر ابتغاءُ الفضل بطلب الرزق بالتجارة، وابتغاءُ الرضوان بأنهم كانوا يزعُمون أنهم على سدادٍ من ديْنهم، وأن الحج يقرّبهم إلى الله تعالى، فوصفهم الله تعالى بظنهم، وذلك الظنُّ الفاسد وإن كان بمعزل من استتباع رضوانِه تعالى لكن لا بُعدَ في كونه مدارًا لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية وخلاصِهم عن المكاره العاجلة لا سيما في ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره، وقال قتادة: هو أن يُصلح معايشَهم في الدنيا ولا يعجّلَ لهم العقوبة فيها، وقيل: هم المسلمون والمشركون، لما رُوي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما أن المسلمين والمشركين كانوا يحجّون جميعًا فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدًا عن حج البيت بقوله تعالى: ﴿لا تحلوا﴾ الآية، ثم نزل بعد ذلك، ﴿إنما المشركون نجس فلا يقرَبوا المسجد الحرام﴾ [التوبة، الآية ٢٨] وقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمُروا مساجد الله﴾ [التوبة، الآية ١٧].

وقال مجاهد والشعبي: ﴿لا تحلوا﴾ نُسخ بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة، الآية ٥] ولا ريب في تناول الآمّين للمشركين قطعًا، إما استقلالًا وإما اشتراكًا لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ولا يجرِمنَّكم شنَآنُ قوم﴾ إلخ، فيتعين النسخُ كُلاً أو بعضًا، ولا بد في الوجه الأخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين، فقيل: ابتغاء الفضل أي الرزق للمؤمنين والمشركين عامة، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة، ويجوز أن يكون الفضلُ على إطلاقه شاملًا للفضل الأخروي أيضًا، ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين.

﴿وإذا حَلَلْتم فاصطادوا﴾ تصريح بما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وأنتم حُرُم﴾ من

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٩) عن عكرمة وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص (١٢٥) عن ابن عباس نحوه.

انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجِبها، والأمر للإباحة بعد الحظر كأنه قيل: إذا حَلَلْتم فلا جُناح عليكم في الاصطياد، وقرئ[١] (أَحْللتم)، وهو لغة في حلَّ، وقرئ[٢] بكسر الفاء بإلقاءِ حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدًا.

﴿ولا يجْرِمَنَّكم﴾ نهَى عن إحلال قوم من الآمِّين خُصّوا به مع اندراجهم في النَّهْي عن إحلال[٣] الكلِّ كافة، لاستقلالهم بأمور ربما يُتوهَّم كونُها مُصحِّحةً لإحلالهم، داعيةً إليه. و(جَرَم) جارٍ مَجْرى (كَسَبَ) في المعنى وفي التعدِّي إلى مفعول واحد وإلى اثنين، يقال: جَرَم ذنبًا نحوُ كسبَه، وجرَمتُه ذنبًا نحو كَسَبْتُه إياه، خلا أن جَرَم يستعمل غالبًا في كسْبِ ما لا خير فيه، وهو السبب في إيثارِه هاهنا على الثاني. وقد يُنقل الأولُ من كلٍّ منهما بالهمزة إلى معنى الثاني، فيقال: أجرمته ذنبًا وأكسبته إياه، وعليه قراءة[٤] من قرأ (يُجرِمَنَّكم) بضم الياء **﴿شنَآنُ قوم﴾** بفَتْح النون وقرئ بسكونها، وكلاهما مصدرٌ أضيف إلى مفعوله، لا إلى فاعله كما قيل، وهو شدة البغض وغاية المقت.

﴿أن صدوكم﴾ متعلق بالشنآن بإضمار لام العلة أي لئن صدوكم عامَ الحُدَيْبية **﴿عن المسجد الحرام﴾** عن زيارته والطواف به للعمرة، وهذه آية بيّنةٌ في عموم (آمّين) للمشركين قطعًا، وقرئ[٥] (إنْ صدوكم) على أنه شرط معترضٌ أغنىٰ عن جوابه (لا يجرمنكم)، قد أبرز الصدَّ[٦] المحقّقَ فيما سبق في معرِض المفروض، للتوبيخ والتنبيه

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢١)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٢).

(٢) قرأ بها: أبو واقد، والجراح، ونبيح، والحسن بن عمران.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١١٩)، والبحر المحيط (٣/ ٤٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٢).

(٣) في خ: الإحلال.

(٤) قرأ بها: الأعمش، ويحيى بن وثاب، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٩٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٤٨٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٠)، والتبيان للطوسي (٣/ ٤٤٧)، وتفسير الطبري (٥/ ٤٨٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٦)، والمعاني للفراء (١/ ٢٩٩).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٩٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٢٢)، والتبيان للطوسي (٣/ ٤٤٧)، والتيسير للداني ص (٩٨)، وتفسير الطبري (٩/ ٤٨٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٢٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٠٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٠٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٥٢)، والمعاني للأخفش (١/ ٢٥١)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٦) في المخطوط: القدر.

على أن حقه ألا يكون وقوعُه إلا على سبيل الفرض.

والتقدير ﴿أن تعتدوا﴾ أي عليهم، وإنما حُذف تعويلًا على ظهوره وإيماءً إلى أن المقصِدَ الأصلي من النهْي منعُ صدورِ الاعتداء عن المخاطَبين محافظةً على تعظيم الشعائر، لا منعُ وقوعِه على القوم مراعاة لجانبهم، وهو ثاني مفعولَيْ (يجرمنكم)، أي لا يَكسِبَنَّكم شدةُ بغضِكم لهم، لصدهم إياكم عن المسجد الحرام، اعتداءَكم عليهم وانتقامَكم منهم للتشفّي، وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطَبين، لكنه في الحقيقة نهيٌ لهم عن الاعتداء على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤديةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني، وإبطالٌ للسببية، وقد يوجَّه النهيُ إلى المسبَّب ويراد النهيُ عن السبب كما في قوله: لا أُرَيَنَّك هاهنا. يريد به نهي مخاطِبَه عن الحضور لديه، ولعل تأخير هذا النهي عن قوله تعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ مع ظهور تعلقِه بما قبله للإيذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهي بالخروج عن الإحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به، بل هي باقية ما لم تنقطع علاقتُهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يُعلم بقاءُ حرمة التعرضِ لسائر الآمّين بالطريق الأَوْلى.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ لما كان الاعتداءُ غالبًا بطريق التظاهرُ والتعاون أُمروا إِثْرَ ما نُهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى، ومتابعةِ الأمر ومجانبةِ الهوى، فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو والإغضاءِ عما وقع منهم دخولًا أوليا، ثم نُهُوا عن التعاون في كل ما هو من مَقولة الظلم والمعاصي بقوله تعالى: ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فاندرج فيه النهيُ عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهاني، وأصل (لا تعاونوا) لا تتعاونوا فحذَفَ منه إحدى التاءين تخفيفًا، وإنما أَخَّر النهْي عن الأمر، مع تقدُّم التخلية على التحلية، مسارعةً إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات، فإن المقصود من إيجاب تركِ التعاونِ على الإثم والعدوان إنما هو تحصيلُ التعاون على البر والتقوى، ثم أُمروا بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ بالاتقاء في جميع الأمور التي من جملتها مخالفةُ ما ذُكر من الأوامر والنواهي، فثبت وجوبُ الاتقاءِ فيها بالطريق البرهاني.

ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إن الله شديد العقاب﴾ أي لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة إن لم تتقوه، وإظهارُ الاسم الجليل لما مرّ مرارًا من إدخال الرَّوْعة وتربية المهابةِ وتقويةِ استقلال الجملة ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ شروعٌ في بيان المُحرَّمات التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ والميتة ما فارقه الروحُ من غير ذبح ﴿والدم﴾ أي المسفوحُ منه لقوله تعالى: ﴿أو دمًا مسفوحًا﴾ وكان أهلُ الجاهلية

يصُبّونه في الأمعاء ويشْوونه، ويقولون: لم يُحرَّمْ مِنْ فَزْدٍ له أي من فصْدٍ له.

﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ أي رفعُ الصوت لغير الله عند ذبحِه، كقولهم: باسم اللات والعزى ﴿والمنخنقة﴾ أي التي ماتت بالخنق ﴿والموقوذة﴾ أي التي قُتلت بالضرب بالخشب ونحوِه، مِنْ وَقَذْتُه إذا ضربته ﴿والمتردّية﴾ أي التي تردّت مِنْ علوٍّ أو إلى بئرٍ فماتت ﴿والنطيحة﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح، والتاء للنقل، وقرئ[1] والمنطوحة.

﴿وما أكل السبع﴾ أي وما أكل منه السبُعُ فمات؛ وقرئ[2] بسكون الباء، وقرئ[3] وأكيلُ السبع، وفيه دليلٌ على أن جوارحَ الصيد إذا أكلت مما صادته لم يحِلّ[4] ﴿إلا ما

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبو ميسرة.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٢٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٢).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وأبو بكر، والحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان، وأبو حيوة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٤٨٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٢٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٥٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٤).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٢٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٥٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٥٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٥٤).

(٤) ذهب جمهور الفقهاء: المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه يشترط في الكلب المعلم أنه إذا أرسل أطاع وإذا زجر انزجر.
وأضاف الشافعية والحنابلة شرطا آخر، وهو أنه إذا أمسك لم يأكل، وذلك لقوله ﷺ: إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه.
ويشترط هذا في جارحة الطير - أيضا - عند الشافعية في الأظهر، قياسا على جارحة السباع، ولا يشترط هذا الشرط في جارحة الطير عند الحنابلة، وهو مقابل الأظهر عند الشافعية، لأنها لا تحتمل الضرب لتتعلم ترك الأكل، بخلاف الكلب ونحوه، ولقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا أكل الكلب فلا تأكل، وإن أكل الصقر فكل.
وإن شرب الكلب ونحوه دم الصيد ولم يأكل منه لم يحرم، كما صرح به الشافعية والحنابلة.
وأضاف الشافعية: أنه يشترط تكرر هذه الأمور المعتبرة في التعليم بحيث يظن تأدب الجارحة، ولا ينضبط ذلك بعدد، بل الرجوع في ذلك إلى أهل الخبرة بالجوارح.
ولو ظهر بما ذكر من الشروط كونه معلما، ثم أكل من لحم صيد لم يحل ذلك الصيد في الأظهر عندهم، فيشترط تعليم جديد.
وقال الحنابلة: لا يعتبر تكرار ترك الأكل، بل يحصل التعليم بترك الأكل مرة، لأنه تعلم صنعة أشبه سائر الصنائع، فإن أكل بعد تعليمه لم يحرم ما تقدم من صيده، لعموم الآية والأخبار، ولم يبح ما أكل منه، ولم يخرج بالأكل عن كونه معلما، فيباح ما صاده بعد الذي أكل منه.

=

ذكيتم﴾ إلا ما أدركتم ذَكاتَه وفيه بقيةُ حياةٍ يضطرِبُ اضطرابَ المذبوح. وقيل: الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذَكاةُ في الشرع بقطع الحُلقومِ والمَرِيء بمُحدَّد.

﴿وما ذبح على النصب﴾ قيل: هو مفردٌ، وقيل: جمع نِصاب، وقرئ[1] بسكون الصاد، وأيًا ما كان فهو واحد الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبةً حول البيت يَذبَحون عليها ويعدّون ذلك قُربة، وقيل: هي الأصنام **﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾** جمع زَلَم وهو القدح أي وحرم عليكم الاستقسام بالقِداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلًا ضربوا ثلاثة قداحٍ مكتوب على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وعلى الثالث غُفْل، فإنْ خرج الآمرُ مضَوا ذلك، وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه، وإن خرج الغافل أجالوها مرة أخرى، فمعنى الاستقسام طلبُ معرفةِ ما قُسِم لهم بالأزلام، وقيل: هو استقسامُ الجَزورِ بالأقداح على الأنْصِباء المعهودة.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، ومعنى البعد فيه للإشارة إلى بُعد منزلتِه في الشر **﴿فسق﴾** تمرّدٌ وخروجٌ عن الحد ودخولٌ في علم الغيب، وضلال باعتقاد أنه طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه إن كان هو المراد بقولهم ربي، وشركٌ وجهالة إن كان هو الصنم،

= وعند المالكية عصيان المعلم مرة لا يخرجه عن كونه معلما، كما لا يكون معلما بطاعته مرة، بل العرف في ذلك كاف.

وقال الدسوقي: إن شرط الانزجار غير معتبر في البازي، لأنه لا ينزجر بالزجر بل رجح بعضهم عدم اعتبار الانزجار مطلقا، لأن الجارح لا يرجع بعد استيلائه.

وقال الصاحبان من الحنفية: إن التعليم في الكلب ونحوه يكون بترك الأكل ثلاث مرات، وفي البازي ونحوه من الطيور بالرجوع إذا دعي، قال الزيلعي: روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وإنما شرط ترك الأكل ثلاث مرات؛ لأن تعلمه يعرف بتكرار التجارب والامتحان.

وعند أبي حنيفة لا يثبت التعلم ما لم يغلب على ظنه أنه قد تعلم، ولا يقدر بشيء، لأن المقادير تعرف بالنص لا بالاجتهاد. ولا نص هنا، فيفوض إلى رأي المبتلى به، كما هو دأبه، ولأن مدة التعلم تختلف بالحذاقة والبلادة، فلا يمكن معرفتها.

قال ابن عابدين: ظاهر الملتقى ترجيح عدم التقدير.

أما شرب الجارح دم الصيد فلا يضر عند الجميع.

ينظر: الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي (٢/ ١٠٣، ١٠٤)، وحاشية العدوي على شرح الرسالة (١/ ٥٢٠)، وحاشية البجيرمي على شرح المنهج (٤/ ٢٩٠)، ومغني المحتاج (٤/ ٢٧٥)، وكشاف القناع (٦/ ٢٢٣)، ومطالب أولي النهى (٦/ ٣٥٠)، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٦/ ٥١)، وابن عابدين (٥/ ٢٩٩)

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٢٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ٧٥).

وقيل: ذلكم إشارةٌ إلى تناول المحرَّماتِ المعدودةِ لأن معنى تحريمها تحريمُ تناولِها.

﴿اليومَ﴾ اللام للعَهْد، والمراد به الزمان الحاضرُ وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية وقيل: يومُ نزولِها، وقد نزلت بعد عصر[1] الجمعةِ يومَ عَرَفَةَ في حَجةِ الوداع والنبي ﷺ واقفٌ بعَرَفاتٍ على العضباء، فكادت عضُدُ الناقة تندق لثقلها فبرَكَت، وأيًّا ما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى: ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي من إبطالِه ورُجوعِكم عنه بتحليل هذه الخبائِثِ أو غيرِها، أو مِنْ أن يغلِبوكم عليه لِمَا شاهدوا من أن الله عز وجل وَفىٰ بوعدِه حيث أظهره على الدين كلِّه وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فلا تخشَوْهم﴾ أي أنْ يظهرَوا عليكم ﴿واخشَوْن﴾ أي وأخْلِصوا إليّ الخشية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيفِ على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. وتقديمُ الجار والمجرور للإيذان من أول الأمرِ بأن الإكمالَ لمنفعتهم ومصلحتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ألم نشرَحْ لك صدرك﴾ [الشرح، الآية ١] وعليكم في قوله تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ متعلِّقٌ بأتممت لا بنعمتي لأن المصدرَ لا يتقدم عليه معمولُه، وتقديمه على المفعول الصريح لما مرّ مراتٍ، أي أتممتُها بفتح مكةَ ودخولِها آمنين ظاهرين، وهدمِ منارِ الجاهلية ومناسكِها والنهْيِ عن حجِّ المشرك وطوافِ العُرْيان، أو بإكمال الدينِ والشرائع، أو بالهداية والتوفيق، قيل: معنى أتممت عليكم نعمتي أنجزتُ لكم وعدي بقولي: ﴿ولأتمَّ نعمتي عليكم﴾ [البقرة، الآية ١٥٠].

﴿ورضِيتُ لكم الإسلام دينًا﴾ أي اخترتُه لكم من بين الأديان وهو الدينُ عند الله لا غيرُ. عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذْنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أي آية؟ قال: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ الآية. قال عمر رضي الله تعالى عنه: قد عرفنا ذلك اليومَ والمكانَ الذي أنزلت فيه على النبي عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفَةَ يومَ الجمعة[2]، أشار رضي الله تعالى عنه إلى أن ذلك اليومَ عيدٌ لنا.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآيةُ بكىٰ عمرُ رضي الله تعالى عنه فقال له النبي عليه

---

(١) زاد في المخطوط: يوم.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٤١) كتاب الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢) كتاب التفسير، برقم (٣/ ٣٠١٧).

الصلاة والسلام: «ما يُبكيك يا عمر؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادةٍ من دينِنا، فإذا كَمَلَ فإنه لا يكملُ شيءٌ إلا نقَصَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «صدقت»[١] فكانت هذه الآيةُ نعْيَ رسولِ الله ﷺ، فما لبِثَ بعد ذلك إلا أحدًا وثمانين يومًا.

﴿فمن اضطُر﴾ متصلٌ بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراضٌ بما يوجبُ أن يُجتنَبَ عنه[٢]، وهو أن تناوُلَها فسوقٌ، وحرمتُها من جملة الدينِ الكاملِ والنعمةِ التامةِ والإسلامِ المَرْضِيِّ، أي فمن اضطُر إلى تناول شيءٍ من هذه المحرمات ﴿في مخمصةٍ﴾ أي في مجاعة يَخافُ معها الموتَ أو مبادِيَه ﴿غيرَ متجانفٍ لإثم﴾ قيل: غيرَ مائلٍ ومنحرفٍ إليه، بأن يأكُلَها تلذُّذًا أو مُجاوِزًا حدَّ الرُّخصة أو ينتزِعَها من مضطرٍ آخَرَ كقوله تعالى: ﴿غيرَ باغٍ ولا عادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣ والأنعام: ١٤٥ والنحل: ١١٥].

﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه بذلك.

﴿يسألونك ماذا أُحل لهم﴾ شروع في تفصيل المحلَّلاتِ التي ذَكَر بعضَها على وجه الإجمال إِثْرَ بيانِ المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادِها، ولِتَضَمُّنِ السؤال معنى القولِ أوقعُ على الجملة، فـ(ماذا) مبتدأ و(أحل لهم) خبرُه، وضميرُ الغَيْبَة لِمَا أنّ يسألون بلفظ الغيبة فإنه كما يُعتبرُ حالُ المحكيِّ عنه فيقال: أقسمَ زيدٌ لأفعلَنّ، يُعتبرُ حالُ الحاكي، فيقال: أقسمَ زيدٌ ليفعَلَنّ، والمسؤول ما أحل لهم من المطاعم.

﴿قل أُحِلَّ لكم الطيبات﴾ أي ما لم تستخبثْه الطّباعُ السليمة ولم تنفِرْ عنه كما في قوله تعالى: ﴿ويُحل لهم الطيباتِ ويحرِّمُ عليهم الخبائث﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ عطفٌ على الطيبات بتقدير المضاف على أن (ما) موصولٌ والعائد محذوف، أي وصيدُ ما علَّمتُموه، أو مبتدأ على أن (ما) شرطيةٌ والجوابُ فكلوا، وقد جوزَ كونها مبتدأً على تقديرِ كونِها موصولةً أيضًا والخبرُ كلوا، وإنما دخلته الفاء تشبيهًا للموصول باسم الشرط و(من الجوارح) حالٌ من الموصول أو ضميرِه المحذوف، والجوارحُ الكواسبُ من سباع البهائم والطير، وقيل: سميت بها لأنها تجرَحُ الصيدَ غالبًا.

﴿مكلِّبين﴾ أي معلِّمين لها الصيدَ والمكلِّبُ مؤدّبُ الجوارحِ ومُضْريها بالصيد، مشتقٌ من الكَلْب لأن التأديب كثيرًا ما يقع فيه، أو لأن كلَّ سبُع يسمى كَلْبًا لقوله عليه الصلاة والسلام في حق عُتبةَ بنِ أبي لهبٍ حين أراد سفرَ الشَّأم، فقال النبي عليه

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١/ ٣٧٢) برقم (٧٨٠).

(٢) في المخطوط: عنها.

الصلاة والسلام: «اللهم سلِّطْ عليه كلبًا من كلابك»[١] فأكلَه الأسد. وانتصابُه على الحالية من فاعلِ (علَّمتم) وفائدتُها المبالغةُ في التعليم لما أن اسم المكلِّب لا يقع إلا على التحرير في علمِه. وقرئ[٢] (مُكْلِبين) بالتخفيف والمعنى واحد **﴿تعلمونهن﴾** حال ثانية منه أو حالٌ من ضمير مكلِّبين أو استئناف **﴿مما علمكم الله﴾** من الحِيَل وطُرُق التعليم والتأديب، فإن العلمَ به إلهامٌ من الله تعالى أو مكتسَبٌ بالعقل الذي هو منحةٌ منه أو مما عرَّفَكم أن تعلموه من اتباعِ الصيدِ بإرسالِ صاحبِه وانزجارِه بزَجْرِه

---

(١) أخرجه الحاكم من مستدركه (٢/ ٥٣٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨) كلاهما من طريق العباس بن الفضل الأزرق، قال: حدثنا الأسود بن شيبان قال حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسب النبي ﷺ ويدعو عليه...».
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قال البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥/ ١٧) ذهب حديثه.
وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٦/ ٢١٣/ ١١٦٧) ذهب حديثه وترك أبو زرعة حديثه ولم يقرأه علينا...
وأورده الحاكم من رواية «العباس بن الفضل الأنصاري» فوهم كما قال الذهبي في الميزان (٢/ ٣٨٦) فالأنصاري غير الأزرق وكلاهما ضعيف.
وقال البيهقي في الدلائل: «عباس بن الفضل وليس بالقوى» لهب بن أبي لهب وأهل المغازي يقولون: عتبة بن أبي لهب وقال بعضهم: عتيبة. ا هـ.
وأخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبار بن الأسود به وساق قصة طويلة وابن إسحاق لم يسمع من عثمان بن عروة، فإسناده منقطع، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٣٥) (١٠٦٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣٨-٣٣٩) كلاهما من طريق أحمد بن المقدام ثنا زهير بن العلاء العبدي عن أبي عروبة عن قتادة ابن دعامة قال: تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عتيبة بن أبي لهب...
وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١-٢٢): رواه الطبراني هكذا مرسلًا، وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف.
وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠) عن معمر بن قتادة به مختصرًا، وأخرجه أيضا عن معمر عن عبد الله بن طاووس عن أبيه قال: قال النبي ﷺ «أما يخاف أن يسلط الله عليه كلبه»...
وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٥٠٣) (١٨٤٢٤) عن قتادة مرسلا وبالجملة فالحديث ورد من طرق مرسلة أو مقطوعة اللهم إلا طريق أبي عقرب لكن فيه من قد ضعف... وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٩): وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه.

(٢) قرأ بها: الحسن، وابن مسعود، وأبو رزين.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٩٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢١)، والبحر المحيط (٣/ ٤٢٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ٦٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٦٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٨).

وانصرافِه بدعائه وإمساكِ الصيد عليه وعدمِ أكلِه منه.

﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ قد مر فيما سبق أن هذه الجملةَ، على تقدير كونِ ما شرطيةً، جوابُ الشرط، وعلى تقدير كونِها موصولةً مرفوعةً على الابتداءِ خبرٌ لها، وأما على تقدير كونِها عطفًا على الطيبات فهي جُملةٌ متفرِّعةٌ على بيان حلِّ صيدِ الجوارح المُعْلَمة مبيِّنةٌ للمضاف المقدَّر الذي هو المعطوف، وبه يتعلق الإحلالُ حقيقةً، ومشيرةٌ إلى نتيجةِ التعليم وأثره، داخلةٌ تحت الأمر، فالفاء فيها كما في قوله: [البسيط]

أمرتُك الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرْتَ به ....[1]

ومِنْ تبعيضيةٌ لما أن البعضَ مما لا يتعلق به الأكلُ كالجلودِ والعظامِ والريش وغير ذلك، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ حذِفَ عائدُها و(على) متعلقة بأمسكن أي فكلوا بعض ما أمسَكْنه عليكم وهو الذي لم يأكُلْن منه، وأما ما أكلن منه فهو مما أمسَكْنه على أنفسِهن لقوله عليه الصلاة والسلام لعديٍّ بن حاتم: «وإن أكل منه فلا تأكل، إنما أمْسَكَ على نفسِهِ» وإليه ذهب أكثرُ الفقهاء.

وقال بعضُهم: لا يشترط عدمُ الأكل في سباعِ الطير لما أن تأديبَها إلى هذه الدرجة متعذِّر، وقال آخرون: لا يُشترط ذلك مطلقًا، وقد رُوي عن سَلمانَ وسعدِ بن أبي وقاص، وأبي هريرة، رضي الله تعالى عنهم أنه إذا أكل الكلبُ ثلثيه وبقيَ ثلثُه وقد ذكرتَ اسم الله عليه فكُل[2].

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... فقد تركتكَ ذا مال وذا نَشَبِ

والبيت لعمرو بن معدي كرب في ديوانه، ص (٦٣)، وخزانة الأدب (٩/ ١٢٤)، وشرح شواهد المغني، ص (٧٢٧)، والكتاب (١/ ٣٧)، ومغني اللبيب، ص (٣١٥)، ولخفاف بن ندبة في ديوانه، ص (١٢٦)، وللعباس بن مرداس في ديوانه، ص (١٣١)، ولأعشى طرود في المؤتلف والمختلف، ص (١٧)، وهو لأحد الأربعة السابقين أو لزرعة بن خفاف في خزانة الأدب (١/ ٣٣٩)، ولخفاف ابن ندبة أو للعباس بن مرداس في: شرح أبيات سيبويه (١/ ٢٥٠)، وبلا نسبة في: الأشباه والنظائر (٤/ ١٦)، وشرح شذور الذهب، ص (٤٧٧)، وشرح المفصل (٨/ ٥٠)، وكتاب اللامات، ص (١٣٩)، والمحتسب (١/ ٥١)، والمقتضب (٢/ ٣٦).

(٢) حديث سلمان وسعد بن أبي وقاص: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٧) كتاب الصيد والذبائح، باب: المعلم يأكل من الصيد الذي قد قتل، وعبد الرزاق في المصنف (٤/ ٤٧٤/ ٨٥١٨) كتاب المناسك، باب: الجارح يأكل، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٣٤) كتاب الصيد، باب: من رخص في أكله.. (١٩٥٨٩/ ١٩٥٩٠).

وأما أثر أبي هريرة فأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٣٤/ ١٩٥٩١) من طريق يزيد بن هارون قال: نا داود عن الشعبي عن أبي هريرة قال، فذكره.

﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضميرُ لما عَلَّمتم أي سمُّوا عليه عند إرسالِه، أو لِما أمسكنه، أي سموا عليه إذا أدركتم ذكاتَه ﴿واتقوا الله﴾ في شأن محرماته ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي سريعُ إتيانِ حسابه، أو سريعُ تمامِه، إذا شرَعَ فيه يتِمُّ في أقربِ ما يكون من الزمان، والمعنى على التقديرين أنه يؤاخِذُكم سريعًا في كل ما جل ودق، وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليلِ الحُكْم.

﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ قيل: المرادُ بالأيام الثلاثة وقتٌ واحدٌ، وإنما كرر للتأكيد، ولاختلافِ الأحداثِ الواقعةِ فيه حَسُنَ تكريرُه، والمراد بالطيبات ما مر ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اليهود والنصارى واستثنى عليٌّ رضي الله تعالى عنه نصارَى بني تغلِبَ، وقال: ليسوا على النصرانية، ولم يأخُذوا منها إلا شرْبَ الخمر[١]، وبه أخذ الشافعي[٢] رضي الله عنه، والمراد بطعامهم ما يتناولُ ذبائِحَهم وغيرَها.

---

(١) أخرجه الشافعي في المسند (٢/ ١٧٤/ ٦١٣)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٨٤) كتاب الضحايا، باب: ذبائح نصارى العرب من طريق الشافعي أنبأ الثقفي عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه أنه قال... ، وعبد الرزاق في المصنف (٤/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٨٥٧٠) من طريق أيوب عن ابن سيرين به.
وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٤٧٧/ ١٦١٩٣) من طريق سعيد عن أبي معشر عن إبراهيم عن علي أنه - فذكره- قلت: وهذا إسناد فيه نظر، فإن فيه انقطاعا بين إبراهيم النخعي وعلي.

(٢) ذبيحة أهل الكتاب حلال، سواء ذكروا اسم الله تعالى عليها أم لا؛ لظاهر القرآن العزيز.
وإلى هذا ذهب الشافعية وجمهور الفقهاء، وحكاه ابن المنذر عن على والنخعى وحماد ابن أبى سليمان وأبى حنيفة وأحمد، وإسحاق وغيرهم.
فإن ذبحوا على صنم أو غيره لم يحل.
قال ابن المنذر: وقال عطاء: إذا ذبح النصرانى على اسم عيسى فكل، قد علم الله أنه سيقول ذلك، وبه قال مجاهد ومكحول.
وقال أبو ثور: إذا سموا الله تعالى فكل وإن لم يسموه فلا تأكل، وحكى مثله عن على وابن عمر وعائشة.
قال ابن المنذر: واختلفوا في ذبائحهم لكنائسهم، فرخص فيه أبو الدرداء وأبو أمامة الباهلى والعرباض بن سارية والقاسم بن مخيمرة وحمزة بن حبيب وأبو مسلم الخولانى وعمرو بن الأسود، ومكحول وجبير بن نفير والليث بن سعد.
وكرهه ميمون بن مهران وحماد والنخعى ومالك والثورى والليث وأبو حنيفة وإسحاق وجمهور العلماء.
ينظر: المغني (٨/ ٥٦٧، ٥٦٨)، وحاشية الدسوقي (٢/ ١٠٢)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٩١ - ٣٩٦)، ونهاية المحتاج (٦/ ٢٨٤)، والقرطبي (٦/ ٧٩).
وعليه فالكلب إذا أرسل اتبع الصيد. وإذا أخذه أمسكه على صاحبه، ولا يأكل منه شيئا، حتى لو أخذ صيدا فأكل منه لا يؤكل عند الجمهور، بدليل قوله تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ إشارة إلى =

﴿حِلٌّ لكم﴾ أي حلال، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأسَ[(١)]، وهو قول عامة التابعين، وبه أخذ أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابُه، وحُكمُ الصابئين[(٢)] حكْمُ أهلِ الكتاب عنده. وقال صاحباه: هما

= أن حد تعليم الكلب وما هو في معناه هو الإمساك على صاحبه وترك الأكل منه، والكلب الذي يأكل إنما أمسك على نفسه لا على صاحبه، فكان فعله مضافا إليه لا إلى المرسل فلا يجوز أكله. واستدل لذلك بحديث عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال له: فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه.

وقال مالك وهو رواية عن أحمد: إن الإمساك ليس شرطا في تعليم الحيوان الذي يرسل إلى الصيد. فالحيوان المعلم هو الذي إذا أرسل أطاع وإذا زجر انزجر كما تقدم، لأن التعليم إنما شرط حالة الاصطياد وهي حالة الاتباع. أما الإمساك على صاحبه وترك الأكل فيكونان بعد الفراغ من الاصطياد فلا يشترطان.

ينظر: ابن عابدين (٥/ ٣٠٠)، والشرح الصغير (٢/ ١٦٢)، ونهاية المحتاج (٨/ ١١٤).

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٨٩) كتاب الذبائح (٢٤)، باب: ما يجوز من الزكاة في حال الضرورة - عن ثور بن زيد الديلمي عن عبد الله بن عباس: أنه سئل...

وهذا إسناد فيه نظر: فإن ثورًا لم يلق ابن عباس.

وأخرجه أيضا ابن أبي شيبة (٣/ ٤٧٧/ ١٦١٩٧)- من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس...

قلت: وهذا الإسناد ليس أحسن حالا من سابقه، فإن عطاء بن السائب مختلط، ولم يرو عنه قبل الاختلاط إلا شعبة وسفيان الثوري كما قرر ذلك أئمة الجرح والتعديل- راجع تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٦/ ٣٩٣٤).

(٢) يقول الشيخ الطاهر بن عاشور مبينًا المراد بالصابئين: «والأظهر عندي أن أصل كلمة الصابي أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق وفى دائرة المعارف الإسلامية أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو «ص ب ع» أى غطس عرفت به طائفة «المنديا» وهي طائفة نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى... وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق وانتشر معظم أتباعه فيما بين الخابور ودجلة وفيما بين الخابور والفرات فكانوا في الطبائح وكسكر في سواد واسط وفى حران في بلاد الجزيرة. وكان أهل هذا الدين نبطا في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم... وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي وهم يؤمنون بخالق العلم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث غير أنهم قالوا إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب».

وكل هذا يثبت أن هؤلاء كانوا أتباع دين سماوي منزل من السماء وأنهم حرفوا دينهم كما فعل اليهود والنصارى ولذلك وعد الله عز وجل المؤمنين منهم فقط بالله واليوم الآخر والذين عملوا =

صنفان، صنفٌ يقرؤون الزَّبورَ ويعبُدون الملائكة عليهم السلام، وصنفٌ لا يقرؤون كتابًا، ويعبُدون النجوم، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوسُ فقد سُنَّ بهم سُنة أهلِ الكتاب في أخذ الجزيةِ منهم دون أكل ذبائحهم ونكاحِ نسائهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سُنوا بهم سُنّةَ أهلِ الكتاب غيرَ ناكِحِي نسائِهم»[1].

﴿وطعامكم حل لهم﴾ فلا عليكم أن تُطعِموهم وتَبيعوه منهم، ولو حُرِّم عليهم لم يجز ذلك.

﴿والمحصناتُ من المؤمنات﴾ رفع على أنه مبتدأ حُذف خبرُه لدلالةِ ما تقدم عليه أي حِلٌّ لكم أيضًا، والمرادُ بهن الحرائرُ العفائِف، وتخصيصُهن بالذكر للبعث على ما هو الأَوْلى لا لنَفْيِ ما عداهن، فإن نكاحَ الإماءِ المسلماتِ صحيحٌ بالاتفاق، وكذا

= الصالحات بأن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون.
ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٥٣٣) وما بعدها.
قال الشافعي وجمهور أصحابه: إن وافقت الصابئون النصارى، في أصول العقائد حلت ذبائحهم، ومناكحتهم وإلا فلا.
وقال إسحاق بن راهويه: لا بأس بذبائح أهل الصابئين؛ لأنهم أهل كتاب.
وقال ابن عباس ومجاهد وأبو يوسف: لا يحل.
قال ابن المنذر: وأما الصابئون فلا تحل ذبائحهم؛ لأن الله تعالى عطفهم على اليهود والنصارى بالواو.

(١) أخرج طرفه الأول بدون استثناء مالك (١/ ٢٧٨) كتاب الزكاة، باب: جزية أهل الكتاب والمجوس حديث (٤٢)، والشافعي (٢/ ١٣٠) كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الجزية، حديث (٤٣٠)، وعبد الرزاق (٦/ ٦٨، ٦٩) كتاب أهل الكتاب، باب: أخذ الجزية من المجوس، حديث (١٠٠٢٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٢٤٣) كتاب الجهاد، باب: ما قالوا في المجوس تكون عليهم جزية، حديث (١٢٦٩٦)، وأبو عبيد في الأموال ص (٤٠) حديث (٧٨)، والبيهقي (٩/ ١٨٩، ١٩٠) كتاب الجزية، باب: المجوس أهل كتاب والجزية تؤخذ منهم، وأبو يعلى (٢/ ١٦٨) رقم (٨٦٢) كلهم من حديث جعفر بن محمد عن أبيه، أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب». وفي تنوير الحوالك (١/ ٢٠٧) قال ابن عبد البر: هذا حديث منقطع فإن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمن بن عوف. وأخرج طرفه الآخر: عبد الرزاق (١٠٠٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٩٢) من طريق سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن علي قال: كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام فمن أسلم قبل منه، ومن أبى ضربت الجزية على ألا تؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح لهم امرأة. وقال البيهقي: هذا مرسل وإجماع المسلمين عليه يؤكده. وتبعه الحافظ في تلخيص الحبير (٢/ ٣٥٤) وقال: في إسناده قيس بن الربيع وهو ضعيف، قلت: وهذا وهم وإنما هو قيس بن مسلم كما تقدم، وزاد في المخطوط: ولا آكلي ذبائحهم.

نكاحُ غيرِ العفائِفِ منهن، وأما الإماءُ الكتابياتُ فهن كالمسلمات عند أبي حنيفة رضي الله عنه، خلافًا للشافعي رضي الله عنه.

﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ أي هن أيضًا حل لكم، وإن كنّ حَرْبيات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لا تَحِلُّ الحربيات»[١].

﴿**إذا آتيتُموهن أجورهن**﴾ أي مُهورَهن، وتقييد الحِلِّ بإيتائِها لتأكيد وجوبها، والحثِّ على الأولى، وقيل: المرادُ بإيتائها التزامُها، وإذا ظرفيةٌ عاملُها حَلَّ المحذوف، وقيل: شرطية حُذِف جوابُها، أي إذا آتيتموهن أجورهن حَلَلْنَ لكم ﴿**محصِنين**﴾ حال من فاعل آتيتموهن أي حال كونِكم أعفّاءَ بالنكاح وكذا قوله تعالى: ﴿**غيرَ مسافحين**﴾ وقيل: حال من ضمير محصنين، وقيل: صفة لمحصِنين، أي غيرَ مجاهِرين بالزنا.

﴿**ولا متخذي أخدانٍ**﴾ أي ولا مُسرِّين به والخِدْنُ الصديق يقع على الذكر والأنثى، وهو إما مجرورٌ عطفًا على مسافحين وزِيدت لا لتأكيد النفي المستفادِ من غير، أو منصوبٌ عطفًا على (غير مسافحين) باعتبار أوجُهِهِ الثلاثة.

﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ أي ومن ينكرْ شرائعَ الإسلام التي من جملتها ما بُيِّن هاهنا من الأحكام المتعلقة بالحِلِّ والحرمة، ويمتنعْ عن قَبولها ﴿**فقد حبِط عملُه**﴾ الصالح الذي عمِلَه قبل ذلك ﴿**وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ هو مبتدأ (من الخاسرين) خبرُه، و(في) متعلِّقةٌ بما تعلق به الخبرُ من الكون المطلق، وقيل: بمحذوف دل عليه المذكورُ أي خاسر في الآخرة، وقيل: بالخاسرين على أن الألف واللام للتعريف لا موصولة، لأن ما بعدها لا يعمل في ما قبلها، وقيل: يُغتفرُ في الظرف ما لا يغتفر في غيره كما في قوله: [الرجز]

ربَّيْتُه حتى إذا تَمَعْددا كان جزائي بالعَصا أن أُجْلدا[٢]

---

(١) لم أقف عليه، وبمعناه أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ٥٨٨) برقم (١١٢٨٥) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الرجز للعجاج في ملحق ديوانه (٢/ ٢٨١)، وخزانة الأدب (٨/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢)، والدرر (١/ ٢٩٢، ٢/ ٥٠)، والمحتسب (٢/ ٣١٠)، وبلا نسبة في تاج العروس (عدد)، (معد)، وأساس البلاغة (معد)، والأشباه والنظائر (٨/ ١٤٢)، والدرر (٤/ ٥٩)، وشرح شافية ابن الحاجب (٢/ ٣٣٦)، وشرح المفصل (٩/ ١٥١)، واللامات ص(٥٩)، والمنصف (١/ ١٢٩)، وهمع الهوامع (١/ ٨٨، ١١٢، ٢/ ٣)، ولسان العرب (عدد)، (معد)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٦٠)، وجمهرة اللغة ص(٦٦٥)، والمخصص (١٤/ ١٧٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروعٌ في بيان الشرائع المتعلقةِ بدِينهم بعد بيانِ ما يتعلقُ بدنياهم ﴿**إذا قمتم إلى الصَّلاة**﴾ أي[1] أردتم القيامَ إليها كما في قوله تعالى: ﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعِذْ بالله﴾ [النحل، الآية: ٩٨] عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبَّبِ[2] عنها مَجازًا للإيجاز، والتنبيه على أن من أراد الصلاةَ حقُّه أن يبادِرَ إليها بحيث لا ينفك عن إرادتها، أو إذا قصدتم الصلاةَ إطلاقًا لاسمِ أحدِ لازميها على لازِمها الآخَرِ، وظاهرُ الآية الكريمةِ يوجبُ الوضوءَ على كل قائم إليها وإن لم يكنْ محدِثًا، لما أن الأمرَ للوجوب قطعًا، والإجماعُ على خلافِه، وقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى الصلواتِ الخمسَ يومَ الفتح بوُضوءٍ واحد، فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: صنعتَ شيئًا لم تكنْ تصنَعُه، فقال عليه الصلاة والسلام: «عمدًا فعلتُه يا عمر»[3] يعني بيانًا للجواز، وحُمل الأمرُ بالنسبة إلى غيرِ المحدثِ على الندب مما لا

---

(١) زاد في المخطوط: إذا.

(٢) إشارة إلى أن الآية من قبيل المجاز المرسل، بعلاقة المسببية، وهي أشهر علاقات المجاز المرسل، وإنما كانت مجازًا؛ لأن القيام مسبب عن عزم وإرادة، وقد تعدى بـ «إلى» لتضمنه معنى عمدتم إلى أن تصلُّوا، والمجاز هنا يبرز قوة العلاقة بين السبب والمسبب.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠) وما بعدها، والإشارات والتنبيهات (٢٠٣) وما بعدها.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٢٣١) كتاب الطهارة، باب: جواز الصلوات كلها بوضوء واحد، برقم (٨٦/ ٢٧٧).

مَساغَ له، فالوجهُ أن الخِطابَ خاصٌّ بالمُحْدِثين بقرينةِ دَلالةِ الحال، واشتراطِ الحدَثِ في التيمم الذي هو بدلُه، وما نُقل عن النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضّؤون لكل صلاةٍ فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوبِ أصلًا، كيف لا وما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام من قوله: «من توضَّأ على طُهْرٍ كتبَ الله له عشرَ حسنات»[١] صريحٌ في أن ذلك كان منهم بطريق الندب، وما قيل من أنه كان ذلك أولَ الأمرِ ثم نُسخ يردُّه قوله عليه الصلاة والسلام: «المائدةُ من آخِرِ القرآن نزولًا فأحِلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها»[٢] ﴿فاغسِلوا وجوهكم﴾ أي أمِرُّوا عليها الماء، ولا حاجةَ إلى الدلك خلافًا لمالك ﴿وأيديَكم إلى المرافق﴾ الجمهورُ على دخول المِرْفَقَين في المغسول، ولذلك قيل: (إلى) بمعنى مَعَ كما في قوله تعالى: ﴿ويزِدْكم قوةً إلى قوتكم﴾ [هود، الآية ٥٢].

وقيل: هي إنما تُفيد معنى الغاية مطلقًا، وأما دخولُها في الحُكْم أو خروجُها منه فلا دلالة لها عليه، وإنما هو أمرٌ يدور على الدليلِ الخارجي، كما في حفِظْتُ القرآنَ من أولِه إلى آخِرِه، وقوله تعالى: ﴿فنظِرَةٌ إلى ميْسَرَةٍ﴾ [البقرة، الآية ٢٨٠] فإن الدخولَ في الأول والخروجَ في الثاني مُتيقَّنٌ بناءً على تحقُّق الدليل، وحيث لم يتحققْ ذلك في الآية وكانت الأيدي متناوِلةً للمرافِقِ حُكِمَ بدخولها فيها احتياطًا.

وقيل: (إلى) من حيث إفادتُها للغاية تقتضي خروجَها، لكن لما لم تتميَّزِ الغايةُ هاهنا عن ذي الغايةِ وجبَ إدخالُها احتياطيا.

﴿وامسحوا برءوسكم﴾ الباءُ مزيدةٌ وقيل: للتبعيض، فإنه الفارقُ بين قولِك مسَحْتُ المِنْديلَ ومسحتُ بالمنديل، وتحقيقُه أنها تدل على تضمينِ الفعل معنى الإلصاق، فكأنه قيل: وألصِقوا المسحَ برؤوسِكم، وذلك لا يقتضي الاستيعابَ كما

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١٦) كتاب الطهارة، باب: الرجل يجدد الوضوء من غير حدث (٦٢) والترمذي (١/ ٨٧) كتاب الطهارة، باب: ما جاء في الوضوء لكل صلاة (٥٩) وقال: إسناد ضعيف، وابن ماجه (١/ ١٧١) كتاب الطهارة وسننها، باب: الوضوء على الطهارة (٧٣) (٥١٢) وذكر فيه قصة. كلهم من طريق عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن أبي غطيف الهذلي قال... وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٥٢/ ٨٥٠)... وقال: اسم الإفريقي عبد الرحمن بن زياد.
قال أحمد: نحن لا نروي عنه شيئًا. وقال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال ابن حبان: يروى الموضوعات عن الثقات ويدلس، والحديث أخرجه أيضًا البيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٦٢)، وابن جرير في تفسيره (٤/ ٤٥٥/ ١١٣٤٠).
(٢) تقدم تخريجه.

يقتضيه ما لو قيل: وامسحُوا رؤوسَكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فاغسِلوا وجوهَكم﴾ واختلف العلماء في القدر الواجب[(١)]، فأوجب الشافعيُّ أقلَّ ما ينطلِقُ عليه الاسمُ أخذًا باليقين، وأبو حنيفةَ ببيانِ رسول الله ﷺ حيث مسح على ناصيته وقدَّرها برُبُع الرأس، ومالكٌ مسَحَ الكُلَّ أخذًا بالاحتياط ﴿وأرجلَكم إلى الكعبين﴾ بالنْصب عطفًا على (وجوهَكم)، ويؤيده السنةُ الشائعةُ وعَمَلُ الصحابةِ وقولُ أكثرِ الأئمةِ والتحديدُ، إذِ المسْحُ لم يُعهَدْ محدودًا.

وقرئ[(٢)] بالجرِّ على الجِوار، ونظيرُه في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿عذاب يومٍ أليمٍ﴾ [هود، الآية ٢٦] ونظائرِه، وللنحاة في ذلك بابٌ مفرَدٌ، وفائدتُه التنبيهُ على أنه ينبغي أن يقتصِدَ في صبِّ الماء عليها ويغسِلَها غسلًا قريبًا من المسح، وفي الفصل بينه وبين أخواتِه إيماءٌ إلى أفضلية الترتيب.

وقرئ[(٣)] بالرفع أي وأرجلُكم مغسولةٌ ﴿وإن كنتم جنبًا فاطهَّروا﴾ أي فاغتسِلوا.

---

(١) اختلف الفقهاء في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس.
فقال الشافعي يكفى أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة. وقال مالك يجب مسح الكل أخذا بالاحتياط. روى أن رسول الله ﷺ توضأ ومسح على ناصيته.
واختلفت الحنفية في المقدار المجزئ في مسح الرأس على روايات متعددة:
الأولى: مقداره ربع الرأس، وهي الرواية المشهورة في المذهب، وهو قول زفر.
الثانية: مقداره ثلاثة أصابع، وهي ظاهر الرواية، وقول محمد.
الثالثة: مقدار الناصية، وهي أقل من الربع، وهي اختيار القدوري، والطحاوي، والكرخي.
والمعتمد في المذهب: هي رواية الربع، وأخذ بها المتأخرون كابن الهمام وابن أمير الحاج.
ينظر: رد المحتار على الدر المختار (١/ ٩٩)، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/ ٤)، وتحفة الفقهاء (١/ ٩).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر، وأنس، وعكرمة، وابن عباس، والشعبي، والباقر، وقتادة، وعلقمة، والضحاك، ومجاهد، وأبو جعفر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٤٨٥)، والبحر المحيط (٣/ ٤٣٧)، والتبيان للطوسي (٣/ ٤٤٧)، والتيسير للداني ص (٩٨)، وتفسير الطبري (١٠/ ٦٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٩١)، والحجة لابن خالويه ص (١٢٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٢، ٢٤٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٦٣)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٦٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٣) قرأ بها: الحسن، والوليد بن مسلم، وسليمان الأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٩٨)، والبحر المحيط (٣/ ٤٣٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٩١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٨).

وقرئ[١] (فأطْهِروا) أي فطهِّروا أبدانَكم وفي تعليق الأمرِ بالطهارة الكبرى بالحدثِ الأكبر إشارةٌ إلى اشتراط الأمر بالطهارةِ الصغرى بالحدث الأصغر.

﴿وإن كنتم مَرْضَى﴾ مرضًا يُخاف به الهلاكُ أو ازديادُه باستعمال الماء **﴿أو على سفر﴾** أي مستقرِّين عليه **﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساءَ فلم تجدوا ماء فتيمَّمُوا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾** مِنْ لابتداء الغاية، وقيل: للتبعيض، وهي متعلقةٌ بـ (امسحوا).

وقرئ[٢] (فأمُّوا) (صعيدًا) وقد مر تفسيرُ الآية الكريمة مشبَعًا في سورة النساء فليرجَعْ إليه، ولعل التكريرَ ليتّصِلَ الكلامُ في أنواع الطهارة **﴿ما يريدُ الله﴾** أي ما يريد بالأمرِ بالطهارة للصلاةِ أو بالأمرِ بالتيمم **﴿ليجعَلَ عليكم من حرجٍ﴾** من ضيقٍ في الامتثال به.

﴿ولكن يريد﴾ ما يريد بذلك **﴿ليُطهرَكم﴾** أي ليُنظِّفَكم أو ليطهِّرَكم عن الذنوب، فإن الوضوءَ مكفِّرٌ لها، أو ليطهرَكم بالتراب إذا أعْوَزَكم التطَهُّر بالماء، فمفعولُ (يريد) في الموضعين محذوفٌ، واللام للعلة، وقيل: مزيدة، والمعنى ما يريد الله أن يجعلَ عليكم من حرجٍ في باب الطهارة حتى لا يُرَخِّصَ لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم بالترابِ إذا أعوزكم التطهّرُ بالماء **﴿وليتم﴾** بشرعه ما هو مُطَهِّرَةٌ لأبدانكم ومُكفِّرةٌ لذنوبكم **﴿نعمتَه عليكم﴾** في الدين، أو ليُتم برُخَصِه إنعامَه عليكم بعزائمِه **﴿لعلكم تشكرون﴾** نعمته.

ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملةٌ على سبعةِ أمور كلُّها مثنى، طهارتانِ: أصلٌ وبدلٌ، والأصلُ اثنان: مستوعَبٌ وغيرُ مستوعبٍ، وغيرُ المستوعَبِ باعتبار الفعل غسلٌ ومسح، وباعتبار المحلِّ محدودٌ وغيرُ محدود، وأن آلتَهما مائعٌ وجامِد، وموجِبُهما حدثٌ أصغرُ وأكبرُ، وأن المبيحَ للعُدول إلى البدلِ مَرَضٌ وسفر، وأن الموعودَ عليهما تطهيرُ الذنوب وإتمامُ النعمة **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾** بالإسلام لتُذكِّرَكم المنعِمَ وتُرغِّبَكم في شكره **﴿وميثاقَه الذي واثقكم به﴾** أي عهدَه المؤكَّدَ الذي أخذه عليكم وقوله تعالى: **﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾** ظرفٌ لـ (واثقكم به)، أو لمحذوفٍ وقع حالًا من الضمير المجرور في به، أو مِنْ ميثاقه، أي كائنًا وقت قولِكم سمعنا وأطعنا، وفائدةُ التقييدِ به تأكيدُ وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٣٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٦).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٦).

بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسولُ الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة في حال العُسر واليُسر والمنشَطِ[1] والمَكْره، وقيل: هو الميثاقُ الواقعُ ليلةَ العقبة وفي بَيْعةِ الرضوان، وإضافتُه إليه مع صدورِه عنه عليه الصلاة والسلام، لكنّ[2] المرجِعَ إليه كما نطق به قولُه تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح، الآية ١٠].

وقال مجاهد: هو الميثاقُ الذي أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صُلْب آدمَ عليه السلام[3] ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في نِسيان نعمتِه ونقضِ ميثاقِه، أو في كلِّ ما تأتون وما تذرون، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوليًّا ﴿**إن الله عليم بذات الصدور**﴾ أي بخفيّاتِها الملابِسةِ لها ملابَسةً تامة مصحِّحة لإطلاق الصاحبِ عليها فيجازيكم عليها، فما ظنُّكم بجَلِيَّاتِ الأعمال، والجُملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ وتعليلٌ للأمر بالاتقاءِ، وإظهارُ الاسمِ الجليل في موقعِ الإضمار لتربيةِ المهابة وتعليلِ الحُكْم وتقويةِ استقلال الجملة.

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ شروعٌ في بيان الشرائع المتعلقةِ بما يجري بينهم وبين غيرِهم إثْرَ بيانِ ما يتعلق بأنفسهم ﴿**كونوا قوامين لله**﴾ مقيمين لأوامره ممتثلين لها معظِّمين لها مراعين لحقوقها ﴿**شهداءَ بالقسط**﴾ أي بالعدل ﴿**ولا يجرمنكم**﴾ أي لا يحمِلَنَّكم ﴿**شنآنُ قوم**﴾ أي شدةُ بغضِكم لهم ﴿**على ألا تعدلوا**﴾ فلا تشهَدوا في حقوقهم بالعدل؛ أو فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحِلُّ كَمُثْلةٍ وقَذْفٍ وقتلِ نساءٍ وصِبْيةٍ ونقضِ عهدٍ تشفيا وغيرِ ذلك.

﴿**اعدِلوا هو**﴾ أي العدلُ ﴿**أقرب للتقوى**﴾ الذي أمرتم به، صرح لهم بالأمر بالعدل وبيّن أنه بمكانٍ من التقوى بعد ما نهاهم عن الجَوْر، وبيَّن أنه مُقتضىٰ الهوى، وإذا كان وجوبُ العدل في حق الكفار بهذه المثابة فما ظنُّك بوجوبه في حق المسلمين ﴿**واتقوا الله**﴾ أمرَ بالتقوى إثْرَ ما بين أن العدلَ أقربُ له اعتناءً بشأنه وتنبيهًا على أنه ملاكُ الأمر ﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾ من الأعمال فيجازيكم بذلك؛ وتكريرُ هذا الحُكم إما لاختلاف السببِ، كما قيل إن الأولَ نزل في المشركين وهذا في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاءِ ثائرةِ الغيظ؛ والجملة تعليلٌ لما قبلها وإظهارُ الجلالة لما مرَّ مرات.

---

(١) المنْشَط: الأمر الذي تنشط له وتخفُّ إليه وتؤثر فعله، وهو ضد المَكْرَه.
(٢) في المخطوط: لكون.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٩٢) برقم (١١٥٥٤).

وحيث كان مضمونُها منبئًا عن الوعد والوعيد عقَّب بالوعد لمن يُحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يُخِلُّ بها فقيل: ﴿**وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ التي من جملتها العدل والتقوى. ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ حُذفَ ثانِي مفعولي وَعَدَ استغناءً عنه بهذه الجملة، فإنه استئنافٌ مبيِّنٌ له؛ وقيل: الجملةُ في موقع المفعول، فإن الوعدَ ضربٌ من القول، فكأنه قيل: وعدَهم هذا القولَ ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا**﴾ التي من جملتها ما تُلِيَ من النصوص الناطقة بالأمر بالعدل والتقوى.

﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بما ذُكر من الكفر وتكذيبِ الآيات ﴿**أصحاب الجحيم**﴾ ملابسوها ملابَسةً مؤبَّدة. من السُنة السنية القرآنية شفْعُ الوعدِ بالوعيد، والجمعُ بين الترغيب والترهيب، إيفاءً لحق الدعوة بالتبشير والإنذار ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ تذكيرٌ لنعمة الإنجاءِ من الشرِّ إثرَ تذكيرِ نعمةِ إيصالِ الخير الذي هو نعمةُ الإسلام وما يتبَعُها من الميثاق، وعليكم متعلِّقٌ بنعمة الله، أو بمحذوفٍ وقع حالًا منها وقوله تعالى: ﴿**إذ همّ قومٌ**﴾ على الأول ظرفٌ لنفس النعمة، وعلى الثاني لِما تعلَّق به عليكم، ولا سبيلَ إلى كونه ظرفًا لاذْكُروا لتنافي زمانَيْهما، أي اذكروا إنعامه تعالى عليكم، أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم في وقت همِّهم.

﴿**أن يبسُطوا إليكم أيديَهم**﴾ أي بأن يبطِشوا بكم بالقتل والإهلاك، يقال: بسَطَ إليه يدَه، وبسط إليه لسانَه إذا شتمه، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوعِ ضررِ البسطِ وغائلتِه إليهم، حملًا لهم من أول الأمرِ على الاعتداد بنعمةِ دفعِه، كما أنَ تقديم (لكم) في قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ [البقرة، الآية ٢٩] للمبادرة إلى بيان كونِ المخلوق من منافِعِهم تعجيلًا للمَسرّة.

﴿**فكف أيديَهم عنكم**﴾ عطفٌ على هم، وهو النعمة التي أُريد تذكيرُها، وذكرًا لهم للإيذان بوقوعها عند مزيد الحاجةِ إليها، والفاءُ للتعقيب المفيدِ لتمام النعمة وكمالِها، وإظهارُ (أيديهم) في موقع الإضمار لزيادة التقرير، أي منَعَ أيديَهم أن تُمدَّ إليكم عقيب همِّهم بذلك، لا أنه كفها عنكم بعد ما مدُّوها إليكم.

وفيه من الدلالة على كمالِ النعمة من حيثُ إنها لم تكن مشوبةً بضَرَر الخوف والانزعاجِ الذي قلما يعْرَى عنه الكفُّ بعد المد ما لا يخفى مكانُه، وذلك (ما رُوي أن المشركين لما رأوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه بعُسْفانَ[1] في غزوة ذي أنمار، وهي

(١) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة، وقد غزا النبي فيها بني لحيان (معجم البلدان).

غزوةُ ذاتِ الرِّقاع[١] وهي السابعةُ من مغازيه عليه الصلاة والسلام، قاموا إلى الظهر معًا فلما صلَّوْا ندِمَ المشركون ألا كانوا قد أكبُّوا عليهم، فقالوا إن لهم بعدها صلاةً هي أحبُّ إليهم من آبائهم وأبنائِهم يعنون صلاةَ العصر، وهمُّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها، فرد الله تعالى كيدَهم بأن أنزلَ صلاةَ الخوف)[٢]، وقيل: (هو ما رُوي أن رسولَ الله ﷺ أتىٰ بني قُرَيْظَةَ ومعه الشيخانِ وعليٌّ رضي الله تعالى عنهم، يستقرِضُهم لدِيَةِ مسلمَيْن قتلهما عمْرُو بنُ أميةَ الضَّمْريُّ خطأً يحسَبُهما مشرِكَيْن، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلِسْ حتى نُطعِمَك ونعطِيك ما سألت، فأجلسوه في صُفَّةٍ وهمّوا بالفتك به، وعمَد عمرُو بنُ جِحاش إلى رَحا عظيمةٍ يطرَحُها عليه فأمسك الله تعالى يده، ونزل جبريلُ عليه السلام فأخبره، فخرج عليه الصلاة والسلام)[٣].

وقيل: (هو ما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام، نزل منزِلًا وتفرّق أصحابُه في العِضاة يستظلون بها، فعلّق رسولُ الله ﷺ سيفَه بشجرة، فجاء أعرابيٌّ فأخذه وسله فقال: مَنْ يمنعُك منيِّ، فقال ﷺ: «الله تعالى» فأسقطه جبريلُ عليه السلام من يده، فأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «من يمنعك مني» فقال: لا أحدَ، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله)[٤].

﴿واتقوا الله﴾ عطفٌ على (اذكُروا) أي اتقوه في رعاية حقوقِ نعمتِه ولا تُخِلُّوا بشكرِها أو في كلِّ ما تأتون وما تذرون، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوليًّا ﴿وعلى الله﴾ أي عليه تعالى خاصةً دون غيرِه استقلالًا واشتركًا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه يكفيهم

---

(١) وهي أيضاً غزوة محارب، وغزوة بني ثعلبة، وغزوة صلاة الخوف وغزوة الأعاجيب. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٣/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٥٧/ ١٠٣٧٨).
والحديث أصله في صحيح مسلم (٣/ ٨٧، ٣٨٨)- كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٦) باب صلاة الخوف (٥٧) (٣٠٨) من طريق أبي الزبير عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ والنسائي (٣/ ١٧٤)- كتاب صلاة الخوف- حديث رقم (١٥٤٤) من طريق عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه.

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٣٨، ٣٤٠) - باب غزوة بئر معونة وذكره ابن هشام في غزوة بني النضير (٣/ ١٧٠/ ١٣٠٨)، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (٣٦٩)، باب: المغازي من طريق سليمان بن أحمد ثنا ابن سهل عن عبد الغني بن سعيد ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٩٤) كتاب الجهاد والسير (٥٦) باب: من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٨٤) (٢٩١٠).

في إيصال كلِّ خيرٍ ودفع كل شر، والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبله، وإيثارُ صيغة أمْرِ الغائبِ وإسنادُها إلى المؤمنين لإيجابِ التوكل على المخاطَبين بالطريق البرهاني، وللإيذان بأن ما وُصفوا به عند الخطابِ من وصف الإيمان داعٍ إلى ما أُمروا به من التوكل والتقوى، وازعٌ عن الإخلال بهما، وإظهارُ الاسم الجليل في موقع[1] الإضمار لتعليل الحُكْمِ وتقوية استقلالِ الجملة التذييلية.

خيانات بني إسرائيل

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ

(١) في المخطوط: موضع.

وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ كلامٌ مستأنفٌ مشتمِلٌ على ذكر بعضِ ما صدَر عن بني إسرائيلَ من الخِيانة ونقضِ الميثاق وما أدى إليه ذلك من التّبِعاتِ، مَسوقٌ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمةِ الله تعالى ومراعاةِ حقِّ الميثاقِ الذي واثقهم به، وتحذيرِهم من نقضِه، أو لتقرير ما ذُكر من الهم بالبطش وتحقيقِه، على تقدير كون ذلك من بني قريظة حسْبما مرّ من الرواية ببيان أن الغدرَ والخيانة عادةٌ لهم قديمةٌ توارثوها من أسلافهم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابةِ وتفخيم الميثاق وتهويلِ الخطبِ في نقضه، مع ما فيه من رعايةِ حقِّ الاستئنافِ المستدعي للانقطاع عما قبله.

والالتفاتُ في قوله تعالى: **﴿وبعثنا منهم اثني عشرَ نقيبًا﴾** للجري على سَننِ الكِبْرِياء، أو لأن البعثَ كان بواسطةِ موسى عليه السلام كما سيأتي، وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مرّ مرارًا من الاهتمامِ بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، والنقيبُ فعيل بمعنى فاعل مشتقٌ من النَّقْب، وهو التفتيش، ومنه قوله تعالى: ﴿فنقَّبوا في البلاد﴾ [سورة ق، الآية ٣٦] سُمِّيَ بذلك لتفتيشِه عن أحوال القومِ وأسرارِهم. قال الزجاجُ: وأصله من النقْب وهو الثقب الواسع. رُوي (أن بني إسرائيلَ لما استقروا بمصْرَ بعد مَهْلِكِ فرعونَ أمرهم الله عز وجل بالمسير إلى أَرِيحاءِ أرضِ الشام، وكان يسكُنها الجبابرةُ الكَنعانيون، وقال لهم: إني كتبتُها لكم دارًا وقرارًا فاخرُجوا إليها وجاهِدوا من فيها وإني ناصِرُكم، وأمر موسى عليه السلام أن يأخُذَ من كلِّ سِبطٍ نقيبًا أمينًا يكون كفيلًا على قومه بالوفاء بما أُمروا به توثِقَةً عليهم، فاختارَ النقباءَ وأُخذ الميثاقُ على بني إسرائيلَ وتكفَّلَ إليهم النُقباء، وسار بهم، فلما دنا من أرض كِنعانَ بعث النقباءُ يتجسّسون فرأَوْا أجرامًا عظيمةً وقوةً وشَوْكة، فهابوا ورَجَعوا وحدَّثوا قومَهم بما رأوا، وقد نهاهم موسى عن ذلك، فنكثوا الميثاقَ إلا كالبَ بنَ يوقنا نقيبَ سبطِ يَهوذا، ويُوشَعَ بنَ نونٍ نقيبَ سِبطِ أفراييمَ بن يوسُفَ

الصّديقِ عليه الصلاة والسلام)، قيل: لما توجه النقباءُ إلى أرضهم للتجسس لقِيَهم عوجُ بنُ عناق، وكان طولُه ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وقد عاش. ثلاثة آلاف سنة، وكان على رأسه حُزمةُ حطب، فأخذهم وجعلهم في الحُزمة وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظُري إلى هؤلاء الذين يزعُمون أنهم يريدون قتالنا، فطرَحهم بين يدَيْها وقال: ألا أطحَنُهم برِجْلي، فقالت: لا بل خلِّ عنهم حتى يُخبِروا قومَهم بما رأوا، ففعل فجعلوا يتعرّفون أحوالَهم، وكان لا يحمِلُ عنقودَ عِنبِهم إلا خمسةُ رجال، أو أربعة، فلما خرج النقباءُ قال بعضُهم لبعض: إن أخبرتم بني إسرائيلَ بخبر القومِ ارتدوا عن نبي الله، ولكنِ اكتُموه إلا عن موسى وهارونَ عليهما السلام، فيكونان هما يَريانِ رأيَهما، فأخذ بعضُهم على بعضٍ الميثاقَ ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حبةٌ من عنبِهم وِقْرَ[1] رجل، فنكثوا عهدَهم وجعل كلٌّ منهم ينهىٰ سِبْطه عن قتالِهم، ويُخبرهم بما رأى إلا كالبَ ويوشعَ، وكان معسكرُ موسى فرسخًا في فرسخ فجاء عوج حتى نظر إليهم ثم رجع إلى الجبل، فقور منه صخرة عظيمة على قدْرِ العسكر ثم حملها على رأسه ليُطبِقَها عليهم فبعث الله تعالى الهُدْهُد فقوَّر من الصخرة وسَطَها المحاذِيَ لرأسه، فانتقبت فوقعت في عُنُق عوج، وطوقته فصرَعَتْه، وأقبل موسى عليه السلام وطولُه عشرةُ أذرُعٍ، وكذا طولُ العصا، فترامىٰ في السماء عشرةَ أذرع، فما أصاب العصا إلا كعبَه وهو مصروعٌ فقتله، قالوا: فأقبلت جماعةٌ ومعهم الخناجرُ حتى حزّوا رأسَه.

﴿وقال الله﴾ أي لبني إسرائيل فقط إذ هم المحتاجون إلى ما ذُكر من الترغيب والترهيب كما يُنْبِئ عنه الالتفاتُ مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيدِ ما يتضمنه الكلام من الوعد ﴿إني معكم﴾ أي بالعلم والقدرة والنُّصرة، لا بالنصرة فقط، فإن تنبيهَهم على علمِه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قُدرته وملكوتِه مما يحمِلُهم على الجد في الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نُهوا عنه، كأنه قيل: إني معكم أسمع كلامَكم وأرى أعمالَكم وأعلم ضمائِرَكم، فأجازيكم بذلك، هذا وقد قيل: المرادُ بالميثاق هو الميثاقُ بالإيمان والتوحيد، وبالنقباءِ ملوكُ بني إسرائيلَ الذين ينقُبون أحوالَهم، ويَلُون أمورَهم بالأمر والنهي، وإقامةِ العدل، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿لئن أقمتم الصَّلَاةَ وآتيتم الزكوة وآمنتم برسلي﴾ أي بجميعِهم واللامُ موطِّئةٌ للقسم المحذوفِ وتأخيرُ الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة مع كونهم من الفروع

(١) أي حِمْلَ رجل.

المترتبةِ عليه لِما أنهم كانوا معترفينَ بوجوبِهما مع ارتكابِهم لتكذيبِ بعضِ الرسل عليهم السلام، ولمراعاة المقارَنةِ بينه وبين قوله تعالى: ﴿**وعزَّرْتُموهم**﴾ أي نصرتموهم وقوَّيتموهم.

وأصله الذَّبُّ وقيل: التعظيمُ والتوقيرُ والثناءُ بخير. وقرئ[1] (وعزَرْتُموهم) بالتخفيف ﴿**وأقرضتم الله**﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، أو بالتصدق بالصدقات المندوبة، وقوله تعالى: ﴿**قرضًا حسنًا**﴾ إما مصدرٌ مؤكِّدٌ وارد على غير صيغة المصدر، كما في قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتًا حسنًا﴾ [آل عمران، الآية ٣٧] أو مفعولٌ ثانٍ لأقرضتم على أنه اسم للمال المُقْرَض.

وقوله تعالى: ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم**﴾ جوابٌ للقسم المدلولِ عليه باللام سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرط ﴿**ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار**﴾ عطفٌ على ما قبله داخل معه في حُكم الجواب، متأخرٌ عنه في الحصول أيضًا، ضرورةَ تقدُّمِ التخلية على التحلية.

﴿**فمن كفر**﴾ أي برسلي أو بشيءٍ مما عُدِّد في حيِّز الشرط، والفاءُ لترتيب بيانِ حُكم من كفَر على بيان حُكمِ من آمن، تقويةً للترغيب بالترهيب ﴿**بعد ذلك**﴾ الشرطِ المؤكَّدِ المُعلَّقِ به الوعدُ العظيمُ الموجِبُ للإيمان قطعًا ﴿**منكم**﴾ متعلِّقٌ بمُضْمَرٍ وقعَ حالًا من فاعل كفَرَ، ولعلَ تغييرَ السبْكِ، حيث لم يقل وإن كفرتم عطفًا على الشرطية السابقة، لإخراج كفرِ الكلِّ عن حيِّز الاحتمال، وإسقاطِ من كفَرَ عن رُتبة الخطاب.

وليس المرادُ إحداثَ الكفر بعد الإيمان، بل ما يعمُّ الاستمرارَ عليه أيضًا، كأنه قيل: فمن اتّصفَ بالكفر بعد ذلك، خلا أنه قصَدَ، بإيراد ما يدلّ على الحدوث، بيانَ ترقِّيهم في مراتب الكفر، فإن الاتصافَ بشيءٍ بعد ورودِ ما يوجبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه لكنه بحسَب العنوان فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادث ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ أي وسَطَ الطريق الواضحَ ضلالًا بينًا، وأخطأه خطأً فاحشًا، لا عذرَ معه أصلًا، بخلافِ من كفر قبل ذلك، إذْ ربما يمكنُ أن يكون له شُبْهةٌ، ويُتوهَّمُ له معذرةً.

﴿**فبما نقضِهم ميثاقهم**﴾ الباء سببية، و(ما) مزيدةٌ لتأكيد الكلام وتمكينِه في النفس، أي بسببِ نقضِهم ميثاقَهم المؤكَّدَ لا بشيءٍ آخرَ استقلالًا أو انضمامًا ﴿**لعناهم**﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، أو مسخناهم قِرَدَةً وخنازيرَ، أو أذللناهم

---

(١) قرأ بها: عاصم الجحدري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٢)، والبحر المحيط (٣/ ٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٨).

بضرب الجزيةِ عليهم. وتخصيصُ البيان بما ذُكر مع أن حقَّه أن يبيَّنَ بعد بيانِ تحققِ نفسِ اللعنِ والنقضِ، بأن يقال مثلًا: فنقَضوا ميثاقَهم فلعنّاهم ضرورةَ تقدّم هيئةِ الشيءِ البسيطةِ على هيئتِه المُركّبة للإيذانِ بأن تحققَهما أمرٌ جليٌّ غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاجُ إلى ذلك ما بينهما من السببية والمُسبَّبية.

﴿**وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾ بحيث لا تتأثرُ من الآيات والنذُر، وقيل: أملينا لهم ولم نعاجِلْهم بالعقوبة حتى قَسَتْ، أو خذلناهم ومنعناهم الألطافَ حتى صارت كذلك وقرئ[1] (قَسِيّة)، وهي إما مبالغةُ قاسية، وإما بمعنى رديئة، من قولهم: دِرْهمٌ قسيٌّ، أي رديء، إذا كان مغشوشًا له يَبْسٌ وخشونة، وقرئ[2] بكسر القاف إتباعًا لها بالسين ﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ استئنافٌ لبيان مرتبةِ قساوةِ قلوبهم فإنه لا مرتبةَ أعظمُ مما يصحح الاجتراءَ على تغيير كلامِ الله عز وجل والافتراءَ عليه، وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد والاستمرار، وقيل: حالٌ من مفعول لعناهم.

﴿**ونسوا حظًّا**﴾ أي تركوا نصيبًا وافرًا ﴿**مما ذكّروا به**﴾ من التوراة ومن اتّباع محمدٍ عليه الصلاة والسلام، وقيل: حرفوا التوراةَ وزلَّتْ أشياءُ منها عن حفظهم، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: (قد ينسىٰ المرءُ بعضَ العلم بالمعصية) وتلا هذه الآية ﴿**ولا تزالُ تطلّع على خائنةٍ منهم**﴾ أي خيانةٍ على أنها مصدرٌ كلاغيةٍ وكاذبةٍ أو فَعْلةٍ خائنة، أي ذاتِ خيانة، أو طائفةٍ خائنة، أو شخصٍ خائنةٍ، على أن التاء للمبالغة، أو نفسٍ خائنةٍ، و(منهم) متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لها، خلا أن (مِنْ) على الوجهين الأولين ابتدائيةٌ، أي على خيانةٍ أو على فعلةٍ خائنةٍ كائنةٍ منهم صادرةٍ عنهم، وعلى الوجوه الباقيةِ تبعيضية، والمعنى أن الغدرَ والخيانة عادةٌ مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يترُكونها ويكتُمونها فلا تزال ترى ذلك منهم.

﴿**إلا قليلًا منهم**﴾ استثناء من الضمير المجرور في (منهم) على الوجوه كلِّها، وقيل: مِنْ خائنة على الوجوه الثلاثةِ الأخيرة، والمرادُ بهم الذين آمنوا منهم

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٩٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٣)، والبحر المحيط (٣/ ٤٤٥)، والتبيان للطوسي (٣/ ٤٦٨)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٢٧)، وتفسير القرطبي (٦/ ١١٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٧١)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط (١/ ٤٤٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٢٨).

كعبد اللَّه بنِ سَلام وأضرابِه، وقيل: من خائنة على الوجه الثاني، فالمرادُ بالقليل الفعلُ القليل، ومِنْ ابتدائيةٌ كما مر، أي إلا فعلًا قليلًا كائنًا منهم **﴿فاعف عنهم واصفح﴾** أي إن تابوا وآمنوا أو عاهدُوا والتزموا الجزية، وقيل: مطلقٌ نُسخ بآيةِ السيف **﴿إن الله يحب المحسنين﴾** تعليلٌ للأمر وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أن العفوَ على الإطلاقِ من باب الإحسان.

من قبائح النصارى

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ بيانٌ لقبائح النصارى وجناياتهم إثرَ بيان قبائحِ اليهود وخياناتِهم[1]، و(مِن) متعلقة (بأخذنا)، إذِ التقديرُ وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، وتقديمُ الجار والمجرور للاهتمام به، ولأن ذكرَ حال إحدى الطائفتين مما يوقعُ في ذهن السامع أن حالَ الأخرى ماذا؟ فكأنه قيل: ومن الطائفة الأخرى أيضًا أخذنا ميثاقهم، وقيل: هي متعلقةٌ بمحذوفٍ وقع خبرًا لمبتدأ محذوفٍ قامت صفتُه أو صلتُه مَقامه، أي ومنهم قومٌ أخذنا ميثاقهم، أو مَنْ أخذنا ميثاقهم، وضميرُ (ميثاقَهم) راجعٌ إلى الموصوف المقدر، وأما في الوجه الأولِ فراجعٌ إلى الموصول.

وقيل: راجع إلى بني إسرائيل، أي أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك، أي مثل ميثاقهم من الإيمان بالله والرسل، وبما يتفرع على ذلك من أفعال الخير، وإنما نَسَب تسميتَهم نصارى إلى أنفسهم دون أن يُقال ومن النصارى إيذانًا بأنهم في قولهم نحن أنصارُ الله بمعزلٍ من الصدق، وإنما هو تقوّلٌ محْضٌ منهم، وليسوا من نُصْرة الله تعالى في شيء، أو إظهارًا لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فإن ادعاءهم لنُصْرته تعالى يستدعي ثباتَهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه.

﴿فنَسُوا﴾ عَقيبَ أخذِ الميثاق من غير تلعثم **﴿حظًا﴾** وافرًا **﴿مما ذُكِّروا به﴾** في تضاعيف الميثاق من الإيمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مرَّ آنفًا، وقيل: هو ما كُتب عليهم في الإنجيل من أن يُؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نِسطوريةً ويعقوبيةً وملكانية أنصارًا للشيطان.

﴿فأغرينا﴾ أي ألزمنا وألصَقنا، من غَرَى بالشيء إذا لزمه ولصِق به، وأغراه غيرُه، ومنه الغِراء، وقوله تعالى: **﴿بينهم﴾** إما ظرف لأغرينا أو متعلق بمحذوف وقع حالًا من

---

(١) في المخطوط: جناياتهم.

مفعوله، أي أغرينا ﴿العداوة والبغضاء﴾ كائنة بينهم، ولا سبيل إلى جعله ظرفًا لهما، لأن المصدر لا يعمل فيما قبله، وقوله تعالى: ﴿إلى يوم القيامة﴾ إما غاية للإغراء أو للعداوة والبغضاء، أي يتعادَوْن ويتباغضون إلى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤُهم الزائغة المؤدية إلى التفرق إلى الفرق الثلاثة، فضمير (بينهم) لهم خاصة، وقيل: لهم ولليهود، أي أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى.

﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعّده: سأخبرك بما فَعَلت، أي يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذُكِّروا به، و(سوف) لتأكيد الوعيد، والالتفاتُ إلى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة لتشديد الوعيد، والتعبيرُ عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم في ذلك، وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقةَ ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعِها للعذاب، فيكونُ ترتيبُ العذاب عليها في إفادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الإخبار بها.

دعوة أهل الكتاب للإسلام

﴿يا أهل الكتاب﴾ التفاتٌ إلى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنسٌ شاملٌ للتوراة والإنجيل إثرَ بيانِ أحوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوةٌ لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن، وإيرادُهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلامِ المصدَّر به على ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجباتِ مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا من الكَتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.

﴿قد جاءكم رسولنا﴾ الإضافة للتشريف، والإيذانِ بوجوب اتباعه وقوله تعالى: ﴿يبين لكم﴾ حال من رسولنا، وإيثارُ الجملة الفعلية على غيرها للدَلالة على تجدّد البيان، أي قد جاءكم رسولُنا حال كونه مبينًا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ أي التوراةِ والإنجيل كبِعثةِ محمد عليه الصلاة والسلام، وآيةِ الرجم في التوراة وبشارةِ عيسى بأحمدَ عليهما السلام في الإنجيل، وتأخيرُ (كثيرًا) عن الجار والمجرور لما مر مرارًا من إظهار العناية بالمُقدَّم، لما فيه من تعجيل المَسَرَّة والتشويق إلى المؤخر لأن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر، لا سيما مع الإشعار بكونه من منافع المخاطَب، تبقَى النفسُ مترقبة إلى وروده، فيتمكن عندها إذا ورد فضلُ تمكنٍ، ولأن في المؤخَّر ضربَ تفصيل ربما يُخِلُّ تقديمُه بتجاذب

أطرافِ النظم الكريم، فإن (مما) متعلقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ (كثيرًا)، و(ما) موصولة اسمية وما بعدها صلتُها، والعائدُ إليها محذوف.

و(من الكتاب) متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبين لكم كثيرًا من الذي تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذي أنتم أهله والمتمسكون به.

﴿ويعفو عن كثير﴾ أي ولا يُظهر كثيرًا مما تخفونه، إذا لم تدعُ إليه داعيةٌ دينية صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح كما يُفصحُ عنه التعبير عن عدم الإظهار بالعفو، وفيه حثّ لهم على عدم الإخفاء ترغيبًا وترهيبًا، والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلةٌ في حكمها، وقيل: يعفو عن كثيرٍ منكم ولا يؤاخذه.

وقوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ جملة مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان أن فائدةَ مجيءِ الرسول ليست منحصرةً فيما ذُكر من بيانِ ما كانوا يُخفونه، بل له منافعُ لا تحصى، و(من الله) متعلقٌ بـ (جاء)، و(من) لابتداء الغاية مجازًا، أو بمحذوفٍ وقع حالًا من نور، وأيًّا ما كان فهو تصريحٌ بما يشعر به إضافةُ الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل، وتقديمُ الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون المجيء من جهته العالية، والتشويق إلى الجائي، ولأن فيه نوعَ تطويلٍ يُخلُّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ [هود، الآية: ١٢٠] وتنوين (نور) للتفخيم، والمراد به وبقوله تعالى: ﴿وكتاب مبين﴾ القرآن، لما فيه من كشف ظلمات الشرْك والشك وإبانة ما خفِيَ على الناس من الحق والإعجاز البيِّن، والعطف لتنزيل المغايَرَة بالعنوان منزلة المُغايرة بالذات.

وقيل: المرادُ بالأول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثاني القرآن ﴿يهدي به الله﴾ توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجِع بالذات أو لكونهما في حكم الواحد أو أريد يهدي بما ذُكر، وتقديم الجار والمجرور للاهتمام، وإظهارُ الجلالة لإظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية، ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لـ (كتاب)، أو النصبُ على الحالية منه لتخصصه بالصفة ﴿من اتّبع رِضْوانه﴾ أي رضاه بالإيمان به، و(مَنْ) موصولةٌ أو موصوفة ﴿سبل السلام﴾ أي طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعتُه التي شرعها للناس، قيل: هو مفعول ثان (ليهدي)، والحقُّ أن انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٥] وإنما يُعدَّى إلى الثاني بإلى أو باللام كما في قوله

تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء، الآية: ٩].

﴿**ويخرجهم**﴾ الضمير لمن، والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد في (اتبع) باعتبار اللفظ ﴿**من الظلمات**﴾ أي ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿**إلى النور**﴾ إلى الإيمان ﴿**بإذنه**﴾ بتيسيره أو بإرادته ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ هو أقرب الطرق إلى الله تعالى، ومؤدٍّ إليه لا محالة، وهذه الهداية عينُ الهداية إلى سبل السلام، وإنما عُطفت عليها تنزيلًا للتغاير الوَصْفيِّ منزلة التغايُر الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرُنا نجَّينا هودًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجَّيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود، الآية: ٥٨].

كفر النصارى

﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**﴾ أي لا غيرُ، كما يقال: الكرمُ هو التقوى، وهم اليعقوبيةُ القائلون بأنه تعالى قد يحِلُّ في بدن إنسان معين، أو في روحه، وقيل: لم يصرِّح به أحدٌ منهم، لكن حيث اعتقدوا اتصافَه بصفاتِ الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود، فلزِمهم القولُ بأنه المسيح لا غير، وقيل: لما زعموا أن فيه لاهوتًا وقالوا: لا إلٰه إلا واحدٌ، لزمهم أن يكونَ هو المسيح، فنُسب إليهم لازمُ قولِهم توضيحًا لجهلهم، وتفضيحًا لمعتَقَدِهم ﴿**قل**﴾ أي تبكيتًا لهم وإظهارًا لبطلان قولِهم الفاسد وإلقامًا لهم الحجَرَ، والفاء في قوله تعالى: ﴿**فمن يملك من الله شيئًا**﴾ فصيحة، و(مَنْ) استفهامية للإنكار والتوبيخ، والمُلكُ الضبطُ والحِفظُ التامُّ عن حزم، و(من) متعلقةٌ به على حذف المضاف، أي إن كان الأمرُ كما تزعُمون فمن يمنَعُ من قدرته تعالى وإرادته شيئًا؟ وحقيقتُه فمن يستطيعُ أن يُمسك شيئًا منهما ﴿**إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا**﴾.

ومن حق مَنْ يكون إلٰهًا ألا يتعلقَ به ولا بشأنٍ من شؤونه، بل بشيءٍ من الموجودات قدرةُ غيرِه بوجهٍ من الوجوه، فضلًا عن أن يعجِزَ عن دفع شيءٍ منها عند تعلقِها بهلاكه، فلما كان عجزُه بينًا لا ريب فيه ظهرَ كونُه بمعزل مما تقوَّلوا في حقه. والمرادُ بالإهلاك الإماتةُ والإعدامُ مطلقًا، لا بطريق السُخْط والغضب، وإظهارُ المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير، والتنصيصِ على أنه من تلك الحيثية بعينها داخلٌ تحت قهره ومَلَكوته تعالى ونفْيِ المالكيةِ المذكورة بالاستفهام الإنكاري عن كل أحدٍ مع تحقق الإلزامِ والتبكيتِ بنفيها عن المسيح فقط، بأن يقال: فهل يملِك شيئًا من الله إن أراد إلخ لتحقيق الحقِّ بنفيِ الألوهية عن كل ما عداه سبحانه. وإثباتُ المطلوب في ضمنه بالطريق البرهاني، فإن

انتفاءَ المالكيةِ المستلزِمَ لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة إلى الكلِّ ظهر بالنسبة إلى المسيح على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه فيظهر استحالةُ ألوهيتِه قطعًا.

وتعميمُ إرادةِ الإهلاك للكل، مع حصول ما ذُكر من التحقّق بقَصْرها عليه، بأن يقال: فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يُهلِك المسيح، لتهويل الخطب وإظهارِ كمالِ العجز ببيانِ أن الكلَّ تحت قهره تعالى وملَكوته، لا يقدِرُ أحدٌ على دفع ما أريد به فضلًا عن دفع ما أريد بغيره، وللإيذان بأن المسيحَ أُسوةٌ لسائر المخلوقات في كونه عُرْضةً للهلاك كما أنه أُسوة لها فيما ذُكر من العجز وعدم استحقاقِ الألوهية، وتخصيصُ أمِّه بالذكر مع اندراجها في ضمن مَنْ في الأرض لزيادة تأكيدِ عجْز المسيح، ولعل نَظْمَها في سِلْك من فَرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادةِ تقريرِ مضمونِ الكلام، بجعل حالها أُنموذجًا لحال بقيةِ مَنْ فَرَضَ إهلاكَه، كأنه قيل: قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يُهلكَ المسيح وأمَّه ومن في الأرض، وقد أهلك أمَّه فهل مانَعَه أحد، فكذا حال مَنْ عداها من الموجودين.

وقوله تعالى: ﴿**ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما**﴾ أي ما بين قُطْرَي العالم الجسماني لا بين وجهِ الأرض ومُقعَّرِ فَلك القمر فقط، فيتناول ما في السموات من الملائكة عليهم السلام وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات، تنصيصٌ على كون الكلِّ تحت قهره تعالى وملكوته إثرَ الإشارة إلى كون البعض أي من في الأرض كذلك، أي له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرُّفُ المطلقُ فيها إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة لا لأحد سواه استقلالًا، ولا اشتراكًا فهو تحقيقٌ لاختصاص الألوهية به تعالى إثرَ بيان انتفائها عن كل ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ جملةٌ مستأنفة مَسوقةٌ لبيان بعض أحكام المُلك والألوهية على وجه يُزيحُ ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح لولادته من غير أب، وخَلْقِ الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، أي يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والإيجاد على أن (ما) نكرة موصوفة محلها النصبُ على المصدرية، لا على المفعولية، كأنه قيل: يخلق أيَّ خلق يشاؤه فتارةً يخلق من غير أصل كخلق السموات والأرض، وأخرى من أصلٍ كخلق ما بينهما، فيُنشئ من أصلٍ ليس من جنسه كخلق آدمَ وكثيرٍ من الحيوانات، ومن أصلٍ يجانسه إما مِنْ ذكرٍ وحده كخلق حواءَ أو أنثى وحدها، كخلق عيسى عليه السلام، أو منهما كخلق سائر الناس، ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات، وقد يخلُق بتوسط مخلوق آخرَ كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزةً له وإحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمه والأبرص

وغير ذلك فيجب أن يُنسَبَ كلُّه إليه تعالى لا إلى من أَجْرىٰ ذلك على يده ﴿والله على كل شيء قدير﴾ اعتراض تذييلي مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وإظهار الاسم الجليل للتعليل وتقويةِ استقلال الجملة.

دعاوى باطلة

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ حكايةٌ لِما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيانٌ لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن أحدهما وبيانِ بطلانه أي قالت اليهود: نحن أشياعُ ابنِه عُزَيْرٍ، وقالت النصارى: نحن أشياعُ ابنِه المسيحِ، كما قيل لأشياع أبي خُبيب وهو عبد اللّه بن الزبير: الخُبيبيّون، وكما يقول أقاربُ الملوك عند المفاخرة: نحن الملوك.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن النبي عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوَّفهم بعقاب الله تعالى فقالوا: كيف تخوِّفُنا به ونحن أبناءُ الله وأحباؤُه؟ وقيل: إن النصارى يتلون في الإنجيل أَنَّ المسيح قال لهم: إني ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم، وقيل: أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا في الحُنُوِّ والعطف، ونحن كالأبناء له في القُرب والمنزلة، وبالجملة أنهم كانوا يدّعون أن لهم فضلًا ومَزيديةً[1] عند الله تعالى على سائر الخلق، فردّ عليهم ذلك، وقيل لرسول الله ﷺ: ﴿قل﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا ﴿فلمَ يعذبُكم بذنوبكم﴾ أي إن صح ما زعمتم فلأيِّ شيءٍ يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أيامًا بعدد أيامِ عبادتِكم العجلَ، ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر، ولما وقع عليكم ما وقع.

وقوله تعالى: ﴿بل أنتم بشر﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، أي لستم كذلك بل أنتم بشر ﴿ممن خلق﴾ أي من جنس مَنْ خَلقه الله تعالى من غير مزيةٍ لكم عليهم ﴿يغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿ويعذب من يشاء﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا به وبرسله مثلَكم ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ من الموجودات لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها إلا بالملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته، يتصرّف فيهم كيف يشاء إيجادًا وإعدامًا، إحياء وإماتة، وإثابة وتعذيبًا، فأنىٰ لهم ادعاءُ ما زعموا ﴿وإليه المصير﴾ في

(١) في المخطوط: مزية.

الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا فيجازي كلاً من المحسن والمسيء بما يستدعيه عملُه من غير صارف يَثْنيه ولا عاطفٍ يَلْويه.

﴿**يا أهل الكتاب**﴾ تكريرٌ للخطاب بطريق الالتفات ولطفٌ في الدعوة ﴿**قد جاءكم رسولنا يبين لكم**﴾ حال من رسولنا، وإيثارُه على مبيِّنًا لما مر فيما سبق، أي يبين لكم الشرائعَ والأحكامَ الدينية المقرونة بالوعد والوعيد، ومن جملتها ما بين في الآيات السابقة من بطلان أقاويلِكم الشنعاء، وما سيأتي من أخبار الأمم السالفة، وإنما حُذف تعويلًا على ظهور أن مجيءَ الرسول إنما هو لبيانها، أو يفعلُ لكم البيانَ، ويبذُله لكم في كل ما تحتاجون فيه إلى البيان من أمور الدين، وإما تقديرُ مثل ما سبق في قوله تعالى: كثيرًا مما كنتم تخفون في الكتاب كما قيل فمع كونه تكريرًا من غير فائدة، يرده قوله عز وجل: ﴿**على فترة من الرسل**﴾.

فإن فتورَ الإرسال وانقطاعَ الوحي إنما يُحوج إلى بيان الشرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه و(على فترة) متعلق (بجاءكم) على الظرفية كما في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ [البقرة، الآية ١٠٢] أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، ومزيدِ احتياج إلى بيان الشرائع والأحكام الدينية، أو بمحذوفٍ وقع حالًا من ضمير يبين، أو من ضمير لكم، أي يبين لكم ما ذُكر حال كونه على فترة من الرسل، أو حال كونكم عليها أحوجَ ما كنتم إلى البيان، و(من الرسل) متعلق بمحذوفٍ وقع صفةً لفترة، أي كائنةٍ من الرسل مبتدَأةٍ من جهتهم.

قوله تعالى: ﴿**أن تقولوا**﴾ تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف أي كراهةَ أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين ﴿**ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾ وقد انطمست آثارُ الشرائع السابقة، وانقطعت أخبارُها، وزيادة (مِنْ) في الفاعل للمبالغة في نفي المجيء، وتنكير بشير ونذير للتقليل، وهذا كما ترى يقتضي أن المقدر أو المنوي فيما سبق هو الشرائع والأحكام لا كيفما كانت، بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿**فقد جاءكم بشير ونذير**﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة وتُبيِّنُ أنه مُعلَّل به، وتنوينُ (بشيرٌ ونذيرٌ) للتفخيم أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أيُّ بشيرٍ ونذير أيُّ نذير.

﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ فيقدِرُ على الإرسال تَتْرىٰ كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألفٌ وسبعُمائة سنة وألفُ نبيٍّ وعلى الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، حيث كان بينهما ستُمائة سنةٍ أو خمسُمائةٍ وتسعٌ وستون سنةً أو خمسُمائةٍ وستٌ وأربعون سنةً وأربعةُ أنبياءَ على

ما رَوىٰ الكلبيّ ثلاثةٌ من بني إسرائيلَ وواحدٌ من العرب خالد بن سنان العبسي.

وقيل: لم يكن بعد عيسى عليه السلام إلا رسولُ الله عليه السلام وهو الأنسبُ بما في تنوين (فترةٍ) من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بُعث إليهم عند كمالِ حاجتهم إليه بسبب مضيِّ زمانٍ طويل بعد انقطاعِ الوحي ليهشّوا إليه ويعدّوه أعظمَ نعمةٍ من الله تعالى، وفتحَ بابٍ إلى الرحمة، وتلزَمُهم الحجةُ فلا يَعتلُّوا غدًا بأنه لم يُرسَلْ إليهم من يُنبِّههم من غفلتهم.

اليهود ينقضون الميثاق

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان ما فعلت بنو إسرائيلَ بعد أخذِ الميثاق منهم، وتفصيلِ كيفيةِ نقضِهم له وتعلّقِه بما قبله، من حيث إن ما ذُكر فيه من الأمور التي وصفَ النبي عليه السلام بيانها، ومن حيث اشتمالُه على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم، و(إذ) نُصب على أنه مفعولٌ لفعل مقدرٍ خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام بطريق تلوينِ الخطاب، وصَرْفُه عن أهل الكتاب ليعدِّدَ عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات. أي واذكُر لهم وقت قولِ موسى لقومه ناصحًا لهم ومستميلًا لهم بإضافتهم إليه.

﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات للمبالغة في إيجابِ ذكرِها، لما أن إيجابَ ذكرِ الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأن الوقت مشتملٌ على ما وقع فيه تفصيلًا، فإذا استُحضِر كان ما وقع فيه حاضِرًا بتفاصيله، كأنه مشاهَدٌ عِيانًا، و(عليكم) متعلق بنفس النعمة إذا جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إذا جُعلت اسمًا، أي اذكروا إنعامه عليكم، وكذا (إذ) في قوله تعالى: **﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾** أي اذكروا إنعامه تعالى عليكم في وقت جَعْله أو اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم في وقت جعْلِه فيما بينكم من أقربائكم أنبياءَ ذوِي عددٍ كثير وأُولي شأنٍ خطير، حيث لم يَبْعثْ من أمة من الأمم ما بَعَث من بني إسرائيلَ من الأنبياء **﴿وجعلكم ملوكًا﴾** عطفٌ على (جعل)[1] فيكم أو منكم ملوكًا كثيرة، فإنه قد تكاثر فيهم الملوكُ تكاثرَ الأنبياء، وإنما حذف الظرف تعويلًا على ظهور الأمر أو جَعل الكلِّ في مقام الامتنان عليهم ملوكًا، لما أن أقاربَ الملوك يقولون عند المفاخرة:

(١) زاد في المخطوط: فيكم داخل في حكمه أي: جعل.

نحن الملوك، وإنما لم يسلُكْ ذلك المسلكَ فيما قبله لما أن منصِبَ النبوةِ مِنْ عِظَم الخطر وعِزَّة المطلب وصعوبة المنال بحيث ليس يليقُ أن يُنْسبَ إليه، ولو مجازًا، مَنْ ليس ممن اصطفاه الله تعالى له. وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القِبْط فأنقذهم الله تعالى فسمَّى إنقاذهم مُلْكًا، وقيل: المَلِكُ مَنْ له مسكنٌ واسع فيه ماء جار، وقيل: من له بيت وخدم، وقيل: من له مال لا يَحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمّل المشاق ﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين**﴾ من فلْق البحر وإغراقِ العدو وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور العِظام، والمرادُ بالعالمين الأممُ الخالية إلى زمانهم، وقيل: مِنْ عالَمِي زمانِهم.

﴿**يا قوم ادخُلوا الأرض المقدسة**﴾ كرر النداء بالإضافة التشريفية اهتمامًا بشأن الأمر ومبالغةً في حثهم على الامتثال به، والأرضُ هي أرضُ بيت المقدس، سُمِّيت بذلك لأنها كانت قرارَ الأنبياء ومسكنَ المؤمنين. وقيل: هي الطورُ وما حوله، وقيل: دمشقُ وفِلَسطينُ وبعضُ الأردن، وقيل: هي الشام ﴿**التي كتب الله لكم**﴾ أي كتَبَ في اللوح المحفوظ أنها تكونُ مسكنًا لكم إن آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعد ما عصَوْا: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ [المائدة، الآية ٢٦].

وقولِه تعالى: ﴿**ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين**﴾ فإن ترتيبَ الخَيبة والخُسران على الارتداد يدل على اشتراط الكَتْب بالمجاهدة المترتِّبة على الإيمان والطاعة قطعًا، أي لا ترجِعوا مُدبرين خوفًا من الجبابرة، فالجار والمجرور متعلقٌ بمحذوفٍ هو حال من فاعل ترتدوا، ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل، قيل: لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكَوْا وقالوا: يا ليتنا مِتْنا بمصر، تعالَوْا نجعلُ لنا رأسًا ينصرِف بنا إلى مصر، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى، وقوله: (فتنقلبوا) إما مجزومٌ عطفا على ترتدوا، أو منصوبٌ على جواب النهي، والخُسران خُسرانُ الدين والدنيا لا سيما دخولُ ما كتب لهم.

﴿**قالوا**﴾ استئناف مبنيٌّ نشأ من مَساق الكلام كأنه قيل: فماذا قالوا بمقابلة أمرِه عليه السلام ونهيِه؟ فقيل: قالوا غيرَ ممتثِلين بذلك: ﴿**يا موسى إن فيها قومًا جبارين**﴾ متغلِّبين لا يتأتّى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم. والجبارُ العاتي الذي يُجبرُ الناسَ ويقسرهم كائنًا من كان على ما يريده كائنًا ما كان، فعّال من جبرَه على الأمر أي أجْبَره عليه ﴿**وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها**﴾ من غير صُنْع مِنْ قِبَلِنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿**فإن يخرُجوا منها**﴾ بسببٍ من الأسباب التي لا تعلُّقَ لنا بها ﴿**فإنا داخلون**﴾ حينئذ، أتَوْا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهومًا مما سبق من توقيت

عدمِ الدخول بخروجهم منها تصريحًا بالمقصود وتنصيصًا على أن امتناعهم من دخولِها ليس إلا لمكانهم فيها، وأتَوا في الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالةً على تقرُّر الدخول وثباتِه عند تحقّق الشرط لا محالة، وإظهارًا لكمال الرغبة فيه، وفي الامتثال بالأمر.

﴿**قال رجلان**﴾ استئنافٌ كما سبق كأنه قيل: هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض؟ فقيل: قال رجلان: ﴿**من الذين يخافون**﴾ أي يخافون الله تعالى دون العدوِّ ويتّقونه في مخالفة أمرِه ونهيِه، وبه قرأ[١] ابنُ مسعود، وفيه تعريضٌ بأن مَنْ عداهما لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدو.

وقيل: من الذين يخافون العدو. أي منهم في النسب لا في الخوف. وهما يوشَعُ بنُ نون وكالب بن يوقنا من النقباء، وقيل: هما رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه السلام، فالواو حينئذ لبني إسرائيلَ، والموصول عبارة عن الجبابرة، وإليهم يعود العائد المحذوف، أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل ويعضده قراءة[٢] من قرأ (يُخافون) على صيغة المبني للمفعول أي المَخُوفين، وعلى الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يخوِّفون من الله تعالى بالتذكير أو يخوِّفهم الوعيدُ.

﴿**أنعم الله عليهما**﴾ أي بالتثبيت وربْطِ الجأش والوقوف على شؤونه تعالى والثقة بوعده، أو بالإيمان وهو صفة ثانيةٌ لـ (رجلان)، أو اعتراض، وقيل: حال من الضمير في يخافون أو من رجلان لتخصّصه بالصفة، أي قالا مخاطِبين لهم ومشجعين ﴿**ادخلوا عليهم الباب**﴾ أي بابَ بلدهم، وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصودَ إنما هو دخولُ الباب وهم في بلدهم أي باغِتوهم وضاغِطوهم في المَضيق وامنعوهم من البُروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب[٣] مجالًا.

﴿**فإذا دخلتموه**﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿**فإنكم غالبون**﴾ من غير حاجة إلى القتال فإنا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبَهم ضعيفة، وإن كانت أجسادُهم عظيمة، فلا تخشَوْهم

---

(١) قرأ بها: قتادة.
ينظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٧٩).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٤٩١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٣)، والبحر المحيط (٣/ ٤٥٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٧٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٢٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٨).

(٣) في المخطوط: للحراب.

واهجُموا عليهم في المضايق فإنهم لا يقدرون فيها على الكر والفر. وقيل: إنما حَكَما بالغَلَبة لما عَلِماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى: ﴿كتب الله لكم﴾ [المائدة، الآية ٢١] أو لِما علِما من سنّته تعالى في نصرة رسله وما عهِدا من صُنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه، والأول أنسبُ بتعليق الغلَبةِ بالدخول.

﴿وعلى الله﴾ تعالى خاصةً ﴿فتوكلوا﴾ بعد ترتيب الأسباب ولا تعتمدوا عليها فإنها بمعزلٍ من التأثير، وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مؤمنين به تعالى مصدِّقين لوعده فإن ذلك مما يوجبُ التوكل عليه حتمًا ﴿قالوا﴾ استئنافٌ كما سبق أي قالوا غيرَ مبالين بهما وبمقالتهما مخاطِبين لموسى عليه السلام إظهارًا لإصرارهم على القول الأول وتصريحًا بمخالفتهم له عليه السلام.

﴿يا موسى إنا لن ندخلها﴾ أي أرضَ الجبابرة فضلًا عن دخول بابهم وهم في بلدهم ﴿أبدًا﴾ أي دهرًا طويلًا ﴿ما داموا فيها﴾ أي في أرضهم وهو بدل من (أبدًا) بدلَ البعض أو عطفُ بيان ﴿فاذهب﴾ الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿أنت وربك فقاتلا﴾ أي فقاتلاهم، إنما قالوا ذلك استهانةً واستهزاء به سبحانه وبرسوله، وعدمَ مبالاةٍ بهما، وقصدوا ذهابَهما حقيقةً كما يُنْبئ عنه غايةُ جهلِهم وقسوةُ قلوبهم.

وقيل: أرادوا إرادتَهما وقصْدَهما كما تقول: كلَّمتُه فذهب يجيبني، كأنهم قالوا: فأَرِيدا قتالَهم واقْصِداهم. وقيل: التقدير فاذهبْ أنت وربُك يُعينُك، ولا يساعده قوله تعالى: ﴿فقاتلا﴾ ولم يذكروا هارون ولا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أو لم يعبأوا بقتالهم وقوله تعالى: ﴿إنا هاهنا قاعدون﴾ يؤيد الوجه الأول وأرادوا بذلك عدمَ التقدم لا عدمَ التأخر.

﴿قال﴾ عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العِناد على طريقة البثِّ والحُزن والشكوى إلى الله تعالى مع رقة القلبِ التي بمثلها تُستجلبُ الرحمةُ وتُسْتَنزَلُ النُّصرة ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ عطف على نفسي، وقيل: على الضمير في (إني) على معنى إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملِكُ إلا نفسَه، وقيل: على الضمير في (لا أملك) للفصل ﴿فافرق بيننا﴾ يريد نفسه وأخاه، والفاء لترتيب الفرق أو الدعاءِ به على ما قبله ﴿وبين القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن طاعتك المُصِرّين على عِصيانك بأن تحكُم لنا بما نستحقّه وعليهم بما يستحقونه، وقيل: بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصِنا من صحبتهم.

﴿قال فإنها﴾ أي الأرض المقدسة، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من

الدعاء ﴿محرمة عليهم﴾ تحريمَ منعٍ لا تحريمَ تعبُّد، لا يدخُلونها ولا يملِكونها لأن كتابتها لهم كانت مشروطةً بالإيمان والجهاد، وحيث نكصوا على أدبارهم حُرموا ذلك وانقلبوا خاسرين، وقوله تعالى: ﴿أربعين سنة﴾ إن جُعل ظرفًا (لمحرمةٌ) يكون التحريمُ مؤقتًا لا مؤبدًا، فلا يكون مخالفًا لظاهر قولِه تعالى: ﴿كتبَ الله لكم﴾ [المائدة، الآية ٢١] فالمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم في هذه المدة، لكن لا بمعنى أن كلَّهم يدخلونها بعدها بل بعضُهم[1] بقيَ حسْبما رُوي أن موسى عليه السلام سار بمن بقيَ من بني إسرائيلَ إلى أريحا، وكان يوشعُ بنُ نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قُبض عليه السلام.

وقيل: لم يدخلها أحد ممن قال: (لن ندخُلها أبدًا)، وإنما دخلها مع موسى عليه السلام النواشئ من ذرياتهم، فالمؤقت بالأربعين في الحقيقة تحريمها على ذرياتهم، وإنما جُعل تحريمُها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد.

وقوله تعالى: ﴿يتيهون في الأرض﴾ أي يتحيرون في البرية، استئناف لبيان كيفية حِرْمانهم، أو حال من ضمير عليهم، وقيل: الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه مؤقتًا والتحريم مطلقًا، قيل: كانوا ستمائة ألف مقاتل، وكان طول البرية تسعين فرسخًا، وقد تاهوا في ستة فراسخَ أو تسعة فراسخَ في ثلاثين فرسخًا، وقيل: في ستة فراسخَ في اثني عشرَ فرسخًا.

روي أنهم كانوا كلَّ يوم يسيرون جادّين حتى إذا أمسَوا إذا هم بحيث ارتحلوا، وكان الغمامُ يُظلُّهم من حر الشمس، ويطلُع بالليل عمودٌ من نور يضيء لهم، ويَنزِلُ عليهم المن والسلوى، ولا تطول شعورُهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوبٌ كالظُفُر يطول بطوله، وهذه الإنعاماتُ عليهم مع أنهم معاقَبون لِما أن عقابَهم كان بطريق العِراك والتأديب.

قيل: كان موسى وهارون معهم ولكن كان ذلك لهما رَوْحًا وسلامة كالنار لإبراهيم وملائكةِ العذاب عليهم السلام، وروي أن هارون مات في التيه ومات موسى بعده فيه بسنة، ودخل يوشعُ أريحا بعد موته بثلاثة أشهر، ولا يساعده ظاهرُ النظم الكريم، فإنه تعالى بعد ما أقبل على بني إسرائيلَ وعذبهم بالتيه بعيدٌ أن ينجّيَ بعضَ المدعوِّ عليهم أو ذراريهم ويقدّر وفاتَهما في محل العقوبة ظاهرًا، وإن كان ذلك لهما منزِلَ رَوْحٍ وراحةٍ وقد قيل: إنهما لم يكونا معهم في التيه وهو الأنسب بتفسير الفرق

---

(١) زاد في المخطوط: ممن.

بالمباعدة، ومن قال بأنهما كانا معهم فيه فقد فسر الفَرْقَ بما ذُكر من الحُكْمِ بما يستحقّه كلٌّ فريق.

﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾ روي أنه عليه السلام ندِم على دعائه عليهم فقيل: لا تندمْ ولا تحزَن فإنهم أحِقّاءُ بذلك لفسقهم.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

﴿واتل عليهم﴾ عطف على مقدّر تعلق به قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى﴾ [المائدة، الآية ١٩]. . . إلخ، وتعلُّقه به من حيث إنه تمهيدٌ لما سيأتي من جنايات بني إسرائيلَ بعد ما كُتب عليهم ما كُتب وجاءتهم الرسلُ بما جاءت به من البينات ﴿نبأ ابني آدم﴾ هما قابيلُ وهابيلُ، ونُقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بني إسرائيلَ بقرينةِ آخِرَ القصة، وليس كذلك. أوحى الله عز وجل إلى آدمَ أن يزوج كلاً منهما توأمةَ الآخر

وكانت توأمةُ قابيلَ أجملَ واسمُها إقليما فحسد عليها أخاه وسخِط، وزعم أن ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدمَ عليه السلام فقال لهما عليه السلام: قرِّبا قُربانًا فمِنْ أيِّكما قُبل تزوّجها، ففعلا، فنزلت نارٌ على قُربانِ هابيلَ فأكلتْه ولم تتعرَّضْ لقُربانِ قابيلَ، فازداد قابيلُ حسَدًا وسُخْطًا وفعل ما فعل، ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرٍ محذوف، أي تلاوةً ملتبسةً بالحق والصِّحة، أو حالًا من فاعلِ (اتْلُ) أو من مفعوله، أي ملتبسًا أنت أو [اتل] نبأهما بالحق والصدقِ حسبما تقرّر في كتب الأولين ﴿إذ قربا قربانًا﴾ منصوب بالنبأ ظرفٌ له أي اتلُ قصتهما ونبأهما في ذلك الوقت، وقيل: بدلٌ منه على حذف المضافِ أي اتلُ عليهم نبأهما نبأَ ذلك الوقت، ورُد عليه بأن (إذ) لا يضاف إليها غيرُ الزمان كوقتئذ وحينئذ، والقُربان اسمٌ لما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من نسُكٍ أو صَدَقةٍ كالحُلوان اسمٌ لما يُحْلى أي يُعطىٰ، وتوحيدُه لما أنه في الأصل مصدرٌ، وقيل: تقديره إذ قرّب كلٌّ منهما قربانًا.

﴿فتقبل من أحدهما﴾ هو هابيلُ، قيل: كان هو صاحبَ ضَرْعٍ وقرب جَملًا سمينًا فنزلت نارٌ فأكلتْه ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ هو قابيل، قيل: كان هو صاحبَ زرع وقرّب أردأَ ما عنده من القمح فلم تتعرضْ له النارُ أصلًا.

﴿قال﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من سَوْق الكلام كأنه قيل: فماذا قال من لم يُتقبَّلْ قُربانه؟ فقيل: قال لأخيه، لِتضاعُفِ سَخَطِه وحسَدِه لما ظهر فضلُه عليه عند الله عز وجل: ﴿لأقتلنك﴾ أي والله لأقتلنَّك بالنون المشددة وقرئ[1] بالمخففة ﴿قال﴾ استئناف كما قبله أي قال الذي تُقُبِّل قُربانُه لمّا رأى أن حسَدَه لقَبول قُربانه وعدمِ قَبول قُربانِ نفسِه ﴿إنما يتقبل الله﴾ أي القربانَ ﴿من المتقين﴾ لا من غيرهم، وإنما تقبَّلَ قُرباني وردّ قُربانَك لما فينا من التقوى وعدمِه، أي إنما أُتيتَ من قِبَل نفسِك لا من قِبَلي فلم تقتلني؟ خلا أنه لم يصرِّحْ بذلك بل سلك مسلكَ التعريضِ حذرًا من تهييج غضبه وحملًا له على التقوى والإقلاعِ عما نواه ولذلك أُسند الفعلُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، ثم صرح بتقواه على وجهٍ يستدعي سكونَ غيظِه لو كان له عقلٌ وازعٌ حيث قال بطريق التوكيد.

﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتُلَني ما أنا بباسط يدِيَ إليك لأقتلك﴾ حيث صدّر الشرطيةَ باللام الموطِّئةِ للقسم وقدم الجارَّ والمجرورَ على المفعول الصريح إيذانًا من أول الأمر

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٦١).

برجوعِ ضررِ البسطِ وغائلتِه إليه، ولم يُجْعلْ جوابُ القسم السادُّ مسدَّ جوابِ الشرط جملةً فعليةً موافقة لما في الشرط، بل اسميةً مصدّرةً بما الحجازية المفيدةِ لتأكيدِ النفي بما في خبرها من الباء للمبالغة في إظهار براءتِه عن بسْطِ اليد ببيانِ استمراره على نفي البسط كما في قوله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة، الآية: ٨].

وقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ [المائدة، الآية: ٣٧] فإن الجملة الاسميةَ الإيجابيةَ كما تدل بمعونة المقام على دوام [الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام][1] الانتفاءِ لا على انتفاءِ الدوامِ، وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبارِ النفي لا قبله حتى يردَ النفيُ على المقيَّدِ بالدوام فيرفعَ قيدَه. أي والله لئن باشرتَ قتلي حسبما أوعدتني به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعلٍ مثلَه لك في وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله: ﴿**إني أخاف الله رب العالمين**﴾ وفيه من إرشادِ قابيلَ إلى خشية الله تعالى على أبلغ وجهٍ وآكدِه ما لا يخفى، كأنه قال: إني أخافه تعالى إن بسطتُ يدِيَ إليك لأقتلك أن يعاقبَني وإن كان ذلك مني لدفع عداوتِك عني فما ظنُّك بحالك وأنت البادئ العادي، وفي وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيدٌ للخوف. قيل: كان هابيلُ أقوى منه ولكن تحرَّج عن قتله واستسلم خوفًا من الله تعالى لأن القتلَ للدفع لم يكون مُباحًا حينئذ.

وقيل: تحرِّيًا لما هو الأفضلُ حسبما قال عليه السلام: «كن عبدَ الله المقتول ولا تكنْ عبدَ الله القاتل»[2] ويأباه التعليلُ بخوفه تعالى إلا أن يُدَّعىٰ أن تركَ الأَوْلى عنده بمنزلة المعصية في استتباع الغائلة مبالغةً في التنزه.

وقوله تعالى: ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**﴾ تعليل آخرُ لامتناعه عن المعارضة على أنه غرَضٌ متأخِّرٌ عنه كما أن الأولَ باعثٌ متقدِّمٌ عليه، وإنما لم يُعطفْ عليه تنبيهًا على كفاية كلٍّ منهما في العِلّية، والمعنى إني أريد باستسلامي لك وامتناعي عن التعرّض لك أن ترجِعَ بإثمي أي بمثل إثمي لو بسطتُ يدي إليك وبإثمِك ببسط يدِك إليّ، كما في قوله عليه السلام: «المُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى البَادِىءِ مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوم»[3].

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١١٠)، والطبراني في الكبير (٥٦٧) من حديث حباب بن الأرت. وأخرجه أحمد (٥/ ٢٩٢)، والطبراني في الكبير (٥٧٠) من حديث خالد بن عرفطة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٨٥) كتاب البر والصلة والآداب (٤٥)، باب: النهي عن السباب (١٨) (٦٨/ ٢٥٨٧) من حديث أبي هريرة، والبخاري في الأدب المفرد، ص (١٦٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، باب: المستبان ما قالا فعلى الأول من حديث أبي هريرة، وأنس نحوه.

أي على البادئ عينُ إثمِ سبِّه ومثلُ سبِّ صاحبه بحكم كونه سَبَبًا[١] له، وقيل: معنى (بإثمي) إثمِ قتلي ومعنى (بإثمك) إثمِك الذي لأجله لم يُتقبَّلْ قُربانُك، وكلاهما نصب على الحاليَة أي ترجع ملتبسًا بالإثمين حاملًا لهما.

ولعل مرادَه بالذات إنما هو عدمُ ملابستِه للإثم لا ملابسةِ أخيه له، وقيل: المراد بالإثم عقوبتُه ولا ريب في جواز إرادة عقوبةِ العاصي ممن عُلِم أنه لا يرعوي عن المعصية أصلًا، ويأباه قولُه تعالى: ﴿**فتكونَ من أصحاب النار**﴾ فإن كونَه منهم إنما يترتّب على رجوعه بالإثمين لا على ابتلائِه بعقوبتهما، وحملُ العقوبة على نوعٍ آخَرَ يترتَّبُ عليها العقوبةُ النارية يردّه قوله تعالى: ﴿**وذلك جزاء الظالمين**﴾ فإنه صريحٌ في أن كونه من أصحاب النار تمامُ العقوبة وكمالُها، والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، ولقد سلك في صَرْفه عما نواه من الشر كلَّ مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارةً والترهيب أخرى، فما أورثه ذلك إلا الإصرارَ على الغيِّ والانهماك في الفساد.

﴿**فطوعت له نفسُه قتل أخيه**﴾ أي وسَّعَتْه وسهّلته، من طاعَ له المرتَعُ إذا اتسع، وترتيبُ التطويع على ما حُكي من مقالات هابيلَ مع تحققه قبلها أيضًا كما يُفصح عنه قولُه: ﴿**لأقتلنك**﴾ لِما أن بقاءَ الفعل بعد تقرّر ما يُزيله من الدواعي القوية وإن كان استمرارًا عليه بحسَب الظاهر، لكنه في الحقيقة أمرٌ حادث وصُنع جديد، كما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعظ، أو لأن هذه المرتبةَ من التطويع لم تكن حاصلةً قبلَ ذلك بناءً على تردُّده في قُدرته على القتل، لما أنه كان أقوى منه. وإنما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيلَ وعدم معارضتِه له، والتصريحُ بأُخوَّته لكمال تقبيحِ ما سوَّلته نفسُه.

وقرئ[٢] (فطاوعت) على أنه فاعَلَ بمعنى فعل، أو على أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع، و(له) لزيادة الربطِ كقولك: حفظتُ لزيد مالَه ﴿**فقتله**﴾ قيل: (لم يدر قابيلُ كيف يقتل هابيلَ، فتمثل إبليسُ وأخذ طائرًا ووضع رأسه على حجر ثم شدَخها بحجر آخرَ فتعلّم منه فرضخَ رأسَ هابيلَ بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصي عليه).

وقيل: اغتالَه وهو نائم، وكان لهابيلَ يوم قُتل عشرون سنة واختلف في موضِع

---

(١) في المخطوط: مسببًا.

(٢) قرأ بها: أبو واقد، والحسن بن عمران، والجراح، والحسن.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٤٩٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٢٣٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٩).

قتلِه، فقيل: عند عقبةِ حِراء، وقيل: بالبصرة في موضع المسجدِ الأعظم، وقيل: في جبل بود، ولما قتله تركه بالعَراء لا يدري ما يصنع به فخاف عليه السباع فحمله في جِراب على ظهره أربعين يومًا، وقيل: سنة، حتى أروح[١] وعكفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمي به فتأكلَه ﴿**فأصبح من الخاسرين**﴾ دينًا ودنيا.

﴿**فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليُريه كيف يواري سوأة أخيه**﴾ روي (أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخرَ فحفر له بمنقاره ورجليه حُفرة فألقاه فيها)، والمستكنُّ في (يريَه) لله تعالى أو للغراب، واللام على الأول متعلقة بـ (بعَثَ) حتمًا، وعلى الثاني بـ (يبحث)، ويجوز تعلُّقها ببعث أيضًا و(كيف) حال من ضمير (يُواري) والجملةُ ثاني مفعولي يُري، والمرادُ بسَوْءة أخيه جسدُه الميْتُ.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل: فماذا قال عند مشاهدةِ حال الغراب؟ فقيل: قال: ﴿**يا ويلتىٰ**﴾ هي كلمةُ جَزَعٍ وتحسّرٍ والألفُ بدلٌ من ياء المتكلم والمعنى يا ويلتي احضُري فهذا أوانك، والويلُ والويلةُ الهلَكة.

﴿**أعجَزت أن أكون**﴾ أي عن أن أكون ﴿**مثلَ هذا الغراب فأواريَ سوأة أخي**﴾ تعجبٌ من عدم اهتدائِه إلى ما اهتدىٰ إليه الغرابُ، وقولُه تعالى: ﴿**فأواريَ**﴾ بالنصب عطفٌ على أن أكون، وقرئ[٢] بالرفع أي فأنا أواري ﴿**فأصبح من النادمين**﴾ أي على قتله لِما كابد فيه من التحيّر في أمره وحملِه على رقبته مدةً طويلة. روي أنه لما قتله اسودّ جسدُه وكان أبيضَ، فسأله آدمُ عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلًا، قال: بل قتلتَه ولذلك اسود جسدُك، ومكث آدمُ بعده مائةَ سنةٍ لا يضحك، وقيل: لما قتل قابيلُ هابيلَ هرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليسُ فقال له: إنما أكلت النارُ قربانَ هابيلَ لأنه كان يخدُمها ويعبُدها، فإن عبدتَها أيضًا حصل مقصودُك، فبنى بيتَ نارٍ فعبدها وهو أولُ مَنْ عبد النار.

تحريم القتل وجزاؤه

﴿**من أجل ذلك**﴾ شروعٌ فيما هو المقصودُ من تلاوة النبأ من بيان بعضٍ آخرَ من جنايات بني إسرائيل ومعاصيهم، وذلك إشارةٌ إلى عِظم شأنِ القتلِ وإفراطِ قُبحِه المفهومَين مما ذكر في تضاعيف القِصّةِ من استعظام هابيلَ له وكمالِ اجتنابه عن

---

(١) أروح الشيء: أنتن.

(٢) قرأ بها: طلحة بن مصرف، والفياض بن غزوان، وطلحة بن سليمان.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٦٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٠٩).

مباشرته، وإن كان ذلك بطريق الدفعِ عن نفسه واستسلامه لأن يُقتلَ خوفًا من عقابه وبيانِ استتباعِه لتحمل القاتلِ لإثم المقتول ومن كون قابيلَ بمباشرته من جُملة الخاسرين دينَهم ودنياهم ومن ندامته على فعله مع ما فيه من العتوّ وشدة الشكيمةِ وقساوةِ القلب.

والأجْلُ في الأصل مصدر أجَل شرًّا إذا جناه، استعمل في تعليل الجناياتِ كما في قولهم: من جرّاك فعلتُه أي من أن جرَرْتَه وجنيتَه، ثم اتُّسع فيه واستُعمل في كل تعليل، وقرئ من إِجْل بكسر الهمزة وهي لغة فيه، وقرئ[1] مِنَ اجْل بحذف الهمزة وإلقاء فتحتها على النون، ومن لابتداء الغايةِ متعلقةٌ بقوله تعالى: ﴿**كتبنا على بني إسرائيل**﴾ وتقديمُها عليه للقصر أي من ذلك ابتداءُ الكَتْب، ومنه نشأ لا من شيء آخرَ، أي قضينا عليهم وبيّنا ﴿**أنه مَنْ قتل نفسًا**﴾ واحدةً من النفوس.

﴿**بغير نفس**﴾ أي بغير قتلِ نفسٍ يوجب الاقتصاص ﴿**أو فساد في الأرض**﴾ أي فساد يوجب إهدارَ دمِها، وهو عطفٌ على ما أضيف إليه (غير) على معنى نفي كِلا الأمرين، كما في قولك: من صلّى بغير وضوءٍ أو تيمُّم بطلت صلاتُه، لا نفي أحدِهما، كما في قولك: من صلّى بغير وضوءٍ أو ثوبٍ بطلت صلاتُه، ومدارُ الاستعمالين اعتبارُ ورودِ النفي على ما يُستفاد من كلمة أو من الترديد بين الأمرين المنبئ عن التخيير والإباحة، واعتبارِ العكس، ومناطُ الاعتبارين اختلافُ حالِ ما أضيف إليه (غير) من الأمرين بحسب اشتراطِ نقيضِ الحُكم بتحقق أحدِهما، واشتراطِه بتحققهما معًا، ففي الأول يرد النفيُ على الترديد الواقعِ بين الأمرين قبل ورودِه فيفقِدُ نفيَهما معًا وفي الثاني يرد الترديدُ على النفي فيفيد نفيَ أحدهما حتمًا إذ ليس قبل ورودِ النفي ترديدٌ حتى يُتصَوَّر عكسُه.

وتوضيحُه أن كلَّ حكمٍ شُرِطَ بتحقق أحدِ شيئين مثلًا فنقيضُه مشروطٌ[2] بانتفائهما معًا، وكلَّ حكمٍ شرط بتحققهما معًا فنقيضُه مشروطٌ بانتفاء أحدِهما ضرورةَ أن نقيضَ كلِّ شيءٍ مشروطٌ بنقيض شرطِه، ولا ريب في أن نقيضَ الإيجابِ الجزئي كما في الحكم الأول هو السلبُ الكليُّ، ونقيضَ الإيجابِ الكليّ، كما في الحكم الثاني هو

---

(١) قرأ بها: نافع، وورش، وأبو جعفر، والزبير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٦٨)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٠١)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٩٢).

(٢) زاد في المخطوط: ورود النفي على الزيدية.

رفعُه المستلزِمُ للسلب الجزئي، فثبت اشتراطُ نقيضِ الأولِ بانتفائهما معًا واشتراطُ نقيضِ الثاني بانتفاء أحدِهما، ولمّا كان الحكمُ في قولك: من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاتُه مشروطًا بتحقق أحدِهما مُبْهمًا كان نقيضُه في قولك: من صلى بغير وضوءٍ أو تيمم بطلتْ صلاتُه مشروطًا بنقيض الشرطِ المذكور ألبتةَ، وهو انتفاؤهما معًا، فتعين ورودُ النفي المستفادِ من (غير) على الترديد الواقعِ بين الوضوء والتيمّمِ بكلمة (أو) فانتفى تحققُهما معًا ضرورةَ عمومِ النفي الواردِ على المبهم.

وعلى هذا يدور ما قالوا إنه إذا قيل: جالس العلماءَ أو الزهاد ثم أُدخل عليه لا الناهية امتنع فعلُ الجميع، نحو ﴿ولا تُطع منهم آثمًا أو كفورًا﴾ [الإنسان، الآية ٢٤] إذ المعنى لا تفعلْ أحدَهما فأيُّهما فعله فهو أحدُهما وأما قولُك: من صلى بوضوء أو ثوبٍ صحت صلاتُه فحيث كان الحكمُ فيه مشروطًا بتحقق كِلا الأمرين كان نقيضُه في قولك: من صلى بغير وضوء أو ثوبٍ بطلتْ صلاتُه مشروطًا بنقيض الشرطِ المذكورِ وهو انتفاءُ أحدِهما فتعين ورودُ الترديد على النفي فأفاد نفيَ أحدِهما، ولا يخفى أن إباحةَ القتلِ مشروطةٌ بأحد ما ذكر من القتل والفساد، ومن ضرورته اشتراطُ حرمتِه بانتفائهما معًا فتعين ورودُ النفي على الترديد لا محالة، كأنه قيل: مَنْ قتل نفسًا بغير أحدِهما.

﴿**فكأنما قتل الناس جميعًا**﴾ فمن قال في تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقَّه، وما في (كأنما) كافةٌ مهيئةٌ لوقوع الفعلِ بعدها، وجميعًا حالٌ من الناس أو تأكيد (من)، ومناطُ التشبيهِ اشتراكُ الفعلين في هتك حرمةِ الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسيرِ الناس على القتل وفي استتباع القَوَد واستجلابِ غضبِ الله تعالى وعذابِه العظيم.

﴿**ومن أحياها**﴾ أي تسبب لبقاء نفس واحدةٍ موصوفةٍ بعدم ما ذُكر من القتل والفساد في الأرض إما بنهي قاتلِها أو استنقاذِها من سائر أسبابِ الهلَكة بوجهٍ من الوجوه ﴿**فكأنما أحيا الناس جميعًا**﴾ وجهُ التشبيهِ ظاهرٌ والمقصودُ تهويلُ أمرِ القتلِ وتفخيمُ شأن الإحياءِ بتصوير كلٍّ منهما بصورة لائقة به في إيجاب الرهبةِ والرغبة، ولذلك صدر النظمُ الكريمُ بضمير الشأنِ المنبئ عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الأذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقريرِ ما بعده في الذهن، فإن الضميرَ لا يفهم منه من أول الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ له خطرٌ فيبقىٰ الذهنُ مترقبًا لما يعقُبه فيتمكن عند ورودِه فضلَ تمكّنٍ كأنه قيل: إن الشأن الخطيرَ هذا.

﴿**ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات**﴾ جملةٌ مستقلةٌ غيرُ معطوفةٍ على كتبنا أُكّدت بالتوكيد القسمي وحرفِ التحقيقِ لكمال العنايةِ بتحقق مضمونِها، وإنما لم يُقَلْ ولقد

أرسلنا[1] . . . إلخ للتصريح بوصول الرسالةِ إليهم، فإنه أدلُّ على تناهيهم في العتوّ والمكابرة، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحةِ الناطقةِ بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدًا لوجوب مراعاتِه وتأييدًا لتحتم المحافظةِ عليه.

﴿ثم إن كثيرًا منهم بعد ذلك﴾ أي بعد ما ذكر من الكَتْب وتأكيدِ الأمر بإرسال الرسلِ تترى وتجديدِ العهدِ مرة بعد أخرى، ووضعُ اسمِ الإشارةِ موضعَ الضمير للإيذان بكمال تميّزِه وانتظامِه بسبب ذلك في سلك الأمورِ المشاهدة، وما فيه من معنى البعدِ للإيماء إلى علو درجتِه وبُعد منزلتِه في عظم الشأنِ، وثم للتراخي في الرتبة والاستبعاد ﴿في الأرض﴾ متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿لمسرفون﴾ وكذا الظرفُ المتقدم، ولا يقدح فيه توسطُ اللام بينه وبينهما لأنها لامُ الابتداءِ وحقُّها الدخولُ على المبتدأ، وإنما دخولُها على الخبر لمكان إنّ، فهي في حيزها الأصلي.

والإسرافُ في كل أمر التباعدُ عن حد الاعتدالِ مع عدم مبالاة به، أي مسرفون في القتل غيرُ مبالين به، ولما كان إسرافُهم في أمر القتلِ مستلزِمًا لتفريطهم في شأن الإحياءِ وجودًا وذكرًا وكان هو أقبحَ الأمرين وأفظعَهما اكتفي بذكره في مقام التشنيع.

﴿إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حكمِ نوع من أنواع القتلِ وما يتعلق به من الفساد بأخذ المالِ ونظائرِه وتعيينِ موجبِه العاجلِ والآجلِ إثرَ بيانِ عظمِ شأن القتلِ بغير حق، وأُدرج فيه بيانُ ما أشير إليه إجمالًا من الفساد المبيحِ للقتل، قيل: أي يحاربون رسولَه، وذكرُ الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محلّه عنده عز وجل، ومحاربةُ أهلِ شريعتِه وسالكي طريقتِه من المسلمين محاربةٌ له عليه السلام فيعم الحكمُ من يحاربهم ولو بعد أعصارٍ بطريق العبارة دون الدِلالةِ والقياس، لأن ورود النصِّ ليس بطريق خطابِ المشافهةِ حتى يختصَّ حكمُه بالمكلفين عند النزول فيُحتاجَ في تعميمه لغيرهم إلى دليل آخرَ، وقيل: جعلُ محاربة المسلمين محاربةً لله[2] تعالى ورسولِه تعظيمًا لهم والمعنى يحاربون أولياءَهما، وأصل الحربِ السلْب والمرادُ هاهنا قطعُ الطريق، وقيل: المكابرة بطريق اللصوصية وإن كانت في مِصْرٍ.

﴿ويسعون في الأرض﴾ عطف على يحاربون، والجارُّ والمجرور متعلقٌ به وقوله تعالى: ﴿فسادًا﴾ إما مصدرٌ وقع موقِعَ الحالِ من فاعل يسعون أي مفسدين أو مفعول له أي للفساد أو مصدر مؤكد ليسعون لأنه في معنى يفسدون على أنه مصدرٌ من أفسد بحذف الزوائد أو اسمُ مصدر.

---

(١) زاد في المخطوط: إليهم رسلهم.
(٢) في المخطوط: الله.

قيل: (نزلت الآية في قوم هلال بنِ عويمرٍ الأسلمي وكان وادَعه رسولُ الله ﷺ على ألا يُعينَه ولا يُعين عليه، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يُهاج، ومن مر بهلال إلى رسول الله ﷺ فهو آمن لا يهاج، فمر قومٌ من بني كنانةَ يريدون الإسلام بناس من قوم هلالٍ ولم يكن هلال يومئذ شاهدًا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم)[1].

وقيل: (نزلت في العُرَنيين[2] وقصتُهم مشهورة).

وقيل: (في [قوم][3] من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ فنقضوا العهدَ وقطعوا السبيل، وأفسدوا في الأرض).

ولما كانت المحاربةُ والفسادُ على مراتبَ متفاوتةٍ ووجوه شتى من القتل بدون أخذِ المالِ، ومن القتل مع أخذه، وأخذِه بدون القتل، ومن الإخافة بدون قتلٍ وأخذ، شُرعت لكل مرتبةٍ من تلك المراتب عقوبةٌ معينة بطريق التوزيع فقيل: ﴿أن يقتّلوا﴾ أي حدًا من غير صلبٍ إن أفردوا القتلَ، ولو عفا الأولياءُ لا يلتفت إلى ذلك، لأنه حقُّ الشرعِ، ولا فرق بين أن يكون القتلُ بآلة جارحةٍ أو لا.

﴿أو يصلبوا﴾ أي مع القتل إن جمعوا بين القتلِ والأخذِ بأن يصلّبوا أحياءً وتُبعَجَ بطونُهم برمح إلى أن يموتوا، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخير إن شاء اكتفى بذلك، وإن شاء قطع أيديَهم وأرجلَهم من خلاف وقتلهم وصلبهم، وصيغةُ التفعيل في الفعلين للتكثير وقرئ[4] بالتخفيف فيهما.

﴿أو تقطع أيديهم وأرجلُهم من خلاف﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلُهم اليسرى إن اقتصروا على أخذ المالِ من مسلم أو ذمي، وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ١٠).

(٢) هم بنو عرينة بن نذير بن قيس بن عبقر بن أنمار، فهم الرهط الذين قدموا على رسول الله فاجتووا المدينة (كرهوا المقام بها) فبعث بهم في إبل الصدقة يشربون من ألبانها وأبوالها فصحّوا، وقتلوا راعي رسول الله واستاقوا الإبل، فبعث في إثرهم فأحضرهم فسمل أعينهم وتركهم بالحرَّة يستسقون. ينظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ص (٣٢٧).

(٣) سقط في المخطوط.

(٤) «يُقْتَلوا» قرأ بها: ابن محيصن، والحسن، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٤٩٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٤)، والبحر المحيط (٣/ ٤٧١).
«يُصْلَبوا» قرأ بها: ابن محيصن، والحسن، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٤٩٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٤)، والبحر المحيط (٣/ ٤٧١).

أصاب كلاً منهم عشرةُ دراهمَ أو ما يساويها قيمتُه، أما قطعُ أيديهم فلأخذ المالِ وأما قطعُ أرجلهم فلإخافة الطريقِ بتفويت أمْنِه ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ إن لم يفعلوا غيرَ الإخافةِ والسعي للفساد، والمرادُ بالنفي عندنا هو الحبسُ فإنه نفيٌ عن وجه الأرضِ لدفع شرِّهم عن أهلها ويُعزّرون أيضًا لمباشرتهم منكر الإخافة وإزالة الأمن، وعند الشافعي رضي الله عنه النفي من بلد إلى بلد لا يزال يُطلب وهو هاربٌ فزعًا، وقيل: هو النفي عن بلده فقط، وكانوا ينفونهم إلى دَهْلَك وهو بلد في أقصى تِهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة.

﴿ذلك﴾ أي ما فصل من الأحكام والأجزية، قيل: هو مبتدأٌ وقوله تعالى: ﴿لهم خزي﴾ جملةٌ من خبر مقدم على المبتدأ وقوله تعالى: ﴿في الدنيا﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لخزيٌ أو متعلق بخزيٌ على الظرفية، والجملةُ في محل الرفع على أنها خبر لذلك، وقيل: خزيٌ خبرٌ لذلك و(لهم) متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا من خزي، لأنه في الأصل صفةٌ له، فلما قُدّم انتصب حالًا، وفي الدنيا إما صفةٌ لخزيٌ أو متعلقٌ به على ما مر، والخزيُ الذلُّ والفضيحة ﴿ولهم في الآخرة﴾ غير هذا ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادَرُ قدرُه لغاية عِظمِ جنايتِهم فقوله تعالى: ﴿لهم﴾ خبرٌ مقدم و﴿عذاب﴾ مبتدأٌ مؤخرٌ و﴿في الآخرة﴾ متعلق بمحذوف وقع حالًا من عذاب، لأنه في الأصل صفةٌ له فلما قدم انتصب حالًا أي كائنًا في الآخرة ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثناءٌ مخصوصٌ بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أما ما هو من حقوق الأولياءِ من القصاص ونحوِه فإليهم ذلك إن شاءوا عفَوْا وإن أحبوا استوفَوْا، وإنما يسقطُ بالتوبة وجوبُ استيفائِه لا جوازُه، وعن علي رضي الله عنه أن الحارثَ بن بدر جاءه تائبًا بعد ما كان يقطع الطريقَ فقبِلَ توبته ودرأ عنه العقوبة.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ لما ذُكِرَ عِظَمُ شأنِ القتلِ والفساد وبيِّن حُكمُهما وأُشير في تضاعيف ذلك إلى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أُمِرَ المؤمنون بأن يتقوه تعالى في كل ما يأتون وما يذرون بترك ما يجبُ اتقاؤُه من المعاصي التي من جُملتها ما ذُكر من القتل والفساد، وبفعل الطاعات التي من زُمرتها السعيُ في إحياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة إلى التوبة والاستغفار ﴿وابتغوا﴾ أي اطلُبوا لأنفسكم ﴿إليه﴾ أي إلى ثوابه والزُّلفىٰ منه ﴿الوسيلةَ﴾ هي فعيلةٌ بمعنى ما يُتوسّل به ويُتقرَّب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وتركِ المعاصي، من وسَّل إلى كذا أي تقرّب إليه بشيء، و(إليه) متعلقٌ بها قُدّم عليها للاهتمام به، وليست بمصدرٍ حتى لا تعملَ فيما قبلها.

ولعل المراد بها الاتقاءُ المأمورُ به فإنه مَلاكُ الأمر كلِّه كما أشير إليه، وذريعةٌ لنيل كلِّ خير ومنجاةٌ من كل ضَيْر، فالجملة حينئذ جاريةٌ مما قبلها مَجرىٰ البيانِ والتأكيد. أو مطلقُ الوسيلة وهو داخل فيها دخولًا أوليًّا.

وقيل: الجملةُ الأولى أمرٌ بترك المعاصي والثانية أمرٌ بفعل الطاعات، وحيث كان في كلٍّ من ترك المعاصي المشتهاةِ للنفس وفعلِ الطاعات المكروهة لها كُلفة ومشقة عقّب الأمرَ بهما بقوله تعالى: ﴿**وجاهدوا في سبيله**﴾ بمحاربة أعدائِه البارزةِ والكامنة ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ بنيلِ مرضاتِه والفوزِ بكراماته.

﴿**إن الذين كفروا**﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ بالأوامر السابقة وترغيبِ المؤمنين في [المسارعة إلى تحصيل](1) الوسيلة إليه عز وجل قبل انقضاءِ أوانِه ببيان استحالةِ توسُّلِ الكفار يومَ القيامة بأقوىٰ الوسائل إلى النجاة من العذاب فضلًا عن نيلِ الثواب.

﴿**لو أن لهم**﴾ أي لكل واحدٍ منهم كما في قوله تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ [يونس: ٥٤] إلخ، لا لجميعهم إذ ليس في ذلك هذه المرتبةُ من تهويل الأمر وتفظيعِ الحال ﴿**ما في الأرض**﴾ أي من أصناف أموالِها وذخائرِها وسائرِ منافعِها قاطبةً وهو اسمُ أن ولهم خبرُها ومحلُّها الرفعُ بلا خلاف، خلا أنه عند سيبويه رفعٌ على الابتداء ولا حاجة فيه إلى الخبر لاشتمال صلتِها على المُسنَدِ والمُسنَد إليه، وقد اختصَّتْ من بين سائر ما يُؤوّل بالاسم بالوقوع بعد لو، وقيل: الخبرُ محذوفٌ ثم قيل: يُقدّر مقدّمًا، أي لو ثابتٌ كونُ ما في الأرض لهم. وقيل: يقدر مؤخرًا أي لو كونُ ما في الأرض لهم ثابتٌ، وعند المبرِّد والزجّاج والكوفيين رُفعَ على الفاعلية والفعلُ مقدرٌ بعد لو أي لو ثبَتَ أن لهم ما في الأرض. وقوله تعالى: ﴿**جميعًا**﴾ توكيد للموصول أو حال منه ﴿**ومثلَه**﴾ بالنصب عطفٌ عليه وقوله تعالى: ﴿**معه**﴾ ظرفٌ وقع حالًا من المعطوفِ، والضميرُ راجعٌ إلى الموصول وفائدتُه التصريحُ بفرض كينونَتِهما لهم بطريق المعيّة لا بطريق التعاقُب تحقيقًا لكمال فظاعةِ الأمر مع ما فيه من نوع إشعارٍ بكونهما شيئًا واحدًا وتمهيدًا لإفراد الضمير الراجع إليهما، واللام في قوله تعالى: ﴿**ليفتدوا به**﴾ متعلقةٌ بما تعلق به خبرُ أن، أعني الاستقرارَ المقدَّرَ في (لهم) وبالخبر المقدّر عند من يرى تقديرَ الخبرِ مقدمًا أو مؤخرًا، وبالفعل المقدّر بعد لو على رأي المبرِّد ومن نحا نحوه، ولا ريب في أن مدارَ الافتداءِ بما ذُكر هو كونُه

---

(١) سقط في المخطوط.

لهم لا ثبوتُ كونِه لهم وإن كان مستلزِمًا له، والباء في (به) متعلقةٌ بالافتداء، والضميرُ راجعٌ إلى الموصول و(مثله) معًا، وتوحيدُه إما لما أشير إليه، وإما لإجرائه مُجرى اسمِ الإشارة كأنه قيل بذلك كما في قوله: [الرجز]

.... كأنه في الجلد توليعُ البَهَقْ[1]

أي كأن ذلك، وقيل: هو راجعٌ إلى الموصول، والعائدُ إلى المعطوف أعني (مثله) محذوفٌ، كما حُذف الخبرُ من قيار في قوله: [الطويل]

.... فإني وقيارٌ بها لغريبُ[2]

أي وقيار أيضًا غريبُ، وقد جوَّزَ أن يكون نُصب و(مثلَه) على أنه مفعولٌ معه ناصِبُه الفعلُ المقدر بعد لو تفريعًا على مذهب المبرد، ومن رأى رأيَه، وأنت خبيرٌ بأن يؤدِّي إلى كونِ الرافعِ للفاعل غيرَ الناصب للمفعول معه لأن المعنى على اعتبارِ المعيةِ بين (ما في الأرض ومثله) في الكينونة لهم، لا في ثبوت تلك الكينونةِ وتحققِها، ولا مَساغَ لجعل ناصبِه الاستقرارَ المقدرَ في (لهم)، لِما أن سيبويهِ قد نصَّ على أنَّ اسمَ الإشارةِ وحرفَ الجر المتضمِّنَ للاستقرار لا يعمَلانِ في المفعول معه وأن قوله: هذا لك وأباك قبيحٌ وإن جوزه بعضُ النحاة في الظروف وحرف الجر، وقولُه تعالى: ﴿**من عذاب يوم القيامة**﴾ متعلقٌ بالافتداء أيضًا، أي لو أن (ما في الأرض مثله) ثابتٌ لهم ليجعلوه فديةً لأنفسِهم من العذاب الواقعِ يومئذ.

﴿**ما تقبل منهم**﴾ ذلك، وهو جواب لو وترتيبُه على كون ذلك لهم لأجل افتدائِهم به من غير ذكرِ الافتداءِ بأن يقال: وافتدَوْا به مع أن الردَّ والقَبولَ إنما يترتب عليه لا على مباديه، للإيذانِ بأنه أمرٌ محقَّقُ الوقوع غنيٌّ عن الذكر، وإنما المحتاجُ إلى الفَرْض

---

(١) تقدم.

(٢) عجز بيت وصدره:

فمن تكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ ....

والبيت لضابئ بن الحارث البرجمي في الأصمعيات ص (١٨٤)، والإنصاف ص (٩٤)، وتخليص الشواهد ص (٣٨٥)، وخزانة الأدب (٩/ ٣٢٦، ١٠/ ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٠) والدرر (٦/ ١٨٢)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٣٦٩)، وشرح التصريح (١/ ٢٢٨)، وشرح شواهد المغني ص (٨٦٧)، وشرح المفصل (٨/ ٨٦)، والشعر والشعراء ص (٣٥٨)، والكتاب (١/ ٧٥)، ولسان العرب (قير)، ومعاهد التنصيص (١/ ١٨٦)، والمقاصد النحوية (٢/ ٣١٨)، ونوادر أبي زيد ص(٢٠)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ١٠٣)، وأوضح المسالك (١/ ٣٥٨)، ورصف المباني ص (٢٦٧)، وسر صناعة الإعراب ص (٣٧٢)، وشرح الأشموني (١/ ١٤٤)، ومجالس ثعلب ص (٣١٦، ٥٩٨)، وهمع الهوامع (٢/ ١٤٤).

قدرتُهم على ما ذُكر أو للمبالغةِ في تحقيق الردِّ وتخييلِ أنه وقع قبل الافتداءِ على منهاج ما في قوله تعالى: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك فلما رآه مستقرًا عنده﴾ [النمل، الأية ٤١] حيث لم يقل: فأتىٰ به فلما رآه إلخ، وما في قوله تعالى: ﴿وقالت اخرُجْ عليهن فلما رأينَه أكبرْنه﴾ [يوسف، الآية ٣١] من غير ذكر خروجِه عليه السلام عليهن ورؤيتِهن له. والجملة الامتناعية بحالها خبرُ إن الذين كفروا، والمرادُ تمثيلُ لزوم العذاب لهم واستحالةُ نجاتِهم منه بوجهٍ من الوجوه المحققةِ والمفروضة. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «يقالُ للكافر أرأيت لو كان لك ملءُ الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد سُئلتَ أيسرَ من ذلك وهو كلمة الشهادة»(١).

وقوله تعالى: ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ تصريحٌ بما أشير إليه بعدم قَبول فِديتِهم لزيادة تقريرِه وبيانِ هَوْلِه وشدّتِه، قيل: محلُّه النصب على الحالية؛ وقيل: الرفعُ عطفًا على خبر إن، وقيل: عطفٌ على إن الذين فلا محلَّ له كالمعطوف عليه ﴿**يريدون أن يخرجوا من النار**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان حالهم في أثناء مكابدة العذاب مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مما قبله، كأنه قيل: فكيف يكون حالُهم؟ أو ماذا يصنعون؟ فقيل: يريدون إلخ، وقد بين في تضاعيفه أن عذابهم عذاب النار، قيل: إنهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرَج فيلفَحُهم لهَبُ النار ويرفعُهم إلى فوق، فهناك يريدون الخروج ولاتَ حين مناصٍ، وقيل: يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادةِ رفعِها إياهم، وقيل: يتمنّونه ويريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل: ﴿**وما هم بخارجين منها**﴾ إما حالٌ من فاعل يريدون، أو اعتراضٌ، وأيا ما كان فإيثارُ الجملة الاسمية على الفعلية مصدّرةً بما الحجازية الدالة بما في خبرها من الباء على تأكيد النفي لبيان كمالِ سوءِ حالهم باستمرار عدم خروجِهم منها، فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيدُ بمعونة المقام دوامَ الثبوت تفيد السلبيةَ أيضًا بمعونةِ دوامِ النفي لا نفْيِ الدوام، كما مر في قوله تعالى: ﴿ما أنا بباسط﴾ [المائدة، الآية ٢٨] إلخ، وقرئ(٢) (أن يُخرَجوا) على بناء المفعول من الإخراج ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾ تصريح بما أشير إليه آنفًا من عدم تناهي مدتِه بعد بيان شدتِه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١/ ٤٠٨)- كتاب الرقاق (٨١)- باب من نوقش الحساب عذب (٤٩) (٦٥٣٨)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢١٦١)- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠)- باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (١٠) (٥٢/ ٢٨٠٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٢١٨)، وابن جرير في تفسيره (٣/ ٣٤٤/ ٧٣٨٢).

(٢) قرأ بها: النخعي، وابن وثاب، وأبو واقد.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٧٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٦).

أحكام السرقة

﴿**والسارق والسارقة**﴾ شروعٌ في بيان حكم السرقةِ الصُّغرى بعد بيان أحكام الكبرى، وقد عرفت اقتضاءَ الحال لإيراد ما توسّط بينهما من المقال، ولمّا كانت السرقة معهودةً من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضًا مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراجُ النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناءِ بالبيان والمبالغةِ في الزجْر، وهو مبتدأ خبرُه عند سيبويه محذوفٌ تقديرُه وفيما يتلى عليكم أو وفيما فُرِضَ عليكم السارقُ والسارقةُ أي حكمُهما وعند المبرِّد قوله تعالى: ﴿**فاقطعوا أيديَهما**﴾ والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى الذي سرق والتي سرقت، وقرئ[1] بالنصب وفضَّلها سيبويه على قراءة الرفع، لأن الإنشاء لا يقع خبرًا إلا بتأويلٍ وإضمار، والسرقةُ[2] أخذُ مال الغير خُفْيةً، وإنما توجب القطعَ إذا كان

---

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٤٩٦)، والبحر المحيط (٣/ ٤٧٦)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥١٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٦٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٣٩٨).

(٢) وهي بفتح السين، وكسر الراء، ويجوز إسْكان الرَّاء، مع فتح السين، وكسرها، يقال: سرق بفتح الراء، يسرق بكسرها سرقاً، وسرقة، فهو سارق، والشيء مسروق، وصاحبه مسروق منه، فهي لغة: أخذ الشيء من الغير خفية، أي شيء كان.
واصْطِلاَحاً:
عرفها الشافعية: بأنها أخذ المال خفية، ظلماً، من غير حرز مثله بشروط. وعرفها المالكية: بأنها أخذ مكلَّف حر لا يعقل لصغره، أو مالاً محترماً لغيره نصاباً أخرجه من حرزه، وبقصد واحد خفية لا شبهة له فيه.
وعرفها الحنفية: بأنها أخذ مكلف عاقل بالغ خفية قدر عشرة دراهم.
وعرفها الحنابلة: بأنها أخذ مال محترم لغيره، وإخراجه من حِرْز مثله.
ينظر: الصحاح (٤/ ١٤٩٦)، والمغرب (١/ ٣٩٣)، والمصباح (١/ ٤١٩) وتهذيب الأسماء للنووي (١٤٨/٢)، ودرر الحكام (٢/ ٧٧)، وابن عابدين (٤/ ٨٢)، ومغني المحتاج (٤/ ١٥٨)، والمغني لابن قدامة (٩/ ١٠٤)، وكشاف القناع (٦/ ١٢٩)، والخرشي على المختصر (٨/ ٩١).
وقد اشترط جمهور الفقهاء لإقامة حد السرقة أن يكون المال المسروق من مكان محرز، ذلك أن الأخذ من غير حرز لا يحتاج إلى الاستخفاء بالإضافة إلى أن عقوبة القطع وجبت لصيانة الأموال على أربابها قطعا وأطماع السراق إنما تميل إلى ماله خطر في القلوب وغير المحرز لا خطر له في القلوب عادة، فلا تميل الأطماع إليه فلا حاجة إلى الصيانة بإيجاب حد السرقة وقطع يد السارق في هذا الفرض.
هذا، وقد أوضح الإمام الغزالي: أن السرقة لها أركان ثلاثة:
المسروق: وهو أن يكون نصابا مملوكا للغير محترما تاما محرزا لا شبهة للسارق فيه.

=

. . . .

= والسارق: وهو أن يكون بالغا عاقلا غير مالك للمسروق وليس عليه ولاية وعليه فلا قطع على صبي ولا مجنون.
وفعل السرقة: وهي إبطال الحرز ونقل المال.
ينظر: بدائع الصنائع للكاساني (٧/ ٧٠-٧٣)، والوسيط في المذهب للغزالي (٦/ ٤٥٦)، والخراج لأبي يوسف (١٠٥)، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي (٢/ ٤٣٧)، وحاشية الدسوقي للعلامة محمد عرفة الدسوقي على الشرح الكبير لأبي البركات سيدي أحمد الدردير (٤/ ٣٣٣)، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج شرح الشيخ محمد الخطيب الشربيني (٤/ ١٥٨)، والمغني لابن قدامة (٨/ ٢٤٠).
أما مقدار ما يقطع به السارق فقد اختلف الفقهاء فيما بينهم على النحو التالي:
الأول: أن النصاب مقدر بثلاثة دراهم من الفضة أو ربع دينار من الذهب، وإليه ذهب المالكية، والشافعية، والحنابلة.
ينظر: المنتقى شرح الموطأ (٧/ ١٥٧)، والمقدمات الممهدات (٢/ ٣٢٨)، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢/ ٤٤٧)، والمعونة على مذهب عالم المدينة (٣/ ١٤١٥)، والأم (٦/ ٥٨)، وأسنى المطالب شرح روض الطالب (٤/ ١٣٧)، وحاشيتا قليوبي وعميرة (٤/ ١٨٧)، والأحكام السلطانية. علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٢٨٢)، والمغني لابن قدامة (٩/ ٩٤)، والإنصاف (١٠/ ٢٦٢)، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ص(١٣٠)، والفروع لابن مفلح (٦/ ١٢٦).
الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية أن قدر النصاب الذي يقطع السارق به هو عشرة دراهم من الفضة أو دينار من الذهب، وهو مروي عن ابن مسعود، وعطاء، وعمرو بن شعيب.
ينظر: المبسوط (٩/ ١٣٧)، وبدائع الصنائع (٧/ ٧٧)، وشرح معاني الآثار للطحاوي (٣/ ١٦٧)، وأحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٨٤).
الثالث: أن تقدير نصاب السرقة هو خمسة دراهم وهو قول عمر، وأنس، وعروة، والزهري، وسليمان بن يسار، وابن شبرمة، وابن أبي ليلى.
ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٨٤)، والأحكام السلطانية صـ٢٨٢، والمغني لابن قدامة (٩/ ٩٤).
الرابع: وهو مروي عن الحسن البصري، وعثمان البتي أنه قال: «قطع في درهم واحد»، وهو قول شاذ قد اتفق الفقهاء على خلافه.
ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٨٤).
الخامس: وهو مروي عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة. رضي الله عنهما. قالا: «لا تقطع اليد إلا في أربعة دراهم».
ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٨٤)، والمغني لابن قدامة (٩/ ٩٤).
السادس: أن نصاب السرقة مقدر بأربعين درهما أو أربعة دنانير وهو مروي عن إبراهيم النخعي.
ينظر: الأحكام السلطانية. علي بن محمد بن حبيب الماوردي. ص (٢٨٢).

الأخذ من حِرزٍ والمأخوذُ يساوي عشرةَ دراهِمَ فما فوقها مع شروط فُصِّلت في موقعها.

والمراد (بأيديَهما) أيمانُهما كما يُفصحُ عنه قراءةُ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[١]: و(السارقاتُ[٢] فاقطعوا أيمانهم)[٣]، ولذلك ساغ وضعُ الجمْع موضعَ المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ [التحريم، الآية ٤] اكتفاءً بتثنية المضاف إليه، واليد اسمٌ لتمام الجارحة، ولذلك ذهب الخوارجُ إلى أن المقطَعَ هو المنكب، والجمهورُ على أنه الرُّسُغ، لأنه عليه الصلاة والسلام أُتيَ بسارقٍ فأمر بقطع يمينِه منه.

﴿**جزاءً**﴾ نُصبَ على أنه مفعولٌ له أي فاقطعوا للجزاء، أو مصدرٌ مؤكِّد لفعله الذي يدل عليه فاقطعوا، أي فجاوزوهما جزاء، وقوله تعالى: ﴿**بما كسبا**﴾ على الأول متعلّقٌ بجزاءً وعلى الثاني فاقطعوا، و(ما) مصدريةٌ، أي بسبب كسْبِهما أو موصولةٌ أي ما كسباه من السرقة التي تباشَر بالأيدي، وقوله تعالى: ﴿**نكالًا**﴾ مفعولٌ له أيضًا على البدلية من (جزاءً) لأنهما من نوع واحد، وقيل: القطعُ معلَّلٌ بالجزاء، والقطعُ المعللُ معلَّلٌ بالنَّكال.

وقيل: هو منصوبٌ بجزاءً على طريقة الأحوال المتداخِلَة، فإنه علةٌ للجزاء، والجزاءُ علةٌ للقطع كما إذا قلتَ: ضربتُه تأديبًا له إحسانًا إليه، فإن الضربَ معلَّلٌ بالتأديب والتأديبُ معللٌ بالإحسان، وقد أجازوا في قوله عز وجل: ﴿أن يكفُروا بما أنزلَ الله بغيًا أن ينزِّلَ الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ [البقرة، الآية ٩٠] أن يكون (بغيًا) مفعولًا له ناصبُه أن يكفروا، ثم قالوا: إن قوله تعالى: ﴿أن ينزِّلَ الله﴾ مفعولٌ له ناصبُه بغيًا على أن التنزيلَ عَلةٌ للبغي، والبغْيَ علةٌ للكفر.

وقوله تعالى: ﴿**من الله**﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لنكالًا كائنًا منه تعالى ﴿**والله عزيز**﴾ غالبٌ على أمره يُمضيه كيف يشاء من غير نِدٍّ ينازعُه ولا ضدٍّ يمانعُه ﴿**حكيم**﴾ في شرائعه لا يَحكُم إلا بما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة، ولذلك شرَعَ هذه الشرائعَ المنطويةَ على فنون الحِكَمِ والمصالح ﴿**فمن تاب**﴾ أي من السُرّاق إلى الله تعالى ﴿**من**

---

(١) زاد في المخطوط: والسارقون.

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٧٦، ٤٨٣)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥١٦)، وتفسير الطبري (١٠/ ٢٩٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٦٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٧)، والمعاني للفراء (١/ ٣٠٦).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٧٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٦٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٧).

بعد ظلمه﴾ الذي هو سرِقتُه، والتصريحُ به مع أن التوبةَ لا تُتصوَّرُ قبلَه لبيان عِظَم نعمتِه تعالى بتذكير عِظَمِ جنايتِه ﴿**وأصلح**﴾ أي أمره بالتقصّي عن تبعات ما باشرَه والعزمِ على ترك المعاودةِ إليها.

﴿**فإن الله يتوب عليه**﴾ أي يقبل توبتَه فلا يعذّبه في الآخرة، وأما القطعُ فلا تُسقطُه التوبةُ عندنا، لأن فيه حقَّ المسروقِ منه، وتُسقطُه عند الشافعيِّ في أحد قوليه: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ مبالِغٌ في المغفرة والرحمة ولذلك يَقبلُ توبتَه، وهو تعليلٌ لما قبلَه، وإظهارُ الاسمِ الجليل للإشعارِ بعِلَّة الحُكْم وتأييدِ استقلالِ الجملة وكذا في قوله عز وجل: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملكُ السمواتِ والأرض**﴾ فإن عُنوانَ الألوهية مدارُ أحكام ملكوتِهما، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدّم، ومُلكُ السموات والأرض مبتدأ، والجملةَ خبرٌ لأنّ، وهي مع ما في حيِّزِها سادّةٌ مَسدَّ مفعوليْ (تعلم) عند الجمهور، وما فيه من تكريرِ الإسنادِ لتقويةِ الحُكْم، والخطاب لرسول الله ﷺ بطريق التلوين. وقيل: لكل أحدٍ صالحٍ للخطاب، والاستفهامُ الإنكاريُّ لتقرير العلم، والمرادُ به الاستشهادُ بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتي من التعذيب والمغفرةِ على أبلغ وجهٍ وأتمِّه، أي ألم تعلم أن الله له السلطانُ القاهر والاستيلاء الباهرُ المستلزمانِ للقدرة التامة على التصرُّفِ الكليِّ فيهما وفيما فيهما إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً إلى غير ذلك حسْبما تقتضيه مشيئتُه ﴿**يعذب من يشاء**﴾ أن يعذّبه ﴿**ويغفر لمن يشاء**﴾ أن يغفرَ له من غير نِدٍّ يساهمُه ولا ضدٍّ يزاحمُه، وتقديمُ التعذيبِ على المغفرة لمراعاةِ ما بين سببيهما من الترتيب، والجملة إما تقريرٌ لكون ملكوتِ السموات والأرضِ له سبحانه، أو خبرٌ آخرُ (لأن).

﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ فيقدِرُ على ما ذُكر من التعذيب والمغفرة، والإظهارُ في موقع الإضمارِ لما مرَّ مرارًا والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبلها.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ

أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ خُوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريفِ والإشعارِ بما يوجب عدمَ الحزن، والمسارعةُ في الشيء الوقوعُ فيه بسرعة ورَغبةً، وإيثارُ كلمة (في) على كلمة (إلى) الواقعة في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ إلخ [آل عمران، الآية: ١٣٣] للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرَحونه، وإنما ينتقِلون بالمسارعة عن بعض فنونِه وأحكامِه إلى بعضٍ آخرَ منها كإظهارِ موالاةِ المشركين، وإبرازِ آثارِ الكيدِ للإسلام ونحوِ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ [المؤمنون: ٦١] فإنهم مستمرون على الخير مسارعون في أنواعِه وأفرادِه، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإشارة بما في حيِّز صلتِه إلى مدار الحزن، وهذا وإن كان بحساب الظاهرِ نهيًا للكَفَرة عن أن يُحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم في الكفر لكنه في الحقيقة نهيٌ له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاةِ بهم على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه.

فإن النهيَ عن أسباب الشيء ومباديه المؤديةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني، وقلعٌ له من أصله، وقد يوجَّه النهيُ إلى المسبَّبِ ويرادُ به النهيُ عن السبب، كما في قوله:

لا أُرَينّك هاهنا يريد نهْيَ مخاطَبه عن الحضور بين يديه.

وقرئ[١] (لا يُحزِنْك) من أحزنه منقولًا من حزِن بكسر الزاي وقرئ[٢] (يُسرعون) يقال: أسرع فيه الشيبُ أي وقع سريعًا أي لا تحزَنْ ولا تُبالِ بتهافتهم في الكفر بسرعة.

وقوله تعالى: ﴿**من الذين قالوا آمنا بأفواههم**﴾ بيان للمسارعين في الكفر.

وقيل: متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من فاعل يسارعون، وقيل: من الموصول أي كائنين **من الذين** إلخ، والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا وقوله تعالى: ﴿**ولم تؤمن قلوبهم**﴾ جملةٌ حالية من ضمير (قالوا) وقيل: عطف على قالوا.

وقوله تعالى: ﴿**ومن الذين هادوا**﴾ عطف على (من الذين قالوا) إلخ، وبه يتم بيانُ المسارعين في الكفر بتقسيمهم إلى قسمين: المنافقين واليهود، فقوله تعالى: ﴿**سماعون للكذب**﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ راجعٍ إلى الفريقين أو إلى المسارعين، وأما رجوعُه إلى الذين هادوا فمُخِلٌّ بعموم الوعيد الآتي ومباديه للكل كما ستقف عليه، وكذا جُعل قولُه: ﴿ومن الذين﴾ إلخ، خبرًا على أن قولَه سماعون صفةٌ لمبتدأ محذوف أي ومنهم قومٌ سماعون إلخ، لأدائه إلى اختصاص ما عُدِّد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية والأخروية بهم، فالوجهُ ما ذُكِرَ أولًا أي هم سماعون، واللامُ إما لتقوية العمل وإما لتضمين السماعِ معنى القبول، وإما لامُ كي والمفعولُ محذوف والمعنى هم مبالغون في سماع الكَذب، أو في قَبول ما يفتريه أحبارُهم من الكذب على الله سبحانه وتحريفِ كتابه، أو سماعون أخبارَكم وأحاديثَكم ليكذبوا عليكم بأن يمسَخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير، أو أخبارَ الناس وأقاويلَهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجِعوا بقتل المؤمنين وانكسارِ سراياهم ونحو ذلك مما يُضَرُّ بهم.

وأيًّا ما كان فالجملة مستأنفةٌ جارية مَجرى التعليل للنهي، فإن كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناءَ أمورهم على ما لا أصلَ له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضي عدمَ المبالاة بهم وتركَ الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلالِ ما بَنَوْا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدِّية إلى الخزي

---

(١) قرأ بها: نافع، وعيسى بن عمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٨٧)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٨١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٢) قرأ بها: السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٨٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٢).

والعذاب كما سيأتي.

وقرئ[١] (سمّاعين للكذب) بالنصب على الذم.

وقوله تعالى: ﴿**سماعون لقوم آخرين**﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدر مقرِّرٌ للأول ومبينٌ لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين، واللام مثلُ مَنْ في سمع الله لمن حمِده في الرجوع إلى معنى من أي قبِلَ منه حَمْدَه.

والمعنى مبالِغون في قبول كلام قومٍ آخرين، وأما كونُها لامَ التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجلِ قومٍ آخرين وجَّهوهم عُيونًا ليُبلِّغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام، أو كونُها متعلقةً بالكذب على أن سماعون الثانيَ مكررٌ للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا لقومٍ آخرين فلا يكاد يساعده النظمُ الكريم أصلًا. وقوله تعالى: ﴿**لم يأتوك**﴾ صفة أخرى لقوم أي لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنك تكبرًا وإفراطًا في البغضاء، قيل: هم يهودُ خيبر والسماعون بنو قُريظة وقوله تعالى: ﴿**يحرفون الكلم من بعد مواضعه**﴾ صفةٌ أخرى لقوم وصِفوا أولًا بمغايَرَتِهم للسماعين تنبيهًا على استقلالهم وأصالتهم في الرأي والتدبير، ثم بعدم حضورِهم مجلسَ الرسول عليه الصلاة والسلام إيذانًا بكمال طغيانهم في الضلال، ثم باستمرارهم على التحريف بيانًا لإفراطهم في العتوِّ والمكابرةِ والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينًا للكذب الذي سمعه السماعون، أي يُميلونه ويُزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها إما لفظًا بإهمالِه أو تغييرِ وضعه، وإما معنًى بحَمْلِه على غير المراد وإجرائِه في غير موردِه.

وقيل: الجملةُ مستأنفة لا محل لها من الإعراب ناعيةٌ عليهم شنائعَهم. وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ راجع إلى القوم وقوله تعالى: ﴿**يقولون**﴾ كالجملة السابقة في الوجوه المذكورة، ويجوز أن يكون حالًا من ضمير (يحرفون) وأما تجويزُ كونها صفةً لسماعون أو حالًا من الضمير فيه فما لا سبيل إليه أصلًا، كيف لا وإن مقولَ القول ناطقٌ بأن قائلَه ممن لا يحضرُ مجلسَ الرسول ﷺ، والمخاطَب به ممن يحضُره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون عليه عليه الصلاة والسلام لمن يحومُ حوله قطعًا؟ وادعاءُ قولِ السماعين لأعقابهم المخالِطين للمسلمين تعسّفٌ ظاهرٌ مُخلٌّ بجزالة النظم الكريم، والحقُّ الذي لا محيد عنه أن المحرِّفين والقائلين هم القومُ الآخرون، أي يقولون

---

(١) قرأ بها: الضحاك.

ينظر: بها البحر المحيط (٣/ ٤٨٧).

لأتباعهم السماعين لهم عند إلقائهم إليهم أقاويلَهم الباطلةَ مشيرين إلى كلامهم الباطل ﴿إن أوتيتم﴾ من جهة الرسولِ عليه الصلاة والسلام ﴿هذا فخذوه﴾ واعملوا بموجَبه فإنه الحق ﴿وإن لم تؤتَوْه﴾ بل أوتيتم غيرَه ﴿فاحذروا﴾ أي فاحذروا قبولَه، وإياكم وإياه، وفي ترتيب الأمر بالحذَر على مجردِ عدمِ إيتاء المحرَّف من المبالغة في التحذير ما لا يخفى. رُوي (أن شريفًا من خَيْبرَ زنى بشريفةٍ وهما مُحصَنان وحدُّهما الرجمُ في التوراة فكرِهوا رجمَهما لشرفهما فبعثوا رهطًا منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك وقالوا: إن أمرَكم بالجلد والتحميم[1] فاقبَلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، وأرسلوا الزانيَيْن معهم فأمرهم بالرَّجْم فأَبوْا أن يأخُذوا به فقال جبريلُ عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابنَ صوريا ووصفه له فقال عليه الصلاة والسلام: «هل تعرفون شابًا أبيضَ أعورَ يسكن فَدَكَ يقال له ابن صوريا؟» قالوا: نعم، وهو أعلمُ يهوديٍّ على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بنِ عِمرانَ في التوراة، قال: «فأرسِلوا إليه» ففعلوا، فأتاهم، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «أنت ابن صوريا؟» قال: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «وأنت أعلم اليهود؟» قال: كذلك يزعُمون، قال لهم: «أترضَوْن به حكمًا؟» قالوا: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «أنشُدك الله الذي لا إلٰه إلا هو الذي فلق البحرَ وأنجاكم وأغرق آلَ فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى ورفعَ فوقكم الطورَ وأنزل عليكم التوراةَ فيها حلالُه وحرامُه هل تجدون في كتابكم الرجْمَ على من أُحصِن؟» قال: نعم، والذي ذكرتني به لولا خشِيتُ أن تحرقني التوراةُ إن كذبتُ أو غيَّرتُ ما اعترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إذا شهد أربعةُ رهطٍ عدولٌ أنه أَدخَل فيها كما يُدخَلُ الميلُ في المُكحُلة وجب عليه الرجم» قال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله في التوراة على موسى، فوثب عليه سَفَلَةُ اليهود، فقال: خفتُ إن كذَبتُه أن ينزل علينا العذاب، ثم سأل رسول الله ﷺ عن أشياءَ كان يعرِفها من أعلامه فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله النبيُّ الأمي العربي الذي بشر به المرسلون. وأمر رسولُ الله ﷺ بالزانيين فرُجما عند باب المسجد)[2].

---

(١) التحميم: تسويد الوجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ١٥٥، ١٥٦)- كتاب الحدود- باب في رجم اليهوديين (٤٤٥٠، ٤٤٥١) وعبد الرزاق في تفسيره (٧٠٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨٠)، وابن جرير (٦/ ١٥٠) في تفسيره- وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/ ٢٨١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٦٩-٢٧٠)، وابن هشام في سيرته (٢/٢٠٨).

=

﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أي ضلالته أو فضيحته كائنًا من كان فيندرج فيه المذكورون اندراجًا أوليًّا، وعدمُ التصريح بكونهم كذلك للإشعار بكمال ظهورِه واستغنائه عن ذكره ﴿فلن تملك له﴾ فلن تستطيع له ﴿من الله شيئًا﴾ في دفعها، والجملةُ مستأنفة مقرّرة لما قبلها ومبينةٌ لعدم انفكاكِهم عن القبائح المذكورة أبدًا ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما في اسْم الإشارةِ من معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفساد، وهو مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أي من رجْسِ الكفر وخَبَثِ الضلالة لأنهماكِهم فيهما وإصرارِهم عليهما وإعراضِهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبئ عنه وصفُهم بالمسارعة في الكفر أولًا، وشرحُ فنونِ ضلالتهم آخرًا، والجملة استئنافٌ مبينٌ لكون إرادتِه تعالى لفتنتِهم مَنوطةً بسوء اختيارِهم وقُبح صنيعِهم الموجبِ لها لا واقعةً منه تعالى ابتداءً.

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أما المنافقون فخزيُهم فضيحتُهم وهتكُ سِترتِهم بظهور نفاقِهم فيما بين المسلمين، وأما خزيُ اليهود فالذلُ والجزيةُ والافتضاحُ بظهور كَذِبهم في كِتمان نصِّ التوراة، وتنكيرُ (خزيٌ) للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبرُه وفي الدنيا متعلق بما تعلق به الخبرُ من الاستقرار، وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿ولهم في الآخرة﴾ أي مع الخزي الدنيوي ﴿عذاب عظيم﴾ هو الخلودُ في النار، وضميرُ (لهم) في الجملتين للمنافقين واليهود جميعًا لا لليهود خاصة، كما قيل، وتكريرُ (لهم) مع اتحاد المرجِع لزيادة التقرير والتأكيد، والجملتان استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من تفصيل أفعالِهم وأحوالهم الموجبةِ للعقاب، كأنه قيل: فما لهم من العقوبة؟ فقيل لهم: في الدنيا. . ، الآية.

﴿سماعون للكذب﴾ خبرٌ آخرُ للمبتدأ المقدّر كُرِّر تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده من قوله تعالى: ﴿أكالون للسحت﴾ وهو أيضًا خبرٌ آخرُ للمقدَّر واردٌ على طريقة الذم، أو بناءً على أن المراد بالكذِب ما يفتعله الراشون عند الأكّالين، والسُحْت بضم السين وسكون الحاء في الأصل كلُّ ما لا يحِلُّ كسبُه، وقيل: هو الحرام مطلقًا من

= ١- وللحديث شاهد من حديث ابن عمر:
أخرجه البخاري في صحيحه (١٢/ ١٧٢/ ٦٨٤١) ومسلم (٦/ ٢٢٣/ ١٦٩٩) وأبو داود (٤٤٤٦)، (٤٤٤٩)، والترمذي مقتصرًا على قصة رجم اليهوديين (جـ ٤/ ١٤٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٢٥٥٦)، وأحمد (٢/ ٥).
٢- وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله:
أخرجه أبو داود (٤٤٥٢) (٤٤٥٥)، وابن ماجه (٢٣٢٨).

سَحَتَه إذا استأصله، سمي به لأنه مسحوتُ البركة، والمراد به هاهنا إما الرِّشا التي كان يأخذها المحرِّفون على تحريفهم وسائرِ أحكامِهم الزائغة، وهو المشهور، أو ما كان يأخذه فقراؤهم من أغنيائهم من المال ليُقيموا على اليهودية كما قيل، وإما مطلقُ الحرام المنتظِم لما ذُكر انتظامًا أوليًا، وقرئ (للسُّحُت) بضم[١] السين والحاء وبفتحهما[٢] وبفتح السين[٣] وسكون الحاء وبكسر[٤] السين وسكون الحاء، وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «كلُّ لحمٍ أنبتَه السُّحْتُ فالنار أولى به»[٥].

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، وابن كثير، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٤٢)، والبحر المحيط (٣/ ٤٨٩)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٢٧)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٨٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٩٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٨٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٩).

(٣) قرأ بها: نافع، وزيد بن علي، وخارجة بن مصعب.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٨٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٤).

(٤) قرأ بها: عبيد بن عمير.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٨٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٣٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٤).

(٥) رُوي هذا الحديث عن عدد من الصحابة هم:
أبو بكر الصديق:
أخرجه الحاكم (٤/ ١٢٧) - كتاب الأطعمة- من طريق عبد الواحد بن زيد عن أسلم الكوفي عن مرة الطيب عن أبي بكر الصديق-رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ... قلت: عزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٠١) وكذلك الحافظ ابن حجر في «الكاف الشاف» للحاكم من رواية زيد بن أرقم عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه.
ولم أجده من رواية زيد بن أرقم في الحاكم وإنما وجدناه من رواية مرة الطيب عن أبي بكر الصديق مرفوعًا. والله المستعان.
عمر بن الخطاب:
أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٧٣/ ٨٧)- قال: حدثنا محمد بن الفضل السقطي ثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي ثنا يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-أن رسول الله ﷺ- قال «ثمن القينة...» ذكره وفيه «ومن نبت لحمه على السحت فالنار أولى به».
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٩٤)- وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي وهو متروك ضعفه جمهور الأئمة ونقل عن ابن معين في رواية: لا بأس به وضعفه في أخرى ا هـ.
ابن عباس:
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٩٣-٣٩٤) (٥٥١٨).
والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٧-٢١٨) (١١١٥٤) بلفظ «لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت» =

. . . .

= وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩٦)- وفيه حسين بن قيس وهو متروك.
قلت: وحسين بن قيس هذا يلقب بحنش بن قيس الرحبي، قال فيه البخاري: أحاديثه منكرة جدا ولا يكتب حديثه- راجع ترجمته في تهذيب الكمال (٦/ ٤٦٥/ ١٣٣٠) وذكره الطبراني من طريق آخر في الكبير (١١/ ١١٤) (١١٢١٦)- عن أبي شهاب- عن أبو محمد الجزري- وهو حمزة النصيبي- عن عمرو بن دينار عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ «من أعان بباطل ليدحض...» وفيه «ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به».
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢١٤-٢١٥) «رواه الطبراني وفيه أبو محمد الجزري حمزة ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».
قلت: وأبو محمد الجزري هذا - الذي لم يعرفه الهيثمي- وقف عليه الحافظ وقال فيه-كما في التقريب (١/ ١٩٩/ ٥٦٥)- متروك متهم بالوضع، من السابعة.
وأخرجه أيضا الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/ ٧٦) (٣١١٢) وفيه إبراهيم بن زياد القرشي روى الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال «لا أعرفه» وفي الميزان: «قال البخاري: لا يصح إسناده، قلت: ولا يعرف من ذا»، وفيه أيضا خصيف، وهو صدوق سيئ الحفظ، خلط بأخرة.
كعب بن عجرة:
أخرجه الترمذي (٢/ ٥١٣)- كتاب الصلاة- باب ما ذكر في فضل الصلاة- (٦١٤) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى. وسألت محمدًا عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى واستغربه جدا ا هـ، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٣٧٨-٣٧٩) (٥٥٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٦١).
جابر بن عبدالله:
أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧١٩) ومن طريقه أحمد (٣/ ٣٢١) والحاكم (٤/ ٤٢٢) عن معمر عن عبد الله بن خثيم عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله فذكره.
فائدة هامة:
تحرف في المطبوع من «مسند أحمد» سابط إلى ثابت.
وأخرجه أحمد (٣/ ٣٩٩) عن عفان، والبزار (١٦٠٩) والحاكم (٣/ ٤٨٠٢٤٧٩) من طريق معلى ابن أسد، كلاهما عن وهيب، دون قول الحاكم في حديثه «لا يدخل الجنة لحم نبت...» وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٠) وقال: رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح ا هـ.
عبد الرحمن بن سمرة:
أخرجه الحاكم (٤/ ١٢٦-١٢٧) من طريق أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي ثنا سعيد بن بشير بن قتادة عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ فذكره وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قلت: وتصحيح الحاكم فيه نظر، فسعيد بن بشير وهو أبو سلمة الشامي: ضعفه النسائي، وقال البخاري في تاريخه (٣/ ١٥٢٩)- يتكلمون في حفظه وهو يحتمل وقال ابن نمير: منكر الحديث ليس بشيء، ليس بقوي الحديث، يروي عن قتادة المنكرات. تهذيب الكمال (١٠/ ٣٥٤).
وقال الحافظ في التقريب (١/ ٢٩٢) (١٣٠): ضعيف.

=

﴿فإن جاءوك﴾ لما بيَّن تفاصيلَ أمورِهم الواهية وأحوالَهم المختلفةَ الموجبة لعدم المبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أُمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يُبتنىٰ عليه من الأحكام بطريق التفريع، والفاء فصيحة، أي وإذا كان حالُهم كما شُرح فإن جاؤوك متحاكمين إليك فيما شجَرَ بينهم من الخصومات ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ غيرَ مبالٍ بهم ولا خائفٍ من جهتهم أصلًا، وهذا كما ترى تخييرٌ له عليه الصلاة والسلام بين الأمرين، فقيل: هو في أمرٍ خاصّ هو ما ذُكر من زنا المحصَن.

وقيل: في قتيل قُتل من اليهود في بني قُريظةَ والنضيرِ، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ فقال بنو قريظة: إخوانُنا بنو النضير، أبونا واحد ودينُنا واحد، وإذا قَتَلوا منا قتيلًا لم يرضَوْا بالقَوَد وأعطَوْنا سبعين وَسْقًا من تمر، وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتلَ وأخذوا منا الضِّعفَ مائة وأربعين وسقًا من تمر، وإن كان القتيلُ امرأةً قتلوا بها الرجلَ منا وبالرجل منهم الرجلين منا، وبالعبدِ منهم الحرَّ منا، فاقضِ بيننا. فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواءً.

وقيل: هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت وهو المرويُّ عن عطاءٍ والنَخَعيِّ والشَعْبيِّ وقَتادةَ وأبي بكرٍ الأصمِّ وأبي مسلم، وقائلٍ إنه منسوخ وهو قول ابنِ عباس والحسن ومجاهد وعِكْرِمة، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يُنسخْ من المائدة إلا آيتان: قولُه تعالى: ﴿لا تُحلوا شعائر الله﴾ [المائدة، الآية ٢] نسخَها قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين﴾ [التوبة، الآية ٥] وقوله تعالى: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ نسخَها قوله تعالى: ﴿وأن احكم بينهم

= عبد الله بن عمر:
أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٨٠) (١١٩٧٢).
من طريق ابن وهب قال أخبرني عبد الرحمن بن أبي الموالي عن عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ...
قلت: كذا وجدته في الطبري... والصواب عن عمر بن حمزة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ... وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٠٠) لابن مردويه في تفسيره، وإبراهيم الحربي في كتابه «غريب الحديث». كلاهما من طريق ابن أبي الموالي عن عمر بن حمزة به.
حذيفة:
أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٨١).
من طريق النضر بن شميل ثنا محمد بن البزار- أخبرني كردوس- أن حذيفة خطبهم بالمدائن قال: فذكره وفيه «ليس ينبت لحم من سحت فيدخل الجنة».

بما أنزل الله﴾ [المائدة، الآية ٤٩] وعليه مشايخُنا ﴿وإن تعرِضْ عنهم﴾ بيانٌ لحال الأمرين إثْرَ تخييرِه عليه الصلاة والسلام بينهما، وتقديمُ حالِ الإعراض للمسارعة إلى بيانِ أن لا ضررَ فيه حيث كان مظِنةُ الضرر لِما أنهم كانوا لا يتحاكمون إليه عليه الصلاة والسلام إلا لطلبِ الأيسر والأهونِ عليهم، فإذا أعرض عنهم وأبىٰ الحكومةَ بينهم شق ذلك عليهم، فتشتد عداوتُهم ومضارّتُهم له عليه الصلاة والسلام، فأمَّنه الله عز وجل بقوله: ﴿فلن يضروك شيئًا﴾ من الضرر فإن الله عاصمُك من الناس.

﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ بالعدل الذي أُمرت به كما حكمت بالرجم ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ ومن ضرورته أن يحفَظَهم عن كل مكروهٍ ومحذور ﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ تعجُّبٌ من تحكيمِهم لمن يؤمنون به وبكتابه والحالُ أن الحكم منصوصٌ عليه في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به وتنبيهٌ على أنهم ما قصَدوا بالتحكيم معرفةَ الحق وإقامةَ الشرع وإنما طلبوا به ما هو أهونُ عليهم وإن لم يكن ذلك حكمَ الله على زعمهم، فقوله تعالى: ﴿وعندهم التوراة﴾ حالٌ من فاعل يحكّمونك، وقوله تعالى: ﴿فيها حكم الله﴾ حالٌ من التوراة إن جُعِلت مرتفعةً بالظرف، وإن جُعلت مبتدأ فهو حالٌ من ضميرها المستكنِّ في الخبر، وقيل: استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ أن عندهم ما يُغنيهم عن التحكيم، وتأنيثها لكونها نظيرةَ المؤنث في كلامِهم كموماة[1] ودوداة ﴿ثم يتولون﴾ عطفٌ على يحكمونك داخلٌ في حكم التعجيب، و(ثُم) للتراخي في الرتبة وقوله تعالى: ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ما حكّموك، تصريحٌ بما عُلم قطعًا بتأكيد الاستبعاد والتعجيب، أي ثم يُعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد ما رضوُا بحكمك.

وقوله تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لفحوىٰ ما قبله، ووضعُ اسمِ الإشارة موضعَ ضميرِهم للقصد إلى إحضارِهم في الذهن بما وُصفوا به من القبائح إيماءً إلى علة الحُكم وإلى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكملَ تمييز حتى انتظموا في سلك الأمور المشاهَدة، و(ما) فيه من معنى البعد للإيذان ببُعد درجتهم في العُتُوِّ والمكابرة أي وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أي بكتابهم، لإعراضهم عنه أولًا، وعن حُكمِك الموافقِ له ثانيًا أو بهما، وقيل: وما أولئك بالكاملين في الإيمان تهكمًا بهم.

---

(١) الموْماة: المفازة الواسعة. والدَوْدَاة: الأرجوحة، والجلبة.

مكانة التوراة والإنجيل

﴿إنا أنزلنا التوراة﴾ كلام مستأنفٌ سيق لبيان علوِّ شأن التوراةِ ووجوبِ مراعاة أحكامِها وأنها لم تزل مَرْعيّةً فيما بين الأنبياء ومَنْ يقتدي بهم كابرًا عن كابر، مقبولةً لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظةً عن المخالفة والتبديل تحقيقًا لما وُصف به المحرِّفون من عدم إيمانهم بها، وتقريرًا لكفرهم وظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿فيها هدى ونور﴾ حالٌ من التوراة، فإن ما فيها من الشرائع والأحكام، من حيث إرشادُها للناس إلى الحق الذي لا مَحيدَ عنه، هدىً ومن حيث إظهارُها وكشفُها نور ما استَبْهَم من الأحكام وما يتعلّق بها من الأمور المستورةِ بظلمات الجهل[١].

وقوله تعالى: ﴿يحكم بها النبيون﴾ أي أنبياءُ بني إسرائيلَ، وقيل: موسى ومَنْ بعده من الأنبياء، جملةٌ مستأنفة مبينةٌ لرفعةِ رتبتِها وسُمُوِّ طبقتها، وقد جوَّز كونَه حالًا من التوراة فيكون حالًا مقدرة، أي يحكُمون بأحكامها ويحمِلون الناس عليها، وبه تمسك مَنْ ذهب إلى أن شريعةَ مَنْ قبلنا شريعةٌ لنا ما لم تُنْسَخْ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفاعل لما مر مرارًا من الاعتناء بشأن المقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، ولأن في المؤخَّر وما يتعلق به نوعَ طولٍ ربما يُخِلّ تقديمُه بتجاوُب أطرافِ النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿الذين أسلموا﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح، لكن لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقة، فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعًا، فيكون وصفُهم به بعد وصفِهم بها تنزلًا من الأعلى إلى الأدنى، بل لتنويه شأن الصفة فإن إبرازَ وصفٍ في معرِض مدح العظماء مُنبئ عن عِظَم قدر الوصْفِ لا محالة كما في وصف الأنبياءِ بالصلاح ووصفِ الملائكة بالإيمان عليهم السلام، ولذلك قيل: أوصافُ الأشراف أشرافُ الأوصاف، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريضٌ باليهود وأنهم بمعزِل من الإسلام، والاقتداءُ بدين الأنبياء عليهم السلام لا سيما مع ملاحظة ما وُصفوا به في قوله تعالى:

﴿للذين هادوا﴾ وهو متعلق (بيحكم) أي يحكمون فيما بينهم، واللام إما لبيان اختصاصِ الحُكم بهم أعمَّ من أن يكون لهم أو عليهم، كأنه قيل: لأجل الذين هادوا، وإما للإيذان بنفعه للمحكوم عليه أيضًا بإسقاط التبعة عنه، وإما للإشعار

---

(١) زاد في المخطوط: نور.

بكمال رضاهم به وانقيادِهم له كأنه أمرٌ نافع لكلا الفريقين، ففيه تعريضٌ بالمحرِّفين، وقيل: التقديرُ للذين هادوا وعليهم فحُذِفَ ما حُذف لدلالة ما ذُكر عليه، وقيل: هو متعلق بـ (أنزلنا) وقيل: بـ (هدىً ونور) وفيه فصلٌ بين المصدر ومفعولِه، وقيل: متعلق بمحذوفٍ وقع صفةً لهما أي هدى ونورٌ كائنان للذين هادوا.

﴿والربانيون والأحبار﴾ أي الزهاد والعلماءُ من وَلَد هارونَ الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دينَ اليهود.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الربانيون الذين يسوسون الناسَ بالعلم ويربُّونهم بصغاره قبل كباره، والأحبارُ هم الفقهاءُ واحدُه حَِبْرٌ بالفتح والكسر والثاني أفصح، وهو رأي الفراء، مأخوذ من التحبير والتحسين، فإنهم يُحبِّرون العلمَ ويزينونه ويُبيِّنونه، وهو عطفٌ على (النبيون) أي هم أيضًا يحكمُون بأحكامها، وتوسيطُ المحكومِ لهم بين المعطوفين للإيذان بأن الأصلَ في الحُكم بها وحَمْلِ الناس على ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والأحبارُ خلفاءُ ونوابٌ لهم في ذلك كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿بما استُحفظوا﴾ أي بالذي استُحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفَظُوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، ولا ريب في أن ذلك منهم عليهم السلام استخلافٌ لهم في إجراء أحكامِها من غير إخلالٍ بشيء منها، وفي إبهامها أولًا ثم بيانِها ثانيًا بقوله تعالى: ﴿من كتاب الله﴾ من تفخيمها وإجلالِها ذاتًا وإضافةً[(١)]، وتأكيدِ إيجاب حفظِها والعملِ بما فيها ما لا يَخْفى.

وإيرادُها بعنوان الكتاب للإيماء إلى إيجاب حفظِها عن التغييرِ من جهة الكتابة، والباءُ الداخلة على الموصول متعلقةٌ (بيحكم) لكن لا على أنها صلةٌ كالتي في قوله تعالى: ﴿بها﴾، ليلزَمَ تعلقُ حرفي جرٍ متحدَّيْ المعنى بفعلٍ واحد، بل على أنها سببية أي ويحكم الربانيون والأحبارُ أيضًا بسبب ما حفِظوه من كتاب الله حسْبما وصاهم به أنبياؤُهم وسألوهم أن يحفظوه، وليس المرادُ بسببيته لحكمهم مُلكَ سببيته من حيث الذاتُ بل من حيث كونُه محفوظًا، فإن تعليقَ حكمِهم بالموصول مُشعرٌ بسببية الحفظِ المترتب لا محالة على ما في حيِّز الصلة من الاستحفاظ له، وقيل: الباء صلةٌ لفعلٍ مقدر معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿يحكم بها النبيون﴾ عطفَ جُملةٍ على جملة، أي ويحكم الربانيون والأحبارُ بحكم كتابِ الله الذي سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير.

﴿وكانوا عليه شهداءَ﴾ أي رُقباءَ يحمُونه من أن يحوم حولَه التغييرُ والتبديلُ بوجه

---

(١) في المخطوط: صفة.

من الوجوه، فتغييرُ الأسلوب لما ذُكر من المزايا، وقيل: (بما استحفظوا) بدلٌ من قوله تعالى: ﴿بها﴾ بإعادة العامل وهو بعيد، وكذا تجويزُ كونِ الضمير في استُحفظوا للأنبياء والربانيين والأحبارِ جميعًا على أن الاستحفاظَ من جنابِ الله عز وجل أي كلفهم الله تعالى أن يحفظوه ويكونوا عليه شهداء، وقوله تعالى وتقدَّسَ: ﴿**فلا تخشَوُا الناس**﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأما حكامُ المسلمين فيتناوبُهم النهْيُ بطريق الدلالة دون العبارة، والفاء لترتيبِ النهْيِ على ما فُصِّل من حال التوراة، وكونِها معتنىً بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام ومَنْ يُقتدىٰ بهم من الربانيين والأحبار المتقدمين عملًا وحفظًا، فإن ذلك مما يوجبُ الاجتنابَ عن الإخلال بوظائف مراعاتِها والمحافظةِ عليها بأي وجهٍ كان فضلًا عن التحريف والتغيير، ولمّا كان مدارُ جراءتهم على ذلك خشيةَ ذي سلطانٍ أو رغبةً في الحظوظ الدنيوية نُهوا عن كل منهما صريحًا، أي إذا كان شأنُهما كما ذكر فلا تخشوا الناسَ كائنًا من كان واقتدوا في مراعاة أحكامها وحفظِها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعِهم ﴿**واخشَوْنِ**﴾ في الإخلالِ بحقوقِ مراعاتها فكيف بالتعرُّض لها بسوء.

﴿**ولا تشتروا بآياتي**﴾ الاشتراء استبدالُ السلعة بالثمن أي أخذُها بدلًا منه لا بذلُ الثمن لتحصيلها كما قيل، ثم استُعير لأخذ شيءٍ بدلًا مما كان له، عَيْنًا كان أو معنىً أخذًا منوطًا بالرغبة فيما أُخذ، والإعراضِ عما أُعطِيَ ونُبذ، كما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشترَوُاالضلالة بالهدى﴾ [البقرة، الآية ١٦] فالمعنى لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تُخرجوها منها أو تتركوا العملَ بها وتأخذوا لأنفسكم بدلًا منها ﴿**ثمنًا قليلًا**﴾ من الرِّشوة والجاهِ وسائرِ الحظوظ الدنيوية، فإنها، وإن جلّت، قليلةٌ مستَرْذَلةٌ في نفسها، لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها، وإنما عبَّر عن المشترىٰ الذي هو العُمدةُ في عقود المعاوضة والمقصِدُ الأصليُّ بالثمن الذي شأنه أن يكونَ وسيلةً إلى تحصيله، وأُبرزَتِ الآياتُ التي حقُّها أن يتنافسَ فيها المتنافسون في معرِض الآلات والوسائطِ حيث قُرنت بالباء التي تصحَبُ الوسائلَ إيذانًا بمبالغتهم في التعكيس بأن جَعلوا المقصِدَ الأقصى وسيلةً والوسيلةَ الأدنى مقصِدًا.

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله**﴾ كائنًا من كان دون المخاطبين خاصة فإنهم مندرجون فيه اندراجًا أوليًا أي من لم يحكم بذلك مستهينًا به منكِرًا كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاءً بينًا ﴿**فأولئك**﴾ إشارةٌ إلى (من)، والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظِها ﴿**هم الكافرون**﴾ لاستهانتهم به، و(هم) إما ضميرُ الفعل أو مبتدأ وما بعده خبره، والجملة لأولئك، وقد مر تفصيلُه في

مطلع سورة البقرة، والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها أبلغَ تقريرٍ، وتحذيرٌ عن الإخلال به أشدَّ تحذير حيث علّق فيه الحكمَ بالكفر بمجرد ترك الحُكْم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكمُ بخلافه، لا سيما مع مباشرة ما نُهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضِعَه، وادعاءِ أنه من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟

﴿وكتبنا﴾ عطفٌ على (أنزلنا التوراة) ﴿عليهم﴾ أي على الذين هادوا، وقرئ[1] (وأنزل الله على بني إسرائيلَ) ﴿فيها﴾ أي في التوراة ﴿أن النفس بالنفس﴾ أي تُقاد بها إذا قَتلتْها بغير حق ﴿والعين﴾ تُفقأ ﴿بالعين﴾ إذا فُقِئَتْ بغير حق ﴿والأنف﴾ يُجدَع ﴿بالأنف﴾ المقطوعِ بغير حق ﴿والأُذُن﴾ تُصْلَم ﴿بالأذن﴾ المقطوعة ظلمًا ﴿والسن﴾ تُقلعُ ﴿بالسن﴾ المقلوعة بغير حق ﴿والجروحَ قصاص﴾ أي ذاتُ قصاص إذا كانت بحيث تُعرف المساواة.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا لا يقتُلون الرجلَ بالمرأة فنزلت، وقرئ[2] (وأنِ الجروحُ قصاص) وقرئ[3] (والعينُ) إلى آخره بالرفع عطفًا على محل (أن النفس) لأن المعنى كتبنا عليهم: النفسُ بالنفس إما لإجراء كتبنا مُجرىٰ قلنا، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك: النفسُ بالنفس مما يقع عليه الكَتْبُ كما يقع عليه القراءة، تقول: كتبت (الحمدُ لله) وقرأتُ ﴿سورةٌ أنزلناها﴾ [النور، الآية ١].

﴿فمن تصدق﴾ أي من المستحقين ﴿به﴾ أي بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعبيرُ عنه بالتصديق للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فهو﴾ أي التصديق ﴿كفارة له﴾ أي للمتصدق يكفّر الله تعالى بها ذنوبَه، وقيل: للجاني إذا تجاوز عنه صاحب الحقِّ سقطَ عنه ما لزِمه، وقُرئ (فهو كفارته له)، أي فالمتصدقُ كفارتُه التي يستحقُّها بالتصدق له لا ينقُصُ

---

(١) قرأ بها: أُبي.
ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٣٤١).
(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٩٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤١).
(٣) قرأ بها: الكسائي، وأنس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٤٩٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٤٩٤)، والتبيان للطوسي (٣/ ٣٥)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٩٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٦) والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٠٩) والمجمع للطبرسي (٢/ ١٩٨)، والمعاني للفراء (١/ ٣٠٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).

منها شيء وهو تعظيمٌ لما فَعَل، كقوله تعالى: ﴿فأجره على الله﴾ [الشوري، الآية: ٤٠].

﴿ومن لم يحكم﴾ كائنًا من كان فيتناول من لا يرى قتلَ الرجل بالمرأة من اليهود تناولًا بينًا ﴿بما أنزل الله﴾ من الأحكام والشرائع كائنًا ما كان فيدخل فيها الأحكامُ المحكية دخولًا أوليًا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المبالغون في الظلم المتعدُّون لحدودِه تعالى الواضعون للشيء في غير موضعه، والجملة تذييلٌ مقرِّر لإيجاب العمل بالأحكام المذكورة ﴿وقفينا على آثارهم﴾ شروعٌ في بيان أحكام الإنجيلِ إثْرَ بيانِ أحكام التوراة وهو عطفٌ على (أنزلنا التوراة) أي آثارِ النبيين المذكورين، يقال: قَفَّيتُه بفلان إذا أتبعتُه إياه، فحذَفَ المفعولَ لدلالة الجار والمجرور عليه أي قفيناهم ﴿بعيسى ابنِ مريم﴾ أي أرسلناه عَقيبَهم.

﴿مصدقًا لما بين يديه من التوراة﴾ حالٌ من عيسى عليه السلام ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ عطفٌ على قفَّينا وقرئ[(١)] بفتح الهمزة ﴿فيه هدى ونور﴾ كما في التوراة وهو في محل النصْب على أنه حال من الإنجيل أي كائنًا فيه ذلك كأنه قيل: مشتملًا على هدى ونور، وتنوينُ هدىً ونورٌ للتفخيم، ويندرج في ذلك شواهدُ نبوتِه عليه السلام ﴿ومصدقًا لما بين يديه من التوراة﴾ عطف عليه داخلٌ في حكم الحالية وتكريرُ (ما بين يديه من التوراة) لزيادة التقرير ﴿وهدىً وموعظةً للمتقين﴾ عطفٌ على مصدقًا منتظمٌ معه في سلك الحالية جُعل كلُّه هدىً بعد ما جُعل مشتملًا عليه حيث قيل: (فيه هدى) وتخصيصُ كونِه هدىً وموعظةً بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجَدْواه.

﴿وليحكم أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أمرٌ مبتدأٌ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التي من جملتها دلائلُ رسالتِه عليه الصلاة والسلام وشواهدُ نبوته وما قرَّرت الشريعة الشريفةُ من أحكامه، وأما أحكامُه المنسوخةُ فليس الحكمُ بها حكمًا بما أنزل الله فيه بل هو إبطالٌ وتعطيلٌ له، إذ هو شاهدٌ بنسخها وانتهاءِ وقت العمل بها، لأن شهادته بصحة ما ينسَخُها من الشريعة شهادةٌ بنسخها، وبأن أحكامَه ما قرَّرتْه تلك الشريعةُ التي شهد بصحتها كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ [المائدة، الآية ٦٨] الآية.

وقيل: هو حكايةٌ للأمر الوارد عليهم بتقدير فعلٍ معطوف على آتيناه أي وقلنا:

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٢).

ليحكم أهلُ الإنجيل إلخ، وقرئ[١] (وأن ليحكم) على أنّ (أنْ) موصولةٌ بالأمر كما في قولك: أمرته بأن قم، كأنه قيل: وآتيناه الإنجيل وأمَرْنا بأن يحكُمَ أهلُ الإنجيل إلخ، وقرئ[٢] على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقةٌ بمقدَّر كأنه قيل: ولِيَحْكُمَ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه آتيناه إياه، وقد عُطِفَ على (هدى وموعظة) على أنهما مفعول لهما، كأنه قيل: وللهدى والموعظة آتيناه إياه وللحُكْم بما أنزل الله فيه.

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله**﴾ منكرًا له مستهينًا به ﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ المتمردون الخارجون عن الإيمان، والجملة تذييلٌ مقرِّر لمضمون الجملة السابقة ومؤكِّد لوجوب الامتثال بالأمر، وفيه دلالة على أن الإنجيلَ مشتملٌ على الأحكام، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلًا بالشرع مأمورًا بالعمل بما فيه من الأحكام قلَّت أو كثُرت، لا بما في التوراة خاصة، وحملُه على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من إيجابِ العملِ بأحكام التوراة خلافُ الظاهر.

مكانة القرآن وأنصاره وخصومه

﴿**وأنزلنا إليك الكتاب**﴾ أي الفردَ الكاملَ الحقيقيَّ بأن يسمى كتابًا على الإطلاق لحيازته جميعَ الأوصافِ الكمالية لجنس الكتابِ السماويِّ وتفوقِه على بقية أفراده وهو القرآنُ الكريم، فاللام للعهد والجملةُ عطف على (أنزلنا) وما عُطِف عليه، وقوله تعالى: ﴿**بالحق**﴾ متعلق بمحذوفٍ وقع حالًا مؤكّدة من الكتاب أي ملتبسًا بالحق والصدق، وقيل: من فاعل أنزلنا، وقيل: من الكاف في (إليك) وقوله تعالى: ﴿**مصدقًا لما بين يديه**﴾ حال من الكتاب أي حالَ كونِه مصدقًا لما تقدَّمَه إما من حيث إنه نازلٌ حسْبما نُعِتَ فيه، أو من حيث إنه موافقٌ له في القِصصِ والمواعيدِ والدعوة إلى الحق والعدلِ بين الناس والنهْيِ عن المعاصي والفواحش، وأما ما يتراءى من

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٠٠)، وتفسير الطبري (١٠/ ٢٧٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٠٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٠)، والتبيان للطوسي (٣/ ٣٤١)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير الطبري (١٠/ ٣٧٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٠٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٣١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٠)، والمعاني للفراء (١/ ٣١٢)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

مخالفتِه له في بعض جزئياتِ الأحكام المتغيِّرة بسبب تغيُّرِ الأعصارِ فليست بمخالفةٍ في الحقيقة بل هي موافِقةٌ لها من حيث إن كلاً من تلك الأحكام حقٌّ بالإضافة إلى عصره، متضمِّنٌ للحكمة التي عليها يدور أمرُ الشريعة، وليس في المتقدم دلالةٌ على أبديةِ أحكامِه المنسوخة حتى يخالفَه الناسخُ المتأخِّرُ، وإنما يدل على مشروعيتها مطلقًا من غير تعرُّض لبقائها وزوالِها، بل نقول: هو ناطقٌ بزوالها لما أن النطقَ بصحة ما ينسخها نطقٌ بنَسْخِها وزوالِها.

وقوله تعالى: ﴿من الكتاب﴾ بيانٌ (لِما)، واللام للجنس، إذ المراد هو الكتابُ السماوي وهو بهذا العنوان جنسٌ برأسه، وإن كان في نفسه نوعًا مخصوصًا من مدلول لفظ الكتاب، وعن هذا قالوا: اللام للعهد، إلا أن ذلك لا ينتهي إلى خصوصية الفردية بل إلى خصوصية النوعية التي هي أخصُّ من مُطلقِ الكتاب وهو ظاهر، ومن الكتاب السماوي أيضًا حيث خُصَّ بما عدا القرآن.

﴿ومهيمنًا عليه﴾ أي رقيبًا على سائر الكتبِ المحفوظة من التغيير لأنه يشهد بالصحة والثبات ويقرِّر أصولَ شرائعها وما يتأبد من فروعها، ويعيِّن أحكامَها المنسوخةَ ببيان انتهاءِ مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاءِ وقت العمل بها، ولا ريب في أن تمييزَ أحكامِها الباقيةِ على المشروعية أبدًا عما انتهى وقتُ مشروعيتِه وخرج عنها من أحكام كونِه مهيمنًا عليه، وقرئ[1] (ومُهيمَنًا عليه) على صيغة المفعول أي هُومِنَ عليه وحُوفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل: ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت، الآية ٤٢] والحافظُ إما من جهته تعالى كما في قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر، الآية ٩] أو الحفاظُ في الأعصار والأمصار والفاء في قوله تعالى: ﴿فاحكم بينهم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن كونَ شأنِ القرآن العظيم حقًا مصدِّقًا لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم مهيمنًا عليه من مُوجباتِ الحكم المأمور به، أي إذا كان القرآن كما ذُكِر فاحكمْ بين أهل الكتابين عند تحاكُمِهم إليك ﴿بما أنزل الله﴾ أي بما أنزله إليك، فإنه مشتملٌ على جميع الأحكام الشرعية الباقيةِ في الكتب الإلٰهية، وتقديمُ (بينهم) للاعتناء ببيانِ تعميمِ الحكم لهم، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للتنبيه على عِلِّيَّةِ ما في حيز الصلةَ للحكم، والالتفات بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعِلَّة الحكم.

---

(١) قرأ بها: مجاهد، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٢)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٠)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٠٩).

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ الزائغة ﴿عما جاءك من الحق﴾ الذي لا محيدَ عنه، و(عن) متعلقة بلا تتَّبعْ على تضمين معنى العُدول ونحوِه، كأنه قيل: ولا تعدِلْ عما جاءك من الحق متبعًا أهواءهم، وقيل: بمحذوفٍ وقع حالًا من فاعله، أي لا تتبع أهواءهم عادلًا عما جاءك، وفيه أن ما وقع حالًا لا بد أن يكون فعلًا عامًا، ووضع الموصول موضع ضمير الموصول الأول للإيماء بما في حيز الصلة من مجيء الحق إلى ما يوجب كمالَ الاجتنابِ عن اتباع الأهواء. وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾ كلام مستأنَفٌ جيءَ به لحمل أهل الكتابين من معاصِريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحُكمه بما أُنزل إليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذي كُلِّفوا العملَ به دون غيره من الكتابين، وإنما الذين كلفوا العملَ بهما مَنْ مَضَى قبل نسخهما من الأمم السالفة، والخطابُ بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضًا بطريق التغليب، واللام متعلقة (بجعلنا) المتعدي لواحد، وهو إخبارٌ بجَعَلَ، ماضٍ لا إنشاءٌ، وتقديمها عليه للتخصيص و(منكم) متعلق بمحذوفٍ وقعَ صفةً لِما عُوِّض عنه تنوينُ كلٍّ، ولا ضيرَ في توسط (جعلنا) بين الصفة والموصوف كما في قوله تعالى: ﴿أغيرَ الله أتخذُ وليًّا فاطِرِ السموات﴾ [الأنعام، الآية ١٤] إلخ، والمعنى لكل أمة كائنةٍ منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أي عيّنّا ووضعنا شرعةً ومنهاجًا خاصَّين بتلك الأمة لا تكاد أمةٌ تتخطىٰ شِرْعتَها التي عُيِّنت لها، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شِرْعتُهم التوراة والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبي عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الإنجيل، وأما أنتم أيها الموجودون فشِرْعتُكم القرآنُ ليس إلا، فآمنوا به واعملوا بما فيه، والشِّرْعةُ والشريعة هي الطريقة إلى الماء شُبِّه بها الدينُ لكونه سبيلًا[1] موصولًا إلى ما هو سببٌ للحياة الأبدية، كما أن الماء سببٌ للحياة الفانية، والمنهاجُ الطريق الواضح في الدين من نهَجَ الأمرُ إذا وضَحَ، وقرئ[2] (شَرْعة) بفتح الشين، قيل: فيه

---

(١) وهو مبني على أن الشرعة والشريعة هي الماء الكثير، وإنما شبهت الشريعة بالماء؛ لأن فيها شفاء النفوس وطهارتها، والعرب تشعر بالماء وأحواله كثيرًا، ومنهاج المسلمين لا يخالف الاتصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، وقوله تشبيه شرح للاستعارة لأن الاستعارة مبناها التشبيه وقد مضى الحديث عن الاستعارة التصريحية.
ينظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٣).

(٢) قرأ بها: إبراهيم النخعي، ويحيى بن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٠٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٢).

دليل على أنا غيرُ مُتعبَّدين بشرائِعِ مَنْ قبلنا، والتحقيق أنا متعبَّدون بأحكامها الباقية من حيث إنها أحكامُ شرعتِنا لا من حيث إنها شرعة للأولين.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الأمم في شيء من الأحكام الدينية، ولا نسخَ ولا تحويل، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ على دلالة الجزاء عليه، أي ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم إلخ، وقيل: المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه.

﴿ولكن ليبلوكم﴾ متعلِّقٌ بمحذوف يستدعيه النظام، أي ولكن لم يشأ ذلك أي أن يجعلكم أمةً واحدة بل شاء ما عليه السنةُ الإلٰهيةُ الجاريةُ فيما بين الأمم ليعامِلَكم معاملةَ من يبتليكم ﴿فيما آتاكم﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونِها هل تعملون بها مذعِنين لها معتقدين أن اختلافَها بمُقتضىٰ المشيئةِ الإلٰهية المبنيةِ على أساس الحِكَم البالغةِ والمصالحِ النافعة لكم في معاشكم ومعادِكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوَى وتستبدلون المضَرَّة بالجَدْوىٰ وتشترون الضلالة بالهدى، وبهذا اتضح أن مدارَ عدم المشيئةِ المذكورة ليس مجردَ الابتلاء، بل العمدةُ في ذلك ما أشير إليه من انطواءِ الاختلاف على ما فيه مصلحتُهم معاشًا ومعادًا كما ينبئ عنه قوله عز وجل: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي إذا كان الأمر كما ذُكر فسارعوا إلى ما هو خيرٌ لكم في الدارين من العقائد الحَقَّة والأعمالِ الصالحة المندرجة في القرآن الكريم، وابتدروها انتهازًا للفرصة وإحرازًا لسابقةِ الفَضْل والتقدم، ففيه من تأكيد الترغيبِ في الإذعان للحق وتشديدِ التحذير عن الزيغ ما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم﴾ استئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿جميعًا﴾ حال من ضمير الخطاب، والعامل فيه إما المصدرُ المنحلُّ إلى حرفٍ مصدريٍّ وفعل مبني للفاعل أو مبني للمفعول وإما الاستقرارُ المقدَّر في الجار ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المُحِقّ والمُبطل ما لا يبقى لكم معه شائبةُ شكٍ فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا، وإنما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الإخبار.

﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ عطف على الكتاب، أي أنزلنا إليك[1] الكتابَ والحُكْمَ بما فيه، والتعرُّضُ لعنوان إنزاله تعالى إياه لتأكيد وجوب

---

(١) في المخطوط: عليك.

الامتثال بالأمر، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن احكم، وحكايةُ إنزال الأمر بهذا الحكم بعد ما مر من الأمر الصريح بذلك تأكيد له وتمهيدٌ لما يعقُبه من قوله تعالى: ﴿**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**﴾ أي يصرِفونك عن بعضه ولو كان أقلَّ قليلٍ بتصوير الباطل بصورة الحق، وإظهارُ الاسم الجليل لتأكيدِ الأمر بتهويل الخطب، و(أن) بصلته بدلُ اشتمالٍ من ضمير (هم) أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك، وإعادة ما أنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب.

رُوي (أن أحبارَ اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتِنُه عن دينه، فذهبوا إليه ﷺ وقالوا: يا أبا القاسم قد عرفت أنّا أحبارُ اليهود وأنّا إن اتبعناك اتبعنا اليهودُ كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومةً فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبىٰ رسولُ الله ﷺ فنزلت).

﴿**فإن تولوا**﴾ أي أعرَضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره ﴿**فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾ أي بذنب تولِّيهم عن حكم الله عز وجل، وإنما عبر عنه بذلك إيذانًا بأن لهم ذنوبًا كثيرة، هذا مع كمال عَظَمةِ واحدٍ من جملتها، وفي هذا الإبهام تعظيمٌ للتولِّي كما في قول لبيد: [الكامل]

.... أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُها[1]

يريد به نفسه أي نفسًا كبيرة ونفسًا أيَّ نفس ﴿**وإن كثيرًا من الناس لفاسقون**﴾ أي متمردون في الكفر مصرُّون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله.

﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ إنكار وتعجيبٌ من حالهم وتوبيخ لهم، والفاء للعطف على مقدّرٍ يقتضيه المقام، أي أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية؟ وتقديمُ المفعول للتخصيص المفيدِ لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولِّيَ عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلبَ حكم آخرَ منكرٌ عجيب، وطلبُ حكم الجاهلية أقبح وأعجب، والمراد بالجاهلية إما المِلةُ الجاهلية التي هي متابعةُ الهوى الموجبةُ للميل والمداهنةُ

---

(١) عجز بيت وصدره:

تـرَّاكُ أمـكـنـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا ....

والبيت في ديوانه، ص (٣١٣)، والخصائص (١/ ٧٤)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٧٧٢)، وشرح شواهد الشافية ص (٤١٥)، والصاحبي في فقه اللغة ص (٢٥١)، ومجالس ثعلب ص (٦٣)، والمحتسب (١/ ١١١)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٧/ ٣٤٩)، والخصائص (٢/ ٣١٧، ٣٤١).

في الأحكام فيكون تعييرًا لليهود بأنهم مع كونهم أهلَ كتاب وعلمٍ يبغون حكمَ الجاهلية التي هي هوى وجهلٌ لا يصدُر عن كتاب ولا يرجِعُ إلى وحي.

وإما أهلُ الجاهلية، وحكمُهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى، حيث رُوي (أن بني النضيرِ لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في خصومةٍ قتل وقعت بينهم وبين بني قريظة طلبوا إليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهلُ الجاهلية من التفاضل، فقال عليه الصلاة والسلام: «القتلى سواءٌ» فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت)[1].

وقرئ[2] برفع (الحكم) على أنه مبتدأ ويبغون خبرُه والراجعُ محذوفٌ حذفه في قوله تعالى: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولًا﴾ [الفرقان، الآية ٤١] وقد استُضعف ذلك في غير الشعر، وقرئ[3] بتاء الخطاب إما بالالتفات لتشديد التوبيخ وإما بتقدير القول أي قل لهم أفحكم إلخ، وقرئ[4] بفتح الحاء والكاف أي أفحاكمًا كحكام الجاهلية يبغون ﴿ومن أحسن من الله حكمًا﴾ إنكار لأن يكون أحدٌ حكمُه أحسنُ من حكمه تعالى أو مساوٍ له، وإن كان ظاهرُ السبك غيرَ متعرِّضٍ لنفي المساواة وإنكارِها، وقد مر تفصيله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومَن أحسنُ دينًا ممن أسلم وجهه لله﴾ [النساء، الآية ١٢٥] ﴿لقوم يوقنون﴾ أي عندهم، واللام كما في (هَيْتَ لك)[5]، أي هذا

---

(١) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٣٩٧) وقال: غريب وذكره الطيب آبادي في «عون المعبود» (١٢/ ١٣٣) فقال: وقال النسفي: بنو النضير يطلبون تفاضلهم على بني قريظة....

(٢) قرأ بها: السلمي، وابن وثاب، وأبو رجاء، والأعرج، وإبراهيم النخعي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٠)، وتفسير الرازي (٣/ ٤١١).

(٣) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٥)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٤٩)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٣١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤١١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٤)، وتفسير الرازي (٣/ ٤١١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٤) قرأ بها: قتادة، والأعمش، والمطوعي، والحسن، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١١).

(٥) هَيْتَ لك: هلمَّ، تعال. وفي سورة يوسف، الآية: ٢٣: ﴿وغلَّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك﴾.

الاستفهام لهم فإنهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم، فيعلمون يقينًا أن حكم الله عز وجل أحسنُ الأحكام وأعدلُها.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب يعُمّ حكمُه كافةَ المؤمنين من المخلصين وغيرهم، وإن كان سببُ ورودِه بعضًا منهم كما سيأتي، ووصفُهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نُهوا عنه بقوله عز وجل: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ فإن تذكيرَ اتصافِهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتِهما، أي لا يتخذْ أحدٌ منكم أحدًا منهم وليًا، بمعنى لا تُصافوُهم ولا تعاشِروهم مُصافاةَ

الأحباب ومعاشرَتَهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياءَ لكم حقيقة، فإنه أمرٌ ممتنِعٌ في نفسه لا يتعلق به النهي.

﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ أي بعضُ كلٍّ فريق من ذَيْنِك الفريقَيْن أولياءُ بعضٍ آخَرَ من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر، وإنما أوثر الإجمالُ في البيان تعويلًا على ظهور المُراد لوضوح انتفاءِ الموالاة بين فريقَي اليهود والنصارى رأسًا، والجملة مستأنفةٌ مَسوقة لتعليل النهي وتأكيدِ إيجاب الاجتناب عن المنْهيِّ عنه أو[1] (بعضُهم أولياء بعض) متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته إجماعُ الكل على مُضادَّتكم ومضارَّتِكم بحيث يسومونكم السوءَ ويبغونكم الغوائل، فكيف يُتصورُ بينكم وبينهم موالاة؟

وقوله تعالى: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ حكمٌ مستنتَجٌ منه، فإن انحصارَ الموالاة فيما بينهم يستدعي كونَ من يواليهم منهم، ضرورةَ أن الاتحادَ في الدين الذي عليه يدور أمرُ الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين - تعيّنَ أن يكون ذلك بكَوْنِ من يواليهم منهم، وفيه زجرٌ شديد للمؤمنين عن إظهار صورةِ الموالاة لهم وإن لم تكن موالاةً في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ تعليلٌ لكون من يتولاهم منهم أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنَهم فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وَضعَ المُظْهَرَ موضع ضميرِهم تنبيهًا على أن تولِّيهم ظلمٌ، لما أنه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض**﴾ بيان لكيفية توليهم، وإشعارٌ بسببه وبما يؤول إليه أمرُهم، والفاء للإيذان بترتُّبه على عدم الهداية، والخطابُ إما للرسول ﷺ بطريق التلوين، وإما لكل أحدٍ ممن له أهليةٌ له، وفيه مزيدُ تشنيع للتشنيع، أي لا يهديهم بل يذرهم وشأنَهم فتراهم إلخ، وإنما وُضع موضعَ الضمير الموصولُ ليُشارَ بما في حيز صلته إلى أن ما ارتكبوه من التولي بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق ورَخاوة العَقْد في الدين، وقوله تعالى: ﴿**يسارعون فيهم**﴾ حال من الموصول والرؤية بصرية، وقيل: مفعولٌ ثانٍ والرؤية قلبية، والأول هو الأنسبُ بظهور نفاقهم، أي تراهم مسارعين في موالاتهم، وإنما قيل: فيهم مبالغةً في بيان رغبتِهم فيها وتهالُكِهم عليها، وإيثارُ كلمة (في) على كلمة (إلى) للدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة، وإنما

---

(١) في المخطوط: أي.

مسارعتُهم من بعضٍ مراتبها إلى بعضٍ آخر منها كما في قوله تعالى: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ [المؤمنون، الآية ٦١] لا أنهم خارجون عنها متوجِّهون إليها كما في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ [آل عمران، الآية ١٣٣].

وقرئ[١] (فيَرى) بياء الغَيْبة على أن الضمير لله سبحانه، وقيل: لمن تصِحُّ منه الرؤية.

وقيل: الفاعل هو الموصولُ والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية، والرؤية قلبية أي ويرى القومُ الذين في قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حُذفت أنْ انقلب الفعلُ مرفوعًا كما في قول من قال: [الطويل]

ألا أيُّهذا الزَّاجِريْ أحْضُر الوغى ....[٢]

والمراد بهم عبدُ اللّه بنُ أُبيّ وأضرابُه الذين كانوا يسارعون في مُوادَّةِ اليهود ونَصارى نجرانَ، وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبَهم صروفُ الزمان وذلك قوله تعالى: ﴿**يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**﴾ وهو حال من ضمير يسارعون، والدائرةُ من الصفات الغالبة التي لا يُذكر معها موصوفُها، أي تدور علينا دائرةٌ من دوائر الدهر ودَوْلةٌ من دُولِه بأن ينقلبَ الأمرُ وتكون الدولةُ للكفار.

وقيل: نخشى أن يصيبنا مكروهٌ من مكاره الدهر كالجدْب والقَحْط فلا يعطونا المِيرةَ والقَرْض. روي (أن عبادة بنَ الصامت[٣] رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي مواليَ من اليهود كثيرًا عددُهم وإني أبرأ إلى الله ورسولِه من وَلايتهم، وأُوالي الله ورسوله. فقال عبد اللّه بنُ أُبي: إني رجل أخاف الدوائرَ لا أبرأ من وِلاية مواليَّ)[٤].

---

(١) قرأ بها: إبراهيم النخعي، ويحيى بن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٣).

(٢) تقدم.

(٣) هو: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن غَنْم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري، أبو الوليد: شهد العقبتين وبدرًا، وهو أحد النقباء، له مائة وأَحَدٌ وثمانون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على ستة، وكان ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ، وبعثه عمر إلى الشام؛ ليعلم الناس القرآن والعلم، فمات بفلسطين، قاله البخاري - وقال الواقدي: بالرملة - سنة أربع وثلاثين هـ.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/ ٣٣)، وتهذيب التهذيب (٥/ ١١١)، والكاشف (٢/ ٦٤).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة مختصرًا في مصنفه (٦/ ٣٩١) برقم (٣٢٣٠١)، وابن جرير الطبري (١٠/ ٣٩٥) برقم (١٢١٥٦).

وهم يهودُ بني قَيْنُقاع، ولعله يُظهرُ للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الأخيرَ ويُضمِرُ في نفسه المعنى الأول وقوله تعالى: ﴿**فعسى الله أن يأتي بالفتح**﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطعٌ لأطماعهم الفارغة وتبشيرٌ للمؤمنين بالظفر، فإن (عسى) منه سبحانه وعدٌ محتوم، لما أن الكريمَ إذا أطْمَعَ أطعم لا محالة فما ظنك بأكرمِ الأكرمين؟ و(أن يأتي) في محل النصب على أنه خبرُ عسى وهو رأي الأخفش، أو على أنه مفعول به وهو رأيُ سيبويه، لئلا يلزَمَ الإخبارُ عن الجُثَّة بالحدَث كما في قولك: عسى زيد أن يقوم، والمراد بالفتح فتحُ مكةَ، قاله الكلبي والسُّديّ، وقال الضحاك: فتحُ قُرى اليهودِ من خيبرَ وفَدَك، وقال قَتادة ومقاتِلٌ: هو القضاءُ الفصلُ بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه وإعزازِ الدين ﴿**أو أمر من عنده**﴾ بقطع شأفةِ اليهود من القتل والإجلاء ﴿**فيصبحوا**﴾ أي أولئك المنافقون المتعلَّلون بما ذُكر وهو عطفٌ على ما يأتي داخلٌ معه في حيز خبرِ عسى، وإن لم يكن فيه ضميرٌ يعود إلى اسمها، فإن فاء السببية مغنيةٌ عن ذلك، فإنها تجعل الجملتين كجملة واحدة ﴿**على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين**﴾ وهو ما كانوا يكتمونه في أنفسهم من الكفر والشك في أمره عليه الصلاة والسلام، وتعليقُ الندامة به لا بما كانوا يُظهرونه من موالاة الكفرة لِما أنه الذي كان يحمِلُهم على الموالاة ويُغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها.

﴿**ويقول الذين آمنوا**﴾ كلام مبتدأ مَسوقٌ لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرئ[1] بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ وقرئ[2] (ويقولَ) بالنصب عطفًا على يصبحوا، وقيل: على (يأتيَ) باعتبار

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٩)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٥٢)، والتيسير للداني ص (٩٩)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، وتفسير الرازي (٣/ ٤١٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٠٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥٠٩)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٥٢)، والتيسير للداني ص (٩٩)، والحجة لابن خالويه(١٣١، ١٣٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٢٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٤)، والكشف للقيسي (٤١١، ٤١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٥)، والمعاني للأخفش (١/ ٢٦٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

المعنى كأنه قيل[1]: فعسى أن يأتيَ الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا والأولُ أوجهُ، لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامةِ المنافقين لا عند إتيان الفتح فقط، والمعنى: ويقول الذين آمنوا مخاطِبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتَهم ويُظهرون لهم غاية المحبة وعدمَ المفارقة عنهم في السراء والضراء عند مشاهدتهم لخَيْبة رجائِهم وانعكاسِ تقديرهم بوقوع ضدِّ ما كانوا يترقبونه ويتعللون به، تعجيبًا للمخاطَبين من حالهم وتعريضًا بهم.

﴿**أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم**﴾ أي بالنصر والمعونة كما قالوا فيما حُكيَ عنهم ﴿وإن قوتلتم لننصُرَنَّكم﴾ [الحشر، الآية: ١١] واسمُ الإشارة مبتدأ وما بعده خبرُه، والمعنى إنكارُ ما فعلوه واستبعادُه وتخطئتُهم في ذلك، أو يقولُ بعضُ المؤمنين لبعضٍ مشيرين إلى المنافقين أيضًا أهؤلاء الذين أقسموا للكَفَرة إنهم لمعكم؟ فالخطابُ في (معكم) لليهود على التقديرين إلا أنه على الأول من جهةِ المؤمنين وعلى الثاني من جهة المُقْسِمين، وهذه الجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب لأنها تفسيرٌ وحكايةٌ لمعنى أقسَموا لكن لا بألفاظهم وإلا لقيل: إنا معكم، وجَهدُ الأيْمان أغلظُها وهو في الأصل مصدر ونصبُه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يَجْهَدون جَهدَ أيمانهم، فحُذِفَ الفعلُ وأقيم المصدرُ مُقامَه، ولا يُبالىٰ بتعريفه لفظًا لأنه مؤوَّلٌ بنكرة أي مجتهدين في أيْمانهم أو على المصدر أي أقسموا إقسامَ اجتهادٍ في اليمين وقوله تعالى: ﴿**حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين**﴾ إما جملةٌ مستأنفةٌ مَسوقةٌ من جهته تعالى لبيان مآلِ ما صنعوه من ادِّعاء الولاية والإقسام على المعيَّةِ في المنشَطِ والمكره إثرَ الإشارة إلى بُطلانه بالاستفهام الإنكاري، وإما خبرٌ ثانٍ للمبتدأ عندَ مَنْ يجوِّزُ كونَه جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ [طه، الآية ٢٠] أو هو الخبرُ والموصول مع ما في حيز صلتِه صفةٌ لاسم الإشارة، فالاستفهامُ حينئذٍ للتقرير.

وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أحبَطَ أعمالَهم فما أخسرَهم، والمعنى بطلتْ أعمالُهم التي عمِلوها في شأن موالاتكم وسعوا في ذلك سعيًا بليغًا حيث لم تكن لكم دولةٌ فينتفعوا بما صنعوا من المساعي وتحمَّلوا من مكابدة المشاق، وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطَبين ما لا يخفي، وقيل: قاله بعضُ المؤمنين مخاطِبًا لبعض تعجبًا من سوء حال المنافقين واغتباطًا بما منّ الله تعالى على أنفسهم من التوفيق للإخلاص: أهؤلاءِ الذين أقسموا لكم بأغلظِ الأيْمان إنهم

(١) في المخطوط: يقول.

أولياؤُكم ومعاضِدوكم على الكفار؟ بَطَلتْ أعمالُهم التي كانوا يتكلّفونها في رأيِ أعينِ الناس.

وأنت خبير بأن ذلك الكلامَ من المؤمنين إنما يليقُ بما لو أظهرَ المنافقون حينئذ خلافَ ما كانوا يدَّعونه ويُقسِمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضَدَتِهم على الكفار فظهر كذِبُهم وافتُضحوا بذلك على رؤوس الأشهاد وبَطَلتْ أعمالُهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين المؤمنين، ولا ريب في أنهم يومئذ أشدُّ ادعاءً وأكثر إقسامًا منهم قبل ذلك، فضلًا عن أن يظهروا خلافَ ذلك، وإنما الذي يظهر منهم الندامةُ على ما صنعوا وليس ذلك علامةً ظاهرةَ الدلالة على كفرهم وكذبهم في ادعائهم، فإنهم يدّعون أنْ ليست ندامتُهم إلا على ما أظهروه من موالاة الكَفَرةِ خشيةَ إصابةِ الدائرة.

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ وقرئ[١] (يرتدِدْ) بالفك على لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم، لمّا نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبيّن أن موالاتَهم مستدعيةٌ للارتداد عن الدين وفصَّل مصيرَ أمْرِ من يواليهم من المنافقين شَرَع[٢] في بيان حال المرتدين على الإطلاق وهذا من الكائنات التي أخبر عنها القرآنُ قبل وقوعِها.

(روي أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فِرقةً، ثلاثٌ في عهد رسولِ الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسُهم ذو الخِمار، وهو الأسود العنْسي[٣]، كان كاهنًا تنبأ باليمن

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٠٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥١١)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٥٤، ٥٥٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٢٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٤)، والكشف للقيسي (٤١٢، ٤١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٠٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤١٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٢) في المخطوط: شروع.

(٣) هو: الأسود العنسي لعنه الله، واسمه عبهلة بن كعب بن غوث، خرج أول مخرجه من بلدة باليمن يقال لها كهف خبان ومعه سبعمائة مقاتل، فما مضى شهر حتى تملك صنعاء ثم استوثقت اليمن بحذافيرها في أقصر مدة، وكان معه شيطان يحذق له. ثم لم تمض له ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر حتى قتله الله على يدي إخوان صدق، وأمراء حق، وهم دازويه الفارسي، وفيروز الديلمي، وقيس بن مكشوح المرادي، وذلك في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة. قبل وفاة رسول الله ﷺ بليال، وقيل بليلة فالله أعلم.
ينظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٣٤).

واستولى على بلاده فأخرج منها عُمّالَ رسول الله ﷺ فكتب عليه الصلاة والسلام إلى معاذِ بنِ جبلٍ وإلى ساداتِ اليمنِ فأهلكه الله تعالى على يَدَيْ فيروزَ الدَّيْلمي، بيَّته فقتله، وأخبر رسولُ الله ﷺ بقتلِه ليلةَ قُتل، فسُرَّ به المسلمون وقُبضَ عليه الصلاة والسلام من الغدِ، وأتى خبرُه في آخرِ شهرِ ربيع الأول؛ وبنو حنيفةَ قومُ مسيلِمَةَ الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلِمةَ رسولِ الله إلى محمدٍ رسولِ الله أما بعد فإن الأرضَ نصفُها لي ونصفُها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام: «من محمدٍ رسولِ الله إلى مسيلِمَةَ الكذاب، أما بعد فإن الأرضَ لله يورثُها من يشاء من عباده والعاقبةُ للمتقين»[1].

فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنودِ المسلمين، وقتل على يدَيْ وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ رضي الله عنه. وكان يقول: قتلتُ في جاهليتي خيرَ الناس وفي إسلامي شرَّ الناس؛ وبنو أسد قومُ طليحةَ بنِ خويلد[2]، تنبأ فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه خالدَ بن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشامِ فأسلم وحسُنَ إسلامُه؛ وسبعٌ في عهد أبي بكر رضي الله عنه فَزارةُ قومُ عيينةَ بنِ حِصْن، وغَطَفانُ قوم قرَّةَ بنِ سلمة القشيري، وبنو سُلَيم قومُ الفُجاءة بنُ عبدِ ياليلَ، وبنو يَرْبوعٍ قومُ مالكِ بنِ نُوَيرة، وبعضُ تميم قومُ سَجاح بنتِ المنذر[3] المتنبّئة، التي زوَّجَتْ نفسها من مسيلِمة الكذاب، وفيها يقول أبو العلاء المعري في كتاب [استغفرْ واستغفري]: [البسيط]

أمتْ سَجاحِ ووالاها مسيلِمةٌ ... كذابةٌ في بني الدنيا وكذّابُ[4]

وكِندةُ قومُ الأشعث بن قيس[5]، وبنو بكر بنِ وائل بالبحرَيْن قومُ الحطَمِ بنِ زيد،

---

(١) أخرجه ابن شبة النميري في أخبار المدينة (١/ ٣٠٤) برقم (٩٣٢) من حديث ابن أبي هلال بلاغًا. وأخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٢٠٤) من حديث نعيم بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) هو طليحة بن خويلد الأسدي، كاهن من بني أسد ادعى النبوة فاتبعه قومه، ودعوا إليه حلفاءهم من طيِّء والغوث، ومن إليهم، فلما توفي النبي ﷺ ظهر أمره، فانضمت إليه غطفان ومن حولها. وقد أعلم بموت رسول الله ﷺ بعد انصرافه من حجة الوداع، فسولت له نفسه أن يدعي للناس النبوة؛ ليكون له من الشأن ما رأى لنبي قريش وقد تاب وحسنت توبته وأبلى في الفتوحات خيرًا. ينظر: تاريخ الأمم الإسلامية ص (١٧٦).

(٣) سجاح هي: سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان الثقلية من الجزيرة العربية - وهي من نصارى العرب وقد ادعت النبوة في عهد أبي بكر. ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٢٣)، والكشاف (١/ ٦٧٨).

(٥) هو: الأشعث بن قيس بن (معدي كرب) بن معاوية الكندي أبو محمد نزيل الكوفة. وهو صحابي جليل روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وعن عمر بن الخطاب. وعنه: عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعامر الشعبي، وقيس بن أبي حازم. وقد وفد على النبي ﷺ بسبعين رجلا من كندة، وقد =

وكفى الله تعالى أمرَهم على يد أبي بكر رضي الله عنه، وفِرقة واحدةٌ في عهد عمرَ رضي الله عنه غسانُ قومُ جَبَلَةَ بنِ الأيهم نصَّرتْه اللطمة[١]، وسيَّرتْه إلى بلاد الروم وقصتُه مشهورة. وقوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله﴾ جواب الشرط والعائد إلى اسم الشرط محذوفٌ أي فسوف يأتي الله مكانهم بعد إهلاكهم ﴿بقوم يحبهم﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة، ومحل الجملة الجرُّ على أنها صفة لقوم، وقوله تعالى: ﴿ويحبونه﴾ أي يريدون طاعته ويتحرّزون عن معاصيه، معطوفٌ عليها داخلٌ في حكمها، قيل: هم أهلُ اليمن لما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «قومُ هذا»[٢].

وقيل: هم الأنصارُ رضي الله عنهم، وقيل: هم الفرسُ لما روي أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سَلمان رضي الله عنه وقال: «هذا وذوُوه» ثم قال: «لو كان الإيمانُ معلقًا بالثريا لنالَه رجالٌ من أبناء فارسَ»[٣].

= ذهبت عينه يوم اليرموك. وقد توفي سنة أربعين قبل قتل على بن أبي طالب بيسير، وقيل غير ذلك وحديثه في الصحيحين وغيرهما.
ينظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٦٥)، والإصابة (١/ ٨٧)، وتاريخ بغداد (١/ ١٩٦)، وتهذيب التهذيب (١/ ٣١٣).

(١) روى البلاذري في فتوح البلدان أنه لما قدم عمر بن الخطاب الشام سنة ١٧ لاحى (خاصم) جبلةُ رجلاً من مزينة، فلطم عينه، فأمره عمر بالاقتصاص منه، فقال جبلة: أوَعينُه مثل عيني؟! والله لا أقيم ببلد عليَّ به سلطان، فدخل بلاد الروم مرتداً.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٠)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٢٤) (١٢١٩٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣) كتاب التفسير، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
كلهم من طريق شعبة عن سماك بن حرب قال: سمعت عياضًا الأشعري يقول ...
وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى قال ...
قلت: وعياض الأشعري، مختلف في صحبته، فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم (٦/ الترجمة ٢٢٧٦) عن أبيه: عياض الأشعري، روى عن النبي ﷺ مرسلًا فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وهو تابعي. روى عن أبي موسى عن النبي ﷺ ا هـ.
والحديث عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥١٨) لابن أبي شيبة في مسنده وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني وابن مردويه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ «أبو يعلى» في مسنده (٣/ ٢٧) (١٤٣٨) من طريق سفيان عن ابن أبي نجيح عن أبيه عن قيس بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «لو كان ...» دون قوله «هذا وذووه» وأخرجه موقوفًا أيضا على قيس بن سعد (٣/ ٢٣) وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٥٤) (٩٠٠، ٩٠١).
=

وقيل: (هم ألفان من النخَع وخمسةُ آلافٍ من كِندةَ وثلاثةُ آلاف من أفياءِ الناس جاهدوا يوم القادسية).

﴿أذلةٍ على المؤمنين﴾ جمع ذليلٍ لا ذلول، فإن جمعه ذُلُلٌ أي أرِقّاءَ رحماءَ متذللين ومتواضعين لهم، واستعماله (بعلى) إما لتضمين معنى العطف والحُنُوّ، أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتِهم وفضلِهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتَهم، أو لرعاية المقابلة بينه وبين ما في قوله تعالى: ﴿أعزة على الكافرين﴾ أي أشداء متغلبين عليهم من عزّه إذ غلبه كما في قوله عز وعلا: ﴿أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم﴾ [الفتح، الآية ٢٩] وهما صفتان أُخريان لقومٍ تُرك بينهما العاطفُ للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما، وفيه دليل علٍى صحة تأخير الصفة الصريحة من الجملة والظرف، كما في قوله تعالى: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ﴾ [الأنعام، الآية ٩٢] وقوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَثٍ﴾ [الأنبياء، الآية ٢] وقوله

= وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٧-٦٨) وقال «رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجالهم رجال الصحيح».
قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة:
أخرجه البخاري (٩/ ٦٣٤) كتاب التفسير، باب: سورة الجمعة، (٤٨٩٧) ومسلم (٤/ ١٩٧٢) كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل فارس (٢٥٤٦/ ٢٣١) والترمذي (٥/ ٤١٣) كتاب تفسير القرآن سورة الجمعة (٣٣١٠) «وطريقه فيه ضعف»- من طريق أبي الغيث عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ... ولفظه «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء يعني سلمان الفارسي».
وصح الحديث بلفظ آخر، وهو «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس...».
أخرجه مسلم (٢٥٤٦/ ٢٣٠) وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٨-٣٠٩) من طريق زيد بن الأصم عن أبي هريرة مرفوعًا.
وللحديث طريق أخرى عن أبي هريرة وفيه سبب وروده وهو ما أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/ ٣٣٠) (٣١٤٤٤) من طريق مسلم بن خالد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية...
قلت: وهذا إسناد فيه نظر- لضعف مسلم بن خالد:
قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: ليس بالقوي:
وقال أبو حاتم، ليس بذاك القوي، منكر الحديث- راجع تهذيب الكمال (٢٧/ ٥١٢) ولكن لمسلم ابن خالد متابعات:
الأولى: شيخ من أهل المدينة.
أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٣-٣٨٤) (٣٢٦٠) وقال: هذا حديث غريب في إسناده مقال.
الثانية: عبدالعزيز بن محمد:
أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٨)- وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأقره الذهبي.

تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من الرحمٰن محدث﴾ [الشعراء، الآية ٥] وما ذهب إليه من لا يجوِّزه من أن قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ كرم معترِضٌ وأن (مبارك) خبرٌ بعد خبر أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ وأن (من ربهم) و(من الرحمٰن) حالان مقدمتان من ضمير (محدَثٍ) تكلفٌ لا يخفى، وقرئ[1] (أذلةً) و(أعزةً) بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة.

﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ صفة أخرى لقوم مترتبةٌ على ما قبلها مُبيِّنةٌ مع ما بعدها لكيفية عزتهم، أو حالٌ من ضميرٍ في (أعزة) ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة في سبيل الله وبين التصلب في الدين وفيه تعريضٌ بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءَهم اليهودَ فلا يكادون يعملون شيئًا يلحقهم فيه لومٌ من جهتهم، وقيل: هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالُهم خلافُ حال المنافقين، واعتُرض عليه بأنهم نصُّوا على أن المضارعَ المنفيَّ بـ (لا) أو[2] (ما) كالمُثْبَت في عدم جواز مباشرة واو الحال له واللَّوْمةُ المرةُ من اللوم، وفيها وفي تنكيرِ لائمٍ مبالغة لا تخفىٰ.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها في الفضل ﴿فضل الله﴾ أي لطفُه وإحسانُه لا أنهم مستقلون في الاتصاف بها ﴿يؤتيه من يشاء﴾ إيتاءً إياه ويوفقُه لكسبه وتحصيلِه حسبما تقتضيه الحِكْمةُ والمصلحة ﴿والله واسع﴾ كثيرُ الفواضل والألطاف ﴿عليم﴾ مبالِغٌ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها مَنْ هو أهلٌ للفضل والتوفيق، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله، وإظهارُ الاسمِ الجليل للإشعار بالعلة وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية.

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلّله بأن بعضَهم أولياءُ بعض لا يُتصوَّرُ ولايتُهم للمؤمنين، وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم، بيَّن هاهنا من هو وليُّهم بطريقِ قصَرَ الولايةَ عليه كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياءَ، لأن بعضَهم أولياءُ بعضٍ وليسوا بأوليائكم، إنما أولياؤكم الله ورسولُه والمؤمنون فاختصُّوهم بالموالاة ولا تتخطّوهم إلى غيرهم[3]، وإنما أفرد الوليَّ مع تعدده للإيذان بأن الولايةَ أصالةً لله تعالى وولايتُه عليه السلام، وكذا ولايةُ المؤمنين بطريقِ التبعية لولايتِه عز وجل.

---

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٠٥)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٢)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٦).
(٢) في المخطوط: و.
(٣) في المخطوط: الغير.

﴿الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتون الزكاة﴾ صفة للذين آمنوا لجرَيانه مَجرىٰ الاسم أو بدلٌ منه أو نصْبٌ على المدح أو رفعٌ عليه ﴿وهم راكعون﴾ حال من فاعل الفعلين أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى، وقيل: هو حال مخصوصةٌ بإيتاء الزكاة.

والركوعُ ركوعُ الصلاة، والمراد بيانُ كمال رغبتهم في الإحسان ومسارعتهم إليه، ورُوي أنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكعٌ فطرح إليه خاتمه[١] كأنه كان مرجًا[٢] في خِنْصَرِه غيرَ محتاجٍ في إخراجه إلى كثير عمل يؤدِّي إلى فساد الصلاة، ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس في مثل فعلِه رضي الله عنه، وفيه دلالة على أن صدقة التطوُّع تسمّى زكاةً ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أُوثرَ الإظهارُ على أن يقال: ومن يتولَّهم رعايةً لما مر من نُكتةِ بيانِ أصالتِه تعالى في الولاية كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ حيث أضيفَ الحِزبُ إليه تعالى خاصة وهو أيضًا من باب وضْعِ الظاهِرِ موضعَ الضمير العائد إلى (من)، أي فإنهم الغالبون لكنهم جُعِلوا حزبَ الله تعالى تعظيمًا لهم وإثباتًا لغَلَبتهم بالطريق البرهاني، كأنه قيل: ومن يتولَّ هؤلاء فإنهم حزبُ الله وحزبُ الله هم الغالبون ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا﴾ رُوي (أن رفاعةَ بنَ زيد وسويدَ بنَ الحارث، أظهرا الإسلامَ ثم نافقا، وكان رجالٌ من المؤمنين يُوادُّونهما) فنُهوا عن موالاتهما[٣].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فنزلت ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك عن ابن عباس قال: «كان علي قائما يصلي فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت» وروى الحاكم في «علوم الحديث» من رواية عيسى بن عبد الله ثنا أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية؛ ﴿إنما وليكم الله ورسوله ...﴾ الآية، فدخل رسول الله ﷺ المسجد والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد وإذا سائل فقال رسول الله ﷺ: أعطاك أحد شيئا قال: لا إلا هذا الراكع - يعني عليا - أعطاني خاتمه. ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن علي الصائغ وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر قال: وقف بعلي سائل وهو واقف في صلاته- الحديث. وفي إسناده خالد بن يزيد العمري وهو متروك ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولًا وإسناده ساقط. انتهى.

(٢) مرج الخاتم في اليد: قلق، إذا اتسعت حلقته عن الأصبع.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٠) (١٢٢٢١).
قلت: وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت.
وتقدم أن الحافظ قال فيه: مجهول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢١) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

ورُتِّب النهيُ على وصف يعمُّهما وغيرَهما تعميمًا للحكم وتنبيهًا على العلة وإيذانًا بأن مَنْ هذا شأنُه جديرٌ بالمعاداة فكيف بالموالاة؟ ﴿**من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ بيان للمستهزئين، والتعرّضُ لعنوان إيتاءِ الكتاب لبيان كمال شناعتِهم وغايةِ ضلالتهم، لِما أنَّ إيتاءَ الكتاب وازعٌ لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسَّسِ على الكتابِ المصدِّقِ لكتابهم ﴿**والكفار**﴾ أي المشركين خُصّوا به لتضاعُفِ كفرهم، وهو عطف على الموصول الأول ففيه إشعارٌ بأنهم ليسوا بمستهزئين كما يُنبئ عنه تخصيصُ الخطاب بأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب هل تنقِمون منا﴾ [المائدة، الآية ٥٩] الآية، وقرئ[1] بالجر عطفًا على الموصول الأخير ويعضُده قراءةُ[2] أُبيٍّ ومن الكفارِ وقراءةُ[3] عبدِ اللَّه ﴿ومن الذين أشركوا﴾ فهم أيضًا من جملة المستهزئين ﴿**أولياءَ**﴾ وجانبوهم كلَّ المجانبة.

﴿**واتقوا الله**﴾ في ذلك بترك موالاتهم أو بترك المَناهي على الإطلاق فيدخل فيه تركُ موالاتِهم دخولًا أوليًّا ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي حقًا، فإن قضيةَ الإيمان توجب الاتقاءَ لا محالة ﴿**وإذا ناديتم إلى الصَّلاةِ اتخذوها**﴾أي الصلاةَ أو المناداةَ، ففيه دلالة على شرعية الأذان ﴿**هزوًا ولعبًا**﴾ بيان لاستهزائهم بالدين على الإطلاق إظهارًا لكمال شقاوتهم.

رُوي (أن نصرانيًّا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، يقول: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمُه ذاتَ ليلة بنار وأهلُه نيامٌ فتطايرَتْ منه شرارةٌ في البيت فأحرقَتْه وأهلَه جميعًا)[4] ﴿**ذلك**﴾ أي الاستهزاء المذكور ﴿**بأنهم**﴾

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٠٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٥)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٦٧)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٢٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٠) والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢١٢)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٢) قرأ بها: أبيّ.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥١٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٣١)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٢٣)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٧)، والمعاني للفراء (١/ ٣١٣).

(٣) قرأ بها: عبدالله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥١٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٣٠).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣١) (١٢٢٢٣).
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢١) لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

بسبب أنهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ فإن السَّفَه يؤدِّي إلى الجهل بمحاسِنِ الحق والهُزء به، ولو كان لهم عقلٌ في الجملة لما اجترءوا على تلك العظيمة.

﴿قل﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بطريق تلوين الخطاب بعد نهْيِ المؤمنين عن تولِّي المستهزئين بأن يخاطِبَهم ويبيِّنَ أن الدين منزه عما يصحِّحُ صدورَ ما صدر عنهم من الاستهزاء، ويُظهرَ لهم سببَ ما ارتكبوه ويُلْقِمَهم الحجرَ، أي قل لأولئك الفجرة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وُصفوا بأهلية الكتاب تمهيدًا لما سيأتي من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ﴿هل تنقِمون منا﴾ من نقَم منه كذا إذا عابه وأنكره وكرهه، ينقِمه من حدِّ ضرب.

وقُرئ[1] بفتح القاف من حد علِمَ وهي أيضًا لغة، أي ما تَعيبون وما تُنكرون منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من القرآن المجيد ﴿وما أنزل من قبل﴾ أي من قبل إنزاله من التوراة والإنجيل المنزَّلَيْن عليكم وسائرِ الكتبِ الإلٰهية ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ أي متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر فإن الكفر بالقرآن مستلزم بما يصدِّقُه لا محالة وهو عطف على (أن آمنا) على أنه مفعول له لـ (تنقمون)، والمفعول الذي هو الدينُ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالةً واضحة، فإن اتخاذ الدين هزوًا ولعبًا عينُ نِقَمِه وإنكارِه.

والإيمانُ بما فُصِّل عينُ الدين الذي نقَموه خلا أنه أبرزَ في معرِض علةِ نقمِهم له تسجيلًا عليهم بكمال المكابرةِ والتعكيس حيث جعلوه موجِبًا لنقمه مع كونه في نفسه موجبًا لقَبوله وارتضائه، فالاستثناءُ من أعم العلل أي ما تنقِمون منا دينَنا لعلةٍ من العلل إلا لأن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل من قبلُ من كتُبكم، ولأن أكثركم متمردون غيرُ مؤمنين بواحدٍ مما ذُكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطقِ بصحة كتابِنا لآمنتم به.

وإسنادُ الفسق إلى أكثرِهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرُّد والعناد، وقيل: عطفٌ عليه على أنه مفعول لتنقمون منا، لكن لا على أن المستثنى مجموعُ المعطوفَيْن بل هو ما يلزَمهما من المخالفة كأنه قيل: ما تنقمون منا إلا مخالفتَكم حيث دخلنا الإيمانَ وأنتم خارجون عنه، وقيل: على حذف المضافِ، أي واعتقادَ أن أكثركم فاسقون، وقيل: عطف على (ما) أي ما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا

(١) قرأ بها: المطوعي، وأبو حيوة، والنخعي، وابن أبي عبلة، أبو البرهسم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٠١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٧).

وبأنكم فاسقون، وقيل: عطفٌ على علة محذوفةٍ أي لقلة إنصافِكم ولأن أكثركم فاسقون، وقيل: الواو بمعنى مع أي ما تنقِمون منا إلا الإيمانَ مع أن أكثركم... إلخ، وقيل: هو منصوب بفعل مقدرٍ دل عليه المذكور أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون وقيل: هو مرفوعٌ على الابتداء والخبر محذوفٌ أي وفِسقُكم معلوم أي ثابت، والجملة حالية أو معترضة، وقرئ[١] بإن المكسورةِ والجملةُ مستأنَفة مبيّنةٌ لكون أكثرهم فاسقين متمرِّدين.

﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك﴾ لما أمر عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدارَ نقمِهم للدين إنما هو اشتمالُه على ما يوجب ارتضاءَه عندهم أيضًا وكفرُهم بما هو مُسلَّم لهم، أُمر عليه الصلاة والسلام عَقيبَه بأن يُبكتَهم ببيان أن الحقيقَ بالنقم والعيب حقيقةً ما هم عليه من الدين المحرَّف ويَنْعىٰ عليهم في ضمن البيان جناياتِهم وما حاق بهم من تبِعاتها وعقوباتِها على منهاج التعريض لئلا يحمِلَهم التصريحُ بذلك على ركوب متن المكابرةِ والعنادِ، ويخاطِبَهم قبل البيانِ بما يُنبئ عن عِظَم شأن المبيَّنِ، ويستدعي إقبالَهم على تلقّيه من الجملة الاستفهامية المُشَوِّقة إلى المخبِر به والتنبئةِ المُشعرة بكونه أمرًا خطيرًا لما أن النبأ هو الخبرُ الذي له شأنٌ وخطَرٌ، وحيث كان مناطُ النقم شَرِّيَّةَ المنقوم حقيقةً أو اعتقادًا وكان مجردُ النقم غيرَ مفيد لشَرِّيته ألبتّةَ، قيل: (بشرٍّ) من ذلك ولم يقُل: بأنقَمَ من ذلك تحقيقًا لشَرِّية ما سيُذكر وزيادةَ تقرير لها.

وقيل: إنما قيل ذلك لوقوعه في عبارة المخاطَبين حيث أتى نفرٌ من اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام: «أُومنُ بالله وما أنزل إلينا» إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا: لا نعلم شرًا من دينكم[٢].

---

(١) قرأ بها: نعيم بن ميسرة.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥١٦)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٢) (١٢٢٢٤) حدثنا هناد السري قال، حدثنا يونس بن بكير، قال حدثنا محمد بن إسحاق قال حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس..
قلت: وفيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت: تقدم أنه مجهول.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤١٣) للواحدي في أسباب النزول.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٢) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وإنما اعتَبَر الشَّرِّيةَ بالنسبة إلى الدين وهو منزَّه عن شائبةِ الشرّية بالكلية مجاراةً معهم على زعمهم الباطِلِ المنعقدِ على كمال شريتِه ليثبِتَ أن دينهم شرٌّ من كل شر، أي هل أخبركم بما هو شرٌّ في الحقيقة مما تعتقدونه شرًا، وإن كان في نفسه خيرًا محضًا ﴿مثوبة عند الله﴾ أي جزاءً ثابتًا في حكمه، وقرئ[1] (مثْوبةً) وهي لغة فيها كمشُورة ومشْوَرة وهي مختصةٌ بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر، وإنما وضعت هاهنا موضعها على طريقة قوله: [الوافر]

.... تحيةُ بينِهم ضَرْبٌ وجيعُ[2]

ونصبُها على التمييز من (بشرّ) وقوله عز وجل: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ خبر لمبتدأ محذوفٍ بتقدير مضافٍ قبله مناسبٍ لما أشير إليه بكلمة ذلك أي: دينُ مَنْ لعنه إلخ، أو بتقدير مضافٍ قبلها مناسبٍ لمن، أي بشرّ مِنْ أهل ذلك، والجملة على التقديرين استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية إما على حالها وهو الظاهرُ المناسب لسياق النظم الكريم، وإما باعتبار التقدير فيها فكأنه قيل: ما الذي هو شرٌّ من ذلك؟ فقيل: هو دينُ مَنْ لعنه الله إلخ، أو قيل في السؤال: من ذا الذي هو شرٌّ من أهل ذلك؟ فقيل: هو مَنْ لعنه الله، ووضع الاسم الجليلِ موضع الضمير لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة وتهويلِ أمر اللعن وما تبعه، والموصولُ عبارةٌ عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخِط عليهم بكفرهم وانْهماكِهم في المعاصي بعد وضوح الآيات وسُنوحِ البينات.

﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي مسخ بعضَهم قردةً وهم أصحابُ السبْت وبعضَهم خنازيرَ وهم كفار مائدةِ عيسى عليه السلام، وقيل: كلا المسخين في أصحاب السبْت مُسِخت شبانُهم قردةً وشيوخُهم خنازيرَ وجمع الضمير الراجع إلى الموصول في

(١) قرأ بها: الحسن، وابن بريدة، والأعرج، وابن عمران، وابن هرمز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢١٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٣).

(٢) عجز بيت وصدره:
وخَيْلٌ قد دَلَفْتُ لها بخَيْلٍ ....
والبيت لعمرو بن معدي كرب في ديوانه ص (١٤٩)، وخزانة الأدب (٩/ ٢٥٢)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٠٠)، والكتاب (٣/ ٥٠)، ونوادر أبي زيد ص (١٥٠)، وبلا نسبة في: أمالي ابن الحاجب (١/ ٣٤٥)، والخصائص (١/ ٣٦٨)، وشرح المفصل (٢/ ٨٠)، والكتاب (٢/ ٣٢٣)، والمقتضب (٢/ ٢٠).

(منهم) باعتبار معناه كما أن إفراد الضميرين الأولين باعتبار لفظه، وإيثارُ وضعه موضعَ ضمير الخِطاب المناسب لأنبئكم للقصدِ إلى إثبات الشرِّية بما عُدّد في حيز صلتِه من الأمورِ الهائلة الموجبةِ لها على الطريقة البرهانية مع ما فيه من الاحتراز عن تهييج لَجاجِهم ﴿وعبَدَ الطاغوتَ﴾ عطف على صلة (مَنْ) وإفراد الضمير لما مر وكذا (عُبد الطاغوتُ) على قراءة[1] البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا (عبد الطاغوت)[2] بمعنى صار معبودًا، فالراجع إلى الموصول محذوف على القراءتين، أي عُبد فيهم أو بينهم، وتقديم أوصافِهم المذكورة بصدد إثباتِ شرّية دينِهم على وصفهم هذا مع أنه الأصلُ المستتبعُ لها في الوجود وأن دلالته على شريته بالذات، لأن عبادة الطاغوتِ عينُ دينهم البيّنِ البطلان ودلالتُها عليها بطريق الاستدلال بشرِّيَّة الآثار على شرِّية ما يوجبُها من الاعتقاد، والعمل، إما للقصد إلى تبكيتهم من أول الأمر بوصفهم بما لا سبيل لهم إلى الجحود لا بشرِّيته وفظاعته ولا باتصافهم به، وإما للإيذان باستقلال كلٍّ من المقدم والمؤخر بالدلالة على ما ذكر من الشرِّية، ولو روعي ترتيبُ الوجود.

وقيل: مَنْ عَبَدَ الطاغوتَ ولعنه الله وغضب عليه إلخ، لربما فهم أن علة الشرية هو المجموعُ، وقد قرئ[3] (عابدَ الطاغوت) وكذا (عبِدَ الطاغوتِ) بالإضافة على أنه نعتٌ كفطِنٍ ويقِظٍ، وكذا (عبدَةَ الطاغوتِ)[4]، وكذا (عبَدَ الطاغوتِ)[5] بالإضافة على أنه جمع عابد كخَدَمٍ، أو على أن أصله (عبدَة) حذفت تاؤه للإضافة، بالنصب في الكل عطفًا على القردة والخنازير.

---

(١) قرأ بها: النخعي، والأعمش، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وأبو جعفر الرؤاسي النحوي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٩)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٧٣)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٤٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٣٦)، والمجمع للطبرسي، (٢/ ٢١٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٢).

(٢) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٠٧)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٩).

(٣) قرأ بها: عون العقيلي، وبريدة، والأسلمي، وابن بريدة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٧٤)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤٤١)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٣٦)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٤٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢١٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٢).

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥١٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٢).

(٥) قرأ بها: ابن عباس، وابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥١٩).

وقرئ (عَبَدِ الطاغوتِ) بالجر عطفًا على (مَنْ) بناءً على أنه مجرور بتقدير المضاف، وقد قيل: إن (مَنْ) مجرور على أنه بدلٌ من شرٍّ على أحد الوجهين المذكورين في تقدير المضاف.

وأنت خبير بأن ذلك مع اقتضائه إخلاءَ النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا سبيل إليه قطعًا ضرورةَ أن المقصود الأصلي ليس مضمونَ الجملة الاستفهامية بل هو كما مر مقدّمة سيقت أمام المقصود لهُزُء[1] المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقي ما يُلقىٰ إليهم عَقيبها بجملة خبرية موافقةٍ في الكيفية للسؤال الناشئ عنها وهو المقصودُ إفادتُه، وعليه يدور ذلك الإلزام والتبكيتُ حسبما شُرح، فإذا جُعل الموصولُ بما في حيز صلتِه من تتمة الجملة الاستفهامية فأين الذي يُلقىٰ إليهم عقيبها جوابًا عما نشأ منها من السؤال ليحصُلَ به الإلزامُ والتبكيت؟.

وأما الجملة الآتية فبمعزلٍ من صلاحية الجواب، كيف لا ولا بد من موافقته في الكيفية للسؤال الناشئ عن الجملة الاستفهامية، وقد عرفت أن السؤال الناشئ عنها يستدعي وقوعَ الشر من تتمة المخبَرِ عنه لا خبرًا كما في الجملة المذكورة، وسيتضح ذلك مزيدَ اتضاحٍ بإذن الله تعالى. والمراد بالطاغوت العِجْلُ، وقيل: هو الكهنة وكلُّ من أطاعوه في معصية الله عز وجل فيعم الحكمُ دينَ النصارى أيضًا.

ويتضح وجه تأخيرِ ذكرِ عبادتِه عن العقوبات المذكورة، إذ لو قُدِّمت عليها لتُوُهِّم اشتراكُ الفريقين في تلك العقوبات ولما كان مآلُ ما ذُكرَ بصدر[2] التبكيت أن ما هو شرٌّ مما نقَموه دينُهم أو أن من هو شرٌّ من أهل ما نقموه أنفسُهم بحسَب ما قدِّر من المضافين، وكانت الشرِّيةُ على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غيرَ مقصودة الإثبات لدينهم أو لأنفسهم عقِبَ ذلك بإثباتها لهم على وجهٍ يُشعر بعِلِّية ما ذُكر من القبائح لثبوتها لهم بجملةٍ مستأنَفةٍ مسوِّغةٍ من جهته سبحانه شهادةً عليهم بكمال الشرارة والضلال، أو داخلةٍ تحت الأمر تأكيدًا للإلزام وتشديدًا للتبكيت فقيل:

﴿**أولئك شر مكانًا**﴾ فاسمُ الإشارة عبارة عمن ذُكرتْ صفاتُهم الخبيثة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتِهم في الشرارة أي أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرٌّ مكانُهم، جَعَلَ مكانًا شرًا ليكونَ أبلغَ في الدلالة على شرارتهم، وقيل: شر مكانًا أي مُنصَرَفًا.

---

(١) في المخطوط: ولهزٍّ.

(٢) في المخطوط: بصدد.

﴿**وأضل عن سواء السبيل**﴾ عطف على شر، مقرِّرٌ له أي أكثرُ ضلالًا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرًا محضًا بعيدًا عن الحق لأن ما يسلُكونه من الطريق دينُهم، فإذا كانوا أضلَّ كان دينُهم ضلالًا مُبينًا لا غايةَ وراءه، وصيغةُ التفضيل في الموضعين للزيادة مطلقًا لا بالإضافة إلى من يشاركهم في أصلِ الشرارة والضلال.

﴿**وإذا جاءوكم قالوا آمنا**﴾ نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخُلون على رسول الله ﷺ ويُظهرون له الإيمان نفاقًا[1]، فالخطاب لرسول الله ﷺ، والجمعُ للتعظيم، أوْ له مَعَ مَنْ عنده من المسلمين، أي إذا جاؤوكم أظهروا الإسلام ﴿**وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به**﴾ أي يخرجون من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا، لم يؤثِّرْ فيهم ما سمعوا منك، والجملتان حالان من فاعل قالوا، وبالكفر وبه حالان من فاعل دخلوا وخرجوا، وقد وإن دخلت لتقريب الماضي من الحال ليصح أن يقع حالًا، أفادت أيضًا بما فيها من معنى التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة، وكان الرسول ﷺ يظنه ويتوقع أن يظهره الله تعالى، ولذلك قيل: ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد شديد لهم.

﴿**وترى**﴾ خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ ممن يصلُح للخطاب، والرؤيةُ بصرية ﴿**كثيرًا منهم**﴾ من اليهود والمنافقين، وقولُه تعالى: ﴿**يسارعون في الإثم**﴾ حال من كثيرًا، وقيل: مفعول ثانٍ والرؤيةُ قلبية، والأول أنسبُ بحالهم وظهور نفاقهم، والمسارعة المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة، وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) الواقعة في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلخ، لِما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ [المائدة: ٥٢] والمرادُ بالإثم الكذبُ على الإطلاق، وقيل: الحرام، وقيل: كلمةُ الشرك وقولُهم: عزيرٌ ابنُ الله، وقيل: هو ما يختصُّ بهم من الآثام ﴿**والعدوان**﴾ أي الظلم المتعدي إلى الغير أو مجاوزة الحد في المعاصي ﴿**وأكلهم السحت**﴾ أي الحرام، خصه بالذكر مع اندراجه في الإثم للمبالغة في التقبيح ﴿**لبئس ما كانوا يعملون**﴾ أي لبئس شيئًا كانوا يعملونه، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار.

﴿**لولا ينهاهم الربانيُّون والأحبارُ**﴾ قال الحسن: الربانيون علماء الإنجيل،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٦) (١٢٢٣٤)- حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿وإذا جاءوكم ...﴾ الآية أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٣-٥٢٤) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

والأحبار علماء التوراة، وقيل: كلهم في اليهود وهو تحضيضٌ، للذين يقتدي بهم أفناؤهم ويَعْلمون قَباحةَ ما هم فيه وسوءَ مغبَّته، على نهْيِ أسافلِهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه ﴿**عن قولهم الإثم وأكلهم السحت**﴾ مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما.

﴿**لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ وهذا أبلغ مما قيل في حق عامتهم لما أن العمل لا يبلُغ درجة الصنع ما لم يتدرَّبْ فيه صاحبُه ولم يحصُلْ فيه مهارة تامة، ولذلك ذَمَّ به خواصَّهم، ولأن ترك الحسنة أقبحُ من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها، ولا كذلك تركُ الإنكار عليها، فكان جديرًا بأبلغِ ذم، وفيه مما يُنعىٰ على العلماء توانيهم في النهي عن المنكرات ما لا يخفى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها أشد آية في القرآن[١]، وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوفُ عندي منها[٢].

﴿**وقالت اليهود**﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالًا وأخصبَهم ناحيةً فلما عصَوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله ﷺ وكذبوه كف عنهم ما بسَطَ عليهم، فعند ذلك قال فِنْحاصُ بنُ عازوراء: ﴿**يدُ الله مغلولة**﴾[٣] وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضُوا به نُسبت تلك العظيمةُ إلى الكل كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانًا، وإنما القاتل واحدٌ منهم وأرادوا بذلك، لعنهم الله، أنه قال: مُمسك يقتِّر بالرزق، فإن كلاًّ من غَلِّ اليد وبسْطِها مجازٌ عن محض البخل[٤] والجود من غير قصد في ذلك إلى إثبات يدٍ وغَلٍّ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/٦٣٨) (١٢٢٤٤) حدثنا ابو غريب قال: حدثنا ابن عطية قال: حدثنا قيس عن العلاء بن المسيب عن خالد بن دينار عن ابن عباس قال: ... وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٤) لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (١/ ١٩) (٥٧).
وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/٦٣٨) (١٢٢٤٢).
من طريق سلمة بن نبيط عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿لولا ينهاهم الربانيون....﴾.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٤-٥٢٥) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٤٠)- قال عكرمة: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ الآية، نزلت في فنحاص اليهودي.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٥) لأبي الشيخ ولكنه عن ابن عباس...

(٤) الآية ذات صلة وثيقة بقضية المجاز، وخلاف علماء الأمة من حولها، ويجب تفصيل القول في هذه المسألة؛ لأن إنكار المجاز يترتب عليه شطب عمود البيان، وقد اتسع القول في هذه القضية قديمًا وحديثًا، وتدافعت الحجج وتزاحمت الآراء، والعلماء من هذه القضية على فريقين: فريق يمنع =

. . . .

= المجاز وفريق يجيزه، وقد وضع كل فريق مصنفات تؤيد مذهبه، ومنشأ الخلاف - فيما يرجح - هو البحث في أسماء الله وصفاته فقد وردت في القرآن الكريم نصوص يوهم ظاهرها المشابهة بالحوادث مثل إثبات اليد لله - سبحانه - كالآية الكريمة، وفي الحديث الشريف وردت نسبة القدم والإصبع والصورة والنزول والضحك والكف لله سبحانه، فأقرها فريق على ما هي من غير تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل، وفريق توقف ولم يقل في ذلك شيئًا، وهو مذهب السلف، ووقف آخرون موقفًا آخر فأولوا كل ما أوهم ظاهره تمثيلاً أو تجسيمًا، فأولوا اليد بالقدرة والقوة والنعمة، والإصبع بالأثر والوجه بالذات والاستواء على العرش بالهيمنة إلى آخره. وهكذا أخذ المجاز ينمو ويزدهر وتعترك حوله الأذهان في ظلال العقيدة والتوحيد، وأخذ مثبتوه ومنكروه يتبارون حوله، وجميعهم كان يقصد تنزيه الله - سبحانه - عن الحوادث، وإن اختلف المنهج من فريق إلى فريق، والمتابع لسير النزاع بين الفريقين يرى أن الخلاف بينهما كان هادئًا طوال القرون الأولى حتى النصف الثاني من القرن السابع، والربع الأول من القرن الثامن، فقد اتجه الخلاف إلى الشدة والعنف ولكن من جانب منكريه وحدهم دون مجوزيه، فقد برز على الساحة الإمام أبو العباس ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ) وقد وهبه الله ذاكرة واعية وقلبًا ذكيًا، ولسانًا فصيحًا وقلمًا جريئًا وتبنى مذهب السلف من حيث الجملة وتصدى لأقاويل كثير من الفرق، ولم يترك مجالاً من مجالات الفكر الإسلامي إلا وكان له فيه قصب السبق، وكان مما أدلى فيه بدلوه موضوع المجاز، فاختار مذهب المنع، وكتب فصلاً إضافيًا في كتابه «الإيمان» ينكر فيه المجاز، ويحشد بين يدي إنكاره ما شاء أن يحشد من أدلة نقلية وعقلية وواقعية، وشدد النكير على مجوزيه، ورماهم بالكفر حينًا، وبالجهل حينًا آخر. ومن يقرأ كتابه «الإيمان» يجد نفسه أمام صخرة عاتية لا تعمل فيها المعاول إذا أريد النيل منها، وكان السبب المباشر لهذه الحملة القاسية التي حملها على المجاز ومجوزيه أن فريقًا من العلماء قال: إن الإيمان هو التصديق القلبي، أما الأعمال فلا تدخل في الإيمان حقيقة، وإنما تدخل فيه مجازًا، والإمام ابن تيميةَ يرى أن الإيمان هو التصديق والعمل معًا، ولكي يصح له ما أراد أجهد نفسه وعقله في إنكار المجاز، وبعد الإمام ابن تيمية حمل لواء المنع- وكان أقسى وأعنف من شيخه- ابن القيم، وسنذكر خلاصة آراء أهل العلم في هذه القضية، ونتتبع سيرتها في تاريخ المسلمين وتراثهم لنصل إلى قول فصل - إن شاء الله - على أن تكون عالمًا أن أبا السعود من القائلين بالمجاز في القرآن الكريم.

الفريق الأول (القائلون بالمجاز)

في بيئة اللغويين والنحاة:

سيبويه صاحب الكتاب (من علماء القرن الثاني الهجري) قال بالمجاز في تقسيمه الكلام تحت عنوان (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة) قال فيه: «فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح، ومحال كذب والذي يهمنا كلامه في المستقيم الكذب، وهو عنده كقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر، فقد جعله من المستقيم، وبدهي أنه من المجاز، ينظر: الكتاب (١/ ٨)، وقال بالمجاز العقلي عند قول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

قال: فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام كذلك: نهارك صائم، وليلك قائم انظر الكتاب ١/ ١٦٨، والخلاصة أن كتاب سيبويه بما فيه من هذه اللفتات البلاغية، ينقض دعوى ابن تيمية =

. . . .

= وتلميذه ابن القيم، ومن كان على مذهبهم في نفي المجاز بحجة أن سلف الأمة ومنهم اللغويون لم يقولوا به، وسيبويه إمام في اللغة والنحو وسلفي أصيل.
الفراء (ت - ٢٠٧هـ) في كتابه (معاني القرآن) يشير كثيرًا إلى خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي.
ينظر: معاني القرآن (١/ ٢٣، ٥٠، ٢٠٢، ٤٦٧)، كما يقول بالمجاز العقلي، فقد قال عند قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ ربما قال القائل: كيف تربح التجارة، وإنما يربح التاجر؟ وذلك من كلام العرب ربح بيعك وربح بيعك فحسن القول بذلك؛ لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب هذا ليل نائم، ومعاني القرآن (١/ ١٥)، كما يقول بالمجاز المرسل بمعناه لا بمصطلحه (إني أراني أعصر خمرًا) أي عنبًا يصير خمرًا، ومعاني القرآن (٢/ ١٢٩)، كما لم يخل كتابه من الإشارات الواضحة إلى ما سمي بعده بالاستعارة (١/ ١٢٤، ١٩٠، ٢٢٩، ٣٥٣).
أبو عبيدة: (ت- ٢٠٩هـ) يقول بما سمي بعد بالمجاز في كثير من المواضع في كتابه (مجاز القرآن) (١/٢٧٨، ٢/ ٢٣١، ١/٢٤٦، ٥٥، ١/ ١٥٢)، كما حفل كتابه بالإشارة إلى الاستعارة (١/ ٣٢، ٧٩، ٨٤)، وكذلك ابن قتيبة، بل ولد المجاز باسمه ورسمه في مباحثه من كتابيه (تأويل مشكل القرآن، وتأويل مختلف الحديث. يقول: وللعرب المجازات في الكلام ومعناه طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة والتمثيل.
تأويل مشكل القرآن، ويقول في الاستعارة: فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورًا لها أو مشاكلاً لها، تأويل مشكل القرآن ١٣٥، وكذلك أبو العباس المبرد (ت - ٢٨٥هـ) في كتابه الكامل يقول بالمجاز في مواطن متعددة الكامل (١/ ٥٠، ٥٩، ٩٥، ١٣٥، ١٥١، ١٦٦، ٣٦١)، وكذلك ابن جني في كتابه الخصائص عقد بابًا دعاه (الفرق بين الحقيقة والمجاز (٢/ ٤٤٢) من الخصائص لابن جني، ويقع المجاز عنده لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبتة الخصائص (٢/ ٤٤٢، ٤٥١)، ويقول أيضًا: اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة (٢/ ٤٤٧، ٤٤٨)، وكذلك ابن فارس اللغوي ٣٩٥هـ في كتابه الصاحبي يقول: إن لعلم العرب أصلاً وفرعًا: أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات، كقولنا: رجل وفرس... وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلم، وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الاقتنان تحقيقًا ومجازًا الصاحبي (٣)، وقد عرف الحقيقة والمجاز كما عرف الاستعارة انظر الصاحبي ٣٣٤، ٣٦٨، وكذلك أبو البقاء العكبري (ت - ٦١٦هـ) في التبيان في شرح الديوان، ويتناول الاستعارة بمختلف أقسامها وأفرعها التبيان. (٣/ ٤٣، ٤٩، ٥٠) والمجاز المرسل (١/ ٢٢٨، ٣٠٤، ٣٦٢) من التبيان، ويخلص إلى أن النحاة واللغويين قد تناولوا المجاز واحتفوا به، فقد تناولوا (المجاز المرسل - المجاز العقلي - الاستعارة بأنواعها - الكناية والتمثيل - المشاكلة وبعض صورها من المجاز).
بيئة الأدباء والنقاد:
من القائلين بالمجاز أبو زيد القرشي (ت - ١٧٠هـ) في جمهرة أشعار العرب، والجاحظ (ت - ٢٥٥هـ) في الحيوان والبيان والتبيين، وابن المعتز (ت - ٢٩٦هـ) في كتابه البديع، وعلي بن عبد
=

. . . .

= العزيز الجرجاني (ت - ٣٦٦هـ أو ٣٩٢هـ) في الوساطة والآمدي (ت - ٣٧٠هـ) في كتابه الموازنة، والشريف الرضي (ت - ٤٠٤هـ) وله كتابان في المجاز (المجازات النبوية - تلخيص البيان في مجازات القرآن) وابن رشيق (ت - ٤٥٦هـ) في كتابه العمدة وضياء الدين ابن الأثير (ت-٦٣٧هـ) في كتابه المثل السائر، بل رد على منكري المجاز في المثل السائر (١/ ١٠٦، ١٠٧) وما بعدهما وغيرهم، كقدامة بن جعفر والمرزباني في الموشح والثعالبي في يتيمة الدهر، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، وفي كتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) مطبوع بهامش المثل السائر.

بيئة الإعجاز بين البلاغيين:

ومنهم الرماني وأبو هلال والباقلاني وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني، والسكاكي والخطيب القزويني، وما قام على تلخيص المفتاح من الشروح والحواشي، وقد برز المجاز بنوعيه (اللغوي والعقلي) وتشعب المجاز في موضوع المجاز إلى درجة جعلت المتأخرين من علماء البلاغة، وبخاصة شراح التلخيص وأصحاب الحواشي والتجريدات، يدورون حول المحور الذي وصفه الإمام الخطيب مقتضبًا من رافدي الإمامين الجليلين: عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، وسار على هذا المنوال الكاتبون من بعدهم إلى عصرنا، ومما تجب الإشارة إليه أن جل تمثيلاتهم على المجاز، بل أكثرها ماءً ورونقًا وأصدقها شاهدًا كانت من نصوص القرآن الكريم، فلم يروا في ذلك حرجًا، وهذا يدفع - بقوة - مذهب الإمام ابن تيمية ومشايعيه قديمًا وحديثًا في نفي المجاز في اللغة بوجه عام، وفي القرآن بوجه خاص كما دقق من قبل مذاهب اللغويين والنحاة والأدباء والنقاد على النحو الذي مر بين المفسرين والمحدثين.

من أشهر القائلين بالمجاز من المفسرين ابن جرير الطبري (ت- ٣١٠هـ) وترجع أهمية كلام ابن جرير إلى ثلاثة اعتبارات أولها: أنه قد حكى إجماع الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن المراد بالصراط وضعًا هو الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فيكون استعماله في غيره، مثلما في الآية الحكيمة (اهدنا الصراط المستقيم) خروجًا به إلى غير معناه، وهو المجاز في أوضح صوره.

الاعتبار الثاني: أنه ينقل عن السلف آثارًا بعضها مرفوع إلى رسول الله ﷺ تدل بوضوح على أن المراد بالصراط في هذه الآية غير ما وضع له، وهو كتاب الله، فيكون القول بالمجاز - وإن لم يسم - مأذونًا به شرعًا، فهو ليس بدعة كما يقول منكروه، وكيف يكون بدعة، وقد ورد إقراره من طريق شرعي، أو قل طرق شرعية صحيحة.

الاعتبار الثالث: أن هذا الإجماع الذي حكاه ابن جرير، وهو سلفي ينقل عن السلف متعلق بنصوص القرآن الكريم، وقد رأينا المؤلف يختار هذا المذهب، ويقويه بالآثار، فهو إذًا قد تجاوز مرحلة القول بجواز ورود المجاز في اللغة إلى القول بورود المجاز في القرآن الكريم، وقد تابع الإمام ابن جرير الإمام ابن كثير، وهذا واحد من عشرات الأدلة التي توهن ما ادعاه الإمام ابن تيمية من إنكار المجاز في اللغة والقرآن الكريم استنادًا إلى أنه لم يرد عن السلف.

يراجع على سبيل المثال في جامع البيان (١/ ٩٤، ٢/ ٩٥ - ١٠٠ - ١١٠ - ١٢١، ٣/ ١٥، ٧/ ١٢٦، ١٠/ ٩٧، ١٤/ ٧٧).

ومن المفسرين أيضًا ابن عطية الغرناطي (ت- ٥٤١هـ) في كتابه المحرر الوجيز، وقد مال ابن عطية مرات لا تحصى إلى التفسير المجازي، وحمل نصوصًا كثيرة من التنزيل الحكيم على المجاز =

. . . .

= باختلاف أنواعه، ولم ير في ذلك حرجًا، وينظر في ذلك مثلاً المحرر الوجيز ١/ ١٢٢ - ١٢٤ - ١٤٧، ٣٢٥، ٣٣٨، ٤٣٢، ومن المفسرين أيضًا الزمخشري (ت - ٥٣٥هـ) وهو أكثر القائلين بالمجاز من المفسرين.
ينظر: الكشاف (١/ ١٦١، ١٧٧، ١٨٨ - ١٩١ - ٢/ ٣٧٢ - ٥٠٤ - ٥٤٦).
وممن قال بالمجاز من المحدثين:
ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٧٨ - ١٧٩)، والشريف الرضي في المجازات النبوية (٣١ - ٦٨ - ٧٨ - ٢٠٤ - ٢٨٠ - ٣١٤) وغيرهم من الأئمة أمثال ابن الأثير (٦٠٦هـ)، الهروي (٨٣٨هـ) والخطابي (٣٨٨هـ) وكل هؤلاء لم يروا غضاضة في تأويل آيات الله وحديث رسول الله ﷺ تأويلاً يفضي بهم إلى القول بالمجاز، بل إن هذا المنهج قد أعانهم على استجلاء ما في هذين الرافدين من معان آسرة، ولمحات باهرة، وصور من البيان الرفيع نادرة، كما اتخذوا منه وسيلة لتنزيه الله - سبحانه وتعالى- عن التشبيه والتركيب واجتازوا به عقبات كثيرة لها صلة بأصول الاعتقاد.
بيئة الأصوليين والفقهاء:
من القائلين بالمجاز ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٧هـ) والناظر في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) يرى أنه قد تحدث عن المجاز والتشبيه في فصل خاص، وأنه لم يتناول مسألة وقوع المجاز في اللغة بل تخطاها إلى وقوعه في القرآن والسنة، أو عدم وقوعه فيهما، وقد اختار القول بوقوع المجاز في حدود وضعها له في قوله (إن الاسم إذا تيقنا بدليل نص أو إجماع أو طبيعة أنه منقول عن موضوعه في اللغة إلى معنى آخر وجب الوقوف عنده؛ فكل كلمة نقلها الله تعالى عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر فإن كان تعبدنا بها قولاً وعملاً كالصلاة والزكاة والحج والصوم والربا وغير ذلك، فليس شيء من هذا مجازًا بل هي تسمية صحيحة واسم حقيقي... من حيث وضعه الله تعالى، وأما ما نقله الله تعالى عن موضوعه في اللغة، أعني تعبدنا بالعمل به، دون أن يسميه بذلك الاسم، فهذا هو المجاز، والخلاصة أن النقل إذا صحبه تعبد بالعمل والاسم فهو حقيقة لا مجاز، وأن النقل إذا لم يصحبه تعبد بالتسمية فهو مجاز لا حقيقة.
ينظر: الإحكام في أصول الأحكام (٤/ ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣ - ٥٤٠).
ومنهم أيضًا الغزالي (ت - ٥٠٥هـ) في كتابه (المستصفى في علم الأصول) وقد فصل أنواع المجاز، وينظر المستصفى (١/ ٣٤١ - ٣٤٤)، وكذلك الآمدي (٦٣١هـ) في الإحكام في أصول الأحكام عرف المجاز وقسمه، ينظر مثلاً (١/ ٢٣٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٢، ٤٥ - ٦٩)، ومنهم أيضًا البيضاوي في كتابه (منهاج الوصول في علم الأصول) وقد تناول المجاز وأقسامه، ينظر مثلاً المنهاج مع شرح الإسنوي (١/ ٢٧١ - ٢٧٥)، ومنهم ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) في مختصر المنتهى الأصولي. ومما تجب الإشارة إليه أن مباحث جميع الأصوليين في المجاز متشابهة حتى في التمثيل لأنواعه، ينظر في (مختصر المنتهى الأصولي وشرح الوصول عليه (١/ ١٤٢ - ١٥٤ - ١٩٤)، وكذلك ابن النجار الحنبلي (٩٧٢هـ) وقد تناول المجاز بأنواعه، وهو رئيس الحنابلة بمصر في عهده، وذلك في كتابه شرح الكوكب المنير، وينظر مثلاً في هذا الكتاب (١٥٣ - ١٥٩، ١٦٥ -

=

. . . .

= ١٨٧) وهذه اختيارات من كل المذاهب وهو من أقوى ما يرد به على الإمام تقي الدين ابن تيمية.
المنكرون القول بالمجاز:
المانعون قبل ابن تيمية ليست لهم مصنفات، والعمدة في منع المجاز في القرآن الكريم بخاصه، يرجع أول ما يرجع إلى داود الظاهري وابنه محمد والمنكرون فريقان، فريق ينكر المجاز في القرآن الكريم قبل ابن تيمية: داود وابنه محمد من الظاهرية، ومن غير الظاهرية أبو الحسن الجزري وأبو الفضل التميمي من الحنابلة، ومحمد بن خويز منداد من المالكية وابن القاص من الشافعية، ومن المعتزلة أبو مسلم الأصفهاني، وابن تيمية أشد المتحمسين لإنكار المجاز مطلقًا، والملحوظ أنه لم يتعرض للحملة على المجاز إلا في مواطن الحديث عن العقيدة في موضعين أحدهما في مجموع الفناوى، وثانيهما في كتابه الإيمان، ونشر ذلك في مواضع من كتابه «دقائق التفسير»، وقد أقام دعواه على عدم ورود المجاز عن السلف، ينظر: الإيمان (٨٤)، وهو منقوض بما سبق نقله وبما ورد عن إمام الحرمين في البرهان (١/ ١٧٦ - ٢٨٧ - ٣٤٤ - ٣٤٥)، والتأويل المجازي أيضًا ورد في أعمال ابن تيمية ينظر مثلاً دقائق التفسير (١/ ٣٣ - ٣٩)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٩، ١٤/ ٦٢ - ٢٦٣)، ودقائق التفسير (٣/ ٢٧٤)، والظاهر من استقراء كلام الشيخ أن له مذهبين مذهب منع فيه المجاز في اللغة والقرآن الكريم، ومذهب أجاز فيه المجاز في اللغة والقرآن الكريم، فمذهب المنع هو المذهب الجدلي النظري ومذهب الإجازة هو المذهب السلوكي العملي، وقد ظهر هذا المذهب في تأويلاته المجازية التي وردت حول بعض النصوص الشرعية وغير الشرعية، وهي أنواع ثلاثة: تأويلات نقلها عن السلف ثم ارتضاها، وتأويلات نقلها عن السلف ثم أضاف إليها مرتضيًا لها جميعًا، وتأويلات استأنف هو القول فيها استئنافًا غير مسبوق إليه، وربما يرجع إنكاره للمجاز إلى كثرة التأويلات التي تعدى بها قائلوها على النصوص الشرعية، وتجاوزوا بها مرحلة المعقول المقبول، إلى المدخول المنحول الذي يكاد يذهب بكل الحقائق التي جاء بها الإسلام وأقرها، فإن تكن المسألة مسألة تأويل مجازي، وإلا لهان الخطب، وإنما طم شرها وعم، وأغرب قائلوها كل الإغراب حتى صارت بعض الألفاظ ليس لها مدلول محقق في خضم تلك التأويلات العمياء، وبثها الباطنية، والجهمية والفلاسفة والرافضة وغلاة الصوفية وغيرهم من كل فكر.
وجاء من بعد ابن تيمية تلميذه ابن القيم، وهو ألد منه خصومة وقد تابع شيخه في كل ما قال، وقد سبق نقضه، وقد أقر ابن القيم بالمجاز كشيخه، وقد كثرت التأويلات المجازية الواردة في كلامه.
وقد ورد المجاز صريحًا بلفظه ومعناه في حر كلامه، وجعله في بعض المواضع أحد الطرق التي يفقه بها أسرار العربية ومراميها ينظر: مثلاً (٣/ ٢٤٠)، والتبيان في أقسام القرآن (١٠٢)، وشفاء العليل (٢٢١)، وإعلام الموقعين (١/ ١٥٠ - ١٦٢)، والتبيان (٤٢)، وأصرح كلامه في بدائع الفوائد (١/ ٣٠)، فللشيخ مذهبان كشيخه ابن تيمية، ومن أشهر المنكرين للمجاز الشيخ الشنقيطي في كتابه (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز).
أسباب المنع:
يمكن إجمال أسباب المنع فيما يلي:
١- لم يقل به أحد من السلف.
٢- لم يتوقف على الوضع الأول ليصح نقله عنه، والوضع الأول منتف. =

أو بسطٍ، ألا يُرى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما في قوله: [الكامل]

جاد الحمى بَسْطَ اليدين بوابلٍ شكَرتْ نداهُ تِلاعُه ووِهادُهُ[1]

= ٣- أن المجاز يتوقف على التقييد بعد الإطلاق، والألفاظ لم تستعمل إلا مقيدة، والقول بالإطلاق باطل.

٤- المجاز مخل بالفهم بدون قرينة، ومع القرينة فيه تطويل بدون فائدة.

٥- المجاز يجوز نفيه، وما جاز نفيه فهو كذب، وهذا السبب يكون خاصًا بمنع المجاز في القرآن الكريم.

٦- لو كان في القرآن مجاز لجاز وصف الله سبحانه - أنه متجوز أي قائل بالمجاز، وهذا ممتنع اتفاقًا.

٧- أن المجاز لا يعدل إليه إلا عند العجز عن الإتيان بالحقيقة والعجز في جانب الله محال.

٨- المجاز لم تقل به أمة من الأمم، ولم يعرف أن أمة قسمت الألفاظ إلى حقيقة ومجاز وهذا السبب من اختراع ابن تيمية.

وقد رد المؤيدون هذه الأدلة بما يلي:

١- أن الادعاء بعدم قول السلف منقوض بما نقلناه عنهم.

٢- أن إنكار الوضع الأول شاذ، وقد أقرّ به أبو إسحاق الإسفراييني.

٣- أن ادعاء التسوية في دلالات القيود محال، فليست دلالة القيد في: «شابت لمة المكروب» كدلالة القيد في قول القائل: شابت لمة الليل، فإن التسوية بين هاتين الدلالتين منكر عقلاً ونقلاً.

٤- أنه كلام يناقض بعضه بعضًا، فكيف يقولون: إن المجاز بلا قرينة إخلال بالفهم، ثم يقولون إن القرينة تطويل بلا فائدة، أليس رفع الإخلال بالفهم فائدة؟

٥- أما القول بأن المجاز كذب فالرد عليه أن النفي المراد هو نفي إرادة المعنى الحقيقي، أما المعنى المجازي فلا يصح نفيه، ومجوزو المجاز إنما اشترطوا فيه القرينة لدفع أن يقع في الفهم إرادة المعنى الحقيقي.

٦- الرد على امتناع وصفه (سبحانه) بأنه متجوز. فذلك متوقف على عدم ورود الإذن الشرعي فليس المانع لغويًا.

٧- أن القول بالتقسيم إلى حقيقة ومجاز بدعة لم تقل به أمة مردود بما ترجم عن أرسطو وغيره، وفي نهاية هذه القضية نقول: إن إنكار القول المجاز في اللغة وفي القرآن العظيم إنما هو مجرد شبهة، كتبت لها الشهرة، ولكن لم يكتب لها النجاح، وقد صدق الزركشي في قوله: «لو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف وتثنية القصص وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن لسقط شطر الحسن، وقول ابن قتيبة، ولو كان المجاز كذبًا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسدًا، لأننا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة إلى آخره...» ينظر بتوسع هذه القضية في كتاب أ.د/ عبد العظيم المطعني، جزءان - (١١٧٤).

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٣٥)، والكشاف (١/ ٦٢١)، والدر المصون (٢/ ٥٦٦)، واللباب (٧/ ٤٢٧).

وقد سلك لبيدٌ المسلكَ السديد حيث قال: [الكامل]

وغــداةِ ريــحٍ قــد شــهِــدْتُ وقَــرَّةٍ إذْ أصبَحَتْ بيد الشَّمال زِمامُها[1]

فإنه إنما أراد بذلك إثباتَ القدرة التامة للشَّمال على التصرفِ في القَرَّة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير أن يخطُرَ بباله أن يثبِتَ لها يدًا ولا للقرّة زمامًا، وأصله كناية فيمن يجوز عليه إرادة المعنى الحقيقي كما مر في قوله تعالى: ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ في سورة آل عمران [الآية: ٧٧].

وقيل: أرادوا ما حُكيَ عنهم بقوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحنُ أغنياءُ﴾ [آل عمران، الآية ١٨١]. **﴿غُلَّت أيديهم﴾** دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكَنة أو بالفقر والنَّكَد أو بغَلِّ الأيدي حقيقة، بأن يكونوا أَسارىٰ مغلولين في الدنيا ويُسحبوا[2] إلى النار بأغلالِها في الآخرة، فتكون المطابقةُ حينئذ من حيث اللفظُ وملاحظةُ المعنى الأصلي كما في سبّني سبّ الله دابرَه.

﴿ولعنوا﴾ عطف على الدعاء الأول أي أُبعدوا من رحمة الله تعالى **﴿بما قالوا﴾** أي بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء، وقيل: كلاهما خبر.

﴿بل يداه مبسوطتان﴾ عطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ أي: كلاّ ليس كذلك بل هو في غاية ما يكونُ من الجود، وإليه أُشير بتثنية اليد، فإن أقصىٰ ما ينتهي إليه همَمُ الأسخياء أن يُعطوا ما يعطونه بكلتا يَدَيْهم.

وقيل: التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة، وقيل: على إعطائه إكرامًا، وعلى إعطائه استدراجًا.

﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة واردةٌ لتأكيدِه كمالَ وجوده وللتنبيه على سرٍّ ما ابتلوا به من الضيق الذي اتخذوه من غاية جهلهم وضلالِهم ذريعةً إلى الاجتراء على تلك الكَفْرة العظيمة، والمعنى أن ذلك ليس لقصور في فيضه، بل لأن إنفاقه تابعٌ لمشيئته المبنيَّةِ على الحكم التي عليها يدورُ أمرُ المعاش والمعاد، وقد اقتضتِ الحكمةُ بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيِّقَ عليهم كما يشير إليه ما سيأتي من قوله عز وجل: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، و(كيف) ظرفٌ ليشاء، والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير (ينفق) أي ينفق كائنًا على أي

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص (٣١٥)، وأساس البلاغة (يدي)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣٥)، والدر المصون (٢/ ٥٦٦).

(٢) في المخطوط: يسحبون.

حال يشاء أي كائنًا على مشيئته أي مريدًا، وتركُ ذكرِ ما ينفقه لقصد التعميم.

﴿**وليزيدن كثيرًا منهم**﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿**ما أنزل إليك**﴾ من القرآن المشتمل على الآيات، وتقديمُ المفعول للاعتناء به، وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لِما أن بعضهم ليس كذلك ﴿**من ربك**﴾ متعلق بأنزل كما أن (إليك) كذلك، وتأخيره عنه مع أن حق المبتدئ أن يتقدم على المنتهي لاقتضاء المقامِ الاهتمامَ ببيان المنتهي، لأن مدار الزيادة هو النزولُ إليه عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ [النمل، الآية ٦٠] والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام.

﴿**طغيانًا وكفرًا**﴾ مفعول ثان للزيادة أي ليزيدنهم طغيانًا على طغيانهم وكفرًا على كفرهم القديمين إما من حيث الشدةُ والغلوُّ وإما من حيث الكمُ والكثرة، إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانُهم وكفرُهم بحسب المقدار كما أن الطعامَ الصالح للأصِحّاء يزيد المرضى مرضًا.

﴿**وألقينا بينهم**﴾ أي بين اليهود، فإن بعضَهم جبْريةٌ وبعضَهم قَدَرية وبعضهم مُرْجئة وبعضهم مشبِّهة ﴿**العداوة والبغضاء**﴾ فلا يكاد تتوافق قلوبُهم ولا تتطابق أقوالهم، والجملة مبتدأةٌ مَسوقة لإزاحة ما عسى يُتوهَّمُ من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمرٍ يؤدِّي إلى الإضرار بالمسلمين، قيل: العداوة أخصُّ من البغضاء، لأن كل عدوٍّ مبغضٌ بلا عكسٍ كليٍّ ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ متعلق بألقينا وقيل: بالبغضاء.

﴿**كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله**﴾ تصريح بما أشير إليه من عدم وصول غائلةِ ما هم فيه[1] إلى المسلمين، أي كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة

---

(١) وقد جاء ذلك على طريق الاستعارة التمثيلية، وقد قال قوم هو على حقيقة وليس استعارة، وهو أن العرب كانت تتواعد للقتال وعلامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، فيتبادرون، والجيش يسري ليلاً، فيوقد من حربهم ليلاً النار فيكون إنذارًا، فعلى يكون النار حقيقة يكون معنى إطفائها أنه ألقى الله الرعب في قلوبهم، فخافوا أن يعيشوا في منازلهم، فيضيعوا، فلما تقاعدوا عنهم أطفؤوها، وقال الجمهور هو استعارة، وإيقاد النار عبارة عن إظهار الحقد والكيد والمكر بالمؤمنين والاغتيال والقتال، وإطفاؤها صرف الله عنهم ذلك، وتفرق آرائهم وحل عزائمهم وتفرق كلمتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم وإجراء هذه الاستعارة على طريقة أبي حيان: (كلما أوقدوا نارًا للحرب، أطفأها الله) تمثيل شبه به حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها والحزامة في أمرها بحال من يوقد النار لحاجة بها فتنطفئ، فإنه شاعت استعارات معاني التسعير والحمى والنار ونحوها للحرب وشبه حال انحلال عزمهم أو انهزامهم، وسرعة ارتدادهم عنها، وإحجامهم عن مصابحة أعدائهم، بحال من انطفأت ناره التي أوقدها، ومن بديع هذا التمثيل، أنه صالح لأن يعتبر فيه جمعه وتفريقه، بأن يجعل تمثيلاً =

والسلام ورتبوا مبادِيَها وركِبوا في ذلك متنَ كلِّ صعب وذَلولٍ ردهم الله تعالى وقهرهم، أو كلما أرادوا حرب أحد غُلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلّط الله تعالى عليهم بُخْتَ نَصَّرَ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرُسَ الروميّ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين، و(للحرب) إما صلةٌ لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفةً لـ (نارًا)، أي كائنة للحرب ﴿**ويسعون في الأرض فسادًا**﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله وإثارةِ الشر والفتنة فيما بينهم مما يُغايرُ ما عبَّر عنه بإيقاد نارِ الحرب، و(فسادًا) إما مفعول له أو في موقع المصدر أي يسعون للفساد أو يسعون سعي فساد.

﴿**والله لا يحب المفسدين**﴾ ولذلك أطفأ ثائرةَ إفسادهم، واللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوليًا، وإما للعهد، ووضعُ المُظْهَرِ مَقام الضمير للتعليل وبيانِ كونِهم راسخين في الإفساد.

﴿**ولو أن أهل الكتاب**﴾ أي اليهود والنصارى، على أن المراد بالكتاب الجنسُ المنتظمُ للتوراة والإنجيل، وإنما ذكروا بذلك العنوان تأكيدًا للتشنيع، فإنّ أهليةَ الكتاب توجب إيمانهم به، وإقامتَهم له لا محالة، فكفرُهم به وعدمُ إقامتهم له وهم أهلُه أقبحُ من كل قبيح وأشنعُ من كل شنيع، فمفعول قوله تعالى: ﴿**آمنوا**﴾ محذوف ثقةً بظهوره مما سبَقَ من قوله تعالى: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ [المائدة، الآية ٥٩] وما لَحِقَ من قوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة﴾ [المائدة، الآية ٦٦] إلخ.

أي لو أنهم مع صدور ما صدَرَ عنهم من فنون الجنايات قولًا وفعلًا آمنوا بما نُفِيَ عنهم الإيمانُ به فيندرج فيه فرضُ إيمانهم برسول الله ﷺ.

وأما إرادةُ إيمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام، لأن ما ذُكر فيما سبَقَ وما لَحِق من كفرهم به عليه السلام إنما ذُكر مشفوعًا بكفرهم بكتابِهم أيضًا قصدًا إلى الإلزام والتبكيت ببيان أن الكفرَ به عليه الصلاة والسلام مستلزمٌ للكفر بكتابهم، فحملُ الإيمانِ

= واحدًا لحالة مجموعة، أو تمثيلين لحالتين، وقبول التمثيل للتفريق أتم بلاغة، والمعنى أنهم لا يلتئم لهم أمر حرب، ولا يستطيعون نكاية عدو، ولو حاربوا أو حوربوا انهزموا، فيكون معنى الآية على هذا كقوله (ضربت عليهم الذلة).
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٢٥ - ٥٢٦)، والفتوحات الإلهية (١/ ٥١١)، والتحرير والتنوير (٦/ ٢٢١ - ٢٢٢)، وتلخيص المفتاح (٢٩٥)، والطراز (٣/ ٣٣٤).

هاهنا على الإيمان به عليه السلام خاصة مُخِلٌّ بتجاوُب أطرافِ النظم الكريم.

﴿واتقوا﴾ ما عدَدْنا من معاصيهم التي من جملتها مخالفةُ كتابهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتِهم﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العِظَم ونهايةِ الكثرة ولم نؤاخِذْهم بها ﴿ولأدخلناهم﴾ مع ذلك ﴿جنات النعيم﴾ وتكريرُ اللام لتأكيدِ الوعد، وفيه تنبيه على كمال عِظَم ذنوبهم وكثرةِ معاصيهم وأن الإسلام يجبُّ ما قبله من السيئات وإن جلَّتْ وجاوزت كلَّ حدٍّ معهود.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بمراعاة ما فيهما من الأحكام التي من جملتها شواهدُ نبوةِ النبي ﷺ ومبشراتُ بِعثتِه، فإن إقامتهما إنما تكون بذلك لا بمراعاة جميع ما فيهما من الأحكام لانتساخِ بعضِها بنزول القرآن فليست مراعاةُ الكلِّ من إقامتهما في شيء ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾ من القرآن المجيد المصدِّق لكتبهم، وإيرادُه بهذا العنوان للإيذان بوجوب إقامته عليهم لنزوله إليهم، وللتصريح ببطلان ما كانوا يدّعونه من عدم نزوله إلى بني إسرائيل، وتقديمُ (إليهم) لما مر من قبل، وفي إضافة الرب إلى ضمير (هم) مزيدُ لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة.

وقيل: المراد بما أنزل إليهم كتبُ أنبياءِ بني إسرائيل مثلُ كتاب (شعياء) وكتاب (حبقوق)[1] وكتاب (دانيال) فإنها مملوءة بالبشارة بمبعثه ﷺ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسَّع عليهم أرزاقَهم بأن يُفيض عليهم بركاتِ السماء والأرض، أو بأن يكثر ثمراتِ الأشجار وغلالَ الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنوا ما تهدّل منها من رؤوس الأشجار ويلتقطوا ما تساقط منها على الأرض، وقيل: المراد المبالغة في شرح السَّعَة والخِصْب لا تعيينُ الجهتين، كأنه قيل: لأكلوا من كل جهة، ومفعول (أكلوا) محذوف بقصد التعميم، أو للقصد إلى نفس الفعل كما في قوله: فلان يعطي ويمنع، و(مِنْ) في الموضعين لابتداء الغاية وفي هاتين الشرطيتين، من حثِّهم على ما ذكر من الإيمان والتقوى والإقامةِ بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرِهم عن الإخلال به بما ذُكر ببيان إفضائِه إلى الحِرْمان عنها وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا لقصورٍ في فيض الفياض، ما لا يخفى.

﴿منهم أمة مقتصدة﴾ جملة مستأنَفةٌ مبنيّةٌ على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدّرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الإيمان والاتقاءِ وإقامةِ الكتب المُنْزلة

---

(١) في المخطوط: حنقوق.

من أهل الكتاب، كأنه قيل: هل كلُّهم كذلك مصرّون على عدم الإيمان؟ إلخ، فقيل: (منهم أمة مقتصدة) إما على أن(منهم) مبتدأ باعتبار مضمونه أي بعضهم أمة، وإما بتقدير الموصوف أي بعضٌ كائنٌ منهم كما مر في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ الآية، أي طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد اللَّه بنِ سلام وأضرابه، وثمانيةٌ وأربعون من النصارى، وقيل: طائفة حالُهم أممٌ في عداوة رسول الله ﷺ ﴿**وكثير منهم**﴾ مبتدأ لتخصُّصِه بالصفة خبرُه ﴿**ساء ما يعملون**﴾ أي مقولٌ في حقهم هذا القولُ، أي بئسما يعملون وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عملَهم من العِناد والمكابرةِ وتحريفِ الحق والإعراض عنه، والإفراطِ في العداوة، وهم الأجلافُ المتعصِّبون ككعبِ بن الأشرف وأشباهه والروم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

﴿**يا أيها الرسول**﴾ نودي عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفًا له وإيذانًا بأنها من موجبات الإتيان بما أُمر به من تبليغ ما أُوحِيَ إليه ﴿**بلغ ما أنزل إليك**﴾ أي جميع ما أنزل إليك من الأحكام وما يتعلق بها كائنًا ما كان، وفي قوله تعالى: ﴿**من ربك**﴾ أي مالِكِ أمورِك ومبلِّغِك إلى كمالك اللائقِ بك، عِدَةٌ ضِمْنية بحفظه عليه السلام وكَلاءته، أي بلِّغْه غيرَ مراقِبٍ في ذلك أحدًا ولا خائف أن ينالك مكروهٌ أبدًا ﴿**وإن لم تفعل**﴾ ما أُمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى المذكور كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**فما بلغت رسالته**﴾ فإن ما لا تتعلق به الأحكامُ أصلًا من الأسرار الخفية ليست مما يُقصَدُ تبليغه إلى الناس، أي فما بلغت شيئًا من رسالته وانسلخْتَ مما شَرُفتَ به من عنوان الرسالة بالمرة، لِما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنك أغفلتَ أداءَها جميعًا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها، لإدلاء كلٍّ منها بما يُدليه غيرها، وكونُها لذلك في حكم شيءٍ واحد، ولا ريب في أن الواحد لا يكونُ مُبلَّغًا غيرَ مبلَّغٍ مؤمنًا به غيرَ مؤمنٍ به، ولأن كتمان بعضها إضاعةٌ لما أُدِّيَ منها كترك بعض أركان الصلاة فإن عرضَ الدعوة ينتقض بذلك، وقيل: فكأنك ما بلغت شيئًا منها كقوله تعالى: ﴿فكأنما قتل الناس جميعًا﴾ [المائدة، الآية ٣٢] من حيث إن كتمان البعض والكل سواءٌ في الشناعة واستجلاب العقاب، وقرئ[1] (فما بلغت رسالاته) وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن كتمتَ آيةً لم تبلِّغْ رسالاتي[2]، وروي عن رسول الله ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضِقْتُ بها ذرعًا فأوحَى الله إلي إنْ لم تبلِّغْ رسالاتي عذبتُك وضمِن

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ويعقوب، وأبو جعفر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٠٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣٠)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٨٧)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٤٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشف للقيسي (٤١٥، ٤١٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٢٢)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٤٧) (١٢٢٧٣)، حدثني المثنى قال: حدثنا عبدالله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس...
قلت: وعبد الله بن صالح هو أبو صالح المصري كاتب الليث- وفيه مقال.
وقال الحافظ في التقريب (١/ ٤٢٣) (٣٨١): صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة.

لي العصمة فقوِيتُ»[١] وذلك قوله تعالى: ﴿**والله يعصمُك من الناس**﴾ فإنه كما ترى عِدَةٌ كريمةٌ بعصمته من لُحوق ضررهم بروحه العزيزِ باعثةٌ له عليه السلام على الجِدّ في تحقيق ما أمر به من التبليغ غيرَ مكترثٍ بعداوتهم وكيدهم.

وعن أنس رضي الله عنه (أنه عليه السلام كان يُحرَسُ حتى نزلت فأخرج رأسَه من قُبّةٍ أَدَمٍ فقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس)[٢].

---

(١) عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤١٣) (٤٢٥) لإسحاق بن راهويه في مسنده ... من طريق عطاء بن أبي مسلم الخراساني عن أبي هريرة مرفوعًا ... وللواحدي في أسباب النزول، عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا من غير سند.
وذكره أيضًا السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٢٨)- عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤١٤) (٤٢٧): غريب من حديث أنس ولم أجده إلا من حديث عائشة.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده من حديث أنس.
قلت: وحديث عائشة: أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥١)- كتاب تفسير القرآن (٤٨)- باب «ومن سورة المائدة»- (٣٠٤٦) وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٦٤٧) (١٢٢٧٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٤)، كلهم من طريق مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد عن سعيد الجريري عن عبدالله بن شقيق عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يحرس...
قلت: وقد حرف اسم «سعيد الجريري» في مستدرك الحاكم إلى «معبد»- فلينتبه لذلك- وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجريري عن عبد الله ابن شقيق قال: كان النبي ﷺ يحرس ولم يذكروا فيه (عن عائشة).
قلت: وهذا المرسل الذي أشار إليه الترمذي: أخرجه الطبري في تفسيره (١٢٢٧٧) من طريق ابن علية، عن الجريري عن عبد الله بن شقيق، أن رسول الله ﷺ كان يتعقبه...
وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥٢٩) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
قلت: وللحديث شاهد من حديث:
- عبد الله بن عباس: ولكن في سنده ضعف: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٥٦) (١١٦٦٣). من طريق عبد الحميد الحماني عن النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يحرس فكان يرسل معه عمه أبو طالب...
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠) وفيه النضر بن عبد الرحمن وهو ضعيف.
٢- أبي سعيد الخدري.
قال: كان عباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه...
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠) رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عطية العوفي وهو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أي لا يمكنهم مما يريدون بك من الإضرار، وإيرادُ الآية الكريمة في تضاعيف الآيات الواردة في حق أهل الكتاب لِما أن الكل قوارعُ[١] يسوء الكفارَ سماعُها، ويشُقّ على الرسول ﷺ مشافهتُهم بها، وخصوصًا ما يتلوها من النصِّ الناعي عليهم كمالَ ضلالتهم ولذلك أعيد الأمر فقيل: ﴿**قل يا أهل الكتاب**﴾ مخاطِبًا الفريقين ﴿**لستم على شيء**﴾ أيْ دينٍ يُعتدّ به ويليق بأن يسمى شيئًا لظهور بُطلانه ووضوح فساده، وفي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غايةَ وراءه ﴿**حتى تقيموا التوراة والإنجيل**﴾ أي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور التي من جملتها دلائلُ رسالة الرسول ﷺ وشواهدُ نبوته، فإن إقامتهما إنما تكون بذلك، وأما مراعاة أحكامهما المنسوخةِ فليست من إقامتهما في شيء، بل هي تعطيل لهما وردٌّ لشهادتهما، لأنهما شاهدان بنسخها وانتهاءِ وقت العمل بها، لأن شهادتهما بصحة ما ينسخها شهادةٌ بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما، وأن أحكامهما ما قرره النبي الذي بشَّرَ فيهما ببعثته، وذُكر في تضاعيفهما نعُوتُه، فإذن إقامتُهما بيانُ شواهدِ النبوة والعملُ بما قررته الشريعة من الأحكام كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿**وما أنزل إليكم من ربكم**﴾ أي القرآن المجيد بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتَّى بغير ذلك، وتقديمُ إقامةِ الكتابين على إقامته مع أنها المقصودةُ بالذات لرعاية حقِّ الشهادة واستنزالِهم عن رتبة الشِّقاق، وإيرادُه بعنوان الإنزال إليهم لما مرّ من التصريح بأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعُمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الربِّ إلى ضميرهم ما أشير إليه من اللطف في الدعوة.

وقيل: المراد بما أُنزل إليهم كتبُ أنبياءِ بني إسرائيلَ كما مر، وقيل: الكتبُ الإلٰهيةُ فإنها بأسرها آمرةٌ بالإيمان لمن صدَّقَتْه المعجزةُ ناطقةٌ بوجوب الطاعة له.

رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جماعةً من اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألست تقرأ أن التوراة حقٌّ من عند الله تعالى؟ فقال عليه السلام: «بلى»، فقالوا: فإنا مؤمنون بها ولا نؤمنُ بغيرها فنزلت[٢]، قوله تعالى: ﴿**وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا**﴾ جملة مستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لشدة شكيمَتِهم وغُلوِّهم في المكابرة والعناد وعدمِ إفادة التبليغ نفعًا، وتصديرُها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلولِها،

---

(١) القوارع: جمع قارعة وهي المصيبة. وقرَّعه: أوجعه باللوم والعتاب.
(٢) ذكره فخر الدين الرازي في التفسير الكبير (١٢/ ٤٣).

والمرادُ بالكثير المذكور علماؤهم ورؤساؤهم، ونسبةُ الإنزال إلى رسول الله ﷺ مع نسبته فيما مر إليهم للإنباء عن انسلاخِهم عن تلك النسبة ﴿**فلا تأس على القوم الكافرين**﴾ أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم لإفراطهم في الطغيان والكفر بما تُبلّغه إليهم، فإن غائلتَه آيلةٌ إليهم وتبِعَتَه حائقةٌ لا تتخطاهم، وفي المؤمنين مندوحةٌ[1] لك عنهم، ووضعُ المُظْهر موضعَ المُضمَرِ للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر.

﴿**إن الذين آمنوا**﴾ كلام مستأنَفٌ مسوق لترغيب مَنْ عدا المذكورين في الإيمان والعمل الصالح أي الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون، وقيل: أعمُّ من أن يُواطِئَها قلوبُهم أو لا ﴿**والذين هادوا**﴾ أي دخلوا في اليهودية ﴿**والصابئون والنصارى**﴾ جمعُ نَصْرانَ[2] وقد مر تفصيله في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿والصابئون﴾ رفع على الابتداء وخبرُه محذوف والنيةُ به التأخرُ[3] عما في حيّز إنّ والتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كيتَ وكيتَ والصابئون كذلك كقوله: [الطويل]

فإني وقيارٌ بها لغريبُ[4]

وقوله: [الوافر]

وإلا فاعلموا أنّا وأنتم بُغاةٌ ما بقِينا في شقاقِ[5]

خلا أنه وسَطٌ بين اسْمِ إن وخبرِها دلالةً على أن الصابئين، مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الأديان كلِّها حيث قُبلت توبتُهم، إن صحَّ منهم الإيمانُ والعملُ الصالح، فغيرُهم أولى بذلك، وقيل: الجملة الآتية خبرٌ للمبتدأ المذكور، وخبرُ إن مقدر كما في قوله: [المنسرح]

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[6]

---

(١) يقال: لك عن هذا الأمر مندوحة، أي سعة وفسحة. والمراد أن لك في المؤمنين غنًى عن هؤلاء.
(٢) نصران ونصرانة: بمعنى نصراني ونصرانية، وهما مفردان مهجوران في اللغة، وانظر تفصيل ذلك في لسان العرب، مادة: نصر.
(٣) في المخطوط: التأخير.
(٤) تقدم.
(٥) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص (١٦٥)، والإنصاف (١/ ١٩٠)، وتخليص الشواهد ص (٣٧٣)، وخزانة الأدب (١٠/ ٢٩٣)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ١٤)، وشرح التصريح (١/ ٢٨٨)، والكتاب (٢/ ١٥٦)، والمقاصد النحوية (٢/ ٢٧١)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص (١٥٤)، وشرح المفصل (٨/ ٦٩).
(٦) تقدم.

وقيل: (النصارى) مرفوعٌ على الابتداء كقوله تعالى: ﴿والصابئون﴾، عطفًا عليه وهو مع خبره عطفٌ على الجملة المصدَّرة بإن ولا مَساغَ لعطفه وحده على محل إن واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر وإلا لارتفع الخبر بإن والابتداء معًا، واعتُذر عنه بأن ذلك إذا كان المذكورُ خبرًا لهما، وأما إذا كان خبرُ المعطوف محذوفًا فلا محذورَ فيه ولا على الضمير في (هادوا) لعدم التأكيد والفصل، ولاستلزامه كونَ الصابئين هُودًا، وقرئ[1] (والصابيون) بياء صريحةٍ بتخفيف الهمزة، وقرئ[2] (والصابون) وهو من صبا يصبو لأنهم صبَوْا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم، وقرئ[3] (والصابئين)، وقرئ[4] يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

وقوله تعالى: ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا**﴾ إما في محل الرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، وجمع الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن إفرادَ ما في صلته باعتبار لفظه، والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف، أي من آمن منهم، وإما في محل النصب على أنه بدل من اسم إن وما عُطف عليه، والخبر قوله تعالى: ﴿فلا خوف﴾ والفاء كما في قوله عز وعلا: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم﴾ [البروج، الآية: ١٠] الآية، فالمعنى على تقديم كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الأظهر أي من أحدث من هذه الطوائف إيمانًا خالصًا بالمبدأ والمَعادِ على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فإن ذلك بمعزل

---

(١) قرأ بها: الحسن، والزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٦).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٤)، والكشف للقيسي (٢٤٥، ٢٤٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٧).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، وسعيد بن جبير، وعثمان، وأبي، وعائشة، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإعراب للنحاس ص (٥٠٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٢٩).

(٤) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ٥٣١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٤).

من أن يكون إيمانًا بهما، وعمل عملًا صالحًا حسبما يقتضيه الإيمانُ بهما فلا خوف عليهم حين يخاف الكفارُ العقابَ ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

والمراد بيانُ دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يوهمُه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لما مر مرارًا لأن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا مطلقَ المتدينين بدين الإسلام المخلِصين منهم والمنافقين، فالمرادُ بمن آمن من اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمَعادِ على الإطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شأن المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كما هو حالُ من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف، وفائدةُ التعميم للمخلصين المبالغةُ في ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غيرُ مُخلٍّ بكونهم أسوةً لأولئك الأقدمين الأعلام، وأما ما قيل: المعنى من كان منهم في دينه قبل أن يُنسَخَ مصدِّقًا بقلبه بالمبدأ أو المعاد عاملًا بمقتضىٰ شرعه فمما لا سبيل إليه أصلًا كما مر تفصيله في سورة البقرة.

من جنايات بني إسرائيل

﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل**﴾ كلام مبتدأٌ مَسوق لبيان بعضٍ آخرَ من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم أي بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة. ﴿**وأرسلنا إليهم رسلًا**﴾ ذوي عددٍ كثير وأولي شأنٍ خطير ليقرِّروهم على مراعاة حقوق الميثاق ويُطْلعوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير.

وقوله تعالى: ﴿**كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم**﴾ جملة شرطيةٌ مستأنَفَةٌ وقعت جوابًا عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق وإرسال الرسل، وجواب الشرط محذوف، كأنه قيل: فما فعلوا بالرسل؟ فقيل: كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تُحبه أنفسُهم المنهمكةُ في الغيِّ والفساد من الأحكام الحَقّة والشرائع عَصَوْه وعادَوْه، وقوله تعالى: ﴿**فريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون**﴾ جواب مستأنَفٌ عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الإجمال كأنه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقًا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشيء آخرَ من المَضارِّ وفريقًا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضًا، وإنما أُوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها

وللتنبيه على أن ذلك دَيْدنُهم المستمرُّ، وللمحافظة على رؤوس الآي الكريمة، وتقديم فريقًا في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به لا للقصر هذا، وأما جعلُ الشرطية صفةً لـ (رسلًا) كما ذهب إليه الجمهور فلا يساعده المقام أصلًا ضرورةَ أن الجملة الخبرية إذا جُعلتْ صفةً أو صلةً يُنسخ ما فيها من الحكم وتُجعل عنوانًا للموصوف تتمةً له في إثباتِ أمرٍ آخَرَ له.

ولذلك يجب أن يكون الوصفُ معلومَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفًا له، ومن هاهنا قالوا: إن الصفاتِ قبل العلم بها أخبارٌ، والأخبارُ بعد العلم بها أوصافٌ[١]، ولا ريب في أن ما سيق له النظم إنما هو بيانُ أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عُرضةً للقتل أو التكذيب حسبما يفيده جعلُها استئنافًا على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، لا بيانُ أنه تعالى أرسل إليهم رسلًا موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضىٰ جعلِها صفةً.

﴿وحسبوا ألا تكون فتنة﴾ أي حسِب بنو إسرائيلَ ألا يصيبَهم من الله تعالى بما أتَوْا من الداهية الدهياء والخُطة الشنعاء بلاءٌ وعذاب، وقرئ[٢] (لا تكونُ) بالرفع على أنّ (أنْ) هي المخففة من أنّ، واسمها ضمير الشأن المحذوف، وأصله أنه لا تكون فتنةٌ، وتعليقُ فعل الحُسْبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته، و(أن) بما في حيِّزها سادٌّ مَسدَّ مفعوليه.

﴿فعَمُوا﴾ عطف على (حسِبوا) والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها أي أمِنوا بأسَ الله تعالى فتمادَوْا في فُنون الغيِّ والفساد وعمُوا عن الدين بعد ما هداهم الرسلُ إلى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة.

﴿وصمّوا﴾ عن استماع الحق الذي ألقَوْه عليهم ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا، وهذا إشارة إلى المرة الأولى من مرّتَيْ إفساد بني إسرائيلَ حين خالفوا أحكام التوراة وركِبوا

---

(١) في المخطوط: صفات.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، ويعقوب، وخلف، واليزيدي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإعراب للنحاس (١/ ٥١٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٢٩)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣٣)، والتبيان للطوسي (٣/ ٥٩٦)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٤٧)، والحجة لابن خالويه(١٣٣، ١٣٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٥)، والكشف للقيسي، ص (٤١٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٢٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٣١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

المحارم وقتلوا شعياء، وقيل: حبسوا أرمياء عليهما السلام لا إلى عبادتهم العجلَ كما قيل، فإنها وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمَى والصمَم لكنها في عصر موسى عليه السلام، ولا تعلُّقَ لها بما حُكي عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاءوهم بعده عليه السلام بأعصار.

﴿ثم تاب الله عليهم﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعد ما كانوا ببابلَ دهرًا طويلًا تحت قهر بُخْتَ نَصَّرَ أسارى في غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكًا عظيمًا من ملوك فارسَ إلى بيت المقدس ليعمُرَه ونجّى بقايا بني إسرائيل من أسر بختَ نصَّرَ بعد مهلكه وردَّهم إلى وطنهم وتراجَعَ من تفرق منهم في الأكناف فعَمَروه ثلاثين سنة فكثُروا وكانوا كأحسنَ ما كانوا عليه.

وقيل: لما ورث بَهْمنُ بنُ اسفنديارَ المُلك من جدِّه كستاسُفَ ألقى الله عز وجل في قلبه شفقة عليهم فردهم إلى الشام وملّك عليهم دانيال عليه السلام، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختَ نصّر فقامت فيهم الأنبياءُ فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ [لإسراء ٦].

وأما ما قيل من أن المراد قبولُ توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لا تعلُّق له بالمقام ولم يُسنِد التوبةَ إليهم كسائر أحوالهم من الحُسبان والعمَى والصمم تجافيًا عن التصريح بنسبة الخير إليهم وإنما أشير إليها في ضمن بيان توبته تعالى عليهم تمهيدًا لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى: ﴿ثم عموا وصموا﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة من مرّتيْ إفسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدُهم قتلَ عيسى عليهم السلام لا إلى طلبهم الرؤية كما قيل لِما عرفت سره، فإن فنون الجناياتِ الصادرةِ عنهم لا تكاد تتناهى خلا أن انحصار ما حُكي عنهم هاهنا في المرتين وترتّبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام يقضي بأن المراد ما ذكرناه والله عنده علم الكتاب.

وقرئ[1] (عُموا وصُمّوا) بالضم على تقدير أعماهم الله وصممهم أي رماهم وضربهم بالعمى والصمم، كما يقال: نَزَكتَهُ إذا ضربتَه بالنَّيْزَك ورَكَبتَهُ إذا ضربته بركبتك، وقوله تعالى: ﴿كثيرٌ منهم﴾ بدل من الضمير في الفعلين، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أي أولئك كثير منهم.

---

(١) قرأ بها: النخعي، وابن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٢٩)، والبحر المحيط (٣/ ٥٣٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٢٥٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٣٢).

﴿**والله بصير بما يعملون**﴾ أي بما عملوا، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها الفظيعة ورعايةً للفواصل، والجملة تذييلٌ أشير به إلى بطلان حُسْبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا، إشارةٌ إجمالية اكتُفيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوع تفصيل في سورة بني إسرائيلَ، والمعنى حسبوا ألا يصيبهم عذابٌ ففعلوا ما فعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لأشد العقوبات والله بصيرٌ بتفاصيلها فكيف لا يؤاخذهم بها؟ ومن أين لهم ذلك الحسبانُ الباطل؟

ولقد وقع ذلك في المرة الأولى حيث سلط الله تعالى عليهم بُخْتَ نصَّر عامل لهراسِبَ على بابل، وقيل: جالوتَ الجزري، وقيل: سنحاريبَ من أهل نينوىٰ، والأول هو الأظهر فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفًا ممن يقرأ التوراة، وذهب بالبقية إلى أرضه فبقُوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد إلى أن أحدثوا توبةً صحيحة، فردهم الله عز وجل إلى ما حكي عنهم من حسنِ الحال، ثم عادوا إلى المرة الآخرة من الإفساد، فبعث الله تعالى عليهم الفرسَ فغزاهم ملكُ بابلَ من ملوك الطوائف اسمُه خيدرود، وقيل: خيدروس، ففعل بهم ما فعل.

قيل: دخل صاحب الجيش مذبحَ قرابينهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم، فقالوا: دمُ قربانٍ لم يقبل منا، فقال: ما صَدَقوني، فقتل عليه ألوفًا منهم، ثم قال: إن لم تصدُقوني ما تركت منكم أحدًا، فقالوا: إنه دمُ يحيى عليه السلام، فقال: بمثل هذا ينتقم الله منكم، ثم قال: يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومَك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل ألا أبقيَ أحدًا منهم، فهدأ.

قبائح النصارى ومحاسنهم

﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى وإبطالِ أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود، وهؤلاء هم الذين قالوا: إن مريم وَلَدت إلٰهًا، قيل: هم الملكانية والمار يعقوبية منهم، وقيل: هم اليعقوبية خاصة، قالوا: ومعنى هذا أن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿**وقال المسيح**﴾ حال من فاعل قالوا بتقدير قد، مفيدةٌ لمزيد تقبيحِ حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارِهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به، أي قالوا ذلك، وقد قال المسيح مخاطبًا لهم: ﴿**يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ فإني عبدٌ مربوبٌ مثلُكم، فاعبدوا خالقي وخالقَكم.

﴿إنه﴾ أي الشأن ﴿من يشركْ بالله﴾ أي شيئًا في عبادته أو فيما يختص به من صفات الألوهية ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ فلن يدخلها أبدًا، كما لا يصل المحرم عليه إلى المحرم، فإنها دار الموحدين، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿ومأواه النار﴾ فإنها هي المعدّة للمشركين، وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثرَ بيانِ حرمانِهم الثوابَ.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي ما لهم من أحد ينصُرهم بإنقاذهم من النار، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة، والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين، واللام إما للعهد والجمع باعتبار معنى (مَنْ) كما أن الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها، وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوليًّا، ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق، والجملة تذييل مقرر لما قبله، وهو إما من تمام كلام عيسى عليه السلام، وإما واردٌ من جهته تعالى تأكيدًا لمقالته عليه السلام، وتقريرًا لمضمونها.

وقد قيل: إنه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقوّلوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدْهم عليه ولم ينصُرْ قولهم، ورده وأنكره، وإن كانوا معظِّمين له بذلك، ورافعين من مقداره. أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبُعْده عن المعقول، وأنت خبير بأن التعبيرَ عما حُكي عنه عليه السلام، من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والإنكار، والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك، ونفْي نُصْرته له، مع خُلوِّه عن الفائدة، تصويرٌ[1] للقوي بصورة الضعيف وتهوين للخطب في مقام تهويله، بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر ما لا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدةِ والنُصرة، لا سيما مع ملاحظة قوله: وإن كانوا معظمين له إلخ، إلا أن يحمل الكلامُ على التهكم بهم، وكذا الحالُ على تقدير كونه من تمام كلامِه عليه السلام، فإن زجْرَه عليه السلام إياهم عن قولهم الفاسد، بما ذُكر من عدم الناصرِ والمساعدِ بعد زجره إياهم بما مر من الرد الأكيدِ والوعيدِ الشديد، بمعزِلٍ من الإفادة والتأثير، ولا سبيل هاهنا إلى الاعتذار بالتهكم.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ شروع في بيان كفر طائفةٍ أخرى منهم، ومعنى قولهم: ثالثُ ثلاثةٍ ورابع أربعة ونحو ذلك أحدُ هذه الأعداد مطلقًا لا الثالثُ

---

(١) خبر قوله «بأن التعبير».

والرابعُ خاصة، ولذلك منع الجمهور أن ينصِبَ ما بعده بأن يقال: ثالثُ ثلاثةً ورابعٌ أربعةً، وإنما ينصبه إذا كان ما بعده دونه بمرتبة، كما في قولك: عاشرٌ تسعةً وتاسعٌ ثمانيةً، قيل: إنهم يقولون إن الإلٰهيةَ مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم، وكلُّ واحد من هؤلاء إلٰه، ويؤكده قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلٰهين من دون الله﴾ [المائدة، الآية ١١٦].

فقوله تعالى: ﴿ثالثُ ثلاثةٍ﴾ أي أحد ثلاثةِ آلهة، وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى: ﴿وما من إلٰه إلا إلٰه واحد﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود ذاتُ واجبٍ مستحق للعبادة من حيث إنه مبدأُ جميعِ الموجودات إلا إلٰهٌ موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن قَبول الشِرْكة، و(مِنْ) مزيدة للاستغراق.

وقيل: إنهم يقولون: الله جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ، أقنومُ الأب وأقنومُ الابن وأقنومُ روح القدس، وإنهم يريدون بالأول الذات وقيل: الوجود، وبالثاني العِلْم، وبالثالث الحياة، فمعنى قوله تعالى: ﴿وما من إلٰه إلا إلٰه واحد﴾ [المائدة، الآية ٧٣] إلا إلٰه واحد بالذات، منزه عن شائبةِ التعدد بوجهٍ من الوجوه.

﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ من الكفر الشنيع ولم يوحّدوا، وقوله تعالى: ﴿ليمسن الذين كفروا﴾ جوابُ قسمٍ محذوف سادٌّ مسد جواب الشرط، أي وبالله إن لم ينتهوا ليمسنهم، وإنما وُضع موضعَ ضميرِ(هم) الموصولُ لتكرير الشهادة عليهم بالكفر (فمن)، في قوله تعالى: ﴿منهم﴾ بيانية، أي ليمسن الذين بقُوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية، وإنما جيء بالفعل المنبئ عن الحدوث تنبيهًا على أن الاستمرار عليه، بعد ورود ما يُنحىٰ عليه بالقلع عن نص عيسى عليه السلام وغيره، كفرٌ جديد وغلوٌّ زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر ﴿عذاب أليم﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب، وهمزة الاستفهام في قوله تعالى:

﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ لإنكار الواقع واستبعاده لا لإنكار الوقوع، وفيه تعجيب من إصرارهم، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة؟ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ فمدارُ الإنكار والتعجيب عدمُ الانتهاء وعدم التوبة معًا، أو أيَسْمعون هذه الشهاداتِ المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقِب ذلك، فمدارُهما عدم التوبة عَقيبَ تحقُّق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة، وقوله عز وجل: ﴿والله غفور رحيم﴾ جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكِّدةٌ للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى

الاستغفار، أي والحال أنه تعالى مبالِغٌ في المغفرة فيغفرُ لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله.

﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيانِ حقيقة حاله عليه السلام وحالِ أمه بالإشارة أولًا إلى أشرفِ ما لهما من نعوت الكمال التي بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس، وآخرًا إلى الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفرادِ البشر، بل أفرادِ الحيوان استنزالًا لهم بطريق التدريج عن رتبة الإصرار على ما تقوّلوا عليهما وإرشادًا لهم إلى التوبة والاستغفار، أي هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها، وقوله تعالى: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول مُنْبئة عن اتصافه بما ينافي الألوهية. فإن خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوِّه المقتضي لاستحالة ألوهيته أي ما هو إلا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعضٍ من الآيات كما خص كلاً منهم ببعضٍ آخرَ منها، فإنْ أحيا الموتى على يده فقد أُحيا العصا في يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى، وهو أعجب منه، وإن خُلق من غير أبٍ فقد خَلَق آدمَ من غير أب ولا أم، وهو أغرب منه، وكل ذلك من جنابه عز وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهرُ لشؤونه وأفعاله ﴿وأمه صدّيقة﴾ أي وما أمه أيضًا إلا كسائر النساء اللاتي يلازِمْن الصدق أو التصديق، ويبالغْن في الاتصاف به؛ فما رتبتُهما إلا رتبةُ بشرَيْن، أحدُهما نبي والآخر صحابي، فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصفُ به سائرُ الأنبياء وخواصُّهم؟ ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ استئناف مبين لما أشير إليه من كونهما كسائر أفراد البشر في الاحتياج إلى ما يحتاج إليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان، وقوله عز وجل: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ تعجيب من حال الذين يدّعون لهما الربوبية ولا يرعوون في ذلك بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بيانًا لا يحوم حوله شائبةُ ريْب، و(كيف) معمول لنبينُ، والجملة في حيز النصب معلّقة لانظر، أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرةَ المناديةَ ببطلان ما تقوّلوا عليهما نداءً يكاد يسمعه صمُّ الجبال ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي كيف يُصرفون عن استماعها والتأمل فيها، والكلام فيه كما فيما قبله، وتكريرُ الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، و(ثم) لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمر بديع في بابه بالغٌ لأقاصي الغايات القاصيةِ من التحقيق والإيضاح، وإعراضُهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضُدِ ما يوجب قبولَها أعجبُ وأبدع.

﴿قل﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتِهم إثْرَ تعجيبه من أحوالهم

﴿**أتعبدون من دون الله**﴾ أي متجاوزين إياه، وتقديمه على قوله تعالى: ﴿**ما لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا**﴾ لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والموصول عبارةٌ عن عيسى عليه السلام، وإيثاره على كلمة مَنْ لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزلٍ من الألوهية رأسًا، ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلًا، وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه لكنه لا يملِكه من ذاته، ولا يملك مثل ما يُضِرُّ به الله تعالى من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصِّحة.

وتقديم الضرر على النفع لأن التحرز عنه أهمُ من تحرّي النفع، ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر، ثم جلب الخير. وقوله تعالى: ﴿**والله هو السميع العليم**﴾ حال من فاعل (أتعبدون) مؤكِّد للإنكار والتوبيخ، ومقرِّر للإلزام والتبكيت، والرابط هو الواو أي أتشركون بالله تعالى ما لا يقدر على شيء من ضُرِّكم ونفعكم، والحال أن الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة، والعقائد الزائغة، والأعمال السيئة، وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التي من جملتها مَضارُّكم ومنافعُكم في الدنيا والآخرة؟

﴿**قل يا أهل الكتاب**﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى فريقي أهل الكتاب، بطريق الالتفات على لسان النبي عليه الصلاة والسلام بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل، وإرشادهم إلى الأَمَم المِئْتاء[1].

﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ أي لا تتجاوزوا الحد، وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة إلى ما تقوَّلوا في حقه من العظيمة، ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية إلى ما تقوَّلوا عليه من الكلمة الشنعاء، وقيل: هو خاص بالنصارى كما في سورة النساء فذكَرَهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الإنجيل أيضًا ينهاهم عن الغلو، وقوله تعالى: ﴿**غير الحق**﴾ نُصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي لا تغلوا في دينكم غلوًا غيرَ الحق، أي غلوًا باطلًا، أو حالٌ من ضمير الفاعل أي لا تغلوا مجاوزين الحق، أو من دينكم أي لا تغلوا في دينكم حال كونه باطلًا،

(١) الأمم: القصد، والطريق البيّن. والمئتاء والميتاء: الطريق يسلكه كل أحد، وآخر الغاية حيث ينتهي مجرى الخيل في السباق. والمراد إرشادهم إلى الطريق الذي يسلكه كل أحد. وفي الحديث الشريف: «لولا أنه وعدٌ حقٌ وقولٌ صدقٌ وطريقٌ ميتاءٌ لحزنَّا عليك أكثر ما حزنّا».

وقيل: نُصب على الاستثناء المتصل، وقيل: على المنقطع ﴿**ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل**﴾ هم أسلافهم وأئمتهم الذين ضلوا من الفريقين، أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام في شريعتهم. ﴿**وأضلوا كثيرًا**﴾ أي قومًا كثيرًا ممن شايعهم في الزيغ والضلال، أو إضلالًا كثيرًا، والمفعولُ محذوف ﴿**وضلوا**﴾ عند بعثةِ النبي عليه الصلاة والسلام وتوضيح مَحَجّةِ الحق وتبيين مناهجِ الإسلام ﴿**عن سواء السبيل**﴾ حين كذّبوه وحسدوه وبغَوْا عليه، وقيل: الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضىٰ العقل والثاني إلى ضلالِهم عما جاء به الشرع.

لعن أهل الكتاب وأسبابه

﴿**لُعن الذين كفروا**﴾ أي لعنهم الله عز وجل، وبناءُ الفعل للمفعول للجَرْي على سَنن الكبرياء ﴿**من بني إسرائيل**﴾ متعلق بمحذوفٍ وقع حالًا من الموصول أو من فاعل كفروا، وقوله تعالى: ﴿**على لسان داود وعيسى ابن مريم**﴾ متعلق بلُعن أي لعنهم الله تعالى في الزبور والإنجيل على لسانهما.

وقيل: إن أهل أَيْلةَ لما اعتدَوا في السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخهم الله قردة، وأصحابُ المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام: اللهم عذِّبْ من كفر بعدما أكل من المائدة عذابًا لم تعذِّبْه أحدًا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازيرَ وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى اللعن المذكور وإيثارُه على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازِه عن نظائره وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعد درجته في الشناعة[1]، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿**بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ والجملة مستأنَفةٌ واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام كأنه قيل: بأي سبب وقع ذلك؟ فقيل: ذلك اللعنُ الهائل الفظيعُ بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر، كما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل، وينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ فإنه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمرارُه إلا باستمرار تعاطي المنكرات، وليس المراد بالتناهي أن ينْهَى كلٌّ واحد منهم الآخَرَ عما يفعله من المنكر كما هو المعنىٰ المشهورُ لصيغة التفاعل، بل مجرد صدور النهي عن

---

(١) في المخطوط: الهول.

أشخاص متعددة، من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيًا ومنهيًا معًا، كما في تراءَوْا الهلالَ، وقيل: التناهي بمعنى الانتهاء، يقال: تناهىٰ عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع عنه وتركه، فالجملة حينئذ مفسرةٌ لما قبلها من المعصية والاعتداء، ومفيدة لاستمرارهما صريحًا، وعلى الأول مفيدة لاستمرار انتفاء النهي عن المنكر، بأن لا يوجد فيما بينهم من يتولاه في وقت من الأوقات، ومن ضرورته استمرارُ فعل المنكر حسبما سبق، وعلى كل تقدير فما يفيده تنكيرُ المنكر من الوحدة نوعية لا شخصية، فلا يقدح وصفه بالفعل الماضي في تعلق النهْي به، لِما أن متعلَّق الفعل إنما هو فرد من أفراد ما يتعلقُ به النهي، والانتهاء من مطلق المنكر، باعتبار تحقّقه في ضمن أي فرد كان من أفراده، على أن المضي المعتبر في الصفة إنما هو بالنسبة إلى زمان النزول لا إلى زمان النهي حتى يلزمَ كونُ النهي بعد الفعل، فلا حاجة إلى تقدير المعاودة أو المِثْلِ أو جعلِ الفعل عبارةً عن الإرادة، على أن المعاودة كالنهي لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير إلى أحد ما ذُكر من الوجهين، أو إلى تقدير المثل، أو إلى جعل الفعل عبارة عن إرادته، وفي كل ذلك تعسفٌ لا يخفى.

﴿**لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمي، كيف لا وقد أداهم إلى ما شُرح من اللعن الكبير وليس في تسبُّبه بذلك دلالةٌ على خروج كفرهم عن السببية، مع الإشارة إلى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا**﴾ [المائدة، الآية ٧٨] فإن إجراء الحكم على الموصول مُشعرٌ بعِلِّية ما في حيز الصلة له، لما أن ما ذكر في حيز السببية مشتملٌ على كفرهم أيضًا.

﴿**ترى كثيرًا منهم**﴾ أي من أهل الكتاب ككعبِ بن الأشرف وأضرابِه حيث خرجوا إلى مشركي مكةَ ليتّفقوا على محاربة النبي عليه الصلاة والسلام، والرؤيةُ بصرية وقوله تعالى: ﴿**يتولون الذين كفروا**﴾ حال من (كثيرًا) لكونه موصوفًا، أي يوالون المشركين بُغضًا لرسول الله ﷺ والمؤنين، وقيل: مِنْ منافقي أهل الكتاب يتولَّوْن اليهود. وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن، وقيل: يوالون المشركين ويُصافوُنهم ﴿**لبئس ما قدمت لهم أنفسهم**﴾ لبئس شيئًا قدّموا ليَردوا عليه يوم القيامة ﴿**أن سخط الله عليهم**﴾ هو المخصوصُ بالذم على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه، تنبيهًا على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد، ومبالغةً في الذم أي موجبُ سُخطِه تعالى، ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبرُه، والرابط عند من يشترطه هو العموم، أو لا حاجة إليه، لأن الجملةَ عينُ المبتدأ، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ينبئ عنه الجملة المتقدمة، كأنه قيل: ما هو؟ أو أيُّ شيء هو؟

فقيل: هو أنْ سخِط الله عليهم، وقيل: المخصوصُ بالذم محذوفٌ و(ما) اسم تامٌّ معرفةٌ في محل رفع بالفاعلية لفعل الذم، و(قدمت لهم أنفسهم) جملة في محل الرفع على أنها صفة للمخصوصِ بالذم قائمةٌ مَقامه، والتقدير لبئس الشيءُ شيءٌ قدّمتْه لهم أنفسُهم، فقوله تعالى: ﴿أن سخط الله عليهم﴾ بدلٌ من (شيء) المحذوفِ، وهذا مذهب سيبويه.

﴿وفي العذاب﴾ أي عذاب جهنم ﴿هم خالدون﴾ أبد الآبدين ﴿ولو كانوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يؤمنون بالله والنبي﴾ أي نبيهم ﴿وما أنزل إليه﴾ من الكتاب، أو لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا إيمانًا صحيحًا ﴿ما اتخذوهم﴾ أي المشركين واليهود ﴿أولياء﴾ فإن الإيمان بما ذُكر وازعٌ عن تولِّيهم قطعًا ﴿ولكن كثيرًا منهم فاسقون﴾ خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمرِّدون في النفاق مفرِّطون فيه.

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود وعَراقتهم في الكفر، وسائرِ أحوالهم الشنيعة التي من جملتها موالاتُهم للمشركين. أُكِّدت بالتوكيد القسَميّ اعتناءً ببيان تحققِ مضمونها، والخطاب إما لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد صالح له، إيذانًا بأن حالهم مما لا يخفىٰ على أحد من الناس. والوُجدانُ متعدٍّ إلى اثنين، أحدُهما أشدَّ الناس؛ والثاني اليهودُ وما عُطف عليه، وقيل: بالعكس لأنهما في الأصل مبتدأٌ وخبر، ومصبّ الفائدة هو الخبرُ لا المبتدأ، ولا ضيرَ في التقديم والتأخير إذ دل على الترتيب دليل، وهاهنا دليل واضح عليه، وهو أن المقصودَ بيانُ كون الطائفتين أشدَّ الناس عداوة للمؤمنين، لا كونِ أشدِّهم عداوةً لهم الطائفتين المذكورتين.

وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك، كيف لا والإفادة في الصورة الثانية

أتمّ وأكملُ مع خلوها عن تعسُّف التقديم والتأخير، إذ المعنى أنك إن قصدتَ أن تعرِفَ من أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين وتتبعْتَ أحوالَ الطوائف طُرًا وأحطتَ بما لديهم خُبْرًا، وبالغْتَ في تعرُّف أحوالهم الظاهرةِ والباطنة، وسعَيْتَ في تطلُّب ما عندهم من الأمور البارزة والكامنة، لتجدن الأشدَّ تَيْنِك الطائفتين لا غيرُ فتأملْ.

واللام الداخلة على الموصول متعلقةٌ (بعداوةً) مقويةٌ لعملها، ولا يضرُّ كونُها مؤنثةً بالتاء[1] مبنية عليها، كما في قوله: ورهبةً عقابَك، وقيل: متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لعداوة، أي كائنةً للذين آمنوا، وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعُف كفرهم، وانهماكهم في اتِّباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرُّنهم على التمرّد والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم ومُناصَبَتِهم. وفي تقديم اليهود على المشركين بعد لَزِّهما[2] في قَرَنٍ واحد إشعارٌ بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿ولتجدَنّهم أحرصَ الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا﴾ [البقرة، الآية ٩٦] إيذانًا بتقدُّمهم عليهم في الحرص.

﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا**﴾ أعيد الموصول مع صلته رَوْمًا لزيادة التوضيح والبيان ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ عبر عنهم بذلك إشعارًا بقرب مودتهم حيث يدّعون أنهم أنصارُ الله وأَوِدَّاءُ أهل الحق وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام، وعلى هذه النكتة مَبْنىٰ الوجه الثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ [المائدة، الآية ١٤] والكلام في مفعولي لتجدن وتعلق اللام كالذي سبق، والعدولُ عن جعْل ما فيه التفاوتُ بين الفريقين شيئًا واحدًا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخِرًا: ولتجدن أضعفَهم عداوة إلخ، أو بأن يقال: أولا لتجدن أبعد الناس مودة إلخ، للإيذان بكمال تبايُن ما بين الفريقين من التفاوتِ ببيان أن أحدَهما في أقصى مراتبِ أحدِ النقيضين، والآخَرَ في أقربِ مراتب النقيض الآخر.

﴿**ذلك**﴾ أي كونهم أقربَ مودةً للمؤمنين ﴿**بأن منهم**﴾ أي بسبب أن منهم ﴿**قسيسين**﴾ وهم علماءُ النصارى وعبّادهم ورؤساؤهم، والقِسّيسُ صيغةُ مبالغةٍ من تقَسَّسَ الشيءَ إذا تتبَّعه وطلبه بالليل، سُموا به لمبالغتهم في تتبع العلم، قاله الراغب، وقيل: القَسُّ بفتح القاف تتبُّعُ الشيء ومنه سمي عالم النصارى قسيسًا لتتبعه العلم.

---

(١) زاد في خ: لأنها.

(٢) لزَّه: شدَّه وألصقه. والقَرَن، بالتحريك: هو الحبل.

وقيل: قصَّ الأثرَ وقسه بمعنى، وقيل: إنه أعجمي، وقال قُطربُ: القِسّ والقِسّيسُ العالم بلغة الروم، وقيل: ضيَّعت النصارى الإنجيلَ وما فيه، وبقي منهم رجل يقال له: قِسيسُ لم يبدِّلْ دينه، فمن راعىٰ هديه ودينه قيل له: قسيس.

﴿ورهبانًا﴾ وهو جمع راهب كراكب ورُكبان وفارس وفُرسان، وقيل: إنه يطلق على الواحد وعلى الجمع وأُنشِدَ فيه قولُ من قال: [الرجز]

لو عايَنَتْ رُهبانَ ديْرٍ في قُلَلْ لأقبل الرهبانُ يعدو ونزَلْ[1]

والترهب التعبد في الصومعة، قال الراغب: الرهبانية الغلوُّ في تحمل التعبد من فرط الخوف، والتنكير لإفادة الكثرة، ولا بد من اعتبارها في القسيسين أيضًا، إذ هي التي تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين، فإن اتصاف أفرادٍ كثيرة لجنسٍ بخصلةٍ مظِنةٌ لاتصاف الجنس بها، وإلا فمن اليهود أيضًا قوم مهتدون، ألا يُرى إلى عبد اللَّه بن سلام وأضرابه، قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون﴾ [آل عمران، الآية ١١٣] . . . إلخ، لكنهم لما لم يكونوا في الكثرة كالذين من النصارى لم يتعدَّ حكمُهم إلى جنس اليهود.

﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ عطف على (أن منهم)، أي وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه، ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود، وهذه الخَصلةُ شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيّتُها لأقربيّتهم مودةً للمؤمنين واضحة، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودٌ وإن كان ذلك من كافر.

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ عطف على لا يستكبرون أي ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون، وأن أعينَهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن، وهو بيانٌ لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم، ومسارعتِهم إلى قبول الحق وعدم إبائهم إياه **﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾** أي تمتلئ بالدمع، فاستُعير له الفيضُ الذي هو الانصبابُ عن امتلاءٍ مبالغةً، أو جُعلت أعينُهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها **﴿مما عرفوا من الحق﴾** (من) الأولى لابتداء الغاية، والثانية لتبيين الموصول، أي ابتدأ الفيض ونشأ من معرفة الحق وحصل من أجله وبسببه، ويحتمل أن تكون الثانية تبعيضية، لأن ما عرفوه بعضُ

---

(١) ويروى الرجز هكذا:

لو كلَّمتْ رهبانَ ديرٍ في القُلَلْ لانحدر الرهبان يسعى فنزل

والرجز بلا نسبة في لسان العرب (رهب)، وتهذيب اللغة (٦/ ٢٩٠)، وتاج العروس (٢/ ٥٤٠) (رهب).

الحق، وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله، وقرأوا القرآن، وأحاطوا بالسنة؟ وقرئ[1] (تُرى أعينُهم) على صيغة المبني للمفعول ﴿يقولون﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كأنه قيل: ماذا يقولون؟ فقيل: يقولون: ﴿ربنا آمنا﴾ بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما، وقيل: حال من الضمير في عرفوا أو من الضمير المجرور في أعينهم، لما أن المضاف جزؤه، كما في قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا﴾ [الحجر، الآية ٤٧].

﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته، أو مع أمته الذين هم شهداءُ على الأمم يوم القيامة، وإنما قالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ كلام مستأنَفٌ قالوه تحقيقًا لإيمانهم، وتقريرًا له بإنكار سبب انتفائه ونفيِه بالكلية، على أن قوله تعالى: ﴿لا نؤمن﴾ حال من الضمير في (لنا)، والعامل ما فيه من الاستقرار أيْ أيُّ شيءٍ حصل لنا غيرَ مؤمنين؟ على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب والمسبَّب جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وما ليَ لا أعبُد الذي فطرني﴾ [يس، الآية ٢٢] ونظائرِه لا إلى السبب فقط مع تحقق المسبب كما في قوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ [الانشقاق، الآية ٢٠] وأمثاله فإن همزة الاستفهام كما تكون تارة لإنكار الواقع كما في أتضرِبُ أباك؟ وأخرى لإنكار الوقوع كما في أأضرب أبي؟ كذلك ما الاستفهامية قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفْيِه فقط كما في الآية الثانية، وقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا﴾ [نوح، الآية ١٣] فيكون مضمون الجملة الحالية محققًا، فإن كلاًّ من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمرٌ محققٌ قد أنكروا نفي سببه، وقد يكون الإنكارُ سببَ الوقوعِ ونفيَه، فيسريان إلى المسبب أيضًا كما في الآية الأولى، فيكون مضمون الجملةَ الحالية مفروضًا قطعًا، فإن عدم العبادة أمر مفروض حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدأ، والعامل فيها هو العامل في الأولى مقيدًا بها، أي أيُّ شيء حصل لنا غير مؤمنين؟ ونحن نطمع في صحبة الصالحين، أو من الضمير في (لا نؤمن) على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم إيمانهم، مع أنهم يطمعون في صحبة المؤمنين، وقيل: معطوف على (نؤمن) على معنى وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع المذكور؟

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٤/٦)، والكشاف للزمخشري (١/٣٥٩).

﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أي عن اعتقاد، من قولك: هذا قول فلان أي مُعتقدُه، وقرئ[١] (فآتاهم الله) ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ أي الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور، والآيات الأربع، رُوي (أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه رسول الله ﷺ بكتابه فقرأه ثم دعا جعفرَ بن أبي طالب[٢] والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان، فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريمَ، فبكَوْا وآمنوا بالقرآن)[٣]، وقيل: نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلًا من قومه وفدوا على رسولِ الله ﷺ فقرأ عليهم سورة مريم فبكَوا وآمنوا[٤].

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ عطَفَ التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضربٌ منه لِما أن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذكَرهم بمقابلة المصدِّقين بها جمعًا بين الترغيب والترهيب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٠).

(٢) هو: جعفر بن أبي طالب:هو عبد الله جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله،وأشبه الناس به خلقاً وخلقا، كان من السابقين للإسلام هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فكان المتكلم عن المهاجرين عند النجاشي ولم يرجع إلى الحجاز إلا في سنة ٧ هـ حين فتح رسول الله خيبر، اشترك في غزوة مؤتة قائداً وحاملاً للراية فقتل شهيداً سنة ٨هـ/ ٦٢٩ م وكان عمره ٤١ سنة سمي بالطيار، لأن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.
ينظر: الإصابة (١/ ٤٨٥)، والأعلام (٢/ ١٢٥)، والقاموس الإسلامي (١/ ٦١٢).

(٣) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤١٥) (٤٢٩).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره حدثني حارث، ثنا عبد العزيز ثنا قيس، عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿بأن منهم قسيسين ورهبانا ...﴾.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٣٧) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ
عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ
بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن
قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ
طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ
ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ
وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ
لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا
كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ
ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ أي ما طاب ولذ منه،

كأنه لمّا تضمّن ما سلف من مدح النصارى على الترهّب وترغيب المؤمنين في كسر النفس ورفض الشهوات، عقّب ذلك بالنهي عن الإفراط في الباب، أي لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغةً منكم في العزم على تركها تزهدًا منكم وتقشفًا.

وروي (أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يومًا فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار فرقّوا واجتمعوا في بيت عثمانَ بنِ مظعونٍ، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين وألا يناموا على الفُرش، ولا يأكلوا اللحم والودَك[١]، ولا يقرَبوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلْبَسوا المُسوح[٢]، ويَسيحُوا في الأرض، ويجُبُّوا مذاكيرَهم[٣]، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأُفطر، وآكلُ اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغِب عن سنتي فليس مني» فنزلت)[٤].

﴿ولا تعتدوا﴾ أي لا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جَعَلَ تحريمَ الطيبات اعتداءً وظلمًا، فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخُل تحته النهيُ عن تحريمها دخولًا أوليًا لوروده عَقيبه، أو أريدَ ولا تعتدوا بذلك ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ تعليل لما قبله ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالًا طيبًا﴾ أي ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فحلالًا مفعول (كلوا)، ومما رزقكم إما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرةً، أو متعلق بكلوا، ومِنْ ابتدائية، أو هو المفعول وحلالًا حال من الموصول، أو مِنْ عائدِه المحذوف، أو صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي أكلًا حلالًا، وعلى الوجوه كلها لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ توكيد للوصية بما أَمَر به، فإن الإيمان به تعالى يوجب المبالغة في التقوى والانتهاء عما نهىٰ عنه.

من تشريع القرآن

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ اللغو في اليمين الساقطُ الذي لا يتعلق به

---

(١) الودك: الدسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٢) المسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من شعر، أو ثوب الراهب.

(٣) المذاكير: جمع ذَكَر، وهو من الإنسان عضو التذكير.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٥١٩) برقم (١٢٣٤٨) عن مجاهد، وله شاهد في الصحيحين من حديث أنس، أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٣)، ومسلم برقم (٥/ ١٤٠١).

حُكم، وهو عندنا أن يحلِف على شيء يظن أنه كذلك وليس كما يظن، وهو قول مجاهد، قيل: كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظنٍّ أنه قُربة، فلما نزل النهي قالوا: كيف بأيْماننا؟ فنزلت، وعند الشافعي رحمه الله تعالى، ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله: لا والله وبلى والله، وهو قول عائشةَ رضي الله تعالى عنها[1]، و(في أيمانكم) صلةُ يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر، أو حال منه.

﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي بتعقيدكم الأيمانَ وتوثيقها عليه بالقصد والنية، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقّدتموه إذا حنِثتم أو بنَكْثِ ما عقّدتم، فحُذِف

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١/ ٥٥٦) - كتاب الأيمان والنذور (٨٣)- باب ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ...﴾ (١٤)- (٦٦٦٣) والنسائي في «التفسير» كما في «أطراف المزي» (١٢/ ٢٢١) (١٧٣١٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٤٨).
كتاب الأيمان- باب لغو اليمين من طريق يحيى القطان، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.
وتابع يحيى بن سعيد القطان:
مالك فأخرجه في موطئه (٢/ ٤٧٧)- كتاب النذور والأيمان (٢٢) -باب اللغو في اليمين (٥).
وعن مالك أخرجه الشافعي في مسنده (٢/ ٧٤)- كتاب الأيمان والنذور- باب فيما يتعلق باليمين (٢٤٤) والبيهقي (١٠/ ٤٨).
وأخرجه أيضا عبد الرزاق في مصنفه (رقم ١٥٩٥١، ١٥٩٥٢)، والطبري في تفسيره (٢/ ٢٤٠، ٢٤١) والبغوي في تفسيره (١/ ٢٠١) من طرق عن عائشة موقوفًا ليس فيها ذكر سبب النزول، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦٩) وزاد نسبته لوكيع ومسلم وعبد بن حميد وابن أبي حاتم من طرق عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية.
وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٥٧):
قال ابن عبد البر: تفرد يحيى القطان عن هشام بذكر السبب في نزول الآية ا.هـ.
قلت: وفي ذلك نظر ... فقد تابع يحيى بن سعيد - عيسى بن يونس عن هشام به عند ابن الجارود في المنتقى (ص٢٣٢/ ٢٣٣ رقم ٩٢٥).
وأخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٢٢٣) كتاب الأيمان والنذور، باب: لغو اليمين (٣٢٥٤) وابن حبان في «الموارد» (١١٨٧) وفي صحيحه أيضًا (١٠/ ١٧٦) (٤٣٣٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٤٩) من طريق حسان بن إبراهيم، ثنا إبراهيم الصائغ عن عطاء في اللغو واليمين قال: قالت عائشة- رضي الله عنها- إن رسول الله ﷺ قال «هو كلام الرجل...».
وقال أبو داود: روى هذا الحديث داود بن أبي الفرات عن إبراهيم الصائغ موقوفًا على عائشة، وكذلك رواه الزهري وعبد الملك بن أبي سليمان ومالك بن مغول، وكلهم عن عطاء عن عائشة موقوفًا.
وقال البيهقي (١٠/ ٤٩) «وكذلك رواه عمرو بن دينار، وابن جريج وهشام بن حسان، عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها موقوفًا».
وقال الحافظ في التلخيص (٤/ ٣٠٨) (٢٥٠١): وصحح الدارقطني الوقف.

للعلم به، وقرئ[١] بالتخفيف، وقرئ[٢] (عاقدتم) بمعنى عقدتم ﴿فكفارته﴾ أي فكفارةُ نكْثِه وهي الفعلة التي من شأنها أن تكفّرَ الخطيئة وتستُرَها، واستُدل بظاهره عن جواز التكفير قبل الحِنْث، وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلَف على يمينٍ ورأى غيرَها خيرًا فليأتِ الذي هو خيرٌ ثم لْيُكفِّرْ عن يمينه»[٣].

﴿إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي من أقصَدِه في النوع أو المقدار، وهو نصفُ صاع من بُر لكلِّ مسكين، ومحلُّه النصبُ لأنه صفةُ مفعولٍ محذوف تقديرُه أن تُطعموا عشرة مساكينَ طعامًا كائنًا من أوسط ما تطعمون، أو الرفعُ على أنه بدل من إطعام، وأهلون جمعُ أهلٍ كأَرَضون جمع أرض، وقرئ[٤] (أهاليكم) بسكون الياء على لغة من يسكنها في الحالات الثلاث كالألف، وهذا أيضًا جمع أهلٍ كالأراضي في جمع أرض والليالي في جمع ليل، وقيل: جمع أهلاة.

﴿أو كِسوتهم﴾ عطف على (إطعامُ) أو على محل (من أوسط) على تقدير كونه بدلًا من (إطعام) وهو ثوب يغطي العورة، وقيل: ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار، وقرئ[٥] بضم الكاف وهي لغة كقِدوة في قُدوة وإِسوة في أُسوة، وقرئ[٦] (أو

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو بكر، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإعراب للنحاس (١/ ٥١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٤/ ٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٢)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير الطبري (١٠/ ٥٢٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري ص (٤١٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٣٦)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٤/ ٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٢)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦١)، والكشف للقيسي ص (٤١٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٣٦)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٣) كتاب الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير، برقم (١٣/ ١٦٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قرأ بها: جعفر الصادق.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٣٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٨).

(٥) قرأ بها: سعيد بن المسيب، والنخعي، وابن عبد الرحمن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١١)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٧٩).

(٦) قرأ بها: ابن جبير، وابن السميفع اليماني.

=

كأُسوتهم) على أن الكاف في محل الرفع تقديره أو إطعامهم كأسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم إسرافًا وتقتيرًا تواسون بينهم وبينهم إن لم تُطعموهم الأوسط **﴿أو تحرير رقبة﴾** أي أو إعتاقُ إنسان كيفما كان، وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الإيمان قياسًا على كفارة القتل، ومعنى (أو) إيجابُ إحدى الخصال مطلقًا وخيارُ التعيين للمكلف.

﴿فمن لم يجد﴾ أي شيئًا من الأمور المذكورة **﴿فصيام﴾** أي فكفارتُه صيام **﴿ثلاثة أيام﴾** والتتابع شرط عندنا لقراءة[1] (ثلاثة أيام متتابعات)، والشافعي رضي الله عنه لا يرى للشواذ حجة **﴿ذلك﴾** أي الذي ذكر **﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾** أي وحنثْتم **﴿واحفظوا أيمانكم﴾** بأن تضِنوا بها ولا تبذُلوها كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿إذا حلفتم﴾، وقيل: بأن تَبَرّوا فيها ما استطعتم ولم يفُتْ بها خير، أو بأن تكفروها إذا حنثتم.

وقيل: احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونًا بها **﴿كذلك﴾** إشارة إلى مصدر الفعل الآتي لا إلى تبيينٍ آخَرَ مفهومٍ مما سبق، والكاف مقحمةٌ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة، ومحله في الأصل النصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوف وأصل التقدير: يبين الله تبيينًا كائنًا مثلَ ذلك التبيين، فقدم على الفعل لإفادة القصر، واعتُبرت الكاف مقحمةً للنكتة المذكورة، فصار نفسَ المصدر لا نعتًا له، وقد مر تفصيله في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ [البقرة، الآية ١٤٣] أي ذلك البيان البديع **﴿يبين الله لكم آياته﴾** أعلام شريعته وأحكامه لا بيانًا أدنى منه، وتقديم (لكم) على المفعول لما مر مرارًا **﴿لعلكم تشكرون﴾** نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾ أي الأصنامُ المنصوبةُ للعبادة **﴿والأزلام﴾** سلف تفسيرها في أوائل السورة الكريمة **﴿رجس﴾** قذر تعاف عنه العقول، وإفراده لأنه خبرُ الخمر، وخبرُ المعطوفات محذوفٌ ثقةً بالمذكور، أو المضاف محذوف أي شأن الخمر والميسر، إلخ **﴿من عمل الشيطان﴾** في محل الرفع على أنه صفةُ (رجس)، أي كائن من عمله لأنه مسبَّبٌ من تسويله وتزيينه **﴿فاجتنبوه﴾** أي الرجس أو ما ذكر **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي راجين فلاحكم، وقيل: لكي تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ [البقرة، الآية ٢١].

= ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٤/ ١١)، وتفسير الطبري (١٠/ ٥٤٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٧٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٨).

(١) قرأ بها: أبي، وابن مسعود، والنخعي. ينظر البحر المحيط (٤/ ١٢)، والمعاني للفراء (١/ ٣١٨). =

ولقد أُكِّد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدِّرت الجملة بإنما وقُرِنا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رجسًا من عمل الشيطان تنبيهًا على أن تعاطيَها شرٌّ بحْتٌ، وأَمَر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببًا يُرْجىٰ عنه الفلاح، فيكون ارتكابهما خَيبة ومَحْقة، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم، فقيل: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾** وهو إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية **﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾** إشارة إلى مفاسدهما الدينية، وتخصيصُهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيانُ حالهما، وذكرُ الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلُهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام: «شارب الخمر كعابد الوثن»[1] وتخصيصُ الصلاة بالإفراد مع دخولها في الذكر للتعظيم

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده، كما في كشف الأستار (٢٩٢٥).
وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٣٠٥) في ترجمة الحسن البصري (٥٢٩). كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «شارب الخمر كعابد وثن».
قلت: وللحديث شاهد- من حديث أبي هريرة، وابن عباس، وأنس بن مالك، وبعض الصحابة وجابر بن عبد الله.
أما حديث أبي هريرة:
فأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١/ ١٢٩) وابن ماجه (٣٣٧٥) وابن الجوزي في العلل (١١١٧) والواحدي في «الوسيط» من طرق عن محمد بن سليمان بن الأصبهاني عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة.
وفي رواية للبخاري عن سليمان عن سهيل بن أبي صالح عن محمد بن عبد الله عن أبيه قال النبي ﷺ «مدمن خمر...».
وقال: ولا يصح حديث أبي هريرة في هذا.
وقال ابن الجوزي في العلل (٢/ ٦٧١-٦٧٢): وهذا لا يصح، تفرد به محمد بن سليمان قال ابن عدي: محمد بن سليمان مضطرب الحديث وقد أخطأ في غير أشياء منه.
وقال أبو حاتم الرازي: لا نحتج به، وقال الدارقطني: خالفه سليمان بن بلال فرواه عن سهيل عن محمد بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ قال ابن مريم عنه. قال ورواه حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي صالح عن عبدالله بن عمرو من قوله... وهذا هو الصحيح، والطريق التي قبله لا تثبت. ا.هـ.
حديث ابن عباس:
أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) عن أسود بن عامر، حدثنا الحسن بن صالح عن محمد بن المنكدر قال: حدثت عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ «مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن» وهذا سند رجاله ثقات إلا شيخ ابن المنكدر فهو مجهول لم يسم.
وعبد الرزاق (٩/ ٢٣٩) (١٧٠٧٠)، وابن الجوزي في العلل (١١١٦) عن ابن المنكدر عن ابن عباس.
=

والإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان لما أنها عِمادُه، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّبًا على ما تقدم من أصناف الصوارف، فقيل: ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ إيذانًا بأن الأمر في الزجر والتحذير وكشفِ ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الأعذارَ قد انقطعت بالكلية.

﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ عطف على اجتنبوه أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿**واحذروا**﴾ أي مخالفتَهما في ذلك فيدخل فيه مخالفةُ أمرِهما ونهْيِهما في الخمر والميسر دخولًا أوليًّا ﴿**فإن توليتم**﴾ أي أعرضتم عن الامتثال بما أُمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصلاة والسلام والاحترازِ عن مخالفتهما.

= وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ١٦٧) (٥٣٤٧) وابن الجوزي في العلل (١١١٨) من طريق عبد الله بن خراش بن حوشب قال: حدثنا العوام بن حوشب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا «من لقي الله ...».

وهذا إسناد ضعيف، فعبد الله بن خراش هو الشيباني الحوشي، ضعفه أبو زرعة والبخاري والنسائي والدارقطني وأبو حاتم. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه غير محفوظ.

وقال ابن الجوزي عقبه: وهذا لا يصح فإن العوام مجروح- قال البخاري: وعبد الله بن خراش منكر الحديث، وقال أبو زرعة: ليس بشيء ا.هـ.

قلت: وأخرجه أيضًا البزار (٢/ ٢٧٧) (٢٩٣٤) والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥) (١٢٤٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٣) وابن الجوزي (١١١٩) من طريق ثوير بن أبي فاختة وحكيم بن جبير عن سعيد بن جبير به.

وثوير بن أبي فاختة وحكيم بن جبير كلاهما ضعيف.

وقد تحرف ثوير إلى يزيد عند الهيثمي ولذلك قال في المجمع (٥/ ٧٧): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح إلا أن ابن المنكدر قال حدثت عن ابن عباس وفي إسناد الطبراني يزيد بن أبي فاختة ولم أعرفه ا.هـ.

حديث أنس بن مالك:

أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٤٠٧) (٤٨٠٧) ثنا عبيد بن عبد الله بن جحش قال: حدثنا جنادة بن مروان قال: حدثنا الحارث بن النعمان قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «المقيم على الربا كعابد وثن، والمقيم على الخمر كعابد وثن». قال الحافظ: وإسناده ضعيف.

حديث جابر:

أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٥١٥)، من طريق المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ: «من مات مدمن خمر مات كعابد وثن».

حديث بعض الصحابة، ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٢٠) (٤٣٣٠) وعزاه لإسحاق بن راهويه في مسنده.

﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وخرج عن عُهدة الرسالة أيَّ خروج، وقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل، وما بقي بعد ذلك إلا العقاب. وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى، وأما ما قيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضُروا بتولِّيكم الرسولَ لأنه ما كُلِّف إلا البلاغَ المبينَ بالآيات وقد فعل؛ وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كُلِّفتموه، فلا يساعده المقام، إذ لا يُتوهم منهم ادعاءُ أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يردَ عليهم بأنهم لا يضرونه؛ وإنما يضرون أنفسهم.

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أي إثم وحرج ﴿فيما طعموا﴾ أي تناولوا أكلًا أو شربًا فإن استعماله في الشرب أيضًا مستفيضٌ، منه قولُه تعالى: ﴿ومن لم يَطْعمه فإنه مني﴾ [البقرة، الآية: ٢٤٩] قيل: (لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الأحزاب قال رجال من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها، ونحن نشهد أنهم في الجنة)، وفي رواية أخرى: (لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟)[١].

وفي رواية أخرى: (قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله كيف بإخواننا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥١) ثنا سريج يعني ابن النعمان ثنا أبو معشر عن ابن وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة قال: قدم رسول الله ﷺ وهم يشربون الخمر ... فذكره.
قلت: وهذا إسناد ضعيف، آفته «أبو معشر» هذا واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي- ضعفه كثير من الأئمة:
قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو داود والنسائي: ضعيف، وقال أبو زرعة: صدوق في الحديث وليس بالقوي، وقال عمرو بن علي: وأبو معشر ضعيف، ما روى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب ومشايخه فهو صالح وما روى عن المقبري وهشام ابن عروة ونافع وابن المنكدر روايته لا تكتب، وضعفه الحافظ في التقريب (٢/ ٢٩٨).
قلت: ووقع تصحيف عند الزيلعي في تخريج الكشاف فقال: رواه أحمد في مسنده ثنا شريح نا أبو معشر... بالشين المعجمة وليس كذلك، وليس هو شريح بن النعمان، راجع ترجمته في تهذيب الكمال (١٢/ ٤٥٠) فإنه متقدم عن سريج.
والحديث أخرجه الطبري (٥/ ٤١١) من وجه آخر، فقال: حدثني المثنى ثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس...
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٢٢) لابن مردويه في تفسيره.
وبعض الحديث في الصحيحين: من حديث أنس:
أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٣٣، ١٣٤) كتاب المظالم، باب: صب الخمر في الطريق، حديث رقم (٢٤٦٤)، ومسلم (٧/ ١٦٠) كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر (١٩٨٠) (٣).

الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار؟ فنزلت)[1]، وليست كلمة (ما) في (ما طعموا) عبارةً عن المباحات الخاصة، وإلا لزم تقييدُ إباحتها باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله تعالى: ﴿**إذا ما اتقوا**﴾ واللازمُ منْتفٍ بالضرورة، بل هي على عمومها موصولةً كانت أو موصوفة، وإنما تخصصت بذلك القيد الطارئ عليها، والمعنى ليس عليهم جُناحٌ فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنًا ما كان إذا اتقَوْا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات، وإلا لم يكن نفْيُ الجُناح في كل ما طعموه بل في بعضه ولا محذورَ فيه، إذِ اللازمُ منه تقييد إباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقيد إباحة بعضه باتقاء بعضٍ آخرَ منه كما هو اللازم من الأول ﴿**وآمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي واستمروا على الإيمان والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿**ثم اتقوا**﴾ عطف على (اتقوا) داخلٌ معه في حيِّز الشرط، أي اتقوا ما حُرّم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحًا فيما سبق ﴿**وآمنوا**﴾ أي بتحريمه، وتقديم الاتقاء عليه إما للاعتناء به أو لأنه الذي يدل على التحريم الحادث الذي هو المؤمَنُ به، أو واستمروا على الإيمان ﴿**ثم اتقوا**﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحًا من قبل، على أن المشروط بالاتقاء في كل مرة إباحةُ كل ما طعِموه في ذلك الوقت لا إباحةُ كل ما طعموه قبله، لانتساخ إباحةِ بعضِه حينئذ.

﴿**وأحسنوا**﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الأعمال القلبية والقالبية، وليس تخصيص المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها، بل لبيان التعدد والتكرر بالغًا ما بلغ، والمعنى أنهم إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، وكانوا في طاعة الله ومراعاةِ أوامرِه ونواهيه بحيث كلما حرِّم عليهم شيء من المباحات اتقَوْه، ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه في كل مرة من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طُعْمِه.

وأنت خبير بأن ما عدا اتقاءِ المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخْلَ لها في انتفاء الجُناح، وإنما ذكرت في حيز (إذا) شهادةً باتصاف الذين سُئل عن حالهم بها، ومدحًا لهم بذلك وحمدًا لأحوالهم، وقد أشير إلى ذلك حيث جُعلت تلك الصفاتُ تبعًا للاتقاء في كل مرةٍ تمييزًا بينها وبين ما له دخل في الحكم، فإن مَساقَ النظم الكريم بطريق العبارة وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذُكر من النعوت فيما سيأتي بقضية كلمة (إذا ما)، لكنه قد أُخرج مُخْرَجَ الجواب عن حال الماضين

---

(١) ذكره الرازي في التفسير الكبير (١٢/ ٧٠).

لإثبات الحكم في حقهم في ضمن التشريع الكلي على الوجه البرهاني بطريق دلالة النص، بناءً على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها، فكأنه قيل: ليس عليهم جُناح فيما طعِموه إذْ كانوا في طاعته تعالى مع ما لهم من الصفات الحميدة، بحيث كلما أمِروا بشيء تلقَّوْه بالامتثال. وإنما كانوا يتعاطَوْن الخمر والميسر في حياتهم لعدم تحريمها إذ ذاك، ولو حُرما في عصرهم لاتقوهما بالمرة.

هذا وقد قيل: التكريرُ باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث: استعمالِ الإنسان التقوىٰ بينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس، وبينه وبين الله عز وجل، ولذلك جيءَ بالإحسان في الكرة الثالثة بدلَ الإيمان إشارةً إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث: المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتَّقى، فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقيًا من العقاب، والشبُهاتِ توقيًا من الوقوع في الحرام، وبعضَ المباحات حفظًا للنفس عن الخِسة وتهذيبًا لها عن دنَس الطبيعة، وقيل: التكريرُ لمجرد التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿كلَّا سوف تعلمون ثم كلاًّ سوف تعلمون﴾ [التكاثر، الآية ٣ و٤] ونظائرِه.

وقيل: المرادُ بالأول اتقاءُ الكفر، وبالثاني اتقاءُ الكبائر، وبالثالث اتقاءُ الصغائر. ولا ريب في أنه تعلَّقَ لهذه الاعتبارات بالمَقام فأَحسِنِ التأمل ﴿**والله يحب المحسنين**﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله أبلغَ تقرير.

﴿**يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله**﴾ جوابُ قسم محذوفٍ أي والله ليُعامِلنَّكم معاملةَ مَنْ يختبركم ليتعرَّفَ أحوالَكم ﴿**بشيء من الصيد**﴾ أي من صيدِ البَرّ مأكولًا أو غيرَ مأكول ما عدا المستثنياتِ من الفواسق، فاللام للعَهْد، نزلت عام الحُدَيْبية. ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم مُحرِمون كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدِها أخذًا بأيديهم وطعنًا برماحهم وذلك قوله تعالى: ﴿**تناله أيديكم ورماحكم**﴾ فهمُّوا بأخذها فنزلت.

ورُوي أنه عَنَّ لهم حمارُ وحشٍ فحمل عليه أبو اليَسَر بنُ عمرو فطعنه برمحه وقتله، فقيل له: قتلته وأنت مُحرم، فأتى رسول الله ﷺ وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية[١]، فالتأكيد القَسَميُّ في (ليبلونكم) إنما هو لتحقيق أن ما وقع من عدم توحُّش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم لا لتحقيق وقوعِ المُبتلىٰ به كما لو كان النزول قبل الابتلاء، وتنكير (شيء) للتحقير المُؤْذِن بأن ذلك ليس من الفِتن الهائلة التي تزِلُّ

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢/ ٢٩٤).

فيها أقدامُ الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلافِ الأموال، وإنما هو من قبيل ما ابتُلِيَ به أهلُ أَيْلَةَ من صيد البحر، وفائدته التنبيه على أن من لم يثبّتْ في مثل هذا كيف يثبتُ عند شدائد المحن؟ (فمن) في قوله تعالى: ﴿من الصيد﴾ بيانية قطعًا أي بشيء حقير هو الصيد، وجعلُها تبعيضيةً يقتضي اعتبارَ قِلَّته وحقارته بالنسبة إلى كل الصيد لا بالنسبة إلى عظائم البلايا فيَعْرَى الكلامُ عن التنبيه المذكور.

﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ أي ليتميز الخائفُ من عقابه الأخروي وهو غائبٌ مترقبٌ لقوة إيمانه، فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيُقدم عليه، وإنما عبر عنْ ذلك بعلم الله تعالى اللازم له إيذانًا بمدار الجزاءِ ثوابًا وعقابًا فإنه أدْخَلُ في حملهم على الخوف.

وقيل: المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل، فإن علمه تعالى بأنه سيخافه وإن كان متعلقًا به قبل خوفه لكنّ تعلُّقَه بأنه خائف بالفعل وهو الذي يدور عليه أمرُ الجزاء إنما يكون عند تحقق الخوف بالفعل، وقيل: هناك[1] مضاف محذوف، والتقدير ليعلم أولياءَ الله، وقرئ[2] (ليُعلِمَ) من الإعلام على حذف المفعول الأول أي ليُعْلِمَ الله عباده . . . إلخ، والعلمُ على القراءتين متعدٍّ إلى واحد، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة.

﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي بعد بيان أنّ ما وقع ابتلاءٌ من جهته تعالى لِما ذُكر من الحِكمة لا بعد تحريمِه أو النهي عنه كما قاله بعضهم، إذ النهي والتحريم ليس أمرًا حادثًا يترتب عليه الشرطية، بالفاء، ولا بعد الابتلاء كما اختاره آخرون، لأن نفس الابتلاء لا يصلح مدارًا لتشديد العذاب، بل ربما يتوهم كونُه عذرًا مسوِّغًا لتخفيفه، وإنما الموجب للتشديد بيانُ كونه ابتلاءً، لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرةٌ صريحة، وعدمُ مبالاةٍ بتدبير الله تعالى، وخروجٌ عن طاعته، وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية. أي: فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحُّشه منهم ابتلاءٌ مؤدٍّ إلى تمييز المطيع من العاصي.

﴿فله عذاب أليم﴾ لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولأن من لا يملك زمام نفسه ولا يراعي حكم الله تعالى في أمثال هذه البلايا الهيِّنة لا يكاد يُراعيه في عظائم

---

(١) زاد في خ: أيضا.
(٢) قرأ بها: الزهري.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٧).

المداحض. والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يُوسَعُ ظهرُه وبطنه جَلدًا وينزع ثيابه[١].

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع في بيان ما يتدارك به الاعتداءُ من الأحكام إثر بيانِ ما يلحقه من العذاب، والتصريح بالنهي في قوله تعالى: ﴿**لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾ مع كونه معلومًا لا سيما من قوله تعالى: ﴿غيرَ محلِّي الصيد وأنتم حرم﴾ [المائدة: ١] لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبُه عليه، واللام في الصيد للعهد حسبما سلف، وحُرُم جمع حَرام، وهو المُحرم وإن كان في الحِل، وفي حكمه من في الحَرَم وإن كان حَلالًا، كرُدُح جمع رَادح، والجملة حال من فاعل لا تقتلوا، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون ﴿**ومن قتله**﴾ أي الصيد المعهود، وذِكرُ القتل في الموضعين دون الذبح للإيذان بكونه في حكم الميتة ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف وقع حالًا من فاعل قتله أي كائنًا منكم.

﴿**متعمدًا**﴾ حال منه أيضًا أي ذاكرًا لإحرامه عالمًا بحُرمة قتل ما يقتله، والتقييدُ بالتعمّد مع أن محظوراتِ الإحرام يستوي فيها العمْدُ والخطأ لِما أن الآية نزلتْ في المتعمِّد كما مرَّ من قصة أبي اليَسَر، ولأن الأصل فعلُ المتعمّد والخطأ لاحقٌ به للتغليظ، وعن الزُهري: نزل الكتاب [بالعمد][٢] ووردت السنة بالخطأ[٣]. وعن سعيد بن جُبير رضي الله عنه: لا أرى في الخطأ شيئًا أخذًا باشتراط التعمّد في الآية[٤]، وهو قول داودَ عن مجاهد والحسن: أن المراد بالتعمد هو تعمدُ القتل مع نسيان الإحرام، أما إذا قتله عمْدًا وهو ذاكرٌ لإحرامه فلا حكم عليه، وأمره إلى الله عز وجل، لأنه أعظمُ من أن يكون له كفارة. ﴿**فجزاءٌ مثلُ ما قتل**﴾ برفع (ما)، أي فعليه جزاءٌ مماثلٌ لما قتله، وقرئ[٥] برفع الأول ونصب الثاني على إعمال المصدر،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٠٤) برقم (٦٧٩١).

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٤٣) (١٢٥٦٥)- من طريق هشيم، قال: أخبرني بعض أصحابنا عن الزهري أنه قال.
قلت: وأخرجه أيضًا عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٣٩١) (٨١٧٨)- أخبرنا معمر عن الزهري قال: يحكم عليه في العمد، وهو في الخطأ سنة.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٤٣) (١٢٥٦٧) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير قال: إنما جعلت الكفارة في العمد...

(٥) قرأ بها: أبو عبد الرحمن السلمي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥١٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣١)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٠٩)، =

وقرئ[١] بجرِّ الثاني على إضافته إلى مفعوله، وقرئ[٢] (فجزاؤه مثلُ) ما قتل على الابتداء والخبرية، وقرئ[٣] بنصبهما على تقدير فليجْزِ جزاءً أو فعليه أن يُجزىٰ جزاءً مثلَ ما قتل، والمرادُ به عند أبي حنيفة وأبي يوسف رضي الله عنهما المثلُ باعتبار القيمة، يُقوَّم الصيد حيث صِيدَ أو في أقرب الأماكن إليه، فإن بلغَت قيمتُه قيمةَ هدْيٍ يُخير الجاني بين أن يشتريَ بها قيمةَ الصيد فيُهدِيَه إلى الحرم، وبين أن يشتريَ بها طعامًا فيُعطيَ كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعًا من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يومًا، فإن فضل ما لا يبلغُ طعامَ مسكين تصدّق به أو صام عنه يومًا كاملًا، إذ لم يُعهد في الشرع صومُ ما دونه فيكون قوله تعالى: ﴿**من النَّعم**﴾ بيانًا للهدْي المشترىٰ بالقيمة على أحد وجوه التخيير، فإنَّ من فعل ذلك يصدُق عليه أنه جُزيَ بمثل ما قتل من النَّعم، وعن مالك والشافعي رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما: هو المِثْلُ باعتبار الخِلْقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثلَ المقتول مقيدًا بالنَّعم، فمن اعتبَر المِثْل بالقيمة فقد خالف النص، وعن الصحابة رضي الله عنهم: أنهم أوجبوا في النَّعامة بدنةً، وفي الظبْيِ شاةً، وفي حمار الوَحش بقرَةً، وفي الأرنب عَناقًا، وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «الضبُع صيدٌ وفيه شاةٌ إذا قتله المُحرم»[٤] ولنا أن النصَّ أوجبَ المثْل، والمِثْلُ المطلق في الكتاب والسنة وإجماعِ

= والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٨).

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، والإعراب للنحاس (١/ ٥١٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير الطبري (١١/ ١٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٠٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٤)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤٢)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٤٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥١٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩)، وتفسير الطبري (١١/ ١٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٠٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٤٧).

(٣) قرأ بها: محمد بن مقاتل.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٨٢) كتاب الأطعمة، باب: في أكل الضبع، برقم (٣٨٠١)، والدارمي (٢/ ١٠٢) كتاب المناسك، باب: في جزاء الضبع، برقم (١٩٤١)، وابن خزيمة (٤/ ١٨٣) برقم (٢٦٤٨)، والحاكم (١/ ٤٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٨٣) بلفظ: عن جابر بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن الضبع فقال: هو صيد ويجعل فيه كبش إذا صاده المحرم».

الأمة والمعقولِ يُراد به إما المثلُ صورةً ومعنى، وإما المثلُ معنى. وأما المثلُ صورةً بلا معنى فلا اعتبارَ له في الشرع أصلًا، وإذا لم يمكن إرادةُ الأول إجماعًا تعيّنت إرادةُ الثاني لكونه معهودًا في الشرع كما في حقوق العباد، ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوعٍ واحد مع كونها في غاية القوة والظهور لم يعتبْرها الشرع، ولم يجعل الحيوانَ عند الإتلاف مضمونًا بفردٍ آخَرَ من نوعه مماثلٍ له في عامة الأوصاف بل مضمونًا بقيمتِه مع أن المنصوص عليه في أمثاله إنما هو المثل، قال تعالى: ﴿فاعتدوا عليه بمثْلِ ما اعتدىٰ عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤] فحيث لم تُعتبرْ تلك المماثلةُ القويةُ مع تيسُّر معرفتِها وسهولةِ مراعاتِها فَلأَنْ لا تُعتبرُ ما بين أفراد أنواع مختلفةٍ من المماثلة الضعيفة الخفيةِ، مع صعوبة مأخذِها وتعسُّرِ المحافظة عليها، أولى وأحرى، ولأن القيمة قد أريدت فيما لا نظيرَ له إجماعًا فلم يبق غيرُه مرادًا، إذْ لا عمومَ للمشترَك في مواقع الإثبات.

والمراد بالمرويِّ إيجابُ النظير باعتبار القيمة لا باعتبار العين، ثم الموجبُ الأصليُّ للجناية والجزاءِ المماثلِ للمقتول إنما هو قيمتُه، لكن لا باعتبار أن يعمِدَ الجاني إليها فيصرِفَها إلى المصارف ابتداءً، بل باعتبار أن يجعلَها معيارًا فيقدِّرَ بها إحدى الخصال الثلاث فيُقِيمَها مُقامها، فقوله تعالى: ﴿مثلُ ما قتل﴾ وصفٌ لازم للجزاء، غيرُ مفارِقٍ عنه بحال، وأما قوله تعالى: ﴿من النعم﴾ فوصفٌ له معتبرٌ في ثاني الحال بناءً على وصفه الأول الذي هو المعيارُ له ولِما بعده من الطعام والصيام، فحقُّهما أن يُعطفا على الوصف المفارِق لا على الوصف اللازم فضلًا عن العطف على الموصوف كما سيأتي بإذن الله تعالى.

ومما يرشدك إلى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل: ﴿**يحكمُ به**﴾ أي بمثل ما قتل.

﴿**ذوا عدْل منكم**﴾ أي حكَمان عادلان من المسلمين لكنْ لا لأن التقويمَ هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد من العُدول دون الأشياء المشاهدةَ التي يستوي في معرفتها كلُّ أحد من الناس، فإن ذلك ناشئ من الغفلةِ عما أرادوا بما به المماثلة، بل لأن ما جعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النَّعم من ضربِ مشاكَلةٍ ومضاهاة في بعض الأوصاف والهيئات مع تحقق التبايُن بينهما في بقية الأحوال مما لا يَهتدي إليه، من أساطينِ أئمة الاجتهاد، وصناديدِ أهل الهداية والإرشاد، إلا المؤيدون بالقوة القدسية، ألا يُرى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه أوجب في قتل الحمامة شاةً بناء على ما أثبتَ بينهما من المماثلة من حيث إن كلًّا منهما يعُبّ ويهدِر، مع أن النسبة

بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضّبّ والنون[١]، فكيف يُفوَّضُ معرفةُ أمثالِ هذه الدقائق العويصة إلى رأي عدْلين من آحاد الناس؟ على أن الحكم بهذا المعنى إنما يتعلق بالأنواع لا بالأشخاص، فبعد ما عُيِّن، بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد، نوعٌ من أنواع النعم يتم الحُكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجةٌ إلى حكمٍ أصلًا.

وقرئ[٢] (يحكم به ذو عدل) على إرادة جنس العادل دون الوَحْدة، وقيل: بل على إرادة الإمام، والجملة صفة لـ (جزاءٌ) أو حال منه لتخصصه بالصفة، وقوله تعالى: ﴿**هديًا**﴾ حال مقدرة من الضمير في (به)، أو في (جزاء) لما ذكر من تخصصه بالصفة، أو بدلٌ من (مثل) فيمن نصبه، أو مِنْ محله فيمن جرَّه، أو نصبٌ على المصدر أي يهديه هديًا، والجملة صفة أخرى لجزاء.

﴿**بالغ الكعبة**﴾ صفةٌ (لهديًا) لأن الإضافة غير حقيقية ﴿**أو كفارة**﴾ عطف على محل (من النعم) على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملةُ صفة ثانية (لجزاء) كما أشير إليه، وقوله تعالى: ﴿**طعامُ مساكين**﴾ عطفُ بيانٍ لكفارةٌ عند من لا يخصصه بالمعارف، أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي طعام مساكين.

وقوله تعالى: ﴿**أو عدْلُ ذلك صِيامًا**﴾ عطف على طعام . . . إلخ، كأنه قيل: فعليه جزاءٌ مماثلٌ للمقتول هو من النَّعم أو طعامُ مساكينَ أو صيامُ أيام بعددهم، فحينئذ تكون الماثلةُ وصفًا لازمًا للجزاء يقدَّر به الهدْي والطعام والصيام، أَما الأولان فبلا واسطة، وأما الثالث فبواسطة الثاني، فيختار الجاني كلاًّ منها بدلًا من الآخرَيْن، هذا وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿أو كفارة﴾ عطف على (جزاء) فلا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يقدَّر به الطعام والصيام، والالتجاءُ إلى القياس على الهدْي تعسفٌ لا يخفى، هذا على قراءة (جزاء) بالرفع على سائر القراءات.

فقوله تعالى: ﴿أو كفارة﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ، والجملة معطوفة على جملة هو (من النعم). وقرئ[٣] أو(كفارةُ طعامِ مساكين) بالإضافة لتبيين نوع الكفارة؛

---

(١) النون: الحوت.

(٢) قرأ بها: جعفر بن محمد الصادق، ومحمد بن علي الباقر.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٣١)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٩).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٥١٨)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣١)، =

وقرئ[1] (طعامُ مِسْكين) على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس؛ وقرئ[2] (أو عِدْل) بكسر العين؛ والفرق بينهما أن عَدلَ الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام؛ وعِدْلَه ما عُدِل به في المقدار؛ كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول؛ وذلك إشارة إلى الطعام و(صيامًا) تمييز للعَدْل، والخيار في ذلك للجاني عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله وللحَكَمين عند محمد رحمه الله.

﴿ليذوق وبال أمره﴾ متعلق بالاستقرار في الجار والمجرور، أي فعليه جزاءٌ ليذوق . . . إلخ، وقيل: بفعل يدل عليه الكلام، كأنه قيل: شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أي سوءَ عاقبةِ هَتْكه لحُرمة الإحرامِ، والوبال في الأصل: المكروهُ والضررُ الذي ينال في العاقبة مَنْ عمل سوءًا لثِقَله، ومنه قوله تعالى: ﴿فأَخذناه أخذًا وبيلًا﴾ [المزمل، الآية ١٦] ومنه الطعام الوبيلُ وهو الذي لا تستمرِئُه المَعِدة.

﴿عفا الله عما سلف﴾ من قتل الصيد مُحرِمًا قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقيل: عما سلف منه في الجاهلية، لأنهم كانوا متعبَّدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرّمًا ﴿ومن عاد﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرم ﴿فينتقم الله منه﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى: ﴿فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخْسًا ولا رَهَقًا﴾ [الجن، الآية ١٣] أي فذلك لا يخاف . . إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأُمتّعه﴾ [البقرة: ١٢٦] أي فأنا أمتعه، والمراد بالانتقام التعذيبُ في الآخرة، وأما الكفارة فعن عطاءٍ وإبراهيمَ وسعيدِ بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وشُريح أنه لا كفارة عليه تعلقًا بالظاهر ﴿والله عزيز﴾ غالب لا يُغالَب ﴿ذو انتقام﴾ شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء.

= والبحر المحيط (٤/ ٢٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٠)، والحجة لابن خالويه (١٣٤/ ١٣٥)، وحجر ص (٢٣٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٤٢)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٥).

(١) قرأ بها: الأعرج، وعيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٥).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وعاصم الجحدري.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢١)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٥).

﴿**أحل لكم**﴾ الخطاب للمُحْرمين ﴿**صيدُ البحر**﴾ أي ما يصاد في المياه كلها بحرًا كان أو نهرًا أو غديرًا، وهو ما لا يعيش إلا في الماء مأكولًا أو غير مأكول ﴿**وطعامه**﴾ أي وما يُطْعَم من صيده، وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى أحل لكم التعرّضُ لجميع ما يصاد في المياه والانتفاعُ به، وأكلُ ما يؤكل منه وهو السمك عندنا، وعند [ابن][(١)] أبي ليلى جميعُ ما يصاد فيه، على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيدُ حيوانِ البحر وأن تَطْعَموه، وقرئ[(٢)] (وطُعْمه).

وقيل: صيدُ البحر ما صيد فيه، وطعامُه ما قذفه أو نَضَب عنه ﴿**متاعًا لكم**﴾ نُصِب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن (نافلة) في قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافلة﴾ [الأنبياء، الآية ٧٢] حالٌ مختصة بيعقوبَ عليه السلام، أي أحل لكم طعامه تمتيعًا للمقيمين منكم يأكلونه طريًا ﴿**وللسيارة**﴾ منكم يتزودونه قَديدًا، وقيل: نُصب على أنه مصدر مؤكِّد لفعل مقدر، أي متّعكم به متاعًا، وقيل: مؤكد لمعنى (أُحل لكم) فإنه في قوة متّعكم به تمتيعًا كقوله تعالى: ﴿كتابَ الله عليكم﴾ [النساء، الآية ٢٤].

﴿**وحرِّم عليكم صيدُ البر**﴾ وقرئ[(٣)] على بناء الفعلِ للفاعل ونصْبِ (صيدَ البر)، وهو ما يُفْرِخُ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء ﴿**ما دمتم حرُمًا**﴾ أي محرمين، وقرئ[(٤)] بكسر الدال من دامَ يدامُ، وظاهرُه يوجب حرمة ما صاده الحَلالُ على المُحرم وإن لم يكن له مَدْخلٌ فيه، وهو قول [ابن][(٥)] عمرَ وابن عباس رضي الله عنهم. وعن أبي هريرة وعطاءٍ ومجاهدٍ وسعيدِ بنِ جُبير رضي الله عنهم أنه يحلُّ له أكلُ ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يُشِرْ إليه ولم يُدلَّ عليه، وكذا ما ذبحه قبل إحرامِه وهو مذهبُ أبي حنيفة، لأن الخِطاب للمحرمين،

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وعبد الله بن الحارث.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣).

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢١٩).

(٤) قرأ بها: المطوعي، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣١)، والبحر المحيط (٤/ ٢٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٦).

(٥) سقط في ط.

فكأنه قيل: وحرم عليكم ما صِدتُم في البر فيَخرُج منه مَصيدُ غيرهم، وعند مالك والشافعي وأحمد لا يباح ما صِيدَ له ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه أو في جميع المعاصي التي من جملتها ذلك ﴿الذي إليه تحشرون﴾ لا إلى غيره حتى يُتَوهَّمَ الخلاصُ من أخذه تعالى بالالتجاء إليه.

﴿جعل الله الكعبة﴾ قال مجاهد: سميت كعبةً لكونها مُكَعبّةً مُربَّعة، وقيل: لانفرادها من البناء، وقيل: لارتفاعها من الأرض ونتوئها، وقوله تعالى: ﴿البيتَ الحرام﴾ عطفُ بيانٍ على جهة المدح دون التوضيح كما تجيء الصفةُ كذلك، وقيل: مفعولٌ ثانٍ لجعل، وقوله تعالى: ﴿قيامًا للناس﴾ نُصبَ على الحال، ويرده عطف ما بعده على المفعول الأول كما سيجيء، بل هذا هو المفعول الثاني، وقيل: الجعلُ بمعنى الإنشاءِ والخلق وهو حال كما مر. ومعنى كونه قيامًا لهم أنه مدارٌ لقيام دينهم ودنياهم إذ هو سببٌ لانتعاشهم في أمور معاشِهم ومَعادِهم، يلوذ به الخائفُ، ويأمَن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعُمّار، وقرئ[1] (قِيَمًا) على أنه مصدر على وزن شِبَع أُعلَّ عينه بما أُعلَّ في فعله ﴿والشهر الحرام﴾ أي الذي يؤدىٰ فيه الحجُ وهو ذو الحجة؛ وقيل: جنس الشهر الحرام، وهو وما بعده عطف على الكعبة، فالمفعول الثاني محذوف ثقةً بما مر، أي وجعل الشهر الحرام ﴿والهدْيَ والقلائد﴾ أيضًا قيامًا لهم، والمرادُ بالقلائد ذواتُ القلائد وهي البُدْنُ، خُصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاءَ الحجَّ بها أظهر ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الجعل المذكور خاصة أو مع ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره، ومحلُّه النصبُ بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل في اللام بعده أي شرَعَ ذلك.

﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ فإن تشريع هذه الشرائعِ المستَتْبِعةِ لدفع المضارِّ الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلبِ المنافع الأولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدمَ خروجِ شيء عن علمه المحيط، وقوله تعالى: ﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾ تعميمٌ إثْرَ تخصيصٍ للتأكيد، ويجوز أن يراد بما في السموات والأرض الأعيانُ الموجودة فيهما، و(بكل شيء)

(١) قرأ بها: ابن عامر، عاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٢٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٤٦)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

الأمورُ المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والأحوال التي هي من قبيل المعاني.

﴿اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وعيد لمن انتهك محارِمَه أو أصر على ذلك، وقوله تعالى: ﴿وأن الله غفور رحيم﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه، ووجهُ تقديم الوعيد ظاهر ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أَمَرَ به، أي الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لا مزيد عليه، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم من بعد في التفريط ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ فيؤاخذكم بذلك نقيرًا وقِطْميرًا[١].

﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال، وبين جيِّدها، قَصَد به الترغيب في جيِّد كل منها والتحذيرَ عن رديئها، وإن كان سببَ النزول شريحُ بنُ ضُبيعةَ البكريُّ الذي مرت قصته في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ [المائدة، الآية ٢] إلخ، وقيل: نزلت في رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام: إن الخمر كانت تجارتي، وإني اعتقدت من بيعها مالًا، فهل ينفعني من ذلك المال إن عمِلت فيه بطاعة الله تعالى؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدِلْ جَناحَ بعوضة، إن الله لا يقبل إلا الطيب»[٢].

وقال عطاءٌ والحسنُ رضي الله عنهما: الخبيث والطيب الحرامُ والحلال، وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور، الذي يُنْبِئ عنه عدمُ الاستواء، فيه لا في مقابِلِه، فإنه مفهومٌ عدمُ الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونقصانًا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتبارُه بحسب قصور القاصر كما في قوله تعالى: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾ [الأنعام، الآية ٥٠. والرعد، الآية ١٦] إلى غير ذلك.

---

(١) النقير: ثقب دقيق في غلاف البذرة يوجد في العادة في الطرف الأمامي للبذرة بالقرب من السرَّة؛ وما نقر من الحجر والخشب ونحوه. وهو كناية عن الشيء الضعيف الهيّن الحقير. والقطمير بنفس المعنى.

(٢) لم أقف عليه هكذا، وأصل الحديث في صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣) كتاب الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم (٦٥/ ١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين». الحديث.

وأما قوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر، الآية ٩] فلعل تقديمَ الفاضلِ فيه لما أن صِلتَه ملكة لصلة المفضول **﴿ولو أعجبك كثرةُ الخبيث﴾** أي وإن سرك كثرته، والخطاب لكل واحد من الذين أُمر النبي ﷺ بخطابهم، والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدَّر، وقيل: للحال وقد مر، أي ولو لم تُعجِبْك كثرة الخبيث ولو أعجبتك، وكلتاهما في موقع الحال من فاعل لا يستوي، أي لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما في قولك: أحسِنْ إلى فلان وإن أساء إليك، أي أحسن إليه وإن لم يُسِئ إليك وإن أساء إليك، أي كائنًا على كل حال مفروض، وقد حُذفت الأولى حذفًا مطَّردًا لدِلالة الثانية عليها دلالة واضحة، فإن الشيء إذا تحقق مع المعارِض فلأن يتحقق بدونه أولى، وعلى هذا السر يدور ما في لو وإن الوصليتين من المبالغة والتأكيد، وجواب لو محذوف في الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه، وسيأتي تمام تحقيقه في مواقعَ عديدةٍ بإذن الله عز وجل.

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي في تحرِّي الخبيث وإن كثر، وآثِروا عليه الطيِّب وإن قلّ، فإن مدارَ الاعتبار هو الجُودة والرداءةُ لا الكثرةُ والقِلة، فالمحمودُ القليلُ خيرٌ من المذموم الكثير، بل كلما كثر الخبيثُ كان أخبثَ **﴿لعلكم تفلحون﴾** راجين أن تنالوا الفلاح.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ﴾ هو اسمُ جمعٍ على رأي الخليل وسيبويه وجمهور البصريين، كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما ألف، فقُلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء، ومُنعت الصرفَ لألف التأنيث الممدودة، وقيل: هو جمع شيْء على أنه مخفف من شيِّئ كهَيْنٍ مخففٌ من هيِّن، والأصل أشْيِئاء كأهوناء بزنة أفعِلاء، فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتي للتأنيث، إذ الألف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ما قبلها فصارت أشيياء فاجتمعت ياءان أولهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفلاء، ومنعت الصرف لألف التأنيث، وقيل: إنما حذفت من أشيِياءَ الياءُ المنقلبةُ من الهمزة التي هي لام الكلمة وفُتحت الياء المكسورة لتسلم ألف الجمع فوزنها أفعاء.

وقوله تعالى: **﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾** صفةٌ لأشياء داعيةٌ إلى الانتهاء عن السؤال عنها، وحيث كانت المَساءةُ في هذه الشرطية معلقةً بإبدائها لا بالسؤال عنها عُقّبت بشرطية أخرى ناطقةٍ باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجِبِ للمحذور قطعًا، فقيل: **﴿وإن تسألوا عنها حين يُنزَل القرآن تبد لكم﴾** أي (عن) تلك الأشياء الموجِبة للمَساءة بالوحي كما ينبئ عنه تقييدُ السؤال بحينِ التنزيل، والمراد بها ما يشُق عليهم ويغمُهم

من التكاليف الصعبة التي لا يطيقونها، والأسرارِ الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحوُ ذلك مما لا خير فيه، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستَتْبعٌ لإبدائها كذلك السؤالُ عن تلك التكاليف مستتبعٌ لإيجابها عليهم بطريق التشديد لإساءتهم الأدب، واجترائِهم على المسألة والمراجعة، وتجاوزِهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرّضٍ لكيفيته وكمِّيته، أي لا تُكثروا مُساءلةَ رسول الله ﷺ عما لا يَعْنيكم من نحو تكاليفَ شاقةٍ عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها حسبما أُوحيَ إليه لم تطيقوها، ونحوِ بعضِ أمورٍ مستورة تكرهون بُروزَها.

وذلك مِثلُ ما رُوي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فحمِد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن الله تعالى كتَب عليكم الحجَّ» فقام رجل من بني أسدٍ يقال لهُ: عُكاشةُ بن مِحْصَنٍ[(١)]، وقيل: سُراقة بنُ مالك[(٢)]، فقال: أفي كل عامٍ يا رسول الله؟ فأعرضَ عنه حتى أعاد مسألتَه ثلاثَ مرات، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك وما يُؤْمِنُك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبتْ ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاترُكوني ما تركتكم. فإنما هلَك من كان قبلَكم بكثرة سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوه»[(٣)].

---

(١) هو: عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، من بني غنم، صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، وقُتل في حرب الردة ببزاخة بأرض نجد قتله طليحة بن خويلد الأسدي.
ينظر: التاريخ الكبير (٧/ ٨٦)، الإصابة (٤/ ٤٣٩)، تاريخ خليفة، لخليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دمشق (١٠٢، ١٠٣).

(٢) هو: سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن تيم بن مُدْلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة الكناني المدلجي، يكنى أبا سفيان، صحابي جليل، مات سنة أربع وعشرين، وقيل: إنه مات بعد عثمان.
ينظر أسد الغابة (٢/ ٤١٢) (١٩٥٥).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة: قلت: وأخرج مسلم في صحيحه (٤/ ٤٠٦-نووي) كتاب الحج (١٥)- باب بيان وجوه الإحرام (١٧) (١٢١٦/ ١٤١)، من حديث جابر الطويل، وفيه: فقال سراقة بن مالك بن جعشم: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال «لأبد».
وهو عند البخاري من وجه آخر (٥/ ١٦٣)- كتاب الشركة (٤٧)- باب الاشتراك في الهدي والبدن (١٥) (٢٥٠٥، ٢٥٠٦)، والنسائي (٥/ ١٧٨) كتاب الحج، باب: إباحة فسخ الحج بعمرة لمن لم يسق الهدي (٢٨٠٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٩٢، ٩٩٣) كتاب المناسك، باب: فسخ الحج (٢٩٨٠)، والنسائي من حديث سراقة بن مالك (٥/ ١٧٨)، وأحمد كذلك في المسند (٤/ ١٧٥)- كلاهما من =

ومِثلُ ما رُوي عن أنسٍ وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنه سأل الناسُ رسول الله ﷺ عن أشياءَ حتى أحفَوْه في المسألة[١]، فقام عليه الصلاة والسلام مغْضَبًا خطيبًا فحمِد الله تعالى وأثنى عليه وقال: «سلوني فوالله ما تسألوني عن شيءٍ ما دُمْت في مقامي هذا إلا بيّنتُه لكم» فأشفق أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يَدَيْ أمرٍ قد حضَر، قال أنسٌ رضي الله عنه: فجعلتُ ألتفتُ يمينًا وشِمالًا فلا أجدُ رجلًا إلا وهو لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي، فقام رجل من قريشٍ من بني سَهْمٍ يقال له:

= طريق محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة عن طاوس عن سراقة بن مالك بن جعشم أنه قال.

وحديث عكاشة بن محصن:

فرواه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٨٤) (١٢٨١٠) من حديث أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكره.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٢) لأبي الشيخ وابن مردويه.

وقال ابن حجر: وهو أقرب إلى سياق المصنف دون ما في آخره مما ذكره المصنف.

قلت: وحديث أبي هريرة:

أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ١١١)- كتاب الحج (١٥)- باب فرض الحج مرة في العمر (٧٣) (١٣٣٧/ ٤١٢).

والنسائي (٥/ ١١٠-١١١) كتاب مناسك الحج (٢٤) باب: وجوب الحج (٢٦١٩) وكلاهما لم يسم الرجل السائل وله شاهد من حديث أنس، وابن ماجه (٢/ ٩٦٣) كتاب المناسك (٢٥)- باب فرض الحج (٢) (٢٨٨٥) ولم يسم الرجل أيضًا ورجاله ثقات.

وفي الباب أيضا حديث علي وليس فيه تسمية الرجل:

أخرجه الترمذي (٣/ ١٦٩)- كتاب الحج (٧)- باب ما جاء كم فرض الحج (٨١٤) وقال: حديث علي حديث حسن غريب.

والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٣-٢٩٤).

قلت: ووقع تسمية السائل في حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٥٥) من طريق سليمان بن كثير أبي داود الواسطي قال: سمعت ابن شهاب يحدث عن أبي سنان عن ابن عباس قال: خطبنا يعني رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس كتب عليكم الحج» قال: فقام الأقرع بن حابس...، وأبو داود (٢/ ١٣٩) كتاب المناسك، باب: فرض الحج (١٧٢١)، والنسائي (٥/ ١١١) كتاب مناسك الحج، باب: وجوب الحج (٢٦٢٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٣) كتاب المناسك، باب: فرض الحج (٢٨٨٦)، والحاكم (٢/ ٢٩٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٢٦) كتاب الحج، باب: وجوب الحج مرة واحدة قلت: ووقع في تفسير ابن جرير (٥/ ٨٣) (١٢٨٠٩)، ومن حديث أبي هريرة- وفيه «فقام محصن الأسدي فقال: أفي كل عام ...».

ولعله سقط فإني لم أجد في الصحابة من اسمه «محصن الأسدي».

واسم «عكاشة» كما في الإصابة «عكاشة بن محصن الأسدي».

(١) أحفى في المسألة: ألحَّ في السؤال.

عبدُ اللَّه بنُ حُذافة[١]، وكان إذا لاحىٰ[٢] الرجال يُدْعىٰ إلى غير أبيه وقال: يا نبي الله، مَنْ أبي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أبوك حذافةُ بنُ قيسٍ الزهري»، وقام آخرُ وقال: أين أبي؟ قال عليه الصلاة والسلام: «في النار»، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال: رضِينا بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا نبيًا، نعوذ بالله تعالى من الفتن، إنا حديثو عهدٍ بجاهلية وشِرْكٍ فاعفُ عنا يا رسول الله، فسكن غضبُه عليه الصلاة والسلام[٣].

﴿عفا الله عنها﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتِهم عن المَساءة، بل لأنها في نفسها معصيةٌ مستتبِعةٌ للمؤاخذة وقد عفا عنها، وفيه مِنْ حثّهم على الجِدّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى، وضميرُ (عنها) للمسألة المدلول عليها بـ «لا تسألوا»، أي عفا الله تعالى عن مسائِلكم السالفةِ حيث لم يفرِضْ عليكم الحج في كل عام جزاءً بمسألتكم، وتجاوَزَ عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم، فلا تعودوا إلى مثلها.

وأما جعلُه صفةً أخرى لـ (أشياء) على أن الضمير (لها) بمعنى لا تسألوا عن أشياءَ عفا الله عنها ولم يكلّفْكم إياها فمما لا سبيل إليه أصلًا، لاقتضائِه أن يكون الحجُّ قد فُرض أولًا في كل عامٍ ثم نُسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلومًا للمخاطَبين ضرورةَ أن حقَّ الوصفِ أن يكونَ معلومَ الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعلِه وصفًا له، وكلاهما ضروريُّ الانتفاء قطعًا، على أنه يستدعي اختصاصَ النهْي بمسألة الحجِّ ونحوِها إن سلِمَ وقوعُها، مع أن النظم الكريمَ صريحٌ في أنه مَسوق للنهي عن السؤال عن الأشياء التي يسوؤُهم إبداؤُها، سواءٌ كانت من قبيل الأحكام والتكاليفِ الموجبة لِمَساءتهم بإنشائها وإيجابها بسبب السؤال عقوبةً وتشديدًا كمسألة الحج لولا عفوُه تعالى عنها، أو من قبيل الأمور الواقعةِ قبل السؤال الموجبةِ للمساءة بالإخبار بها كمسألة مَنْ قال: أين أبي؟

---

(١) هو: عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي، القرشي يكنى أبا حذافة، أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة، وكانت فيه دعابة، مات -رضي الله عنه- في خلافة عثمان بن عفان، بمصر.
ينظر الاستيعاب (١/ ٢٦٨)، وأسد الغابة (١/ ٥٩٦)، والإصابة (٤/ ٥٧).

(٢) لاحاه: نازعه وخاصمه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٦٤) كتاب الدعوات، باب: التعوذ من الفتن، برقم (٦٣٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢) كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، برقم (١٣٦/ ٢٣٥٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إن قلتَ تلك الأشياءُ غير مُوجبةٍ للمَساءة ألبتةَ، بل هي محتمِلةٌ لإيجاب المَسرَّة أيضًا، لأن إيجابَها للأولى إن كانت من حيث وجودها فهي من حيث عدمها موجبةٌ للأخرى قطعًا، وليست إحدى الحيثيَتَيْن محقّقةً عند السائل وإنما غَرَضُه من السؤال ظهورُها كيف كانت، بل ظهورُها بحيثية إيجابها للمسرة فلمَ عبر عنها بحيثية ايجابها للمَساءة؟ قلتُ: لتحقيق المنهيِّ عنه كما ستعرِفه مع ما فيه من تأكيد النهْي وتشديدِه، لأن تلك الحيثيةَ هي الموجبةُ للانتهاء والانزجار، لا حيثيةُ إيجابِها للمسرة ولا حيثيةُ تردّدِها بين الإيجابين. إن قيل: الشرطية الثانية ناطقةٌ بأن السؤالَ عن تلك الأشياء الموجبة للمساءة مستلزمٌ لإبدائها ألبتةَ كما مر فلمَ تخلَّفَ الإبداءُ عن السؤال في مسألةِ الحج حيث لم يُفرَضْ في كل عام؟ قلنا: لوقوع السؤال قبل ورودِ النهي، وما ذُكر في الشرطية إنما هو السؤال الواقعُ بعد وروده، إذ هو الموجبُ للتغليظ والتشديد ولا تخلُّفَ فيه، إن قيل: ما ذكرته إنما يتمشى فيما إذا السؤالُ عن الأمور المترددةِ بين الوقوع وعدمِه كما ذُكرَ من التكاليف الشاقةِ.

وأما إذا كان عن الأمور الواقعةِ قبله فلا يكادُ يتسنّى، لأن ما يتعلق به الإبداءُ هو الذي وقع في نفس الأمرِ ولا مرد له، سواء كان السؤالُ قبل النهي أو بعده، وقد يكون الواقع ما يوجب المسرةَ كما في مسألة عبدِ اللّه بنِ حذافةَ، فيكون هو الذي يتعلق به الإبداءُ لا غيرُ، فيتعين التخلُّفُ حتمًا، قلنا: لا احتمالَ للتخلف فضلًا عن التعيُّن، فإن المنهيَّ عنه في الحقيقة إنما هو السؤالُ عن الأشياء الموجبةِ للمَساءة الواقعةِ في نفس الأمر قبل السؤال، كسؤال من قال: أين أبي؟ لا عما يعُمُّها وغيرَها مما ليس بواقع، لكنه محتمِلٌ للوقوع عند المكلفين حتى يلزمَ التخلّفُ في صورةِ عدم الوقوع.

وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة إنما هو النهيُ عن السؤال عن الأشياء التي يوجبُ إبداؤها المساءةَ ألبتة، إما بأن تكون تلك الأشياءُ بعَرَضية الوقوعِ فتُبدَى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبةً وتشديدًا كما في صورة كونِها من قبيل التكاليف الشاقة، وإما بأن تكون واقعةً في نفس الأمر قبل السؤال فتُبدى عنده بطريق الإخبار بها، فالتخلفُ ممتنِعٌ في الصورتين معًا، ومنشأ توهّمِه عدمُ الفرق بين المنهي عنه وبين غيرِه بناءً على عدم امتياز ما هو موجودٌ أو بعَرَضية الوجود من تلك الأشياء في نفس الأمر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم، وفائدةُ هذا الإبهام الانتهاءُ عن السؤال عن تلك الأشياء على الإطلاق حِذارَ إبداء المكروه ﴿**والله غفور حليم**﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لعفوه تعالى أي مبالغٌ في

مغفرة الذنوب والإغضاءِ عن المعاصي، ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخِذْكم بعقوبة ما فَرَط منكم.

﴿**قد سألها قوم**﴾ أي سألوا هذه المسألةَ لكنْ لا عينَها بل مثلَها في كونها محظورةً ومستتْبِعة للوبال، وعدمُ التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بسألها ﴿**ثم أصبحوا بها**﴾ أي بسببها أو بمرجوعها ﴿**كافرين**﴾ فإن بني إسرائيلَ كانوا يستفتون أنبياءَهم في أشياءَ، فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿**ما جعل الله من بَحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام**﴾ ردٌّ وإبطال لما ابتدعه أهلُ الجاهلية حيث كانوا إذا نُتِجَت الناقةُ خمسةَ أبطنٍ آخرُها ذكرٌ بَحروا أُذنها أي شقُّوها وحرَّموا ركوبها ودَرَّها، ولا تُطرد عن ماءٍ ولا عن مرعى، وكان يقول الرجل: إذا قدِمْت من سفري أو برِئْتُ من مرضي فناقتي سائبةٌ، وجعلَها كالبَحيرة في تحريم الانتفاعِ بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبدًا قال: هو سائبة، فلا عقْلَ بينهما ولا ميراث، وإذا ولَدت الشاةُ أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصَلَتْ أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وإذا نُتجت من صُلب الفحل عشَرة أبطُنٍ قالوا: قد حمَى ظهرَه فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من ماء ولا مرعى.

ومعنى (ما جعل) ما شرع وما وضع، ولذلك عُدِّيَ إلى مفعول واحد هو بَحيرة وما عُطف عليها، و(من) مزيدة لتأكيد النفي، فإن الجعلَ التكوينيَّ كما يجيء تارة متعديًا إلى مفعولين وأخرى إلى واحدٍ كذلك الجعلُ التشريعيُّ يجيء مرة متعديًا إلى مفعولين كما في قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة **البيت الحرام قيامًا للناس**﴾ [المائدة، الآية ٩٧] وأخرى إلى واحد كما في الآية الكريمة. ﴿**ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب**﴾ حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون: الله أمرنا بهذا، وإمامُهم عمْروُ بنُ لُحَيٍّ، فإنه أولُ من فعل هذه الأفاعيلَ الباطلة، هذا شأن رؤسائهم وكُبرَائهم.

﴿**وأكثرهم**﴾ وهم أراذلُهم الذين يتبعونهم من معاصري رسول الله ﷺ كما يشهد به سياقُ النظم الكريم ﴿**لا يعقلون**﴾ أنه افتراء باطلٌ حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم فيبقَوْن في أسر التقليد، وهذا بيان لقصور عقولِهم وعجزِهم عن الاهتداء بأنفسهم، وقوله عز وجل: ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي للذين عبَّر عنهم (بأكثرُهم) على سبيل الهداية والإرشاد ﴿**تعالوا إلى ما أنزل الله**﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿**وإلى الرسول**﴾ الذي أُنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتُميِّزوا الحرامَ من الحلال ﴿**قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي

إلى الحق وانقيادِهم للداعي إلى الضلال ﴿**أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون**﴾ قيل: الواو للحال دخلت عليها الهمزة للإنكار والتعجيب، أي أَحَسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم جَهَلةً ضالين؟ وقيل: للعطف على شرطية أخرى مقدّرة قبلها وهو الأظهر، والتقدير أَحَسْبهم ذلك أو أيقولون هذا القولَ لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون[١] شيئًا من الدين ولا يهتدون الصواب؟ ولو كانوا لا يعلمون الخ. وكلتاهما في موقع الحال أي أحسْبُهم ما وجدوا عليه آباؤهم كائنين على كل حال مفروض؟

وقد حُذفت الأولى في الباب حذفًا مطّردًا لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحةً، كيف لا وأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأَنْ يتحقّقَ عند عدمِه أولى كما في قولك: أحسِنْ إلى فلان وإن أساء إليك، أي أحسِنْ إليه إن لم يُسئ إليك وإن أساء، أي أحسن إليه كائنًا على كل حال مفروض، وقد حذفت الأولى لدلالةِ الثانية عليها دَلالة ظاهرةً إذِ الإحسانُ حيث أُمِر به عند المانع، فلأَنْ يُؤْمَرَ به عند عدمه أولى، وعلى هذا السر يدورُ ما في [إنْ ولو][٢] الوصليتين من المبالغة والتأكيد، وجوابُ لو محذوفٌ لدلالة ما سبق عليه، أي لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون حسبُهم ذلك أو يقولون ذلك، وما في (لو) من معنى الامتناع والاستبعاد إنما هو بالنظر إلى زعمهم لا إلى نفس الأمر، وفائدتُه المبالغةُ في الإنكار والتعجيب ببيان أن ما قالوه موجبٌ للإنكار والتعجيب إذا كان كونُ آبائهم جَهلةً ضالين في حيز الاحتمال البعيد، فكيف إذا كان ذلك واقعًا لا ريب فيه؟ وقيل: مآلُ الوجهين واحدٌ، لأن الجملة المقدرة حالٌ فكذا ما عُطف عليها، وأنت خبيرٌ بأن الحالَ على الوجه الأخير مجموعُ الجملتين لا الأخيرةُ فقط، وأن الواو للعطف لا للحال، وقد مر التحقيق في قوله تعالى: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون﴾ [البقرة، الآية ١٧٠]، فتدبر.

﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم**﴾ أي الزموا أمرَ أنفسِكم وإصلاحِها، وقرئ بالرفع على الابتداء أي واجبة عليكم أنفسُكم، وقوله عز وجل: ﴿**لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ إما مجزومٌ على أنه جوابٌ للأمر، أو نهْيٌ مؤكِّد له، وإنما ضُمَّتِ الراء إتباعًا لضمّة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة، إذِ الأصلُ لا يضْرُرْكم، ويؤيده القراءةُ بفتح الراء، وقراءةُ[٣] مَنْ قرأ (لا يضِرْكم) بكسر الضاد وضمها من ضارَه

---

(١) في خ: يعلمون. (٢) في ط: إن وما.

(٣) قرأ بها: النخعي، والحسن.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٢٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٣)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٠).

يَضيرُه، وإما مرفوع على أنه كلامٌ مستأنفٌ في موقع التعليل لما قبله، ويعضُده قراءةُ[١] من قرأ (لا يضيرُكم) ضلالُ مَنْ ضل إذا كنتم مهتدين ولا يُتوهَّمَنَّ أن فيه رخصةً في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن يُنكَر على المنكَر حسْبما تفي به الطاقة، قال عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكرًا فاستطاع أن يغيره فليغيْره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطِعْ فبقلبه»[٢] وقد روي أن الصديقَ رضي الله تعالى عنه قال يومًا على المنبر: «يا أيُّها الناسُ إنَّكُم تقرأون هذه الآيةَ وتضعونها غيرَ موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأَوا منكرًا فلم يغيِّروه عمهم الله بعقاب، فأمُروا بالمعروف وانهَوْا عن المنكر، ولا تغترّوا بقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ . . .إلخ. فيقول أحدكم: عليَّ نفسي، والله لتأمُرنّ بالمعروف وتنهَوُنّ عن المنكر، أو ليستعمِلن الله عليكم شرارَكم فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعُوَنَّ خيارُكم فلا يستجابُ لهم»[٣].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من قوم عُمل فيهم منكرٌ أو سُن فيهم قبيحٌ فلم يغيِّروه ولم ينكروه إلا وحقٌّ على الله تعالى أن يعُمَّهم بالعقوبة جميعًا ثم لا يستجابُ لهم»[٤]، والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسَّرون على الكفرة، وكانوا يتمنَّوْن إيمانهم وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعَوون عنه بالأمر والنهي، وقيل: كان الرجل إذا أسلم لاموُه وقالوا: سفّهتَ آباءك وضلّلتهم أي نسبتهم إلى السَّفاهة والضلال، فنزلت تسليةً له بأن ضلال آبائه لا يضرُّه ولا يَشينُه.

﴿إلى الله﴾ لا إلى أحد سواه **﴿مرجعكم﴾** رجوعُكم يوم القيامة **﴿جميعًا﴾** بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرِهم **﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** في الدنيا من أعمال الهداية والضلال، فهو وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحدًا لا يؤاخَذُ بعمل غيره.

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٧)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٧٨/ ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٧) وأبو داود (٢/ ٥٢٥) كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، برقم (٤٣٣٨)، والترمذي (٥/ ٢٥٦) كتاب تفسير القرآن، باب: سورة المائدة، برقم (٣٠٥٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٣٨) برقم (١١١٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧) كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٤٠٠٥)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٩/ ٢٩).

من أحكام الوصية

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم إثْرَ بيانِ الأحوال المتعلقةِ بأمور دينهم، وتصديرُه بحرفي النداءِ والتنبيه لإظهار كمالِ العناية بمضمونه، وقولُه عز وجل: ﴿شهادةُ بينكم﴾ بالرفع والإضافة إلى الظرف توسعًا، إما باعتبار جَرَيانِها بينهم، أو باعتبار تعلّقِها بما يجري بينهم من الخصومات، مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿إذا حضر أحدَكم الموتُ﴾ أي شارفه وظهرت علائمُه، ظرفٌ لها، وتقديمُ المفعول لإفادة كمالِ تمكن الفاعل عند النفْس وقت ورودِه عليها، فإنه أدخلُ في تهوين أمر الموت، وقولُه تعالى: ﴿حين الوصية﴾ بدلٌ منه لا ظرف للموت كما تُوُهِّم، ولا لحضوره كما قيل، فإن في الإبدال تنبيهًا على أن الوصية من المَهَمّات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهَلَ عنها، وقوله تعالى: ﴿اثنان﴾ خبرٌ للمبتدأ بتقدير المضاف، أي شهادةُ بينكم حينئذ شهادةُ اثنين، أو فاعلُ (شهادةُ بينكم) على أن خبرها محذوف، أي فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان، وقرئ[1] (شهادةٌ) بالرفع والتنوين، والإعرابُ كما سبق، وقرئ[2] (شهادةً) بالنصب والتنوين على أن عاملها المضمرَ هو العامل في اثنان أيضًا أي لِيُقِمْ شهادةً بينكم اثنان ﴿ذوا عدل منكم﴾ أي من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له، وأقرب إلى تحرِّي ما هو أصلح له. وقيل: من المسلمين وهما صفتان لاثنان.

﴿أو آخران﴾ عطف على اثنان تابع له فيما ذُكر من الخبرية والفاعلية، أي أو شهادةُ آخَرَيْن أو أن يشهد بينكم آخران، أو ليقم (شهادةً بينكم) آخران، وقوله تعالى: ﴿من غيركم﴾ صفةٌ لـ (آخَران) أي كائنان من غيركم أي من الأجانب، وقيل: من أهل الذمة، وقد كان ذلك في بدء الإسلام لعزة وجود المسلمين لا سيما في السفر، ثم نسخ. وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوَيْ عدل منكم﴾ [الطلاق، الآية ٢].

﴿إن أنتم﴾ مرفوعٌ بمُضْمرٍ يفسرُه ما بعده تقديره إن ضربتم، فلما حُذف الفعل

---

(١) قرأ بها: الشعبي، والحسن، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٥٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٠).

(٢) قرأ بها: السلمي، والحسن، والأعرج، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٥٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٠).

انفصل الضمير، وهذا رأيُ جمهور البَصْريين، وذهب[١] الأخفش والكوفيون إلى أنه مبتدأٌ بناءً على جواز وقوعِ المبتدأ بعد إنْ الشرطية كجواز وقوعِه بعد إذا، فقوله تعالى: ﴿ضربتم في الأرض﴾ أي سافرتم فيها، لا محل له من الإعراب عند الأولين لكونه مفسِّرًا، ومرفوع على الخبرية عند الباقين.

وقوله تعالى: ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ عطفٌ على الشرطية، وجوابُه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي إن سافرتم فقاربَكم الأجلُ حينئذ، وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام مَنْ يتولىٰ أمرَ الشهادة كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخرانِ أو فاستشهدوا آخَرَيْن أو فالشاهدانِ آخرانِ كذا قيل، والأنسب أن يقدَّر عينُ ما سبق، أي فآخرانِ على معنى شهادةُ بينِكم شهادةُ آخَرَيْن، أو فأَنْ يشهَدَ آخران، على الوجوه المذكورة ثمَّةَ، وقوله تعالى: ﴿تحبِسونهما﴾ استئنافٌ وقعَ جوابًا عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل: فكيف نصنع إنِ ارْتبْنا بالشاهدين؟ فقيل: تحبِسونهما وتَصْبِرونهما للتحليف.

﴿من بعد الصَّلاةِ﴾ وقيل: هو صفة لـ (آخران)، والشرط بجوابه المحذوف اعتراضٌ فائدته الدلالة على أن اللائق إشهادُ الأقارب أو أهلِ الإسلام، وأما إشهادُ الآخَرين فعند الضرورة المُلجئةِ إليه، وأنت خبير بأنه يقتضي اختصاصَ الحبس[٢] بالآخرين مع شموله للأولين أيضًا قطعًا، على أن اعتبارَ اتصافهما بذلك يأباه مقامُ الأمر بإشهادهما، إذ مآلُه فآخرانِ شأنُهما الحبسُ[٣] والتحْليف، وإن أمكن إتمام التقريب باعتبار قَيدِ الارتياب بهما كما يفيده الاعتراضُ الآتي، والمرادُ بالصلاة صلاةُ العصر، وعدمُ تعيينها لتعيُّنِها عندهم بالتحْليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادُمِ ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع أهل الأديان يعظّمونه ويجتنبون فيه الحلِفَ الكاذب.

وقد روي أن النبي - عليه الصلاةُ والسلام - وقتئذ حلّف من حلف كما سيأتي، وقيل: بعد أي صلاة كانت لأنها داعيةٌ إلى النطق بالصدق، وناهيةٌ عن الكذِب والزور ﴿إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت، الآية ٤٥].

﴿فيقسمان بالله﴾ عطفٌ على تحبسونهما وقوله تعالى: ﴿إن ارتبتم﴾ شرطية

---

(١) في خ: ومذهب.
(٢) في خ: الجنس.
(٣) في خ: الجنس.

محذوفةُ الجواب لدلالة ما سبق من الحبس والإقسام عليه، سيقت من جهته تعالى معترِضةً بين القسمَ وجوابِه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب، أي إن ارتاب بهما الوارِثُ منكم بخيانةٍ وأخذِ شيءٍ من التركة فاحبِسوهما وحلِّفوهما بالله.

وقولُه تعالى: ﴿لا نشتري به ثمنًا﴾ جوابٌ للقسم، وليس هذا من قبيل ما اجتمع فيه قَسَمٌ وشرط، فاكتُفِيَ بذكر جوابِ سابقِهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبًا، فإن ذلك إنما يكون عند سدِّ جواب السابق مَسدَّ جوابِ اللاحق لاتحاد مضمونها كما في قولك: والله إن أتيتَني لأكرمنك، ولا ريب في استحالة ذلك هاهنا لأن القسم وجوابه كلاهما [منفصل][1] وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى، والاشتراءُ هو استبدال السلعة بالثمن أي أخذُها بدلًا منه لا بذلُه لتحصيلها كما قيل، وإن كان مستلزِمًا له، فإن المعتبرَ في عقد الشراء ومفهومِه هو الجلبُ دون السلب المعتبر في عقد البيع، ثم استُعير لأخذ شيءٍ بإزالة ما عنده عينًا كان أو معنى على وجه الرغبة في المأخوذ والإعراض عن الزائل، كما هو المعتبر في المستعار منه حسبما مر تفصيلُه في تفسير قوله تعالى:

﴿أولئك الذين اشترَوُا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة، الآية ١٦. والآية ١٧٥] والضمير في (به) لله، والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلًا من الله، أي مِنْ حُرمته عَرَضًا من الدنيا بأن نهتِكَها ونُزيلَها بالحلف الكاذب، أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال، وقيل: الضمير للقسم، فلا بد من تقدير مضافٍ ألبتةَ، أي لا نستبدل بصحة القسم بالله، أي لا نأخذ لأنفسنا بدلًا منها عرَضًا من الدنيا بأن نُزيلَ عنه وصفَ الصدق ونصفَه بالكذب، أي لا نحلف كاذبين كما ذكر وإلا فلا سدادَ للمعنى، سواءٌ أريد به القسمُ الصادقُ أو الكاذب، أما إن أريدَ به الكاذبُ فلأنه يفوِّتُ حينئذ ما هو المعتبرُ في الاستعارة من كون الزائل شيئًا مرغوبًا فيه عند الحالف كحُرمة اسم الله تعالى ووصفِ الصحة والصدق في القسم، ولا ريب في أن القسم الكاذبَ ليس كذلك، وأما إن أريد به الصادقُ فلأنه، وإن أمكن أن يُتوسَّلَ باستعمالِه إلى عَرَض الدينا، كالقسم الكاذب، لكن لا محذور فيه، وأما التوسلُ إليه بترك استعماله فلا إمكان له هاهنا حتى يصِحَّ التبروءُ منه، وإنما يُتوسَّلُ إليه باستعمال القسم الكاذب، وليس استعمالُه من لوازم ترْكِ استعمالِ الصادق ضرورةَ جوازِ تركِهما معًا حتى يُتصوَّرَ جعلُ ما أُخذَ

(١) سقط في ط.

باستعمالِه مأخوذًا بتركِ استعمالِ الصادق كما في صورة تقديرِ المضاف، فإن إزالةَ وصْفِ الصدق عن القسم مع بقاء الموصوفِ مستلزِمةٌ لثبوت وصفِ الكذِب له ألبتة فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿ولو كان﴾ أي المقسَمُ له المدلولُ عليه بفحوى الكلام ﴿ذا قربى﴾ أي قريبًا منا، تأكيدٌ لتبرُّئهم من الحلِف كاذبًا ومبالغةٌ في التنزه عنه، كأنهما قالا: لا نأخذُ لأنفسنا بدلًا من حُرمة اسمه تعالى مالًا ولو انضمَّ إليه رعايةُ جانبِ الأقرباء، فكيف إذا لم يكنْ كذلك، وصيانةُ أنفسِهما وإن كانت أهمَّ من رعاية الأقرباء لكنها ليست ضميمةً للمال، بل هي راجعة إليه، وجواب (لو) محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي لا نشتري به ثمنًا، والجملة معطوفةٌ على أخرى مثلِها، كما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿ولو أعجبك﴾ [المائدة، الآية ١٠٠] . . . إلخ.

وقوله عز وجل: ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ أي الشهادة التي أمرَنا الله تعالى بإقامتها، معطوفٌ على (لا نشتري به) داخلٌ معه في حكم القسم، وعن الشعبي أنه وَقَفَ على شهادة، ثم ابتدأ (آلله) بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه بغير مد، كقولهم: الله لأفعلن ﴿إنا إذًا لمن الآثمين﴾ أي إن كتمناها، وقرئ[1] (لمِلاثِمين) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدخال النون فيها.

﴿فإن عثر﴾ أي اطُّلع بعد التحليف ﴿على أنهما استحقا إثمًا﴾ حسبما اعترفا به بقولهما: إنا إذًا لمن الآثمين، أي فعلا ما يوجبُ إثمًا من تحريفٍ وكَتم بأن ظهر بأيديهما شيءٌ من التركة وادَّعيا استحقاقَهما له بوجهٍ من الوجوه كما وقع في سبب النزول حسبما سيأتي ﴿فآخرانِ﴾ أي رجلان آخران، وهو مبتدأ خبرُه ﴿يقومان مقامهما﴾ ولا محذورَ في الفصل بالخبر بين المبتدأ وبين وَصفِه الذي هو الجارُّ والمجرور بعده، أي يقومان مَقام اللذين عُثر على خيانتهما، وليس المراد بمقامهما مقامَ أداءِ الشهادة التي تولَّياها ولم يؤدِّياها كما هي، بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لإظهار الحق وإبراز كذِبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما في أيديهما ﴿من الذين استَحق﴾ على البناء للفاعل على قراءة عليٍّ وابنِ عباس وأُبيٍّ رضي الله عنهم، أي من أهل البيت الذين استحق ﴿عليهم الأَوْليان﴾ من بينهم، أي الأقربانِ إلى الميت، الوارثانِ له، الأحقانِ بالشهادة أي باليمين كما ستعرفه، ومفعولُ (استحق) محذوفٌ أي استحقا عليهم أن يجرِّدوهما للقيام بها، لأنها حقُّهما ويُظهروا بهما كذِبَ الكاذبَيْن، وهما في الحقيقة الآخرانِ

---

(١) قرأ بها: الأعمش، وابن محيصن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦٩).

القائمان مَقام الأَوَّلَيْن على وضع المُظْهر مقام المُضْمَر.

وقرئ[١] على البناء للمفعول وهو الأظهر، أي من الذين استُحق عليهم الإثمُ أي جُنيَ عليهم، وهم أهلُ الميت وعشيرتُه، فالأَوْليان مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: الأوليان، أو بدلٌ من الضمير في (يقومان) أو من (آخران) وقد جوِّز ارتفاعَه باستَحق على حذف المضاف، أي استحقّ عليهم انتدابُ الأَوَّلَيْن منهم للشهادة، وقرئ[٢] (الأَوَّلين) على أنه صفة للذين إلخ، مجرور أو منصوب على المدح، ومعنى الأولية التقدمُ على الأجانب في الشهادة لكونهم أحقَّ بها، وقرئ[٣] (الأولَيْن) على التثنية وانتصابُه على المدح، وقرئ[٤] (الأولان).

﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على يقومان ﴿لشهادتنا﴾ المرادُ بالشهادة اليمينُ كما في قوله تعالى: ﴿فشهادةُ أحدِهم أربعُ شهاداتٍ بالله﴾ [النور، الآية ٦] أي لَيَمينُنا على أنهما كاذبان فيما ادَّعيا من الاستحقاق مع كونِها حقةً صادقةً في نفسها ﴿أحقُّ﴾ بالقبول ﴿من شهادتهما﴾ أي من يمينهما مع كونها كاذبةً في نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقُهما للإثم، ويمينُنا منزهةٌ عن الرَّيْب والرِّيبة، فصيغةُ التفضيلِ مع أنه لا حقيةَ في يمينهما رأسًا إنما هي لإمكان قَبولِها في الجُملة باعتبار احتمالِ صدقِهما في

---

(١) قرأ بها: حمزة، أبو عمرو، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٦)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣٣)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٠)، والتيسير للداني ص (١٠٠)، وتفسير الطبري (١١/ ١٩٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٢٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٥٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٢) قرأ بها: حمزة، وأبو بكر، ويعقوب، وخلف، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٠)، وتفسير الطبري (١١/ ١٩٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٥٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٥)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٥٧)، والمعاني للفراء (١/ ٣٢٤)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٣) قرأ بها: ابن سيرين.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٥).

(٤) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٢٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥)، وتفسير الطبري (١١/ ١٩٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٥٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٠).

ادعاء تملُّكِهما لما ظهر في أيديهما ﴿وما اعتدينا﴾ عطف على جواب القسم أي ما تجاوزنا فيها الحقَّ أو ما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما ﴿إنا إذًا لمن الظالمين﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، أي إنا إنِ اعتدَيْنا في يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى، أو لمن الواضعين الحقَّ في غير موضعه، ومعنى النظم الكريم أن المُحتَضَرَ ينبغي أن يُشهدَ على وصيته عدلين من ذوِي نسبِه أو دينه، فإن لم يجدْهما بأن كان في سفر فآخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتيابٌ بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئًا بالتغليظ في الوقت، فإنِ اطُّلعَ بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شيءٌ من التركة، وادعيا تملُّكه من جهة الميت حلفَ الورثةُ وعُمل بأيْمانهم.

ولعل تخصصَ[1] الاثنين لخصوص الواقعة، فإنه رُوي (أن تميمَ بنَ أوسٍ الداري[2] وعديَّ بنَ يزيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصْرانيين ومعهما بديلُ بنُ أبي مريم مولى عمْرو بنِ العاص وكان مسلمًا مهاجرًا، فلما قدِموا الشامَ مرضَ بديلٌ فكتب كتابًا فيه جميعُ ما معه وطرحه في متاعِه ولم يخبرْهما بذلك، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعَه إلى أهله، ومات، ففتشاه، فوجدا فيه إناءً من فضة وزْنُه ثلاثمائةِ مثقالٍ منقوشًا بالذهب، فغيَّباه ودفعا المتاعَ إلى أهله، فأصابوا فيه الكتاب، فطلبوا منهما الإناءَ فقالا: ما ندري، إنما أوصىٰ إلينا بشيءٍ وأمرَنا أن ندفعَه إليكم ففعلنا، وما لنا بالإناء من علم، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ [المائدة، الآية ١٠٦] الآية، فاستحلَفَهما بعد صلاة العصر عند المِنْبر بالله الذي لا إلٰه إلا هو أنهما لم يخْتانا شيئًا مما دَفَع ولا كتما فحلَفا على ذلك فخلَّى عليه الصلاة والسلام سبيلهما، ثم إن الإناءَ وُجد بمكةَ فقال مَنْ بيده: اشتريتُه من تميم وعدي.

وقيل: لما طالت المدةُ أظهراه فبلغ ذلك بني سهم فطلبوه منهما فقالا: كنا اشتريناه من بديل، فقالوا: ألم نقلْ لكما: هل باع صاحبُنا من متاعه شيئًا، فقلتما:

---

(١) في خ: تخصيص.

(٢) هو: تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية. أسلم سنة تسع، وسكن بيت المقدس. له ثمانية عشر حديثًا، انفرد له مسلم بحديث. روى عنه: أنس، وعطاء بن يزيد، قال ابن سيرين: جمع القرآن، وكان يختم في ركعة، وقال أبو نعيم: أول من سرج في المساجد تميم. توفي سنة أربعين.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٤٥)، وتاريخ الطبري الكبير (١/ ١٥٠)، والثقات (٣/ ٣٩).

لا؟ قالا: ما كان لنا بينةٌ فكرِهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله عز وجل: ﴿فإنْ عُثِرَ﴾ [المائدة، الآية ١٠٧] الآية، فقام عمروُ بنُ العاص والمطَّلِبُ بنُ أبي وداعةَ السَّهْميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كَذَبا وخانا، فدفع الإناءَ إليهما). وفي رواية إلى أولياء الميت[١].

واعلم أنهما إن كانا وارثين (لبديل) فلا نسخ إلا في وصف اليمين، فإن الوارثَ لا يُحَلَّفُ على البَتات، وإلا فهو منسوخ ﴿ذلك﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذُكر مستتبعٌ للمنافع واردٌ على مقتضىٰ الحِكمة والمصلحة، أي الحُكم الذي تقدم تفصيلُه ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي أقربُ أن يؤدِّيَ الشهودُ الشهادةَ عن وجهها الذي تحمَّلوها عليه من غير تحريفٍ ولا خيانة خوفًا من العذاب الأخروي، وهذه كما ترى حكمةُ شَرْعيةِ التحليفِ بالتغليظ المذكور.

وقوله تعالى: ﴿أو يخافوا أن تُردَّ أيمان بعد أيمانهم﴾ بيانٌ لحِكمة شرعيةِ ردِّ اليمين على الورثة، معطوفٌ على مقدَّرٍ يْنبئ عنه المقامُ كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذابَ الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاحِ على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعملِ بأَيْمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه، فأيُّ الخوفين وقع حصل المقصِدُ الذي هو الإتيانُ بالشهادة على وجهها. وقيل: هو عطفٌ على (يأتوا) على معنى أن ذلك أقربُ إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أن يخافوا الافتضاحَ برد اليمين على الورثة فلا يحلِفوا على موجب شهادتِهم إنْ لم يأتوا بها على وجهها، فيظهرُ كذبُهم بنكولهم، وأما ما قيل من أن المعنى أن ذلك أقربُ إلى أحد الأمرين اللذين أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ، وهو أداءُ الشهادة على الصدق، والامتناعُ عن أدائها على الكذب، فيأباه المقام، إذ لا

(١) أخرجه الترمذي (٥/٢٥٨-٢٥٩) كتاب التفسير: باب (ومن سورة المائدة) حديث (٣٠٥٩) من طريق محمد بن إسحاق عن أبي النضر عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري به.
وقال الترمذي:هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ولا نعرف لسالم أبي النضر المدني رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه. ا هـ.
ثم أخرجه الترمذي (٥/٢٥٩) رقم (٣٠٦٠) من طريق عبد الملك بن سعيد بن جبير عن ابن عباس به مختصرًا.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

تعلّق له بالحادثة أصلًا ضرورةَ أن الشاهدَ مضطرٌّ فيها إلى الجواب، فالامتناعُ عن الشهادة الكاذبة مستلزمٌ للإتيان بالصادقة قطعًا، فليس هناك أمران أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ حتى يَتوسَّط بينهما كلمةُ (أو) وإنما يتأتى ذلك في شهودٍ لم يُتَّهموا بخيانة، على أن إضافةَ الامتناع عن الشهادة الكاذبة إلى خوف رد اليمين على الورثة ونِسبةَ الإتيانِ بالصادقة إلى غيره مع أن ما يقتضي أحدُهما يقتضي الآخَرُ لا محالة تحكُّمٌ بحْتٌ فتأمل ﴿واتقوا الله﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها هذا الحكمُ ﴿واسمعوا﴾ ما تؤمرون به كائنًا ما كان سمعَ طاعةٍ وقَبول ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة، أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعُهم.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

الرسل وعهدة الرسالة

﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ نُصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من

الملابسة، فإن مدارَ البداية ليس ملابسةَ الظرفية والمظروفية ونحوِها فقط، بل هو تعلّقٌ ما، مُصحِّحٌ لانتقال الذهن من المُبدلَ منه إلى البَدَل بوجه إجماليٍّ كما فيما نحن فيه، فإن كونَه تعالى خالقَ الأشياء كافةً مالكَ يوم الدين خاصةً - كافٍ في الباب، مع أن الأمرَ بتقوى الله تعالى يتبادر منه إلى الذهن أن المَتَّقىٰ أيُّ شأنٍ من شؤونه وأيُّ فعلٍ من أفعاله.

وقيل: هناك مضافٌ محذوفٌ به يتحقق الاشتمال، أي اتقوا عذابَ الله فحينئذ يجوزُ انتصابُه منه بطريق الظرفية، وقيل: منصوب بمُضْمر معطوفٍ على (اتقوا) وما عُطف عليه، أي واحذروا أو اذكروا يوم إلخ، فإن تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضْطرُّهم إلى تقوى الله عز وجل وتلقِّي أمره بسمع الإجابة والطاعة، وقيل: هو ظرف لقوله تعالى: ﴿لا يهدي﴾، أي لا يهديهم يومئذ إلى طريق الجنة كما يهدي إليه المؤمنين.

وقيل: منصوب بقوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾ بحذف مضاف، أي اسمعوا خبرَ ذلك اليوم.

وقيل: منصوب بفعل مؤخر قد حُذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانِه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامّة التامة والدواهي العامة، كأنه قيل: (يوم يجمع الله الرسل فيقول)... إلخ، يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه نطاقُ المقال، وإظهارُ الاسمِ الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل، وتخصيصُ الرسل بالذكرِ ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم، كيف لا و﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناسُ وذلك يوم مشهود﴾ [هود، الآية: ١٠٣] وقد قال الله تعالى: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناس بإمامهم﴾ [الإسراء، الآية: ٧١] بل لإبانة شرفهم وأصالتهم، والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرِهم بناءً على ظهور كونهم أتباعًا لهم، ولإظهار سقوطِ منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام في سلك جمع الرسل، كيف لا وهم عليهم السلام يُجمعون على وجه الإجلال، وأولئك يسحبون على وجوههم بالأغلال!

﴿فيقول﴾ لهم مشيرًا إلى خروجهم عن عُهدة الرسالة كما ينبغي حسبما يُعربُ عنه تخصيصُ السؤال بجواب الأمم إعرابًا واضحًا، وإلا لصدر الخطاب بأن يقال: هل بلغتم رسالاتي؟ وماذا في قوله عز وجل: ﴿ماذا أُجبتم﴾ عبارةٌ عن مصدر الفعل، فهو نصْبٌ على المصدرية أيْ أيَّ إجابةٍ أُجبتم من جهة أُممِكم إجابةَ قَبول أو إجابةَ رد؟ وقيل: عبارة عن الجواب فهو في محل النصب بعد حذف الجارِّ عنه أيْ بأيِّ جوابٍ أجبتم؟ وعلى التقديرين ففي توجيه السؤال عما صدرَ عنهم وهم شهودٌ إلى الرسل عليهم السلام كسؤال الموؤودة بمَحْضرٍ من الوائد، والعدولِ عن إسناد الجواب إليهم بأن يقال: ماذا أجابوا؟ من الأنباء عن كمال تحقيرِ شأنهم وشدة الغيظ والسُّخط عليهم ما لا يخفى.

﴿قالوا﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سَوْق الكلام كأنه قيل: فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك؟ فقيل: يقولون: ﴿لا علم لنا﴾ وصيغةُ الماضي للدلالة على التقرر والتحقق كما في قوله تعالى: ﴿ونادى أصحابُ الجنة﴾ [الأعراف، الآية: ٤٤] ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ [الأعراف، الآية: ٤٨] ونظائرِهما، وإنما يقولون ذلك تفويضًا للأمر إلى علمه تعالى وإحاطتِه بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الأهوال ومعاناة الهموم والأوجال وعَرْضًا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعتِه.

﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تعليل لذلك، أي فتعلَمُ ما أجابوا وأظهروا لنا وما لم نعلمْه مما أضمَروه في قلوبهم، وفيه إظهارٌ للشَّكاةِ وردّ للأمر إلى علمه تعالى بما لَقُوا من قبلهم من الخطوب، وكابدوا من الكروب، والتجاءٌ إلى ربهم في الانتقام منهم، وقيل: المعنى لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة ورُدَّ ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرُهم؟

وأنت خبير بأن مُرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا في زمانهم على الحق ثم صاروا كَفَرة، وعن ابن عباس ومجاهد والسُدّي رضي الله عنهم أنهم يفزَعون من أول الأمر ويذهَلون عن الجواب ثم يُجيبون بعدما ثابت إليهم عقولُهم بالشهادة على أممهم، ولا يلائمه التعليل المذكور. وقيل: المرادُ به المبالغةُ في تحقيق فضيحتهم، وقرئ[1] (علامَ الغيوب) بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح، على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿أنت﴾ أي إنك أنت المنعوتُ بنعوتِ كمالِك المعروفُ بذلك.

﴿إذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم﴾ شروعٌ في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيلِ إثرَ بيانِ ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأُنموذج لتفاصيلِ أحوال الباقين، وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلًا من بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هَوْل ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلامُ متعلِّقٌ بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعِيتْ عليهم في السورة الكريمة جناياتُهم، فتفصيلُه أعظمُ عليهم وأجلبُ لحسرتهم وندامتِهم وأفتُّ في أعضادهم وأدخَلُ في صرفهم عن غيّهم وعنادهم، و(إذ) بدلٌ من (يومَ يجمع الله) إلخ، وصيغة الماضي لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع، وإظهار الاسم الجليل

---

(١) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧١)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٤).

في مقام الإضمار لما مر من المبالغة في التهويل [وتربية المهابة]. وكلمة على في قوله تعالى: ﴿اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ متعلقة بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، أي اذكر إنعامي عليكما، أو بمحذوفٍ هو حالٌ منها إن جُعلت اسمًا، أي اذكر نعمتي كائنة عليكما، وليس المرادُ بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة في سلك التعديد تكليفَه عليه السلام شكرَها والقيامَ بمواجبها ولاتَ حينَ تكليف، مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في أوله أيَّ خروج، بل إظهارَ أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتدادًا بها وتلذذًا بذكرها على رؤوس الأشهاد، لتكون حكايةُ ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخًا ومزجرةً للكفرة المختلفين في شأنه عليه السلام إفراطًا وتفريطًا وإبطالًا لقولهما جميعًا.

﴿إذ أيدتك﴾ ظرف لنعمتي أي اذكر إنعامي عليكما وقت تأييدي لك أو حال منها، أي اذكرها كائنة وقت تأييدي لك، وقرئ[1] (آيدتُك) والمعنى واحد أي قويتك ﴿بروح القدس﴾ بجبريلَ عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذي يَحييٰ به الدين وإضافته إلى القدس لأنه سبب الطهر عن أوضار الآثام، أو يَحييٰ به الموتى أو النفوسُ حياةً أبدية، وقيل: الأرواحُ مختلفةُ الحقائق، فمنها طاهرةٌ نورانية، ومنها خبيثةٌ ظُلمانية، ومنها مشرقةٌ، ومنها كَدِرةٌ، ومنها حُرة، ومنها نذْلة، وكان روحُه عليه الصلاة والسلام طاهرةً مشرقةً نورانية عُلوية، وأيًّا ما كان فهو نعمة عليهما.

﴿تكلم الناس في المهد وكهلًا﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف، وذكر تكليمه عليه السلام في حال الكهولة لبيان أنَّ كلامه عليه السلام في تينك الحالتين كان على نسق واحد بديعٍ صادرًا عن كمال العقل مقارِنًا لرزانة الرأي والتدبير، وبه استُدل على أنه عليه السلام سينزِل من السماء لِما أنه عليه السلامُ رفع قبل التكهُّل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنةً، ومكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله تعالى إليه ﴿وإذ علمتك الكتاب﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إذ أيدتك﴾ منصوب بما نصبه، أي اذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك الكتاب ﴿والحكمة﴾ أي جنسهما ﴿والتوراة والإنجيل﴾ خُصا بالذكر مما تناوله الكتابُ والحكمةُ إظهارًا لشرفهما، وقيل: الخطُّ والحكمةُ الكلامُ المُحكَم الصواب.

---

(١) قرأ بها: مجاهد، وابن محيصن.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٨)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢١٤)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧١).

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أي تُصوِّر منه هيئةً مماثلة لهيئة الطير ﴿بإذني﴾ بتسهيلي وتيسيري، لا على أن يكون الخلقُ صادرًا عنه عليه السلام حقيقة، بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرةِ الأسباب مع كون الخلق حقيقةً لله تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فتنفخ فيها﴾ أي في الهيئة المصوَّرة ﴿فتكون﴾ أي تلك الهيئة ﴿طيرًا بإذني﴾ فإن إذنه تعالى لو لم يكن عبارةً عن تكوينه تعالى للطير بل عن محضِ تيسيره مع صدور الفعل حقيقةً عما أُسند إليه لكان هذا تكوّنًا من جهة الهيئة، وتكريرُ قوله: ﴿بإذني﴾ في الطير مع كونه شيئًا واحدًا، للتنبيه على أن كلاًّ من التصوير والنفخ أمرٌ معظّم بديعٌ لا يتسنى ولا يترتب عليه شيء إلا بإذنه تعالى ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني﴾ عطف على (تخلُق).

﴿وإذ تُخرج الموتى بإذني﴾ عطف على (إذ تخلق) أعيد فيه إذْ، لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صارت رميمًا، معجزةً باهرةً ونعمةً جليلة حقيقةً بتذكير وقتها صريحًا، قيل: أخرج سامَ بنَ نوح ورجلين وامرأةً وجاريةً، وتكرير قوله: ﴿بإذني﴾ في المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارقَ ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزةً له ونعمةً خصَّها به، وأما ذكرُه في سورة آلِ عِمرانَ مرتين لما أن ذلك موضعُ الإخبار، وهذا موضعُ تعداد النعم ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ عطف على (إذ تخرج) أي منعتُ اليهودَ الذين أرادوا بك السوء عن التعرُّض لك ﴿إذ جئتهم بالبينات﴾ بالمعجزات الواضحة مما ذُكر وما لم يُذكر، كالإخبار بما يأكلون وما يدّخِرون في بيوتهم ونحوِ ذلك، وهو ظرفٌ لكففت، لكن لا باعتبار المجيء بها فقط بل باعتبار ما يعقبُه من قوله تعالى: ﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتيالَه عليه السلام المُحوِجَ إلى الكف، أي كففتُهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئِك إياهم بالبينات، وإنما وُضع موضعَ ضميرِ (هم) الموصولُ لذمهم بما في حيِّز الصلة، فكلمة (من) بيانية، وهذا إشارة إلى ما جاء به، والتذكير لأن إشارتهم إلى ما رأَوْه من نفس المسمّى من حيث هو، أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات، وقرئ[1] (إن هذا إلا ساحر مبين) فهذا حينئذ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٠)، والتيسير للداني ص (١٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢١٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٦٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٣٩)، والسبعة =

إشارة إلى عيسى عليه السلام.

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ عطف على ما قبله من أخواتها الواقعةِ ظروفًا للنعمة التي أُمر بذكرها، وهي وإن كانت في الحقيقة عينُ ما يُفيده الجملُ التي أُضيفت إليها تلك الظروفُ من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائرِ الخوارق المعدودة، لكنها لمغايَرَتها لها بعنوانٍ منْبِئ عن غاية الإحسان أُمر بذكرها من تلك الحيثية، وجُعلت عاملةً في تلك الظروف لكفاية المغايَرَة الاعتبارية في تحقيق ما اعتُبر في مدلول كلمةِ (إذ) من تعدد النسبة، فإنه ظرف موضوعٌ لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه إحداهما معلومةُ الوقوع فيه للمخاطَب دون الأخرى، فيُراد إفادةُ وقوعها أيضًا له، فيضاف إلى الجملة المفيدة للنسبة الأولى، ويجعل ظرفًا معمولًا للنسبة الثانية، ثم قد تكون المغايَرةُ بين النسبتين بالذات كما في قولك: اذكُرْ إحساني إليك إذ أحسنتَ إليّ. تريد تنبيهَ المخاطَب على وقوع[1] إحسانه إليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات، وقد تكون بالاعتبار كما في قولك: اذكر إحساني إليك إذ منعتُك من المعصية، تريد تنبيهه على كون منعه منها إحسانًا إليه لا على إحسانٍ آخرَ واقعٍ حينئذ.

ومن هذا القبيل عامةُ ما وقع في التنزيل من قوله تعالى: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا﴾ [المائدة، الآية ٢٠] الآية، وقولِه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديَهم فكفّ أيديَهم عنكم﴾ [المائدة، الآية ١١] إلى غير ذلك من النظائر. ومعنى إيحائه تعالى إليهم أمرُه تعالى إياهم في الإنجيل على لسانه عليه السلام. وقيل: إلهامُه تعالى إياهم كما في قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ [القصص، الآية ٧] و(أنْ) في قوله تعالى: ﴿أن آمنوا بي وبرسولي﴾ مفسِّرة لما في الإيحاء من معنى القول، وقيل: مصدرية، وإيرادُه عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه السلام كأنه قيل: آمنوا بوحدانيتي في الألوهية والربوبية وبرسالة رسولي ولا تُزيِّلوه عن حيِّزه حطًّا ولا رفعًا.

وقوله تعالى: ﴿قالوا﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من سَوْق الكلام كأنه قيل: فماذا قالوا حين أوحِيَ إليهم ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿آمنا﴾ أي بما ذُكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسولِه كما يُؤذِنُ به قولهم: ﴿وأشهد بأننا مسلمون﴾ أي مخلِصون في

= لابن مجاهد ص (٢٤٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٦١)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(١) زاد في خ: إحسانك إليه وقت وقوع.

إيماننا، مِنْ أسلم وجهَه لله، وهذا القولُ منهم، بمقتضىٰ وحيه تعالى وأمرِه لهم بذلك، نعمةٌ جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام، وكل ذلك نعمةٌ على والدته أيضًا. رُوي أنه عليه السلام لما علم أنه سيُؤمر بذكر هاتيك النعم العِظامِ جعل يلبَسُ الشَّعْرَ ويأكل الشجر ولا يدخر شيئًا لغد، يقول: لكل يوم رزقُه، لم يكن له بيت فيخرَبَ ولا ولد فيموتَ، أينما أمسى بات.

مائدة عيسى

﴿إذ قال الحواريون﴾ كلام مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطعٌ عما قبله كما ينبئ عنه الإظهارُ في موقع الإضمار و(إذ) منصوب بمُضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب والالتفات، لكن لا لأن الخطاب السابقَ لعيسى عليه السلام فإنه ليس بخطاب وإنما هو حكايةُ خطاب، بل لأن الخطابَ لمن خوطب بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ [المائدة، الآية ١٠٨] الآية، فتأمل، كأنه قيل للنبي ﷺ عَقيبَ حكايةِ ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على[١] عيسى عليه السلام: اذكُر للناس وقت قولهم . . .إلخ، وقيل: هو ظرف لقالوا، أريد به التنبيهُ على أن ادعاءَهم الإيمانَ والإخلاصَ لم يكن عن تحقيقٍ وإيقان، ولا يساعده النظم الكريم.

﴿يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ اختلف في أنهم هل كانوا مؤمنين أو لا؟ فقيل: كانوا كافرين شاكّين في قدرة الله تعالى على ما ذَكَروا، وفي صدْقِ عيسى عليه السلام، كاذبين في دعوى الإيمان والإخلاص، وقيل: كانوا مؤمنين وسؤالُهم للاطمئنان والتثبّت لا لإزاحة الشك، و(هل يستطيع) سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرًا عنه بلازمه، وقيل: الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة، لا على ما تقتضيه القدرة، وقيل: المعنى هل يطيع ربك؟ بمعنى هل يجيبك؟ واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب، وقرئ[٢] (هل تستطيعُ ربَّك)

---

(١) في خ: عن.

(٢) قرأ بها: الكسائي، وعلي، ومعاذ، وابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وابن جبير.
ينظر: الإعراب للنحاس، (١/ ٥٣٠)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣٥)، والبحر المحيط (٤/ ٥٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٦٢)، والتيسير للداني ص (١٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢١٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٦٣)، والمعاني للأخفش (١/ ٢٦٧)، والمعاني للفراء (١/ ٣٢٥-٢٦٧)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

أي سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرِفك عنه؟ وهي قراءة علي وعائشةَ وابن عباس ومعاذٍ رضي الله عنهم، وسعيدِ بن جبير في آخرين، والمائدة الخِوانُ الذي عليه الطعام، من مادَه إذا أعطاه ورفدَه، كأنها تَميدُ مَنْ تُقدَّم إليه، ونظيرُه قولهم: شجرة مطعمة، وقال أبو عبيد: هي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ناشئ مما قبله، كأنه قيل: فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك؟ فقيل: قال: ﴿اتقوا الله﴾ أي من أمثال هذا السؤال ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بكمال قدرته تعالى وبصِحّة نبوتي أو إن صَدَقتم في ادّعاء الإيمانِ والإسلام فإن ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعةً لحُصول المسؤول، كقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعلْ له مخرجًا ويرزقْه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق، الآية ٢] وقولِه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ [المائدة، الآية ٣٥].

﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيدُ عذرٍ وبيانٍ لِمَا دعاهم إلى السؤال، أي لسنا نريد بالسؤال إزاحةَ شُبهتِنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك، حتى يقدحَ ذلك في الإيمان والتقوىٰ، بل نريد أن نأكلَ منها أي أكلَ تبرّكٍ، وقيل: أكلَ حاجةٍ وتمتُّع ﴿وتطمئنّ قلوبنا﴾ بكمال قدرته تعالى وإن كنا مؤمنين به من قبل، فإن انضمامَ علم المشاهدةِ إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازديادَ الطُمأنينة وقوةَ اليقين ﴿ونعلم﴾ أي علمًا يقينيًّا لا يحوم حوله شائبةُ شُبهةٍ أصلًا، وقرئ[1] (يُعْلَمَ) على البناء للمفعول ﴿أنْ قد صدقتنا﴾ (أنْ) هي المخففة من أنّ، وضميرُ الشأن محذوفٌ، أي ونعلم أنه قد صدقتنا في دعوى النبوة وأن الله يُجيب دعوتنا وإن كنا عالمين بذلك من قبل.

﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضُروها من بني إسرائيل ليزدادَ المؤمنون منهم بشهادتنا طُمأنينةً ويقينًا، ويؤمنَ بسببها كفارُهم، أو (من الشاهدين) للعَيْن دون السامعين للخبر، و(عليها) متعلقٌ بالشاهدين إن جُعل اللامُ للتعريف، وبيانٌ لما يشهدون عليه إن جُعلتْ موصولة، كأنه قيل: على أي شيء يشهدون؟ فقيل: عليها، فإن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول، أو هو حال من اسم كان، أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين.

---

(١) قرأ بها: سعيد بن جبير.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥٥).

﴿قال عيسى ابن مريم﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غَرَضًا صحيحًا في ذلك، وأنهم لا يُقلعون عنه، أزمعَ على استدعائها واستنزالها، وأراد أن يُلزِمَهم الحجةَ بكمالها.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المِسْح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصرَه ثم قال: ﴿اللهم ربنا﴾، ناداه سبحانه وتعالى مرتين، مرةً بوصف الألوهية الجامعةِ لجميع الكمالات، ومرةً بوصف الربوبية المُنْبئةِ عن التربية، وإظهارًا لغاية التضرّع، ومبالغةً في الاستدعاء ﴿أنزل علينا﴾ تقديمُ الظرف على قوله: ﴿مائدة﴾ لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، وقوله: ﴿من السماء﴾ متعلق بأنزل أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لمائدة، أي كائنةً من السماء نازلةً منها.

وقوله: ﴿تكون لنا عيدًا﴾ في محل النصب على أنه صفةٌ لمائدة، واسم تكون ضمير المائدة، وخبرُها إما عيدًا و(لنا) حال منه، أو من ضمير (تكون) عند من يجوِّز إعمالَها في الحال، وإما (لنا)، وعيدًا حال من الضمير في لنا، لأنه وقع خبرًا فيحمِلُ ضميرًا، أو من ضمير (تكون) عند من يرى ذلك، أي يكون يومُ نزولها عيدًا نعظمه، وإنما أُسند ذلك إلى المائدة لأن شرَفَ اليوم مستعار من شرفها.

وقيل: العيدُ السرورُ العائد، ولذلك سمِّيَ يومُ العيد عيدًا، وقرئ[1] (تكن) بالجزم على جواب الأمر كما في قوله: ﴿فهبْ لي من لدنك وليًّا يرِثْني﴾ [مريم، الآية ٥، ٦] خلا أن قراءةَ الجزم هناك متواترة وهاهنا من الشواذ ﴿لأولنا وآخرنا﴾ بدل من (لنا) بإعادة العامل، أي عيدًا لمتقدمينا ومتأخرينا. رُوي أنها نزلت يوم الأحد، ولذلك اتخذه النصارى عيدًا، وقيل: للرؤساء منا والأتباع، وقيل: يأكل منها أولُنا وآخرُنا، وقرئ[2] (لأُولانا وأُخْرانا)؛ بمعنى الأمة والطائفة ﴿وآية﴾ عطف على عيدًا ﴿منك﴾ متعلق بمحذوف وهو صفة لآية، أي كائنةً منك دالةً على كمال قدرتك وصحةِ نبوتي.

﴿وارزقنا﴾ أي المائدة أو الشكر عليها ﴿وأنت خير الرازقين﴾ تذييلٌ جارٍ مَجْرى التعليل، أي خيرُ من يرزق لأنه خالقُ الأرزاق ومعطيها بلا عِوَض، وفي إقباله عليه

---

(١) قرأ بها: الأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٦٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٢)، والمعاني للفراء (١/ ٣٢٥).

(٢) قرأ بها: عاصم، وزيد بن ثابت، وابن محيصن.
ينظر: الإعراب للنحاس، (١/ ٥٣١)، والبحر المحيط (٤/ ٥٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٦٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٢).

السلام على الدعاء، بتكرير النداء المُنْبِئ عن كمال الضراعة والابتهال وزيادتِه ما لم يخطُرْ ببال السائلين من الأمور الداعية إلى الإجابة والقَبول، دلالةٌ واضحةٌ على أنهم كانوا مؤمنين، وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة، كما في قول إبراهيم عليه السلام. (رَبِ أَرِني كَيْفَ تُحْيِ الموتى)، و إلا لما قبل اعتذاره بما ذكروه، ولما أضاف إليه من عنده ما يؤكده ويقربه إلى القبول.

﴿قال الله﴾ استئناف كما سبق ﴿إني منزّلها عليكم﴾ ورودُ الإجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المُنْبِئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الإفعال لإظهار كمالِ اللطف والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب﴾ [الأنعام، الآية ٦٤] إلخ، بعد قوله تعالى: ﴿لئن أنجانا من هذه﴾ [الأنعام، الآية ٦٣] إلخ، مع ما فيه من مراعاة ما وقعَ في عبارة السائلين، وفي تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعلِ خبرِها اسمًا، تحقيقٌ للوعد وإيذان بأنه تعالى منجزٌ له لا محالة من غير صارفٍ يَثنيه ولا مانعٍ يَلويه، وإشعارٌ بالاستمرار أي إني منزلُ المائدة عليكم مراتٍ كثيرة، وقرئ[1] بالتخفيف، وقيل: الإنزالُ والتنزيلُ بمعنى واحد.

﴿فمن يكفر بعد﴾ أي بعد تنزيلها ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوفٍ وقع حالًا من فاعل (يكفرْ) ﴿فإني أعذبه﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآيةِ الباهرة ﴿عذابًا﴾ اسم مصدرٍ بمعنى التعذيب، وقيل: مصدر بحذف الزوائد، وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين، وجَوَّز أن يكون الفعل مفعولًا به على الاتساع، وقوله تعالى: ﴿لا أعذبه﴾ في محل النصب على أنه صفة لـ (عذابًا)، والضمير له أي (أعذبه) تعذيبًا لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أحدًا من العالمين﴾ أي من عالَمِي زمانِهم أو من العالمين جميعًا، قيل: لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضُهم، فاستعفَوْا وقالوا: لا نريدها فلم تنزِلْ، وبه قال مجاهدٌ والحسن رحمهما الله: والصحيحُ الذي عليه جماهيرُ الأمة ومشاهيرُ الأئمة أنها قد نزلت.

روي (أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأُجيب بما أجيب، إذا بسفْرةٍ حمراءَ نزلت بين غمامتين، غمامةٌ من فوقها وغمامةٌ من تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٦٦)، والتيسير للداني ص (١٠١)، والحجة لابن خالويه (١٣٥/ ١٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٢٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٦٥)، وتفسير الرازي (٣/ ٤٦٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

أيديهم، فبكىٰ عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمةً للعالمين، ولا تجعلها مُثْلةً وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خيرِ الرازقين، فإذا سَمَكةٌ مشوية بلا فلوس[1] ولا شَوْك تسيل دسَمًا، وعند رأسها مِلْحٌ وعند ذنبها خَلٌّ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكُرَّاث، وإذا خمسةُ أرغفةٍ على واحد منها زيتونٌ، وعلى الثاني عَسَلٌ، وعلى الثالث سَمْنٌ، وعلى الرابع جُبْنٌ، وعلى الخامس قدَيدٌ، فقال شمعونُ رأسُ الحواريين: يا روحَ الله أمن طعام الدنيا أو من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقُدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا يُمدِدْكم الله ويزِدْكم من فضله، فقالوا: يا روحَ الله لو أَرَيتَنا من هذه الآية آيةً أخرى؟ فقال: يا سمكةُ احْيَيْ بإذنِ الله، فاضطربت، ثم قال لها: عُودي كما كنت، فعادَتْ مشويةً ثم طارت المائدة، ثم عَصَوا فمُسخوا قردةً وخنازيرَ).

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يومًا غِبًّا[2]، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء، والصغار والكبار، يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظللها. ولم يأكل منها فقير إلا غَنِيَ مدةَ عُمُره، ولا مريضٌ إلا برِئ ولم يمرَضْ أبدًا، ثم أوحىٰ الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: أنِ اجعلْ مائدتي في الفقراء والمرضَى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناسُ لذلك فمُسِخَ منهم من مُسِخَ، فأصبحوا خنازيرَ يسعَوْن في الطرقات والكُناسات[3]، ويأكلون العَذِرة في الحُشوش[4]، فلما رأى الناس ذلك فزِعوا إلى عيسى عليه السلام وبكَوُا الممسوخين، فلما أبصرت الخنازيرُ عيسى عليه السلام بكتْ وجعلت تطيف به، وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدًا بعد واحد، فيبكُون ويُشيرون برؤوسهم، ولا يقدِرون على الكلام، فعاشوا ثلاثةَ أيام ثم هلَكوا.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عيسى عليه السلام قال لهم: صوموا ثلاثين يومًا ثم سَلوا الله ما شئتم يُعطِكم، فصاموا فلما فرَغوا قالوا: إنا لو عمِلنا لأحدٍ فقضَيْنا عملَه لأطعَمَنا، وسألوا الله تعالى المائدة، فأقبلت الملائكةُ بمائدة يحمِلونها عليها سبعةُ أرغفةٍ وسبعةُ أحواتٍ، حتى وضعتْها بين أيديهم، فأكل منها آخِرُ

---

(١) الفلوس: جمع فَلْس، وهو القشرة على ظهر السمكة.

(٢) أي في الحين بعد الحين، أو تأتيهم يوماً وتغيب يوماً.

(٣) الكناسة: القمامة، وموضع إلقائها.

(٤) العذرة: الغائط. والحشوش: جمع حشّ، وهو البستان في الأصل، ثم أطلق اسماً على مكان التغوُّط، إذ كانوا يتغوَّطون في البساتين القريبة من سكناهم.

الناس كما أكل منها أولُهم. قال كعب: نزلت منكوسةً تطير بها الملائكةُ بين السماء والأرض، عليها كلُّ الطعام إلا اللحمَ. وقال قتادة: كان عليها ثمرٌ من ثمار الجنة. وقال عطيةُ العوفي: نزلت من السماء سمكةٌ فيها طعمُ كل شيء. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت سمكةٌ وخمسةُ أرغفةٍ فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألفٌ ونيِّفٌ، فلما رجعوا إلى قُراهم ونشروا الحديث ضحِك من لم يشهَدْ وقالوا: ويحكم إنما سحَر أعينَكم، فمن أراد الله به الخيرَ ثبّته على بصيرة، ومن أراد فتنته رجَع إلى كفره، فمُسخوا خنازيرَ، فمكثوا كذلك ثلاثةَ أيام ثم هلكوا لم يتوالدوا، ولم يأكُلوا ولم يشربوا، وكذلك كلُّ ممسوخ.

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ معطوف على (إذ قال الحواريون) منصوب بما نَصَبه من المُضمر المخاطَبِ به النبيُّ ﷺ، أو بمُضمر مستقلٍّ معطوفٍ على ذلك، أي اذكُرْ للناس وقت قولِ الله عز وجل له عليه السلام في الآخرة توبيخًا للكَفَرة وتبكيتًا لهم، فإقرارُه عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية، وأمرُه لهم بعبادته عز وجل، وصيغة الماضي لما مرّ من الدلالة على التحقّق والوقوع.

﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين﴾ الاتخاذُ إما متعدٍّ إلى مفعولين فـ(إلٰهين) ثانيهما، وإما إلى واحد فهو حال من المفعول، وليس مدارُ أصل الكلام أن القول متيَقَّنٌ، والاستفهامَ لتعيين القائل كما هو المتبادَرُ من إيلاء الهمزة المُبتدأ على الاستعمال الفاشي، وعليه قوله تعالى: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا﴾ [الأنبياء، الآية ٦٢] ونظائرُه، بل على أن المتيقَّنَ هو الاتخاذُ والاستفهامُ لتعيين أنه بأمره عليه السلام، أو من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أو هم ضلوا السبيل﴾ [الفرقان، الآية ١٧].

وقوله تعالى: ﴿من دون الله﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله، أي متجاوزين الله، أو بمحذوفٍ هو صفة لإلٰهين، أي كائنيْن من دونه تعالى، وأيًّا ما كان فالمرادُ اتخاذُهما بطريق إشراكهما به سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذُ من دون الله أندادًا﴾ [البقرة، الآية ١٦٥] وقولِه عز وجل: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضُرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [سورة يونس، الآية ١٨] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿عما يشركون﴾ [سورة يونس، الآية ١٨] إذْ به يتأتّى التوبيخُ ويتسنّى التقريعُ والتبكيت.

ومَنْ توهم أن ذلك بطريق الاستقلال، ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزاتِ التي ظهرت على يد عيسى ومريمَ عليهما الصلاة والسلام لم يخلُقْها الله

تعالى، بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما في حق بعض الأشياء إلٰهين مستقلَّيْن، ولم يتخذوه تعالى إلٰهًا في حق ذلك البعض، فقد أبعد عن الحق بمراحِلَ، وأما من تعمق فقال: إن عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادةٍ، فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما، ومن لم يعبُده تعالى فقد غفَل عما يُجْديه واشتغل بما لا يَعْنيه كدأب مَنْ قبله، فإن توبيخهم إنما يحصُل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحًا، لا بما يلزَمُه بضربٍ من التأويل، وإظهارُ الاسم الجليل لكونه في حيِّز القولِ المُسند إلى عيسى عليه السلام.

﴿قال﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل: فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ؟ فقيل: يقول، وإيثارُ صيغة الماضي لما مرّ مرارًا ﴿سبحانك﴾ (سبحان) عَلمٌ للتسبيح، وانتصابُه على المصدرية، ولا يكاد يُذْكر ناصبُه، وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق، من السَّبْح الذي هو الذهاب والإبعادُ في الأرض، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل، ومن جهة العدولِ من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصةً، المشيرِ إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومن جهة إقامته مُقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى، أي أنزهك تنزيهًا لائقًا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقالَ في حقك ذلك، وأما تقديرُ من أن يكونَ لك شريكٌ في الألوهية فلا يساعده سِياقُ النظم الكريم وسياقُه.

وقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ استئنافٌ مقرِّر للتنزيه ومبين للمُنَزَّه منه، و(ما) عبارة عن القول المذكور، أي ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولًا لا يحِقّ لي أن أقوله، وإيثارُ ليس على الفعل المنفيِّ لظهور دلالتِه على استمرار انتفاءِ الحقية وإفادةِ التأكيد بما في حيزه من الباء، فإن اسمه ضميرُه العائد إلى (ما)، وخبرَه (بحق) والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما في سُقيًا لك أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ استئناف مقرِّرٌ لعدم صدور القولِ المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهاني، فإن صدورَه عنه مستلزِمٌ لعلمه تعالى به قطعًا، فحيثُ انتفى علمُه تعالى به انتفى صدورُه عنه حتمًا ضرورةَ أن عدمَ اللازم مستلزِمٌ لعدم الملزوم ﴿تعلم ما في نفسي﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل: لأنك تعلم ما أُخفيه في نفسي، فكيف بما أُعلنُه؟

وقوله تعالى: ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ بيانٌ للواقع وإظهارٌ لقصوره، أي ولا أعلم ما تُخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿في نفسك﴾ للمشاكلة[1]. وقيل: المرادُ

---

(١) ذكر الزمخشريُّ أن المعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة، =

بالنفس هو الذاتُ، ونسبةُ المعلومات إليها لما أنها مرجعُ الصفات التي من جملتها العلمُ المتعلِّقُ بها، فلم يكن كنسبتها إلى الحقيقة. وقوله تعالى: ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تعليلٌ لمضمون الجملتين منطوقًا ومفهومًا، وقوله تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان ما صدر عنه قد أُدرج فيه عدم صدورِ القول المذكور عنه على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، حيثُ حكم بانتفاء صدور جميع الأقوالِ المغايِرَةِ للمأمور به، فدخل فيه انفاءُ صدور القولِ المذكور دخولًا أوليًّا، أي ما أمرتُهم إلا بما أمرتني به، وإنما قيل: (ما قلت لهم) نزولًا على قضية حسن الأدب، ومراعاةً لما ورد في الاستفهام. وقوله تعالى: ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ تفسيرٌ للمأمور به، وقيل: عطفُ بيانٍ للضمير في به، وقيل: بدلٌ منه، وليس من شرط البدل جوازُ طرحِ المُبْدَل منه مُطلقًا ليلزَمَ بقاءُ الموصول بلا عائد، وقيل: خبرُ مُضمرٍ أو مفعولُه مثلُ هو أو أعني. ﴿وكنت عليهم شهيدًا﴾ رقيبًا أراعي أحوالهم وأحمِلُهم على العمل بموجب أمرك، وأمنعهم عن المخالفة، أو مشاهدًا لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿ما دمت فيهم﴾

= وهو من فصيح الكلام وبيِّنه، وذلك راجع إلى المراد المراد، أما إذا كانت النفس عبارة عن الذات فالكلام على حقيقته، كما قال الفخر الرازي، وذكر أبو حيان أن الآية من قبيل المشاكلة، والحق أن في جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى بدون مشاكلة خلافًا، فمن العلماء من منع ذلك، وإليه ذهب السعد والسيد وعبد الحكيم في شروح المفتاح والتلخيص، وهؤلاء يجعلون ما ورد من ذلك في الكتاب نحو (ويحذركم الله نفسه) من قبيل المتشابه، ومن العلماء من جوز ذلك مثل إمام الحرمين، كما نقله ابن عرفة في التفسير عند قوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ في سورة الأنعام، ويشهد له تكرار استعماله في القرآن الكريم، وكلام النبي ﷺ كما في الحديث القدسي: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» وقد علق البهاء السبكي على قول الزمخشري الماضي ثم قال: والذي فهمته من هذا الكلام أنه لا يريد أن النفس هنا غير الذات، بل ذكر الجملة التي لأجلها عبر عن المعلوم بما في النفس، فلا يكون إرادة الذات والحقيقة منافيًا للمشاكلة، ويمكن أن يقال: النفس وإن أطلقت على الذات في حق غير الله تعالى، فلا تطلق في حقه لما فيه من إيهام معناها الذي لا يليق بغير المخلوق؛ فلذلك احتيج إلى المشاكلة، وقيل: لا بد من الإقرار بالمشاكلة؛ لأن ما في النفس إن أريد به المضمرات، فلا مطابقة من جهة الله تعالى، فوجب المشاكلة؛ وإن أريد ما في الحقيقة والذات فالمشاكلة من حيث إدخاله في الظرفية، وقد اختلف البلاغيون هل المشاكلة حقيقة أم مجاز؟ والمتبادر من كلام الخطيب أن المشاكلة مجاز لغوي لأنها كلمة مستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة بناء على أن اللام في التعريف لوقوعه في صحبته تعليلية، وارتضى ابن يعقوب ألا تكون لا حقيقة ولا مجازًا والحق أننا نثبت لله ما أثبته لنفسه بلا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل.

ينظر: الكشاف (١/ ٦٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ٥٩)، والفتوحات الإلهية (١/ ٥٤٥)، ومفاتيح الغيب (٦/ ٢٠٠)، والتحرير والتنوير (٧/ ١١٥)، وعروس الأفراح (٤/ ٣١١ - ٣١٢)، وحاشية الدسوقي (٤/ ٣٠٩).

ما مصدرية ظرفية تقدَّر بمصدرٍ مضافٍ إليه زمانٌ، ودمت صلتها، أي كنت شهيدًا عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿فلما توفيتني﴾ بالرفع إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿إني مُتوفِّيك ورافعُك إلي﴾ [آل عمران، الآية ٥٥] فإن التوفيَ أخذُ الشيء وافيًا، والموتُ نوع منه، قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفسَ حين موتِها والتي لم تمُتْ في منامها﴾ [الزمر، الآية ٤٢] ﴿كنت أنت الرقيبَ عليهم﴾ لا غيرَك، (فأنت) ضميرُ الفصل أو تأكيدٌ، وقرئ[1] (الرقيبُ) بالرفع على أنه خبرُ (أنت) والجملة خبرٌ لكان وعليهم متعلق به، أي أنت كنت الحافظَ لأعمالهم والمراقبَ فمنعتَ من أردت عِصْمتَه عن المخالفة، بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها، بإرسال الرسل وإنزال الآياتِ، وخذَلْتَ من خذلتَ من الضالين فقالوا ما قالوا.

﴿وأنت على كل شيءٍ شهيد﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله، فيه إيذانٌ بأنه تعالى كان هو الشهيدَ على الكل حين كونِه عليه السلام فيما بينهم، و(على) متعلقةٌ بشهيد، والتقديم لمراعاة الفاصلة ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك ﴿وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز﴾ أي القويُّ القادر على جميع المقدورات، ومن جملتها الثوابُ والعقاب ﴿الحكيم﴾ الذي لا يُريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ ومصلحة، فإن المغفرة مستحسَنة لكل مجرم، فإن عذّبت فعدلٌ، وإن غفرت ففَضْلٌ، وعدمُ غفرانِ الشرك إنما هو بمقتضى الوعيد، فلا امتناعَ فيه لذاته ليمنعَ الترديدُ وقيل الترديد بالنسبة إلى فرقتين، والمعنى إن تعذبْهم أي مَنْ كفر منهم، وإن تغفرْ لهم أي من آمن منهم.

﴿قال الله﴾ كلامٌ مستأنَفٌ خَتَم به حكايةَ ما حُكيَ، مما يقعُ يوم يجمع الله الرسلَ عليهم الصلاة والسلام، وأُشير إلى نتيجته ومآله، أي يقول الله تعالى يومئذ عَقيبَ جواب عيسى عليه السلام، مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم، وصيغةُ الماضي لما مرَّ في نظائره مرارًا.

وقوله تعالى: ﴿هذا﴾ إشارة إلى ذلك اليوم، وهو مبتدأ خبرُه ما بعده، أي هذا اليوم الذي حُكيَ بعضُ ما يقع فيه إجمالًا وبعضُه تفصيلًا ﴿يومُ ينفع الصادقين﴾ بالرفع والإضافة، والمراد بالصادقين كما ينبئ عنه الاسم، المستمرّون في الدارين على الصدق في الأمور الدينية التي معظمُها التوحيدُ الذي نحن بصدده، والشرائعُ والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين إلى ذلك، وبه

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٣٦).

تحصُل الشهادةُ بصِدْق عيسى عليه السلام.

ومن الأمم المصدِّقين لهم المقتدين بهم عقدًا وعملًا، وبه يتحقق المقصودُ بالحكاية من ترغيب السامعين في الإيمان برسول الله ﷺ لا كلِّ من صدَقَ في أي شيء كان، ضرورةَ أن الجانِيَ المعترِفَ في الدنيا بجِنايته لا ينفعُه يومئذ اعترافُه وصِدْقُه.

﴿صدقهم﴾ أي صدقهم فيما ذُكر من أمور الدين في الدنيا، إذ هو المستتبعُ للنفع يومئذ، واعتبارُ استمراره في الدارين مع أنه لا حاجة إليه كما عرفت، ولا دخل له في استتباع النفع والجزاء مما لا وجه له.

وهذه القراءةُ هي التي أطبق عليها الجمهورُ وهي الأليق بسباق النظم الكريم وسياقِه، وقد قرئ[1] (يومَ) بالنصب إما على أنه ظرف لقال، فهذا حينئذ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿أأنت قلت﴾ . . .إلخ، وإما على أنه خبرٌ لهذا، فهو حينئذ إشارة إلى جواب عيسى عليه السلام، أي هذا الجواب منه عليه السلام واقعٌ يوم ينفع إلخ، أو إلى السؤال والجواب معًا، وقيل: هو خبر ولكنه بني على الفتح، وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضافٌ إلى متمكنٍّ[2]، وقرئ[3] (يومٌ) بالرفع والتنوين كقوله تعالى: ﴿واتقوا يومًا لا تجزي﴾ [البقرة، الآيتان: ٤٨ و ١٢٣].

﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان النفع المذكور كأنه قيل: ما لهم من النفع؟ فقيل: لهم نعيمٌ دائم وثوابٌ خالد، وقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم﴾ استئنافٌ آخرُ لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غيرَ ما ذُكر من الجنات ما لا قدْرَ لها عنده، وهو رضوانُه الذي لا غايةَ وراءَه كما ينبئ عنه قوله

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن محيصن.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٦)، والبحر المحيط (٤/ ٦٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٧)، والتيسير للداني ص (١٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٤١)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٠)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٢٣، ٤٢٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٦٩)، وتفسير الرازي (٣/ ٢٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٢) المتمكِّن: (في علم النحو): الاسم الذي يقبل الحركات الثلاث: الرفع والنصب والجر، أي ما ليس مبنيًّا. وهو نوعان: متمكن أمكن، وهو المصروف، ومتمكن غير أمكن، وهو الممنوع من الصرف، وغير المتمكن هو الذي أشبه الحرف فكان مثله مبنيًّا، نحو: كيف وأين.

(٣) قرأ بها: الحسن بن عياش، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٣)، والبحر المحيط (٤/ ٦٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٧٩)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٧٥).

تعالى: ﴿ورضوا عنه﴾ إذ لا شيء أعزُّ منه حتى يمتدَّ إليه أعناقُ الهمم ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى نيل رضوانه تعالى، وقيل: إلى نيل الكل ﴿الفوز العظيم﴾ لما أن عِظَمَ شأنِ الفوز تابعٌ لعِظَم شأن المطلوب الذي تعلّق به الفوز. وقد عرفت ألا مطلبَ وراء ذلك أصلًا، وقوله تعالى: ﴿لله ملك السموٰات والأرض وما فيهن﴾ تحقيقٌ للحق وتنبيهٌ على كذِب النصارى وفسادِ ما زعَموا في حق المسيحِ وأمِّه، أي له تعالى خاصةً مُلك السمواتِ والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرِهم، يتصرَّفُ فيها كيف يشاء، إيجادًا وإعدامًا، إحياءً وإماتة، وأمرًا ونهيًا، من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخلٌ في ذلك، وفي إيثار (ما) على (من) المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل، مراعاةٌ للأصل وإشارةٌ إلى تساوي الفريقين في استحالة الربوبية حسَب تساويهما في تحقُّق المربوبية، وعلى تقدير اختصاصِها بغير العقلاء تنبيهٌ على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية، وإهانةٌ بهم بتغليب غيرِهم عليهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من الأشياء ﴿قدير﴾ مبالِغٌ في القدرة.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أُعطِيَ من الأجر عشرَ حسنات، ومُحيَ عنه عشرُ سيئات، ورُفع له عشرُ درجات، بعدد كل يهوديٍّ ونصرانيٍّ يتنفس في الدنيا»[1].

(١) تقدم تخريجه.

سورة الأنعام

مكية غيرَ ستِّ آياتٍ أو ثلاثٍ من قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل﴾ [الأنعام: ١٥١] وهي مائة وخمسٌ وستون آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

﴿الحمد لله﴾ تعليقُ الحمد المعرَّفِ بلام الحقيقة أولًا باسم الذات عليه يدور كافةُ ما يوجبه من صفات الكمال، وإليه يؤُول جميعُ نعوتِ الجلال والجمال، للإيذان بأنه عز وجل هو المستحِقُّ له بذاته، لما مر من اقتضاء اختصاصِ الحقيقة به سبحانه، لاقتصار جميعِ أفرادِها عليه بالطريق البرهاني، ووصفه تعالى ثانيًا بما يُنْبىء عن تفصيل بعض موجِباته المنتظمةِ في سلك الإجمالِ من عظائم الآثارِ وجلائلِ الأفعال، من قوله عز وجل: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلالِه به باعتبار أفعالِه العِظام، وآلائِه الجِسام أيضًا.

وتخصيصُ خلقِهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العُلوية والسُفلية وعامةِ الآلاءِ الجليةِ والخفية، التي أجلُّها نعمةُ الوجودِ الكافية في إيجاب حمدِه تعالى على كل موجود، فكيف بما يتفرَّع عليها من فنون النعم الأنفسية والآفاقية، المنوطِ بها مصالحُ العباد في المعاش والمعاد؟ أي أنشأهما على ما هما عليه من النّمط الفائِق والطراز الرائق، منطويَتَيْن من أنواع البدائعِ وأصنافِ الروائع على ما تتحيَّر فيه العقولُ والأفكار، من تعاجيب العبر والآثار، تبصرةً وذكرى لأولي الأبصار. وجمعُ السموات لظهور تعدّدِ طبقاتِها واختلاف آثارها وحركاتِها، وتقديمُها لشرفها وعلوِّ مكانها وتقدُّمها وجودًا على الأرض كما هي.

﴿وجعل الظلمات والنور﴾ عطْفٌ على (خَلَق) مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقًا

بخلق مَنْشَئِهما ومحلِّهما، داخلٌ معه في حكم الإشعار بعِلَّة الحمد، فكما أن خلقَ السموات والأرضِ وما بينهما، لكونه أثرًا عظيمًا ونعمةً جليلة، موجبٌ لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا، كذلك جعلُ الظلماتِ والنور لكونه أمرًا خطيرًا ونعمةً عظيمةً مقتضٍ لاختصاصه بجاعلهما، والجعلُ هو الإنشاءُ والإبداع كالخلق، خلا أن ذلك مختصٌّ بالإنشاء التكوينيِّ، وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عام له كما في الآية الكريمة، والتشريعيَّ أيضا كما في قوله تعالى: ﴿**ما جعل الله من بَحيرة**﴾ [المائدة، الآية ١٠٣] الآية. وأيًّا ما كان فهو إنباءٌ عن ملابسةِ مفعولِه بشيءٍ آخرَ بأن يكونَ فيه، أوْ له، أوْ منه، أو نحوُ ذلك، ملابسةٌ مصحِّحةٌ لأن يتوسَّط بينهما شيءٌ من الظروف لغوًا كان أو مستقرًا، لكن لا على أن يكونَ عُمدةً[١] في الكلام بل قيدًا فيه، كما في قوله عز وجل: ﴿**وجعل بينهما برزخًا**﴾ [الفرقان، الآية ٥٣] وقوله تعالى: ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ [فصلت، الآية ١٠].

وقوله تعالى: ﴿**واجعل لنا من لدنك وليًّا**﴾ [النساء، الآية ٧٥] الآية، فإن كل واحد من هذه الظروف، إما متعلقٌ بنفس الجعل أو بمحذوفٍ وقع حالًا من مفعولِه تقدّمت عليه لكونه نكرة، وأيًّا ما كان فهو قيدٌ في الكلام حتى إذا اقتضىٰ الحالُ وقوعَه عمدةً فيه يكون الجعلُ متعديًا إلى اثنين هو ثانيهما، كما في قوله تعالى: ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾ [البقرة، الآية ١٩] وربما يَشتبِهُ الأمرُ فيُظن أنه عمدةٌ فيه، وهو في الحقيقة قيدٌ بأحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ [البقرة، الآية ٣٠] حيث قيل: إن الظرف مفعولٌ ثان لجاعل، وقد أشير هناك إلى أن الذي يقضي به الذوق السليم وتقتضيه جزالةُ النظم الكريم، أنه متعلقٌ بجاعل أو بمحذوفٍ وقع حالًا من المفعول، وأن المفعولَ الثانيَ هو خليفة، وأن الأول محذوف على ما مر تفصيله. وجمعُ الظلمات لظهور كثرةِ أسبابها ومَحالِّها عند الناس، ومشاهدتهم لها على التفصيل، وتقديمُها على النور لتقدم الإعدام على المَلَكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين.

وقوله تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ معطوفٌ على الجملة السابقة الناطقةِ بما مر من موجبات اختصاصِه تعالى بالحمد، المستدعي لاقتصار العبادة عليه، كما حُقِّق في تفسير الفاتحة الكريمة، مَسوقٌ لإنكار ما عليه الكفرة واستبعادِه من مخالفتهم لمضمونها واجترائِهم على ما تقضي ببُطلانه بديهةُ العقول. والمعنى أنه

---

(١) العمدة في اصطلاح النحاة: خلاف الفضلة، وهو ما لا يصحّ حذفه من الكلام.

تعالى مختصٌّ باستحقاق الحمدِ والعبادةِ باعتبار ذاتِه وباعتبار ما فصَّل من شؤونه العظيمة الخاصة به، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه، ثم هؤلاء الكفرةُ لا يعملون بموجبه ويعدِلون به سبحانه، أي يسوُّون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسُه الحمدُ، مع كونِ كلٍّ ما سواه مخلوقًا له غيرَ متّصفٍ بشيء من مبادئ الحمد، وكلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوحِ ما ذُكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه، لا بعد بيانِه بالآياتِ التنزيلية، والموصولُ عبارةٌ عن طائفةِ الكفار جارٍ مَجرى الاسمِ لهم، من غير أن يُجعلَ كفرُهم بما يجب أن يُؤْمَنَ به ، كلاًّ أو بعضًا ، عنوانًا للموضوع، فإن ذلك مُخِلٌّ باستبعاد ما أُسند إليهم من الإشراك، والباء متعلقة بـ (يعدلون).

ووضعُ الربِّ موضعَ ضميرِه تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح، والتقديم لمزيد الاهتمامِ والمسارعةِ إلى تحقيق مدارِ الإنكار والاستبعادِ، والمحافظةِ على الفواصل، وتركُ المفعولِ لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلةَ اللازم، إيذانًا بأنه المدارُ في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصيةُ المفعول، هذا هو الحقيقُ بجزالة التنزيل والخليقُ بفخامة شأنه الجليل.

وأما جعلُ الباء صلةً لكفروا ، على أنّ (يعدلون) من العدول، والمعنى أن الله تعالى حقيقٌ بالحمد على ما خلقه نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمتَه ، فيردّه[1] أن كفرهم به تعالى لا سيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم، أشدُّ شناعةً وأعظمُ جنايةً من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه، مع إغفاله أيضًا، فجعلُ أهون الشرَّيْن عمدةً في الكلام مقصودُ الإفادة، وإخراجُ أعظمِهما مُخرجَ القيدِ المفروغِ عنه مما لا عهدَ له في الكلام السديد، فكيف بالنظم التنزيلي؟ هذا وقد قيل: إنه معطوف على (خلَقَ السموات) والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدِر عليه أحدٌ سواه، ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدِر على شيءٍ منه، لكن لا على قصد أنه صلةٌ مستقلة ليكونَ بمنزلة أن يقالَ: الحمدُ لله الذي عدَلوا به، بل على أنه داخلٌ تحت الصلة بحيث يكون الكلُّ صلةً واحدة، كأنه قيل: الحمد لله الذي كان منه تلك النعمُ العظامُ، ثم من الكفرة الكفرُ.

وأنت خبير بأن ما ينتظِمُ في سلك الصلة المنبئةِ عن موجبات حمده عز وجل حقُّه أن يكون له دخلٌ في ذلك الإنباء ولو في الجملة، ولا ريب في أن كفرهم بمعزلٍ منه،

---

(١) خبر قوله «أما جعل الباء صلة».

وادعاءُ أن له دَخْلًا فيه لدلالته على كمال الجود، كأنه قيل: الحمد لله الذي أنعم بمثل هذه النعم العِظام على من لا يحمَده، تعسّفٌ لا يساعده النظام، وتعكيسٌ يأباه المقام، كيف لا ومَساقُ النظم الكريم كما تُفصِحُ عنه الآياتُ الآتية تشنيعُ الكفرة وتوبيخُهم ببيانِ غايةِ إساءتِهم مع نهاية إحسانه تعالى إليهم، لا بيانِ نهايةِ إحسانِه تعالى إليهم مع غاية إساءتهم في حقه تعالى، كما يقتضيه الادعاءُ المذكور، وبهذا اتضح أنه لا سبيلَ إلى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه، لما أن حقَّ الصلة أن تكون غيرَ مقصودةِ الإفادة، فما ظنُّك بما هو من روادفها؟ وقد عرفت أن المعطوف هو الذي سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين.

ضلال منكري البعث

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان بطلان كفرهم بالبعث، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمانَ به إثرَ بيانِ بطلانِ إشراكِهم به تعالى، مع معاينتهم لموجِبات توحيدِه، وتخصيصُ خلقِهم بالذكر من بين سائر دلائل صِحةِ البعث، مع أن ما ذُكر من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها، كما ورد في قوله تعالى: **﴿أوليس الذي خلق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُق مثلهم﴾** [يس، الآية ٨١] لما أن محلَّ النزاعِ بعثُهم، فدلالةُ بدءِ خلقِهم على ذلك أظهرُ وهم بشؤون أنفسهم أعرفُ، والتعامي عن الحجة النيِّرة أقبح، والالتفاتُ لمزيد التشنيع والتوبيخ، أي ابتدأ خلقَكم منه، فإنه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدمَ الذي هو أبو(١) البشر. وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم عليه السلام، وهو المخلوقُ منه حقيقةً بأن يقال: هو الذي خلق أباكم إلخ، مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه في إيجاب الإيمانِ بالبعثِ وبطلانِ الامتراءِ لتوضيحِ منهاجِ القياس، وللمبالغة في إزاحةِ الاشتباه والالتباس، مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمةٍ خفية هي أن كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه السلام منه، حيث لم تكن فطرتُه البديعة مقصورةً على نفسه بل كانت أُنموذَجًا منطويًا على فطرة سائرِ آحادِ الجنس انطواءً إجماليًّا مستتبِعًا لجَرَيان آثارِها على الكل، فكأن خلقَه عليه السلام من الطين خلقٌ لكل أحد من فروعه منه، ولما كان خلقُه على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذريتِه أبدعَ من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه كما هو المفهومُ من نسبة الخلق المذكورِ إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرة الخلاق العليم وكمالِ علمِه وحكمتِه وكان ابتداءُ حال المخاطَبين

---

(١) في خ: أصل.

أولى بأن يكون معيارًا لانتهائها فَعلَ ما فعل، ولله در شأن التنزيل، وعلى هذا السرِّ مدارُ قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم**﴾ [الأعراف، الآية ١١] إلخ، وقوله تعالى: ﴿**وقد خلقتُك من قبل ولم تك شيئًا**﴾ [مريم، الآية ٩] كما سيأتي.

وقيل: المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف. وقيل: المعنى خلقهم من النطفة الحاصلةِ من الأغذية المتكوِّنة من الأرض، وأيًّا ما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرتِه تعالى على البعث ما لا يخفى، فإن من قدَرَ على إحياء ما لم يشَمَّ رائحةَ الحياة قط كان على إحياءِ ما قارنها مدةً أظهرَ قدرة.

﴿ثم قضى﴾ أي كتب لموتِ كلِّ واحد منكم ﴿أجلًا﴾ خاصًّا به أي حدًّا معينًا من الزمان يفنىٰ عند حلولِه لا محالة، وكلمةُ (ثم) للإيذان بتفاوتِ ما بين خلقِهم وبين تقديرِ آجالِهم حسبما تقتضيه الحِكَم البالغة ﴿وأجلٌ مسمى﴾ أي حدٌّ معينٌ لبعثكم جميعًا وهو مبتدأ لتخصُّصه بالصفة كما في قوله تعالى: ﴿**ولعبدٌ مؤمنٌ**﴾ [البقرة، الآية ٢٢١] ولوقوعِه في موقع التفصيل كما في قول من قال: [الطويل]

إذا ما بكَى مِنْ خلفِها انصرَفَتْ له بِشِقٍّ وشِق عِنْدنا لم يُحَوَّلِ[1]

وتنوينُه لتفخيم شأنه وتهويلِ أمره، ولذلك أُوثر تقديمُه على الخبر الذي هو ﴿عنده﴾ مع أن الشائعَ المستفيضَ هو التأخير كما في قولك: عندي كلامٌ حقٌّ ولي كتابٌ نفيسٌ كأنه قيل: وأيُّ أجلٍ مسمى مُثْبتٍ معينٍ في علمه لا يتغيرُ ولا يقفُ على وقت حلولِه أحدٌ لا مجملًا ولا مفصّلًا، وأما أجلُ الموت فمعلومٌ إجمالًا وتقريبًا بناءً على ظهور أَماراتِه أو على ما هو المعتادُ في أعمار الإنسان، وتسميتُه أجلًا إنما هي باعتبار كونِه غايةً لمدة لُبْثهم في القبور، لا باعتبار كونِه مبدأً لمدةِ القيامة، كما أن مدار التسمية في الأجل الأول هو كونُه آخِرُ مدة الحياةَ لا كونُه أول مدةِ الممات لِما أن الأجلَ في اللغة عبارةٌ عن آخرِ المدة لا عن أولها، وقيل: الأجلُ الأول ما بين الحياة[2] والموت، والثاني ما بين الموت والبعث من البرزخ، فإن الأجل كما يُطلق على آخِرِ المدة يُطلق على كلِّها وهو الأوفق، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن الله تعالى قضى لكل أحدٍ أجلين: أجلًا من مولده إلى موته، وأجلًا من موته إلى مبعثه، فإن كان بَرًّا تقيًّا وَصولًا للرحِم زيد له من أجل البعث في أجَل

---

(١) البيت لامرئ القيس في ديوانه، ص (١٢)، وبلا نسبة في رصف المباني ص (٣١٦) ويروى «انحرفت له» بدل «انصرفت له».

(٢) في المخطوط: الخلق.

العمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا نُقِصَ من أجل العُمُر وزيد في أجل البعث، وذلك قوله تعالى: **﴿وما يُعمَّرُ من مُعمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلا في كتاب﴾** [فاطر، الآية ١١] فمعنى عدم تغييرِ الأجل حينئذ عدمُ تغيُّر آخره، والأولُ هو الأشهرُ الأليقُ بتفخيم الأجل الثاني المنوطِ باختصاصه بعلمه تعالى، والأنسبُ بتهويله المبنيِّ على مقارنته للطامّة الكبرى، فإن كونَ بعضِه معلومًا للخلق ومُضِيِّه من غير أن يقعَ فيه شيءٌ من الدواهي كما يستلزمه الحملُ على المعنى الثاني مُخِلٌّ بذلك قطعًا، ومعنى زيادةِ الأجل ونقصِه فيما رُوي تأخيرُ الأجل الأول وتقديمُه.

﴿ثم أنتم تمتَرون﴾ استبعادٌ واستنكارٌ لامترائهم في البعث بعد معاينتهم لما ذُكر من الحُجج الباهرة الدالةِ عليه، أي تمترون في وقوعه وتحقّقِه في نفسه مع مشاهدتكم في أنفسِكم من الشواهدِ ما يقطع مادةَ الامتراءِ بالكلية، فإن مَنْ قدَر على إفاضة الحياة وما يتفرَّع عليها من العلم والقدرة وسائرِ الكمالاتِ البشرية على مادةٍ غيرِ مستعدّةٍ لشيء منها أصلًا كان أوضحَ اقتدارًا على إفاضتها على مادةٍ قد استعدت لها وقارنَتْها مدةً، ومن هاهنا تبين أن ما قيل من أن الأجلَ الأولَ هو النومُ والثانيَ هو الموتُ أو أن الأولَ أجلُ الباقين أو أن الأول مقدارُ ما مضى من عُمُر كلِّ أحدٍ والثانيَ مقدارُ ما بقِيَ منه مما لا وجهَ له أصلًا، لما رأيتَ مِنْ أن مَساقَ النظم الكريم استبعادُ امترائهم في البعث الذي عبَّر عن وقته بالأجل المسمّى، فحيثُ أُريد به أحدُ ما ذُكر من الأمور الثلاثة ففي أيِّ شيء يمترون؟ ووصْفُهم بالامتراء الذي هو الشكُّ، وتوجيهُ الاستبعاد إليه مع أنهم جازمون بانتفاءِ البعث مُصِرّون على إنكاره كما يُنْبيء عنه قولُهم: **﴿أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون﴾** [الصافات، الآية ١٦] ونظائرُه للدلالة على أن جزمَهم المذكورَ في أقصى مراتبِ الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى: **﴿وهو الله﴾** جملةٌ من مبتدأ وخبر، معطوفةٌ على ما قبلها مَسوقةٌ لبيان شُمولِ أحكام إلهيته تعالى لجميع المخلوقات وإحاطةِ علمِه بتفاصيلِ أحوال العباد وأعمالِهم المؤديةِ إلى الجزاء إثرَ الإشارةِ إلى تحقّق المعادِ في تضاعيفِ بيانِ كيفية خلْقِهم وتقديرِ آجالِهم.

وقوله تعالى: **﴿في السموٰات وفي الأرض﴾** متعلقٌ بالمعنى الوصفيِّ الذي يُنبئ عنه الاسم الجليل، إما باعتبار أصلِ اشتقاقِه وكونِه علمًا للمعبودِ بالحق كأنه قيل: وهو المعبودُ فيهما، وإما باعتبار أنه اسمٌ اشتهر بما اشتهرَتْ به الذاتُ من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقامُ من المالكية الكليةِ والتصرُّفِ الكامل حسبما تقتضيه المشيئةُ المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة، فعُلّق به الظرفُ من تلك الحيثية فصار كأنه قيل: وهو المالكُ أو المتصرفُ المدبِّرُ فيهما كما في قوله تعالى: **﴿وهو الذي في**

السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه﴾ [الزخرف، الآية ٨٤] وليس المراد بما ذُكر من الاعتبارَيْن أن الاسمَ الجليلَ يُحملُ على معناه اللغويِّ أو على معنى المالك أو المتصرِّف أو نحوِ ذلك، بل مجردُ ملاحظة أحدِ المعاني المذكورة في ضمنه كما لوحظ معَ اسْم الأسد في قوله: [الكامل]

أســدٌ عــلــيَّ ....[1]

إلخ.

ما اشتهرَ به من وصف الجَراءة التي اشتهر بها مُسمَّاه، فجَرى مَجرى جريءٌ عليَّ، وبهذا تبين أن ما قيل، بصدد التصوير والتفسير، أي هو المعروفُ بذلك في السموات وفي الأرض، أو هو المعروفُ المشتهرُ بالصفات الكمالية، بالإلٰهية فيهما أو نحوُ ذلك، بمعزلٍ من التحقيق، فإن المعتبرَ مع الاسم هو نفسُ الوصف الذي اشتهر به، إذ هو الذي يقتضيه المقامُ حسبما بيّن آنفًا لاشتهاره به.

ألا يُرى أن كلمة (عليّ) في المثال المذكور لا يمكن تعليقُها باشتهار الاسم بالجَراءة قطعًا، وقيل: هو متعلق بما يفيده التركيبُ الحَصْريُّ من التوحّد والتفرّد كأنه قيل: وهو المتوحِّدُ بالإلٰهية فيهما، وقيل: بما تقرر عند الكل من إطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل: وهو الذي يقال له: الله فيهما لا يُشرك به شيءٌ في هذا الاسم على الوجه الذي سبق، من اعتبار معنى التوحّد أو القول في فحوى الكلام بطريق الاستتباع، لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحِّد بالإلٰهية، أو على تقدير القول.

وقد جوَّز أن يكون الظرفُ خبرًا ثانيًا على أن كونَه سبحانه فيهما عبارةٌ عن كونه تعالى مبالِغًا في العلم بما فيهما بناءً على تنزيل علمِه المقدس، عن حصول الصور والأشباح لكونه حضوريًا، منزلةَ كونِه تعالى فيهما، وتصويرُه به على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه حالةِ علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما، فإن العالم إذا كان في مكانٍ كان عالِمًا به وبما فيه على وجهٍ لا يخفى عليه منه شيء فعلى هذا يكون قولُه عز وجل.

---

(١) وتمام البيت:

... وفــي الــحــروب نــعــامــة فتخاء تفرق من صفير الصافر

والبيت لرجل من الخوارج في جمهرة اللغة، ص (٩٢٣)، ولعمران بن حطاب في الأغاني (١٨/ ١٢٢).

﴿يعلم سركم وجهركم﴾ أي ما أسرَرْتُموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما أعلنتموه كائنًا ما كان من الأقوال والأعمال بيانًا وتقريرًا لمضمونه وتحقيقًا للمعنى المراد منه، وتعليقُ علمِه عز وجل بما ذُكر خاصةً مع شموله لجميع ما فيهما حسبما تفيدُه الجملةُ السابقة لانسياق النظمِ الكريم إلى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثاني فإن ملاحظةَ الاسم الجليلِ من حيث المالكيةُ الكلية والتصرفُ الكاملُ الجاري على النمط المذكور مستتبعةٌ لملاحظة علمِه المحيطِ حتمًا، فيكونُ هذا بيانًا وتقريرًا له بلا ريب، وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل إلى كونه بيانًا، لكن لا لما قيل من أنه لا دلالةَ لاستواء السرِّ والجهر في علمه تعالى على ما اعتُبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم، إذ ربما يُعبد ويُختصّ به من ليس له كمالُ العلم فإنه باطل قطعًا، إذ المراد بما ذكره هو المعبوديةُ بالحق والاختصاصُ بالاسم الجليل، لا ريبَ في أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمالُ العلم بديهةً، بل لأن ما ذُكر من العلم غيرُ معتبرٍ في مدلول شيءٍ من المعبودية بالحق والاختصاصِ بالاسم حتى يكونَ هذا بيانًا له، وبهذا تبين أنه ليس ببيانٍ على الوجه الثالث أيضًا، لما أن التوحدَ بالإلٰهية لا يُعتبر في مفهومه العلمَ الكاملَ ليكون هذا بيانًا له، بل هو معتبرٌ فيما صدَق عليه المتوحِّد وذلك غيرُ كاف في البيانية. وقيل: هو خبر بعد خبر عند من يجوِّز كونَ الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى: **﴿فإذا هي حيةٌ تسعى﴾** [طه، الآية ٢٠] وقيل: هو الخبر، والاسمُ الجليل بدلٌ من (هو)، وبه يتعلق الظرف المتقدم، ويكفي في ذلك كونُ المعلوم فيهما كما في قولك: رميتُ الصيدَ في الحرَم، إذا كان هو فيه وأنت في خارجَه، ولعل جعْلَ سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصويرِ أنه لا يعزُب عن علمه شيءٌ منهما في أي مكان كان، لا لأنهما قد يكونان في السماوات أيضًا، وتعميمُ الخطاب لأهلها تعسُّفٌ لا يخفى.

﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أي ما تفعلونه لجلب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ من الأعمال المكتسَبةِ بالقلوب أو بالجوارح سرا أو علانية، وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثاني للسر والجهر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاءُ وهو السرُّ في إعادة يعلم.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ كلام مستأنَفٌ واردٌ لبيان كفرهم بآيات الله وإعراضِهم عنها بالكلية بعد ما بيّن في الآية الأولى إشراكَهم بالله سبحانه وإعراضَهم عن بعض آيات التوحيد، وفي الآية الثانية امتراءَهم في البعث وإعراضَهم عن بعض آياته. والالتفاتُ للإشعار بأن ذكْرَ قبائحِهم قد اقتضىٰ أن يضرِبَ عنهم الخطابَ صفحًا، وتعددُ جناياتهم لغيرهم ذمًّا لهم وتقبيحًا لحالهم، فما نافية، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، أو للدلالة على الاستمرار التجدُّديّ، و(مِنْ) الأولى مزيدة للاستغراق، والثانيةُ تبعيضيةٌ واقعةٌ مع مجرورها صفةً لآية، وإضافةُ الآيات إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتْبِعِ لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها.

والمراد بها إما الآياتُ التنزيليةُ فإتيانُها نزولُها، والمعنى ما ينزِلُ إليهم آيةٌ من الآيات القرآنية التي من جملتها هاتيك الآياتُ الناطقةُ بما فُصِّل من بدائعِ صنعِ الله عز وجل المُنْبئةِ عن جَرَيان أحكام ألوهيتِه تعالى على كافة الكائنات، وإحاطةِ علمه بجميع أحوالِ الخلقِ وأعمالهم الموجبةِ للإقبال عليها والإيمانِ بها **﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾** أي على وجه التكذيبِ والاستهزاء كما ستقف عليه، وأما الآياتُ التكوينيةُ الشاملةُ للمعجزات وغيرِها من تعاجيب المصنوعاتِ فإتيانُها ظهورُها لهم.

والمعنى ما يظهر لهم آيةٌ من الآيات التكوينية التي من جملتها ما ذُكر من جلائِلِ شؤونه تعالى الشاهدةِ بوحدانيته إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيحِ فيها. المؤدِّي إلى الإيمان بمُكوِّنها، وإيثارُه على أن يقال: إلا أعرضوا عنها كما وقع مثلُه في قوله تعالى: **﴿وإن يروا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سِحرٌ مستمرٌّ﴾** [القمر، الآية ٢] للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسَبَ[1] استمرارِ إتيانِ الآيات، و(عن) متعلقةٌ بـ(معرضين) قُدِّمت عليه مراعاةً للفواصل، والجملة في محل النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعلِه المتخصِّصِ بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما. وأيًّا ما كان ففيها دلالة بينةٌ على كمال مسارعتهم إلى الإعراض، وإيقاعِهم له في آنِ

(١) في المخطوط: حيث.

الإتيان كما يُفصح عنه كلمةُ (لما) في قوله تعالى: ﴿**فقد كذبوا بالحق لما جاءهم**﴾ فإن الحق عبارةٌ عن القرآن الذي أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية منه، عبّر عنه بذلك إبانةً لكمال قُبح ما فعلوا به، فإن تكذيب الحقِّ مما لا يُتصوَّرُ صدورُه عن أحد، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنها شيءٌ مغايِرٌ له في الحقيقة واقعٌ عَقيبَه أو حاصلٌ بسببه، بل على أن الأول هو عينُ الثاني حقيقة، وإنما الترتيبُ بحسَب التغايُرِ الاعتباري.

و(قد) لتحقيق ذلك المعنى في قوله تعالى: ﴿**فقد جاءوا ظلمًا وزورًا**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون**﴾ [الفرقان، الآية ٤] فإن ما جاؤوه أي فعلوه من الظلم والزور عينُ قولِهم المَحْكِيّ، لكنه لما كان مغايرًا له مفهومًا وأشنَعَ منه حالًا رُتِّبَ عليه بالفاء ترتيبَ اللازم على الملزوم تهويلًا لأمره، كذلك مفهومُ التكذيب بالحق حيث كان أشنعَ من مفهوم الإعراضِ المذكورِ أُخرِجَ مُخرَجَ اللازم البيِّنِ البُطلان، فرُتِّبَ عليه بالفاء إظهارًا لغاية بُطلانه، ثم قُيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدًا لشناعته وتمهيدًا لبيان أن ما كذبوا به آثرَ ذي أثير له عواقبُ جليلةٌ ستبدو لهم ألبتة، والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبُه أصلًا من غير أن يتدبروا في حاله ومآله، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الموجبةِ لتصديقه، كقوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمه ولمّا يأْتِهم تأويلُه**﴾ [يونس، الآية ٣٩] كما يُنْبئ عنه قوله تعالى: ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾ فإن (ما) عبارةٌ عن الحق المذكور عنه بذلك تهويلًا لأمره بإبهامه، وتعليلًا للحكم بما في حيز الصلة، وأنباؤه عبارةٌ عما سيَحيقُ بهم من العقوبات العاجلة التي نَطَقت بها آياتُ الوعيد، وفي لفظ (الأنباء) إيذانٌ بغاية العِظَم لِما أن النَّبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ عظيمِ الوقع، وحملُها على العقوبات الآجلةِ أو على ظهور الإسلام وعلوِّ كلمتِه تأباه الآياتُ الآتية، و(سوف) لتأكيد مضمونِ الجملة وتقريره، أي فسيأتيهم ألبتةَ[1] وإن تأخرَ مِصْداقُ أنباء الشيءِ الذي كانوا يكذِّبون به قَبلُ مِنْ غير أن يتدبروا في عواقبه، وإنما قيل: (يستهزءون) إيذانًا بأن تكذيبهم كان مقرونًا بالاستهزاء كما أشير إليه. هذا على أن يرادَ بالآيات الآياتُ القرآنيةُ وهو الأظهر، وأما إن أريد بها الآياتُ التكوينيةُ فالفاءُ داخلةٌ على عِلَّة جوابِ شرطٍ محذوف، والإعراضُ على حقيقته كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن تلك

---

(١) أي لا محالة.

الآيات فلا تعجبْ فقد فعلوا بما هو أعظمُ منها ما هو أعظمُ من الإعراض، حيث كذبوا بالحق الذي هو أعظم الآيات، ولا مَساغَ لحمل الآيات في هذا الوجه على الآيات كلها [أصلًا](١)، وأما ما قيل من أن المعنى أنهم لمّا كانوا معرِضين عن الآيات كلِّها كذبوا بالقرآن فمِمّا ينبغي تنزيهُ التنزيلِ عن أمثاله.

﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعيين ما هو المرادُ بالأنباء التي سبق بها الوعيد، وتقرير إتيانِها بطريق الاستشهاد، وهمزةُ الإنكار لتقرير الرؤية، وهي عِرْفانية مستدعيةٌ لمفعول واحد، و(كم) استفهاميةً كانت أو خبريةً معلِّقةٌ لها عن العمل مقيِّدةٌ للتكثير سادّةٌ مع ما في حيِّزها مسدَّ مفعولِها، منصوبةٌ بـ (أهلكنا) على المفعولية على أنها عبارةٌ عن الأشخاص، و(من قرن) مميِّزٌ لها على أنه عبارةٌ عن أهل عصر من الأعصار، سُمّوا بذلك لاقترانهم بُرهةً من الدهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «خيرُ القرون قَرني ثم الذين يلونهم»(٢) الحديث. وقيل: هو عبارة عن مدة من الزمان والمضافُ محذوف، أي من أهل قرن، وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسفٌ ظاهر، و(من) الأولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أي ألم يعرِفوا بمعايَنةِ الآثارِ وسَماعِ الأخبار كم أمةٍ أهلكنا من قبلِ أهل مكة؟ أي من قبلِ خلقِهم، أو من قبل زمانهم على حذف المضاف، وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه، كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم.

وقوله تعالى: ﴿**مكناهم في الأرض**﴾ استئناف لبيان كيفيةِ الإهلاك وتفصيلِ مباديه مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: كيف كان ذلك؟ فقيل: مكناهم إلخ، وقيل: هو صفةٌ لقرنٍ لِما أن النكرةَ مفتقرةٌ إلى مخصص، فإذا وَلِيهَا ما يصلُح مخصِّصًا لها تعيّن وصفيتُه لها، وأنت خبير بأن تنوينَه التفخيميَّ مُغنٍ له عن استدعاء الصفة، على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونُه ومضمونُ ما عُطف عليه من الجُمل(٣) أمرًا مفروغًا عنه غيرَ مقصود بسياق النظم، مؤدٍّ إلى اختلال النظم الكريم، كيف لا والمعنى حينئذٍ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ موصوفين بكذا وكذا، وبإهلاكنا إياهم بذنوبهم، وأنه بيِّنُ الفساد. وتمكينُ الشيء في الأرض جعلُه قارًّا

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٥٨٧) كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، برقم (٢٦٥١)، ومسلم (٤/ ١٩٦٤) كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢١٤/ ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) زاد في المخطوط: لأربع.

فيها، ولمّا لزمه جعلُها مقرًّا له، ورد الاستعمالُ بكلٍّ منهما فقيل: تارةً مكّنه في الأرض، ومنه قوله تعالى: **﴿ولقد مكنّاهم فيما إن مكناكم فيه﴾** [الأحقاف، الآية ٢٦] وأخرى مكّن له في الأرض ومنه قوله تعالى: **﴿إنا مكنّا له في الأرض﴾** [الكهف، الآية ٨٤] حتى أُجرِيَ كلٌّ منهما مُجرَى الآخرَ.

ومنه قوله تعالى: **﴿ما لم نمكن لكم﴾** بعد قوله تعالى: **﴿مكناهم في الأرض﴾**، كأنه قيل في الأول: مكنا لهم، و[1] في الثاني: ما [لم][2] نمكنْكم. و(ما) نكرةٌ موصوفةٌ بما بعدها من الجملة المنفية، والعائد محذوف، محلُها النصبُ على المصدرية، أي مكناهم تمكينًا لم نمكنْه لكم، والالتفاتُ لما في مواجهتهم بضَعف الحال مزيدُ بيانٍ لشأن الفريقين، ولدفعِ الاشتباه من أول الأمر عن مرجِعَي الضميرين.

﴿وأرسلنا السماء﴾ أي المطرَ أو[3] السحابَ أو الظلة[4] لأنها مبدأ المطر **﴿عليهم﴾** متعلق بأرسلنا **﴿مدرارًا﴾** أي مِغزارًا حال من (السماء).

﴿وجعلنا الأنهار﴾ أي صيّرناها فقوله تعالى: **﴿تجري من تحتهم﴾** مفعولٌ ثانٍ لـ (جعلنا)، أو (أنشأناها) فهو حال من مفعوله، و(من تحتهم) متعلق بـ (تجري) وفيه من الدلالة على كونها مسخّرةً لهم مستمرةً على الجريان على الوجه المذكور ما ليس في أن يقالَ: وأجرينا الأنهارَ من تحتهم، وليس المرادُ بتَعدادِ هاتيك النعم العظامِ الفائضةِ عليهم بعد ذكر تمكينهم بيانَ عِظَم جنايتهم في كفرانها واستحقاقَهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيانَ حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادِي الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب، وعدمَ إغناءِ ذلك عنهم شيئًا. والمعنى: أعطيناهم من البسطة في الأجسام والامتدادِ في الأعمار والسَّعةِ من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاع المضارِّ ما لم نُعط أهلَ مكةَ ففعلوا ما فعلوا **﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾** أي أهلكنا كلَّ قرن من تلك القرون بسبب ما يخُصّهم من الذنوب، فما أغنى عنهم تلك العُدَدُ والأسباب، فسيحِلُّ بهؤلاء مثلُ ما حل بهم من العذاب، وهذا كما ترى آخِرُ ما به الاستشهادُ والاعتبار، وأما قولُه سبحانه: **﴿وأنشأنا من بعدهم﴾** أي أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن **﴿قرنًا آخرين﴾** بدلًا من الهالكين فلبيان كمالِ قدرتِه تعالى وسَعة سُلطانه وأن ما ذُكر من إهلاك الأمم الكثيرة لم يَنْقُصْ من ملكه شيئًا بل كلما أهلك أمةً أنشأ بدلها أخرى.

---

(١) في المخطوط: أو.
(٢) زيادة من المخطوط.
(٣) في المخطوط: و.
(٤) في ط: المظلة.

مدى إنكار الكفار لنبوته ﷺ

﴿ولو نزلنا عليك﴾ جملةٌ مستأنفة سيقت بطريق تلوينِ الخطاب لبيان شدةِ شكيمتِهم في المكابرة وما يتفرَّع عليها من الأقاويل الباطلةِ إثْرَ بيانِ إعراضِهم عن آياتِ الله تعالى وتكذيبِهم بالحق واستحقاقِهم بذلك لنزولِ العذاب، ونسبةُ التنزيل هاهنا إليه عليه السلام، مع نسبة إتيانِ الآياتِ ومجيءِ الحقِّ فيما سبق إليهم، للإشعار بقَدْحهم في نبوته عليه السلام في ضمن قدحِهم فيما نزل عليه صريحًا. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في النَّضْر بنِ الحارث[1] وعبدِ اللَّه بنِ أبي أميةَ[2] ونوفلَ بنِ خويلد حيث قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمنَ لك حتى تأتيَنا بكتاب من عند الله ومعه أربعةٌ من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى، وأنك رسولُه ﴿كتابًا﴾ إن جُعل اسمًا كالإمام فقوله: ﴿في قرطاس﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفة له، أي كتابًا كائنًا في صحيفة. وإن جعل مصدرًا بمعنى المكتوب فهو متعلِّق بنفسه ﴿فلمسوه﴾ أي الكتابَ وقيل: القرطاس، وقوله تعالى: ﴿بأيديهم﴾ مع ظهور أن اللمس لا يكون عادةً إلا بالأيدي لزيادة التعيينِ ودفع احتمالِ التجوُّز الواقع في قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماءَ﴾ [الجن، الآية ٨] أي تفحّصنا، أي فمسُّوه بأيديهم بعد ما رأَوْه بأعينهم، بحيث لم يبقَ لهم في شأنه اشتباه، ولم يقدِروا على الاعتذار بتسكير الأبصار ﴿لقال الذين كفروا﴾ أي لقالوا، وإنما وضع الموصولُ موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما في حيز الصلة من الكفر الذي لا يخفىٰ حسنُ موقعِه باعتبار مفهومه اللغوي أيضًا ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿إلا سحر مبين﴾ أي بيِّنٌ كونُه سحرًا، تعنتًا وعنادًا للحق بعد ظهوره كما هو دأْبُ المُفحَمِ المحجوج، وديدَنُ المكابِرِ اللَّجوج.

---

(١) هو: النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدَة بفتح الكاف ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري؛ أسر يوم بدر، وقتل كافرًا، قتله علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ وأجمع أهل المغازي والسير على أنه قتل يوم بدر كافرًا، وإنما قتل؛ لأنه كان شديد الأذى للإسلام والمسلمين، ولما قتل، قالت أخته قُتَيْلَةُ فيه أبياتًا مشهورةً من جملتها:

أَمُحَمَّدٌ وَلأَنْتَ صِنْوُ نَجِيبَةٍ ... مِنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضرك لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا ... مَنَّ الفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

ينظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٢٦).

(٢) هو: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسم أبي أمية: حذيفة، وهو أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة مسلما، وحنينا، والطائف، ورمي من الطائف بسهم فقتله.
ينظر: أسد الغابة (٣/ ١٧٦)، والإصابة (٤/ ١٠).

﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ شروع في قدحهم في نبوته عليه السلام صريحًا بعد ما أُشير إلى قدحهم فيها ضِمنًا. وقيل: هو معطوفٌ على جواب (لو)، وليس بذاك، لما أن تلك المقالةَ الشنعاءَ ليست مما يُقدَّر صدورُه عنهم على تقدير تنزيلِ الكتابِ المذكور، بل هي من أباطيلهم المُحقّقة، وخُرافاتهم المُلفّقة، التي يتعللون بها كلما ضاقتْ عليهم الحيلُ وعيَّت بهم العلل، أي هلا أُنزل عليه عليه السلام مَلكٌ بحيث نراه ويكلمنا أنه نبيٌّ حسبما نُقل عنهم فيما رُوِيَ عن الكلبي ومقاتل، ونظيرُه قولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملكٌ فيكونَ معه نذيرًا﴾ [الفرقان، الآية ٧] ولما كان مدارُ هذا الاقتراح على شيئين: إنزالِ الملَك كما هو وجعلِه معه عليه السلام نذيرًا، أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخُل تحت الوجود أصلًا، لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان في الوجود: لِما أن إنزالَ الملَك على صورته يقتضي انتفاءَ جعلِه نذيرًا، وجعلُه نذيرًا يستدعي عدمَ إنزاله على صورته لا مَحالة. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿ولو أنزلنا ملَكًا لقُضِيَ الأمرُ﴾ أي لو أنزلنا ملَكًا على هيئته حسْبما اقترحوه والحالُ أنه مِن هول المنظر بحيث لا تُطيقُ بمشاهدته قُوىٰ الآحاد البشرية. ألا يرى أن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكةَ ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف إبراهيمَ ولوطٍ وخصْمِ داودَ عليهم السلام وغير ذلك. وحيث كان شأنُهم كذلك وهم مؤيَّدون بالقُوى القدُسيةَ فما ظنُّك بمن عداهم من العوام؟ فلو شاهدوه كذلك لقُضِيَ أمرُ هلاكهم بالكلية، واستحال جعلُه نذيرًا، وهو مع كونه خلافَ مطلوبِهم مستلزمٌ لإخلاءِ العالم عما عليه يدور نظامُ الدنيا والآخرةِ من إرسال الرُّسل، وتأسيسِ الشرائع، وقد قال سبحانه: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا﴾ [الإسراء، الآية ١٥] وفيه كما ترى إيذانٌ بأنهم في ذلك الاقتراحِ كالباحث عن حَتْفه بظلفه، وأن عدم الإجابة إليه للبُقيا عليهم، وبناءُ الفعل الأول في الجواب للفاعل الذي هو نونُ العَظمة مع كونه في السؤال مبنيًّا للمفعول لتهويلِ الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول للجري على سَنن الكِبرياء، وكلمةُ (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي لا يُمْهَلون بعد نزوله طرفةَ عينٍ فضلًا عن أن يُنْذَروا به كما هو المقصودُ بالإنذار، للتنبيه على تفاوت ما بين قضاءِ الأمر وعدمِ الإنظار، فإن مفاجأة العذابِ أشدُّ من نفس العذاب وأشق. وقيل في سبب إهلاكهم: إنهم إذا عاينوا الملَك قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته وهي آيةٌ لا شيءَ أبينُ منها ثم لم يؤمنوا لم يكنْ بدّ من إهلاكهم، وقيل: إنهم إذا رأَوه يزول الاختيارُ الذي هو قاعدةُ التكليف، فيجبُ إهلاكُهم، وإلى الثاني أُشير بقوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا﴾ على أن الضميرَ الأول للتقدير المفهومِ من فحوى الكلام بمعونة

المقام، وإنما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين ويقال: ولو جعلناه نذيرًا لجعلناه رجلًا مع فهم المراد منه أيضًا لتحقيق أن مناطَ إبرازِ الجعل الأول في معرِض الفرض والتقدير، ومدارَ استلزامِه الثانيَ إنما هو مَلَكيةُ النذير، لا نذيريّة المَلَك، وذلك لأن الجعل حقُّه أن يكون مفعولُه الأولُ مبتدأ والثاني خبرًا، لكونه بمعنى التصييرِ المنقول من (صار) الداخِلِ على المبتدأ والخبر.

ولا ريب في أن مصَبّ الفائدة ومدارَ اللزوم بين طَرَفي الشرطية هو محمولُ المقدَّم لا موضوعُه، فحيث كانت امتناعيةً أريد بها بيانُ انتفاءِ الجعْلِ الأول لاستلزامه المحذور الذي هو الجعل الثاني وجب أن يُجعلَ مدارُ الاستلزام في الأول مفعولًا ثانيًا لا محالة، ولذلك جَعَل مُقابِلَه في الجعل الثاني كذلك، إبانةً لكمال التنافي بينهما الموجبِ لانتفاء الملزوم، والضمير الثاني للملك لا لما رجع إليه الأول. والمعنى: لو جعلنا النذيرَ الذي اقترحوه ملكًا لمثّلنا ذلك المَلَكَ رجلًا لما مر من عدم استطاعةِ الآحاد لمُعاينَةِ الملك على هيكله، وفي إيثار (رجلًا) على (بشرًا) إيذانٌ بأن الجعلَ بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة، وتعيينٌ لما يقع به التمثيل، وقوله تعالى: ﴿**وللَبَسْنا عليهم**﴾ عطفٌ على جواب لو مبنيّ على الجواب الأول، وقرئ[1] بحذف لام الجواب اكتفاءً بما في المعطوف عليه، يقال: لَبَستُ الأمرَ على القوم ألبِسُه إذا شبّهتُه وجعلته مُشكِلًا عليهم، وأصله الستر بالثوب، وقرئ[2] الفعلان بالتشديد للمبالغة، أي ولَخلّطنا عليهم بتمثيله رجلًا ﴿**ما يلبِسون**﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له: إنما أنت بشرٌ ولست بمَلَك، ولو استُدل على مَلَكيته بالقرآن المعجزِ الناطقِ بها أو بمعجزاتٍ أُخَرَ غيرِ مُلجئةٍ إلى التصديق لكذّبوه كما كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام، ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم الأمر الأول، والتعبير عن تمثيله تعالى رجلًا باللَّبْس إما لكونه في صورة اللبس، أو لكونه سببًا لِلَبْسِهم، أو لوقوعه في صُحبته بطريق المشاكلة، وفيه تأكيدٌ لاستحالة جعل

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن، والبزي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٥)، والبحر المحيط (٤/ ٧٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥).

(٢) قرأ بها: لبَّسنا: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٥).
وللَبَّسْنا: الزهري.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٧٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥).
يُلَبّسون: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٥).

النذيرِ مَلَكًا كأنه قيل: لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لَبْس الأمر عليهم، وقد جُوِّز أن يكونَ المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثلَ ما يلبِسون على أنفسهم الساعةَ في كفرهم بآيات الله البينة.

﴿ولقد استهزئ برسلٍ من قبلك﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه، وفي تصدير الجملة بلام القسم وحرفِ التحقيق من الاعتناء به ما لا يخفى، وتنوينُ (رسل) للتفخيم والتكثير، و(من) ابتدائية متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً لرسل، أي وبالله لقد استهزئ برسل أولي شأنٍ خطيرٍ وذوي عددٍ كثير كائنين من زمانٍ قبلَ زمانك، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه ﴿فحاق﴾ عَقيبه أي أحاط أو نزل أو حلَّ أو نحوُ ذلك، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر، و(الحَيْق) ما يشتمل على الإنسان من مكروهِ فِعْلِه.

وقوله تعالى: ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أي استهزءوا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق، وتقديمُه على فاعله الذي هو قوله تعالى: ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم، و(ما) إما موصولةٌ مفيدةٌ للتهويل، أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أُهلكوا لأجله، وإما مصدريةٌ أي فنزل بهم وَبالُ استهزائهم، وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل.

العبرة في تواريخ الأقدمين

﴿قل سيروا في الأرض﴾ بعد بيانِ ما فعلت الأممُ الخالية وما فُعل بهم خوطب رسولُ الله ﷺ بإنذار قومه، وتذكيرِهم بأحوالهم الفظيعة تحذيرًا لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية بما في ضِمْنه من العِدَة اللطيفة بأنه سيَحيقُ بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم الأولين، ولقد أنجَز ذلك يومَ بدرٍ أيَّ إنجازٍ، أي سيروا في الأرض لتعرِفوا أحوال أولئك الأمم ﴿ثم انظروا﴾ أي تفكروا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ وكلمة (ثم) إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتسنّى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم، وإما لإبانة ما بينهما من التفاوت في مراتب الوجوب وهو الأظهر، فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلةً إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء في قوله عز وجل: ﴿فانظروا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٧] الآية، وإما أن الأمر الأول لإباحة السير للتجارة ونحوها، والثاني لإيجاب النظر في آثارهم، و(ثم) لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام، و(كيف) معلِّقةٌ لفعل النظر، ومحلُ الجملة النصبُ بنزع الخافض أي تفكروا في أنهم كيف أُهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبة مصدرٌ كالعافية ونظائرِها، وهي

منتهى الأمرِ ومآلِه، ووضعُ المكذبين موضعَ المستهزئين لتحقيق أن مدارَ إصابةِ ما أصابهم هو التكذيبُ لينزجِرَ السامعون عنه لا عن الاستهزاء فقط، مع بقاء التكذيب بحاله بناءً على توهُّم أنه المدار في ذلك.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾

﴿قل﴾ لهم بطريق الإلجاء والتبكيت ﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ من العقلاء وغيرِهم، أي لمن الكائناتُ جميعًا خلْقًا ومُلكًا وتصرّفًا؟ وقوله تعالى: ﴿قل لله﴾ تقريرٌ لهم وتنبيهٌ على أنه المتعيَّنُ للجواب بالاتفاق بحيث لا يتأتّى لأحد أن يُجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله﴾** [لقمان، الآية ٢٥] وقوله تعالى: **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** جملةٌ مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقةٌ بشمول رحمتِه الواسعةِ لجميع الخلق شمولَ مُلكِه وقدرته للكلِّ، مَسوقةٌ لبيانِ أنه تعالى رؤوفٌ بعباده لا يعجَلُ عليهم بالعقوبة بل يقبل منهم التوبةَ والإنابةَ، وأن ما سبق ذكرُه وما لحِقَ من أحكام الغضب ليس من مقتَضيَات ذاتِه تعالى، بل من جهة الخَلْق، كيف لا ومن رحمتِه أن خلقَهم على الفطرة السليمة وهداهم إلى معرفته وتوحيدِه بنَصْب الآياتِ الأنفسية والآفاقية، وإرسالِ الرسل، وإنزالِ الكُتب المشحونة بالدعوة إلى موجباتِ رِضوانِه، والتحذيرِ عن مقتَضيَات سُخْطِه، وقد بدّلوا فطرةَ الله تبديلًا، وأعرَضوا عن الآياتِ بالمرة، وكذّبوا بالكتب واستهزءوا بالرسل، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، ولولا شمولُ رحمتِه لسلك بهؤلاءِ أيضًا مَسلكَ الغابرين. ومعنى كتب على نفسه الرحمة أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضُّل والإحسانِ على ذاته المقدّسةِ بالذات لا بتوسُّط شيءٍ أصلًا، وقيل: هو ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لمَّا قضى الله**

تعالى الخلقَ كتَبَ في كتابٍ فهو عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي»[(١)].

وعن عمرَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لكعب: **«ما أولُ شيءٍ ابتدأه الله تعالى مِنْ خلقه؟»** فقال كعب: كتبَ الله كتابًا لم يكتبْه بقلم ولا مِدادٍ كتابةَ الزَّبَرْجد واللؤلؤ والياقوت: «إني أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي»[(٢)].

ومعنى سبْقِ الرحمةِ وغَلَبتِها أنها أقدمُ تعلُّقًا بالخلق وأكثرُ وصولًا إليهم مع أنها من مقتضيات الذاتِ المفيضةِ للخير، وفي التعبير عن الذات بالنفس حجةٌ على من ادّعى أن لفظَ النفسِ لا يُطلق على الله تعالى وإن أريد به الذاتُ إلا مشاكلةً[(٣)] لِما ترَى من انتفاءِ المشاكلة هاهنا بنَوْعَيْها.

وقوله تعالى: ﴿**ليجمعنكم إلى يوم القيامة**﴾ جوابُ قسم محذوف، والجملة استئنافٌ مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالِهم النظرَ، أي واللهً ليجمعنّكم في القبور مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شِرْككم وسائرِ معاصيكم وإن أمهلكم بموجَب رحمتِه ولم يعاجِلْكم بالعقوبة الدنيوية وقيل: (إلى) بمعنى اللام، أي

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٢٦) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، برقم (٣١٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧) كتاب التوبة، باب: سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، برقم (١٤/ ٢٧٥١).

(٢) لم أقف عليه مرفوعًا، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٢٧٧) برقم (١٣١٠٨) موقوفًا من طريق أبي المخارق زهير بن سالم قال: قال عمر لكعب: ما أول شيء ابتدأه الله من خلقه؟ فقال كعب ... فذكره.

(٣) معنى الكلام بالتفصيل على هذه القضية ومواقف العلماء منها عند الكلام على قوله تعالى في المائدة ﴿تعلم ما في نفسى ولا أعلم ما نفسك﴾.

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم.

الظاهر أن الغطاء والصمم هنا ليسا حقيقة بل ذلك من باب استعارة المحسوس للمعقول حتى يستقر في النفس، استعار الأكنة لصرف قلوبهم عن تدبر آيات الله والثقل في الآذان لتركهم الإصغاء إلى سماعه، وقال قوم: ذلك حقيقة وهو لا يشعر به كمداخلة الشيطان باطن الإنسان، وهو لا يشعر به، وهم الذي يفرون من نسبة الجعل إلى الله، وقد نحا الزمخشري هذا النحو، وأما عند أهل السنة فنسبة الجعل إلى الله حقيقة لا مجاز. قال ابن عطية: وهذه عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلط والبعد عن قبول الخير كأنهم لم يكونوا سامعين لأقواله، ذكره أبو حيان في البحر، والوقر مستعار لعدم فهم المسموعات جعل عدم الفهم بمنزلة الصمم، ولم يذكر للوقر متعلق يدل على الممنوع بوقر آذانهم؛ لظهور أنه من أن يسمعوه؛ لأن الوقر مؤذن بذلك، ولأن المراد السمع المجازي، وهو العلم بما تضمنه المسموع.

ينظر: الكشاف (٢/ ١٢)، والبحر المحيط (٤/ ٩٧، ٩٨)، والفتوحات الإلهية (٢/ ١٧)، والتحرير والتنوير (٧/ ١٨٠).

ليجمعنكم ليوم القيامة كقوله تعالى: ﴿إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ [آل عمران، الآية ٩] وقيل: هي بمعنى في أي ليجمعنكم في يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي في اليوم أو في الجمع.

وقوله تعالى: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي بتضييع رأسِ مالهم وهو الفطرةُ الأصليةُ والعقلُ السليم والاستعدادُ القريبُ الحاصلُ من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام، واستماعِ الوحْي وغيرِ ذلك من آثار الرحمة، في موضع النصْب أو الرفعِ على الذم أي أعنيَ الذين إلخ، أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، والإشعارُ بأن عدمَ إيمانهم بسبب خُسرانهم، فإن إبطالَ العقل باتباع الحواسِّ والوهم والانهماك في التقليد، وإغفالِ النظر أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناعِ من الإيمان. والجملةُ تذييلٌ مَسوقٌ من جهته تعالى لتقبيح حالهم غيرُ داخلٍ تحت الأمر.

﴿وله﴾ أي لله عز وجل خاصةً ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ نُزِّلَ الملوان[1] منزلةَ المكان فعبّر عن نسبة الأشياء الزمانية إليهما بالسُكنى فيهما، وتعديتُه بكلمة (في) كما في قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكنِ الذين ظلموا أنفسهم﴾ [إبراهيم، الآية ٤٥] أو السكونِ مقابلَ الحركة، والمرادُ ما سكن فيهما أو تحرّك فاكتفي بأحد الضدَّيْن عن الآخر ﴿وهو السميع﴾ المبالغُ في سماع كلِّ مسموع ﴿العليم﴾ المبالغ في العلم بكلّ معلوم، فلا يخفى عليه شيءٌ من الأقوال والأفعال.

﴿قل﴾ لهم بعد ما بكّتهم بما سبق من الخطاب ﴿أغير الله أتخذ وليًّا﴾ أي معبودًا بطريق الاستقلالِ أو الاشتراك، وإنما سُلِّطت الهمزةُ على المفعول الأول لا على الفعل إيذانًا بأن المنكرَ هو اتخاذُ غيرِ الله وليًّا، لا اتخاذُ الوليِّ مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿أغيرَ الله أبغي ربًا﴾ [الأنعام، الآية ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿أفغيرَ الله تأمُرونيِّ أعبد﴾ [الزمر، الآية ٦٤] إلخ ﴿فاطرِ السموات والأرض﴾ أي مُبدعِهما، بالجرِّ صفةٌ للجَلالة مؤكِّدةٌ للإنكار لأنه بمعنى الماضي، ولذلك قرئ[2] (فطَرَ) ولا يضرّ الفصلُ بينهما بالجملة لأنها ليست بأجنبية إذ هي عاملةٌ في عامل الموصوف أو بدلٌ فإن الفصلَ بينه وبين المبدل منه أسهلُ لأن البدلَ على نية تكرير العامل وقرئ بالرفع[3]

---

(١) الملوان: هما الليل والنهار.

(٢) قرأ بها: الزهري.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦)، وتفسير الرازي (٤/ ١٦).

(٣) قرأ بها: ابن أبي عبلة، والأخفش.

=

والنصب[١] على المدح، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفتُ معنى الفاطرِ حتى اختصم إليَّ أعرابيانِ في بئر فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها أي ابتدأتها[٢].

﴿**وهو يطعِم ولا يطعَم**﴾ أي يرزُق الخلق ولا يُرْزَق، وتخصيصُ الطعام بالذكر لشدة الحاجة إليه أو لأنه معظمُ ما يصل إلى المرزوق من الرزق، ومحل الجملة النصبُ على أن الضميرَ لغير الله والمعنى أأُشرِك بمن هو فاطرُ السموات والأرض ما هو نازلٌ عن رتبة الحيوانية؟ وببنائهما للفاعل على أن الثانيَ بمعنى يستطعم أو معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى: ﴿**يقبض ويبسط**﴾ [البقرة، الآية ٢٤٥].

﴿**قل**﴾ بعد بيان اتخاذِ غيرِه تعالى وليًّا مما يَقْضي ببطلانه بديهةُ العقول ﴿**إني أمرت**﴾ من جنابه عز وجل ﴿**أن أكون أول من أسلم**﴾ وجهَه لله مخلِصًا له لأن النبيَّ إمامُ أمته في الإسلام كقوله تعالى: ﴿**وبذلك أمِرْتُ وأنا أول المسلمين**﴾ [الأنعام، الآية ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿**سبحانك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين**﴾ [الأعراف، الآية ١٤٣] ﴿**ولا تكونَن**﴾ أي وقيل لي: ولا تكونن ﴿**من المشركين**﴾ أي في أمر من أمور الدين، ومعناه أُمرت بالإسلام ونُهيتُ عن الشرك، وقد جوَّزَ عطفَه على الأمر ﴿**قل إني أخاف إن عصيت ربي**﴾ أي بمخالفة أمرِه ونهيه أيَّ عصيانٍ كان فيدخل فيه ما ذُكِر دخولًا أوليًّا وفيه بيانٌ لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصي على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾ أي عذابَ يوم القيامة، مفعولُ أخاف، والشرطية معترِضةٌ بينهما، والجوابُ محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه وفيه قطعٌ لأطماعهم الفارغة وتعريضٌ بأنهم عصاةٌ مستوجبون للعذاب العظيم.

﴿**من يُصرَف عنه**﴾ على البناء للمفعول أي العذاب، وقرئ[٣] على البناء للفاعل

= ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٨٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٩٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦)، والمعاني للفراء (١/ ٣٢٩)، وتفسير الرازي (٤/ ١٦).

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٧)، والبحر المحيط (٤/ ٨٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٩٧)، والمعاني للفراء (١/ ٣٢٨)، وتفسير الرازي (٤/ ١٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢/ ١٧٤) رقم (٧٤٨)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» رقم (١٦٨٢)، وأخرجه الطبري في تفسيره: (٥/ ١٥٨) رقم (١٣١١٤)؛ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١١)، وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، ويعقوب، وابن مسعود، وأبو حاتم، وأبو عبيد، وشعبة. ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٣٨)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣٧-١٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٨٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٩٥)، والتيسير للداني ص (١٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٨٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٩٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٣)، والسبعة =

والضمير لله سبحانه، وقد قرئ[1] بالإظهار، والمفعول محذوف وقوله تعالى: ﴿**يومئذ**﴾ ظرف للصرف، أي في ذلك اليوم العظيم، وقد جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أي عذاب يومئذ ﴿**فقد رحمه**﴾ أي نجاه وأنعم عليه وقيل: فقد أدخله الجنة كما في قوله تعالى: ﴿**فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز**﴾ [آل عمران، الآية ١٨٥] والجملة مستأنفةٌ مؤكِّدةٌ لتهويل العذاب، وضميرُ عنه ورَحمه (لمن)، وهو عبارة عن غير العاصي ﴿**وذلك**﴾ إشارة إلى الصرف أو الرحمة، لأنها مؤوّلة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته، وبعد مكانه في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿**الفوز المبين**﴾ أي الظاهرُ كونُه فوزًا وهو الظَفَر بالبُغية، والألف واللام لقصره على ذلك.

﴿**وإن يمسَسْك الله بضر**﴾ أي ببليةٍ كمرَض وفقر ونحو ذلك ﴿**فلا كاشف له**﴾ أي فلا قادرَ على كشفه عنك ﴿**إلا هو**﴾ وحده ﴿**وإن يمسسك بخير**﴾ من صِحةٍ ونعمةٍ ونحو ذلك ﴿**فهو على كل شيء قدير**﴾ ومن جملته ذلك، فيقدِرُ عليه فيمسَسْك به ويحفَظْه عليك من غير أن يقدِرَ على دفعه، أو على رفعه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿**فلا رادَّ لفضله**﴾ [يونس، الآية ١٠٧] وحملُه على تأكيد الجوابين يأباه الفاء.

تذكرة

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أُهدي للنبي ﷺ بغلةٌ أهداها له كسرى، فركِبها بحبْل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي ميلًا، ثم التفت إلي فقال: «**يا غلام**» فقلت: لبيك يا رسول الله. فقال: «احفَظِ الله يحفَظْك، احفظ الله تجدْه أمامك، تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرِفْك في الشدة، وإذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، فقد مضىٰ القلمُ بما هو كائن، فلو جَهَدَ الخلائقُ أن ينفعوك بما لم يقضِه الله لك لم يقدِروا عليه، ولو جَهَدوا أن يضروك بما لم يكتُبِ الله عليك ما قدَروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطِعْ فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع الكرْب فرَجًا، وأن مع العسر يسرًا»[2].

= لابن مجاهد ص (٢٥٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٨٠)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٨٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٦٦٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم (٢٥١٦)، =

﴿وهو القَاهِرُ فوق عباده﴾ تصويرٌ لقهره وعلوِّه بالغَلَبة والقُدرة ﴿وهو الحكيم﴾ في كل ما يفعله ويأمر به ﴿الخبير﴾ بأحوال عبادِه وخفايا أمورِهم، واللام في المواضع الثلاثة للقصر.

رد على مشركي قريش

﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ روي (أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهودَ والنصارى فزعموا أنْ ليس عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ فأرِنا من يشهد لك أنك رسولُ الله فنزلت)[١].

(فأيّ) مبتدأ و(أكبرُ) خبره و(شهادة) نُصب على التمييز.

وقوله تعالى: ﴿قل الله﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بأن يتولّى الجواب بنفسه، إما للإيذان بتعيُّنه وعدمِ قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لا لتردُّدهم في أنه أكبرُ من كل شيء، بل في كونه شهيدًا في هذا الشأن، وقوله تعالى: ﴿شهيد﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي هو شهيد ﴿بيني وبينكم﴾ ويجوز أن يكون (الله شهيد بيني وبينكم) هو الجواب، لأنه إذا كان هو الشهيدَ بينه وبينهم كان أكبرُ شيءٍ شهادةً شهيدًا له عليه الصلاة والسلام، وتكريرُ (البين) لتحقيق المقابلة ﴿وأوحيَ إلي﴾ أي من جهته تعالى ﴿هذا القرآن﴾ الشاهدُ بصِحة رسالتي ﴿لأنذركم به﴾ بما فيه من الوعيد، والاقتصارُ على ذكر الإنذار لما أن الكلام مع الكفرة ﴿ومن بلغ﴾ عطفٌ على ضمير المخاطَبين أي لأنذركم به يا أهلَ مكةَ وسائرَ مَنْ بلغه من الأسودِ والأحمرِ أو من الثقلَيْن، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعمُّ الموجودين يوم نزولِه ومن سيوجد بَعْدُ إلى يوم القيامة، خلا أن ذلك بطريق العبارة في الكل عند الحنابلة، وبالإجماع عندنا[٢] في غير

= وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠) برقم (٢٥٥٦)، والحاكم واللفظ له (٣/ ٦٢٣) كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم باب: ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس- رضي الله عنهما - إلا أن الشيخين- رضي الله عنهما- لم يخرجا شهاب بن خراش ولا القداح في الصحيحين، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا.
قال الذهبي عقب كلام الحاكم: لأن القداح. قال أبو حاتم: متروك، والآخر مختلف فيه، وعبد الملك لم يسمع من ابن عباس فيما أرى. قلت: لكن إسناد الترمذي سالم منه.

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ١٤٠) عن الكلبي بدون إسناد.

(٢) العبارة في اللغة: مصدر عبر، يقال: عبر الرؤيا يعبرها عبرا وعبارة، وعبرها، أي: فسرها، وهي - أيضا - اسم بمعنى: الإعراب والبيان، يقول ابن منظور: «عبر عما في نفسه: أعرب، وبين... والاسم: =

الموجودين وفي غير المكلفين يومئذ كما مر في أول سورة النساء.

﴿**أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى**﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد ﴿**قل لا أشهد**﴾ بذلك وإن شهدتم به فإنه باطل صِرْف ﴿**قل**﴾ تكرير للأمر للتأكيد ﴿**إنما هو إله واحد**﴾ أي بل إنما أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿**وإنني بريء مما تشركون**﴾ من الأصنام أو من إشراككم.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ

= العبرة والعبارة».

ينظر: لسان العرب مادة (عبر)، (٤/ ٢٧٨٢).

أما في الاصطلاح: فالمراد بعبارة النص عند الحنفية، هو دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له، أو جزئه، أو لازمه المتأخر، إن لم يكن الكلام مسوقا له.

ومعنى هذا: أن المشرع إذا قصد «إلى معنى، أو حكم، فأورد نصا يعبر عن هذا الحكم المقصود، كان ذلك النص عبارة فيه؛ لوجود القصد إليه وسوق الكلام أو تشريع النص من أجله، وقد يشتمل النص على حكمين، أو أكثر، ويقوم الدليل على أن كلا منهما مقصود، ولكن بعضها مقصود أولا وبالذات، والآخر مقصود تبعا؛ جيء به كتمهيد للمعنى الأول، وتوطئة له، فالنص يعتبر عبارة فيهما، ما دام قد اتجه قصد المشرع إليهما في تشريعه للنص، ويعرف قصد المشرع، أو المتكلم بالقرائن الخارجية، أو من سياق النص نفسه».

ينظر: أصول الشاشي، ص (٦٥)، وأصول السرخسي (١/ ٢٣٦)، وفواتح الرحموت (١/ ٤٠٦)، والتلويح على التوضيح (١/ ١٣٠)، والمنار، ص (١٢)، وشرح نور الأنوار على المنار (١/ ٣٧٤)، وفتح الغفار بشرح المنار (٢/ ٤٤)، وكشف الأسرار للبخاري (١/ ١٧١، ١٧٢)، وكشف الأسرار للنسفي (١/ ٣٧٤)، ومرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول (٢/ ٦٩ - ٧٤)، وأصول الفقه الإسلامي لوهبة الزحيلي (١/ ٣٤٩)، وأصول الفقه الإسلامي، لزكي الدين شعبان، ص (٣٦٢، ٣٦٣)، وأصول الفقه الإسلامي، لمصطفى شلبي، ص (٤٨٩)، وفي التفسير الفقهي، ص (٨٧)، وعلم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، ص (١٤٤).

وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أُخِّر عن تعيين الشهيد مسارعةً إلى إلزامهم بالجواب عن تحكّمهم بقولهم: فأرنا من يشهد لك إلخ، والمرادُ بالموصول اليهودُ والنصارى، وبالكتاب الجنسُ المنتظمُ للتوراة والإنجيل، وإيرادُهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم بقوله تعالى: **﴿يعرفونه﴾** أي يعرفون رسولَ الله ﷺ من جهة الكتابَيْن بحِلْيته ونُعوتِه المذكورة فيهما **﴿كما يعرفون أبناءهم﴾** بحِلاهم بحيث لا يشكون في ذلك أصلًا. روي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة قال عمرُ رضي الله عنه لعبد اللّه بن سلام: أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيةَ وكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفتُه فيكم حين رأيته كما أعرِف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمدٍ مني بابني، لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه[1] حقٌّ من الله تعالى[2].

﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيّعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبةِ للإيمان بالكلية **﴿فهم لا يؤمنون﴾** لما أنهم مطبوعٌ على قلوبهم، ومحل الموصول الرفعُ على الابتداء وخبرُه الجملة المصدرةُ بالفاء لِشَبَه الموصول بالشرط، وقيل: على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي هم الذين خسروا إلخ، وقيل: على أنه نعتٌ للموصول الأول، وقيل: النصبُ على الذم، فقوله تعالى: **﴿فهم لا يؤمنون﴾** على الوجوه الأخيرة عطفٌ على جملة **﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾** الخ.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ بوصفهم النبيَّ الموعودَ في الكتابين بخلاف أوصافِه عليه الصلاة والسلام فإنه افتراءٌ على الله سبحانه وبقولهم: الملائكةُ بناتُ الله، وقولِهم: **﴿هؤلاءِ شفعاؤُنا عند الله﴾** [يونس، الآية ١٨]، ونحو ذلك، وهو إنكارٌ واستبعادٌ لأن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساويًا له، وإن كان سبكُ التركيب غيرَ متعرِّض لإنكار المساواة ونفيُها يشهد به العُرف الفاشي، والاستعمالُ

---

(١) زاد في ط: من.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢/ ١٣).

المطَّرد، فإنه إذا قيل: من أكرمُ من فلانٍ أو لا أفضلَ من فلان فالمرادُ به حتمًا أنه أكرمُ من كل كريم، وأفضلُ من كل فاضل، ألا يُرى إلى قوله عز وجل: ﴿**لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون**﴾ [هود، الآية ٢٢] بعد قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا**﴾ إلخ، والسرُّ في ذلك أن النسبةَ بين الشيئين إنما تُتصوَّر غالبًا، لا سيما في باب المغالبة، بالتفاوُت زيادةً ونُقصانًا، فإذا لم يكن أحدُهما أزيدَ يتحقق النُقصانُ لا محالة.

﴿**أو كذب بآياته**﴾ كأن كذّبوا بالقرآن الذي من جملته الآيةُ الناطقةُ بأنهم يعرِفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرِفون أبناءهم، وبالمُعجزات وسمَّوْها سحرًا، وحرفوا التوراة وغيّروا نُعوته عليه الصلاة والسلام، فإن ذلك تكذيبٌ بآياته تعالى، وكلمةُ (أو) للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غايةَ الإفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفَوْا ما أثبته، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿**إنه**﴾ الضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادِّعاءُ شهرتِه المُغْنية عن ذكره، وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذانُ بفَخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فإن الضمير لا يُفهم منه من أول الأمر إلا شأنٌ مُبهمٌ له خطرٌ فيبقىٰ الذهن مترقبًا لما يعقبُه فيتمكّن عند وروده له فضلُ تمكُّنٍ فكأنه قيل: إن الشأن الخطيرَ هذا هو ﴿**لا يفلح الظالمون**﴾ أي لا ينجُون من مكروهٍ ولا يفوزون بمطلوب، وإذا كان حالُ الظالمين هذا فما ظنُّك بمن في الغاية القاصيةِ من الظلم.

﴿**ويوم نحشرهم جميعًا**﴾ منصوبٌ على الظرفية بمُضمر مؤخَّرٍ قد حُذف إيذانًا بضيق العبارة عن شرحه وبيانه، وإيماءً إلى عدم استطاعة السامعين لسماعِه لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطامة والداهية التامة، كأنه قيل: ويوم نحشرهم جميعًا ﴿**ثم نقول**﴾ لهم ما نقول كأن من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرةُ المقال، وتقديرُ صيغةِ الماضي للدلالة على التحقّق ولحُسنِ موقَعِ عطفِ قوله تعالى: ﴿**ثم لم تكن**﴾ [الأنعام، الآية ٢٣] إلخ عليه، وقيل: منصوب على المفعولية بمضمر مقدّم، أي واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم إلخ، وقيل: وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم إلخ، والضمير للكل، وجميعًا حال منه.

وقرئ[1] (يَحشرُهم جميعًا ثم يقول) بالياء فيهما.

---

(١) قرأ بها: حميد، ويعقوب، والمطوعي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٦)، والبحر المحيط (٤/ ٩٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٠٣)، =

﴿للذين أشركوا﴾ أي نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿أين شركاؤكم﴾ أي آلهتُكم التي جعلتموها شركاءَ لله سبحانه، وإضافتُها إليهم لما أن شِرْكتَها ليست إلا بتسميتهم وتقوُّلهم الكاذب كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ أي تزعُمونها شركاءَ، فحُذِف المفعولان معًا، وهذا السؤالُ المُنبِئ عن غَيْبة الشركاءِ مع عموم الحشر لها لقوله تعالى: ﴿احشُروا الذين ظلموا وأزواجَهم وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ [الصافات، الآية ٢٢] وغيرِ ذلك من النصوص إنما يقع بعد ما جرى بينها وبينهم من التبرُّؤ من الجانبين، وتقطَّع ما بينهم من الأسباب والعلائقِ حسبما يحكيه من قوله تعالى: ﴿فزيلْنا بينهم﴾ [يونس، الآية ٢٨] إلخ، ونحوُ ذلك من الآيات الكريمة، إما بعدم حضورِها حينئذٍ في الحقيقة بإبعادها من ذلك الموقف، وإما بتنزيل عدمِ حضورها بعُنوان الشِرْكة والشفاعة منزلةَ عدم حضورها في الحقيقة، إذ ليس السؤالُ عنها من حيث ذواتُها، بل إنما هو من حيث إنها شركاءُ كما يُعرب عنه الوصفُ بالموصول، ولا ريب في أن عدم الوصفِ يوجب عدمَ الموصوف من حيث هو موصوف، فهي من حيث هي شركاءُ غائبةٌ لا محالة وإن كانت حاضرةً من حيث ذواتُها أصنامًا كانت أو غيرها، وأما ما يقال من أنه يُحال بينها وبينهم في وقت التوبيخ ليفقِدوهم في الساعة التي علّقوا بها الرجاءَ فيها فيرَوْا مكان خِزْيهم وحسرتِهم فربما يُشعِر بعدم شعورِهم بحقيقة الحال وعدمِ انقطاع حبالِ رجائهم عنها بعدُ. وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك، وانصرمت عُروةُ أطماعهم عنها بالكلية، على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ، وإنما الذي يحصُل يوم الحشر الانكشافُ الجليُّ واليقين القويُّ، المترتبُ على المحاضَرة والمحاوَرة.

﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ بتأنيث الفعلِ ورفع (فتنتُهم) على أنه اسمٌ له والخبرُ ﴿إلا أن قالوا﴾.

وقرئ[1] بنصب (فتنتَهم) على أنها الخبرُ والاسمُ إلا أن قالوا، والتأنيث للخبر

= والحجة لابن خالويه ص (١٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(١) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشعبة، وخلف.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٤٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٧، ١٣٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٩٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٠٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٨٣).

كما في قولهم: من كانت أمَّك؟

وقرئ[١] بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها[٢]، ورفعُها أنسبُ بحسب المعنى، والجملة عطفٌ على ما قُدّر عاملًا في يوم نحشرهم كما أشير إليه فيما سلف، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعم الأشياء، وفتنتُهم إما كفرُهم مرادًا به عاقبتُه أي لم تكن عاقبةُ كفرِهم الذي لزِموه مدةَ أعمارِهم وافتخروا به شيئًا من الأشياء إلا جحودَه والتبرؤَ منه بأن يقولوا: ﴿**والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ وإما جوابُهم، عبّر عنه بالفتنة لأنه كذِب، ووصفُه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة في التبرّؤ من الإشراك.

وقرئ[٣] (ربَّنا) على النداء، فهو لإظهار الضراعة والابتهال في استدعاء قبول المعذرة، وإنما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزِلٍ من النفع رأسًا من فرط الحَيْرة والدهَش، وحملُه على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا في الدنيا أنا على خطأ في معتقَدِنا مما لا ينبغي أن يُتوهّم أصلًا، فإنه يُوهِم أن لهم عذرًا ما، وأن لهم قدرةً على الاعتذار في الجملة، وذلك مُخِلٌّ بكمال هَوْل اليوم قطعًا، على أنه قد قضىٰ ببطلانه قوله تعالى: ﴿**انظر كيف كذبوا على أنفسهم**﴾ فإنه تعجيبٌ من كذبهم الصريح بإنكار صدورِ الإشراك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم في قولهم ذلك، فإنه أمرٌ عجيب في الغاية، وأما حملُه على كذبهم في الدنيا فتمحُّلٌ يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه.

وقوله تعالى: ﴿**وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ عطف على كذَبوا داخلٌ معه في حكم التعجيب، و(ما) مصدريةٌ أو موصولةٌ قد حُذف عائدُها، والمعنى انظر كيف كذَبوا باليمين الفاجرةِ المغلَّظة على أنفسهم بإنكار صدور ما صدر عنهم، وكيف ضل عنهم أي زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفَوا صدوره عنهم

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٦/ ٤٠٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٦)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٤٠).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وعلقمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٤١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٧، ١٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٩٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٠٣)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٠٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٨٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

بالكلية، وتبرأوا منه بالمرة. وقيل: (ما) عبارةٌ عن الشركاء، وإيقاعُ الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقعٌ على أحوالها من الإلٰهية والشِرْكة والشفاعة ونحوِها للمبالغة في أمرها كأنها نفسُ المفترىٰ، وقيل: الجملة كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ في حيز التعجيب ﴿**ومنهم من يستمع إليك**﴾ كلامٌ مبتدأ مَسوقٌ لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر، ثم بيانِ ما سيصدُر عنهم يوم الحشر تقريرًا لما قبله وتحقيقًا لمضمونه، والضميرُ للذين أشركوا، ومحلُ الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف، كما في قوله تعالى: ﴿**ومنا دونَ ذلك**﴾ [الجن، الآية ١١] أي وجمعٌ منا إلخ و(من) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية، والمعنى وبعضهم أو وبعضٌ منهم الذي يستمع إليك أو فريق يستمع إليك على أن مناطَ الإفادة اتصافُهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول**﴾ [البقرة، الآية ٨] إلخ.

رُوي أنه اجتمع أبو سفيانَ والوليدُ والنضْرُ وعُتبةُ وشيبةُ وأبو جهلٍ وأضرابُهم يستمعون تلاوةَ رسول الله ﷺ فقالوا للنضر وكان صاحبَ أخبارٍ: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول إلا أنه يحرِّك لسانه ويقول أساطيرَ الأولين مثلَ ما حدثْتُكم من القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقًّا، فقال أبو جهل: كلا فنزلت[1].

﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة**﴾ من الجَعْل بمعنى الإنشاء و(على) متعلقةٌ به وضمير قلوبهم راجعٌ إلى (مَنْ) وجمعيتُه بالنظر إلى معناها كما أن إفراد ضميرِ يستمعُ بالنظر إلى لفظها وقد رُوعيَ جانب المعنى في قوله تعالى: ﴿**ومنهم من يستمعون إليك**﴾ [يونس: الآية ٤٢] الآية، والأكنة جمع كِنان وهو ما يُستر به الشيءُ، وتنوينُها للتفخيم، والجملة إما مستأنفةٌ للإخبار بما تضمنه من الخَتْم أو حال من فاعل يستمع بإضمار قد عند من يقدِّرها قبل الماضي الواقعِ حالًا أي يستمعون إليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرُها خارجةً عما يتعارفه الناس ﴿**أن يفقهوه**﴾ أي كراهةَ أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن المدلولِ عليه بذكر الاستماع، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا لما يُنبئ عنه الكلامُ أي منعناهم أن يفقهوه ﴿**وفي آذانهم وقرا**﴾ صَممًا وثِقَلًا مانعًا من سماعه، والكلام فيه كما في قوله تعالى: ﴿**على قلوبهم أكنة**﴾ [الإسراء، الآية ٤٦] وهذا تمثيلٌ مُعرِبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي عليه الصلاة

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٣٣٣).

والسلام وفرطِ نُبُوَّة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومجِّ أسماعِهم له، وقد مر تحقيقه في أو سورة البقرة وقيل: هو حكاية لما قالوا: ﴿**قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر**﴾ [فصلت، الآية ٥] الآية، وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الإخبارُ بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلًا وكفرًا من اتصافهما بأوصافٍ مانعة من التصديق والإيمان، ككون القرآن سِحرًا وشعرًا وأساطيرَ الأولين، وقسْ على ما تخيلوه في حق النبي ﷺ، لا الإخبارُ بأن هناك أمرًا وراء ذلك قد حال بينهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبَلِهم حتى يُمكِنَ حملُ النظم الكريم على ذلك.

﴿**وإن يروا كل آية**﴾ من الآيات القرآنية أي يشاهدوها بسماعها ﴿**لا يؤمنوا بها**﴾ على عموم النفي لا على نفي العموم أي كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هي لما مر من حالهم ﴿**حتى إذا جاءوك يجادلونك**﴾ هي حتى التي تقع بعدها الجمل، والجملة هي قوله تعالى: ﴿**إذا جاءوك**﴾ ﴿**يقول الذين كفروا**﴾ وما بينهما حال من فاعل جاءوا وإنما وضع الموصولُ موضعَ الضمير ذمًّا لهم بما في حيِّز الصلة وإشعارًا بعِلة الحكم، أي بلَغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون: ﴿**إن هذا**﴾ أي ما هذا ﴿**إلا أساطير الأولين**﴾ فإنّ عَدَّ أحسنِ الحديث وأصدقِه، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الأباطيلِ والخرافاتِ، رتبةٌ من الكفر لا غاية وراءها، ويجوز أن تكون (حتى) جارّةً و(إذا) ظرفيةً بمعنى وقتِ مجيئهم، ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى: ﴿**يقول الذين كفروا**﴾ إلخ، تفسيرٌ للمجادلة والأساطيرُ جمع أُسطورة أو أسطارة أو جمع أسطار وهو جمع سَطَرٍ بالتحريك وأصل الكل السَّطْر بمعنى الخط.

﴿**وهم ينهون عنه**﴾ الضمير المرفوع للمذكورين، والمجرورُ للقرآن أي لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعدِّه من قبيل الأساطير، بل ينهَوْن الناسَ عن استماعه لئلا يقِفوا على حقّيته فيؤمنوا به ﴿**وينأون عنه**﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهارًا لغاية نفورهم عنه وتأكيدًا لنهيهم عنه، فإن اجتنابَ الناهي عن المنهيِّ عنه من متمّمات النهْي، ولعل ذلك هو السرُّ في تأخير النأْي عن النهْي وقيل: الضميرُ المجرور للنبي عليه الصلاة والسلام وقيل: المرفوعُ لأبي طالب، ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لأتباعه، فإنه كان ينهىٰ قريشًا عن التعرض لرسول الله ﷺ، وينآى عنه فلا يؤمن به، وروي أنهم اجتمعوا إليه وأرادوا برسول الله ﷺ سوءًا فقال: [الكامل]

والله لن يَصِلوا إليك بجمعِهم ... حتى أُوسَّدَ في التراب دفينا

فاصدَعْ بأمرك ما عليك غضاضةٌ وابشُرْ بذاك وقَرَّ منه عيونا
ودعوتني وزعمتَ أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثَمَّ أمينا
وعرضتَ دينًا لا محالةَ إنه من خيرِ أديان البرية دينا
لولا الملامةُ أو حِذاري سُبّةً لوجدتني سَمْحًا بذاك مبينا[١]

فنزلت[٢].

﴿وإن يهلكون﴾ أي ما يهلكون بما فعلوا من النهي والنأي ﴿إلا أنفسهم﴾ بتعريضها لأشد العذاب وأفظعِه عاجلًا وآجلًا وهو عذابُ الضلال والإضلال وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير (يُهلكون) أي يقصُرون الإهلاكَ على أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أي لا بإهلاكهم أنفسَهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يُضِروا بذلك شيئًا من القرآن والرسولِ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين. وإنما عبّر عنه بالإهلاك، مع أن النفيَ عن غيرهم مطلقُ الضرر إذ غايةُ ما يؤدي إليه ما فعلوا من القدح في القرآن الكريم الممانعةُ في تمشّي أحكامِه وظهورِ أمر الدين، للإيذان بأن ما يَحيق بهم هو الهلاكُ لا الضررُ المطلقُ، على أن مقصِدهم لم يكن مطلقَ الممانعة فيما ذُكر بل كانوا يبغون الغوائلَ لرسول الله ﷺ وللمؤمنين. ويجوز أن يكون الإهلاكُ معتبرًا بالنسبة إلى الذين يُضِلونهم بالنهي، فقصْرُه على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبنيٌّ على تنزيلِ عذاب الضلالِ عند عذاب الإضلال منزلةَ العدم.

﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ شروعٌ في حكاية ما سيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقضِ لما صدر عنهم في الدنيا من القبائحِ المَحْكيّة مع كونه كذبًا في نفسه، والخطابُ إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ من أهلِ المشاهَدة والعِيانِ قصدًا إلى بيان كمالِ سوءِ حالهم وبلوغِها من الشناعة والفظاعةِ إلى حيث لا يختصُّ استغرابُها براءٍ دون راءٍ ممن اعتاد مشاهدةَ الأمورِ العجيبة، بل كلُّ من يتأتّىٰ منه الرؤيةُ يتعجبُ من هولها وفظاعتِها، وجوابُ (لو) محذوف ثقةً بظهوره وإيذانًا بقصور العبارة عن تفصيله، وكذا مفعولُ (ترى) لدِلالة ما في حيِّز الظرْفِ عليه أي لو تراهم حين يوقَفون على النار حتى يعاينوها لرأيتَ ما لا يسعه التعبيرُ، وصيغةُ الماضي للدلالة على

---

(١) الأبيات لأبي طالب في ديوانه، ص (٦٨)، وخزانة الأدب (٣/ ٢٩٥، ٢٩٦)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦٨٦، ٦٨٧).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٧، ١٨٨) من طريق ابن إسحاق به، وينظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠، ٢٨٢).

التحقق أو حين يطّلعون عليها اطّلاعًا وهي تحتَهم أو يدخُلونها فيعرِفون مقدارَ عذابها، من قولهم: وقفتُه على كذا إذا فهَّمتُه وعرَّفته.

وقرئ[١] (وقَفوا) على البناء للفاعل من وقَف عليه وقوفًا.

﴿فقالوا يا ليتنا نرد﴾ أي إلى الدنيا تمنيًا للرجوع والخلاص، وهيهاتَ، ولاتَ حينَ مناص ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي بآياته الناطقةِ بأحوال النار وأهوالها، الآمرةِ باتقائها إذ هي التي تخطُر حينئذ ببالهم، ويتحسرون على ما فرّطوا في حقها أو بجميع آياتِه المنتظمةِ لتلك الآياتِ انتظامًا أوليًّا ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقفَ الهائلَ أو نكونَ من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحُسن المآب، ونصبُ الفعلين على جواب التمني بإضمار أنْ بعد الواو وإجرائها مُجرىٰ الفاء ويؤيده قراءةُ[٢] ابن مسعود وابنِ إسحاقَ (فلا نكذبَ) والمعنى إنْ رُدِدْنا لم نكذبْ ونكنْ من المؤمنين. وقيل: ينسَبِكُ من أن المصدرية ومن الفعل بعدها مصدرٌ ويقدّر قبله مصدرٌ متوهَّم فيُعطَف هذا عليه كأنه قيل: ليت لنا ردًّا وانتفاءَ تكذيبٍ وكونًا من المؤمنين، وقرئ[٣] برفعهما على أنه كلامٌ مستأنف كقوله: دعني ولا أعودُ أي وأنا لا أعود تركتَني أو لم تترُكْني، أو عطفٌ على (نرد) أو حال من ضميره فيكون داخلًا في حكم التمني كالوجه الأخير للنصب، وتعلقُ التكذيب الآتي به لما تضمّنه من العِدَة بالإيمان وعدمِ التكذيب كما قال: ليتني رُزقتُ مالًا فأكافئَك على صنيعك فإنه متمنٍّ في معنى الواعد فلو رزق مالًا ولم يكافئ صاحبه يكون مكذِّبًا لا محالة، وقرئ[٤] برفع الأول ونصب الثاني وقد مر وجههما.

---

(١) قرأ بها: ابن السميفع، وزيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٠١).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣١٨)، وتفسير القرطبي (٤/ ٤٠٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٢٨).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٤٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ١٠٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ١١٥)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣١٨)، والحجة لابن خالويه (١٣٧، ١٣٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ٢٥٥، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٨٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(٤) قرأ بها: ابن عامر.

=

﴿بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبل﴾ إضرابٌ عما يُنْبئ عنه التمني من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزيمة صادقةٍ ناشئة عن رغبةٍ في الإيمان وسَوْقٍ إلى تحصيله والاتصافِ به بل لأنه ظهرَ لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا من الداهيةِ الدهياء وظنوا أنهم مُواقِعوها فلِخَوْفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النارُ التي وُقفوا عليها إذ هي التي سيق الكلامُ لتهويل أمرها والتعجبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها وبإخفائها تكذيبُهم بها، فإن التكذيبَ بالشيء كفر به وإخفاءٌ له لا محالة وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل: ﴿هذه جهنمُ التي يكذب بها المجرمون﴾ [الرحمٰن، الآية ٤٣] وقوله تعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [الطور، الآية ١٤] مع كونه أنسبَ بما قبله من قولهم: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ [الأنعام، الآية ٢٧] لمراعاة ما في مقابلته من البُدُوّ، هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ النظم الكريم، وأما ما قيل من أن المراد بما يُخفون كفرُهم ومعاصيهم أو قبائحُهم وفضائحُهم التي كانوا يكتُمونها من الناس فتظهرُ في صُحُفهم وبشهادة جوارحِهم عليهم أو شركِهم الذي يجحدون به في بعض مواقف القيامة بقولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام، الآية ٢٣] ثم يظهر بما ذُكر من شهادة الجوارحِ عليهم أو ما أخفاه رؤساءُ الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماءُ أهل الكتابين من صحة نبوةِ النبي عليه الصلاة والسلام ونُعوته الشريفة عن عوامِّهم، على أن الضميرَ المجرورَ للعوام والمرفوعَ للخواص، أو كفرُهم الذي أخفَوْه عن المؤمنين والضميرُ المجرور للمؤمنين والمرفوعُ للمنافقين، فبعدَ الإغضاءِ عما في كلٍّ منها من الاعتساف والاختلال لا سبيل إلى شيء من ذلك أصلًا لما عرفت من أن سَوْق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيعِ حال أهلها وقد ذُكر وقوفُهم عليها وأُشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحَيْرة والدهشة ما لا يُحيط به الوصفُ، ورُتّب عليه تمنِّيهم المذكورُ بالفاء القاضيةِ بسببية ما قبلها لما بعدها، فإسقاطُ النار بعد ذلك من تلك السببية وهي في نفسها أدهى الدواهي وأزجرُ الزواجر، وإسنادُها إلى شيء من الأمور المذكورة التي دونها في الهول والزجر مع عدم جَرَيانِ ذكرها ثَمةَ أمرٌ يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله، وأما ما قيل من أن المراد جزاءُ ما كانوا يُخفون فمن قبيل دخولِ البيوت من ظهورِها وأبوابُها مفتوحة فتأمل.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٤٢)، الإملاء للعكبري (١/ ١٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ١٠٢)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣١٨)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٠٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٨).

﴿ولو ردوا﴾ أي من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنَّوْه وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من فنون القبائح التي من جملتها التكذيبُ المذكورُ ونسُوا ما عاينوه بالكلية لاقتصار أنظارِهم على الشاهدِ دون الغائب ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي لقومٌ ديدَنُهم الكذِبُ في كل ما يأتون وما يذرون ﴿وقالوا﴾ عطفٌ على (عادوا) داخلٌ في حيز الجواب، وتوسيطُ قولِه تعالى: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ بينهما لأنه اعتراضٌ مَسوقٌ لتقرير ما أفاده الشرطيةُ من كذبهم المخصوصِ، ولو أُخِّر لأَوْهم أن المراد تكذيبُهم في إنكارهم البعثَ. والمعنى لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وقالوا: ﴿إن هي﴾ أي ما الحياة ﴿إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ بعدما فارقنا هذه الحياةَ كأن لم يرَوا ما رأَوا من الأحوال التي أولُها البعثُ والنشور ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم﴾ الكلام فيه كالذي مر في نظيره، خلا أن الوقوفَ هاهنا مجازٌ عن الجنس للتوبيخ والسؤال كما يوقَفُ العبدُ الجاني بين يدَيْ سيده للعقاب وقيل: عرَفوا ربَّهم حقَّ التعريف، وقيل: وُقفوا على جزاءِ ربهم، وقولُه تعالى: ﴿قال﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل: فماذا قال لهم ربهم إذ ذاك؟ فقيل: قال: ﴿أليس هذا﴾ مشيرًا إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه من الأمور العظام ﴿بالحق﴾ تقريعًا لهم على تكذيبهم لذلك وقولِهم عند سماعِ ما يتعلق به ما هو بحقٍّ وما هو إلا باطلٌ ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿بلى وربنا﴾ أكّدوا اعترافهم باليمين إظهارًا لكمال يقينهم بحقِّيته وإيذانًا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعًا في نفعه.

﴿قال﴾ استئناف كما مر ﴿فذوقوا العذاب﴾ الذي عاينتموه، والفاءُ لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به في الدنيا لكن لا على أن مدارَ التعذيب هو اعترافُهم بذلك بل هو كفرُهم السابقُ بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل: ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا بذلك أو بكل ما يجب الإيمانُ به فيدخل كفرُهم به دخولًا أوليًا، ولعل هذا التوبيخَ والتقريع إنما يقع بعد ما وُقفوا على النار فقالوا ما قالوا إذِ الظاهرُ أنه لا يبقىٰ بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هم الذين حُكِيت أحوالُهم، لكنْ وضع الموصولُ موضعَ الضمير للإيذان بسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعةِ عليه واستمرارِهم على ذلك، فإن كلمةَ (حتى) في قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة﴾ غايةٌ لتكذيبهم لا لخُسرانهم فإنه أبديٌّ لا حدَّ له ﴿بغتة﴾ البغْتُ والبغتةُ مفاجأةُ الشيءِ

بسرعة من غير شعور به يقال: بغَته بغْتًا وبغتةً أي فجأةً، وانتصابُها إما على أنها مصدرٌ واقع موقعَ الحال من فاعل جاءتهم أي مباغتةً أو من مفعوله أي مبغوتين وإما على أنها مصدرٌ مؤكِّدٌ على غير الصدر فإنّ (جاءتهم) في معنى بغتتهم كقولهم: أتيته ركضًا أو مصدرٌ مؤكِّد لفعل محذوف وقع حالًا من فاعل (جاءتهم) أي جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة.

﴿**قالوا**﴾ جواب إذا ﴿**يا حسرتنا**﴾ تعالَيْ فهذا أوانُك، والحسرةُ شدة الندم، وهذا التحسرُ وإن كان يعتريهم عند الموت لكنْ لما كان ذلك من مبادي الساعة سُمِّيَ باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**من مات فقد قامت قيامتُه**» أو جُعل مجيءُ الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترةٍ لسرعته ﴿**على ما فرطنا فيها**﴾ أي على تفريطنا في شأن الساعة وتقصيرنا في مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان بها واكتسابِ الأعمالِ الصالحة كما في قوله تعالى: ﴿**على ما فرطت في جنب الله**﴾ [الزمر، الآية ٥٦] وقيل: الضميرُ للحياة الدنيا وإن لم يجْرِ لها ذكرٌ لكونها معلومة، والتفريطُ التقصيرُ في الشيء مع القدرة على فعله وقيل: هو التضييعُ وقيل: الفَرَط السبق ومنه الفارط أي السابق ومعنى فرَّط: خلّى السبْقَ لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما في جلّدتُ البعير وقوله تعالى: ﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم**﴾ حال من فاعل (قالوا) فائدتُه الإيذان بأن عذابَهم ليس مقصورًا على ما ذكِر من الحسرة على ما فات وزال، بل يقاسون مع ذلك تحمُّلَ الأوزار الثِقال، والإيماءُ إلى أن تلك الحسرةَ من الشدة بحيث لا تزول ولا تُنسىٰ بما يكابدونه من فنون العقوبات. والسرُّ في ذلك أن العذابَ الروحانيَّ أشدُّ من الجسمانيِّ نعوذُ برحمة الله عز وجل منهما، والوِزر في الأصل الحِملُ الثقيل سُمِّي به الإثمُ والذنبُ لغاية ثِقَلِه على صاحبه، وذكرُ الظهور كذكر الأيدي في قوله تعالى: ﴿**فبما كسبت أيديكم**﴾ [الشورى، الآية ٣٠] فإن المعتاد حملُ الأثقالِ على الظهور كما أن المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي، والمعنى أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحمِلون أوزارَ ما عملوا من السيئات ﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبله وتكملةٌ له أي بئس شيئًا يَزِرُونه وِزْرُهم.

﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو**﴾ لمّا حقَّق فيما سبق أن وراءَ الحياة الدنيا حياةً أخرى يلقَوْن فيها من الخطوب ما يلقون بَيَّن بعدَه حالَ تينِك الحياتين في أنفسهما، واللعبُ عملٌ يشغل النفسَ ويُفتّرها عما تنتفع به، واللهوُ صرفُها عن الجدّ إلى الهزل، والمعنى إما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفسَ اللعِب واللهوِ مبالغةً

كما في قول الخنساء: [البسيط]

.... فـإنـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ[(١)]

أي وما أعمالُ الدنيا أي الأعمالُ المتعلقةُ بها من حيث هي هي، أو وما هي من حيث إنها محل لكسب تلك الأعمال إلا لعبٌ يشغَل الناسَ ويلهيهم بما فيه من منفعةٍ سريعةِ الزوال ولذةٍ وشيكة الاضمحلال عما يعقُبهم من منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من الإيمان والعمل الصالح ﴿**وللدار الآخرة**﴾ التي هي محلُ الحياة الأخرى ﴿**خير للذين يتقون**﴾ الكفرَ والمعاصِيَ، لأن منافعها خالصةٌ عن المضارِّ ولذاتِها غيرُ مُنغّصةٍ بالآلام، مستمرةٌ على الدوام ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان، والفاء للعطف على مقدر أي أتغفُلون فلا تعقِلون؟ أو ألا تتفكرون فتعقِلون وقرئ[(٢)] (يعقلون) على الغَيْبة.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن

---

(١) عجز بيت وصدره:

تَـرْتـع مـا رتَـعَـتْ حـتـى إذا ادَّكَـرَتْ ....

والبيت في ديوانها ص(٣٨٣)، والأشباه والنظائر (١/ ١٩٨)، وخزانة الأدب (١/ ٤٣١، ٢/ ٣٤)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٨٢)، والشعر والشعراء (١/ ٣٥٤)، والكتاب (١/ ٣٣٧)، ولسان العرب (رهط)، (قبل)، والمقتضب (٤/ ٣٠٥)، والمنصف (١/ ١٩٧)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٨٧، ٤/ ٦٨)، وشرح الأشموني (١/ ٢١٣)، وشرح المفصل (١/ ١١٥)، والمحتسب (٢/ ٤٣).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وهشام، والشذائي، والداجوني، والصوري، وابن ذكوان، والبرجمي، والحلواني.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٧)، والبحر المحيط (٤/ ١١٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٢٦)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤١٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٩١)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ عن الحزنَ الذي يعتريه مما حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةٍ من الله عز وجل وأن ما يفعلون في حقه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدَّ انتقام، وكلمةُ (قد) لتأكيد العلم بما ذكر المفيدِ لتأكيد الوعيدِ كما في قوله تعالى: ﴿**قد يعلم ما أنتم عليه**﴾ [النور، الآية ٦٤] وقوله تعالى: ﴿**قد يعلم الله المعوِّقين**﴾ [الأحزاب، الآية ١٨] ونحوِهما بإخراجها إلى معنى التكثير حسبما يُخْرجُ إليه ربما في مثل قوله: [الطويل]

وإنْ تُمْسِ مهجورَ الفِناء فربما ... أقام به بعد الوفود وفودُ[1]

جريًا على سَنَنِ العرب عند قصد الإفراط في التكثير تقول لبعض قُوادِ العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رُبَّ فارسٍ عندي، وعنده مقانبُ[2] جَمةٌ يريد بذلك التماديَ في تكثير فُرسانه ولكنه يروم[3] إظهارَ براءته عن التزيُّد وإبرازَ أنه ممن يقلل كثيرَ ما عنده فضلًا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل: ﴿**رُبَمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**﴾ [الحجر، الآية ٢] وهذه طريقة إنما تُسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبةُ ريبٍ حقيقةً، كما في الآيات الكريمة المذكورة، أو ادعاءً كما في البيت وقولِه: [البسيط]

---

(١) البيت لمعن بن زائدة في أمالي المرتضى (١/ ٢٢٣)، ولأبي عطاء السندي في خزانة الأدب (٩/ ٥٣٩)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص (٨٠٠)، والشعر والشعراء (٢/ ٧٧٣)، ولسان العرب (عهد)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٣/ ١٨٦)، وجواهر الأدب، ص (٣٦٦، ٣٦٨).

(٢) المقانب: جمع مِقْنَب، وهي الجماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة.

(٣) في المطبوع: يروي.

قد أترك القِرْنَ مُصفرًّا أناملُهُ ....[1]

وقولِه: [الطويل]

.... ولكنه قد يُهلك المالَ نائِلُهْ[2]

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرةُ تعلقِه وهو متعدٍّ إلى اثنين وما بعده سادٌّ مسدَّهما واسمُ (إن) ضمير الشأن وخبرُها الجملة المفسرة له والموصولُ فاعل (يحزنك) وعائدُه محذوف أي الذي يقولونه وهو ما حُكي عنهم من قولهم: ﴿**إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ [المؤمنون، الآية ٨٣] ونحوُ ذلك وقرئ[3] (لَيُحزِنُك) من أحزن المنقول من حزِن اللازم وقوله تعالى: ﴿**فإنهم لا يكذبونك**﴾ تعليل لما يُشعِر به الكلامُ السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعدِّه هينًا والإقبالِ التام على ما هو أهمُّ منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كونَ حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلِّي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القَدْرِ ورِفعة المحل والزُّلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءَه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيبًا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿**من يطعِ الرسولَ فقد أطاع الله**﴾ [النساء، الآية ٨٠] بل نفىٰ تكذيبَهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفِرْصَادِ

والبيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه (٦٤)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٠)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٣٦٨)، ولعبيد بن الأبرص أو للهذلي في الدرر (٥/ ١٢٨)، وشرح الشواهد المغني ص (٤٩٤)، وللهذلي بدون تحديد في الأزهية ص (٢١٢)، والجنى الداني ص (٢٥٩)، وشرح المفصل (٨/ ١٤٧)، والكتاب (٤/ ٢٢٤)، ولسان العرب (قدد)، ومغني اللبيب ص (١٧٤)، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص (٧٦)، ورصف المباني ص (٣٩٣)، وشرح لشواهد الإيضاح ص (٢٢٠)، ولسان العرب (أسن)، والمقتضب (١/ ٤٣)، وهمع الهوامع (٢/ ٧٣).

(٢) عجز بيت وصدره:

أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ....

والبيت لزهير في ديوانه، ص (١١٣)، وخزانة الأدب (٥/ ٥٣)، وزهر الآداب وثمر الألباب (١/ ٣٣٧).

(٣) قرأ بها: نافع.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٢٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٩٣)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٤، ٢٥٧).

لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**﴾ [الفتح، الآية ١٠] إيذانًا بكمال القرب واضمحلال شؤونه عليه الصلاة والسلام في شأن الله عز وجل.

نعمْ فيه استعظامٌ لجناياتهم مُنْبئ عن عظم عقوبتهم كأنه قيل: لا تعتدَّ به وكِلْه إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة.

﴿**ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ أي ولكنهم بآياته تعالى يكذّبون فوضَعَ المُظهرَ موضعَ المُضمر تسجيلًا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي يُعتبر جحودُهم هذا فنًا من فنونه، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى، وإيرادُ الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياتِه تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كلُّ أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارةٌ عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسُهم**﴾ [النمل، الآية ١٤] وهو المعنيُّ بقول من قال: إنَّ نفْي ما في القلب إثباتُه، أو إثبات ما في القلب نفيُه، والباء متعلقة بـ (يجحدون) ويقال: جحد حقَّه وبحقِّه إذا أنكره وهو يعلمه، وقيل: هو لتضمين الجحود معنى التكذيب، وأيًّا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور للقَصْر وقيل: المعنى فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم، ويعضُده ما رُوي من أن الأخْنَسَ بنَ شُرَيْقٍ قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا، فقال له: والله إن محمدًا لصادقٌ وما كذَب قطُّ ولكن إذا ذهب بنو قُصيٍّ باللواءِ والسِّقاية والحِجابة والنبوّة فماذا يكونُ لسائر قريش؟ فنزلت[١].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يسمَّى الأمينَ[٢] فعرَفوا أنه لا يكذِب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل: فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادقُ الموسومُ بالصدق، ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله ﷺ: ما نُكذِّبُك، وإنك عندنا لصادقٌ ولكنا نكذِّبُ ما جئتنا به فنزلت. وكأن صدقَ المُخبرِ عند الخبيث بمطابقةِ خبرِه لاعتقادِه، والأولُ هو الذي تستدعيه الجزالة التنزيلية.

---

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٣٤٠).

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٣٧): قريب من حديث ابن عباس، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٥٦) من حديث يعلى بن أمية قال: بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير. وفي إسناده الواقدي، وهو متروك.

وقرئ[١] (لا يُكْذِبونك) من الإكذاب فقيل: كلاهما بمعنى واحدٍ كأكثرَ وكثُر وأنزلَ ونزَل وهو الأظهر وقيل: معنى أكذبه وجده كاذبًا، ونُقل عن الكسائيِّ أن العربَ تقول: كذبتُ الرجلَ أي نسبتُ[٢] الكذب إليه وأكذبته أي نسبت الكذب إلى ما جاء به لا إليه.

وقوله تعالى: **﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾** افتنانٌ في تسليته عليه الصلاة والسلام فإن عمومَ البلية ربما يهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوين، وإرشادٌ له عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام في الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأَذِيَّة، وعِدَةٌ ضِمْنية له عليه الصلاة والسلام بمثل ما مُنِحوه من النصر.

وتصديرُ الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوينُ (رسلٌ) للتفخيم والتكثير، و(من) إما متعلقةٌ بـ (كُذِّبت) أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ (رسلٌ) أي وبالله لقد كذِّبت من قبل تكذيبك رسلٌ أولو شأنٍ خطير وذوُو عددٍ كثير أو كُذبت رسل كانوا من زمان قبلَ زمانك **﴿فصبروا على ما كُذبوا﴾** (ما) مصدرية[٣] وقوله تعالى **﴿وأوذوا﴾** عطف على (كُذبوا) داخلٌ في حكمه فانسبك منهما مصدران من المبنيِّ للمفعول أي فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم فتأسَّ بهم واصطبِرْ على ما نالك من قومك، والمرادُ بإيذائهم إما عينُ تكذيبهم وإما ما يقارنه من فنون الإيذاء لم يُصرَّحْ به ثقةً باستلزام التكذيب إياه غالبًا، وأيًّا ما كان ففيه تأكيدٌ للتسلية، وقيل: عطفٌ على صبروا وقيل: على كذبت، وقيل: هو استئناف وقوله تعالى: **﴿حتى أتاهم نصرنا﴾** غايةٌ للصبر، وفيه إيذانٌ بأن نَصره تعالى إياهم أمرٌ مقرَّر لا مرد له وأنه متوجه إليهم لا بد من إتيانه البتةَ، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر.

وقوله تعالى: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ اعتراض مقرِّرٌ لما قبله من إتيان نصرِه إياهم والمراد بكلماته تعالى ما يُنْبئ عنه قوله تعالى: **﴿ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا**

---

(١) قرأ بها: نافع، والكسائي، وعلي، وعبد الله، وأبو بكر، والأعمش، وجعفر، والصادق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٧)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٤٤)، الإملاء للعكبري، (١/ ١٣٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٢٧)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٣٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤١٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٤٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٩٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(٢) في ط: نسبة. (٣) في ط: مصيرية.

المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات، الآية ١٧١ - ١٧٣] وقولُه تعالى: **﴿كتَب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾** [المجادلة، الآية ٢١] من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نُصرة رسول الله أيضًا لا نفسُ الآياتِ المذكورة ونظائرُها، فإن الإخبارَ بعدم تبدّلِها إنما يفيد عدمَ تبدلِ المواعيدِ الواردةِ إلى رسول الله ﷺ خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام ويجوزُ أن يُرادَ بكلماته تعالى جميعُ كلماته التي من جملتها تلك المواعيدُ الكريمةُ ويدخل فيها المواعيدُ الكريمة، ويدخل فيها المواعيدُ الواردة في حقه عليه الصلاة والسلام دخولًا أوليًّا، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات ألا يغالبه أحدٌ في فعلٍ من الأفعال ولا يقعَ منه تعالى خُلْفٌ في قول من الأقوال.

وقوله تعالى: **﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** جملة قَسَمية جيءَ بها لتحقيق ما مُنحوا من النصر وتأكيدِ ما في ضِمْنه من الوعد لرسول الله ﷺ أو لتقرير جميع ما ذكِر من تكذيب الأمم وما ترتّب عليه من الأمور. والجارُّ والمجرور في محل الرفع على أنه فاعل إما باعتبار مضمونِه أي بعضُ نبأ المرسلين كما مر في تفسير قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾** [العنكبوت، الآية ١٠] الآية، وأيًّا ما كان فالمرادُ بنَبَئِهم عليهم السلام على الأول نصرُه تعالى إياهم بعد اللُّتيا والتي، وعلى الثاني جميعُ ما جرى بينهم وبين أممهم على ما ينبئ عنه قوله تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتِكم مثلُ الذين خلَوا من قبلكم مستْهم البأساءُ والضراءُ وزُلزلوا﴾** [البقرة، الآية ٢١٤] الآية، وقيل: في محل النصب على الحالية من الضمير المستكنِّ في جاء العائدِ إلى ما يُفهم من الجملة السابقة أي ولقد جاءك هذا الخبر كائنًا من نبأ المرسلين.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمرٌ لا محيدَ عنه أصلًا أي إن كان عظُم عليك وشقَّ إعراضُهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يُفصح عنه ما حُكي عنهم من تسميتهم له أساطيرَ الأولين وتنائيهم عنه ونهْيِهمُ الناسَ عنه، وقيل: إن الحارثَ بنَ عامرِ بنِ نوفلَ بنِ عبدِ منافٍ أتى رسولَ الله ﷺ في محضر من قريش، فقال: يا محمدُ ائتنا بآيةٍ من عند الله كما كانت الأنبياءُ تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتي بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فشق ذلك عليه[1] لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديدَ الحِرْص على إيمان قومه، فكان إذا سألوا آيةً يودّ أن يُنزلها الله تعالى طمعًا

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ١٤٥).

في إيمانهم فنزلت، فقوله تعالى: ﴿**إعراضُهم**﴾ مرتفعٌ بكبُرَ وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخَّر، والجملة في محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذي هو ضميرُ الشأن ولا حاجة إلى تقدير قد، وقيل: اسم كان إعراضُهم وكبر جملة فعلية في محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعلٌ رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى: ﴿**فإن استطعت**﴾ إلخ، شرطيةٌ أخرى محذوفةُ الجواب وقعتْ جوابًا للشرط الأول، والمعنى إن شق عليك إعراضُهم عن الإيمان بما جئت به من البينات وعدمُ عدِّهم لها من قبيل الآيات وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه اقتراحًا فإن استطعت ﴿**أن تبتغي نفقًا**﴾ أي سَرَبًا ومنفَذًا ﴿**في الأرض**﴾ تنفُذ فيه إلى جَوفها ﴿**أو سلمًا**﴾ أي مصعدًا ﴿**في السماء**﴾ تعرج به فيها ﴿**فتأتيهم**﴾ منهما ﴿**بآية**﴾ مما اقترحوه فافعلْ وقد جُوِّز أن يكون ابتغاؤهما نفسَ الإتيان بالآية فالفاء في (فتأتيَهم) حينئذ تفسيرية وتنوينُ (آية) للتفخيم أي فإن استطعت أن تبتغيَهما فتجعلَ ذلك آيةً لهم فافعل، والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان (لِنفقًا وسلمًا) والأول لمجرد التأكيد إذ النفقُ لا يكون إلا في الأرض، أو بـ (تبتغي)، وقد جُوِّز تعلقُهما بمحذوف وقع حالًا من فاعل (تبتغي نفقا) أي أن تبتغي نفقًا كائنًا في الأرض أو سلمًا كائنًا في السماء، وفيه من الدلالة على تبالُغ حِرْصِه عليه الصلاة والسلام على إسلام قومه وترامِيه إلى حيث لو قدَر على أن يأتيَ بآيةٍ من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاءً لإيمانهم ما لا يخفى، وإيثار الابتغاءِ على الاتخاذ ونحوه للإيذان بأن ما ذُكر من النفق والسُلّم مما لا يُستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه.

﴿**ولو شاء الله لجمعهم على الهدى**﴾ أي: ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه من الهُدى لفعله بأن يوفِّقهم للإتيان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صَرفِ اختيارِهم إلى جانب الهُدى مع تمكنِّهم التامِّ منه في مشاهدتهم للآياتِ الداعية إليه لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجُّهِهم إلى تحصيله. وقيل: لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيَهم بآيةٍ ملجئةٍ إليه ولكن لم يفعلْه لخروجه عن الحِكْمة.

وقوله تعالى: ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾ نهيٌ لرسول الله ﷺ عما كان عليه من الحرص الشديدِ على إسلامهم والميل إلى إتيان ما يقترحونه من الآيات طمعًا في إيمانهم، مرتَّبٌ على بيان عدمِ تعلّق مشيئته تعالى بهدايتهم، والمعنى وإذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وإيمانَهم بأحد الوجهين فلا تكونَنَّ بالحرص الشديدِ على إسلامهم أو الميلِ إلى نزول مقترحاتِهم من الجاهلين بدقائق شؤونِه تعالى التي من جملتها ما ذُكر من عدم تعلُّق مشيئتِه تعالى بإيمانهم، إما اختيارًا فلعدم توجُّههم إليه،

وإما اضطرارًا فلخُروجه عن الحكمة التشريعيةِ المؤسسةِ على الاختيار، ويجوز أن يُرادَ بالجاهلين على الوجه الثاني المقترِحون، ويُراد بالنهْي منعُه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم، وإيرادُهم بعُنوان الجهل دون الكفر ونحوِه لتحقيق مَناطِ النهْي الذي هو الوصفُ الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم.

﴿**إنما يستجيب الذين يسمعون**﴾ تقريرٌ لما مر من أن على قلوبهم أكنةً مانعة من الفقه، وفي آذانهم وَقرًا[١] حاجزًا من السماع، وتحقيقٌ لكونهم بذلك من قبيل الموتى لا يُتصور منهم الإيمانُ ألبتةَ.

والاستجابةُ الإجابةُ المقارنة للقَبول، أي إنما يَقبلُ دعوتَك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يُلقىٰ إليهم سماعَ تفهم وتدبُّر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿**فإنك لا تسمع الموتى**﴾ [الروم، الآية ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾ تمثيلٌ لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للإيمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور، وقيل: بيانٌ لاستمرارهم على الكفر وعدمِ إقلاعهم عنه أصلًا على أن الموتى [من القبور][٢].

وقيل: بيان مستعارٌ للكفرة[٣] بناءً على تشبيه جهلهم بموتهم، أي وهؤلاء الكفرة

---

(١) وقَرَتْ أذنه وَقْراً: ثَقُلتْ أو صُمَّت. اللسان (وقر).

(٢) سقط في المخطوط.

(٣) القول بالاستعارة مبني على أن المراد (بالموتى) الكفار، سماهم القرآن موتى كما سموا صمًّا وبكمًا، وعميًا، وتشبيه الكافر بالميت من حيث إن الميت جسده خال عن الروح، فيظهر فيه النتن والصديد والقيح، وأنواع العقوبات وأصلح أحوال دفنه تحت التراب، والكافر روحه خالية عن العقل فيظهر منه جهله بالله تعالى، ومخالفته لأمره، وعدم قبوله لمعجزات الرسل، وإذا كانت روحه خالية من العقل كان مجنونًا، فأحسن أحواله أن يقيد ويحبس، فالعقل بالنسبة إلى الروح كالروح بالنسبة إلى الجسد، فجعل الموت والبعث حقيقة، والجملة مثل لقدرته تعالى على إلجائهم إلى الاستجابة، والحق أنه استعارة فقد استعار (الموتى) لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم، و (يبعثهم) على هذا حقيقة، وهو ترشيح للاستعارة؛ لأن البعث من ملائمات المشبه به في العرف، ويجوز أن يكون البعث استعارة أيضًا للهداية بعد الضلال، تبعًا لاستعارة الموت لعدم قبول الهدى على الوجهين المعروضين في الترشيح في فن البيان من كونه يبقى على حقيقته لا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة، وتارةً من ملائم المشبه به إلى شبهه من ملائم المشبه، فيكون على هذا الوجه في الكلام وعد للرسول ﷺ بأن بعض هؤلاء الضالين المكذبين سيهديهم الله تعالى إلى الإسلام، وهم من لم يسبق في علمه حرمانهم من الإيمان.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١١٧، ١١٨)، والكشاف (٢/ ١٦)، ومفاتيح الغيب (٦/ ٢٩١، ٢٩٢)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٢٥، ٢٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٢٠٨)، وشروح التلخيص (٤/ ٧٠) وما بعدها.

يبعثهم الله تعالى من قبورهم ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء، فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل إليه.

وقرئ[١] (يَرْجِعون) على البناء للفاعل من رجَع رُجوعًا والمشهورُ أوفى بحق المقام لإنبائه عن كون مرجِعِهم إليه تعالى بطريق الاضطرار.

﴿وقالوا لولا نُزل عليه آية من ربه﴾ حكايةٌ لبعضٍ آخَرَ من أباطيلهم بعد حكايةِ ما قالوا في حق القرآن الكريم وبيانِ ما يتعلّق به والقائلون رؤساءُ قريشٍ وقيل: الحارثُ بنُ عامر بنِ نَوْفلَ وأصحابُه، ولقد بلغت بهم الضلالةُ والطغيان إلى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوه من البينات التي تخِرُّ لها صمُّ الجبال حتى اجترءوا على ادِّعاء أنها ليست من قبيل الآياتِ وإنما هي ما اقترحوه من الخوارقِ الملجئةِ أو المُعْقِبة للعذاب كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء﴾ [الأنفال، الآية ٣٢] الآية، والتنزيل بمعنى الإنزال كما ينبئ عنه القراءة[٢] بالتخفيف فيما سيأتي، وما يفيده التعرّض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الإشعار بالعلّية إنما هو بطريق التعريض بالتهكّم من جهتهم، وإطلاق الآية في قوله تعالى: ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ مع أن المرادَ بها ما هو من الخوارق المذكورةِ لا آيةٌ ما من الآيات، لفساد المعنى مجاراةً معهم على زعمهم، ويجوز أن يرادَ بها آيةٌ مُوجبةٌ لهلاكهم كإنزال ملائكةِ العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن إظهارَ الاسمِ الجليل لتربية المهابةِ مع ما فيه من الإشعار بعِلّة القُدرة الباهرةِ، والاقتصار في الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلِها مع أنها ليست في حيز الإنكار للإيذان بأن عدمَ تنزيله إياها مع قدرته عليه لحكمةٍ بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون، كما ينبئ عنه الاستدراكُ بقوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروحٌ بالكلية، أو لا يعلمون شيئًا على أنه محذوفٌ مدلولٌ عليه بقرينةِ المقام.

والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آيةً من ذلك أو آيةً أيَّ آية ولكن أكثرهم لا

---

(١) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٣٢، ٢٠٨)، والبحر المحيط (٤/ ١١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٣، ٢٠٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢).

يعلمون فلا يدرون أن عدمَ تنزيلِها مع ظهور قدرتِه عليه لما أن في تنزيلها قلْعًا[١] لأساسِ التكليف المبنيِّ على قاعدة الاختيار، أو استئصالًا لهم بالكلية فيقترحونها جهلًا ويتخذون عدم تنزيلها ذريعةً إلى التكذيب، وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضَهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون مكابرةً وعنادًا.

شمول العلم الإلهي

وقوله تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض**﴾ إلخ، كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لبيان كمال قدرتِه عز وجل وشمول علمه وسعةِ تدبيرِه ليكون كالدليل على أنه تعالى قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزِّلُها محافظةً على الحِكَم البالغةِ، وزيادةُ (من) لتأكيد الاستغراق وهي متعلقةٌ بمحذوفٍ هو وصفٌ لدابة مفيد لزيادة التعميم، كأنه قيل: وما فردٌ من أفراد الدوابِّ يستقرّ في قُطر من أقطار الأرض وكذا زيادةُ الوصف في قوله تعالى: ﴿**ولا طائرٍ يطير بجناحيه**﴾ مع ما فيه من زيادة التقرير أي ولا طائرٍ من الطيور يطير في ناحية من نواحي الجو بجناحيه كما هو المشاهَدُ المعتاد.

وقرئ[٢] ولا طائرٌ بالرفع عطفًا على محل الجار والمجرور كأنه قيل: وما دابة ولا طائر ﴿**إلا أمم**﴾ أي طوائفُ متخالفةٌ، والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل: وما مِنْ دوابَّ ولا طيرٍ إلا أممٍ ﴿**أمثالكم**﴾ أي كلُّ أمة منها مثلُكم في أن أحوالها محفوظةٌ وأمورَها مقنَّنة ومصالحَها مرعيةٌ جاريةٌ على سَنن السَّداد، ومنتظمةٌ في سلك التقديرات الإلٰهية والتدبيراتِ الربانية ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ يقال: فرَّط في الشيء أي ضيَّعه وتركه، قال ساعدة بن جؤية: [الكامل]

مـعـه سِـقـاءٌ لا يُـفـرِّط حَـمْـلَـهُ ....[٣]

أي لا يتركه ولا يفارقه ويقال: فرّط في الشيء[٤] أي أهمل ما ينبغي أن يكون فيه

---

(١) في المخطوط: قطعًا.

(٢) قرأ بها: الحسن، وعبد الله بن أبي إسحاق، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٤٠)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤١٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٢).

(٣) صدر بيت وعجزه:
.... صُـفْـنٌ وأخْـراصٌ يَـلُـحْـنَ ومِـسـأَبُ
البيت في شرح أشعار الهذليين ص (١١١١)؛ ولسان العرب (سأب)، (خرص)، (فرط)، (صفن)؛ والمخصّص (٥/ ١٩)؛ وتاج العروس (سأب)، (خرص)، (فرط)، (صفن).

(٤) في ط: في فرط الشيء.

وأغفله فقوله تعالى: ﴿في الكتاب﴾ أي في القرآن على الأول ظرفُ لغوٍ، وقوله تعالى: ﴿من شيء﴾ مفعولٌ لـ (فرّطنا) و(من) مزيدة للاستغراق أي ما تركنا في القرآن شيئًا من الأشياء المُهمّة التي من جملتها بيانُ أنه تعالى مراعٍ لمصالحِ جميعِ مخلوقاته على ما ينبغي، وعلى الثاني مفعول للفعل ومن شيء في موضع المصدر، أي ما جعلنا الكتاب مفرَّطًا فيه شيئًا من التفريط بل ذكرنا فيه كلَّ ما لا بد من ذكره. وأيًا ما كان فالجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، وقيل: الكتابُ اللوْح، فالمراد بالاعتراضِ الإشارة إلى أن أحوالَ الأمم مستقصاةٌ في اللوح المحفوظ غيرُ مقصورة على هذا القدر المُجمل.

وقرئ[1] فَرَطنا بالتخفيف.

وقوله تعالى: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ بيانٌ لأحوال الأمم المذكورة في الآخرة بعد بيان أحوالها في الدنيا. وإيرادُ ضميرها على صيغة جمع العقلاء لإجرائها مُجراهم، والتعبير عنها بالأمم أي إلى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا إلى غيره فيجازيهم فيُنصِفُ بعضَهم من بعض حتى يبلُغ من عدله أن يأخذ للجماءِ من القَرْناء[2]. وقيل: حشرُها موتها. ويأباه مقامُ تهويلِ الخطب وتفظيعِ الحال.

وقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء﴾ والموصول عبارةٌ عن المعهودِين في قوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ الآيات ومحلُه الرفعُ على الابتداء خبرُه ما بعده أي أوردنا في القرآن جميعَ الأمور المهمة وأزَحْنا به العِللَ والأعذارَ والذين كذبوا بآياتنا التي هي منه ﴿صم﴾ لا يسمعونها سمعَ تدبرٍ وفهمٍ فلذلك يسمّونها أساطيرَ الأولين ولا يعدّونها من الآيات ويقترحون غيرها ﴿وبكم﴾ لا يقدِرون على أن ينطِقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها.

وقوله تعالى: ﴿في الظلمات﴾ أي: في ظلمات الكفر، أو ظلمات الجهل والعناد، والتقليد - إما خبر كان للمبتدأ، على أنه عبارة عن العمى كما في قوله تعالى: ﴿صم بكمٌ﴾ [البقرة: ١٨و ١٧١] وإما متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من

---

(١) قرأ بها: الأعرج، وعلقمة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣).

(٢) الجمَّاء من الحيوان: التي لا قرون لها، بخلاف القرناء. والمراد أنه يأخذ للضعيف (الجمّاء) من القوى (القرناء).

المستكنِّ في الخبر كأنه قيل: ضالون كائنين في الظلمات أو صفةً لبكْم أي بُكم كائنون في الظلمات، والمراد به بيانُ كمالِ عراقتهم في الجهل وسوء الحال فإن الأصمَّ الأبكمَ إذا كان بصيرًا ربما يَفهم شيئًا بإشارةِ غيرِه وإن لم يفهَمْه بعبارته، وكذا يُشعِرُ غيرَه بما في ضميره بالإشارة وإن كان معزولًا عن العبارة، وأما إذا كان مع ذلك أعمىٰ أو كان في الظلمات فينسدّ عليه بابُ الفهم والتفهيم بالكلية، وقوله تعالى: **﴿من يشأ الله يضلله﴾** تحقيقٌ للحق وتقريرٌ لما سبقَ من حالهم ببيانِ أنهم من أهل الطبْعِ لا يتأتَّى منهم الإيمانُ أصلًا، فمَنْ مبتدأ خبرُه ما بعده ومفعولُ المشيئة محذوفٌ على القاعدة المستمرَّة من وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء وانتفاءِ الغرابة في تعلقها به أي من يشأ الله إضلالَه أي أن يخلُق فيه الضلالَ يضلِلْه أي يخلُقه فيه لكن لا ابتداءً بطريق الجبر من غير أن يكون له دخلٌ ما في ذلك بل عند صَرْفِ اختياره إلى كَسْبه وتحصيلِه وقِسْ عليه قوله تعالى: **﴿ومن يشأ يجعلْه على طراطٍ مستقيم﴾** لا يضِلُّ من ذهب إليه ولا يزِلُّ من ثبَت قدمُه عليه.

حجة وعاقبة

﴿قل أرأيتكم﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يُبكِّتَهم ويُلقِمَهم الحجرَ بما لا سبيل لهم إلى النكير، والكاف حرف جيء به لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب ومَبْنىٰ التركيب وإن كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصَرية لكنّ المرادَ به الاستخبارُ عن مُتعلَّقِها أي أخبروني **﴿إن أتاكم عذاب الله﴾** حسبما أتى الأممَ السابقةَ من أنواع العذاب الدنيوي **﴿أو أتتكم الساعة﴾** التي لا محيصَ عنها البتة **﴿أغير الله تدعون﴾** هذا مناطُ الاستخبار ومحطّ التبكيت وقوله تعالى: **﴿إن كنتم صادقين﴾** متعلق بأرأيتكم مؤكِّد للتبكيت كاشفٌ عن كذبهم، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهةٌ كما أنها دعواكم المعروفةُ، أو إن كنتم قومًا صادقين فأخبروني أغيرَ الله تدعون إن أتاكم عذابُ الله إلخ، فإن صدقهم بأيِّ معنى كان من موجبات إخبارِهم بدعائهم غيرَه سبحانه، وأما جعلُ الجواب ما يدل عليه قولُه تعالى: **﴿أغيرَ الله تدعون﴾** أعني فادعوه على أن الضمير لغير الله فمُخِلٌّ بجزالة النظم الكريم، كيف لا والمطلوبُ منهم إنما هو الإخبارُ بدعائهم غيرَه تعالى عند إتيانِ ما يأتي لا نفسُ دعائهم إياه، وقوله تعالى: **﴿بل إياه تدعون﴾** عطفٌ على جملة منفيةٍ ينْبئ عنها الجملةُ التي تعلقَ بها الاستخبارُ إنباءً جليًّا كأنه قيل: لا غيرَه تعالى تدعون بل إياه تدعون وقوله تعالى: **﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾** أي إلى كشفه، عطفٌ على تدعون أي فيكشفه إثرَ دعائِكم، وقوله تعالى: **﴿إن**

شاء﴾ أي إن شاء كشفَه لبيانِ أن قبولَ دعائِهم غيرُ مطَّردٍ، بل هو تابعٌ لمشيئته المبنيةِ على حِكَم خفيةٍ قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبلُه كما في بعض دعواتهم المتعلقةِ بكشف العذاب الدنيوي، وقد لا يقبله كما في بعضٍ آخَرَ منها وفي جميع ما يتعلق بكشف العذابِ الأخرويِّ الذي من جملته الساعةُ.

وقوله تعالى: ﴿وتنسون ما تشركون﴾ أي تتركون ما تشركونه به تعالى من الأصنام تركًا كليًّا. عطفٌ على تدعون أيضًا وتوسيطُ الكشفِ بينهما مع تقارنهما وتأخُرِ الكشف عنهما لإظهار كمال العنايةِ بشأن الكشفِ والإيذان بترتّبه على الدعاء خاصةً، وقولُه تعالى: ﴿ولقد أرسلنا﴾ كلام مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان أن منهم من لا يدعو الله تعالى عند إتيانِ العذاب أيضًا لتماديهم في الغيِّ والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية[1]. وتصديرُه بالجملة القَسَمية لإظهار مزيدِ الاهتمام بمضمونه، ومفعول (أرسلنا) محذوف لما أن مقتضىٰ المقام بيانُ حال المرسَل إليهم لا حالِ المرسلين، أي وبالله لقد أرسلنا رسلًا ﴿إلى أمم﴾ كثيرة ﴿من قبلك﴾ أي كائنة من زمان قبلَ زمانك ﴿فأخذناهم﴾ أي فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿بالبأساء﴾ أي بالشدة والفقر ﴿والضراء﴾ أي الضرر والآفات وهما صيغتا تأنيثٍ لا مذكر لهما ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي لكي يدعُوا الله تعالى في كشفها بالتضرّع والتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ استدراكٌ عما قبله أي فلم يتضرعوا إليه تعالى برقةِ القلب والخضوع، مع تحقق ما يدعوهم إليه، ولكن ظهر منهم نقيضُه حيث قستْ قلوبُهم أي استمرتْ على ما هي عليه من القساوة أو ازدادَتْ قساوةً كقولك: لم يُكرِمْني إذ جئتُه ولكن أهانني ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والمعاصي فلم يُخْطِروا ببالهم أنّ ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله وقيل: الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم في ترك التضرُّع عذرٌ سوى قسوةِ قلوبهم والإعجابِ بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم وقوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ عطفٌ على مقدَّر ينساق إليه النظمُ الكريم أي فانهمَكوا فيه ونسُوا ما ذُكِّروا به من البأساء والضّراء، فلما نسوه ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من فنون النَّعْماء على منهاج الاستدراج، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مُكِر بالقوم

(١) الزواجر التنزيلية هي الآيات المنزَّلة التي من خلالها نهى الله تعالى عن فعل كذا وكذا. والآيات التكوينية هي ما ينبغي أن يراه الإنسان في الكون وفي نفسه بالنظر والتأمُّل وأن يتَّعظ به ويزدجر.

ورب الكعبة»[١] وقرئ[٢] (فتّحنا) بالتشديد للتكثير وفي ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعارٌ بأن التذكر في الجملة غير خالٍ عن النفع، و(حتى) في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا**﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أمرنا**﴾ [هود، الآية ٤٠] الآية ونظائرِه، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿**فتحنا**﴾ أو لما يدل هو عليه كأنه قيل: ففعلوا ما فعلوا حتى إذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطِروا وأشِروا[٣] ﴿**أخذناهم بغتة**﴾ أي نزل بهم عذابنا فجأةً ليكون أشدَّ عليهم وقعًا وأفظع هولًا ﴿**فإذا هم مبلسون**﴾ متحسِّرون غاية الحسرة آيسون من كل خير، واجمون، وفي الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة.

﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا**﴾ أي آخِرُهم بحيث لم يبقَ منهم أحد، مِنْ دبره دبرًا أي تبعه، ووضعُ الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضعُ الكفر موضعَ الشكر وإقامةُ المعاصي مُقامَ الطاعات ﴿**والحمد لله رب العالمين**﴾ على ما جرى عليهم من النَّكال، فإن إهلاك الكفار والعصاة، من حيث إنه تخليصٌ لأهل الأرض من شؤم عقائدِهم الفاسدة، وأعمالهم الخبيثة، نعمةٌ جليلة مستجلِبةٌ للحمد، لا سيما مع ما فيه من إعلاءِ كلمةِ الحق التي نطقَت بها رسلُهم عليهم السلام.

﴿**قل أرأيتم**﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم وتثنيةِ الإلزامِ بعد تكملةِ الإلزامِ الأولِ ببيان أنه أمرٌ مستمرٌ لم يزَلْ جاريًا في الأمم، وهذا أيضًا استخبارٌ عن متعلَّق الرؤية وإن كان بحسَب الظاهرِ استخبارًا عن نفسِ الرؤية ﴿**إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم**﴾ بأن أصَمّكم وأعماكم بالكلية ﴿**وختم على قلوبكم**﴾ بأن غطّىٰ عليها بما لا يبقىٰ لكم معه عقلٌ وفهمٌ أصلًا وتصيرون مجانين، ويجوز أن يكون الختمُ عطفًا

---

(١) لم أقف عليه مرفوعًا، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (١/ ٤٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٩١) برقم (٧٢٩٣) من قول الحسن البصري رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، وورش، وابن وردان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٣١)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٤٧)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(٣) بطر وأشِر: بمعنى وهو نشط وغلا في المرح والزهو.
وبطر النعمة: استخفَّها وكفرها.

تفسيريًا للأخذ المذكور فإن السمعَ والبصر طريقان للقلب، منهما يردُ ما يرِدُه من المدرَكات، فأخذُهما سدٌّ لِبابه بالكلية، وهو السر في تقديم أخذِهما على ختمها، وأما تقديمُ السمع على الإبصار فلأنه موردُ الآياتِ القرآنية، وإفرادُه لما أن أصله مصدَرٌ وقوله تعالى: ﴿مَن إِلٰه﴾ مبتدأ وخبرٌ و(من) استفهامية، وقوله تعالى: ﴿غيرُ الله﴾ صفةٌ للخبر، وقوله تعالى: ﴿يأتيكم به﴾ أي بذاك على أن الضميرَ مستعارٌ لاسم الإشارة، أو بما أَخَذ وخَتَم عليه، صفةٌ أخرى له والجملة متعلَّقُ الرؤية ومناطُ الاستخبار أي أخبروني إنْ سلب الله مشاعرَكم من إله غيرُه تعالى يأتيكم بها. وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نُصرِّف الآيات﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من عدم تأثُّرِهم بما عاينوا من الآيات الباهرةِ أي انظر كيف نكرِّرها ونقرِّرها مصروفةً من أسلوب إلى أسلوب، تارةً بترتيب المقدِّمات العقلية وتارةً بطريق الترغيب والترهيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير ﴿ثم هم يصدِفون﴾ عطفٌ على نصرِّف داخلٌ في حكمه، وهو العُمدة في التعجيب و(ثم) لاستبعاد صدوفهم أي إعراضِهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديعِ الموجبِ للإقبال عليها.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قل أرأيتكم﴾ تبكيتٌ آخَرُ لهم بإلجائهم إلى الاعترافِ باختصاص العذاب بهم ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ أي عذابُه العاجلُ الخاصُّ بكم كما أتى مَنْ قبلكم من الأمم ﴿بغتة﴾ أي فجأةً من غير أن يظهرَ منه مخايِلُ الإتيان وحيثُ تضمّن هذا معنى الخُفية [قوبل][1] بقوله تعالى: ﴿أو جهرةً﴾ أي بعد ظهورِ أماراتِه وعلائمه، وقيل: ليلًا أو نهارًا كما في قوله تعالى: ﴿بياتًا أو نهارًا﴾ [يونس، الآية ٥٠] لما أن الغالبَ فيما أتى ليلًا البغتةُ وفيما أتى نهارًا الجهرةُ، وقرئ[2] (بغتة أو[3] جهرة) وهما في موضع المصدر أي إتيانَ بغتةٍ أو إتيانَ جهرة، وتقديمُ البغتة لكونها أهولَ وأفظعَ، وقوله تعالى: ﴿هل يُهلك﴾ متعلق الاستخبار، والاستفهام للتقرير أي قل لهم تقريرًا لهم باختصاص الهلاكِ بهم أخبروني إن أتاكم عذابُه تعالى حسبما تستحقونه هل يُهلك بذلك العذاب إلا أنتم؟ أي هل يُهلك غيرُكم ممن لا يستحقه؟ وإنما وُضع موضعَه

---

(١) سقط في ط.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٤).

(٣) في المخطوط: و.

﴿إلا القوم الظالمون﴾ تسجيلًا عليهم بالظلم وإيذانًا بأن مناطَ إهلاكهم ظلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان.

وقيل: المرادُ بالظالمين الجنسُ وهم داخلون في الحكم دخولًا أوليًا. قال الزجاج: هل يُهلك إلا أنتم ومن أشبهكم؟ ويأباه تخصيصُ الإتيان بهم، وقيل: الاستفهامُ بمعنى النفي فمتعلَّق الاستخبارِ حينئذ محذوفٌ كأنه قيل: أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال؟ ثم قيل بيانًا لذلك: ما يُهلك إلا القومُ الظالمون أي ما يُهلك بذلك العذاب الخاصِّ بكم إلا أنتم. فمن قيَّد الهلاكَ بهلاك التعذيب والسُخط، لتحقيق الحصْرِ بإخراج غيرِ الظالمين لِما أنه ليس بطريقِ التعذيب والسَّخَطِ بل بطريق الإثابة ورفع الدرجة، فقد أهمل ما يُجديه واشتغل بما لا يَعنيه وأخلَّ بجزالة النظم الكريم.

وقرئ[1] (هل يَهلِك) من الثلاثي.

وظائف الرسالة

﴿وما نرسل المرسلين﴾ كلام مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان وظائفِ منْصِبِ الرسالة على الإطلاق وتحقيقِ ما في عُهدة الرسلِ عليهم السلام، وإظهارُ أن ما يقترحه الكفرةُ عليه، عليه السلام، ليس مما يتعلقُ بالرسالة أصلًا، وصيغةُ المضارع لبيانِ أن ذلك أمرٌ مستمرٌّ جرتْ عليه العادةُ الإلٰهية، وقوله تعالى: ﴿إلا مبشرين ومنذرين﴾ حالان مقدّرتان من المُرْسلين أي ما نرسِلُهم إلا مقدَّرًا تبشيرُهم وإنذارُهم ففيهما معنى العلةِ الغائيّة قطعًا أي ليبشروا قومَهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أي ليُخبروهم بالخبر السار والخبرِ الضارّ دنيويًا كان أو أُخرويًّا من غير أن يكون لهم دخلٌ ما في وقوع المخبَر به أصلًا، وعليه يدور القصرُ والإلزام ألا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فمن آمن وأصلح﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و(من) موصوله والفاء في قوله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ لشَبَه الموصول بالشرط أي لا خوف عليهم من العذاب الذي أُنذِروه دنيويًّا كان أو أخرويًّا ولا هم يحزنون بفوات ما بُشِّروا به من الثواب العاجل والآجل. وتقديمُ نفْيِ الخوفِ على نفْيِ الحُزْن لمراعاة حقِّ المقام، وجمعُ الضمائر الثلاثة

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٤).

الراجعة إلى (من) باعتبار معناها، كما أن إفرادَ الضميرَيْن السابقين باعتبار لفظِهما، أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائِهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لَما تقرر في موضعه من أن النفيَ وإن دخل على نفس المضارع يُفيد الدوام والاستمرارَ بحسب المقام، ألا يُرى أن الجملةَ الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فإذا دخل عليها حرفُ النفي دلت على استمرار الانتفاءِ لا على انتفاء الاستمرار، كذلك المضارعُ الخالي عن حرف النفي يفيد استمرارَ الثبوت فإذا دخل عليه حرفُ النفي يفيد استمرارَ الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بُعْد في ذلك، فإن قولَك: ما زيدًا ضربت مفيدٌ لاختصاص النفي لا نفي الاختصاص، كما بُيّن في محله، وقوله عز وجل: ﴿**والذين كذبوا**﴾ عطفٌ على مَنْ آمن داخلٌ في حكمه.

وقوله تعالى: ﴿**بآياتنا**﴾ إشارة إلى أن ما ينطِقُ به الرسلُ عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلّغونه إلى الأمم آياتُه تعالى، وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى، ومن كذب به فقد كذب بها، وفيه من الترغيب في الإيمان والتحذيرِ عن تكذيبه ما لا يخفى. والمعنى ما نرسل المرسلين إلا ليُخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الأمور السارّة والضارّة لا ليُوقعوها استقلالًا من تلقاء أنفسهم، أو استدعاءً من قِبَلِنا، حتى يقترحوا، فإذا كان الأمرُ كذلك فمن آمن بما أَخبروا به من قبلنا تبشيرًا أو إنذارًا في ضمن آياتنا، وأصلح ما يجب إصلاحُه من أعماله، أو دخل في الصلاح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا التي بُلِّغوها عند التبشير والإنذار ﴿**يمسهم العذاب**﴾ أي العذاب الذي أُنذِروه عاجلًا، أو آجلًا، أو حقيقةُ العذاب وجنسُه المنتظمُ له انتظامًا أوليًّا ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾ أي بسبب فسقهم المستمر الذي هو الإصرارُ على الخروج عن التصديق والطاعة.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾

﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على ما أسِّسَ من السنة الإلٰهية في شأنِ إرسالِ الرسل وإنزالِ الكتُب، مَسوقٌ لإظهار تبرِئتِه ﷺ عما يدورُ عليه مقترحاتُهم، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارةً تنزيلَ الآياتِ وأخرى غيرَ ذلك لا أدَّعي أن خزائنَ مقدوراتِه تعالى مُفوَّضةٌ إلي أتصرَّفُ فيها كيفما أشاء استقلالًا أو استدعاء، حتى تقترحوا عليّ تنزيلَ الآياتِ[1] أو إنزالَ العذاب، أو قلبَ الجبال ذهبًا، أو غيرَ ذلك مما لا يليق بشأني، وجعلُ هذا تبرُّؤًا عن دعوىٰ الإلٰهية مما لا وجهَ له قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿ولا أعلم الغيب﴾ عطفٌ على محلِّ (عندي خزائنُ الله)، أي لا أدّعي أيضًا أني أعلم الغيبَ من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقةِ للعادات ما لا يُطيق البشرُ من الرُقيِّ في السماء ونحوه، أو تعدوا عدمَ اتّصافي بصفاتهم قادحًا في أمري كما ينبئ عنه قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان، الآية ٧] والمعنى إني لا أدَّعي شيئًا من هذه الأشياء الثلاثةِ حتى تقترحوا عليَّ ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدمَ إجابتي إلى ذلك دليلًا على عدم صحةِ ما أدَّعيه من الرسالة التي لا تعلُّقَ لها بشيء مما ذُكر قطعًا بل إنما هي عبارةٌ عن تلقِّي الوحْي من جهةِ الله عز وجل، والعملِ بمقتضاه فحسْب، حسْبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلَيَّ﴾ لا على معنى تخصيص اتباعه ﷺ بما يوحىٰ إليه دون غيره بتوجيه القَصْر إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخرَ كما هو الاستعمال الشائعُ الواردُ على توجيه القصْر إلى ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي في الأصل، والإثبات في القيد، بل على معنى تخصيص حالِه ﷺ باتباع ما يوحىٰ إليه بتوجيه القصرِ إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغرّه[2] من الأفعال، لكن لا باعتبار النفي والإثباتِ معًا في خصوصية، فإن ذلك غيرُ ممكن قطعًا، بل باعتبار النفي فيما يتضمّنه من مُطلق الفعل، والإثباتِ فيما يقارنه من المعنى المخصوص، فإنّ كلَّ فعلٍ من الأفعال الخاصَّةِ كنصر مثلًا ينحلّ عند التحقيق إلى معنىً مطلقٍ هو مدلولُ لفظِ الفعل وإلى معنىً خاصٍّ يقوم[3] به فإن معناه فعَلَ النصْرَ، يُرشدك إلى ذلك قولُهم[4]: فلانٌ يُعطي ويمنع [بمعنى][5] يفعل الإعطاء والمنع، فموردُ القصر في الحقيقة ما

---

(١) في المخطوط: الكتاب.
(٢) في المخطوط: يغايره.
(٣) في ط: يقويه.
(٤) زاد في ط: معنى.
(٥) سقط في ط.

يتعلقُ بالفعل بتوجيه النفي إلى الأصل والإثباتِ إلى القيد، كأنه قيل: ما أفعلُ إلا اتباعَ ما يُوحىٰ إليّ مِنْ غير أن يكون لي مدخَلٌ ما في الوحي أو في الموحىٰ بطريق الاستدعاء، أو بوجهٍ آخرَ من الوجوه أصلًا.

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ مثل للضال والمهتدي[1] على الإطلاق، والاستفهام إنكاري والمراد إنكارُ استواءِ مَنْ لا يعلم ما ذُكر من الحقائق ومن يعلمُها وفيه من الإشعار بكمالِ ظهورِها ومن التنفير عن الضلالِ والترغيب في الاهتداء ما لا يخفىٰ، وتكريرُ الأمر لتثنية التبكيتِ وتأكيدِ الإلزام.

وقوله تعالى: ﴿أفلا تتفكرون﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ داخلٌ تحت الأمر، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي ألا تسمعون هذا الكلامَ الحقَّ فلا تتفكرون فيه، أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه، فمناطُ التوبيخِ في الأول عدمُ الأمرَيْنِ معًا، وفي الثاني عدم التفكر مع تحقق ما يُوجبه.

﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ بعد ما حكي لرسول الله ﷺ أن من الكفرة قومًا لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة، ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة، قد إيفت[2] مشاعرُهم بالكلية، والتحقوا بالأموات، وقرَّر ذلك بأن كرَّر عليهم من فنون التبكيت والإلزام ما يُلقِمُهم الحجرَ أيَّ إلقام فأبَوا إلا الإباءَ والنكيرَ، وما نجَع فيهم عِظةٌ ولا تذكير، وما أفادهم الإنذارُ إلا إصرارًا على الإنكار، أُمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الإنذار إلى مَنْ يتوقعُ منهم التأثرَ في الجملة وهم المجوِّزون منهم لحشر على الوجه الآتي، سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعضِ المشركين المعترفين بالبعث، المتردِّدين في شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو في شفاعة الأصنام كالآخِرين أو متردّدين فيهما معًا كبعض

---

(١) قوله: مثل أي استعارة حيث شبهت حالة من لا يفقه الأدلة، ولا يفكك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد، ولا أين يضع قدمه، وشبهت حالة من يميز الحقائق، ولا يلتبس عليه بعضها ببعض، بحالة القوي البصير حيث لا تختلط عليه الأشباه، وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم، وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها، والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها، ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق، وقال الزمخشري: مثل للضلّال والمهتدين.
ينظر: الكشاف (٢/ ٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ١٣٤)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٣٢)، والتحرير والتنوير (٧/ ٢٤٣)، وينظر في الاستعارة (٤/ ٥٦)، من شروح التلخيص، الطراز (٣/ ٣٣٤)، وتلخيص المفتاح ومختصر السعد عليها (٢٩٥) وما بعدها.

(٢) إيفت مشاعرهم: أصابتها آفة، فهي مَؤوفَةٌ.

الكفرة الذين يُعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقًّا، وأما المنكرون للحشر رأسًا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن[1] أُمر بإنذراهم، وقد قيل: هم المفرِّطون في الأعمال من المؤمنين، ولا يساعده سِباقُ[2] النظم الكريم ولا سياقه، بل فيه ما يقضي باستحالة صحته كما ستقف عليه، والضميرُ المجرورُ لما يوحىٰ أو لما دل هو عليه من القرآن، والمفعولُ الثاني للإنذار إما العذاب الأخروي المدلول عليه بما في حيز الصلة وإما مطلق العذاب الذي ورد به الوعيدُ، والتعرّضُ لعنوان الربوبية المُنْبئة [عن][3] المالكيةِ المطلقةِ والتصرّف الكليِّ لتربية المهابة وتحقيق المخافة.

وقوله تعالى: ﴿**ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع**﴾ في حيز النصْب على الحالية من ضمير (يُحشروا)، و(من) متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا من اسم ليس، لأنه في الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالًا، خلا أن الحال الأولى لإخراج الحشر، الذي لم يقيد بها، عن حيز الخوف، وتحقيقِ أن ما نيط به الخوفُ هو الحشر على تلك الحالة لا الحشرُ كيفما كان، ضرورةَ أن المعترفين به الجازمين بنُصرة غيرِه تعالى بمنزلةِ المنكرين له في عدم الخوفِ الذي عليه يدورُ أمرُ الإنذار، وأما الحالُ الثانية فليست لإخراج الوليِّ، الذي لم يقيَّد بها، عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوتِ ولايتِه تعالى لهم كما في قوله تعالى: ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ [البقرة، الآية ١٠٧] بل لتحقيق مدارِ خوفهم وهو فُقدان ما علّقوا به رجاءَهم، وذلك إنما هو ولايةُ غيرِه سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿**ومن لا يُجبْ داعيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياءُ**﴾ [الأحقاف، الآية ٣٢].

والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يُحشروا غيرَ منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم، ومن هذا اتضح ألا سبيلَ إلى كون المرادِ بالخائفين المفرِّطين من المؤمنين، إذ ليس لهم وليٌّ سواه تعالى ليخافوا الحشرَ بدون نُصرته وإنما الذين يخافون الحشرَ بدون نصرته عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿**لعلهم يتقون**﴾ تعليل الأمر، أي أنذِرْهم لكي يتقوا الكفرَ والمعاصيَ أو حال من ضمير الأمر، أي أنذِرْهم راجيًا تقواهم أو مِن الموصول أي أنذرهم مرجوًا منهم التقوى.

---

(١) في ط: عن.

(٢) سباق النظم: رباطه وقيده. وسياقُه: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه.

(٣) سقط في ط.

﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ لما أُمر ﷺ بإنذار المذكورين لينتظموا في سلك المتقين نُهِيَ ﷺ عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم. رُوي أن رؤساءَ من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: لو طردتَ هؤلاء الأعبُدَ وأرواحَ جبابهم، يعنون فقراءَ المسلمين كعمارٍ وصهيبٍ وخبابٍ وسَلمانَ وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم جلسنا إليك وحادثناك. فقال ﷺ: «**ما أنا بطارد المؤمنين**» فقالوا: فأقِمْهم عنا إذا جئنا، فإذا قُمنا فأقعِدْهم معك إن شئت، قال ﷺ: «**نعم**» طمعًا في إيمانهم[١]. ورُوي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام: «**لو فعلتَ حتى ننظرَ إلى ما يصيرون؟**» وقيل: إن عُتبةَ بنَ ربيعةَ وشيبةَ بنَ ربيعةَ[٢] ومُطعِمَ بنَ عديٍّ[٣] والحارثَ بنَ نوفل وقرصةَ بنَ عبيد وعمرو بنَ نوفل وأشرافَ بني عبد مناف من أهل الكفر أتَوا أبا طالب فقالوا: يا أبا طالب لو أن ابنَ أخيك محمدًا يطرُد مواليَنا وحلفاءنا وهم عبيدُنا وعتقاؤُنا كان أعظمَ في صدورنا، وأدنى لاتّباعنا إياه، فأتى أبو طالب إلى النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر رضي الله عنه: لو فعلتَ ذلك حتى ننظرَ ما الذي يريدون، وإلامَ يصيرون[٤]؟.

وقال سلمان وخباب: فينا نزلت هذه الآية، جاء الأقرعُ بنُ حابسٍ التميمي وعُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ الفزاريُّ وعباسُ بنُ مِرْداسٍ[٥] وذووهم من المؤلفة قلوبُهم فوجدوا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٨٢) كتاب الزهد، باب: مجالسة الفقراء، حديث (٤١٢٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٤٦-١٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٣٦-٣٣٧) رقم (١٠٤٩٤).

(٢) هو شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، جاهلي، قتله علي بن أبى طالب كرم الله وجهه يوم بدر مشركًا.
ينظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٤٧،٢٤٨) (٢٥٨).

(٣) هو: المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف أبو وهب وكان من أشراف قريش، وكان أقلهم أذى لرسول الله ﷺ وهو الذي أجار رسول الله ﷺ حين رجع من الطائف وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف فلما عاد منعوه دخول مكة فبعث إلى المطعم أدخل في جوارك قال نعم فأجاره فدخل ومات المطعم بمكة كافرا ودفن بالحجون وهو ابن بضع وتسعين سنة أقيم النوح سنة عليه فلما كانت غزاة بدر قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر لو كان المطعم حيًّا لوهبت له هؤلاء السبي.
المنتظم (٣/ ١٥٥).

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ١٥٠).

(٥) هو: العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أبو الهيثم، شاعر فارس، من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة، أدرك الجاهلية و الإسلام ، وأسلم قبيل فتح مكة. وكان من المؤلفة قلوبهم. ويُدعى فارس العُبيد- بالتصغير- وهو فرسه، وكان بدويًا قحًا، لم يسكن مكة ولا المدينة، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه، توفي سنة ثماني عشرة هـ.
ينظر: الطبقات لابن سعد (٤/ ١٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٣٠)، تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٥٥).

النبي ﷺ جالسًا مع أناسٍ من ضعفاءِ المؤمنين، فلما رأوهم حوله ﷺ حقَروهم فأتَوْه عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا رسول الله لو جلستَ في صدر المسجد، ونفَيْتَ عنا هؤلاء وأرواحَ جبابهم فجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال ﷺ: **«ما أنا بطارد المؤمنين»** قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا معك مجلسًا تعرِفْ لنا به العربُ فضلَنا فإن وفودَ العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال ﷺ: **«نعم»** قالوا: فاكتب لنا كتابًا فدعا بالصحيفة وبعليٍّ رضي الله تعالى عنه ليكتبَ ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريلُ عليه السلام بالآية، فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده، وكنا ندنو منه حتى تمَسَّ رُكَبُنا رُكبتَه، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت **﴿واصبِرْ نفسَك مع الذين يدعون ربهم﴾** [الكهف، الآية ٢٨] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال: **«الحمد لله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أن أصبِرَ نفسي مع قومٍ من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات»**[(١)] والمرادُ بذكر الوقتين الدوامُ وقيل: صلاةُ الفجر والعصر.

وقرئ[(٢)] (بالغُدوة) وقوله تعالى: **﴿يريدون وجهه﴾** حال من ضمير (يدعون) أي يدعونه تعالى مخلصين له فيه، وتقييدُه به لتأكيد علِّيتِه للنهي، فإن الإخلاصَ من أقوى موجبات الإكرام المضادِّ للطرد.

وقوله تعالى: **﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾** اعتراضٌ وسطٌ بين النهي وجوابه تقريرًا له ودفعًا لما عسى يُتوَهم كونُه مسوِّغًا لطردهم من أقاويلِ الطاعنين في دينهم، كدأب قوم نوحٍ حيث قالوا: **﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذُلنا بادِيَ الرأي﴾** [هود، الآية ٢٧] أي ما عليك شيءٌ ما مِنْ حساب إيمانهم وأعمالِهم الباطنة حتى تتصدَّى له وتبني على ذلك ما تراه من الأحكام، وإنما وظيفتُك، حسبما هو شأنُ منصِبِ النبوة، اعتبارُ ظواهرِ الأعمال وإجراءُ الأحكام على موجبها، وأما بواطنُ الأمور فحسابُها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى: **﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾** [الشعراء، الآية ١١٣] وذكرُ قوله تعالى: **﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾** مع أن الجوابَ قد تم

---

(١) تقدم.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، والحسن، وأبو رجاء، ومالك بن دينار، ونصر بن عاصم، وأبو عبد الرحمن. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٨)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٤٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤١)، والبحر المحيط (٤/ ١٣٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٥٤)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣٠٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٤٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

بما قبله للمبالغة في بيان انتفاءِ كون حسابِهم عليه ﷺ بنظمه في سِلْك ما لا شُبهة فيه أصلًا، وهو انتفاءُ كونِ حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قولِه تعالى: ﴿**لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ [الأعراف، الآية ٣٤] وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلةَ جملةٍ واحدةٍ لتأدية معنى واحدٍ على نهج قوله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ [فاطر، الآية ١٨] فغيرُ حقيقٍ بجلالة شأن التنزيل، وتقديم (عليك) في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ إذ هو الداعي إلى تصدّيه عليه الصلاة والسلام لحسابهم، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: أنك لا تؤاخَذُ بحسابهم حتى يُهمَّك إيمانُهم ويدعُوَك الحِرْصُ عليه إلى أن تطرُدَ المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿**فتطردَهم**﴾ جواب النفي وقوله تعالى: ﴿**فتكون من الظالمين**﴾ جواب النهي وقد جُوِّز عطفُه على (فتطردَهم) على طريقة التسبيب وليس بذاك.

﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض**﴾ استئنافٌ مبينٌ لما نشأ عنه ما سبق من النهي، وذلك إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل الذي هو عبارةٌ عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدين بتوفيقهم للإيمان مع ما هم عليه في أمر الدنيا من كمال سوء الحال، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه، وبُعْدِ منزلتِه في الكمال، والكاف مُقحَمَةٌ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة، ومحلها في الأصل النصب على أنه نعتٌ لمصدرٍ مؤكّدٍ محذوف، والتقدير فتنا بعضَهم ببعض فتونًا كائنًا مثلَ ذلك الفتون، ثم قُدّم على الفعل لإفادة القصْرِ المفيدِ لعدم القصور فقط، واعتُبرت الكافُ مُقحَمةً فصار نفسَ المصدرِ المؤكدِ لا نعتًا له. والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنًا، أي ابتلَينا بعضَ الناس ببعضهم لا فتونًا غيره، حيث قدمنا الآخِرين في أمر الدينِ على الأولين المتقدمين عليهم في أمر الدنيا تقدمًا كليًّا، واللام في قوله تعالى: ﴿**ليقولوا**﴾ للعاقبة، أي ليقول البعضُ الأولون مُشيرين إلى الآخِرين محقِّرين لهم نظرًا إلى ما بينهما من التفاوت الفاحشِ الدنيوي، وتعاميًا عما هو مَناطُ التفضيلِ حقيقةً ﴿**أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا**﴾ بأن وفّقهم لإصابة الحقِّ ولِما يسعدهم عنده تعالى من دوننا، ونحن المقدَّمون والرؤساء، وهم العبيدُ والفقراء، وغرضُهم بذلك إنكارُ وقوعِ المنِّ رأسًا على طريقة قولِهم: ﴿**لو كان خيرًا ما سَبقونا إليه**﴾ [الأحقاف، الآية ١١] لا تحقيرُ الممنونِ عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراضِ عليه تعالى، وقولُه تعالى: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ ردٌّ لقولهم ذلك وإبطال له، وإشارةٌ إلى أن مدارَ استحقاقِ الإنعام معرفةُ شأنِ النعمةِ والاعترافُ بحق المُنعِم، والاستفهامُ لتقرير علمه البالغِ بذلك، أي أليس الله بأعلمَ بالشاكرين لِنِعَمِه

حتى تستبعِدوا إنعامَه عليهم؟ وفيه من الإشارة إلى أن أولئك الضعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم الله تعالى في تنزيل القرآنِ والتوفيقِ للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزلٍ من ذلك كله ما لا يخفى.

﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا**﴾ هم الذين نُهيَ عن طردهم، وُصِفوا بالإيمان بآيات الله عز وجل كما وُصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالإخلاص تنبيهًا على إحرازهم لفضيلتَي العلم والعمل، وتأخيرُ هذا الوصفِ مع تقدمه على الوصف الأولِ لما أن مدارَ الوعدِ بالرحمة والمغفرة هو الإيمانُ بها كما أن مناطَ النهْي عن الطرد فيما سبق هو المداومةُ على العبادة وقوله تعالى: ﴿**فقل سلام عليكم**﴾ أمرٌ بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروهٍ بعد إنذارِ مُقابليهم، وقيل: بتبليغ سلامِه تعالى إليهم، وقيل: بأن يبدأَهم بالسلام.

وقوله تعالى: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ أي قضاها وأوجبَها على ذاته المقدسةِ بطريق التفضّل والإحسانِ بالذات، لا بتوسُّطِ شيءٍ ما أصلًا، تبشيرًا لهم بسَعَة رحمتِه تعالى، وبنيل المطالبِ إثرَ تبشيرِهم بالسلامة من المكاره وقبولِه التوبة منهم، وفي التعرُّض لعُنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ اللطفِ بهم والإشعارُ بعلّة الحُكْم. وقيل: إن قومًا جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبْنا ذُنوبًا عِظامًا، فلم يُردَّ عليهم شيئًا فانصرفوا، فنزلت[1].

وقوله تعالى: ﴿**أنه من عمل منكم سوءًا**﴾ بدل من الرحمة.

وقرئ[2] بكسر (إنه) على أنه تفسيرٌ للرحمة بطريق الاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿**بجهالة**﴾ حال من فاعل (عمل) أي عمله وهو جاهلٌ بحقيقة ما يتبعه من المضارِّ، والتقييدُ بذلك للإيذان بأن المؤمنَ لا يباشر ما يعلمُ أنه يؤدي إلى الضرر، أو عملِه متلبّسًا[3] بجهالة ﴿**ثم تاب من بعده**﴾ أي من عمله أو بعد سَفَهِه

---

(١) أخرجه الثوري في تفسيره (١/ ١٠٨)، ومن طريقه ابن جرير الطبري (١١/ ٣٩١)، برقم (١٣٢٩٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٠) برقم (٧٣٤٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، وابن كثير، وحمزة، وخلف، ويزيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٨)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٠)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤١)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٥٨)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٧)، والمعاني للأخفش (٢/ ٢٧٥)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٦)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(٣) في المخطوط: ملتبسا.

﴿وأصلح﴾ أي ما أفسده تداركًا وعزمًا على ألا يعودَ إليه أبدًا ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أي فأمرُه أنه غفور رحيم.

وقرئ[١] (فإنه) بالكسر على أنه استئنافٌ وقع في صدر الجملة الواقعةِ خبرًا لة (من) على أنها موصولة أو جوابًا لها عن أنها شرطية.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ قد مر آنفًا ما فيه من الكلام أي هذا التفصيلَ البديعَ نفصّلُ الآياتِ في صفة أهل الطاعةِ وأهل الإجرام المُصرِّين منهم والأولين ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ بتأنيث الفعلِ بناءً على تأنيث الفاعل وقرئ[٢] بالتذكير بناءً على تذكيره فإن السبيلَ مما يذكر ويؤنث، وهو عطفٌ على علة محذوفةٍ للفعل المذكورِ لم يُقصَدْ تعليلُه بها بعينها وإنما قُصد الإشعارُ بأن له فوائدَ جمّةً من جملتها ما ذُكر، أو علةٌ لفعل مقدرٍ هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنَفًا أي ولتستبين سبيلَهم نفعلُ ما نفعل من التفصيل.

وقرئ[٣] بنصب السبيلَ على أن الفعل متعدٍّ وتاؤُه للخطاب أي ولتستوضح أنت يا محمد سبيلَ المجرمين فتعامِلَهم بما يليق بهم.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٨)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٠)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤١)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٥٨)، والتيسير للداني ص (١٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٩٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٧)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، وشعبة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٩)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤١)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٦٢)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٩٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧)، والكشف للقيسي (١/ ٤٣٣، ٤٣٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٨)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٧)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(٣) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٩)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤١)، وتفسير الطبري (١١/ ٣٩٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٨)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٧)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٣).

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

عود إلى مناقشة المشركين

﴿**قل إني نهيت**﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع إلى مخاطبة المُصِرّين على الشرك إثرَ ما أُمر بمعاملة مَنْ عداهم من أهل الإنذار والتبشيرِ بما يليق بحالهم أي قل لهم قطعًا لأطماعهم الفارغةِ عن ركونه عليه الصلاة والسلام إليهم، وبيانًا لكون ما هم عليه من الدين هوىً محضًا وضلالًا بحتًا، إني صُرفتُ وزُجِرْت بما نُصب لي من الأدلة وأُنزل علي من الآيات في أمر التوحيد ﴿**أن أعبد الذين تدعون**﴾ أي عن عبادة ما تعبدونه ﴿**من دون الله**﴾ كائنًا ما كان.

﴿**قل**﴾ كَرر الأمرَ مع قرب العهد اعتناءً بشأن المأمور به أو إيذانًا باختلاف المَقولَيْن من حيث إن الأولَ حكايةٌ لِما من جهته تعالى من النهي، والثاني حكايةٌ لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذُكر من عبادة ما يعبدونه وإنما قيل: ﴿**لا أتبع أهواءكم**﴾ استجهالًا لهم وتنصيصًا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلةٍ وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلًا، وإشعارًا بما يوجب النهيَ والانتهاءَ.

وقوله تعالى: ﴿**قد ضللت إذًا**﴾ استئنافٌ مؤكِّد لانتهائه عما نُهِيَ عنه مقرِّر لكونهم في غاية الضلال والغَواية، أي إن اتبعتُ أهواءكم فقد ضللت.

وقوله تعالى: ﴿**وما أنا من المهتدين**﴾ عطفٌ على ما قبله، والعدولُ إلى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أي دوامِ النفْي واستمرارِه لا نفْي الدوام

والاستمرار كما مر مرارًا أي ما أنا في شيء من الهدى حين أكون في عِدادهم وقوله تعالى: ﴿قل إني على بينة﴾ تحقيقٌ للحق الذي عليه رسولُ الله ﷺ وبيانٌ لاتّباعه إياه إثرَ إبطالِ الذي عليه الكَفَرةُ وبيانِ عدم اتباعِه له، والبينةُ الحجةُ الواضحةُ التي تفصِلُ بين الحق والباطل والمرادُ بها القرآنُ والوحْيُ وقيل: هي الحججُ العقلية أو ما يعمُّها، ولا يساعدُه المقامُ، والتنوينُ للتفخيم، وقولُه تعالى: ﴿من ربي﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ (بينة) مؤكّدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التشريفِ ورفعِ المنزلة ما لا يخفى.

وقولُه تعالى: ﴿وكذبتم به﴾ إما جملةٌ مستأنفة أو حاليةٌ بتقدير قد أو بدونه، جيء بها لاستقباح مضمونِها واستبعاد وقوعِه مع تحقق ما يقتضي عدمَه من غاية وضوحِ البينة، والضميرُ المجرورُ للبينة، والتذكير باعتبار المعنى المرادِ، والمعنى إني على بينةٍ عظيمة كائنةٍ من ربي وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار التي من جملتها الوعيدُ بمجيء العذاب، وقولُه تعالى: ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ استئنافٌ مبينٌ لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بها، وهو عدمُ مجيءِ ما وَعد فيها من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾ [سبأ، الآية ٢٩] بطريق الاستهزاءِ أو بطريق الإلزامِ على زعمهم أي ليس ما تستعجلونه من العذاب الموعودِ في القرآنِ، وتجعلون تأخُّرَه ذريعةً إلى تكذيبه، في حُكمي وقدرتي حتى أَجيءَ به وأُظهرَ لكم صِدْقَه، أو ليس أمرُه بمُفوَّضٍ إلي ﴿إنِ الحكم﴾ أي ما الحكمُ في ذلك تعجيلًا وتأخيرًا أو ما الحكمُ في جميع الأشياء، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوليًا ﴿إلا لله﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخْلٌ ما فيه بوجه من الوجوه، وقولُه تعالى: ﴿يقص الحق﴾ أي يَتْبعُه، بيانٌ لشؤونه تعالى في الحكم المعهودِ أو في جميع أحكامِه المنتظمةِ له انتظامًا أوليًا، أي لا يحكمُ إلا بما هو حقٌّ فيُثْبتُ حقيقة التأخير.

وقرئ[1] (يقضِ) فانتصابُ (الحقَّ) حينئذٍ على المصدرية أي يقضي القضاءَ الحقَّ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وعلي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن المسيب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٥١)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤٣)، وتفسير الطبري (١١/ ١٩٩)، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٣٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٠، ١٤١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٥)، والكشف (١/ ٤٣٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٠٩)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

أو على المفعولية أي يصنعُ الحقَّ ويدبرُه من قولهم: قضىٰ الدِّرعَ إذا صنعها، وأصلُ القضاءِ الفصلُ بتمام الأمرِ، وأصلُ الحُكم المنعُ فكأنه يمنعُ الباطل عن معارَضةِ الحقِّ أو الخصمِ عن التعدِّي على صاحبه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مشيرٌ إلى أن قصَّ الحقِّ هاهنا بطريق خاصٍّ هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل، هذا هو الذي تَسْتَدْعيه جزالةُ التنزيلِ. وقد قيل: إن المعنى إني، من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه، على حجةٍ واضحةٍ وشاهدِ صدقٍ وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيرَه.

وأنت خبيرٌ بأن مساقَ النظم الكريمِ فيما سَبق وما لَحِق على وصفهم بتكذيب آياتِ الله تعالى بسبب عدم مجيءِ العذاب الموعودِ فيها، فتكذيبُهم به سبحانه في أمر التوحيد مما لا تعلُّقَ له بالمقام أصلًا ﴿قل لو أن عندي﴾ أي في قدرتي ومِكْنتي ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب الذي ورد به الوعيد بأن يكون أمرُه مفوّضًا إلي من جهته تعالى ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي بأن ينزِلَ ذلك عليكم إثرَ استعجالِكم بقولكم: متى هذا الوعد ونظائرِه، وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيُّن الفاعِلِ الذي هو الله تعالى وتهويلِ الأمر ومراعاةِ حسنِ الأدب ما لا يخفى. فما قيل في تفسيره لأهلكتُكم عاجلًا غضبًا لربي ولتخلصْتُ منكم سريعًا بمعزلٍ من تَوْفِيةِ المقام حقَّه. وقولُه تعالى: ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لِما أفادتْه الجملةُ الامتناعية من انتفاءِ كونِ أمرِ العذابِ مفوَّضًا إليه ﷺ المستتبع لانتفاء قضاءِ الأمر، وتعليلٌ له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوِّضِ الأمرَ إليّ فلم يقضِ الأمرَ بتعجيل العذاب والله أعلم.

لا يعلم الغيب إلا الله

﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ بيانٌ لاختصاص المقدوراتِ الغيبية به تعالى من حيثُ العلمُ إثرَ بيانِ اختصاصِ كلِّها به تعالى من حيثُ القدرةُ.

والمفاتحُ إما جمعُ مفتَح بفتح الميم وهو المخزَن فهو مستعارٌ لمكان الغيب[1]

---

(١) أي هي استعارة تخييلية تبنى على مكنية بأن شبهت الأمور المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يدخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال؛ بحيث لا يعلم ما فيها إلا الذي بيده مفاتحها، وأثبت لها المفاتح على سبيل التخييلية والقرينة هي إضافة المفاتح إلى الغيب، وإنما سميت استعارة بالكناية لأن فيها حقيقة الكناية المصطلح عليها؛ لأنه أطلق فيها اللفظ على شيء لإفادة لازمه، فأطلقت المنية مثلاً في قولنا: أنشبت المنية أظفارها على حقيقتها اللغوية، لإفادة لازمها، وهو أن لها اغتيال السبع المدلول عليه بقولنا: أنشبت أظفارها، وكان الواجب على هذا عدها من قسم الكنايات =

كأنها مخازِنُ خُزنت فيها الأمورُ الغيبيةُ يُغلق عليها ويُفْتَح، وإما جمعُ مفتِح بكسرها، وهو المفتاح، ويؤيده قراءةُ[١] مَنْ قرأ (مفاتيحُ الغيب) فهو مستعارٌ لما يُتوصَّلُ به إلى تلك الأمورِ بناءً على الاستعارة الأولى، أي عنده تعالى خاصةُ خزائنِ غُيوبِه أو ما يُتوصَّلُ به إليها، وقولُه عز وجل: ﴿**لا يعلمها إلا هو**﴾ تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله، وإيذانٌ بأن المرادَ هو الاختصاصُ من حيث العلمُ لا من حيث القدرةُ، والمعنى أن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدورًا لي حتى أُلزِمَكم بتعجيله، ولا معلومًا لديّ لأُخبرَكم وقتَ نزولِه، بل هو مما يَختصُّ به تعالى قدرةً وعلمًا فيُنْزِله حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم والمصالِح.

وقولُه تعالى: ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ بيان لتعلّق علمِه تعالى بالمشاهَدات إثرَ بيان تعلُّقِه بالمغيَّباتِ تكملةً له وتنبيهًا على أن الكلَّ بالنسبة إلى علمِه المحيطِ سواءٌ في الجَلاءِ، أي يعلم ما فيهما من الموجودات مُفصّلةً على اختلاف أجناسِها وأنواعِها وتكثُّرِ أفرادِها.

وقولُه تعالى: ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ بيانٌ لتعلُّقه بأحوالها المتغيِّرةِ بعد بيانِ تعلقِه بذواتها، فإن تخصيصَ حالِ السقوطِ بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاءِ بذكرها عن ذكر سائر الأحوال، كما أن ذكرَ حالِ الورقةِ وما عُطفَ عليها خاصةً دون أحوالِ سائرِ ما فيهما من فنونِ الموجودات الفائتة للحصر باعتبارِ أنها أُنموذَجٌ لأحوال سائرِها.

= وتسميتها كناية لكنه لما كان هذا اللازم الذي دل عليه لفظ المنية من السبعية لازمًا بطريق الادعاء لا بطريق الحقيقة، فإن حقيقة اغتيال السبع لا يوجد في المنية فسميت استعارة، فأشير إلى المعنيين لقولنا استعارة بالكناية وأما على رأي السكاكي، فيحتمل أن يقال: إنما سميت بذلك مراعاة أيضًا للكناية والاستعارة المصطلح عليهما، فإن المنية استعملت في السبع فكان تسميتها استعارة حقيقة اصطلاحية، ولما كان كونها استعارة غير مقصودة بالإفادة بل المقصود إفادة أن لها اغتيال السبع، ذكر فيها لفظ الكناية؛ لأن اللفظ استعمل في شيء والمراد لازمه، وفيه نظر لأن ذلك يستلزم أن الاستعارة التحقيقية أيضًا تسمى استعارة بالكناية، ويحتمل أن يراد بالكناية اللغوية وأما تسميتها مكنيًّا عنها، فعلى رأي الخطيب وهو واضح لأن اللفظ ليس استعارة حقيقية، بل هو حقيقة، ولكن كني به عن الاستعارة أي لم يصرح بها؛ لأن جملة الكلام معناه استعارة؛ فالاستعارة غير مصرح بها، هذا ما ذكره البهاء السبكي، ثم قال: وما ذكرناه أحسن من قول من قال: سميت استعارة بالكناية ومكنيًّا عنها؛ لأن المشبه به غير مذكور بل كنّي عنه بذكر لازمه، ومعلوم أن الاستعارة بالكناية لا توجد دون الاستعارة التخييلية، وعكس كذلك عند الخطيب بخلاف السكاكي والتخييلية قرينة المكنية.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٥٠) وما بعدها، والتحرير والتنوير (٧/ ٢٧٠).

(١) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ١).

وقولُه تعالى: ﴿ولا حبةٍ﴾ عطفٌ على (ورقةٍ) وقولُه تعالى: ﴿في ظلمات الأرض﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ (حبة) مفيدةٌ لكمال نفوذِ علمِه تعالى أي ولا حبةٍ كائنةٍ في بطونِ الأرض إلا يعلمها، وكذا قولُه تعالى: ﴿ولا رطبٍ ولا يابس﴾ معطوفان[١] عليها داخلان في حُكمها.

وقولُه تعالى: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ بدلٌ من الاستثناءِ الأول بدلَ الكلِّ [من الكل] على أن الكتابَ المُبِينَ عبارةٌ عن علمه تعالى أو بدلَ الاشتمالِ على أنه عبارةٌ عن اللوحِ المحفوظ.

وقرئ[٢] الأخيران بالرفع عطفًا على محلِّ (من ورقة) وقيل: رفعُهما بالابتداء والخبرُ (إلا في كتاب مبين) وهو الأنسبُ بالمقام لشمول الرطبِ واليابس حينئذ لِما ليس من شأنه السقوطُ، وقد نُقل قراءةُ الرفعِ في (ولا حبةٌ) أيضًا.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ أي يُنيمُكم فيه على استعارة التوفِّي من الإماتة للإنامة[٣] لما بين الموتِ والنومِ من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، وأصله قبضُ الشيء بتمامه ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ما كَسَبتم فيه والمرادُ بالليل والنهار الجنسُ المتحققُ في كل فردٍ من أفرادهما، إذْ بالتوفي والبعثِ الموجودَين فيها يتحققُ قضاءُ الأجلِ المسمَّى المترتبِ عليها لا في بعضِها، والمرادُ بعلمه تعالى ذلك علمُه قبل الجَرْحِ كما يلوحُ به تقديمُ ذكره على البعث أي يعلم ما تجرَحون بالنهار، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق، وتخصيصُ التوفي بالليل والجَرْحِ بالنهار مع تحقّق كلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخر للجَرْي على سَنن العادة ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي يوقظكم في النهار، عطفٌ على يتوفاكم، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿ويعلم﴾ إلخ، بينهما لبيان ما في بعثهم من عظيمِ الإحسانِ إليهم بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبةً لإبقائهم على التوفّي بل لإهلاكهم بالمرة يُفيض عليهم الحياة

---

(١) في ط: معطوف.

(٢) قرأ بها: الحسن، وابن السميفع، وابن أبي إسحاق.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٨).

(٣) وفائدة ذلك أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة؛ ولذا استعير البعث للإقامة من النوم ليتم التقريب في قوله: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ وهي استعارة تصريحية تبعية، وقد مضى تفصيل القول فيها.
ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٦)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١٢١)، والمطول، ص (٣٠٦)، ودلائل الإعجاز، ص (١٠٧)، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص (٩٤).

ويُمهلُهم كما ينبئ عنه كلمةُ التراخي، كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي ثم يبعثكم في جنس النهار مع علمه بما ستجرَحون فيها ﴿ليقضىٰ أجل مسمى﴾ معيَّنٌ لكل فردٍ [فردٌ][1] بحيث لا يكاد يتخطىٰ أحدٌ ما عُيِّن له طرفةَ عينٍ ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي رجوعُكم بالموت لا إلى غيره أصلًا ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيامِ، وقيل: الخطابُ مخصوصٌ بالكفرة، والمعنى أنكم مُلقَوْن كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار، وأنه تعالى مطّلعٌ على أعمالكم يبعثكم الله من القبور في شأن ما قطعتم به أعمارَكم من النوم بالليل وكسْبِ الآثام بالنهار ليُقضىٰ الأجلُ الذي سماه وضَرَبه لبعث الموتى وجزائِهم على أعمالهم. وفيه ما لا يخفى من التكلّف والإخلالِ، لإفضائه إلى كون البعث معلَّلًا بقضاء الأجلِ المضروب له.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أي هو المتصرِّفُ في أمورهم لا غيرُه يفعل بهم ما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة وتعذيبًا وإثابةً إلى غير ذلك ﴿ويرسل عليكم﴾ خاصة أيها المكلفون ﴿حفَظة﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون و(عليكم) متعلقٌ بيُرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديمُه على المفعول الصريح لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر، وقيل: متعلقٌ بمحذوفٍ هو حال من (حفظة) إذ لو تأخر لكان صفةً أي كائنين عليكم، وقيل: متعلق بحفظةً والمحفوظُ محذوفٌ على كل حال أي يرسل عليكم ملائكةً يحفظون أعمالَكم كائنةً ما كانت، وفي ذلك حكمةٌ جميلةٌ ونعمةٌ جليلة لما أن المكلفَ إذا عَلم أن أعماله تُحفظ عليه، وتُعرض على رؤوس الأشهادِ كان ذلك أزجرَ له عن تعاطي المعاصي والقبائحِ وأن العبد إذا وثِقَ بلُطف سيِّدِه واعتمد على عفوه وسَترِه لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله و(حتى) في قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾ هي التي يبتدأ بها الكلام وهي مع ذلك تَجعلُ ما بعدها من الجملة الشرطية غايةً لما قبلها كأنه قيل: ويُرسلُ عليكم حفظة يحفَظون أعمالَكم مدةَ حياتكم حتى إذا انتهت مدةُ أحدِكم كائنًا مَنْ كان وجاءه أسبابُ الموت ومباديه ﴿توفته رسلُنا﴾ الآخرون المفوَّضُ إليهم ذلك، وهم ملكُ الموتِ وأعوانُه وانتهى هناك حِفظُ الحفظة.

وقرئ[2] توفاه ماضيًا أو مضارعًا بطرح إحدى التاءين ﴿وهم﴾ أي الرسل ﴿لا

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: حمزة، والأعمش.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٥٣)، والبحر المحيط (٤/ ١٤٨)، =

يفرطون﴾ أي بالتواني والتأخير، وقرئ[١] مخففًا من الإفراط أي لا يجاوزون ما حُدّ لهم بزيادة أو نقصان، والجملة حال من (رسلنا) وقيل: مستأنفةٌ سيقت لبيان اعتنائِهم بما أُمروا به. وقوله تعالى: **﴿ثم ردوا﴾** عطفٌ على توفته، والضمير للكلِّ المدلول عليه بأحدكم، وهو السرُّ في مجيئه بطريق الالتفات تغليبًا، والإفرادُ أولًا والجمعُ آخِرًا لوقوع التوفِّي على الانفراد والردِّ على الاجتماع أي ثم ردوا بعد البعث بالحشر **﴿إلى الله﴾** أي إلى حكمه وجزائه في موقف الحساب **﴿مولاهم﴾** أي مالكُهم الذي يلي أمورَهم على الإطلاق لا ناصرُهم كما في قوله تعالى: **﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾** [محمد، الآية ١١] **﴿الحقِّ﴾** الذي لا يقضي إلا بالعدل، وقرئ[٢] بالنصب على المدح **﴿ألا له الحكم﴾** يومئذ صورةً ومعنى لا لأحد غيرِه بوجه من الوجوه **﴿وهو أسرع الحاسبين﴾** يحاسب جميعَ الخلائق في أسرع زمانٍ وأقصره لا يشغَله حسابٌ ولا شأنٌ عن شأنٍ، وفي الحديث «**إن الله تعالى يحاسب الكلَّ في مقدار حلْبِ شاة**»[٣].

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي قل تقريرًا لهم بانحطاط شركائِهم عن رتبةِ الإلٰهيةِ مَنْ ينجِّيكم من شدائدهما الهائلةِ التي تُبطل الحواسَّ وتَدْحَض[٤] العقولَ، ولذلك استُعير لها الظلماتُ المبطلةُ لحاسةِ البصَر، يقال لليوم الشديد: يومٌ مظلم ويومٌ ذو كواكبَ أو من الخسف في البر والغرقِ في البحر، وقرئ[٥] (ينْجيكم)

= والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٠)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٥٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣١٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٥٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(١) قرأ بها: عمرو بن عبيد، والأعرج.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، البحر المحيط (٤/ ١٤٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٣).

(٢) قرأ بها: الحسن، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٤٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩).

(٣) ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٢٨) وبيض له.
وينظر: الكشاف (١/ ٢٧٧)، وتفسير البيضاوي (٢/ ٦٦٩)، وتفسير السمعاني (٦/ ٨٤) وتفسير النسفي (١/ ٩٩، ٣٢٧) كلهم ذكروه هكذا دون تخريج والحديث ليس له أصل مرفوعًا، والله أعلم.

(٤) في المخطوط: تدهش.

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، وحميد بن قيس، وعلي بن نصر، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٣)، والبحر المحيط (٤/ ١٥٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٢)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ =

من الإنجاء والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿**تدعونه**﴾ نصبٌ على الحالية من مفعول (ينجّيكم) والضميرُ (لمن) أي مَن ينجّيكم منها حال كونكم داعين له، أو من فاعله أي مَنْ ينجِّيكم منها حال كونه مدعوًّا من جهتكم وقوله تعالى: ﴿**تضرعًا وخفية**﴾ إما حالٌ من فاعل تدعونه أو مصدرٌ مؤكِّد له، أي تدعونه متضرعين جِهارًا ومُسِرِّين أو تدعونه دعاءَ إعلانٍ وإخفاء.

وقرئ[1] (خِفية) بكسر الخاء.

وقوله تعالى: (لئن أنجانا) حال من الفاعل أيضًا على تقدير القول أي تدعونه قائلين: لئن أنجيتنا ﴿**من هذه**﴾ الشدة والورطة التي عبر عنها بالظلمات ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ أي الراسخين في الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمةِ أو جميع النعماءِ التي من جملتها هذه، وقرئ (لئن أنجيتنا) مراعاة لقوله تعالى: ﴿تدعونه﴾.

﴿**قل الله ينجِّيكم منها ومن كل كرب**﴾ أمر ﷺ بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للإيذان بأنه متعيِّنٌ عندهم، ولبناءِ قولِه تعالى: ﴿**ثم أنتم تُشْرِكُونَ**﴾ عليه، أي الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه من الشدائد المذكورةِ وغيرِها من الغموم والكُرَبِ ثم أنتم بعد ما تشاهدون هذه النعمَ الجليلةَ تشركون بعبادته تعالى غيرَه، وقرئ[2] (يُنْجيكم) بالتخفيف وقوله تعالى: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنه تعالى هو القادرُ على إلقائهم في المهالك إثرَ بيانِ أنه هو المُنْجي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذاب لإشراكهم المذكورِ على

= ٢٠)، والكشف (١/ ٤٣٥-٤٣٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣١٣)، وتفسير الرازي (٤/ ٦١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٠)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٢)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٤١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٣١٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٦١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وابن ذكوان، وحميد بن قيس، ويعقوب، وعلي بن نصر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٠)، والبحر المحيط (٤/ ١٥٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٦١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

طريقة قولِه عز وجل: ﴿**أفأمنتم أن يخسِفَ بكم جانبَ البر**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى**﴾ [الإسراء، الآية ٦٨ و٦٩]، و(عليكم) متعلقٌ بـ(يبعثَ) وتقديمُه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعةِ إلى بيان كون المبعوثِ مما يضرُّهم، ولتهويل أمْرِ المؤخرِ. وقوله تعالى: ﴿**من فوقكم**﴾ متعلقٌ به أيضًا أو بمحذوف وقع صفةً لعذابًا أي عذابًا كائنًا من جهة الفوق كما فَعَل بمن فَعَل من قوم لوطٍ وأصحابِ الفيل وأضرابِهم ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ أو من جهة السُّفلِ كما فعل بفِرْعونَ وقارونَ، وقيل: (مِنْ فوقكم) أكابِرُكم ورؤساؤكم و(من تحت أرجلِكم) سفلتُكم وعبيدُكم، وكلمة أو لمنع الخُلوّ دون الجمع، فلا منْعَ لما كان من الجهتين معًا، كما فُعِل بقوم نوحٍ ﴿**أو يلبِسَكم شيعًا**﴾ أي يخلطَكم فِرَقًا متحزّبين على أهواءَ شتّى، كلُّ فرقةٍ مشايعةٌ لإمامٍ فينشَبُ بينكم القتالُ فتختلطوا في الملاحم كقول الحَماسي: [الكامل]

وكـتـيـبـةٍ لـبَّـسـتُـهـا بـكـتـيـبـةٍ   حتى إذا التَبَسَتْ نفضْتُ لها يدي[١]

﴿**ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ عطفٌ على (يبعثَ) وقرئ[٢] بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمرِ والمبالغةِ في التحذير، والبعضُ الأولُ الكفارُ والآخَرُ المؤمنون ففيه وعدٌ ووعيد. عن رسول الله ﷺ (أنه قال عند قوله تعالى: ﴿**عذابًا من فوقكم**﴾: «**أعوذُ بوجهك**». وعند قوله تعالى: ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾: «**أعوذ بوجهك**». وعند قوله تعالى: ﴿**أو يَلبِسَكم شِيعًا ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعض**﴾: **هذا أهونُ أو هذا أيسرُ**»)[٣]. وعنه ﷺ أنه قال: «**سألت ربي أن لا يبعثَ على أمتي عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلِهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم فمنعني ذلك**»[٤] ﴿انظر

---

(١) ينظر: حماسة البحتري ص (٥٢)، والحيوان للجاحظ (٥/ ١٨٥)، ونهاية الأرب (٣/ ٣٥٢).

(٢) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٤١): كتاب التفسير: باب ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ حديث (٤٦٢٨)، وطرفاه في (٧٣١٣، ٧٤٠٦)، والترمذي (٥/ ٢٦١-٢٦٢) كتاب التفسير: باب: ومن سورة الأنعام حديث (٣٠٦٥).

(٤) ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٤٠) حديث (٤٤٨)، وقال: غريب بهذا اللفظ، وعزاه إلى ابن مردويه في تفسيره، وأخرجه مسلم (٩/ ٢٤١-النووي): كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث (٢٠-٢١/ ٢٨٩٠) من طريق سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي ثلاثًا: سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».

كيف نصرف الآيات﴾ من حال إلى حال ﴿لعلهم يفقهون﴾ كي يفقَهوا ويقِفوا على جلية الأمرِ فيرجِعوا عما هم عليه من المكابرة والعِناد.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وكذب به﴾ أي بالعذاب الموعود أو القرآنِ المجيد الناطقِ بمجيئه، ﴿قومك﴾ أي المعاندون منهم، ولعل إيرادَهم بهذا العنوان للإيذان بكمالِ سوءِ حالِهم، فإن تكذيبَهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضي بغاية عتُوِّهم ومكابرتهم، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارًا من إظهار الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر، وقوله تعالى: ﴿وهو الحق﴾ حال من الضمير المجرورِ أي كذبوا به والحال أنه الواقعُ لا محالة، أو أنه الكتابُ الصادقُ في كل ما نطقَ به، وقيل: هو استئنافٌ، وأيًا ما كان ففيه دلالةٌ على عِظَم جنايتِهم ونهاية قُبْحِها ﴿قل﴾ لهم منبِّهًا على ما يؤول إليه أمرُهم وعلى أنك قد أديتَ ما عليك من وظائف الرسالة ﴿لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظٍ وُكِّلَ إليَّ أمرُكم لأمنعَكم من التكذيب وأُجبرَكم على التصديق، إنما أنا منذرٌ وقد خرجتُ عن العُهدة حيث أخبرتُكم بما ستَرَونه ﴿لكل نبإٍ﴾ أي لكل شيءٍ يُنبَأُ به من الأنباء التي من جملتها عذابُكم أو لكلِّ خبرٍ من الأخبار التي من جملتها خبرُ مجيئِه ﴿مستقر﴾ أي وقتُ استقرارٍ ووقوعِ البتةَ، أو وقتُ استقرارٍ بوقوعِ مدلولِه ﴿وسوف تعلمون﴾ أي حالَ نَبئِكم في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا، وسوف للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ولتعلمُنّ نبأه بعد حين﴾ [ص، الآية ٨٨].

النهي عن مجالسة الخائضين في الله

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاءِ بها والطعنِ فيها كما هو دأْبُ قريشٍ ودَيدَنُهم ﴿فأعرض عنهم﴾ بترك مُجالستهم والقيامِ عنهم.

وقولُه تعالى: ﴿حتى يخوضوا في حديث غيرِه﴾ غايةٌ للإعراض أي استمِرَّ على الإعراضِ إلى أن يخوضوا في حديثٍ غيرِ آياتنا، والتذكيرُ باعتبار كونها حديثًا فإن وصف

الحديثِ بمغايرتها مشيرٌ إلى اعتبارها بعُنوان الحديثية وقيل: باعتبار كونِها قرآنًا.

﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ بأن يشغَلَك فتنسىٰ النهْيَ فتُجالِسَهم ابتداءً أو بقاءً، وقرئ[1] (يُنَسِّينَّك) من التَنْسِية ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أي بعد تذكُّرِ النهي ﴿مع القوم الظالمين﴾ أي معهم فوضَعَ المُظهرَ موضِعَ المُضمر نعيًا عليهم أنهم بذلك الخوضِ ظالمون، واضعون للتكذيب والاستهزاءِ موضِعَ التصديق والتعظيم راسخون في ذلك ﴿وما على الذين يتقون﴾ رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين حين نُهوا عن مجالستهم عند خوضِهم في الآيات قالوا: لئن كنا نقول كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطِعْ أن نجلِسَ في المسجد الحرام ونطوفَ بالبيت فنزلت[2]. أي ما على الذين يتقون قبائحَ أعمالِ الخائضين وأحوالَهم ﴿من حسابهم﴾ أي مما يُحاسَبون عليه من الجرائر ﴿من شيء﴾ أي شيء ما على أنه في محل الرفع على أنه مبتدأ، وما تميمية أو اسم لها وهي حجازية و(من) مزيدة للاستغراق و(من حسابهم) حال منه و(على الذين يتقون) في محل الرفع على أنه خبر للمبتدأ أو لما الحجازية على رأي من لا يُجيز إعمالَها في الخبر المقدَّم مطلقًا، أو في محل النصب على رأي من يجوِّز إعمالَها في الخبر المقدّم عند كونه ظرفًا أو حرف جر.

﴿ولكن ذكرى﴾ استدراك من النفي السابق أي ولكن عليهم أن يذكِّروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العِظة والتذكير ويُظهروا لهم الكراهَةَ والنكيرَ، ومحل (ذكرى) إما النصبُ على أنه مصدرٌ مؤكِّد للفعل المحذوف أي عليهم أن يذكّروهم تذكيرًا أو الرفع على أنه مبتدأ محذوفُ الخبر، أي ولكن عليهم ذكرى ﴿لعلهم يتقون﴾ أي يجتنبون الخوضَ حياءً أو كراهةً لمسَاءتهم، وقد جُوِّز كونُ الضمير للموصول أي يذكّروهم رجاءَ أن يثبُتوا على تقواهم أو يزدادوها.

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم﴾ الذي كُلِّفوه وأُمروا بإقامة مواجبِه ﴿لعبًا ولهوًا﴾ حيث سخِروا به واستهزءوا أو بنَوْا أمرَ دينهم على ما لا يكادُ يتعاطاه العاقلُ بطريق الجِدّ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٠)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ١٥٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٧)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠، ٢١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٣٦)، والمجمع للطبرسي (١/ ٣١٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).
(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ١٥٧).

وإنما يصدُر عنه لو صدَر بطريق اللعِبِ واللهوِ كعبادة الأصنام وتحريم البحائرِ والسوائبِ ونحوِ ذلك، والمعنى: أعرضْ عنهم ولا تُبالِ بأفعالهم وأقوالهم وقيل: هو تهديدٌ لهم كقوله تعالى: ﴿**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا**﴾ [الحجر، الآية ٣]، ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا ألا حياةَ بعدها أبدًا ﴿**وذكر به**﴾ أي بالقرآنِ من يصلُح للتذكير ﴿**أن تُبسَل نفس بما كسبت**﴾ أي لئلا تُبْسَلَ كقوله تعالى: ﴿**أن تضلوا**﴾ [النساء، الآية ٤٤ - ١٧٦]، أو مخافةَ أن تُبسَل أو كراهةَ أن تبسل نفوسٌ كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿**علمت نفسٌ ما أحضرت**﴾ [التكوير، الآية ١٤] وتُرتَهنَ لسوء عملِها، وأصلُ الإبسالِ والبَسْل المنعُ، ومنه أسد باسلٌ لأن فريستَه لا تُفلت منه أو لأنه ممتنَعٌ، والباسل الشجاع لامتناعه من قِرْنه وهذا بَسْلٌ عليك أي حرام ممنوعٌ وقد جوِّز أن يكون الضميرُ المجرورُ في (به) راجعًا إلى الإبسال مع عدم جريان ذكرِه كما في ضمير الشأن وتكون الجملةُ بدلًا منه مفسِّرًا له، لما في الإبهام أولًا والتفسيرِ ثانيًا من التفخيم وزيادةِ التقرير كما في قوله:[الطويل]

.... على جودِه لَضَنَّ بالماء حاتمُ[1]

بجرّ حاتم على أنه بدل من ضمير (جوده) فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى: ﴿**ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للإخبار بذلك وقيل: في محل النصب على أنه حالٌ من ضمير (كسبت) وقيل: في محل الرفع على أنه وصفٌ (لنفسٌ) والأظهرُ أنه حالٌ من (نفسٌ) فإنه في قوة نفسٌ كافرةٌ أو نفوسٌ كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾ [التكوير: ١٤] و(من دون الله) متعلقٌ بمحذوف هو حال من (وليٌّ) كما بُيِّن في تفسير قوله تعالى: ﴿**وأنذر به**﴾ [الأنعام، الآية ٥١]، وقيل: هو خبرٌ لليس فيكون (لها) حينئذٍ متعلقًا بمحذوفٍ على البيان ﴿**وإن تعدل**﴾ أي إن تَفْدِ تلك النفسُ ﴿**كل عدل**﴾ أي كلَّ فِداءٍ على أنه مصدرٌ مؤكد ﴿**لا يؤخذ منها**﴾ على إسنادِ الفعلِ إلى الجار والمجرور لا إلى ضمير العدل كما في قوله تعالى: ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ [البقرة، الآية ٤٨] فإنه المَفْدِيُّ به لا المصدرُ كما نحن فيه ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم في سوء الحال، ومحلُه الرفعُ على الابتداء والخبرُ قوله تعالى: ﴿**الذين أبسلوا بما كسبوا**﴾ والجملةُ مستأنفةٌ سيقت إثرَ تحذيرِهم من الإبسال المذكور لبيان أنهم المبتَلَوْن بذلك أي أولئك المتخِذون

---

(١) تقدم.

دينَهم لعبًا ولهوًا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أُبسِلوا بما كسبوا.

وقولُه تعالى: ﴿لهم شراب من حميم﴾ استئناف آخَرُ مُبينٌ لكيفية الإبسال المذكور وعاقبتِه، مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل: ماذا لهم حين أُبسلوا بما كسبوا؟ فقيل: لهم شرابٌ من ماءٍ مغليٍّ يتجَرْجَرُ في بطونهم وتتقطَّعُ به أمعاؤهم ﴿وعذاب أليم﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا وقد جُوِّز أن يكون (لهم شراب) إلخ، حالًا من ضمير (أبسلوا) وترتيبُ ما ذُكر من العذابَيْن على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضًا حسبما ينْطق به قولُه تعالى: ﴿بما كسبوا﴾ لأنه العُمدةُ في إيجاب العذاب والأهمُ في باب التحذير، أو أريد بكفرهم ما هو أعمُّ منه ومن مستتْبِعاته من المعاصي والسيئات هذا، وقد جوِّز أن يكون أولئك إشارةً إلى النفوس المدلولِ عليها (بنفسٌ) محلُه الرفعُ بالابتداء والموصولُ الثاني صفتُه أو بدلٌ منه ولهم شراب إلخ خبرُه والجملة مَسوقةٌ لبيان تَبِعةِ الإبسال.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ قيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبدُ الرحمٰن إلى عبادة الأصنام فتوجيهُ الأمر إلى رسول الله ﷺ حينئذ للإيذان بما بينهما من الاتصال والاتحادِ تنويهًا بشأن الصِّدّيق رضي الله تعالى عنه أي أنعبد، متجاوزين عبادةَ الله الجامعِ لجميع صفاتِ الألوهية التي من جملتها القدرةُ على النفع والضرر، ما لا يقدِرُ على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضَرِّنا إذا تركناه وأدنى مراتبِ المعبوديةِ القُدرةُ على ذلك. وقوله تعالى: ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عطفٌ على (ندعوا) داخلٌ في حكم الإنكارِ والنفْي أي ونُرَدّ إلى الشرك، والتعبيرُ عنه بالردِّ على الأعقاب لزيادة تقبيحِه بتصويره بصورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشركِ حالةً قد تُركت ونُبذتْ وراءَ الظهر، وإيثارُ (نرد) على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد بردِّ الغير تصريحًا بمخالفة المُضلِّين وقطعًا لأطماعهم الفارغةِ وإيذانًا بأن الارتدادَ من غير رادٍّ ليس في حيز الاحتمال ليُحتاجَ إلى نفيه وإنكاره، وقوله تعالى: ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ أي إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك متعلقٌ بنرُدّ مَسوقٌ لتأكيد النكيرِ لا لتحقيق معنى الرد وتصويرِه فقط وإلا لكفى أن يقالَ: بعد إذ اهتدينا كأنه قيل:

ونُرَدّ إلى الشرك بإضلال المضِلّ بعد إذ هدانا الله الذي لا هاديَ سواه.

وقوله تعالى: ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ في محل النصبِ على أنه حالٌ من مرفوع (نُرد) أي أنرد على أعقابنا مشبَّهين[١] بالذي استهوته مَرَدةُ الجن واستغوته إلى المهامِهِ[٢] والمهالك، أو على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي أنُرد ردًّا مثلَ ردِّ الذي استهوته إلخ، والاستهواءُ استفعال من هَوَى في الأرض إذا ذهب فيها كأنها طلبت هُويَّه وحرصت عليه وقرئ[٣] استهواه بألفٍ مُمالة، وقوله تعالى: ﴿في الأرض﴾ إما متعلق باستهوته أو بمحذوفٍ هو حال من مفعوله أي كائنًا في الأرض وكذا قوله تعالى: ﴿حيران﴾ حال منه على أنها بدلٌ من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أو من (الذي) أو من المستكن في الظرف أي تائهًا ضالًا عن الجادة لا يدري ما يصنع.

وقوله تعالى: ﴿له أصحاب﴾ جملة في محل النصب على أنها صفةٌ لحيران أو حالٌ من الضمير فيه أو مستأنفةٌ سيقت لبيان حالِه، وقوله تعالى: ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ صفةٌ لأصحاب أي لذلك المستهوىٰ رفقةٌ يهدونه إلى الطريق المستقيم، تسميةٌ له بالمصدر مبالغةً كأنه نفس الهدى ﴿ائتنا﴾ على إرادة القول على أنه بدل مِنْ

---

(١) هذا التشبيه تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اتباع طريق الغي والضلال مع وضوح طريق الرشاد والهداية، والغرض من التشبيه بيان حال المرتد، ومن يتوزع قلبه بين الإله، والآلهة المتعددين، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال مع تقبيح المشبه، وقد جاء هذا التشبيه مؤكدًا للاستعارة الماضية ﴿ونرد على أعقابنا﴾ وحرف (على) فيه للاستعلاء؛ أي رجع على طريق جهة عقبه، كما يقال: رجع وراء، ثم استعمل تمثيلاً شائعًا في التلبس بحالة ذميمة كان فارقها صاحبها ثم عاد إليها، وتلبس بها وذلك أن الخارج إلى سفره أو حاجته فإنما يمشي إلى غرض يريده، فهو يمشي القدمية، فإذا رجع قبل الوصول إلى غرضه، فقد أضاع مشيه، فيمثل حاله بحال من رجع على عقبيه، وفي الحديث: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم»، فكذلك في الآية، هو تمثيل لحال المرتد إلى الشرك بعد أن أسلم بحال من خرج في مَهمَهٍ فرجع على عقبيه ولم يقض ما خرج له فهذا أبلغ في تمثيل سوء الحالة من أن يقال: ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان، فالصورة فيها سبر وضياع للمقصود.
ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٠)، والتصوير الفني في القرآن، سيد قطب (٤٠).

(٢) المهامه: جمع مهمه، وهو المفازة البعيدة، والبلد المقفر.

(٣) قرأ بها: حمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٠)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ١٥٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ١٧٧)، والتيسير للداني ص (١٠٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣١٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

(يدعونه) أو حال من فاعله أي يقولون: ائتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليُدعىٰ إلى إتيانه، وإنما يُدرك سمتَ الداعي وموردَ النعيق فقط ﴿**قل إن هدى الله**﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿**هو الهدى**﴾ وحدَه وما عداه ضلال محضٌ وغيٌّ بحتٌ كقوله تعالى: ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾ [يونس، الآية ٣٢] ونحوِه، وتكريرُ الأمر للاعتناء بشأن المأمورِ به ولأن ما سبق للزجْرِ عن الشرك وهذا حثٌّ على الإسلام، وهو توطِئةٌ لما بعده، فإن اختصاصَ الهُدى بهُداه تعالى مما يوجبُ الامتثالَ بالأوامر الواردةِ بعده ﴿**وأُمرنا**﴾ عطفٌ على (إن هُدى الله هو الهدى) داخلٌ تحت القول، واللام في ﴿**لنسلم لرب العالمين**﴾ لتعليل الأمر المَحْكيِّ وتعيينِ ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿**قل لعبادِيَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاة وينفقوا**﴾ [إبراهيم، الآية ٣١]، كأنه قيل: أمرنا وقيل لنا: أسلِموا لأجل أن نسلَمَ وقيل: هي بمعنى الباء أي أمرنا بأن نُسلم، وقيل: زائدة أي أُمرنا أن نُسلم على حذف الباء وقوله تعالى: ﴿**وأن أقيموا الصلاة واتقوه**﴾ أي الله تعالى في مخالفة أمره، عطفٌ على نُسلم على الوجوه الثلاثة على أنّ أنْ المصدريةَ إذا وُصلت بالأمر يتجرّدُ هو عن معنى الأمر نحوُ تجرُّد الصلةِ الفعليةِ عن معنى المُضيِّ والاستقبال، فالمعنى على الأول أمرنا أي قيل لنا: أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نُسلمَ ونُقيمَ الصلاة ونتّقِيَه تعالى، وعلى الأخيرين أمرنا بأن نسلمَ ونقيمَ الصلاة ونتقيَه تعالى والتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمرِ وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ به كما أن قوله تعالى: ﴿**وهو الذي إليه تحشرون**﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موجِبةٌ للامتثال بما أَمر به من الأمور الثلاثة.

﴿**وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ**﴾ أُريد بخلقهما خلقُ ما فيهما أيضًا، وعدمُ التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العُلويات والسُفليات، وقوله تعالى: ﴿**بالحق**﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعل (خلق) أو من مفعوله، أو صفةٌ لمصدرِه المؤكِّد له أي قائمًا بالحق أو متلبِّسًا[1] بالحق أو[2] متلبسةً به. وقوله تعالى: ﴿**ويوم يقول كن فيكونُ قولُه الحقُّ**﴾ استئنافٌ لبيانِ أنّ خلقَه تعالى لما ذُكر من السمواتِ والأرض ليس مما يَتوقَّفُ على مادّةٍ أو مُدّة بل يتَمّ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير توقفٍ على شيءٍ آخَرَ أصلًا وأن ذلك الأمرَ المتعلِّقَ بكل فردٍ فردٌ من أفراد المخلوقات

---

(١) في خ: ملتبسًا.

(٢) زاد في خ: خلقًا ملتبسًا.

في حينٍ معينٍ من أفراد الأحيان حقٌّ في نفسه متضمنٌ للحكمة، (ويومَ) ظرفٌ لمضمون جملةِ (قولُه الحقُّ) والواو بحسب المعنى داخلٌ عليها وتقديمُه عليها للاعتناءِ به من حيث إنه مدارُ الحقّيةِ، وتركُ ذكرِ المقولِ له للثقةِ بغاية ظهوره، والمرادُ بالقول كلمةُ (كن) تحقيقًا أو تمثيلًا[1] كما هو المشهورُ فالمعنى وأمرُه المتعلقُ بكل شيءٍ يريد خلقَه من الأشياء، في حينِ تعلّقِه به لا قبلَه ولا بعده من أفراد الأحيان، الحقُّ أي المشهودُ له بالحقّية المعروفُ بها، هذا وقد قيل: (قوله) مبتدأ و(الحق) صفتُه و(يوم يقول) خبرُه مقدمًا عليه كقولك: يومَ الجمعةِ القتالُ وانتصابه بمعنى الاستقرار.

وحاصلُ المعنى قولُه الحقُّ كائنٌ حينَ يقول لشيءٍ من الأشياء كنْ فيكونُ ذلك الشيءُ، وقيل: يوم منصوبٌ بالعطف على السمواتِ أو على الضمير في (واتقوه) أو بمحذوف دل عليه (بالحق) وقوله الحق مبتدأ وخبر، أو فاعلُ (يكون) على معنى حين يقول لقوله الحق، أي لقضائه الحقِّ كن فيكون، والمرادُ حين يكوِّن الأشياءَ ويُحدِثُها أو حين تقومُ القيامةُ فيكونُ التكوينُ حشرَ الأجساد وإحياءَها فتأملْ حقَّ التأمل.

﴿**وله الملكُ يومَ يُنفخ في الصور**﴾ تقييدُ اختصاصِ المُلك به تعالى بذلك اليومِ مع عموم الاختصاصِ لجميع الأوقات لغاية ظهورِ ذلك بانقطاعِ العلائقِ المجازيةِ الكائنةِ في الدنيا، المصحِّحة للمالكيةِ المجازية في الجملة كقوله تعالى: ﴿**لمنِ الملكُ اليوم لله الواحد القهار**﴾ [غافر، الآية ١٦].

﴿**عالمُ الغيب والشهادة**﴾ أي هو عالمُهما ﴿**وهو الحكيم**﴾ في كلِّ ما يفعله ﴿**الخبير**﴾ بجميعِ الأمور الجليّة والخفيّة.

بين إبراهيم الخليل وأبيه

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ

---

(١) يريد أن ذلك قد يكون حقيقة، وقد يكون مجازًا أي استعارة تمثيلية، بيانًا لقدرة الله عز وعلا وقد مضى الحديث عن الاستعارة التمثيلية.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، و (٣/ ١٦٠) وما بعدها، والمطول، ص (٣٠٦).

لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وإذ قال إبراهيمُ﴾ منصوب على المفعولية بمضمرٍ خُوطب به النبي عليه الصلاة والسلام معطوفٌ على ﴿قل أندعو﴾ [الأنعام، الآية ٧١] لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أي واذكر لهم بعد ما أنكرتَ عليهم عبادةَ ما لا يقدِرُ على نفعٍ وضُرٍّ وحققتَ أن الهدى هو هدى الله وما يتبعُه من شؤونه تعالى وقتَ قولِ إبراهيمَ الذي يدّعون أنهم على مِلّته موبّخًا ﴿لأبيه آزرَ﴾ على عبادة الأصنام فإن ذلك مما يبكّتُهم وينادي بفساد طريقتِهم، وتوجيهُ الأمرِ بالذكر إلى الوقت دون ما وقعَ فيه من الحوادث

مع أنها المقصودةُ لما مر مرارًا من المبالغة في إيجاب ذكرها، وآزرُ بزنةِ آدم وعابَر وعازَر وفالَغ وكذلك تارَحُ، ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ والضحاكُ والكلبيُّ وكان من قريةٍ من سَواد الكوفة، ومُنعَ صَرْفُه للعُجمة والعَلَمية، وقيل: اسمُه بالسريانية تارَحُ وآزَرُ لقبُه المشهورُ وقيل: اسمُ صنمٍ لُقِّب هو به للزومه عبادتَه، فهو عطفُ بيانٍ (لأبيه) أو بدلٌ منه.

وقال الضحاك: معناه الشيخ الهرم، وقال الزجاج: المُخطئ وقال الفراءُ وسليمانُ التيمي[١]: المعوَجُّ فهو نعتٌ له كما إذا جُعل مشتقًّا من الأزْرِ أو الوِزر أو أريد به عابدُ آزرَ على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه وقرئ[٢] (آزرُ) على النداء وهو دليلُ العَلَمية إذ لا يُحذف حرفُ النداء إلا من الأعلام، ﴿**أتتخذ**﴾ متعدٍّ إلى مفعولين هما ﴿**أصنامًا آلهةً**﴾ أي أتجعلُها لنفسك آلهةً على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية، وإنما إيرادُ صيغةِ الجمع باعتبار الوقوعِ، وقرئ أَأَزْرًا بفتح الهمزة[٣] وكسرها[٤] بعد همزة الاستفهام وزاءٍ ساكنةٍ وراءٍ منونةٍ منصوبةٍ وهو اسمُ صنم، ومعناه أتعبدُ أَزْرًا ثم قيل: أتتخِذُ أصنامًا آلهة؟ تثبيتًا لذلك وتقريرًا، وهو داخل تحت الإنكار لكونه بيانًا له، وقيل: الأزرُ القوة، والمعنى ألِأَجْلِ القوة والمظاهَرَةِ تتخذ أصنامًا آلهة؟ إنكارًا لتعزُّزِه بها على طريقة قوله تعالى: ﴿**أيبتغون**

---

(١) هو: سليمان بن قتة التيمي مولاهم البصري، روى عن: ابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وأبي سعيد، وغيرهم، وروى عنه: حميد الطويل، والعوام بن حمزة، وموسى بن أبي عائشة، وعاصم الجحدري، وغيرهم. وثقه ابن معين.
ينظر: ذيل الكاشف، ص (١٢٧)، وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة (١/ ٦١٧).

(٢) قرأ بها: أبي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، ويعقوب، والضحاك، وأبو يزيد المدني، وسليمان التيمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١١)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٦٤)، وتفسير الطبري (١١/ ٤٦٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٢١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٣)، والمعاني للأخفش (٢/ ٢٧٦)، والمعاني للفراء (١/ ٣٣٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٦٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٣).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، وأبو إسماعيل الشامي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٥٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٦٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٣).

عندهم العِزة﴾[النساء، الآية ١٣٩].

﴿**إني أراك وقومك**﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿**في ضلال**﴾ عن الحق ﴿**مبين**﴾ أي بيِّنٌ كونُه ضلالًا لا اشتباهَ فيه أصلًا، والرؤيةُ إما علميةٌ فالظرفُ مفعولُها الثاني وإما بصَرية فهو حالٌ من المفعول والجملة تعليلٌ للإنكار والتوبيخ.

﴿**وكذلك نُري إبراهيم**﴾ هذه الإراءةُ من الرؤية البصَريةِ المستعارةِ للمعرفة ونظرِ البصيرة، أي عرّفناه وبصَّرناه، وصيغةُ الاستقبال حكايةٌ للحال الماضيةِ لاستحضار صورتِها، وذلك إشارةٌ إلى مصدرِ (نُري) لا إلى إراءةٍ أخرى مفهومةٍ من قوله: (إني أراك) وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ درجة المشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه في الفضل وكمال تمييزِه بذلك وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة، والكافُ لتأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة، ومحلها في الأصل النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوف وأصل التقدير نُري إبراهيم إراءةً كائنة مثلَ تلك الإراءة فقُدّم على الفعل لإفادة القصر، واعتبرت الكافُ مقحمةً للنكتة المذكورة فصار المشارُ إليه نفسَ[1] المؤكد لا نعتًا له أي ذلك التبصيرَ البديعَ نبصِّره عليه السلام.

﴿**ملكوتَ السمواتِ والأرض**﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانَه القاهرَ عليهما وكونَهما بما فيهما مربوبًا ومملوكًا له تعالى لا تبصيرًا آخَرَ أدنى منه، والملكوتُ مصدرٌ على زنة المبالغة كالرَهَبوت والجَبَروت، ومعناه الملكُ العظيمُ والسلطان القاهرُ، ثم هل هو مختصٌّ بمُلك الله عزَّ سلطانه أو لا فقد قيل وقيل[2]، والأول هو الأظهر، وبه قال الراغب[3]، وقيل: ملكوتهما عجائبُهما وبدائعهما، روي أنه كُشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرش وأسفلُ الأرضين، وقيل: آياتُهما. وقيل: ملكوتُ السموات: الشمسُ والقمرُ والنجومُ، وملكوتُ الأرض الجبالُ والأشجار والبحارُ.

وهذه الأقوالُ لا تقتضي أن تكون الإراءَةُ بصَريةً إذ ليس المرادُ بإراءةِ ما ذُكر من الأمور الحسية مجردَ تمكينِه عليه السلام من إبصارها ومشاهدتها في أنفسها بل اطلاعَه على حقائقها وتعريفَها من حيثُ دلالتها على شؤونه عز وجل، ولا ريبَ في

---

(١) زاد في خ: المصدر.

(٢) المراد أنه قيل باختصاصه، وقيل بعدم اختصاصه.

(٣) هو الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل المتوفى سنة ٥٠٢ هـ. وكان يُقرن بالإمام الغزالي.

أن ذلك ليس مما يُدرَك حِسيًّا كما يُنبئ عنه اسمُ الإشارة المُفصِحُ عن كون المشار إليه أمرًا بديعًا، فإن الإراءة البصَرية المعتادةَ بمعزلٍ من تلك المثابة، وقرئ[1] (تُري) بالتاء وإسنادُ الفعل إلى الملكوت أي تُبصِره عليه السلام دلائل الربوبية واللام في قوله تعالى: ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ مؤخر، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لما قبلها أي وليكون من زُمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجةَ عينِ اليقين من معرفة الله تعالى، فعلنا ما فعلنا من التبصير البديعِ المذكورِ لا لأمرٍ آخرَ فإن الوصولَ إلى تلك الغاية القاصيةِ كمالٌ مترتبٌ على ذلك التبصير لا عينُه وليس القصرُ لبيان انحصار فائدتِه في ذلك، كيف لا وإرشادُ الخلق وإلزامُ المشركين كما سيأتي من فوائده بلا مِرْية[2] بل لبيان أنه الأصلُ الأصيلُ والباقي من مستَتْبِعاته. وقيل: هي متعلقة بالفعل السابق والجملةُ معطوفة على علةٍ أخرى محذوفةٍ ينسحبُ عليها الكلامُ أي ليستدِلَّ بها وليكونَ إلخ، فينبغي أن يُرادَ بملكوتهما بدائعُهما وآياتُهما لأن الاستدلالَ من غاياتِ إراءَتِها لا من غايات إراءةِ نفسِ الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ على الأول وهو الحق المبين عطفٌ على (قال إبراهيم) داخلٌ تحت ما أُمر بذكره بالأمرِ بذكرِ وقتِه، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ لما سبق وما لحِق، فإن تعريفَه عليه السلام ربوبيتَه ومالكيتَه للسمواتِ والأرض وما فيهما وكونَ الكلِّ مقهورًا تحت ملكوتِه مفتقِرًا إليه في الوجود وسائرَ ما يترتبُ عليه من الكمالات، وكونَه من الراسخين في معرفة شؤونه تعالى، الواصلين إلى ذُروة عينِ اليقين مما يقضي بأن يَحكُم عليه السلام باستحالة إلٰهيةِ ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب، وعلى الثاني هو تفصيلٌ لما ذُكر من إراءةِ ملكوتِ السموات والأرض، وبيانٌ لكيفية استدلالِه عليه السلام، ووصولِه إلى رتبة الإيقان، ومعنى (جَنّ عليه الليلُ) ستره بظلامه.

وقوله تعالى: ﴿رأى كوكبًا﴾ جوابُ لمّا، فإن رؤيتَه إنما تتحقق بزوال نورِ الشمس عن الحسّ، وهذا صريحٌ في أنه لم يكن في ابتداءِ الطلوع؛ بل كان غَيبتُه عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس، والتحقيقُ أنه كان قريبًا من الغروب كما ستعرفه، قيل: كان ذلك الكوكبُ هو الزُّهَرَة، وقيل: هو المشتري.

وقوله تعالى: ﴿قال هذا ربي﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من [الجملة][3]

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥).

(٢) أي بلا جدال.

(٣) سقط في ط.

الشرطيةِ السابقةِ المتفرعة على بيان إراءتِه عليه السلام ملكوتَ السمواتِ والأرض فإن ذلك مما يحمِلُ السامعَ على استكشاف ما ظهرَ منه عليه السلام من آثار تلك الإراءةِ وأحكامِها، كأنه قيل: فماذا صنعَ عليه السلام حين رأى الكوكب؟ فقيل: قال على سبيل الوضْع والفرضِ: هذا ربي مجاراةً مع أبيه وقومِه الذين كانوا يعبُدون الأصنامَ والكواكب، فإن المستدِلَّ على فساد قولٍ يحكيه على رأي خصمِه، ثم يَكُرُّ عليه بالإبطال، ولعل سلوكَ هذه الطريقة في بيان استحالةِ ربوبيةِ الكواكب دون بيانِ استحالةِ إلٰهيةِ الأصنام لما أن هذا أخفىٰ بُطلانًا واستحالةً من الأول، فلو صدَعَ بالحق من أول الأمرِ كما فعله في حقّ عبادةِ الأصنام لتمادَوْا في المكابرة والعِناد، ولجُّوا في طُغيانهم يعمَهون[1].

وقيل: قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال، وكان ذلك في زمان مراهقتِه وأولِ أوانِ بلوغه، وهو مبنيٌّ على تفسير الملكوتِ بآياتهما، وعَطْفِ قوله تعالى: ﴿**ليكون**﴾ على ما ذُكر من العلة المقدرة، وجَعْلِ قوله تعالى: ﴿**فلما جن**﴾ إلخ، تفصيلًا لما ذُكر [من الإراءة وبيانًا لكيفية الاستدلال، وأنت خبير بأن كلَّ ذلك مما يُخِلُّ بجزالة النظمِ الجليل، وجلالةِ منصِبِ الخليلِ][2] عليه الصلاة والسلام.

﴿**فلما أفل**﴾ أي غرب ﴿**قال لا أحب الآفلين**﴾ أي الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان، المتغيرين من حال إلى حال، المحتجبين بالأستار، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبيةِ قطعًا ﴿**فلما رأى القمر بازغًا**﴾ أي مبتدئًا في الطلوعِ إثرَ غروبِ الكوكب ﴿**قال هذا ربي**﴾ على الأسلوب السابق ﴿**فلما أفل**﴾ كما أفل النجم ﴿**قال لئن لم يهْدِني ربي**﴾ إلى جَنابه الذي هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه ﴿**لأكونن من القوم الضالين**﴾ فإن شيئًا مما رأيته لا يليق بالربوبية، وهذا مبالغةٌ منه عليه السلام في إظهار النَّصَفة، ولعله عليه السلام كان إذ ذاك في موضعٍ كان في جانبه الغربيِّ جبلٌ شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل، وكان الكوكب قريبًا منه وأُفقُه الشرقيُّ مكشوفٌ أولًا وإلا فطلوعُ القمر بعد أفولِ الكوكب ثم أفولُه قبل طلوع الشمس كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**فلما رأى الشمس بازغة**﴾ أي مبتدئةً في الطلوع مما لا يكاد يُتصور ﴿**قال**﴾ أي على النهج السابق.

﴿**هذا ربي**﴾ وإنما لم يؤنِّثْ لما أن المشارَ إليه والمحكومَ عليه بالربوبية هو الجِرمُ

---

(١) عَمِهَ عَمَهًا: تحيَّر وتردَّد في الطريق لا يدري أين يذهب. وفي الأمر: لا يدري وجه الصواب فيه.

(٢) سقط في خ.

المشاهَدُ من حيث هو لا من حيث هو مسمّىً باسم من الأسامي فضلًا عن حيثيةِ تسميتِه بالشمس، أو لتذكير الخبر وصيانةِ الربِّ عن وَصْمة التأنيث.

وقوله تعالى: ﴿هذا أكبر﴾ تأكيدٌ لما رامه عليه السلام من إظهار النَّصَفة مع إشارةٍ خفيةٍ إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبرَ أحقُّ بالربوبية من الأصغر ﴿فلما أفلت﴾ هي أيضًا كما أفل الكوكبُ والقمرُ ﴿قال﴾ مخاطبًا للكلِّ صادِعًا بالحق بين أظهُرِهم ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي من الذي تشركونه من الأجرام المُحْدَثةِ المتغيرةِ من حالة إلى أخرى المسخَّرة لمحدِثها، أو من إشراككم، وترتيبُ هذا الحكم ونظيرَيْه على الأفول دون البزوغِ والظهور من ضروريات سَوْق الاحتجاجِ على هذا المَساق الحكيم، فإن كلاًّ منهما وإن كان في نفسه انتقالًا منافيًا لاستحقاق معروضِه للربوبية قطعًا، لكن لما كان الأولُ حالةً موجبةً لظهور الآثارِ والأحكامِ ملائمةً لتوهُّم الاستحقاقِ في الجملة رُتِّب عليها الحكمُ الأول على الطريقة المذكورة، وحيث كان الثاني حالة مقتضِيةً لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافية للاستحقاق المذكور منافاةً بيّنةً يكاد يعترف بها كلُّ مكابرٍ عنيدٍ رُتِّب عليها ما رتب، ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجَّه إلى مبدعِ هذي[1] المصنوعات ومُنشئها فقال:

﴿إني وجهت وجهيَ للذي فطر السمواتِ﴾ التي هذه الأجرامُ التي تعبدونها من أجزائها ﴿والأرضَ﴾ التي تغيب هي فيها ﴿حنيفًا﴾ أي مائلًا عن الأديان الباطلة والعقائدِ الزائغة كلِّها ﴿وما أنا من المشركين﴾ في شيء من الأفعال والأقوال ﴿وحاجَّهُ قومه﴾ أي شرَعوا في مغالبته في أمر التوحيد.

﴿قال﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من حكاية مُحاجَّتهم، كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام حين حاجّوه؟ فقيل: قال منكِرًا لما اجترأوا عليه من مُحاجَّته مع قصورهم عن تلك الرُتبة وعِزّةِ المطلب وقوةِ الخصم ﴿أتُحاجّونيّ في الله﴾ بإدغام نونِ الجمعِ في نون الوقاية، وقرئ[2] بحذف الأولى.

---

(١) في خ: هذه.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وهشام، وابن ذكوان، ابن عبدان، والحلواني، والداجوني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٢)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٥)، والبحر المحيط (٤/ ١٦٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٠١)، والتيسير للداني ص (١٠٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦١)، والغيث للصفاقسي ص (٢١١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٢٦)، وتفسير الرازي (٤/ ٧٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

وقوله تعالى: ﴿**وقد هدانِ**﴾ حال من ضمير المتكلم مؤكِّدة للإنكار، فإن كونه عليه السلام مَهدِيًا من جهة الله تعالى ومؤيَّدًا من عنده مما يوجب استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السلام أي أتجادلونني في شأنه تعالى ووحدانيّتِه والحال أنه تعالىٰ هداني إلى الحق بعد ما سلكت طريقتَكم بالفرض والتقدير وتبيَّن بُطلانُها تبينًا تامًا كما شاهدتموه، وقوله تعالى: ﴿**ولا أخاف ما تشركون به**﴾ جوابٌ عما خوّفوه عليه السلام في أثناء المُحاجّة من إصابة مكروهٍ من جهة أصنامِهم كما قال لهودٍ عليه السلام قومُه: ﴿**إن نقولُ إلا اعتراك بعضُ آلهتِنا بسوء**﴾ [هود، الآية ٥٤] ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلامُ بآلهتهم ما فعل، و(ما) موصولةٌ اسميةٌ حُذف عائدُها، وقوله تعالى: ﴿**إلا أن يشاء ربي شيئًا**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأوقات، أي لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم في وقتٍ من الأوقات إلا في وقتِ مشيئتِه تعالى شيئًا من إصابة مكروهٍ بي من جهتها، وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دَخْلٍ لآلهتكم فيه أصلًا، وفي التعرُّض لعُنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرِه عليه السلام إظهارٌ منه لانقيادِه لحُكمه سبحانه وتعالى، واستسلامِه لأمره واعترافِه بكَوْنه تحتَ ملَكوتِه ورُبوبيتِه.

وقوله تعالى: ﴿**وسع ربي كل شيء علمًا**﴾ كأنه تعليلٌ للاستثناء، أي أحاط بكل شيءٍ علمًا فلا يبعُد أن يكونَ في علمه تعالى أن يَحيقَ بي مكروهٌ مِنْ قِبَلها بسببٍ من الأسباب، وفي الإظهار في موضع الإضمارِ تأكيدٌ للمعنى المذكور، واستلذاذٌ بذكره تعالى ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ أي أتُعرضون عن التأمل في أن آلهتَكم جماداتٌ غيرُ قادرةٍ على شيء ما مِنْ نفع ولا ضرر؟ فلا تتذكرون أنها غيرُ قادرة على إضراري، وفي إيراد التذكّرِ دون التفكر ونظائرِه إشارةٌ إلى أن أمرَ أصنامِهم مركوزٌ في العقول لا يتوقفُ إلا على التذكر.

وقوله تعالى: ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لنفي الخوفِ عنه عليه السلام بحسَب زعمِ الكفَرةِ بالطريق الإلزاميِّ كما سيأتي بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفسِ الأمر، والاستفهامُ لإنكار الوقوعِ ونفيِه بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿**كيف يكونُ للمشركين عهدٌ عند الله**﴾ [التوبة، الآية ٧]؛ لا لإنكار الواقعِ واستبعادِه مع وقوعه، كما في قوله: ﴿**كيف تكفُرون بالله**﴾ [البقرة، الآية ٢٨] إلخ، وفي توجيه الإنكارِ إلى كيفية الخوفِ من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقالَ أأخافُ لِما أن كلَّ موجود يجب أن يكونَ وجودُه على حال من الأحوال وكيفيةٍ من الكيفيات قطعًا، فإذا انتفىٰ جميعُ أحواله وكيفياتِه فقد انتفىٰ وجودُه من جميع الجهات بالطريق

البرهاني، وقوله تعالى: ﴿**ولا تخافون أنكم أشركتم بالله**﴾ حال من ضمير (أخاف) بتقدير مبتدأ والواوُ كافيةٌ في الربط من غير حاجة إلى الضمير العائد إلى ذي الحال، وهو مقرِّرٌ لإنكار الخوفِ ونفيِه عنه عليه السلام ومُفيدٌ لاعترافهم بذلك، فإنهم حيث لم يخافوا في محلِّ الخوف فلأَنْ لا يَخافُ عليه السلام في محل الأمنِ أولى وأحرى، أي كيف أخافُ أنا ما ليس في حيز الخوفِ أصلًا وأنتم لا تخافون غائلةَ ما هو أعظمُ المخلوقات وأهولُها، وهو إشراكُكم بالله الذي ليس كمثله شيءٌ في الأرض ولا في السماء ما هو من جملة مخلوقاته، وإنما عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿**ما لم ينزل به**﴾ أي بإشراكه ﴿**عليكم سلطانًا**﴾ على طريقة التهكّم مع الإيذان بأن الأمورَ الدينية لا يُعوَّل فيها إلا على الحُجة المنزلةِ من عند الله تعالى، وفي تعليق الخوفِ الثاني بإشراكهم من المبالغةِ ومراعاةِ حسنِ الأدب ما لا يخفىٰ.

هذا، وأما ما قيل من أن قوله تعالى: ﴿**ولا تخافون**﴾ إلخ، معطوفٌ على أخاف داخل معه في حكم الإنكار والتعجيب فمما لا سبيلَ إليه أصلًا، لإفضائه إلى فساد المعنى قطعًا، كيف لا وقد عرَّفتُك أن الإنكارَ بمعنى النفي بالكلية فيؤول المعنى إلى نفي الخوفِ عنه عليه الصلاة والسلام، ونفي نفيه عنهم، وأنه بيِّنُ الفساد، وحملُ الإنكارِ في الأول على معنى نفي الوقوعِ وفي الثاني على استبعاد الواقع مما لا مَساغَ له، على أن قوله تعالى: ﴿**فأيُّ الفريقينَ أحقُّ بالأمن**﴾ ناطقٌ ببُطلانه حتمًا، فإنه كلام مرتَّبٌ على إنكار خوفِه عليه الصلاة والسلام في محل الخوف، مَسوقٌ لإلجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن، وبعدم استحقاقِهم لما هم عليه، وإنما جيءَ بصيغة التفضيلِ المُشعِرَةِ باستحقاقهم له في الجملة لْاستنزالهم عن رُتبة المكابرةِ والاعتسافِ بسَوْق الكلام على سَنن الإنصاف، والمرادُ بالفريقين الفريقُ الآمنُ في محل الأمن والفريقُ الآمنُ في محلِّ الخوف، فإيثارُ ما عليه النظمُ الكريم على أن يُقال فأيُّنا أحقُّ بالأمن أنا أم أنتم؟ لتأكيد الإلجاءِ إلى الجواب الحقِّ بالتنبيه على علّة الحُكم، والتفادي عن التصريح بتخطئتهم لا لمجردِ الاحترازِ عن تزكية النفس ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ المفعولُ إما محذوفٌ تعويلًا على ظهوره بمعونه المقام، أي إن كنتم تعلمون من أحقُّ بذلك، أو قصدًا إلى التعميم أي إن كنتم تعلمون شيئًا، وإما متروكٌ بالمرة، أي إن كنتم مِنْ أُولي العلم، وجوابُ الشرط محذوفٌ أي فأخبروني.

﴿**الذين آمنوا**﴾ استئنافٌ من جهته تعالى مبينٌ للجواب الحقِّ الذي لا محيدَ عنه أي الفريقُ الذين آمنوا ﴿**ولم يلبِسوا إيمانَهم**﴾ ذلك أي لم يخلِطوه ﴿**بظلم**﴾ أي بشركٍ كما يفعلُه الفريقُ المشركون حيث يزعُمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتَهم

للأصنام من تتماتِ إيمانهم وأحكامِه لكونها لأجْل التقريبِ والشفاعة كما قالوا: ﴿**ما نعبُدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلفى**﴾ [الزمر، الآية ٣] وهذا معنى الخلْطِ ﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى الموصول من حيث اتصافُه بما في حيز الصلة، وفي الإشارة إليه بعدَ وصْفِه بما ذُكر إيذانٌ بأنهم تميَّزوا بذلك عن غيرهم، وانتظموا في سلك الأمورِ المشاهَدة، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعُلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم في الشرف، وهو مبتدأ ثانٍ، وقولُه تعالى: ﴿**لهمُ الأمنُ**﴾ جملة من خبرٍ مقدمٍ ومبتدأ مؤخَّرٍ وقعت خبرًا لأولئك، وهو مع خبره خبرٌ للمبتدأ الأول الذي هو الموصول، ويجوز أن يكونَ (أولئك) بدلًا من الموصول أو عطفَ بيانٍ له، ولهم خبرًا للموصول، والأمنُ فاعلًا للظرف لاعتماده على المبتدأ، ويجوز أن يكون لهم خبرًا مقدمًا، والأمنُ مبتدأً والجملةُ خبرًا للموصول، ويجوز أن يكون أولئك مبتدأً ثانيًا و(لهم) خبره والأمن فاعلًا له، والجملة خبرًا للموصول، أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الإيمان الخالصِ عن شَوْب الشرك لهم الأمنُ فقط.

﴿**وهم مهتدون**﴾ إلى الحق، ومَنْ عداهم في ضلال مبين. روي أنه لما نزلت الآيةُ شقَّ ذلك على الصحابة رضوانُ الله عليهم وقالوا: أينا لم يظْلِمْ نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**ليس ما تظنون، إنما هو ما قال لقمانُ لابنه: يا بني لا تُشرِكْ بالله إن الشرْكَ لظُلم عظيم**»[(١)] وليس الإيمانُ به أن يُصَدِّقَ بوجود الصانع الحكيم ويخلِطَ بهذا التصديق الإشراكَ به، وليس من قضية الخلطِ بقاءُ الأصلِ بعد الخلطِ حقيقةً، وقيل: المرادُ بالظلم المعصيةُ التي تُفسِّق صاحبَها، والظاهرُ هو الأولُ لوروده موردَ الجواب عن حال الفريقين.

﴿**وتلك**﴾ إشارةٌ إلى ما احتج به إبراهيمُ عليه السلام من قوله تعالى: ﴿**فلما جن**﴾ [الأنعام، الآية ٧٦] وقيل: من قوله: ﴿**أتحاجّونيّ**﴾ [الأنعام، الآية ٨٠] إلى قوله: ﴿**مهتدون**﴾ وما في اسمِ الإشارةِ من معنى البُعد لتفخيم شأن المُشار إليه والإشعارِ بعلو طبقته وسموِّ منزلتِه في الفضل، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿**حجتُنا**﴾ خبرُه، وفي إضافتها إلى نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿**آتيناها إبراهيم**﴾ أي أرشدناه إليها أو علّمناه إياها في محل

---

(١) أخرجه البخاري (١٤/ ٢٦٣) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب: إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، برقم (٦٩١٨)، ومسلم (١/ ١١٤) كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٩٧/ ١٢٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

النصب على أنه حال من (حجتُنا)، والعاملُ فيها معنى الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا﴾ [النمل الآية ٥٢] أو في محل الرفع على خبر ثان، أو هو الخبر و(حجتُنا) بدل أو [عطفُ] بيانٍ للمبتدأ، و(إبراهيمَ) مفعولٌ أولٌ لـ (آتينا) قُدِّم عليه الثاني لكونه ضميرًا، وقوله تعالى: ﴿على قومه﴾ متعلِّقٌ بحجتُنا إن جُعل خبرًا لـ (تلك)، أو بمحذوفٍ إن جُعل بدلًا، أي آتينا إبراهيمَ حجةً على قومه، وقيل: بقوله: آتينا ﴿نرفع﴾ بنون العظمةِ، وقرئ[1] بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتي ﴿درجات﴾ أي رتبًا عظيمةً عالية من العلم[2]، وانتصابُها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض، أي إلى درجات أو على التمييز، والمفعولُ قولُه تعالى: ﴿من نشاء﴾ وتأخيرُه على الوجوه الثلاثة الأخيرةِ لما مر من الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ، أي من نشاء رفعَه حسْبما تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المصلحةُ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ للدلالة على أن ذلك سُنةٌ مستمرَّة جاريةٌ فيما بين المُصطَفينَ الأخيارِ غيرُ مختصةٍ بإبراهيمَ عليه السلام، وقرئ[3] بالإضافة إلى (من)، والجملةُ مستأنَفة مقرِّرةٌ لما قبلها لا محل لها من الإعراب، وقيل: هي في محل النصب على أنها حالٌ من فاعل (آتيناها) أي حال كوننا رافعين الخ.

﴿إن ربك حكيم﴾ في كل ما فعل من رفْعٍ وخفضٍ ﴿عليم﴾ بحال من يرفعُه واستعدادِه له على مراتبَ متفاوتة، والجملةُ تعليلٌ لما قبلها، وفي وضع الرب، مضافًا إلى ضميره عليه السلام موضِعَ نونِ العظمةِ بطريق الالتفاتِ في تضاعيف بيانِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السلام، إظهارٌ لمزيد لُطفٍ وعنايةٍ به عليه السلام.

﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب﴾ عطفٌ على قوله [تعالى]: ﴿وتلك حجتنا﴾ إلخ، فإن عطفَ كلٍّ من الجملة الفعلية والاسميةِ على الأخرى مما لا نزاعَ في جوازه ولا مَساغ لعطفه على (آتيناها)، لأن له محلًّا من الإعراب نصْبًا ورفعًا حسبما بُيِّن من

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٥).

(٢) زاد في خ: والحكمة.

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٢)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٠٥)، والتيسير للداني ص (١٠٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦١)، والغيث للصفاقسي ص (٢١١)، وتفسير الرازي (٤/ ٨٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

قبلُ، فلو عُطف هذا عليه لكان في حُكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا سبيلَ إليه هاهنا ﴿كلاًّ﴾ مفعولٌ لِمَا بعده، وتقديمُه عليه للقصر، لكن لا بالنسبة إلى غيرهما مطلقًا، بل بالنسبة إلى أحدهما أي كلُّ واحدٍ منهما ﴿هدينا﴾ لا أحدَهما دون الآخَر، وتركُ ذكر المُهْدَىٰ إليه لظهور أنه الذي أوتيَ إبراهيمُ وأنهما مقتدِيان به ﴿ونوحًا﴾ منصوبٌ بمضمر يفسِّره ﴿هدينا من قبل﴾ أي من قبلِ إبراهيمَ عليه السلام، عَدَّ هُداه نعمةً على إبراهيمَ عليه السلام لأن شرفَ الوالدِ سارٍ إلى الولد.

﴿ومن ذريته﴾ الضمير لإبراهيمَ، لأن مَساقَ النظم الكريم لبيانِ شؤونه العظيمةِ من إيتاءِ الحجةِ ورفعِ الدرجاتِ وهبةِ الأولادِ الأنبياءِ وإبقاءِ هذه الكرامةِ في نسله إلى يوم القيامة، كلُّ ذلك لإلزام مَنْ ينتمي إلى ملتِه عليه السلامُ من المشركين واليهود، وقيل: لنوحٍ، لأنه أقربُ، ولأن يونُسَ ولوطًا ليسا من ذرِّية إبراهيمَ، فلو كان الضميرُ له لاختصَّ بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها، وأما المذكورون في الآية الثالثةِ فعطفٌ على (نوحًا) وروي عن ابن عباس أن هؤلاءِ الأنبياءَ كلَّهم مُضافون إلى ذرِّية إبراهيمَ وإن كان منهم من لم يلْحَقه بولادةٍ من قِبَلِ أمٍّ ولا أب، لأن لوطًا ابنُ أخي إبراهيم، والعربُ تجعل العمَّ أبًا، كما أخبر الله تعالى عن أبناءِ يعقوبَ أنهم قالوا: ﴿نعبدُ إلٰهك وإلٰهَ آبائِك إبراهيمَ وإسمعيل وإسحقَ﴾ [البقرة، الآية ١٣٣] مع أن إسماعيل عمُّ يعقوب.

﴿داودَ وسليمان﴾ منصوبان بمُضمرٍ مفهومٍ مما سبق وكذا ما عُطف عليهما، وبه يتعلق (من ذريته) وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع ما في المفاعيلِ من نَوْع طولٍ ربما يُخلُّ تأخيرُه بتجاوب النظم الكريم، أي وهدينا من ذريته داودَ وسليمان ﴿وأيوبَ﴾ هو ابنُ أموصَ من أسباطِ عيصِ بنِ إسحاقَ ﴿ويوسفَ وموسى وهارون﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالًا من المذكورين أي وهديناهم حال كونهم من ذريته ﴿وكذلك﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من النظم الكريم من جزاءِ إبراهيمَ عليه السلام، ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، وأصلُ التقدير ﴿نجزي المحسنين﴾ جزاءً مثلَ ذلك الجزاءِ، والتقديمُ للقصر، وقد مر تحقيقُه مرارًا، والمرادُ بالمحسنين الجنسُ، وبمماثلة جزائِهم لجزائه عليه السلام مطلقُ المشابهةِ في مقابلةِ الإحسانِ بالإحسان والمكافأةِ بين الأعمال والأجْزية من غير بخسٍ لا المماثلةُ من كل وجه، ضرورةَ أن الجزاءَ بكثرةِ الأولاد الأنبياءِ مما اختص به إبراهيمُ عليه السلام، والأقربُ أن لامَ المحسنين للعهد، وذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل الذي بعده، وهو عبارةٌ عما أوتيَ المذكورون من فنُون الكرامات، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتِه،

والكافُ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة، ومحلُّها في الأصل النصبُ على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ وأصل التقدير ونجزي المحسنين المذكورين جزاء كائنًا مثل ذلك الجزاء فقدم الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مُقحَمةٌ للنكتة المذكورة، فصارَ المشارُ إليه نفسَ المصدر المؤكد لا نعتًا له، أي وذلك الجزاءَ البديعَ نجزي المحسنين المذكورين لا جزاءً آخرَ أدنى منه، والإظهارُ في موضع الإضمارِ للثناء عليهم بالإحسان الذي هو عبارةٌ عن الإتيان بالأعمال الحسنة على الوجه اللائق الذي هو حُسْنُها الوصفيُّ المقارِنُ لحُسنها الذاتي، وقد فسَّره عليه الصلاة والسلام بقوله: «**أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك**» والجملة اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلها.

﴿**وزكريا**﴾ وهو ابنُ آذَنَ ﴿**ويحيى**﴾ ابنُه ﴿**وعيسى**﴾ هو ابنُ مريم، وفيه دليلٌ على أن الذرية تتناول أولادَ البنات ﴿**وإلياسَ**﴾ قيل: هو إدريسُ جدُّ نوحٍ، فيكونُ البيانُ مخصوصًا بـ (مِنْ) في الآية الأولى.

وقيل: هو من أسباطِ هارونَ أخي موسى عليهما السلام ﴿**كل**﴾ أي كلُّ واحدٍ من أولئك المذكورين ﴿**من الصالحين**﴾ أي من الكاملين في الصلاحِ الذي هو عبارةٌ عن الإتيان بما ينبغي، والتحرُّز عما لا ينبغي، والجملة اعتراضٌ جيءَ به للثناءِ عليهم بالصلاح.

﴿**وإسمعيلَ وٱليسَعَ**﴾ وهو ابنُ أخطوبَ ابنِ العجوز، وقرئَ[1] (واللَّيْسعَ) وهو على القراءتين علم أعجميٌّ أُدخل عليه اللام ولا اشتقاق له، ويقال: إنه يوشَعُ بن نون، وقيل: إنه منقولٌ من مضارعِ وسِعَ واللام كما في (يزيدَ) في قول من قال: [الطويل]

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدَ مباركًا ... شديدًا بأعباءِ الخِلافة كاهلُهْ[2]

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٢)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٣)، والبحر المحيط (٤/ ١٧٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٠٧)، والتيسير للداني ص (١٠٤)، وتفسير الطبري (١١/ ٥١١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٤)، الحجة لأبي زرعة ص (٢٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٢٨)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٨٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

(٢) البيت لابن ميادة في ديوانه ص (١٩٢)، وخزانة الأدب (٢/ ٢٢٦)، والدرر (١/ ٨٧)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٤٥١)، وشرح شواهد الشافية ص(١٢)، وشرح شواهد المغني (١/ ١٦٤)، ولسان العرب (زيد)، والمقاصد النحوية (١/ ٢١٨، ٥٠٩)، ولجرير في لسان العرب (وسع)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب (١/ ٣٢٢)، والأشباه والنظائر (١/ ٢٣، ٨/ ٣٠٦)، والإنصاف (١/ ٣١٧)، وأوضح المسالك (١/ ٧٣)، وخزانة الأدب (٧/ ٢٤٧، ٩/ ٤٤٢)، وشرح =

﴿**ويونس**﴾ وهو ابن متى ﴿**ولوطًا**﴾ هو ابنُ هارونَ ابنِ أخي إبراهيمَ عليه السلام ﴿**وكلًّا**﴾ أي وكلَّ واحدٍ من أولئك المذكورين ﴿**فضلنا**﴾ بالنبوة لا بعضَهم دون بعض ﴿**على العالمين**﴾ على عالَمي عصرهم، والجملةُ اعتراضٌ كأختَيْها وقوله تعالى: ﴿**ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم**﴾ إما متعلقٌ بما تعلق به (من ذريته) ومن ابتدائية، والمفعول محذوف، أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرةً، وإما معطوف على (كلًّا) ومن تبعيضية، أي وفضلنا بعضَ آبائهم إلخ ﴿**واجتبيناهم**﴾ عطفٌ على (فضلنا) أي اصطفيناهم ﴿**وهديناهم إلى صراط مستقيم**﴾ تكريرٌ للتأكيدِ وتمهيدٌ لبيان ما هُدوا إليه.

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من النظم الكريم من مصادرِ الأفعال المذكورة وقيل: ما دانوا به، وما في **ذلك** من معنى البُعد لما مر مرارًا ﴿**هدى الله**﴾ الإضافة للتشريف ﴿**يهدي به من يشاء من عباده**﴾ وهم المستعدّون للهداية والإرشاد، وفيه إشارةٌ إلى أنه تعالى متفضِّلٌ بالهداية ﴿**ولو أشركوا**﴾ أي هؤلاءِ المذكورون ﴿**لحبِط عنهم**﴾ مع فضلهم وعلوِّ طبقاتِهم ﴿**ما كانوا يعملون**﴾ من الأعمال المَرْضيّة الصالحة، فكيف بمَنْ عداهم وهُم هُم وأعمالُهم أعمالُهم ﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من الأنبياء الثمانيةَ عشَرَ، والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافِهم بما ذُكر من الهداية وغيرِها من النعوت الجليلةِ الثابتةِ لهم، وما فيه من معنى البعد لما مرّ غيرَ مرة من الإيذان بعلوِّ طبقتهم وبُعْدِ منزلتهم في الفضل والشرف، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتابَ**﴾ أي جنسَ الكتاب المتحقِّقِ في ضمن أيِّ فردٍ كان من أفراد الكتب السماوية، والمرادُ بإتيانِه التفهيمُ التام، بما فيه من الحقائق، والتمكينُ من الإحاطةِ بالجلائلِ والدقائق أعمُّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً، أو بالإيراث بقاءً، فإن المذكورين لم يُنْزَلْ على كل واحد منهم كتابٌ معين ﴿**والحُكم**﴾ أي الحِكمةَ أو فصلَ الأمر على ما يقتضيه الحقُّ والصواب ﴿**والنبوة**﴾ أي الرسالة ﴿**فإن يكفُرْ بها**﴾ أي بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين ﴿**هؤلاءِ**﴾ أي كفارُ قريشٍ فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدِّقه جميعًا، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفاعل لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخّر ﴿**فقد وكَّلنا بها**﴾ أي أمَرْنا بمراعاتها ووفَّقْنا للإيمان بها والقيامِ بحقوقها ﴿**قومًا ليسوا بها بكافرين**﴾ أي في وقت من الأوقات، بل مستمرون على الإيمان بها، فإن الجملةَ

= الأشموني (١/ ٨٥)، وشرح التصريح (١/ ١٥٣)، وشرح شافية ابن الحاجب (١/ ٣٦)، وشرح قطر الندى ص (٥٣)، ومغني اللبيب (١/ ٥٢)، وهمع الهوامع (١/ ٢٤).

الاسميةَ الإيجابية كما تفيد دوامَ الثبوت كذلك السلبيةُ تُفيدُ دوامَ النفي بمعونةِ المقام، لا نفيَ الدوام كما حُقِّق في مقامه.

قال ابنُ عباس ومجاهدٌ رضي الله تعالى عنهم: هم الأنصارُ وأهلُ المدينة، وقيل: أصحابُ النبي ﷺ، وقيل: كل مؤمن من بني آدم، وقيل: الفرس، فإن كلاًّ من هؤلاء الطوائف موَفّقون للإيمان بالأنبياء وبالكتب المُنْزَلة إليهم، عاملون بما فيها من أصول الشرائعِ وفروعِها الباقية في شريعتنا، وبه يتحقق الخروجُ عن عُهدة التوكيل والتكليفِ دون المنسوخة منها، فإنها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها، وقد مر تحقيقُه في تفسير سورة المائدة. وقيل: هو الأنبياءُ المذكورون، فالمرادُ بالتوكيل الأمرُ بما هو أعمُّ من إجراء أحكامِها كما هو شأنُها في حق كتابهم ومِن اعتقاد حقِّيتِها كما هو شأنُها في حق سائرِ الكتبِ التي من جملتها القرآنُ الكريم، وقيل: هم الملائكةُ فالتوكيل هو الأمرُ بإنزالها وحفظِها واعتقادِ أحقّيتها، وأيًا ما كان فتنكيرُ (قومًا) للتفخيم. والباء الأولى صلة وكلنا على مفعوله الصريح، فلِما ذكر آنفًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ولأن فيه نوعَ طولٍ ربما يؤدِّي تقديمُه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم، أو إلى الفصلِ بين الصفةِ والموصوف، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه المذكور، أي فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فلا اعتدادَ به أصلًا، فقد وفّقنا للإيمان بها قومًا فِخامًا ليسوا بكافرين بها قطعًا، بل مستمرون على الإيمان بها، والعملِ بما فيها، ففي إيمانهم بها مندوحةٌ عن إيمان هؤلاء، ومن هذا تبيّن أن الوجه أن يكونَ المرادُ بالقوم إحدى الطوائفِ المذكورة، إذْ بإيمانهم بالقرآن والعملِ بأحكامه تتحقّقُ الغُنية عن إيمان الكَفَرة به والعملِ بأحكامه وأما الأنبياءُ والملائكةُ عليهم السلام فإيمانُهم به ليس من قبيل إيمانِ آحادِ الأمةِ كما أشير إليه.

﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى الأنبياء المذكورين، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوِّ رُتبتهم، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿**الذين هدى الله**﴾ أي إلى الحق والنهج المستقيم، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الهداية ﴿**فبهُداهم اقتَدِهْ**﴾ أي فاختصَّ هداهم بالاقتداء، ولا تقتَدِ بغيرهم والمرادُ بهداهم طريقتُهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيدِه وأصولِ الدين دون الشرائعِ القابلةِ للنسخ، فإنها بعد النسخ لا تبقى هُدىً والهاء في (اقتده) للوقف حقَّها أن تسقط في الدّرْج[1]، واستُحسن إثباتُها فيه أيضًا إجراءً له مُجرى الوقفِ واقتداءً بالإمام، وقرئ[2] بإشباعها على أنها كناية المصدر.

---

(١) المراد هنا أن تسقط من الرسم القرآني. والدرج هو الورق الذي يكتب فيه.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وابن ذكوان.

﴿**قل لا أسألكم عليه**﴾ أي على القرآن أو على التبليغ، فإن مَساقَ الكلامِ يدل عليهما وإن لم يَجْرِ ذكرُهما ﴿**أجرًا**﴾ من جهتكم كما لم يسألْه مَنْ قبلي من الأنبياء عليهم السلام، وهذا من جملة ما أُمر ﷺ بالاقتداء بهم فيه ﴿**إن هو**﴾ أي ما القرآنُ ﴿**إلا ذكرى للعالمين**﴾ أي عظةٌ وتذكيرٌ لهم كافةً من جهته سبحانه فلا يختَصُّ بقوم دون آخرين.

التوبيخ على كفران النعم

﴿**وما قدروا الله**﴾ لما بيَّن شأنَ القرآنِ العظيم وأنه نعمةٌ جليلةٌ منه تعالى على كافة الأمم حسبما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٧] عقّب ذلك ببيان غمْطِهم إياها، وكفرِهم بها على وجْهٍ سرَى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلٰهية، وأصلُ القدْر السبْرُ والحزْرُ، يقال: قدَر الشيء يقدرُه بالضم قدْرًا إذا سبَره وحزَره ليعرِف مقداره ثم استُعمل في معرفة الشيء في مقداره وأحوالِه وأوصافِه.

وقوله تعالى: ﴿**حقَّ قدره**﴾ نُصب على المصدرية، وهو في الأصل صفةٌ للمصدر أي قدْرَه الحقَّ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصبَ على ما كان ينتصبُ عليه موصوفُه، أي ما عرفوه تعالى حقَّ معرفتِه في اللُطف بعباده والرحمةِ عليهم، ولم يُراعوا حقوقَه تعالى في ذلك، بل أخلّوا بها إخلالًا ﴿**إذ قالوا**﴾ منكرين لبِعثة الرسلِ وإنزالِ الكتُب كافرين بنعمته الجليلةِ فيهما ﴿**ما أنزل الله على بشرٍ من شيء**﴾ فنفىٰ معرفتَهم لقَدْره سبحانه كنايةً عن حطِّهم لقدرِه الجليل ووصفهم له تعالى بنقيضِ نعتِه الجميل كما أن نفيَ المحبةِ في مثل ﴿**إن الله لا يحب الكافرين**﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البغض والسُخط، وإلا فنفيُ معرفةِ قدرِه تعالى يتحقق مع عدم التعرُّض لحطِه، بل مع السعْي في تحصيل المعرفةِ كما في قول مَن يناجي مستقصِرًا لمعرفته وعبادته: سبحانك ما عرَفناك حقَّ معرفتِك، وما عبدناك حقَّ عبادتك. أو ما عرفوه حقَّ معرفتِه في السُخط على الكفار وشدّةِ بطشِه تعالى بهم حسْبما نطقَ به القرآنُ حين اجترأوا على التفوُّه بهذه العظيمةِ الشنعاءِ، فالنفيُ بمعناه الحقيقي والقائلون هم اليهودُ وقد قالوه مبالغةً في إنكار إنزالِ القرآنِ على رسول الله ﷺ فأُلزموا بما لا سبيلَ إلى إنكاره أصلًا حيث قيل:

﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى**﴾ أي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، والبحر المحيط (٤/ ١٧٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢١١)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والكشف للقيسي (١/ ٤٣٨، ٤٣٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣١).

وإلقام الحجر، وروي أن مالكَ بنَ الصيف من أحبار اليهودِ ورؤسائِهم قال له رسول الله ﷺ: «**أنشُدُك الله الذي أنزل التوراةَ على موسى هل تجدُ فيها الله يُبغض الحبرَ السمين؟ فأنت الحبرُ السمين، قد سمِنْتَ من مالك الذي تُطعمُك اليهود**» فضحك القومُ فغضبَ ثم التفت إلى عمرَ رضي الله عنه فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فنزعوه وجعلوا مكانه كعبَ بنَ الأشرف[1].

وقيل: هم المشركون وإلزامُهم إنزالُ التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعةِ، ولذلك كانوا يقولون: ﴿**لو أنا أُنزل علينا الكتابُ لكنا أهدى منهم**﴾ [الأنعام، الآية ١٥٧] ووصفُ الكتاب بالوصول إليهم لزيادة التقريع وتشديدِ التبكيت، وكذا تقييدُه بقوله تعالى: ﴿**نورًا وهدى**﴾ فإن كونَه بيّنًا بنفسه ومبيِّنًا لغيره مما يؤكد الإلزامَ أيَّ تأكيدٍ، وانتصابُهما على الحالية من الكتاب، والعامل (أَنزل) أو من الضمير في (به)، والعامل (جاء) واللام في قوله تعالى: ﴿**للناس**﴾ إما متعلقٌ بهدى، أو بمحذوفٍ هو صفة له، أي هدى كائنًا للناس وليس المرادُ بهذا مجردَ إلزامِهم بالاعتراف بإنزال التوراةِ فقط بل إنزالِ القرآنِ أيضًا، فإن الاعترافَ بإنزالها مستلزِمٌ للاعتراف بإنزاله قطعًا، لما فيها من الشواهد الناطقةِ به، وقد نعىٰ عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغييرِ حيث قيل:

﴿**تجعلونه قراطيسَ**﴾ أي تضعونه في قراطيسَ مقطَّعةٍ، وورَقاتٍ مفرَّقة، بحذف الجارِّ بناءً على تشبيه القراطيس بالظرف المُبْهم، أو تجعلونه نفسَ القراطيس المقطعة، وفيه زيادةُ توبيخٍ لهم بسوء صنيعِهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزّلوه منزلةَ القراطيسِ الخاليةِ عن الكتابة، والجملة حالٌ كما سبق وقوله تعالى: ﴿**تُبدونها**﴾ صفةٌ لـ (قراطيسَ).

وقوله تعالى: ﴿**وتُخفون كثيرًا**﴾ معطوفٌ عليه، والعائدُ إلى الموصول محذوفٌ، أي كثيرًا منها، وقيل: كلامٌ مبتدأ لا محل له من الإعراب، والمرادُ بالكثير نعوتُ النبي عليه الصلاة والسلام وسائرُ ما كتموه[2] من أحكام التوراة، وقرئ[3] الأفعالُ الثلاثة بالياء حملًا على قالوا وما قدروا.

وقوله تعالى: ﴿**وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم**﴾ قيل: هو حالٌ من فاعل تجعلونه بإضمار قد، أو بدونه على اختلاف الرأيين. قلت: فينبغي أن يجعل (ما)

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٦٤) رقم (١٣٥٤٥) عن مجاهد به.
(٢) في خ: تركتموه.
(٣) قرأ يجعلونه: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي.

=

عبارةً عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائعِ ليكون التقييدُ بالحال مفيدًا لتأكيد التوبيخِ وتشديدِ التشنيع، فإن ما فعلوه بالكتابِ من التفريق والتقطيعِ لما ذُكر من الإبداءِ والإخفاءِ شناعةٌ عظيمة في نفسها، ومع ملاحظة كونه مأخذًا لعلومهم ومعارفِهم أشنعَ وأعظمَ، لا عما تلقَّوْه من جهة النبي ﷺ زيادةً على ما في التوراة وبيانًا لما التَبَس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسْبما ينطِقُ به قوله تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم فيه يختلفون**﴾ [النمل، الآية ٧٦] كما قالوا لأنّ تلقِّيَهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجُرهم عما صنعوا بالتوراة أما ما ورد فيه زيادةً على ما فيها فلأنه لا تعلّقَ له بها نفيًا ولا إثباتًا، وأما ما ورد بطريق البيانِ فلأن مدارَ ما فعلوا بالتوراة من التبديلِ والتحريفِ ليس ما وقع فيها من التباس الأمرِ واشتباهِ الحال حتى يُقلِعوا عن ذلك بإيضاحه وبيانِه فتكونَ الجملةُ حينئذ خاليةً عن تأكيد التوبيخ، فلا تستحق أن تقعَ موقع الحال بل الوجهُ حينئذٍ أن تكون استئنافًا مقرِّرًا لما قبلها من مجيءِ الكتابِ بطريق التكملةِ والاستطراد والتمهيدِ لما يعقُبه من مجيءِ القرآن، ولا سبيلَ إلى جعل (ما) عبارةً عما كتموه من أحكام التوراةِ كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿**قد جاءكم رسولُنا يبيِّن لكم كثيرًا مما كنتم تُخفون من الكتاب**﴾ [المائدة، الآية ١٥] فإن ظهورَه وإن كان مزْجَرةً لهم عن الكتم مخافةَ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢١٣)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٩٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

قرأ يبدونها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢١٣)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، تفسير الطبري (١١/ ٥٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٢)، الغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٩٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

قرأ يخفون: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢١٣)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

الافتضاح ومصحِّحًا لوقوعِ الجملة في موقع الحالِ لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتمًا. هذا، وقد قيل: الخِطابُ لمن آمن من قريش كما في قوله تعالى: ﴿**لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم**﴾ [يس، الآية ٦].

وقولُه تعالى: ﴿**قل الله**﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يُجيبَ عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب بحيث لا محيدَ عنه وإيذانًا بأنهم أُفحموا ولم يقدِروا على التكلم أصلًا ﴿**ثم ذرهم في خوضهم**﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ولا عليك بعد إلزامِ الحجة وإلقامِ الحجر ﴿**يلعبون**﴾ حال من الضمير الأول، والظرفُ صلة للفعل المقدّمَ أو المؤخر أو متعلقٌ بمحذوفٍ هو حال من مفعولِ الأولِ أو من فاعل الثاني أو من الضمير الثاني لأنه فاعلٌ في الحقيقة والظرفُ متَّصل بالأول.

﴿**وهذا كتاب أنزلناه**﴾ تحقيقٌ لنزول القرآن الكريم بعد إنزال ما بَشَّر به من التوراة، وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنعاءِ إثْرَ تكذيبٍ ﴿**مباركٌ**﴾ أي كثيرُ الفوائد وجمُّ المنافع ﴿**مصدِّقُ الذي بين يديه**﴾ من التوراة لنزوله حسبما وُصِف فيها أو الكتُبِ التي قبله فإنه مصدِّقٌ للكل في إثبات التوحيد والأمرِ به ونفي الشرْك والنهي عنه وفي سائر أصولِ الشرائعِ التي لا تُنسخ ﴿**ولتنذر أم القرى**﴾ عطفٌ على ما دل عليه (مبارك) أي للبركات ولإنذَراك أهلَ مكةَ وإنما ذُكرت باسمها المُنبئِ عن كونها أعظمَ القرى شأنًا وقِبْلةً لأهلها قاطبةً إيذانًا بأن إنذارَ أهلِها أصلٌ مستتبعٌ لإنذار أهلِ الأرضِ كافةً، وقرئ[1] (لينذر) بالياء على أن الضمير للكتاب ﴿**ومن حولها**﴾ من أهل المدَر[2] والوبَر في المشارق والمغارب ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة**﴾ وبما فيها من أفانين العذاب ﴿**يؤمنون به**﴾ أي بالكتاب لأنهم يخافون العاقبةَ ولا يزال الخوف يحمِلُهم على النظر والتأمُّل حتى يؤمنوا به ﴿**وهم على صلاتهم يحافظون**﴾ تخصيصُ محافظتِهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التي لا بد للمؤمنين من أدائها للإيذان بإنافتِها[3] من بين سائر الطاعات وكونِها أشرفَ العباداتِ بعد الإيمان.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٧)، والبحر المحيط (٤/ ١٧٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢١٦)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

(٢) أهل المدر: الذين يسكنون بيوتاً من طين، وأهل الوبر الذين يسكنون الخيام.

(٣) إنافتها: ارتفاعها.

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا**﴾ فزعَم أنه تعالى بعثه نبيًّا كمسيلِمةَ الكذابِ والأسودِ العنسيِّ أو اختلق عليه أحكامًا من الحِلِّ والحُرمة كعَمْرِو بنِ لُحَيٍّ[(١)] ومتابعيه أي هو أظلمُ من كلِّ ظالمٍ وإن كان سبكُ التركيبِ على نفي الأظلم منه وإنكارِه من غير تعرضٍ لنفْي المساوي وإنكارِه فإن الاستعمالَ الفاشيَ في قولك: مَنْ أفضلُ من زيدٍ أو لا أكرمَ منه على أنه أفضلُ من كل فاضلٍ وأكرمُ من كل كريم، وقد مر تمامُ الكلام فيه.

﴿**أو قال أوحي إلي**﴾ من جهته تعالى ﴿**ولم يوحَ إليه**﴾ أي والحال أنه لم يوح إليه ﴿**شيء**﴾ أصلًا؛ كعبد اللَّه بنِ سعدِ بنِ أبي سَرْح[(٢)] كان يكتُب للنبي ﷺ فلما نزلت ﴿**ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالة من طين**﴾ [المؤمنون: ١٢] فلما بلغ ﴿**ثم أنشأناه خلقًا آخَرَ**﴾ [المؤمنون: ١٤] قال عبد اللَّه: تبارك الله أحسنُ الخالقين تعجبًا من تفصيل خلقِ الإنسان ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**اكتُبها كذلك**» فشك عبدُ اللَّه وقال: لئن كان محمد صادقًا فقد أُوحيَ إلي كما أوحيَ إليه ولئن كان كاذبًا فقد قلت كما قال)[(٣)]. ﴿**ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله**﴾ كالذين قالوا: ﴿**لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ [الأنفال، الآية ٣١].

﴿**ولو ترى إذ الظالمون**﴾ حُذف مفعولُ ترى لدِلالة الظرفِ عليه أي ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿**في غَمَراتِ الموت**﴾ أي شدائده من غَمَره إذا غشِيَه ﴿**والملائكةُ**

---

(١) هو: عمرو بن لحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قمطان. أول من غيّر دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان. وخلاصة ما في خبره أنه كان قد تولى حجابة البيت الحرام بمكة، وزار بلاد الشام ودخل أرض «موآب» في وادي الأردن فوجد أهلها يعبدون الأصنام، فأعجب بأصنامهم فأخذ عدداً منها فنصبها بمكة ودعا الناس إلى تعظيمها والاستشفاء بها، فكان أول من فعل ذلك من العرب. ينظر: الأعلام (٥/ ٨٤).

(٢) هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، من بني عامر بن لؤي، من قريش: فاتح إفريقية، وفارس بني عامر، من أبطال الصحابة، أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها. وكان من كتاب الوحي للنبي ﷺ وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر. وولي مصر سنة (٢٥)، بعد عمرو بن العاص، فاستمر نحو ١٢ عامًا. زحف في خلالها إلى إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعقبة بن نافع، ولحق بهم عبد الله بن الزبير، فافتتح ما بين طرابلس الغرب وطنجة، ودانت له إفريقية كلها. وغزا الروم بحرًا، وظفر بهم في معركة (ذات الصواري) سنة (٣٤)، وعاد إلى المشرق. مات بعسقلان فجأة، وهو قائم يصلي سنة (٣٧)، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاع. وأخباره كثيرة.
ينظر: أسد الغابة (٣/ ١٧٣)، الروض الأنف (٢/ ٢٧٤)، البداية والنهاية (٧/ ٢٥٠)، النجوم الزاهرة (١/ ٧، ٩٤).

(٣) ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره (١/ ٣٦٠)، والسمرقندي (٢/ ٤٧٦).

باسطوا أيديهم﴾ بقبض أرواحِهم كالمتقاضي الملظ[١] المُلِحّ يبسُط يدَه[٢] إلى من عليه الحقُّ ويعنِّف عليه في المطالبة من غير إمهالٍ وتنفيسٍ، أو باسطوها بالعذاب قائلين: **﴿أخرجوا أنفسَكم﴾** أي أخرجوا أرواحَكم إلينا من أجسادكم أو خلِّصوا أنفسكم من العذاب **﴿اليوم﴾** أي وقتَ الإماتة أو الوقتَ الممتدّ بعده إلى ما لا نهاية له**﴿تُجزَوْن عذاب الهُون﴾** أي العذابَ المتضمِّنَ لشدةٍ وإهانةٍ فإضافتُه إلى الهون وهو الهوانُ لعراقته فيه **﴿بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحق﴾** كاتخاذ الولد له ونسبةِ الشريك إليه وادعاءِ النبوة والوحيِ كاذبًا **﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾** فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها.

﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب **﴿فرادَى﴾** منفردين عن الأموال والأولاد وغيرِ ذلك مما آثَرْتُموه من الدنيا أو عن الأعوان والأصنامِ التي كنتم تزعُمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فَرْد والألفُ للتأنيث ككسالى وقرئ (فِرادًا) كرجال وفَرادَ كثلاثَ وفَرْدَى كسَكْرى **﴿كما خلقناكم أول مرة﴾** بدل من فرادى أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد أو حالٌ ثانية عند من يجوِّزُ تعددَها أو حال من الضمير في فرادى أي مُشْبِهين ابتداءَ خلقِكم[٣] عُراةً حُفاة غُرْلًا[٤] بُهْمًا أو صفةُ مصدرٍ (جئتمونا) أي مجيئًا [كخلقنا لكم][٥] أول مرة **﴿وتركتم ما خوّلناكم﴾** تفضّلناه عليكم في الدنيا فشُغِلتم به عن الآخرة **﴿وراء ظهوركم﴾** ما قدمتم منه شيئًا ولم تحمِلوا نقيرًا **﴿وما نرى معكم شفعاءَكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاءُ﴾** أي شركاءُ الله تعالى في الربوبية واستحقاقِ العبادة.

﴿لقد تقطع بيْنَكم﴾ أي وقع التقطعُ بينكم كما يقال: جمع بين الشيئين أي أوقع الجمعَ بينهما وقرئ[٦] (بينُكم) بالرفع على إسناد الفعل إلى الظرف كما يقال: قوتل

---

(١) أنظَّ به: لزمه ولم يفارقه. وألظَّ عليه: ألحَّ.

(٢) ومعنى بسط اليد تمثيلا للشدة في انتزاع أرواحهم، ولا بسط ولا أيدي على طريقة الاستعارة التمثيلية.
ينظر: في شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح (٣/ ١٤٦) وما بعدها، و (٣/ ١٦٠) وما بعدها.

(٣) تشبيه للمجيء، أريد منه معنى الإحياء بعد الموت الذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأي العين، فالكاف لتشبيه الخلق الجديد بالخلق الأول، وهو تشبيه مرسل لذكر الأداة.
ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ٣٨٢)، وانظر أسرار البلاغة، ص (١٠٨) وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي (٣٤٦) وما بعدها، والمطول (٣٣١) وما بعدها، وشروح التلخيص (٣/ ٢٩٨) وما بعدها.

(٤) غَرِل الصبيُّ: عظمت غرلته، وهي الجلدة التي تقطع في الختان. اللسان والوسيط (غرل).

(٥) في خ: كخلقناكم.

(٦) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وعاصم، ومجاهد.

=

أمامُكم وخلفُكم أو على أن البينَ اسمٌ للفصل والوصل أي تقطع وصلُكم وقرئ[١] ما بينَكم ﴿وضل عنكم﴾ أي ضاع أو غاب ﴿ما كنتم تزعمون﴾ أنها شفعاؤكم أو ألا بعثَ ولا جزاء.

كمال العلم الإلهي

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٦)، الإملاء للعكبري (١/ ١٤٧)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٢٠)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٤٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٦)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٩٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، ومجاهد، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٥).

جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَـٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾

﴿إن الله فالقُ الحب والنوى﴾ شروعٌ في تقرير بعضِ أفاعيلِه تعالى الدالةِ على كمال علمِه وقدرته ولطفِ[1] صُنعِه وحِكمتِه إثرَ تقريرِ أدلةِ التوحيد، والفَلْقُ الشَقُّ بإبانةٍ، أي شاقُّ الحبِّ بالنبات والنوىٰ بالشجر، وقيل: المرادُ به الشقُّ الذي في الحبوب والنَّوى، أي خالقُهما كذلك كما في قولك: ضَيِّقْ فمَ الرَّكِيةِ ووسِّعْ أسفلَها، وقيل: الفلْقُ بمعنى الخلق، قال الواحدي: ذهبوا بـ (فالقُ) مذهبَ فاطر ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أي يُخرج ما ينمو[2] من النطفة والحبِّ، والجملةُ مستأنفة مبينةٌ لما قبلها وقيل: خبرٌ ثانٍ لأن قوله تعالى: ﴿ومُخرِجُ الميت﴾ كالنطفة والحب ﴿من الحي﴾ كالحيوان والنبات، عطفٌ على (فالقُ الحب) لا على (يُخرج) على الوجه الأول لأن إخراج الميِّتِ من الحيِّ ليس من قبيل فلقِ الحب والنوى ﴿ذلكم﴾ القادرُ العظيمُ الشأنِ هو ﴿الله﴾ المستحِقّ للعبادة وحده ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تُصرَفون عن عبادته إلى غيره ولا سبيل إليه أصلًا.

﴿فالقُ الإصباح﴾ خبرٌ آخَرُ لـ (إن)، أو لمبتدإٍ محذوفٍ والإصباحُ مصدرٌ سمِّي به الصبحُ وقرئ[3] بفتح الهمزة على أنه جمعُ صُبْح أي فالقُ عمودِ الفجر عن بياضِ النهار وإسفارِه، أو فالق ظلمةِ الإصباح وهي الغَبَشُ الذي يلي الصبحَ وقرئ[4] (فالقَ) بالنصب على المدح ﴿وجعل الليل سَكَنًا﴾ يسكُن إليه التعِبُ بالنهار لاستراحته فيه من سَكَن إليه إذا اطمأن إليه استئناسًا به أو يسكن فيه الخلقُ من قوله تعالى: ﴿لتسكُنوا فيه﴾ [يونس، الآية ٦٧].

وقرئ[5] (جاعلُ الليل) فانتصابُ (سكنًا) بفعل دل عليه جاعل وقيل: بنفسه على

---

(١) في خ: ولطيف.
(٢) زاد في خ: من الحيوان والنبات مما لا ينمو.
(٣) قرأ بها: الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٢٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٥٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩).
(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩).
(٥) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٣٧).

أن المرادَ به الجعلُ المستمرُّ في الأزمنة المتجددة حسَب تجدّدِها لا الجعلُ الماضي فقط وقيل: اسمُ الفاعل من الفعل المتعدِّي إلى اثنين يعمل في الثاني وإن كان بمعنى الماضي لأنه لما أُضيف إلى الأول تعيّن نصبُه للثاني لتعذّر الإضافة بعد ذلك ﴿**والشمسَ والقمرَ**﴾ معطوفان على الليل وعلى القراءة الأخيرة قيل: هما معطوفان على محله والأحسنُ نصبُهما حينئذ بفعل مقدرٍ وقد قُرئا[1] بالجرِّ وبالرفعِ أيضًا على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي مجعولان.

﴿**حُسبانًا**﴾ أي على أدوار مختلفة يُحسبُ بها الأوقاتُ التي نيط بها العباداتُ والمعاملاتُ أو محسوبان حُسبانًا، والحُسبانُ بالضم مصدرُ حسَب كما أن الحسابَ[2] بالكسر مصدر حسَب ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ رتبةِ المُشار إليه وبُعْدِ منزلتِه أي ذلك التسييرُ البديع ﴿**تقدير العزيز**﴾ الغالب القاهرِ الذي لا يستعصي عليه شيءٌ من الأشياء التي من جملتها تسييرُهما على الوجه المخصوص ﴿**العليم**﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها ما في ذلك التسييرِ من المنافعِ والمصالحِ المتعلقةِ بمعاش الخلق ومَعادِهم.

﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم**﴾ شروعٌ في بيان نعمتِه تعالى في الكواكب إثرَ بيانِ نعمتِه تعالى في النَّيِّرَيْنِ[3] والجعلُ متعدٍّ إلى واحد واللامُ متعلقةٌ به، وتأخيرُ المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غيرَ مرةٍ من الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر أي أنشأها وأبدعها لأجلكم، فقوله تعالى: ﴿**لتهتدوا بها**﴾ بدَلٌ من المجرور بإعادة العامل بدلَ اشتمال كما في قوله تعالى: ﴿**لجعلنا لمن يكفُر بالرحمٰن لبيوتهم سُقُفًا**﴾ [الزخرف، الآية ٣٣] والتقدير جعلَ لكم النجومَ لاهتدائكم لكن لا على أن غايةَ خلقِها اهتداؤُهم فقط بل على طريقة إفراد بعضِ منافعِها وغاياتها بالذكر حسبما يقتضيه المقام، وقد جُوِّز أن يكون مفعولًا ثانيًا للجعل، وهو بمعنى التصيير أي جعلها كائنةً لاهتدائكم في أسفاركم عند دخولِكم المفاوزَ أو البحارَ كما ينبئ عنه قولُه

---

(١) قرأ بالرفع: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠).
وقرأ بالجر: يزيد بن قطيب، وأبو حيوة.
الإعراب للنحاس (١/ ٥٦٧)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٦)، وتفسير القرطبي (٤/ ٤٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠).

(٢) في خ: الحسبان.

(٣) هما الشمس والقمر.

تعالى: ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ أي في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتُها إليهما للملابسة فإن الحاجة إلى الاهتداء بها إنما تتحقق عند ذلك أو في مشتَبِهات الطرق، عبّر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة[١].

﴿فقد فصلنا الآيات﴾ أي بيّنا الآياتِ المتلُوَّةَ المذكِّرةَ لنِعَمه التي هذه النعمةُ من جملتها أو الآياتِ التكوينيةَ الدالةَ على شؤونه تعالى مفصّلةً ﴿لقوم يعلمون﴾ أي معانِيَ الآياتِ المذكورةِ ويعملون بموجبها أو يتفكرون في الآيات التكوينية فيعلمون حقيقةَ الحال، وتخصيصُ التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ تذكيرٌ لنعمةٍ أخرى من نِعَمه تعالى دالةٍ على عظيم قدرتِه ولطيفِ صُنعه وحكمتِه أي أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدمَ عليه السلام ﴿فمستقرٌّ ومستودَعٌ﴾ أي فلكم استقرارٌ في الأصلاب أو فوق الأرض واستيداعٌ في الأرحام أو تحت الأرض أو موضعُ استقرارٍ واستيداعٍ فيما ذكر، والتعبيرُ عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرُّهم الطبيعيُّ كما أن التعبيرَ عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لِما أن كلاً منهما ليس بمقرِّهم الطبيعيِّ، وقد حُمل الاستيداعُ على كونهم في الأصلاب وليس بواضح، وقرئ[٢] (فمستقِر) بكسر القاف أي فمنكم مستقِرٌّ ومنكم مستوْدَعٌ فإن الاستقرارَ هنا، بخلاف الاستيداع.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينةَ لتفاصيل خلقِ البشرِ من هذه الآية ونظائرِها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامضَ الدقائقِ باستعمال الفِطنة وتدقيقِ النظرِ فإن لطائفَ صنعِ الله عز وجل في أطوار تخليقِ بني آدمَ مما تحارُ في فهمه الألبابُ وهو السرُّ في إيثار (يفقهون) على يعلمون كما ورد في شأن النجوم.

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً﴾ تذكيرٌ لنعمةٍ أخرى من نعمه تعالى مُنَبِّئةٍ عن

---

(١) نعم، هو استعارة تبعية على مذهب سعد الدين التفتازاني ومجاز عقلي على مذهب السكاكي.
ينظر في الاستعارة المطول (٣٠٦) وما بعدها، والمفتاح للسكاكي (٣٨٠) وما بعدها.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وروح، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، وعيسى الأعرج، وشيبة، والنخعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٦٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٣٠)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٧١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٣)، والكشف للقيسي (١/ ٢٤٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٣٩)، والمعاني للأخفش ص (٢٨٢)، وتفسير الرازي (٤/ ١٠٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

كمال قدرته تعالى وسعةِ رحمته أي أنزل من السحاب أو من سَمْتِ السماء ماءً خاصًا هو المطر، وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارًا ﴿**فأخرجنا به**﴾ التفات إلى التكلم إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أُنزل الماءُ لأجله أي فأخرجنا بعظمتِنا بذلك الماءِ مع وِحْدته ﴿**نباتَ كل شيء**﴾ من الأشياء التي من شأنها النموُّ من أصناف النجْم والشجر وأنواعِها المختلفة في الكم والكيف والخواصِّ والآثار اختلافًا متفاوتًا في مراتبِ الزيادة والنقصان حسبما يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿**يُسقىٰ بماءٍ واحدٍ ونفضِّل بعضَها على بعضٍ في الأكل**﴾ [الرعد، الآية ٤].

وقولُه تعالى: ﴿**فأخرجنا منه خضِرًا**﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجمل من الإخراج، وقد بُدِئ بتفصيل حال النجم أي فأخرجنا من النبات الذي لا ساقَ له شيئًا غضًّا أخضرَ، يقال: شيءٌ أخضَر وخضِرٌ كأعوَرَ وعَوِرٍ، وأكثرُ ما يُستعمل الخضِرُ فيما تكون خُضرتُه خلقية وهو ما تشعّب من أصل النبات الخارج من الحبة. وقوله تعالى: ﴿**نُخرجُ منه**﴾ صفةٌ لخضِرًا وصيغة المضارعِ لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أي نخرج من ذلك الخضِرِ ﴿**حبًّا متراكبًا**﴾ هو السُّنبلُ المنتظِمُ للحبوب المتراكبة بعضُها فوق بعض على هيئة مخصوصةٍ وقرئ[1] (يخرُجُ) منه حبٌّ متراكب.

وقوله تعالى: ﴿**ومن النخل**﴾ شروعٌ في تفصيل حالِ الشجر إثرَ بيانِ حال النجم. فقوله تعالى: ﴿**من النخل**﴾ خبرٌ مقدم وقوله تعالى: ﴿**من طلعها**﴾ بدلٌ منه بإعادة العامل كما في قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله**﴾ [الأحزاب، الآية ٢١] . . . إلخ، والطَّلْعُ شيء يخرُج من النخل كأنه نعلانِ مُطبَقانِ، والحِمْلُ بينهما منضود.

وقوله تعالى: ﴿**قِنوان**﴾ مبتدأ أي وحاصلةٌ من طلع النخل قنوانٌ، ويجوز أن يكون الخبرُ محذوفًا لدلالة أخرجنا عليه أي ومُخرِجةٌ من طلع النخل قنوانٌ ومَنْ قرأ يخرجُ منه حبٌّ متراكبٌ كان (قنوانٌ) عنده معطوفًا على (حبٌّ).

وقيل: المعنى وأخرجنا من النخل نخلًا من طلعها قنوانٌ أو ومن النخل شيءٌ من طلعها قنوان، وهو جمع قِنْوٍ، وهو عنقودُ النخلة كصِنْوٍ وصِنْوان، وقرئ[2] بضم

---

(١) قرأ بها: الأعمش، وابن محيصن، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٩).

(٢) قرأ بها: المطوعي، وأبو عمرو، والأعمش، والخفاف، والأعرج، والبرجمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١).

القاف كذِئبٍ وذؤبان وبفتحها أيضًا على أنه اسمُ جمعٍ لأن فَعلان ليس من أبنية الجمع ﴿**دانية**﴾ سهلةُ المُجتَنى قريبةٌ من القاطفِ فإنها وإنْ كانت صغيرةً ينالها القاعدُ تأتي بالثمر لا يُنتظَرُ الطولُ، أو ملتفةٌ متقاربة، والاقتصارُ على ذكرها لدلالتها على مُقابلها كقوله تعالى: ﴿**سرابيلَ تقيكم الحرَّ**﴾ [النحل، الآية ٨١] ولزيادة النعمة فيها ﴿**وجناتٍ من أعناب**﴾ عطفٌ على (نباتَ كل شيء) أي وأخرجنا به جناتٍ كائنةً من أعناب، وقرئ[1] (جناتٌ) بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثَمةَ جناتٌ، وقد جوِّز عطفُه على (قنوان) كأنه قيل: وحاصلةٌ أو مخرجةٌ من النخل قنوانٌ وجناتٌ من نباتٍ وأعناب، ولعل زيادةَ الجنات هاهنا من غير اكتفاءٍ بذكر اسمِ الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاعَ بهذا الجنس لا يتأتى غالبًا إلا عند اجتماع طائفةٍ من أفراده.

﴿**والزيتونَ والرمان**﴾ منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على (نباتَ) وقوله تعالى: ﴿**مشْتبهًا وغير متشابه**﴾ حال من الزيتون اكتُفي به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف في نحو قوله تعالى: ﴿**والله ورسولُه أحقُّ أن يُرْضوه**﴾ [التوبة، الآية ٦٢] وتقديرُه والزيتونَ مشتبهًا[2] وغيرَ متشابه والرمانَ كذلك، وقد جُوِّز أن يكون حالًا من الرمان لقُربه ويكون المحذوفُ حالَ الأول والمعنى بعضُه متشابهًا وبعضُه غيرَ متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغيرِ ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعِها وحكمةِ مُنشئِها ومبدعِها.

﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر**﴾ أي انظروا إليه نظرَ اعتبارٍ واستبصارٍ إذا أخرج ثمرَه كيف يُخرجه ضئيلًا لا يكاد يُنتفعُ به، وقرئ[3] (إلى ثمره) ﴿**وينعه**﴾ أي وإلى حال

---

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو بكر، والأعمش، ومحمد بن أبي ليلى، والحسن، والمطوعي، والأعمش، والبرجمي، ويحيى بن يعمر، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٦٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٣٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٧٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٤٠)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٧).

(٢) في خ: متشابه.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن وثاب، ومجاهد، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٣٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٧٩)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، والحجة لابن خالويه (١٤٦، ١٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٤)، =

نُضجه كيف يصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئًا جامعًا لمنافعَ جمّةٍ واليَنْعُ في الأصل مصدر يَنَعَت الثمرةُ إذا أدركت وقيل: جمعُ يانع كتاجر وتجْرٍ وقرئ[١] بالضم وهي لغة فيه وقرئ[٢] يانِعِهِ ﴿إن في ذلكم﴾ إشارةٌ إلى ما أُمر بالنظر إليه، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشارِ إليه وبُعد منزلته.

﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي لآياتٍ عظيمةً أو كثيرةً دالةً على وجود القادر الحكيم ووَحدتِه فإن حدوثَ هاتيك الأجناسِ المختلفة الأنواع المتشعبة من أصل واحدٍ وانتقالَها من حال إلى حال على نمط بديع تحارُ في فهمه الألباب لا يكاد يكون إلا بإحداث صانعٍ يعلم تفاصيلَها ويرجّح ما تقتضيه حكمتُه من الوجوه الممكنة على غيره ولا يَعوُقه عن ذلك ضدٌّ يناوئه أو نِدٌّ يُقاويه، ولذلك عقّب بتوبيخِ من أشرك به والردِّ عليه حيث قيل.

﴿وجعلوا لله شركاءَ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم لله الذي شأنُه ما فُصّل في تضاعيفِ هذه الآية الجليلةِ شركاءَ ﴿الجنَّ﴾ أي الملائكةَ حيث عبدوهم وقالوا: الملائكةُ بناتُ الله وسُمُّوا جِنًّا لاجتنانهم تحقيرًا لشأنهم بالنسبة إلى مَقام الألوهية، أو الشياطينَ حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الأوثانَ بتسويلهم وتحريضِهم أو قالوا: الله خالقُ الخير وكلِّ نافعٍ، والشيطانُ خالقُ الشرِّ وكلِّ ضارٍّ، كما هو رأي الثنوية ومفعولا (جعلوا) قوله تعالى: ﴿شركاء الجن﴾ قُدِّم ثانيهما على الأول لاستعظام أن يُتَّخذَ لله سبحانه شريكٌ ما، كائنًا ما كان، ولله متعلق بـ (شركاء) قدم عليه للنكتة المذكورة.

وقيل: هما لله شركاء والجنَّ بدلٌ من شركاءَ مفسِّرٌ له نَصَّ عليه الفراءُ وأبو إسحاقَ، أو منصوبٌ بمضمرٍ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ من قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ كأنه قيل: مَنْ جعلوه شركاءَ لله تعالى؟ فقيل: الجنَّ أي جعلوا الجن، ويؤيده قراءةُ[٣] أبي حيوة ويزيدَ بن قطيب (الجنُّ) بالرفع على تقدير: همُ الجنُّ

= والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٤٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

(١) قرأ بها: ابن محيصن، وقتادة، والضحاك.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٨).

(٢) قرأ بها: محمد بن السميفع اليماني، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٧٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩١)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٨٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٩٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، وتفسير الرازي (٤/ ١٠٩).

في جواب من قال: مَن الذين جعلوهم شركاء لله تعالى؟ وقد قرئ[1] بالجر على أن الإضافة للتبيين ﴿وخلقهم﴾ حالٌ من فاعل (جعلوا) بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين، مؤكدةٌ لما في جَعْلهم ذلك من كمال القباحة والبُطلان باعتبار علمِهم بمضمونها، أي وقد علموا أنه تعالى خالقُهم خاصة، وقيل: الضميرُ للشركاءِ أي والحال أنه تعالى خلق الجنَّ فكيف يجعلون مخلوقَه شريكًا له تعالى؟ وقرئ[2] (خَلْقَهم) عطفًا على (الجنَّ) أي وما يخلقونه من الأصنام أو على (شركاءَ) أي وجعلوا له اختلاقَهم الإفكَ حيث نسبوه إليه تعالى.

﴿وخرَقوا له﴾ أي افتعلوا وافترَوْا له يقال: خلقَ الإفكَ واختلقه وخَرَقه واخترقه بمعنى وقرئ[3] (خرّقوا) بالتشديد للتكثير وقرئ[4] (وحرّفوا له) أي زوّروا ﴿بنينَ وبناتٍ﴾ فقالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقالت طائفة من العرب: الملائكةُ بناتُ الله ﴿بغير علم﴾ أي بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صوابٍ رميًا بقوله عن عمىً وجهالةٍ من غير فكرٍ ورويّة أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادَرُ قدرُه، والباء متعلقةٌ بمحذوف هو حالٌ من فاعل خرقوا أو نعتٌ لمصدر مؤكِّدٍ له أي خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقًا كائنًا بغير علم.

﴿سبحانه﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتنزيهه عز وجل عما نَسبوه إليه، وسبحانه علمٌ للتسبيح الذي هو التبعيدُ عن السوء اعتقادًا وقولًا أي اعتقادَ البعدِ عنه والحكمَ به،

---

(١) قرأ بها: شعيب بن أبي حمزة، وأبو حيوة، ويزيد بن قطيب.
ينظر: البحر المحيط (٣/ ١٩٣)، وتفسير الرازي (٤/ ١٠٩).

(٢) قرأ بها: يحيى بن يعمر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٧٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٣٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٤)، وتفسير الرازي (٤/ ١١٠).

(٣) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٣٦)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٢)، وتفسير الرازي (٤/ ١١٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

(٤) قرأ بها: ابن عمر، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٩٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٤).

مِنْ سبَح في الأرض والماء إذا أبعدَ فيهما وأمعن ومنه فَرَسٌ سَبوحٌ أي واسعُ الجرْي، وانتصابُه على المصدرية ولا يكاد يُذكر ناصبُه أي أسبِّح سبحانه أي أنزهه عما لا يليق به عقدًا أو عملًا تنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشأنه، وفيه مبالغةً من جهة الاشتقاق من السَّبْح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة، لا سيما العلمُ المشيرُ إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذهن ومن جهة إقامته مُقامَ المصدر مع الفعل وقيل: هو مصدرٌ كغُفران لأنه سُمع له فعلٌ من الثلاثي كما ذكر في القاموس[1] أُريد به التنزُّهُ التامُّ والتباعدُ الكُلي، ففيه مبالغةٌ من حيث إسنادُ التنزهِ إلى ذاتِه المقدسةِ أي تنزه بذاتِه تنزّهًا لائقًا به وهو الأنسبُ بقوله سبحانه:

﴿وتعالى﴾ فإنه معطوفٌ على الفعل المُضمر لا محالة ولِمَا في السُّبحان والتعالي من معنى التباعُد قيل: ﴿عما يصفون﴾ أي تباعد عما يصفونه من أن له شريكًا أو ولدًا ﴿بديعُ السموات والأرض﴾ أي مُبدِعُهما ومخترعُهما بلا مثالٍ يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، فإن البديعَ كما يطلق على المُبدِع (بكسر الدال) يطلق على المبدَع (بفتح الدال) نصَّ عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المُصرِخ وقد جاء: بدَعَه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه، على ما ذُكر في القاموس وغيرِه، ونظيرُه السميعُ بمعنى المُسمِع في قوله: [الوافر]

أمِـنْ ريـحـانـةَ الـداعـي الـسـمـيـعُ ....[2]

وقيل: هو من إضافة الصفةِ المشبهةِ إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبِه تشبيهًا لها باسم الفاعل كما هو المشهور أي بديعُ سمواتِه وأرضِه من بَدَع إذا كان على نمطٍ عجيبٍ وشكلٍ فائق وحُسنٍ رائقٍ، أو إلى الظرف كما في قولهم: ثبْتُ العذرِ بمعنى أنه عديمُ النظير فيهما، والأولُ هو الوجه، والمعنى أنه تعالى مبدعٌ لقطري العالم العلويِّ والسفليِّ بلا مادة فاعلٍ على الإطلاق منزّه عن الانفعال بالمرة، والوالدُ عنصرُ الولد منفعلٌ بانتقال مادتِه عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ وقرئ[3] (بديعَ) بالنصب على المدح وبالجر[4] على أنه بدلٌ من الاسم الجليل أو من الضمير المجرورِ في (سبحانه)

---

(١) القاموس المحيط ، مادة: سبح. (٢) تقدم.

(٣) قرأ بها: صالح الشامي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٧١)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢).

(٤) قرأ بها: المنصور.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٧١)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢).

على رأي من يُجيزه، وارتفاعُه في القراءة المشهورة على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أو فاعلُ تعالى، وإظهارُه في موضع الإضمارِ لتعليل الحكمِ، وتوسيطُ الظرفِ بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه، أو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى:

﴿أنى يكون له ولد﴾ وهو على الأولَيْن جملةٌ مستقلةٌ مَسوقةٌ كما قبلها لبيان استحالةِ ما نسبوه إليه تعالى وتقرير تنزُّهِه عنه وقوله تعالى: ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ حال مؤكدةٌ للاستحالة المذكورة فإن انتفاءَ أن يكون له تعالى صاحبةٌ مستلزمٌ لانتفاء أن يكون له ولدٌ ضرورةَ استحالة وجودِ الولدِ بلا والدة، وإن أمكن وجودُه بلا والد، وانتفاءُ الأولِ مما لا ريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاءُ الثاني أي من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحالُ أنه ليس له على زعمهم أيضًا صاحبةٌ يكون الولدُ منها؟ وقرئ[1] (لم يكنْ) بتذكير الفعل للفصل أو لأن الاسمَ ضميرُه تعالى، والخبرُ هو الظرفُ وصاحبةٌ مرتفعٌ به على الفاعلية لاعتماده على المبتدإ، أو الظرفُ خبرٌ مقدمٌ وصاحبةٌ مبتدأٌ مؤخرٌ والجملةُ خبرٌ للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسمُ ضميرَ الشأنِ لصلاحية الجملةِ حينئذ لأن تكونَ مفسِّرةً لضمير الشأنِ لا على الوجه الأولِ لما بيّن في موضعه أن ضميرَ الشأنِ لا يفسَّر إلا بجملة صريحةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء﴾ إما جملةٌ مستأنفةٌ أخرى سيقت لتحقيق ما ذُكر من الاستحالة أو حالٌ أخرى مقرِّرةٌ لها أي أنى يكون له ولدٌ والحالُ أنه خلق كلَّ شيءٍ انتظمه التكوينُ والإيجادُ من الموجودات التي من جملتها ما سمَّوْه ولدًا له تعالى فكيف يُتَصوَّر أن يكون المخلوقُ ولدًا لخالقه؟

﴿وهو بكل شيء﴾ مِنْ شأنه أن يُعلم كائنًا ما كان مخلوقًا أو غيرَ مخلوق كما ينبئ عنه تركُ الإضمار إلى الإظهار ﴿عليم﴾ مبالغٌ في العلم أزلًا وأبدًا حسبما يُعرِبُ عنه العدولُ إلى الجملة الاسميةِ فلا يخفى عليه خافيةٌ مما كان وما سيكون من الذوات والصفاتِ والأحوالِ التي من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المُحالات التي ما زعموه فردٌ من أفرادها، والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعةِ ببطلان مقالتِهم الشنعاءِ التي اجترأوا عليها بغير علم.

﴿ذلكم﴾ إشارةٌ إلى المنعوت بما ذُكر من جلائل النعوتِ وما فيه من معنى البُعد

---

(١) قرأ بها: النخعي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٤٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٤).

للإيذان بعلوِّ شأنِ المُشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه في العظمة، والخطابُ للمشركين المعهودين بطريق الالتفاتِ، وهو مبتدأٌ وقولُه تعالى: **﴿الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾** أخبارٌ أربعةٌ مترادفةٌ أي ذلك الموصوفُ بتلك الصفاتِ العظيمةِ هو الله المستحِقُّ للعبادة خاصةً، مالكُ أمرِكم لا شريك له أصلًا، خالقُ كلِّ شيءٍ مما كان ومما سيكون، فلا تكرارَ، إذ المعتبرُ في عنوان الموضوع إنما هو خالقيتُه لما كان فقط كما ينبئ عنه صيغةُ الماضي، وقيل: الخبرُ هو الأولُ، والبواقي أبدالٌ، وقيل: الاسمُ الجليلُ بدلٌ من المبتدأ والبواقي أخبارٌ، وقيل: يقدر لكلٍّ من الأخبار الثلاثةِ مبتدأٌ، وقيل: يُجعل الكلُّ بمنزلة اسمٍ واحد.

وقولُه تعالى: **﴿فاعبدوه﴾** حكم مترتبٌ على مضمون الجملة، فإن مَنْ جمع هذه الصفاتِ كان هو المستحق للعبادة خاصة، وقوله تعالى: **﴿وهو على كل شيء وكيل﴾** عطفٌ على الجملة المتقدمة أي هو مع ما فُصل من الصفات الجليلةِ متولي أمورِ جميعِ مخلوقاتِه التي أنتم من جملتها فكِلوا أمورَكم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربِكم الدنيويةِ والأخروية.

﴿لا تدركه الأبصار﴾ البصرُ حاسةُ النظرِ، وقد تطلق على العين من حيث أنها محلُّها، وإدراكُ الشيءِ عبارةٌ عن الوصول إليه والإحاطةِ به أي لا تصِل إليه الأبصارُ ولا تُحيط به كما قال سعيد بن المسيِّب، وقال عطاء: كلّتْ أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به فلا مُتمسَّك فيه لمنكري الرؤيةِ على الإطلاق. وقد روي عن ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهم: لا تدركه الأبصارُ في الدنيا وهو يُرى في الآخرة **﴿وهو يدرك الأبصار﴾** أي يحيطُ بها علمُه إذ لا تخفىٰ عليه خافيةٌ **﴿وهو اللطيف الخبير﴾** فيدرك ما لا تدركه الأبصارُ، ويجوز أن يكون تعليلًا للحُكمين السابقين على طريقة اللفِّ أي لا تدركه الأبصارُ لأنه اللطيفُ وهو يدرك الأبصارَ لأنه الخبيرُ فيكون اللطيفُ مستفادًا من مقابل الكثيفِ لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

وقوله تعالى: **﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾** استئنافٌ وارد على لسان النبي عليه الصلاة والسلام، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ وهي النورُ الذي به تستبصِرُ النفسُ كما أن البصرَ نورٌ به تبصِرُ العين، والمرادُ بها الآيةُ الواردةُ هاهنا أو جميعُ الآيةِ المنتظمةِ لها انتظامًا أوليًا، ومن لابتداء الغايةِ مجازًا سواءٌ تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفةٌ لبصائرُ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمالِ اللطفِ بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلِّغِكم إلى كمالكم اللائقِ بكم من الوحي الناطقِ بالحق والصوابِ ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائرُ كائنةٌ من

ربكم ﴿فمن أبصر﴾ أي الحقَّ بتلك البصائرِ وآمن به ﴿فلنفسه﴾ أي فلنفسه أبصر، أو فإبصارُه لنفسه لأن نفعَه مخصوصٌ بها ﴿ومن عمِي﴾ أي ومن لم يبصر الحقَّ بعد ما ظهر له بتلك البصائرِ ظهورًا بيِّنًا وضلَّ عنه، وإنما عبّر عنه بالعمىٰ تقبيحًا له وتنفيرًا عنه ﴿فعليها﴾ أي فعليها عمى أو فعَماهُ عليها أو وبالُ عملِه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وإنما أنا منذر، والله هو الذي يحفظ أعمالَكم ويجازيكم عليها.

﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أي مثلَ ذلك التصريفِ البديعِ نصرِّف الآياتِ الدالةَ على المعاني الرائقةِ الكاشفةِ عن الحقائق الفائقةِ لا تصريفًا أدنى منه، وقوله تعالى: ﴿وليقولوا درسْتَ﴾ علةٌ لفعل قد حذف تعويلًا على دلالة السياقِ عليه، أو وليقولوا درست نفعلُ ما نفعل من التصريفِ المذكورِ، واللامُ للعاقبة، والواو اعتراضيةٌ وقيل: هي عاطفةٌ على علة محذوفةٍ واللام متعلقةٌ بـ (نُصرِّف) أي مثلَ ذلك التصريفِ نصرِّف الآياتِ لنُلزِمَهم الحجةَ وليقولوا . . . إلخ.

وقيل: اللام لامُ الأمرِ، وتنصُره القراءةُ[١] بسكون اللامِ كأنه قيل: وكذلك نصرف الآياتِ وليقولوا هم ما يقولون فإنه لا احتفالَ بهم ولا اعتدادَ بقولهم، وهذا أمرٌ معناه الوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراثِ بقولهم ورُدَّ عليه بأن ما بعده يأباه، ومعنى درست قرأتَ وتعلمتَ، وقرئ[٢] (دارسْتَ) أي دارستَ العلماءَ، و(دَرَسَتْ)[٣] أي قدمت هذه الآياتُ وعفَت كما قالوا أساطيرُ الأولين و(دَرُسَت)[٤] بضم الراءِ مبالغةً في

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٩).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، وابن عباس، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٢)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٤٦)، والتيسير للداني ص (١٠٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٣)، والمجمع للطبرسي (١/ ٢٢٦)، والمعاني للأخفش ص (٢٨٥)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٩)، وتفسير الرازي (٤/ ١٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، ويعقوب، والحسن، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٩)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٤٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٥)، والمعاني للفراء (١/ ٢٤٩)، وتفسير الرازي (٤/ ١٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

(٤) قرأ بها: الحسن.

=

(درَست) أي اشتد دروسُها و(دُرست)[1] على البناء للمفعول بمعنى قُرئت أو عُفِيت و(دارَسَتْ) وفسروها بدارست اليهودُ محمدًا ﷺ. وجاز الإضمارُ لاشتهارهم بالدراسة، وقد جُوز إسنادُ الفعل إلى الآيات وهو في الحقيقة لأهلها أي: دارسَ أهلُ الآيات وحَمَلتُها محمدًا ﷺ وهم أهلُ الكتاب ودرَسَ أي درَسَ محمدٌ ودارِسات أي هي دارساتٌ أي قديمات أو ذاتُ دَرْسٍ كعيشة راضية.

وقوله تعالى: ﴿ولنبينه﴾ عطفٌ على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيينَ غايةُ التصريفِ، والضميرُ للآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يُذكر، أو للمصدر أي ولِنفعلَ التبيينَ، واللامُ في قوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ متعلقةٌ بالتبيين، وتخصيصُه بهم لما أنهم المنتفِعون به، قال ابن عباس: هم أولياؤه الذين هداهم إلى سبيل الرشادِ، ووصفُهم بالعلم للإيذان بغاية جهلِ الأولين وخلوِّهم عن العلم بالمرة.

إرشادات للنبي ﷺ

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ لما حُكي عن المشركين قدحُهم في تصريف الآياتِ عُقِّب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتدادِ بهم وبأباطيلهم، أي دُمْ على ما أنت عليه من اتباع ما أوحي إليك من الشرائع والأحكامِ التي عُمدتُها التوحيدُ، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطفِ به ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾ اعتراضٌ بين الأمرين المتعاطفَين مؤكِّدٌ لإيجاب اتباعِ الوحي لا سيما في أمر التوحيدِ، وقد جُوز أن يكون حالًا من ربك أي منفردًا في الألوهية ﴿وأعرض عن المشركين﴾ لا تحتفِلْ بهم وبأقاويلهم الباطلةِ التي من جملتها ما حُكي عنهم آنفًا. ومن جعله منسوخًا بآية السيفِ حَمل الإعراضَ على ما يعُمّ الكفَّ عنهم.

﴿ولو شاء الله﴾ أي عدمَ إشراكِهم حسبما هو القاعدةُ المستمرةُ في حذف مفعولِ المشيئةِ من وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء ﴿ما أشركوا﴾ وهذا دليلٌ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٤)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٩).

(١) قرأ بها: قتادة، والحسن، وزيد بن علي، وابن عباس.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٤٩)، والبحر المحيط (٤/ ١٩٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٤٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٥٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٥)، والمعاني للفراء (١/ ٣٤٩).

على أنه تعالى لا يريد إيمانَ الكافرِ لكنْ لا بمعنى أنه تعالى يمنعُه عنه مِنْ توجّهِه إليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لعدم صرفِ اختيارِه الجزئيِّ نحوَ الإيمان، وإصرارِه على الكفر، والجملةُ اعتراضٌ مؤكد للإعراض وكذا قولُه تعالى: ﴿**وما جعلناك عليهم حفيظًا**﴾ أي رقيبًا مهيمنًا مِنْ قِبلنا تحفظ عليهم أعمالَهم، وكذا قولُه تعالى: ﴿**وما أنت عليهم بوكيل**﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالِحَهم، وعليهم في الموضعين متعلقٌ بما بعده، قُدِّم عليه للاهتمام أو لرعاية الفواصل.

﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله**﴾ أي لا تشتُموهم من حيث عبادتُهم لآلهتهم كأن تقولوا: تبًا لكم ولما تعبُدونه مثلًا ﴿**فيسبوا الله عدْوًا**﴾ تجاوزًا عن الحق إلى الباطل بأن يقولوا لكم مثلَ قولِكم لهم ﴿**بغير علم**﴾ أي بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يُذكَرَ به، وقرئ[1] (عُدُوًّا) يقال: عدا يعدو عَدْوًا وعُدُوًّا وعِداء وعُدْوانًا.

روي أنهم قالوا لرسول الله ﷺ عند نزول قوله تعالى: ﴿**إنكم وما تعبُدون من دون الله حصَبُ جهنم**﴾ [الأنبياء، الآية ٩٨]: لتنتهِيَنَّ عن سب آلهتِنا أو لنهجُوَنّ إلٰهَك. وقيل: كان المسلمون يسبّونهم فنُهوا عن ذلك لئلا يستتبعَ سبُّهم سبَّه سبحانه وتعالى، وفيه أن الطاعةَ إذا أدتْ إلى معصية راجحةٍ وجب تركُها فإن ما يؤدي إلى الشر شرٌّ.

﴿**كذلك**﴾ أي مثلَ ذلك التزيينِ القويِّ ﴿**زيَّنَّا لكل أمة عملَهم**﴾ من الخير والشر بإحداث ما يُمكّنهم منه ويحمِلُهم عليه توفيقًا أو تخذيلًا، ويجوز أن يُراد بكل أمة أممُ الكفرةِ إذ الكلامُ فيهم وبعملهم شرُّهم وفسادُهم، والمشبَّه به تزيينُ سبِّ الله تعالى لهم ﴿**ثم إلى ربهم**﴾ مالك أمرِهم ﴿**مرجعهم**﴾ أي رجوعُهم وهو البعثُ بعد الموت ﴿**فينبئهم**﴾ من غير تأخير ﴿**بما كانوا يعملون**﴾ في الدنيا على الاستمرار من السيئات المزيَّنةِ لهم، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لمن يتوعدُه: سأُخبرُك بما فعلت، وفيه نكتةٌ سِرّية مبنيةٌ على حِكمة أبيّةٍ، وهو أن كلَّ ما يظهر في هذه النشأةِ من الأعيان والأعراضِ فإنما يظهر بصورة مستعارةٍ مخالفةٍ لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة، فإن المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصورةٍ ما تستحسنها نفوسُ العصاة، كما نطقت به هذه الآيةُ الكريمة، وكذا الطاعاتُ فإنها مع كونها

---

(١) قرأ بها: الحسن، ويعقوب، وأبو رجاء، وقتادة، وسلام، وعثمان بن سعد، وعبد الله بن يزيد. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٩)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٦)، وتفسير الرازي (٤/ ١٢٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

أحسنَ الأحاسنِ قد ظهرت عندهم بصورة مكروهةٍ، ولذلك قال عليه السلام: «**حُفَّت الجنَّةُ بالمكارِهِ وحفَّتِ النارُ بالشهواتِ**»[١].

فأعمال الكفرةِ قد برزت لهم في[٢] النشأة بصورة مزيَّنةٍ يستحسنها الغُواةُ ويستحبّها الطغاةُ، وستظهر في النشأة الآخرةِ بصورتها الحقيقيةِ المنكرةِ الهائلةِ فعند ذلك يعرِفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها لما أن كلاً منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي فلْيُتدبر.

قوله تعالى: ﴿**وأقسموا بالله**﴾ روي أن قريشًا اقترحوا بعضَ آيات، فقال رسولُ الله ﷺ: «**فإن فعلتُ بعضَ ما تقولون أتصدّقونني؟**» فقالوا: نعم، وأقسموا لئن فعله ليؤمِنُنّ[٣] جميعًا فسأل المسلمون رسولَ الله ﷺ أن ينزلها طمعًا في إيمانهم فهمّ عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت[٤].

وقوله تعالى: ﴿**جَهد أيمانهم**﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي أقسموا به تعالى جاهدين في أيمانهم ﴿**لئن جاءتهم آية**﴾ من مقترحاتهم أو من جنس الآياتِ وهو الأنسبُ بحالهم في المكابرة والعناد وترامي أمرِهم في العتو والفساد، حيث كانوا لا يعُدّون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرةِ من جنس الآيات ﴿**ليؤمِنُنّ بها**﴾ وما كان مَرْمى غرضِهم في ذلك إلا التحكمَ على رسول الله ﷺ في طلب المعجزةِ وعدم الاعتدادِ بما شاهدوا منه من البينات الحقيقةِ بأن تُقطعَ بها الأرضُ وتُسيَّر بها الجبالُ ﴿**قل إنما الآيات**﴾ أي كلُّها، فيدخُل فيها ما اقترحوه دخولًا أوليًا ﴿**عند الله**﴾ أي أمرُها في حُكمه وقضائِه خاصةً يتصرف فيها حسبَ مشيئتِه المبنيَّةِ على الحِكَم البالغةِ لا تتعلق بها ولا بشأن من شؤونها قُدرةُ أحدٍ ولا مشيئتُه لا استقلالًا ولا اشتراكًا بوجه من الوجوه حتى يُمكِنَني أن أتصدّى لاستنزالها بالاستدعاء.

وهذا كما ترى سدٌّ لباب الاقتراحِ على أبلغ وجهٍ وأحسنِه ببيان علوِّ شأن الآياتِ وصعوبةِ منالِها وتعاليها من أن تكونَ عُرضةً للسؤال والاقتراحِ، وأما ما قيل من أن المعنى إنما الآياتُ عند الله تعالى لا عندي فكيف أُجيبكم إليها أو آتيكم بها وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة: باب الجنة وصفة نعيمها حديث (١/ ٢٨٨٢) من حديث أنس بن مالك.
وأخرجه أيضًا أحمد (٣/ ٢٥٤، ٢٨٤)، والترمذي (٤/ ٣١٩) كتاب صفة الجنة باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره، حديث (٢٥٥٩) وعبد بن حميد (١٣١١- المنتخب) وابن حبان (٧١٦).

(٢) زاد في خ: هذه.

(٣) في خ: لنؤمنن.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ١٢٢).

القادِرُ عليها لا أنا حتى آتِيَكم بها فلا مناسبةَ له بالمقام كيف لا وليس مقترَحُهم مجيئها بغير قدرةِ الله تعالى وإرادتِه حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى: ﴿**وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمرِ مَسوقٌ من جهته تعالى لبيان الحكمةِ الداعيةِ إلى ما أشعر به الجوابُ السابقُ من عدم مجيءِ الآياتِ خوطب به المسلمون إما خاصةً بطريق التلوينِ لمّا كانوا راغبين في نزولها طمعًا في إسلامهم، وإما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روي عنه ﷺ من الهم بالدعاء. وقد بُيّن فيه أن أيْمانَهم فاجرةٌ وإيمانُهم مما لا يدخل تحت الوجودِ وإن أجيب إلى ما سألوه.

و(ما) استفهاميةٌ إنكاريةٌ لكن لا على أن مرجِعَ الإنكارِ هو وقوعُ المشعَرِ به بل هو نفسُ الإشعارِ مع تحقق المشعَرِ به في نفسه. أي وأيُّ شيءٍ يُعلِمُكم أن الآيةَ التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقَوْن على ما كانوا عليه من الكفر والعِناد أي لا تعلمون ذلك فتتمنّون مجيئها طمعًا في إيمانهم فكأنه بسطُ عذرٍ من جهة المسلمين في تمنيهم نزولَ الآياتِ، وقيل: (لا) مزيدةٌ فيتوجه الإنكارُ إلى الإشعار به جميعًا، أي أيُّ شيءٍ يعلمكم إيمانَهم عند مجيءِ الآياتِ حتى تتمنَّوا مجيئها طمعًا في إيمانهم؟ فيكونُ تخطئةً لرأي المسلمين، وقيل: (أنّ) بمعنى لعل، يقال: ادخُل السوقَ أنك تشتري اللحمَ وعنك وعلّك ولعلك كلُّها بمعنى، ويؤيده أنه قرئ[1] (لعلها إذا جاءت لا يؤمنون) على أن الكلامَ قد تمّ قبله، والمفعولُ الثاني لـ (يُشعرَكم) محذوفٌ كما في قوله تعالى: ﴿**وما يدريك لعله يزكي**﴾ [عبس، الآية ٣] والجملة استئنافٌ لتعليل الإنكار وتقريرِه، أي أيُّ شيءٍ يعلمكم حالَهم وما سيكون عند مجيءِ الآياتِ لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها فما لكم تتمنَّوْن مجيئها؟ فإن تمنِّيَهم إنما يليق بما إذا كان إيمانُهم بها محقَّقَ الوجودِ عند مجيئِها لا مرجوَّ العدم.

وقرئ[2] (إنها) بالكسر على أنه استئنافٌ حسبما سبق مع زيادة تحقيقٍ لعدم

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والعليمي، والأعمش، وأبو بكر، وخلف، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٩)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠١، ٢٠٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥٢)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٠، ٤١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٥)، والغيث للصفاقسي =

إيمانِهم وقرئ[1] (لا تؤمنون) بالفوقانية، فالخطابُ في (وما يشعركم للمشركين) وقرئ (وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون)، فمرجِعُ الإنكارِ إقدامُ المشركين على الإقسام المذكورِ مع جهلهم بحال قلوبِهم عند مجيءِ الآياتِ وبكونها حينئذٍ كما هي الآن.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارَهم﴾ عطفٌ على لا يؤمنون داخلٌ في حكم ما يشعركم مقيدٌ بما قيد به أي وما يُشعرُكم أنا نقلّب أفئدتَهم عن إدراك الحقِّ فلا يفقهونه وأبصارَهم عن اجتلائه فلا يُبصرونه لكن لا مَعَ توجهها إليه واستعدادِها لقبوله بل لكمال نُبوِّها عنه وإعراضِها بالكلية ولذلك أخّر ذكرُه عن ذكر عدمِ إيمانِهم إشعارًا بأصالتهم في الكفر وحسمًا لتوهُّم أن عدم إيمانِهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرَهم بطريق الإجبار ﴿كما لو يؤمنوا به﴾ أي بما جاء من الآيات ﴿أول مرةٍ﴾ أي عند ورودِ الآياتِ السابقةِ، والكافُ في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ منصوبٌ بـ (لا يؤمنون) وما مصدريةٌ أي لا يؤمنون بل يكفرون كفرًا كائنًا ككفرهم أولَ مرةٍ، وتوسيطُ تقليبِ الأفئدةِ والأبصارِ بينهما لأنه من متمّمات عدمِ إيمانهم ﴿ونذرهم﴾ عطفٌ على (لا يؤمنون) داخلٌ في حكم الاستفهامِ الإنكاريِّ مقيَّدٌ بما قيد به مبيِّنٌ لما هو المرادُ بتقليب الأفئدةِ والأبصار، ومعْرِبٌ عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يُقلِّب الله سبحانه مشاعِرَهم عن الحق مع توجههم إليه واستعدادِهم له بطريق الإجبارِ بل بأن يُخلِّيَهم وشأنَهم بعد ما علم فساد استعدادِهم وفرط نفورِهم عن الحق، وعدم تأثيرِ اللطفِ فيهم أصلًا، ويطبَعُ على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادُهم كما أشرنا إليه.

وقوله تعالى: ﴿في طغيانهم﴾ متعلّقٌ بـ (نذرهم)، وقوله تعالى: ﴿يعمهون﴾ حالٌ من الضمير المنصوبِ في نذرهم أي ندعُهم في طغيانهم متحيِّرين لا نهديهم هدايةَ

= ص (٢١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤)، والكشف للقيسي (١/ ١٤٤- ٤٤٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨)، والمعاني للأخفش ص (٢٨٥)، والمعاني للفراء (١/ ٣٦٥٠)، وتفسير الرازي (٤/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥٢)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٤٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦١).

المؤمنين، أو مفعولٌ ثانٍ لنذرُهم أي نصيِّرهم عامِهين وقرئ (يُقلِّب)[١] و(يَذَرُ)[٢] بالياء على إسنادهما إلى ضمير الجلالةِ وقرئ[٣] (تُقلَّبُ) بالتاء والبناءِ للمفعول على إسناده إلى أفئدتهم.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ تصريحٌ بما أشعَرَ به قولُه عز وجل: **﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾** [الأنعام، الآية ١٠٩] من الحكمة الداعيةِ إلى ترك الإجابةِ إلى ما اقترحوه من الآيات إثرَ بيانِ أنها في حُكمه وقضائه المبنيِّ على الحِكَم البالغةِ لا مدخلَ لأحد في أمرها بوجه من الوجوه، وبيانٌ لكذبهم في أيْمانهم الفاجرةِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه أي ولو أننا لم نقتصِرْ على إيتاء ما اقترحوه هٰهنا من آية واحدةٍ من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكةَ كما سألوه بقولهم: **﴿لولا أُنزل علينا الملائكةُ﴾** [الفرقان، الآية ٢١] وقولِهم: **﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾** [الحجر، الآية ٧] **﴿وكلمهم الموتى﴾** وشهدوا بحقية الإيمانِ بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم: فأتوا بآبائنا **﴿وحشرنا﴾** أي جمعنا **﴿عليهم كل شيء قُبلا﴾** بضمتين وقرئ[٤] بسكون الباء أي كُفَلاءَ بصحة الأمرِ وصدقِ النبي ﷺ، على أنه جمعُ قَبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورُغف وقضيب وقُضب وهو الأنسب بقوله تعالى: **﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾** [الإسراء، الآية ٩٢] أي لو لم نقتصِرْ على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كلَّ شيءٍ يتأتّى منه الكفالةُ والشهادةُ بما ذُكر لا فرادى بل بطريق المعيةِ أو

---

(١) قرأ بها: النخعي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥).

(٢) قرأ بها: النخعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٤٩)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٤).

(٣) قرأ بها: الأعمش، والنخعي، والمطوعي، ومغيرة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥).

(٤) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء، وأبو حيوة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٧٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٦٦).

جماعاتٍ على أنه جمعُ قَبيلٍ وهو جمعُ قبيلة، وهو الأوفق لعموم كلِّ شيءٍ وشمولِه للأنواع والأصنافِ أي حشرنا كلَّ شيء نوعاً نوعاً وصنفاً صنفاً وفوجاً فوجاً، وانتصابُه على الحالية وجمعيتُه باعتبار الكل المجموعيِّ اللازمِ للكل الإفراديِّ أو مقابلةً وعِياناً على أنه مصدرٌ كـ (قِبَلا)، وقد قرئ[1] كذلك، وانتصابُه على الوجهين على أنه مصدرٌ في موقع الحالِ، وقد نقل عن المبرِّد وجماعةٍ من أهل اللغة أن الأخيرَ بمعنى الجهة كما في قولك: لي قِبَلَ فلانٍ حقٌّ، وأن انتصابَه على الظرفية ﴿**ما كانوا ليؤمنوا**﴾ أي ما صح وما استقام لهم الإيمانُ لتماديهم في العصيان وغلوِّهم في التمرد والطُّغيانِ، وأما ما سبق القضاءُ عليهم بالكفر فمن الأحكامِ المترتبةِ على ذلك حسبما ينبئ عنه قولُه عز وجل: ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام، الآية ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿**إلا أن يشاء الله**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوالِ، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة، أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماعِ ما ذكر من الأمورِ الموجبةِ للإيمان في حال من الأحوال الداعيةِ إليه المتمِّمة لموجباته المذكورةِ إلا في حال مشيئتِه تعالى لإيمانهم أو من أعمّ العللِ أي ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودةِ وغيرِها إلا لمشيئته تعالى له، وأياً ما كان فليس المرادُ بالاستثناء بيانَ أن إيمانَهم على خطر الوقوعِ بناءً على كون مشيئتِه تعالى أيضاً كذلك بل بيانَ استحالةِ وقوعِه بناءً على استحالة وقوعِها كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وهيهاتَ ذلك وحالُهم حالُهم بدليل ما سبق من قوله تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم**﴾ [الأنعام، الآية ١١٠]، كيف لا وقولُه عز وجل: ﴿**ولكن أكثرهم يجهلون**﴾ استدراكٌ من مضمون الشرطيةِ بعد ورودِ الاستثناءِ لا قبله، ولا ريبَ في أن الذي يجهلونه سواءٌ أريد بهم المسلمون وهو الظاهرُ، أو المُقسِمون ليس عدمَ إيمانِهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازمُ من حمل النظمِ الكريمِ على المعنى الأولِ فإنه ليس مما يعتقده الأولون ولا مما يدّعيه الآخَرون بل إنما هو عدمُ إيمانهم لعدم مشيئتِه إيمانَهم ومرجعُه إلى جهلهم بعدم مشيئتِه إياه فالمعنى أن حالَهم كما شُرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدمَ إيمانِهم عند مجيءِ الآياتِ لجهلهم عدمَ مشيئتِه تعالى لإيمانهم

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٥٨)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٥).

فيتمنَّوْن مجيئَها طمعاً فيما لا يكون. فالجملةُ مقرِّرةٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿**وما يشعركم**﴾ [الأنعام، الآية ١٠٩] إلخ، على القراءة المشهورة، أو ولكن أكثرَ المشركين يجهلون عدمَ إيمانِهم عند مجيء الأيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمائهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكونُ، فالجملةُ على القراءة السابقةِ بيانٌ مبتدأٌ لمنشأ خطأ المقسِمين ومناطِ إقسامهم وتقريرٌ له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة ﴿**وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون**﴾.

تسلية للرسول ﷺ

﴿**وكذلك جعلنا لكل نبيٍ عدواً**﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لتسلية رسولِ الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريشٍ له عليه الصلاة والسلام وما بنَوْا عليها مما لا خير فيه من الأقاويل والأفاعيلِ ببيانِ أن ذلك ليس مختصاً بك بل هو أمرٌ ابتُليَ به كلُّ من سبَقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أشير إليه بذلك منصوبٌ بفعله المحذوفِ مؤكدٌ لما بعده وذلك إشارةٌ إلى ما يفهم مما قبله أي جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا والتقديمُ على الفعل المذكورِ للقصر المفيدِ للمبالغة أي مثلَ ذلك الجعلِ الذي جعلنا في حقك حيثُ جعلنا لك عدوًّا يُضادُّونك ويضارُّونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائلَ ويدبّرون في إبطال أمرِك مكايدَ جعلنا لكل نبيٍّ تقدمَك عدوًّا فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤُك لا جعلاً أنقصَ منه.

وفيه دليل على أن عداوةَ الكفرةِ للأنبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء.

﴿**شياطينَ الإنس والجن**﴾ أي مَرَدةَ الفريقين على أن الإضافة بمعنى مِنْ البيانية، وقيل: هي إضافةُ الصفةِ إلى الموصوف والأصلُ الإنسُ والجنُّ والشياطينُ، وقيل: هي بمعنى اللام أي الشياطين التي للإنس والتي للجن، وهو بدلٌ من عدوًّا والجعلُ متعدٍّ إلى واحد أو إلى اثنين وهو أولُ مفعوليْه قُدِّم عليه الثاني مسارعةً إلى بيان العداوةِ، واللام على التقديرين متعلقةٌ بالجعل أو بمحذوف هو حالٌ من عدوًّا.

وقوله تعالى: ﴿**يوحي بعضُهم إلى بعض**﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان أحكامِ عداوتِهم، وتحقيقُ وجهِ الشبهِ بين المشبهِ والمشبَّه به، أو حالٌ من الشياطين أو نعتٌ لـ(عدوًّا)، وجمعُ الضميرِ باعتبار المعنى فإنه عبارةٌ عن الأعداء كما في قوله: [الطويل]

إذا أنا لم أنفعْ صديقي بودّه ... فإن عدوِّي لم يضُرَّهمو بغضي[1]

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي (١٣/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، والدر المصون (٣/ ١٦٠)، واللباب (٨/ ٣٨٤).

والوحيُ عبارةٌ عن الإيماء والقول السريعِ، أي يُلقي ويوسوس شياطينُ الجنِّ إلى شياطينِ الإنسِ، أو بعضُ كلٍّ من الفريقين إلى بعض[1] آخَرَ ﴿زُخرُفَ القول﴾ أي المموَّهَ منه المزيَّنَ ظاهرُه الباطلَ باطنُه. من زَخْرفه إذا زيّنه. ﴿غروراً﴾ مفعول له ليوحي أي ليغُرّوهم، أو مصدرٌ في موقع الحال أي غارّين أو مصدرٌ مؤكد لفعل مقدرٍ هو حال من فاعل يوحي أي يغرُّون غروراً ﴿ولو شاء ربك﴾ رجوعٌ إلى بيان الشؤونِ الجاريةِ بينه ﷺ وبين قومِه المفهومةِ من حكاية ما جرى بين الأنبياءِ عليهم السلام وبين أُممِهم كما ينبئ عنه الالتفاتُ والتعرُّضُ لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ المُعرِبة عن كمال اللطفِ في التسلية أي ولو شاء ربُّك عدمَ الأمورِ المذكورةِ لا إيمانَهم كما قيل فإن القاعدةَ المستمرةَ أن مفعولَ المشيئةِ إنما يحذف عند وقوعِها شرطاً وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ وهو قوله تعالى: ﴿ما فعلوه﴾ أي ما فعلوا ما ذكر من عداوتك، وإيحاءِ بعضهم إلى بعض مزخرفاتِ الأقاويلِ الباطلةِ المتعلقةِ بأمرك خاصة لا بما يعمّه وأمورَ الأنبياءِ عليهم السلام أيضاً كما قيل فإن قوله تعالى: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ صريحٌ في أن المرادَ بهم الكفرةُ المعاصِرون له عليه الصلاة والسلام أي إذا كان ما فعلوه من أحكام عداوتِك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاترُكْهم وافتراءَهم أو ما يفترونه من أنواع المكايدِ فإن لهم في ذلك عقوباتٍ شديدةً ولك عواقبُ حميدةٌ لابتناء مشيئتِه تعالى على الحِكَم البالغة البتة.

﴿ولتصغي إليه﴾ أي إلى زُخرُفِ القولِ وهو على الوجه الأولِ علة أخرى للإيحاء معطوفةٌ على (غروراً) وما بينهما اعتراضٌ وإنما لم ينصَبْ لفقد شرطِه إذ الغرورُ فعلُ الموحي وصغْوُ الأفئدةِ فعلُ الموحىٰ إليه أي يوحي بعضُهم إلى بعض زُخْرفَ القولِ ليغرِّرَهم به ولتميل إليه ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ إنما خصَّ بالذكر عدم إيمانِهم بالآخرة دون ما عداها من الأمور التي يجب الإيمانُ بها وهم بها كافرون إشعاراً بما هو المدارُ في صغْو أفئدتِهم إلى ما يلقى إليهم، فإن لذّاتِ الآخرةِ محفوفةٌ في هذه النشأةِ بالمكاره، وآلامُها مزينةٌ بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراءَ تلك المكارهِ لذّاتٍ ودون هذه الشهواتِ آلاماً وإنما ينظُرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادئ الرأي فهم مضطرون إلى حبّ الشهواتِ التي من جملتها مزخْرَفاتُ الأقاويلِ ومُموَّهاتُ الأباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين

---

(١) زاد في خ: منهم.

على حقيقة الحالِ ناظرين إلى عواقب الأمورِ لم يُتصوَّر منهم الميلُ إلى تلك المزخرَفاتِ لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتِها.

وأما على الوجهين الأخيرين فهو علةٌ لفعل محذوف يدل عليه المقامُ أي ولكون ذلك جعلنا ما جعلنا، والمعتزلةُ جعلوا اللامَ لامَ العاقبةِ أو لام القسَم أو لامَ الأمر وضعفُه في غاية الظهور ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم ﴿وليقترفوا﴾ أي يكتسبوا بموجب ارتضائِهم له ﴿ما هم مقترفون﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرُها.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ على إرادة القولِ، والهمزةُ للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلامُ أي قل لهم: أأَمِيلُ إلى زخارف الشياطينِ فأبتغيَ حكماً غيرَ الله يحكمُ بيننا ويفصل المحِقَّ منا من المبْطِل؟ وقيل: إن مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: اجعلْ بيننا وبينك حكَماً من أحبار اليهود أو من أساقفة

النصارى ليخبرَنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[1]. وإسنادُ الابتغاءِ المنكرِ إلى نفسه ﷺ لا إلى المشركين كما في قوله تعالى: ﴿**أفغيرَ دينِ الله يبغون**﴾ [آل عمران، الآية ٨٣] مع أنهم الباغون لإظهار كمالِ النَّصَفةِ أو لمراعاة قولِهم: اجعلْ بيننا وبينك حكماً. وغيرَ إما مفعولُ أبتغي وحكَماً حالٌ منه وإما بالعكس، وأيًّا ما كان فتقديمُه على الفعل الذي هو المعطوفُ بالفاء حقيقةً كما أشير إليه للإيذان بأن مدارَ الإنكارِ هو ابتغاءُ غيرِه تعالى حكماً لا مطلقُ الابتغاء.

وقيل: حكماً تمييزٌ لما في (غيرَ) من الإبهام كقولهم: إن لنا غيرَها إبلاً. قالوا: الحكَمُ أبلغُ من الحاكمِ وأدلُّ على الرسوخ لما أنه لا يُطلق إلا على العادل وعلى مَنْ تكرَّر منه الحكمُ بخلاف الحاكم وقوله تعالى: ﴿**وهو الذي أنزل إليكم الكتاب**﴾ جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ لإنكار ابتغاءِ غيرِه تعالى حكماً، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصةً مع أن مقتضىٰ المقامِ إظهارُ تساوي نسبتِه إلى المتحاكِمين لاستمالتهم نحوَ المُنْزَل واستنزالِهم إلى قبول حكمِه بإيهام قوةِ نسبتِه إليهم، أي أغيرَه تعالى أبتغي حكَماً والحالُ أنه هو الذي أنزلَ إليكم، وأنتم أمةٌ أمِّية لا تدرون ما تأتون وما تذرون فإن القرآنَ الناطقَ بالحق والصوابِ الحقيق بأن يُخَصَّ به اسمُ الكتاب ﴿**مفصلاً**﴾ أي مبيناً فيه الحقُّ والباطلُ والحلالُ والحرام وغيرُ ذلك من الأحكام بحيث لم يبْقَ في أمور الدينِ شيءٌ من التخليط والإبهامِ فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم؟ وهذا كما ترى صريحٌ في أن القرآنَ الكريمَ كافٍ في أمر الدينِ مغنٍ عن غيره ببيانه وتفصيلِه وأما أن يكون لإعجازه دخْلٌ في ذلك كما قيل فلا.

وقوله تعالى: ﴿**والذين آتيناهم الكتابَ يعلمون أنه منزَّلٌ من ربك بالحق**﴾ كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت القولِ المقدَّر مَسوقٌ من جهته سبحانه لتحقيق حقِّيةِ الكتابِ الذي نيط به أمرُ الحَكَمية وتقريرِ كونِه منزلاً من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثِقوا بهم ورضوا بحَكَميّتهم حسبما نُقل آنفاً من علماء اليهودِ والنصارى عالمون بحقيته ونزولِه من عنده تعالى، وفي التعبير عن التوراة والإنجيلِ باسم الكتابِ إيماءٌ إلى ما بينهما وبين القرآنِ من المجانسة المقتضيةِ للاشتراك في الحقية والنزولِ من عنده تعالى مع ما فيه من الإيجاز، وإيرادُ الطائفتين بعنوان إيتاءِ الكتابِ للإيذان بأنهم علِموه من جهة كتابِهم حيث وجدوه حسبما نُعت فيه وعاينوه موافِقاً له في الأصول وما لا يُختلف من الفروع ومُخبِراً عن أمور لا طريقَ إلى معرفتها سوى الوحي.

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون (٢/ ١٦٠).

والمرادُ بالموصول إما علماءُ الفريقين وهو الظاهرُ فالإيتاءُ هو التفهيمُ بالفعل وإما الكلُّ وهم داخلون فيه دخولاً أولياً فهو أعمُّ مما ذكر من التفهيم بالقوة، ولا ريب في أن الكل متمكنون من ذلك، وقيل: المرادُ مؤمنو أهلِ الكتاب، وقرئ[1] (مُنْزلٌ) من الإنزال، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والباءُ في قوله تعالى بالحق متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستكنّ في مُنزّلٌ أي ملتبساً بالحق.

﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أي في أنهم يعلمون ذلك لما لا تشاهِد منهم آثارَ العلم وأحكام المعرفة، فالفاء لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآنِ أو في أنه منزلٌ من ربك بالحق فيكونُ من باب التهييجِ والإلهابِ كقوله تعالى: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ [الأنعام، الآية ١٤] وقيل: الخطابُ في الحقيقة للأمة وإن كان له ﷺ صورةً، وقيل: الخطابُ لكل أحدٍ على معنى أن الأدلةَ قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغي لأحد أن يمتريَ فيه، والفاءُ على هذه الوجوهِ لترتيب النهي على نفس علمِهم بحال القرآن.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ شروعٌ في بيان كمالِ الكتابِ المذكورِ من حيث ذاتُه إثرَ بيانِ كمالِه من حيث إضافتُه إليه تعالى بكونه منزلاً منه بالحق، وتحقيقُ ذلك بعلم أهلِ الكتاب به، وإنما عبر عنه بالكلمة لأنها الأصلُ في الاتصاف بالصدق والعدلِ وبها تظهر الآثارُ من الحكم، وقرئ[2] (كلماتُ ربك) ﴿صدقاً وعدلاً﴾ مصدران نصبا على الحال وقيل: على التمييز وقيل: على العلة وقوله تعالى: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ إما استئنافٌ مبينٌ لفضلها على غيرها إثرَ بيانِ فضلِها في نفسها، وإما حالٌ أخرى من فاعل تمت على أن الظاهرَ مغنٍ عن الضمير الرابطِ، والمعنى أنها بلغت الغايةَ القاصيةَ صدقاً في الإخبار والمواعيدِ وعدلاً في الأقضية والأحكامِ لا أحدَ يبدل شيئاً

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٦٤)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٤)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٥٣)، وتفسير الرازي (٤/ ١٣٢).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٦٧)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧١)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٥٣)، وتفسير الرازي (٤/ ١٣٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

من ذلك بما هو أصدقُ وأعدلُ ولا بما هو مثلُه فكيف يُتصوّر ابتغاءُ حكمِ غيرِه تعالى ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿العليم﴾ بكل ما يمكن أن يُعلمَ فيدخُلُ في ذلك أقوالُ المتحاكمين وأحوالُهم الظاهرةُ والباطنةُ دخولاً أولياً، هذا وقد قيل: المعنى لا أحدَ يقدِر على أن يحرِّفها كما فُعل بالتوراة، فيكونُ ضماناً لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر، الآية ٩] أو لا نبيَّ ولا كتابَ بعدها ينسخها.

﴿وإن تطع أكثرَ من في الأرض﴾ لما تحقق اختصاصُه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من إنزال الكتابِ الكاملِ الفاصلِ بين الحقِّ والباطلِ وتمامِ صدقِ كلامِه وكمالِ عدالةِ أحكامِه وامتناعِ وجودِ من يبدل شيئاً منها واستبدادِه تعالى بالإحاطة التامةِ بجميع المسموعات والمعلومات، عقّب ذلك ببيان أن الكفرةَ متصفون بنقائض تلك الكمالاتِ من النَّقائص التي هي الضلالُ والإضلالُ واتباعُ الظنونِ الفاسدةِ الناشئُ من الجهل والكذبِ على الله سبحانه وتعالى إبانةً لكمال مباينةِ حالِهم لما يرومونه وتحذيراً عن الرّكون إليهم والعملِ بآرائهم، والمرادُ بمن في الأرض الناسُ وبأكثرهم الكفارُ، وقيل: أهلُ مكةَ والأرضُ أرضُها أي إن تُطِعهم بأن جعلتَ منهم حكَماً ﴿يضلوك عن سبيل الله﴾ عن الطريق الموصلِ إليه أو عن الشريعة التي شرعها لعباده ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ وهو ظنُّهم أن آباءَهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتُهم وآراؤهم الباطلةُ على أن المرادَ بالظن ما يقابل العلم، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الشرطية كأنه قيل: كيف يضلون؟ فقيل: لا يتبعون في أمور دينِهم إلا الظنَّ وإنّ الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً فيضلون ضلالاً مبيناً، ولا ريبَ في أن الضالَّ المتصدّيَ للإرشاد إنما يُرشد غيرَه إلى مسلك نفسِه فهم ضالون مضِلّون وقوله تعالى: ﴿وإن هم إلا يخرُصون﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه أي يكذِبون على الله سبحانه فيما ينسُبون إليه تعالى كاتخاذ الولدِ وجعلِ عبادةِ الأوثانِ ذريعةً إليه تعالى وتحليلِ الميتةِ وتحريمِ البحائرِ ونظائرِها، أو يقدّرون أنهم على شيء وأنّى لهم ذلك ودونه مناطُ العَيُّوقِ[1] وحقيقتُه ما يقال عن ظن وتخمين ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ تقريرٌ لمضمون الشرطيةِ وما بعدها وتأكيدٌ لما يفيده من التحذير، أي هو أعلمُ بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين، و(من) موصولةٌ أو موصوفةٌ في محل النصبِ لا بنفس أعلمُ فإن أفعلَ التفضيلِ لا

---

(١) العيُّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه. والمراد أن ذلك بعيدٌ عنهم بُعد العيُّوق والثريا.

ينصِبُ الظاهرَ في مثل هذه الصور بل بفعل دلَّ هو عليه، أو استفهاميةٌ مرفوعة بالابتداء والخبرُ يَضِلّ والجملةُ معلقٌ عنها الفعلُ المقدر، وقرئ(١) (يُضِل) بضم الياء على أن (من) فاعلٌ لـ (يُضِل) ومفعولُه محذوفٌ ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أي هو أعلم يعلم من يُضِل الناسَ فيكون تأكيداً للتحذير عن طاعة الكفرةِ.

وإما أن الفاعلَ هو الله تعالى ومَنْ منصوبةٌ بما ذكر أي يعلم مَنْ يُضِلّه أو مجرورةٌ بإضافة أعلمُ إليها أي أعلمُ المُضِلّين من قوله تعالى: **﴿مَن يضللِ الله﴾** [النساء، الآية ٨٨] أو من قولك: أضللتُه إذا وجدتُه ضالاً فلا يساعده السباقُ والسياقُ والتفضيلُ في العلم بكثرته وإحاطتِه بالوجوه التي يمكن تعلّقُ العلمِ بها ولزومُه وكونُه بالذات لا بالغير.

وجوب عدم اتباع المضلين في تحريم الحلال

﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ أمرٌ مترتبٌ على النهي عن اتباع المُضلّين الذين من جملة إضلالِهم تحليلُ الحرام وتحريمُ الحلالِ، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تعبدون الله فما قتله الله أحقُّ أن تأكُلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين: كلوا ممّا ذُكر اسمُه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسمُ غيرِه فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتفَ أنفِه **﴿إن كنتم بآياته﴾** التي من جملتها الآياتُ الواردةُ في هذا الشأن **﴿مؤمنين﴾** فإن الإيمانَ بها يقتضي استباحةَ ما أحله الله والاجتناب عما حرمه، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه.

﴿وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه﴾ إنكارٌ لأن يكون لهم شيءٌ يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذُكر عليه اسمُ الله تعالى من البحائر والسوائبِ ونحوِها وقوله تعالى: **﴿وقد فصّل لكم﴾** إلخ، جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ للإنكار كما في قوله تعالى: **﴿وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبنائِنا﴾** [البقرة، الآية ٢٤٦] أي وأيُّ سببٍ حاصلٍ لكم في ألا تأكُلوا مما ذكر اسمُ الله عليه، أو وأيُّ غرضٍ يحمِلُكم على ألا تأكلوا ويمنعُكم من أكله والحالُ أنه قد فصل لكم **﴿ما حَرَّم عليكم﴾** بقوله تعالى: **﴿قل لا أجدُ فيما أوحِيَ إليَّ محرَّماً﴾** [الأنعام، الآية ١٤٥] إلخ، فبقي ما عدا ذلك على الحِلّ لا بقوله تعالى: **﴿حُرِّمت عليكمُ الميتةُ﴾** [المائدة، الآية ٣] إلخ، لأنها مدنية، وأما التأخرُ في التلاوة فلا يوجبُ التأخّرَ في النزول،

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأحمد بن أبي شريح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٢٨).

وقرئ[1] الفعلان على البناء للمفعول وقرئ الأول على البناء للفاعل والثاني للمفعول.

﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرّم فإنه أيضاً حلالٌ حينئذ ﴿وإن كثيراً﴾ أي من الكفار ﴿ليضلون﴾ الناسَ بتحريم الحلالِ وتحليلِ الحرام كعمرو بنِ لُحَيّ وأضرابِه وقرئ[2] (يَضِلّون) ﴿بأهوائهم﴾ الزائغةِ وشهواتِهم الباطلة ﴿بغير علم﴾ مقتبسٍ من الشريعة الشريفة مستندٍ إلى الوحي ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ المتجاوزين لحدود الحقِّ إلى الباطل والحلالِ إلى الحرام.

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ أي ما يُعلن من الذنوب وما يُسَرّ أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب، وقيل: الزِّنَىٰ في الحوانيت واتخاذُ الأخدان ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ أي يكتسبونه من الظاهر والباطن ﴿سيُجزون بما كانوا يقترفون﴾ كائناً ما كان فلا بد من اجتنابهما، والجملةُ تعليلٌ للأمر.

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسمُ الله عليه﴾ ظاهرٌ في تحريم متروكِ التسميةِ عمْداً كان أو نسياناً، وإليه ذهب داودُ[3]، وعن أحمدَ بنِ حنبل مثلُه، وقال مالك والشافعي

---

(١) «فُصل» قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥١)، والبحر المحيط (٤/ ٢١١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٧٣)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٧٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٦٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٤).
و «حُرم» قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٧).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢١١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٧٣)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٧١)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٧).

(٣) تنوعت مذاهب الفقهاء فيما إذا وقع النسيان من المكلف مع عدم وجود المذكر، وانتفاء الداعي إلى الفعل فأدى ذلك إلى ترك التسمية عند الذبح على خمسة مذاهب هي:
المذهب الأول: إن ترك المذكي التسمية سهواً حلت الذبيحة، وإن تركها عامداً لم تؤكل.
وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وأصحابه والإمام مالك وأحمد.
المذهب الثاني: إن ترك المذكي التسمية عامداً أو ناسياً تؤكل ذبيحته.
وإلى هذا ذهب الشافعي ومن قبله ابن عباس ومن التابعين عطاء وسعيد بن المسيب.
المذهب الثالث: إن ترك المذكي التسمية عمداً أو سهواً حرُم أكلها.
=

بخلافه لقوله عليه السلام: «**ذبيحةُ المسلم حلالٌ وإن لم يذكر اسمَ الله عليها**»[١] وفرق أبو حنيفة بين العمْد والنسيانِ وأوّله بالميتة أو بما ذكر عليه اسمُ غيرِه تعالى لقوله: **﴿وإنه لفسق﴾** فإن الفسقَ ما أُهل به لغير الله والضميرُ لما، ويجوز أن يكون للأكل المدلولِ عليه بـ (لا تأكلوا)، والجملةُ مستأنفةٌ.

وقيل: حالية **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾** المرادُ بالشياطين إبليسُ وجنودُه فإيحاؤهم وسوستُهم إلى المشركين، وقيل: مَرَدةُ المجوسِ فإيحاؤهم إلى أوليائهم ما أَنْهَوا إلى قريشٍ بالكتاب أن محمداً وأصحابَه يزعُمون أنهم يتبعون أمرَ الله ثم يزعُمون أن ما يقتلونه حلالٌ وما يقتله الله حرام **﴿ليجادلوكم﴾** أي بالوساوس الشيطانيةِ أو بما نقل من أباطيلِ المجوسِ وهو يؤيد التأويلَ بالميتة **﴿وإن أطعتموهم﴾** في استحلالِ الحرامِ وساعدتموهم على أباطيلهم **﴿إنكم لمشركون﴾** ضرورةَ أن من ترك طاعةَ الله إلى طاعة غيرِه واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى، بل آثرَه عليه سبحانه.

﴿أوَ مَنْ كان ميتاً﴾ وقرئ[٢] (ميّتاً) على الأصل **﴿فأحييناه﴾** تمثيلٌ مَسوقٌ لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين[٣] إثرَ تحذيرِهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون

= وإلى هذا ذهب ابن عمر من الصحابة، ومن التابعين ابن زيد والشعبي وقالوا: إن هيئة الذبح مذكرة له.
المذهب الرابع: إن ترك المذكي التسمية عامداً يكره أكلها.
وإلى هذا ذهب القاضي أبو الحسن، وأبو بكر من علماء الحنابلة.
المذهب الخامس: إن ترك المذكي التسمية عامداً تؤكل ذبيحته إلا إذا كان مستخفًّا فإنها لا تؤكل.
وإلى هذا ذهب أشهب من المالكية.
ينظر: المبسوط (١١/ ٢٢٦)، وبدائع الصنائع (٥/ ٤٦)، وتبيين الحقائق (٥/ ٢٨٨)، ومجمع الأنهر (٢/ ٥٠٨)، والمغني لابن قدامة (٣/ ٣٤٣)، والشرح الكبير (٢/ ١٠١)، ومغني المحتاج (٤/ ٢٧٦).

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل ص (٢٧٨) برقم (٣٧٨).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٧٩)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٨).

(٣) نعم وفيه استعارة يطلق عليها البيانيون اسم الاستعارة الوفاقية، وهي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد، فقد استعار الإحياء من معناه الحقيقي وهو جعل الشيء حيًّا للهداية التي هي الدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب والإحياء والهداية مما يمكن اجتماعهما في شيء واحد، وضدها الاستعارة المعتادة، وهي ما لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد.
ينظر: مواهب الفتاح (٤/ ٧٦، ٧٧)، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٤).

بأنوار الوحي الإلٰهيِّ والمشركون خابطون في ظلمات الكفرِ والطغيانِ فكيف يُعقل إطاعتُهم لهم؟ والهمزةُ للإنكار والنفي، والواوُ لعطف الجملةِ الاسميةِ على مثلها الذي يدل عليه الكلامُ، أي أأنتم مثلُهم ومَنْ كان ميتاً فأعطيناه الحياةَ وما يتبعُها من القوى المُدْرِكة والمحرِّكة؟ ﴿**وجعلنا له**﴾ مع ذلك من الخارج ﴿**نوراً**﴾ عظيماً ﴿**يمشي به**﴾ أي بسببه، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل: فماذا يصنع بذلك النورِ؟ فقيل: يمشي به.

﴿**في الناس**﴾ أي فيما بينهم آمِناً من جهتهم أو صفةٌ له ﴿**كمن مثله**﴾ أي صفتُه العجيبةُ وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**في الظلمات**﴾ خبرُه على أن المرادَ بهما اللفظُ لا المعنى كما في قولك: زيدٌ صفتُه اسمرُ، وهذه الجملةُ صلةٌ لمن وهي مجرورةٌ بالكاف وهي مع مجرورها خبرٌ لـ (من) الأولى.

وقوله تعالى: ﴿**ليس بخارج منها**﴾ حالٌ من المستكن في الظرف وقيل: من الموصول أي غيرُ خارجٍ منها بحال، وهذا كما ترى مثلٌ أريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلاً كما أن الأولَ مَثَلٌ أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الإسلامِ وهداه بالآيات البينةِ إلى طريق الحقِّ يسلُكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كلِ واحدٍ من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردةِ في المثَلين بواسطة تشبيهِهِ بما يناسبه من معانيها، فإن ألفاظَ المثَلِ باقيةٌ في معانيها الأصلية، بل على أنه قد انتُزعت من الأمور المتعددةِ المعتبرةِ في كل واحدٍ من جانبي المَثَلين هيئةٌ على حِدَة فشُبِّهت بهما الأُوليان ونُزّلتا منزلتيهما فاستُعمل فيهما ما يدل على الأُخْريين بضرب من التجوّز.

وقد أشير في تفسير قوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ [البقرة، الآية ٧] إلى أن التمثيلَ قسمٌ برأسه لا سبيل إلى جعله من باب الاستعارةِ حقيقةً وأن الاستعارةَ التمثيليةَ من عبارات المتأخرين. نعم قد يجري ذلك على سنن الاستعارةِ بألا يُذكرَ المشبّه كهذين التمثيلين ونظائرِهما وقد يجري على منهاج التشبيه كما في قوله: [الطويل]

وما الناسُ إلا كالديار وأهلُها ... بها يوم حلُّوها وغدوا بلاقعُ[1]

---

(١) البيت للبيد في ديوانه ص(١٦٩)، وأمالي المرتضى (١/ ٤٥٣)، وشرح المفصل (٦/ ٤)، والشعر والشعراء (١/ ٢٨٤)، ولسان العرب (غدا)، ولذي الرمة في ملحق ديوانه ص(١٨٨٧)، وللبيد أو لذي الرمة في تاج العروس (غدا)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٧/ ٤٧٩)، والكتاب (٣/ ٣٥٨)، والمنصف (١/ ٦٤)، (٢/ ١٩٤).

﴿**كذلك**﴾ أي مثلَ ذلك التزيينِ البليغ ﴿**زين**﴾ أي من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند إيحاءِ الشياطينِ أو من جهة الشياطينِ بطريقة الزخرفةِ والتسويلِ ﴿**للكافرين**﴾ التابعين للوساوس الشيطانيةِ الآخذين بالمُزْخْرَفات التي يوحونها إليهم ﴿**ما كانوا يعملون**﴾ ما استمرّوا على عمله من فنون الكفرِ والمعاصي التي من جملتها ما حُكيَ عنهم من القبائح فإنها لو لم تكن مُزينةً لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحقَّ، وقيل: الآية نزلت في حمزةَ رضي الله عنه، وأبي جهلٍ وقيل: في عمرَ أو عمارٍ رضي الله عنهما وأبي جهل.

﴿**وكذلك**﴾ قيل: معناه كما جعلنا في مكةَ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها ﴿**جعلنا في كل قرية**﴾ من سائر القرى ﴿**أكابر مجرميها ليمكروا فيها**﴾ ومفعولا جعلنا أكابرَ مجرميها على تقديم المفعولِ الثاني والظرفُ لغو أو هما الظرفُ وأكابرَ على أن مجرميها بدلٌ أو مضافٌ إليه فإن أفعل التفضيل إذا أُضيف جاز الإفرادُ والمطابقةُ ولذلك قرئ(١) (أكبرَ مجرميها).

وقيل: أكابرَ مجرميها مفعولُه الأولُ والثاني ليمكروا فيها، ولا يخفى أن أيَّ معنى يراد من هذه المعاني لا بد أن يكون مشهورَ التحققِ عند الناسِ معهوداً فيما بينهم حتى يصلُحَ أن تُصرَفَ الإشارةُ عن سباق النظم الكريم وتوجَّهَ إليه ويُجعلَ مقياساً لنظائره بإخراجه مُخرجَ المصدرِ التشبيهيِّ وظاهرٌ أنْ ليسَ الأمرُ كذلك ولا سبيلَ إلى توجيهها إلى ما يفهم من قوله تعالى: ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ [الأنعام، الآية ١٢٢] وإن كان المرادُ بهم أكابرَ مكةَ لأن مآلَ المعنىٰ حينئذ بعد اللتيا والتي كما جعلنا أعمالَ أهلِ مكةَ مزينةً لهم جعلنا في كل قرية أكابرَ مجرميها إلخ، فإذن الأقربُ أن ذلك إشارةٌ إلى الكفَرة المعهودين باعتبار اتصافِهم بصفاتهم، والإفرادُ بتأويل الفريقِ أو المذكور، ومحلُّ الكافِ النصبُ على أن المفعولُ الثاني لـ (جعلنا) قدم عليه لإفادة التخصيصِ كما في قوله تعالى: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ [النساء، الآية ٩٤]، والأولُ (أكابرَ مجرميها)، والظرف لغو أي ومثلَ أولئك الكفرةِ الذين هم صناديدُ مكةَ ومجرموها جعلنا في كل قريةٍ أكابرَها المجرمين أي جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزيَّناً لهم أعمالُهم مُصِرّين على الباطل مجادلين به الحقَّ ليمكروا فيها أي ليفعلوا المكرَ فيها، وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ.

---

(١) قرأ بها: ابن مسلم.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢١٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨).

وقوله تعالى: ﴿**وما يَمْكُرُونَ إلا بأنفسهم**﴾ اعتراضٌ على سبيل الوعدِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيدِ للكفرة أي وما تحيقُ غائلةُ مكرِهم إلا بهم ﴿**وما يشعرون**﴾ حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورودِ الاستئناءِ على النفي أي إنما يمكرون بأنفسهم والحالُ أنهم ما يشعُرون بذلك أصلاً بل يزعُمون أنهم يمكرون بغيرهم.

عَوْدٌ إلى حال كفار مكة

وقوله تعالى: ﴿**وإذا جاءتهم آية**﴾ رجوعٌ إلى بيان حالِ مجرمي أهلِ مكةَ بعد ما بُيِّن بطريق التسليةِ أن حالَ غيرِهم أيضاً كذلك وأن عاقبةَ مكرِ الكلِّ ما ذُكر، فإن العظيمةَ المنقولةَ إنما صدَرت عنهم لا عن سائر المجرمين، أي إذا جاءتهم آيةٌ بواسطة الرسولِ عليه الصلاة والسلام ﴿**قالوا لن نؤمن حتى تؤتى مثلَ ما أوتي رسلُ الله**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: حتى يوحيَ إلينا ويأتينا جبريلُ عليه السلام فيخبرَنا أن محمداً صادق كما قالوا: ﴿**أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلا**﴾ [الإسراء، الآية ٩٢] وعن الحسن البصْري مثلُه.

وهذا كما ترى صريحٌ في أن ما عُلّق بإيتاء ما أوتيَ الرسلُ عليهم الصلاة والسلام هو إيمانُهم برسول الله ﷺ وبما أنزل إليه إيماناً حقيقياً كما هو المتبادَرُ منه عند الإطلاقِ خلا أنه يستدعي أن يُحملِ ما أوتيَ رسلُ الله على مطلق الوحي ومخاطبةِ جبريلَ عليه السلام في الجملة وأن تُصرفَ الرسالةُ في قوله تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ عن ظاهرها، وتُحملَ على رسالة جبريلَ عليه السلام بالوجه المذكور، ويُرادَ بجعلها تبليغُها إلى المرسَل إليه لا وضعُها في موضعها الذي هو الرسول ليتأتّى كونُه جواباً عن اقتراحهم ورداً له بأن يكونَ معنى الاقتراحِ: لن نؤمنَ بكون تلك الآيةِ نازلةً من عند الله تعالى إلى الرسول حتى يأتيَنا[1] بالذات عِياناً كما يأتي الرسولُ فيخبرنا بذلك، ومعنى الردّ: الله[2] أعلم مَنْ يليقُ بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه لأمر من الأمور إيذاناً بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريفِ، وفيه من التمحُّل ما لا يخفى. وقال مقاتلٌ: نزلت في أبي جهلٍ حين قال: زاحَمْنا بني عبدِ منافٍ في الشرف حتى إذا صِرْنا كفرَسَيْ رهانٍ قالوا: منا نبيٌّ يوحىٰ إليه، والله لا نرضىٰ به ولا نتّبعه أبداً حتى يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه[3].

---

(١) زاد في خ: جبريل. (٢) في خ: والله.

(٣) ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره (١/ ٣٦٨).

وقال الضحاك: سأل كلٌّ واحد من القوم أن يُخَصّ بالرسالة والوحي كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بل يريد كلُّ امرئ منهم أن يُؤْتىٰ صُحُفاً مُنشّرة﴾ [الإسراء، الآية ٩٢] ولا يخفى أن كلَّ واحد من هذين القولين وإن كان مناسباً للرد المذكورِ لكنه يقتضي أن يراد بالإيمان المُعلَّقِ بإيتاء ما أوتيَ الرسلُ مجردُ تصديقِهم برسالته عليه الصلاة والسلام في الجملة من غير شمولٍ لكافة الناس وأن تكون كلمةُ (حتى) في قول اللعينِ حتى يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه . . . إلخ، غايةً لعدم الرضا لا لعدم الاتباعِ فإنه مقررٌ على تقديرَيْ إيتاءِ[1] الوحي وعدمِه.

فالمعنى لن نؤمنَ برسالته أصلاً حتى نُؤتىٰ نحن من الوحي والنبوة مثلَ ما أوتي رسلُ الله، أو إيتاءِ مثل إيتاء رسلِ الله، وأما ما قيل من أن الوليدَ بنَ المغيرةِ قال لرسول الله ﷺ: لو كانت النبوةُ حقاً لكنتُ أولى بها منك لأني أكبرُ منك سناً وأكثرُ منك مالاً وولداً، فنزلت[2] فلا تعلُّقَ له بكلامهم المردودِ إلا أن يرادَ بالإيمان المعلَّقِ بما ذكر مجردُ الإيمانِ بكون الآيةِ النازلةِ وحياً صادقاً لا الإيمانِ بكونها نازلةً إليه عليه الصلاة والسلام.

فيكون المعنى وإذا جاءتهم آيةٌ نازلةٌ إلى الرسول قالوا: لن نؤمنَ بنزولها من عند الله حتى يكونَ نزولُها إلينا لا إليه، لأنا نحن المستحقون دونه، فإن مُلخَّصَ معنى قولِه: لو كانت النبوةُ حقاً الخ: لو كان ما تدّعيه من النبوة حقاً لكنتُ أنا النبيَّ لا أنت، وإذا لم يكن الأمرُ كذلك فليست بحق وما له تعليقُ الإيمانِ بحقية النبوةِ بكون نفسِه نبياً.

و(مثلَ ما أُوتيَ) نُصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ، وما مصدريةٌ أي حتى نؤتاها إيتاءً مثلَ إيتاءِ رسلِ الله وإضافةُ الإيتاءِ إليهم لأنهم منكِرون لإيتائه عليه الصلاة والسلام، و(حيث) نُصب على المفعولية توسعاً لا بنفس (أعلمُ) لما عرفتَ من أنه لا يعمل في الظاهر بل بفعل دلَّ هو عليه أي هو أعلمُ يعلم الموضِعَ الذي يضعها فيه والمعنى أن منصِبَ الرسالةِ ليس مما ينال بكثرة المالِ والولدِ وتعاضُدِ الأسبابِ والعدد، وإنما يُنال بفضائلَ نفسانيةٍ يخُصّها الله تعالى بمن يشاء من خُلّص عبادِه، وقرئ[3] رسالاتِه.

(١) في خ: إتيان.
(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ١٨٧).
(٣) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم.

﴿**سيصيب الذين أجرموا**﴾ استئنافٌ آخرُ ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشرِّ بعد ما نعىٰ عليهم جِرمانَهم مما أمّلوه، والسين للتأكيد، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأن إصابةَ ما يصيبهم لإجرامهم المستتبِعِ لجميع الشرورِ والقبائح، أي يصيبهم البتةَ مكانَ ما تمنَّوْه وعلّقوا به أطماعَهم الفارغةَ من عزة النبوة وشرفِ الرسالة ﴿**صَغارٌ**﴾ أي ذلة وحقارة بعد كِبْرهم ﴿**عند الله**﴾ أي يوم القيامة وقيل: من عند الله ﴿**وعذاب شديد**﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿**بما كانوا يمكرون**﴾ أي بسبب مكرِهم المستمرِّ أو بمقابلته، وحيث كان هذا من معظم موادِّ إجرامِهم صُرّح بسببيته.

﴿**فمن يرد الله أن يهديه**﴾ أي يُعرِّفه طريقَ الحقِّ ويوفِّقَه للإيمان ﴿**يشرحْ صدره للإسلام**﴾ فيتسعَ له وينفتح، وهو كنايةٌ عن جعل النفس قابلةً للحق مُهيأة لحلوله فيها مصفّاةً عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال: «**نورٌ يقذِفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفتح**» فقالوا: هل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ فقال: «**نعم، الإنابةُ**[١] **إلى دار الخلود والإعراضُ عن دار الغرورِ والاستعدادُ للموت قبل نزوله**»[٢].

﴿**ومن يرد أن يضله**﴾ أي يخلُقَ فيه الضلالَ بصرف اختيارِه إليه ﴿**يجعلْ صدره ضيقاً حرجاً**﴾ بحيث ينبو[٣] عن قَبول الحقِّ فلا يكاد يدخله الإيمانُ، وقرئ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٨٤)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٦٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٩، ٤٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(١) الإنابة إلى الشيء: الرجوع إليه مرة بعد أخرى. وأناب إلى الله: تاب ورجع. والإنابة إلى دار الخلود: التطلُّع إليها والرجوع دائماً إلى ما يفضي إليها.

(٢) روي هذا الحديث مرسلاً وموصولاً:
أما المرسل:
فأخرجه الطبري (٨/ ٢٦، ٢٧) والفريابي وعبد بن حميد في «تفسيرهما» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤) عن أبي جعفر مرسلاً وأبو جعفر هو عبد الله بن سور بن عبد الله بن عون روى عن النبي ﷺ مرسلاً وكان يضع الحديث وينظر: التاريخ الكبير (٥/ ١٩٥)، والجرح والتعديل (٥/ ١٦٩).
أما الموصول:
أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) من طريق عدي بن الفضل عن عبد الرحمن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود مرفوعًا.
وسكت عنه الحاكم وتعقبه الذهبي فقال: عدي ساقط وبالجملة فالحديث لا يصح مرسلاً ولا موصولاً والله أعلم.

(٣) نبا عن الشيء: أعرض عنه ونفر.

(ضَيْقاً)[١] بالتخفيف، و(حرِجاً)[٢] بكسر الراء أي شديد الضيق والأولُ مصدرٌ وُصف به مبالغة.

﴿كأنما يصّعّد﴾ (ما) هذه مُهيِّئةٌ لدخول كأنّ على الجمل الفعلية ﴿في السماء﴾ شِبْهٌ للمبالغة في ضيق صدرِه[٣] بمن يزاول ما لا يكاد يُقدر عليه فإن صعودَ السماءِ [مثلٌ][٤] فيما هو خارجٌ عن دائرة الاستطاعة، وفيه تنبيه على أن الإيمانَ يمتنع منه كما يمتنع منه الصعودُ وقيل: معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبُوّاً عن الحق وتباعداً في الهرب منه، وأصلُ يصعّد يتصعّد وقد قرئ[٥] به وقرئ[٦] يصّاعد وأصله يتصاعد ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك الجعلِ الذي هو جعلُ الصدرِ حرِجاً على الوجه المذكور ﴿يجعل الله الرجسَ﴾ أي العذابَ أو الخِذلانَ. قال مجاهدٌ: الرجسُ ما لا خيرَ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٧٩)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٨٥)، والتيسير للداني (١٠٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٠٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨١)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٨).

(٢) قرأ بها: نافع، وعاصم، وأبو بكر، وأبو جعفر، وابن محيصن، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥١)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٨٥)، والتيسير للداني ص (١٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨١)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٨).

(٣) الآية تمثيل، ومع كونها تمثيلاً فيها استعارة بالكناية أيضًا، فقد جاءت الهداية هنا مقابلة للضلالة، والشرح كناية عن جعله قابلاً للإسلام متوسعًا لقبول تكاليفه، ونسبة ذلك إلى صدر مجاز عن ذات الشخص، ولذلك قالوا: فلان واسع الصدر إذا كان الشخص محتملاً ما يرد عليه من المشاق والتكاليف، ونسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله إسناد حقيقي؛ لأنه تعالى هو الخالق ذلك والموجد له، والمريد له، وشرح الصدر تسهيل قبول الإيمان عليه وتحسينه وإعداده لقبوله، والضيق والحرج كناية عن ضد الشرح، واستعارة لعدم قبول الإيمان، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها في الهواء.
ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٢١٧، ٢١٨).

(٤) سقط في خ.

(٥) قرأ بها: المطوعي، وابن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٨).

(٦) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والنخعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٨٥)، والتيسير للداني ص (١٠٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٨).

فيه[١]. وقال الزجاج: الرجسُ اللعنةُ في الدنيا والعذابُ في الآخرة ﴿**على الذين لا يؤمنون**﴾ أي عليهم، ووضعُ المفعولِ موضعَ المضمر للإشعار بأن جعلَه تعالى معلَّلٌ بما في حيز الصلةِ من كمال نبُوِّهم عن الإيمان وإصرارِهم على الكفر.

﴿**وهذا**﴾ أي البيانُ الذي جاء به القرآنُ أو الإسلامُ أو ما سبق من التوفيق والخذلان ﴿**صراط ربك**﴾ أي طريقُه الذي ارتضاه أو عادتُه وطريقتُه التي اقتضتها حِكمتُه، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ إيذانٌ بأن تقويمَ ذلك الصراطِ للتربية وإفاضةِ الكمال ﴿**مستقيماً**﴾ لا عِوَج فيه أو عادلاً مطّرداً، أو هو حالٌ مؤكدة كقوله تعالى: ﴿**وهو الحق مصدقاً**﴾ [البقرة، الآية ٩١] والعاملُ فيها معنى الإشارة.

﴿**قد فصلنا الآيات**﴾ بيّناها مفصلةً ﴿**لقوم يذكرون**﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها فيعلمون أن كلَّ ما يحدُث من الحوادث خيراً كان أو شراً فإنما يحدُث بقضاء الله تعالى وخلقِه وأنه تعالى عالمٌ بأحوال العبادِ حكيمٌ عادلٌ فيما يفعل بهم، وتخصيصُ القومِ المذكورين بالذكر لأنهم المنتفِعون بتفصيل الآيات ﴿**لهم دار السلام**﴾ أي للمتذكرين دارُ السلامة من كل المكاره وهي الجنة ﴿**عند ربهم**﴾ أي في ضمانه، أو ذخيرةٌ لهم عنده لا يعلم كُنهَها غيرُه تعالى ﴿**وهو وليهم**﴾ أي مولاهم وناصرُهم ﴿**بما كانوا يعملون**﴾ بسبب أعمالِهم الصالحةِ، أو متولِّيهم بجزائها يتولىٰ إيصالَه إليهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿**ويوم يحشرهم جميعاً**﴾ منصوبٌ بمضمر إما على المفعولية أو الظرفية وقرئ[٢]

---

(١) ذكره فخر الرازي في التفسير الكبير (١٣/ ١٥٨).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.

=

بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمرِ، والضميرُ المنصوبُ لمن يُحشر من الثقلين، أي واذكر يومَ يَحشُر الثقلين قائلاً: **﴿يا معشرَ الجن﴾** أو ويوم يحشرهم ويقول: يا معشرَ الجن يكونُ من الأحوال والأهوال ما لا يساعدُه الوصفُ لفظاعته، والمعشرُ الجماعةُ، والمرادُ بمعشر الجنِّ الشياطينُ **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي من إغوائهم وإضلالِهم أو منهم بأن جعلتموهم أتباعَكم فحُشِروا معكم كقولهم: استكثر الأميرُ من الجنود، وهذا بطريق التوبيخِ والتقريع **﴿وقال أولياؤهم﴾** أي الذين أطاعوهم، و(مِن) في قوله تعالى: **﴿من الإنس﴾** إما لبيان الجنسِ أي أولياؤُهم الذين هم الإنسُ أو متعلقةٌ بمحذوف هو حالٌ من أولياؤهم أي كائنين من الإنس **﴿ربنا اسْتَمْتَعَ بعضنا ببعض﴾** أي انتفع الإنسُ بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وما يُتوصَّل به إليها، وقيل: بأن ألقَوْه إليهم من الأراجيف والسِّحر والكهانة والجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادَهم بقَبول ما ألقَوْه إليهم، وقيل: استمتاعُ الإنسِ بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز والمخاوفِ واستمتاعُهم بالإنس اعترافُهم بأنهم قادرون على إجارتهم.

﴿وبلغْنا أجلَنا الذي أجَّلْت لنا﴾ وهو يومُ القيامة قالوه اعترافاً بما فعلوه من طاعة الشياطينِ واتباعِ الهوى وتكذيبِ البعث، وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم واستسلاماً لربهم، ولعل الاقتصارَ على حكاية كلامِ الضالّين للإيذان بأن المُضلِّين قد أُفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية كلامِهم كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ فقيل: قال: **﴿النارُ مثواكم﴾** أي منزِلُكم أو ذاتُ ثُوائِكم كما أن دارَ السلام مثوى المؤمنين **﴿خالدين فيها﴾** حال والعاملُ مثواكم إن جُعل مصدراً، ومعنى الإضافة إن جُعل مكاناً **﴿إلا ما شاء الله﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: استثنى الله تعالى قوماً قد سبق في علمه أنهم يُسلمون ويصدِّقون النبيَّ عليه الصلاة والسلام، وهذا مبنيٌّ على أن الاستثناءَ ليس من المحكيّ، و(ما) بمعنى مَنْ وقيل: المعنى إلا الأوقاتَ التي يُنقلون فيها من النار إلى الزمهرير، فقد رُوي أنهم يدخُلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميِّزُ[1] بعضَ أوصالِهم من بعض فيتعاوَوْن[2] ويطلُبون الردَّ إلى الجحيم.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٢٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٢٩٥)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٩).

(١) ميَّز الشيء: عزله وفرزه.

(٢) أي يتصايحون فيما بينهم. ويمكن أن يكون المراد يجتمعون على طلب شيء من قولهم: تعاون بنو فلان على فلان، اجتمعوا عليه.

وقيل: يفتح لهم وهم في النار بابٌ إلى الجنة فيُسرعون نحوه حتى إذا صاروا إليه سُدَّ عليهم الباب. وعلى التقديرين فالاستثناءُ تهكّمٌ بهم وقيل: إلا ما شاء الله قبل الدخولِ كأنه قيل: النارُ مثواكم أبداً إلا ما أمهلكم ولا يخفى بعدُه ﴿إن ربك حكيم﴾ في أفاعيله ﴿عليم﴾ بأحوال الثقلين[1] وأعمالِهم وبما يليق بها من الجزاء.

﴿وكذلك﴾ أي مثلَ ما سبق من تمكين الجنِّ من إغواء الإنسِ وإضلالِهم ﴿نولِّي بعضَ الظالمين﴾ من الإنس ﴿بعضاً﴾ آخرَ منهم أي نجعلهم بحيث يتولَّوْنهم بالإغواء والإضلالِ أو نجعل بعضَهم قرناءَ بعضٍ في العذاب كما كانوا كذلك في الدنيا عند اقترافِ ما يؤدّي إليه من القبائح ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كانوا مستمرِّين على كسبه[2] من الكفر والمعاصي.

﴿يا معشر الجن والإنس﴾ شروعٌ في حكاية ما سيكون من توبيخ المعشَرَين وتقريعِهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسِهم إثرَ حكايةِ توبيخِ معشر الجنِّ بإغواء الإنسِ وإضلالِهم وبيانِ مآلِ أمرِهم ﴿ألم يأتكم﴾ أي في الدنيا ﴿رسل﴾ أي من عند الله عز وجل لكن لا على أن يأتيَ كلُّ رسولٍ كلَّ واحدة من الأمم، بل على أن يأتي كلَّ أمة رسولٌ خاصٌّ بها، أي ألم يأتِ كلَّ أمة منكم رسولٌ معين؟ وقوله تعالى: ﴿منكم﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لرسل أي كائنةٌ من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصةً، وإنما جُعلوا منهما إما لتأكيد وجوبِ اتباعِهم والإيذانِ [بتقاربهما ذاتاً][3] واتحادِهما تكليفاً وخطاباً، كأنّهما جنسٌ واحد، ولذلك تمكن أحدُهما من إضلال الآخَر، وإما لأن المرادَ بالرسل ما يعمُّ رَسْلَ الرسلِ وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومَهم حيث نطق به قوله تعالى: **﴿وإذْ صَرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ولَّوْا إلى قومهم منذرين﴾** [الأحقاف، الآية ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ صفةٌ أخرى لرسلٌ محققةٌ لما هو المرادُ من إرسال الرسل من التبليغ والإنذارِ، وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثقلين.

﴿وينذرونكم﴾ بما في تضاعيفها من القوارع ﴿لقاء يومكم هذا﴾ يوم الحشرِ الذي قد عاينوا فيه ما أُعدَّ لهم من أفانين العقوباتِ الهائلة ﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على

---

(١) الثقلان: الإنس والجنّ.
(٢) الكسب هنا بمعنى اقتراف الشيء.
(٣) في خ: بتقارنهما زمانا.

سؤال نشأ من الكلام السابقِ كأنه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التوبيخِ الشديد؟ فقيل: قالوا: ﴿**شهدنا على أنفسنا**﴾ أي بإتيان الرسلِ وإنذارِهم وبمقابلتِهم إياهم بالكفر والتكذيب وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلّد حسبما فُصِّل في حكاية جوابِهم عن سؤال خَزَنةِ النار، حيث قالوا: ﴿**بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذّبْنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير**﴾ [الملك، الآية ٩] وقد أُجمل هٰهنا في الحكاية كما أُجمل في حكاية جوابِهم حيث قالوا: ﴿**بلى ولكن حقت كلمةُ العذابِ على الكافرين**﴾ [الزمر، الآية ٧١].

وقوله تعالى: ﴿**وغرتهم الحيوٰة الدنيا**﴾ مع ما عُطف عليه اعتراضٌ لبيان ما أداهم في الدنيا إلى ارتكابهم للقبائح التي ارتكبوها وإلجائِهم بعد ذلك في الآخرة إلى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذابِ، وذمٌّ لهم بذلك، أي واغتروا في الدنيا بالحياة الدنيئةِ واللذات الخسيسةِ الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذي بشرت به الرسلُ، واجترأوا على ارتكاب ما يجُرّهم إلى العذاب المؤبَّد الذي أنذروهم إياه ﴿**وشهدوا**﴾ في الآخرة ﴿**على أنفسهم أنهم كانوا**﴾ في الدنيا ﴿**كافرين**﴾ أي بالآيات والنذر التي أتى بها الرسلُ على التفصيل المذكور آنفاً واضطُرّوا إلى الاستسلام لأشد العذابِ كما ينبئ عنه ما حُكي عنهم بقوله تعالى: ﴿**وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقِل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك، الآية ١٠] وفيه من تحسيرهم وتحذيرِ السامعين عن مثل صنيعِهم ما لا مزيد عليه.

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجابِ العذابِ والخطابُ للرسول ﷺ بطريق التلوين، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿**أن لمّ يكن ربك مهلك القرى**﴾ بحذف اللام على أنّ (أن) مصدرية أو مخففة من أنّ وضمير الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ وقوله تعالى: ﴿**بظلم**﴾ متعلقٌ إما بمهلك أي بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالاً من القُرى أي ملتبسةً بظلم فإن ملابسةَ أهلِها للظلم ملابسةٌ للقَرية له بواسطتهم، وأمّا كونُه حالاً من ربك أو من ضميره في مُهلكَ كما قيل فيأباه أن غفلةَ أهلِها مأخوذةٌ في معنى الظلم وحقيقتِه لا محالة، فلا يحسُن تقييدُه بقوله تعالى: ﴿**وأهلها غافلون**﴾ والمعنى ذلك ثابتٌ لانتفاء كونِ ربِّك، أو لأن الشأنَ لم يكن ربُّك مُهلكَ القرى بسبب أي ظلم فعلوه من أفراد الظلمِ قبل أن يُنْهَوْا عنه ويُنَبَّهوا على بُطلانه برسول وكتابٍ وإن قضَى به بديهةُ العقولِ، ويُنذَروا عاقبةَ جناياتِهم أي لولا انتفاءُ كونِه تعالى معذباً لهم قبل إرسالِ الرسلِ وإنزالِ الكتبِ لَما أمكن التوبيخُ بما ذُكر ولَما شهِدوا على أنفسهم بالكفر واستيجابِ العذاب، ولا اعتذروا بعدم إتيانِ

الرسل كما في قوله تعالى: ﴿**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَ آياتِك من قبل أن نذِلَّ ونَخْزَى**﴾ [طه، الآية ١٣٤] وإنما عُلّل ما ذُكر بانتفاء التعذيبِ الدنيويِّ الذي هو إهلاكُ القرى قبل الإنذارِ مع أن التقريبَ في تعليله بانتفاء مطلقِ التعذيب من غير بعث الرسلِ أتمُّ على ما نطق به قوله تعالى: ﴿**وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولاً**﴾ [الإسراء، الآية ١٥] لبيان كمالِ نزاهتِه سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوي والأخروي معاً من غير إنذارٍ على أبلغ وجهٍ وآكدِه حيث اقتُصِر على نفي التعذيبِ الدنيوي عنه تعالى ليثبُتَ نفيُ التعذيبِ الأخروي عنه تعالى على الوجه البرهانيّ بطريق الأولوية، فإنه تعالى حيث لم يعذِّبهم بعذاب يسيرٍ منقطعٍ بدون إنذارٍ فلألَّا يعذِّبَهم بعذاب شديد مخلدٍ أولى وأجلى.

ولو عُلل بما ذكر من نفي التعذيبِ لانصرف بحسب المقام إلى ما فيه الكلامُ من نفي التعذيبِ الأخروي، ونفذُ التعذيب الدنيويِّ غيرُ متعرَّضٍ له لا صريحاً ولا دَلالةً ضرورةَ أن نفذَ الأعلى لا يدل على نفذ الأدنى ولأن ترتبَ التعذيبِ الدنيويِّ على الإنذار عند عدم تأثرِ المنذَرين منه معلومٌ مشاهدٌ عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيبَ الأخرويَّ أيضاً كذلك فينزجرون عن الإخلال بمواجب الإنذارِ أشدَّ انزجارٍ.

هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ النظمِ الكريم، وأما جعلُ ذلك إشارةً إلى إرسال الرسلِ عليهم السلام وإنذارِهم، وخبرُ المبتدأ محذوفٌ كما أطبق عليه الجمهورُ فبمعزل من مقتضى المقامِ، والله سبحانه أعلم.

﴿**ولكلٍّ**﴾ أي من المكلفين من الثقلين ﴿**درجاتٌ**﴾ متفاوتةٌ وطبقاتٌ متباينة ﴿**مما عملوا**﴾ من أعمالهم صالحةً كانت أو سيئةً فإن أعمالَهم درجاتٌ في أنفسها أو من جزاء أعمالِهم فإن كلَّ جزاءٍ مرتبةٌ معينةٌ لهم أو من أجل أعمالِهم ﴿**وما ربك بغافل عما يعملون**﴾ فيخفى عليه عملٌ من أعمالهم أو قدْرُ ما يستحقون بها من ثواب أو عقاب، وقرئ[1] بالتاء تغليباً للخطاب على الغَيْبة.

﴿**وربك الغني**﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أي هو المعروفُ بالغني عن كل ما سواه كائناً مَنْ كان وما كان، فيدخُل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم، وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ في

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٢٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٢)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٩).

الموضعين لا سيما في الثاني لكونه موقعَ الإضمار مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من إظهار اللطفِ به عليه السلام وتنزيهِ ساحتِه عن توهم شمولِ الوعيدِ الآتي لها أيضاً ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿**ذو الرحمة**﴾ خبرٌ آخرُ أو هو الخبرُ، والغنيُّ صفةٌ أي يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويُمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيهٌ على أن ما سلف ذكرُه من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿**إن يشأ يذهبْكم**﴾ أي ما به حاجةٌ إليكم إن يشأ يذهبْكم أيها العصاةُ، وفي تلوين الخطابِ من تشديد الوعيد ما لا يخفى ﴿**ويستخلفْ من بعدكم**﴾ أي من بعد إذهابِكم ﴿**ما يشاء**﴾ من الخلق، وإيثارُ ما على مَنْ لإظهار كمالِ الكبرياءِ وإسقاطِهم عن رتبة العقلاءِ ﴿**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾ أي من نسل قومٍ آخرين لم يكونوا على مثل صفتِكم وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، و(ما) في كما مصدريةٌ ومحلُّ الكافِ النصبُ على أنه مصدرٌ تشعيبي على غير المصدرِ فإن يستخلف في معنى ينشئ كأنه قيل: وينشئ إنشاءً كائناً كإنشائكم إلخ أو نعتٌ لمصدر الفعل المذكور أي يستخلف استخلافاً كائناً كإنشائكم . . . إلخ والشرطيةُ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة.

﴿**إنّ ما توعدون**﴾ أي الذي توعدونه من البعث وما يتفرّع عليه من الأمور الهائلةِ، وصيغةُ الاستقبال للدِلالة على الاستمرار التجددي ﴿**لآت**﴾ لواقعٌ لا محالة كقوله تعالى: ﴿**إنما توعدون لواقع**﴾ [المرسلات، الآية ٧] وإيثارُه عليه لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه بتصويره بصورة طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ حسبما يُعرب عنه قولُه تعالى: ﴿**وما أنتم بمعجزين**﴾ أي بفائتين ذلك وإن ركِبتم في الهرب متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ[1] كما أن إيثارَ صيغةِ الفاعلِ على المستقبل للإيذان بكمال قربِ الإتيان، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجاز فإن الجملة الاسميةَ كما تدل على دوامِ الثبوتِ تدل بمعونة المقام إذا دخلَ عليها حرفُ النفي على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ كما حُقق في موضعه.

﴿**قل يا قوم اعملوا على مكانتكم**﴾ إثرَ ما بيّن لهم حالَهم ومآلَهم بطريق الخطاب أُمر رسولُ الله ﷺ بطريق التلوينِ بأن يواجِهَهم بتشديد التهديد وتكريرِ الوعيد، ويظهر

---

(١) الصعب والذلول: صفتان للدابة إذا كانت صعبة الانقياد والركوب أو سهلة ذليلة. والمراد: بذلوا في الأمر كل طاقتهم.

لهم ما هو عليه من غاية النصاب في الدين ونهايةِ الوثوقِ بأمره وعدم المبالاةِ بهم أي اعملوا على غاية تمكّنِكم واستطاعتِكم، يقال: مكُن مكانةً إذا تمكّن أبلغَ التمكّن، أو على جهتكم وحالتِكم التي أنتم عليها، من قولهم: مكانٌ ومكانةٌ كمقامٌ ومقامة، وقرئ[1] (مكاناتِكم) والمعنى: اثبُتوا على كفركم ومعاداتكم ﴿إني عامل﴾ ما أُمرت به من الثبات على الإسلام والاستمرارِ على الأعمال الصالحةِ والمصابرةِ، وإيرادُ التهديد بصيغة الأمرِ مبالغةٌ في الوعيد كأن المهددَ يريد تعذيبَه مجمِعاً عليه فيحمِله بالأمر على ما يؤدي إليه، وتسجيلٌ بأن المهدِّد لا يتأتّى منه إلا الشرُّ كالذي أُمر به بحيث لا يجد إلى التفصّي عنه سبيلاً ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدارِ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، والعلمُ عرفانيٌّ و(من) إما استفهاميةٌ معلّقةٌ بفعل العلم محلُّها الرفعُ على الابتداء و(تكون) باسمها وخبرها خبرٌ لها وهي مع خبرها في محل نصبٍ لسدها مسدَّ مفعول (تعلمون) أي فسوف تعلمون أيُّنا تكون له العاقبةُ الحسنىٰ التي خلق الله تعالى هذه الدارَ لها، وإما موصولةٌ فمحلُّها النصبُ على أنها مفعولٌ لـ(تعلمون) أي فسوف تعلمون الذي له عاقبةُ الدارِ، وفيه مع الإنذار إنصافٌ في المقال وتنبيهٌ على كمال وثوقِ المنذِرِ بأمره، وقرئ[2] بالياء لأن تأنيثَ العاقبةِ غيرُ حقيقي ﴿إنه﴾ أي الشأنَ ﴿لا يفلح الظالمون﴾ وُضع الظلمُ موضِعَ الكفرِ إيذاناً بأن امتناعَ الفلاحِ يترتب على أي فردٍ كان من أفراد الظلمِ فما ظنُّك بالكفر الذي هو أعظمُ أفرادِه؟

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو بكر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٢٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٥)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٢٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٤٩، ١٥٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٩).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨١)، والبحر المحيط (٤/ ٢٢٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٥)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٠).

ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً
فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟
أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟
مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ
يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ
كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ
مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن
يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى
ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ
مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو
رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ
فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ
أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ
وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿**وجعلوا**﴾ شروعٌ في تقبيح أحوالِهم الفظيعةِ بحكاية أقوالِهم وأفعالِهم الشنيعةِ (وهم مشركو العربِ كانوا يُعيِّنون أشياءَ من حرث ونتاج لله تعالى وأشياءَ منهما لآلهتهم فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجَعوا فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلِّين بأن الله تعالى غنيٌّ وما ذاك إلا لحب آلهتِهم وإيثارِهم لها)، والجعلُ إما متعدٍّ إلى واحد فالجارّان في قوله تعالى: ﴿**لله مما ذرأ**﴾ متعلقان به، و(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿**من الحرث والأنعام**﴾ بيانٌ لـ (ما)، وفيه تنبيهٌ على فرط جهالتِهم حيث أشركوا الخالقَ في خلقه جماداً لا يقدِر على شيء ثم رجّحوه عليه بأن جعلوا الزكيَّ له، أي عيَّنوا له تعالى مما خلقه من الحرث والأنعام ﴿**نصيباً**﴾ يصرِفونه إلى الضيفان والمساكينِ، وتأخيرُه عن المجرورَيْن لما مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّمِ والتشويقِ إلى المؤخر، وإما إلى مفعولين أولُهما (مما ذرأ) على أن (مِنْ) تبعيضيةٌ، أي: جعلوا بعضَ ما خلقه (نصيبًا) له وما قيل من أن الأولَ نصيبًا والثاني لله لا يساعده سَدادُ المعنى، وحكايةُ جعلِهم له تعالى نصيبًا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضًا نصيبًا، ولم يُذْكر اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿**فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا**﴾ وقرئ[1] بضم الزاءِ، وهو لغةٌ فيه، وإنما قُيِّد به الأولُ للتنبيه على أنه في الحقيقة ليس بجعلِ الله تعالى، غيرُ مستتبعٍ لشيء من الثواب كالتطوعات التي يُبتغى بها وجهُ الله تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيهِ على أن ذلك مما اخترعوه ولم يأمرهم الله تعالى به فإن ذلك مستفادٌ من الجعل، ولذلك[2] لم يقيَّدْ به الثاني، ويجوز أن يكون ذلك تمهيدًا لما بعده على معنى أن قولَهم هذا لله مجرَّدُ زعم منهم لا يعملون بمقتضاه الذي هو اختصاصُه به تعالى فقوله تعالى: ﴿**فما كانَ لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم**﴾ بيانٌ وتفصيلٌ له أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يُصرَف إلى الوجوه التي يُصرف إليها ما عيّنوه لله تعالى من قِرى الضِيفان والتصدقِ على المساكين وما عيَّنوه لله تعالى إذا وجدوه زاكيًا يُصرف

---

(١) قرأ بها: الكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش، والسلمي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٧، ٣١٠)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٩٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

(٢) في المخطوط: وكذلك.

إلى الوجوه التي يُصرف إليها ما عيّنوه لآلهتهم من إنفاق عليها وذبحِ نسائِكَ[١] عندها والإجراءِ على سَدَنتها ونحو ذلك ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ فيما فعلوا من إيثار آلهتِهم على الله تعالى وعملهم بما لم يُشرَعْ لهم و(ما) بمعنى الذي، والتقديرُ ساء الذي يحكُمون حكمهم فيكون حكمُهم مبتدأً وما قبله الخبرُ وحُذف لدِلالة يحكُمون عليه.

﴿**وكذلك**﴾ ومثلَ ذلك التزيينِ وهو تزيينُ الشرك في قسمة القُربانِ بين الله تعالى وبين آلهتهم، أو مثلَ ذلك التزيينِ البليغِ المعهودِ من الشياطين ﴿**زين لكثير من المشركين قتلَ أولادِهم**﴾ بوأدهم ونحْرِهم لآلهتهم. كان الرجل يحلِف في الجاهلية لئن وُلد له كذا غلامًا لينحَرَنّ أحدهم كما حلف عبدُ المطلب وهو مشهور ﴿**شركاؤهم**﴾ أي أولياؤهم من الجن أو من السَّدَنة وهو فاعلُ (زَيَّن) أُخِّر عن الظرف والمفعولِ لما مر غيرَ مرةٍ، وقرئ[٢] على البناء للمفعول الذي هو القتلُ ونصبِ (الأولاد) وجرِّ (الشركاء) بإضافة القتلِ إليه مفصولًا بينهما بمفعوله وقرئ[٣] على البناء للمفعول ورفعِ (قتل) وجرِّ (أولادِهم) ورفعِ (شركاؤهم) بإضمار فعل دل عليه زُيِّن كأنه لما قيل: زُيِّن لهم قتلُ أولادِهم قيل: مَنْ زيَّنه؟ فقيل: زينَّه شركاؤُهم ﴿**ليردوهم**﴾ أي يهلكوهم بالإغواء ﴿**وليَلْبِسوا عليهم دينَهم**﴾ وليخلِطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيلَ عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللامُ للتعليل إن كان التزيينُ من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة.

﴿**ولو شاء الله**﴾ أي عدمَ فعلهم ذلك ﴿**ما فعلوه**﴾ أي ما فعل المشركون ما زُيّن لهم من القتل أو[٤] الشركاءُ من التزيين أو الإرداء واللبس، أو الفريقان جميعَ ذلك

---

(١) النسائك: جمع نسيكة، وهي الذبيحة.

(٢) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٩)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٩١)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٠، ١٥١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٢)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٣، ٤٥٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

(٣) قرأ بها: أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وأبو عبد الملك.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٠٩)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٩١)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٠، ١٥١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٧).

(٤) في المخطوط: و.

على إجراء الضميرِ مُجرى اسمِ الإشارة ﴿فذرهم وما يفترون﴾ الفاءُ فصيحة أي إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءَهم أو وما يفترونه من الإفك فإن فيما شاء الله تعالى حِكَمًا بالغة إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى.

فنون الكفر

﴿وقالوا﴾ حكايةٌ لنوعٍ آخرَ من أنواع كفرِهم ﴿هذه﴾ إشارةٌ إلى ما جعلوه لآلهتهم والتأنيثُ للخبر ﴿أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ﴾ أي حرام، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالذبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى لأن أصله المصدر، ولذلك وقع صفةً لـ (أنعامٌ وحرثٌ)، وقرئ (حُجر) بالضم[1] وبضمتين و(حَرَجٌ) أي ضيق وأصله حرج وقيل: هو مقلوب من حجر ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ يعنون خدَمَ الأوثانِ من الرجال دون النساءِ والجملةُ صفةٌ أخرى لـ (أنعامٌ وحرثٌ).

﴿بزعمهم﴾ متعلقٌ بمحذوف وهو حال من فاعل (قالوا) أي قالوه ملتبسين بزعمهم الباطلِ من غير حجة ﴿وأنعامٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿هذه أنعام﴾ إلخ، أي قالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعامٌ ﴿حُرّمت ظهورها﴾ يعنون بها البحائرَ والسوائبَ والحواميَ[2] ﴿وأنعامٌ﴾ أي وهذه أنعام كما مرَّ وقوله تعالى: ﴿لا يذكرون اسم الله عليها﴾ صفةٌ لأنعام لكنه غيرُ واقعٍ في كلامهم المحكيِّ كنظيره بل مَسوقٌ من جهته تعالى تعيينًا للموصوف وتمييزًا له عن غيره كما في قوله تعالى: ﴿وقولِهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ الله﴾ [النساء، الآية ٥٧] على أحد التفاسير، كأنه قيل: وأنعامٌ ذُبحت على الأصنام فإنها التي لا يُذكر عليها اسمُ الله وإنما يُذكر عليها اسمُ الأصنام، وقيل: لا يحجّون عليها فإن الحجَّ لا يَعْرىٰ عن ذكر الله تعالى. وقال مجاهد: كانت لهم طائفةٌ من أنعامهم لا يذكرون اسمَ الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركِبوا ولا إن حلَبوا ولا إن نُتجوا ولا إن باعوا ولا إن حمَلوا ﴿افتراء عليه﴾ نُصب على المصدر إما على أن ما قالوه

---

(١) قرأ بها: الحسن، وقتادة، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣١)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٤١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣)، والمعاني للأخفش (٢/ ٢٨٧).

(٢) سبق الكلام على الوصيلة والبحيرة والسائبة. والحامي من الإبل: الذي طال مكثه عن أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فيتركونه لا ينتفعون به ويقولون: حمي ظهره.

تقوُّلٌ على الله تعالى، وإما على تقدير عاملٍ من لفظه، أي افترَوا افتراءً والجارُّ متعلقٌ بقالوا أو بافترَوا المقدّر، أو بمحذوف هو صفةٌ له لا بافتراءً لأن المصدرَ المؤكد لا يعمل، أو على الحال من فاعل قالوا، أي مفترين أو على العلة أي للافتراء فالجارُّ متعلق به ﴿**سيجزيهم بما كانوا يفترون**﴾ أي بسببه أو بدله وفي إبهام الجزاءِ من التهويل ما لا يخفى.

﴿**وقالوا**﴾ حكايةٌ لفن آخَرَ من فنون كفرهم ﴿**ما في بطون هذه الأنعام**﴾ يعنون به أجنة البحائرِ والسوائبِ ﴿**خالصة لذكورنا**﴾ حلالٌ لهم خاصةً والتاء للنقل إلى الاسمية أو للمبالغة، أو لأن الخالصة مصدرٌ كالعافية وقع موقعَ الخالصِ مبالغةً أو بحذف المضافِ أي ذو خالصة، أو للتأنيث بناء على أن (ما) عبارةٌ عن الأجنة والتذكير في قوله تعالى: ﴿**ومحرم على أزواجنا**﴾ أي جنس أزواجِنا وهن الإناثُ باعتبار اللفظ، وفيه كما ترى حملٌ للنظم الكريم على خلاف المعهودِ الذي هو الحملُ على اللفظ أولًا وعلى المعنى ثانيًا كما في قوله تعالى: ﴿**ومنهم من يستمعُ إليك وجعلنا على قلوبهم**﴾ [الأنعام، الآية ٢٥] إلخ ونظائرِه، وإما العكسُ فقد قالوا إنه لا نظيرَ له في القرآن، وهذا الحكمُ منهم إن وُلد ذلك حيًا وهو الظاهر المعتادُ ﴿**وإن يكن ميتة**﴾ أي إن ولدت ميتة ﴿**فهم**﴾ أي الذكورُ والإناث ﴿**فيه**﴾ أي فيما في بطون الأنعام، وقيل: المرادُ بالميتة ما يعُمّ الذكرَ والأنثى فغلب الأولُ على الثاني ﴿**شركاء**﴾ يأكلون منه جميعًا.

وقرئ[١] (خالصةً) بالنصب على أنه مصدرٌ مؤكد، والخبرُ لذكورنا، أو حالٌ من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في (ذكورنا) ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنويِّ ولا على صاحبه المجرورِ.

وقرئ[٢] (خالصُهُ) بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من (ما) أو مبتدأٌ ثانٍ.

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، والأعرج، وقتادة، وابن جبير.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٩٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٢).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، وابن يعمر، وأبو حيوة، والزهري، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٩٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٥١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٢).

﴿سيجزيهم وصفَهم﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله تعالى في أمر التحليلِ والتحريمِ من قوله تعالى: ﴿وتصف ألسنتهم الكذبَ﴾ [النحل، الآية ٦٢] ﴿إنه حكيم عليم﴾ تعليلٌ للوعيد بالجزاء، فإن الحكيمَ العليمَ بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءَهم الذي هو من مقتضَيات الحكمة.

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادَهم﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ وقرئ[1] بالتشديد وهم ربيعةُ ومضرُ وأضرابُهم من العرب الذين كانوا يئِدون بناتِهم مخافةَ السبْي والفقر أي خسِروا دينَهم ودنياهم ﴿سفهًا بغير علم﴾ متعلقٌ بقتلوا على أنه علة له أي لخِفة عقلهم وجهلِهم بأن الله هو الرزاقُ لهم ولأولادهم، أو نُصب على الحال ويؤيده أنه قرئ[2] (سفهاءَ)، أو مصدر ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿افتراء على الله﴾ نُصب على أحد الوجوه المذكورة، وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمارِ لإظهار كمالِ عُتوِّهم وطغيانهم ﴿قد ضلوا﴾ عن الطريق المستقيم ﴿وما كانوا مهتدين﴾ إليه وإن هُدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الأصل لسوء سيرتِهم فالجملةُ حينئذ اعتراضٌ، وعلى الأول عطف على (ضلوا).

أحوال الأنعام

﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشات﴾ تمهيد لما سيأتي من تفصيل أحوال الأنعامِ أي هو الذي أنشأهن من غير شركة لأحد في ذلك بوجه من الوجوه والمعروشاتُ من الكروم المرفوعاتُ على ما يحملها ﴿وغيرَ معروشات﴾ وهن المُلْقَياتُ على وجه الأرض وقيل: المعروشاتُ ما غرسه الناسُ وعرّشوه وغيرُ المعروشات ما نبت في البوادي والجبال ﴿والنخل والزرع﴾ عطفٌ على جناتٍ أي أنشأهما ﴿مختلفًا أكلُه﴾ وقرئ أُكْله بسكون الكاف أي ثمرُه الذي يُؤكل في الهيئة والكيفية، والضميرُ إما للنخل والزرعُ داخلٌ في حكمه، أو للزرع والباقي مَقيسٌ عليه، أو للجميع على تقدير كلِّ ذلك أو كلِّ واحد منهما ومختلفًا حالٌ مقدرة إذ ليس كذلك وقت الإنشاء ﴿والزيتون والرمان﴾ أي أنشأهما.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، والحسن، والسلمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣١٦)، والتيسير للداني ص (٩٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧١).

(٢) قرأ بها: اليماني.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٣٤).

وقوله تعالى: ﴿**متشابهًا وغير متشابه**﴾ نُصب على الحالية أي يتشابه بعضُ أفرادِهما في اللون والهيئةِ أو الطعم ولا يتشابه بعضها ﴿**كلوا من ثمره**﴾ أي من ثمر كل واحدٍ من ذلك ﴿**إذا أثمر**﴾ وإن لم يدرك ولم يينع بعد وقيل: فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى ﴿**وآتوا حقه يوم حصادِه**﴾ أريد به ما كان يُتصدَّق به يوم الحصاد بطريق الواجب من غير تعيين المقدارِ لا الزكاةُ المقدرةُ فإنها فُرِضت بالمدينة والسورةُ مكية وقيل: الزكاةُ والآيةُ مدنيةٌ والأمر بإيتائها يوم الحصادِ لِيُهتمَّ به حينئذ حتى لا يؤخَّر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوبَ بالإدراك لا بالتصفية، وقرئ[1] (يومَ حِصاده) بكسر الحاء وهو لغةٌ فيه ﴿**ولا تسرفوا**﴾ أي في التصدق كما رُوي عن ثابت بن قيس أنه صرَم[2] خمسَمائة نخلةٍ ففرَّق ثمرَها كلها ولم يُدخل منه شيئًا إلى منزله. كقوله تعالى: ﴿**ولا تبسُطْها كلَّ البسط**﴾ [الإسراء، الآية ٢٩].

﴿**إنه لا يحب المسرفين**﴾ أي لا يرتضي إسرافَهم.

﴿**ومن الأنعام حَمولةً وفرشًا**﴾ شروعٌ في تفصيل حال الأنعامِ وإبطالِ ما تقوَّلوا على الله تعالى في شأنها بالتحريم والتحليل، وهو عطفٌ على مفعول (أنشأ)، و(مِنْ) متعلقةٌ به أي وأنشأ من الأنعام ما يُحمل عليه الأثقالُ وما يُفرش للذبح أو ما يُفرش المصنوعُ من شعره وصوفِه ووبرِه، وقيل: الكبارُ الصالحةُ للحمل والصغارُ الدانيةُ من الأرض كأنها فُرشٌ مفروشٌ عليها ﴿**كلوا مما رزقكم الله**﴾ (ما) عبارةٌ عما ذُكر من الحَمولة والفَرْش ومِنْ تبعيضيةٌ أي كلوا بعضَ ما رزقكم الله تعالى أي حلالَه، وفيه تصريحٌ بأن إنشاءَها لأجلهم ومصلحتِهم ﴿**ولا تتبعوا**﴾ في أمر التحليلِ والتحريمِ بتقليد أسلافِكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسِهم المفترين على الله سبحانه ﴿**خطُوات الشيطان**﴾ فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعِه إياهم ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾ ظاهرُ العداوة.

﴿**ثمانيةَ أزواج**﴾ الزوجُ ما معه آخَرُ من جنسه يُزاوجُه ويحصُل منهما النسلُ والمرادُ بها الأنواعُ الأربعةُ، وإيرادُها بهذا العنوان وهذا العددِ تمهيدٌ لما سيق له الكلامُ من الإنكار المتعلّقِ بتحريم كلِّ واحدٍ من الذكر والأنثى وبما في بطنها، وهو بدلٌ من (حَمولةً وفرشًا) منصوبٌ بما نَصَبهما، وجعلُه مفعولًا لـ (كلوا)، على أن قوله

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وحمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٩)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣١٨)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٠٤)، والحجة لابن خالويه (١٥١، ١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧١).

(٢) صرم النخل: جزّه.

تعالى: ﴿ولا تتبعوا﴾ الآية، معترِضٌ بينهما، أو حالٌ مِنْ (ما) بمعنى مختلفةً أو متعددةً، يأباه جزالةُ النظمِ الكريم لظهور أنه مَسوقٌ لتوضيح حالِ الأنعام بتفصيلها أولًا إلى حمولةٍ وفرْشٍ ثم بتفصيلها إلى ثمانية أزواجٍ حاصلةٍ من تفصيل الأولى إلى الإبل والبقر وتفصيلِ الثاني إلى الضأن والمَعَز ثم تفصِيلِ كلٍّ من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى كلُّ ذلك لتحرير الموادِّ التي تقوّلوا فيها عليه سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم في كل مادة من تلك المواد بتوجيه الإنكار إليها.

واثنين في قوله تعالى: ﴿من الضأن اثنين﴾ بدلٌ من (ثمانيةَ أزواج) منصوبٌ بناصبه وهو العاملُ في مِنْ، أي أنشأ من الضأن زوجين الكبشَ والنعجة.

وقرئ[1] (اثنان) على الابتداء، والضأنُ اسمُ جنس كالإبل وجمعُه ضَئين كأمير أو جمعُ ضائن كتاجر وتجْرٍ وقرئ[2] بفتح الهمزة ﴿ومن المعز اثنين﴾ عطفٌ على مثله شريكٌ له في حكمه أي وأنشأ من المعز زوجين التيسَ والعنز وقرئ[3] بفتح العين وهو جمعُ ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرَس، وقرئ[4] (ومن المعْزى)، وهذه الأزواجُ الأربعةُ تفصيلٌ للفَرْش ولعل تقديمَها في التفصيل مع تأخر أصلِها في الإجمال لكون هذين النوعين عرضةً للأكل الذي هو معظمُ ما يتعلق به الحِلُّ والحُرمة، وهو السرُّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ [الأنعام، الآية ١٤٢] من غير تعرضٍ للانتفاع بالحمل والركوب وغيرِ ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتِها.

---

(١) قرأ بها: أبان بن عثمان، وأبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ١١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤).

(٢) قرأ بها: طلحة بن مصرف، والحسن، وعيسى بن عمر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨٧)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٣)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٤).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبي، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، وابن ذكوان، وهشام، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢٢)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧١).

(٤) قرأ بها: أبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٨٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤).

﴿قل﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ إثرَ تفصيلِ أنواعِ الأنعامِ التي أنشأها، أي قل تبكيتًا لهم وإظهارًا لانقطاعهم عن الجواب ﴿آلذكرين﴾ من ذَيْنك النوعين وهما الكبشُ والتيسُ ﴿حرَّم﴾ أي الله عز وجل كما تزعُمون أنه هو المحرّمُ ﴿أم الأنثيين﴾ وهما النعجةُ والعنزُ؟ ونُصب الذكرين والأنثيين بحَرَّم وهو مؤخّرٌ عنهما بحسب المعنى وإن توسط بينهما صورةً، وكذا قوله تعالى: ﴿أمَّا اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين﴾ أي أم ما حملت إناثُ النوعين حَرَّم ذكرًا كان أو أنثى؟ وقوله تعالى: ﴿نبئوني بعلم﴾ إلخ، تكريرٌ للإلزام وتثنيةٌ للتبكيت والإفحام أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبارِ الأنبياءِ يدل على أنه تعالى حرم شيئًا مما ذُكر، أو نبئوني تنبئةً ملتبسةً بعلم صادرةً عنه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في دعوى التحريمِ عليه سبحانه، وقوله تعالى: ﴿ومن الإبل اثنين﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿من الضأن اثنين﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ومن البقر اثنين﴾ ذكر وأنثى ﴿قل﴾ إفحامًا لهم في أمر هذين النوعين أيضًا ﴿آلذكرين﴾ منهما ﴿حرَّم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ من ذينك النوعين، والمعنى إنكارُ أن الله سبحانه حرَّم عليهم شيئًا من الأنواع الأربعةِ وإظهارُ كذبِهم في ذلك وتفصيلُ ما ذكر من الذكور والإناثِ وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكارِ على كل مادةٍ من موادّ افترائِهم فإنهم كانوا يحرِّمون ذكورَ الأنعامِ تارةً وإناثَها تارة وأولادَها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كلَّه إلى الله سبحانه، وإنما عُقّب تفصيلُ كلِّ واحدٍ من نوعي الصغارِ ونوعي الكبارِ بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكارِ مع حصول التبكيتِ بإيراد الأمرِ عقيبَ تفصيلِ الأنواعِ الأربعةِ بأن يقال: قل آلذكورَ حرّم أم الإناثَ أم ما اشتملت عليه أرحامُ الإناث لما في التثنية والتكريرِ من المبالغة في التبكيت والإلزام وقوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء﴾ تكريرٌ للإفحام كقوله تعالى: ﴿نبئوني بعلم﴾ وأمْ منقطعة، ومعنى الهمزةِ الإنكارُ والتوبيخُ ومعنى بل الإضراب عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخرَ أي بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿إذ وصاكم الله بهذا﴾ أي حين وصّاكم بهذا التحريمِ إذ أنتم لا تؤمنون بنبيٍّ فلا طريقَ لكم حسبما يقود إليه مذهبُكم إلى معرفة أمثالِ ذلك إلا المشاهدةُ والسماعُ، وفيه من تركيك عقولِهم والتهكمِ بهم ما لا يخفى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ فنسبَ إليه تحريمَ ما لم يحرِّم، والمراد كُبراؤهم المقرِّرون لذلك، أو عمْروُ بنُ لُحيٍّ بنِ قمعةَ وهو المؤسسُ لهذا الشرِّ، أو الكلُّ لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى أي فأيُّ فريقٍ أظلمُ من فريقٍ افتروا إلخ، ولا يقدح في أظلمية الكلِّ كونُ بعضِهم مخترِعين

له وبعضِهم مقتدين بهم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم وإظهارِ كذِبهم وافترائِهم أي هو أظلم من كل ظالم وإن كان المنفيُّ صريحًا في الأظلمية دون المساواةِ كما مر غيرَ مرة ﴿**ليضل الناسَ**﴾ متعلق بالافتراء ﴿**بغير علم**﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا من فاعل افترى، أي افترى عليه تعالى جاهلًا بصدور التحريم عنه تعالى، وإنما وُصفوا بعدم العلمِ بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدورِه عنه تعالى إيذانًا بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهاياتِ فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدورِ عنه إذا كان أظلمَ من كل ظالم فما ظنُّك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدُرْ عنه؟! ويجوز أن يكون حالًا من فاعل يُضِلّ أي ملتبسًا بغير علم بما يؤدي بهم إليه ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ كائنًا من كان إلى ما فيه صلاحُ حالهم عاجلًا أو آجلًا وإذا كان هذا حالُ المتصفين بالظلم في الجملة فما ظنُّك بمن هو في أقصى غاياتِه؟

﴿**قل**﴾ أُمرَ رسولُ الله ﷺ بعد إلزامِ المشركين وتبكيتِهم وبيانِ أن ما يتقوّلونه في أمر التحريم افتراءٌ بحتٌ لا أصلَ له قطعًا بأن يُبيِّن لهم ما حرّمه عليهم وفي قوله تعالى: ﴿**لا أجد فيما أوحِيَ إلي محرمًا**﴾ إيذانٌ بأن مناطَ الحلِّ والحُرمةِ هو الوحيُ وأنه ﷺ قد تتبع جميعَ ما أوحيَ إليه وتفحّص عن المحرمات فلم يجد غيرَ ما فُصِّل، وفيه مبالغةٌ في بيان انحصارِها في ذلك و(محرّمًا) صفةٌ لمحذوف أي لا أجد ريثما[١] تصفحْتُ ما أوحيَ إلي طعامًا محرمًا من المطاعم التي حرّموها ﴿**على طاعم**﴾ أي أيِّ طاعمٍ كان من ذكر أو أنثى ردًا على قولهم: ﴿**محرّمٌ على أزواجنا**﴾ [الأنعام، الآية ١٣٩] وقولُه تعالى: ﴿**يطعمه**﴾ لزيادة التقرير ﴿**إلا أن يكون**﴾ أي ذلك الطعامُ ﴿**مَيتةً**﴾ وقرئ[٢] (تكونَ) بالتاء لتأنيث الخبرِ وقرئ[٣] (ميتةٌ) بالرفع على أن (كان) تامةٌ.

---

(١) أي مقدار ما تصفحت ذلك. ويقال: ما قعد عندنا إلا ريثما فعل كذا، أي إلا مقدار ما فعل كذا.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، والأعمش، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٣)، والبحر المحيط (٤/ ٢٤١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٢٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٩)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٦).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، ويزيد بن القعقاع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢١٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٨٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٣)، والبحر المحيط (٤/ ٢٤١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٩٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢١٩)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٦).

وقوله تعالى: ﴿أو دمًا مسفوحًا﴾ حينئذ عطفٌ على أنْ مع ما في حيزه، أي إلا وجودَ ميتةٍ أو دمًا مسفوحًا أي مصبوبًا كالدماء التي في العروق لا كالطحال والكبِد ﴿أو لحمَ خنزير فإنه﴾ أي الخنزيرَ ﴿رجس﴾ أي لحمُه قذرٌ لتعوده أكلَ النجاسات أو خبيثٌ ﴿أو فسقًا﴾ عطف على لحمَ خنزيرٍ وما بينهما اعتراضٌ مقرِّر لحرمته ﴿أهِلَّ لغير الله به﴾ صفةٌ له موضّحة أي ذُبح على اسم الأصنام، وإنما سُمِّي ذلك فسقًا لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقًا مفعولًا له لأُهِلَّ وهو عطف على يكون والمستكن راجعٌ إلى ما رجع إليه المستكن في يكون.

﴿فمن اضطر﴾ أي أصابته الضَّرورةُ الداعيةُ إلى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة ﴿غيرَ باغ﴾ في ذلك على مضطر آخرَ مثلِه ﴿ولا عاد﴾ قدرَ الضرورة ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ مبالغٌ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك، وليس التقييدُ بالحال الأولى لبيان أنه لو لم يوجَد القيدُ لتحققت الحرمة المبحوثُ عنها بل للتحذير من حرام آخرَ هو أخذُه حقِّ مضطرٍ آخرَ فإن من أخذ لحمَ الميتة من يد مضطرٍ آخرَ فأكله فإن حرمتَه ليست باعتبار كونِه لحمَ الميتة بل باعتبار كونه حقًّا للمضطر الآخرِ، وأما الحالُ الثانيةُ فلتحقيق زوالِ الحرمةِ المبحوثِ عنها قطعًا، فإن التجاوزَ عن القدر الذي يُسدّ به الرمقُ حرامٌ من حيث إنه لحمُ الميتة، وفي التعرض لوصفي المغفرةِ والرحمةِ إيذانٌ بأن المعصيةَ باقيةٌ لكنه تعالى يغفرُ له ويرحمه، والآيةُ محكمةٌ لأنها تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحيَ إليه إلى تلك الغاية غيرَه، ولا ينافيه ورودُ التحريم بعد ذلك في شيء آخرَ فلا يصِحُّ الاستدلالُ بها على نسخ الكتابِ بخبر الواحدِ ولا على حل الأشياءِ التي هي غيرُها إلا مع الاستصحاب.

﴿وعلى الذين هادوا﴾ خاصة لا على مَنْ عداهم من الأولين والآخِرين ﴿حرَّمنا كل ذي ظفر﴾ أي كلَّ ما له أصبَعٌ من الإبلِ والسباعِ والطيورِ وقيل: كلَّ ذي مِخْلبٍ وحافرٍ، وسُمِّيَ الحافرُ ظفُرًا مجازًا والمسبَّبُ عن الظلم هو تعميمُ التحريم حيث كان بعضُ ذواتِ الظفرِ حلالًا لهم فلما ظلموا عم التحريمُ كلَّها وهذا تحقيقٌ لما سلف من حصر المحرَّماتِ فيما فُصِّل بإبطال ما يخالِفُه من فرية اليهودِ وتكذيبِهم في ذلك فإنهم كانوا يقولون: لسنا أولَ من حرُمت عليه وإنما كانت محرمةً على نوح وإبراهيمَ ومَنْ بعدَهما حتى انتهى الأمر إلينا.

﴿ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومَهما﴾ لا لحومَهما فإنها باقيةٌ على الحل، والشحومُ الثروبُ[1] وشحومُ الكِلىٰ والإضافةُ لزيادة الربطِ ﴿إلا ما حملت ظهورُهما﴾

(١) الثروب: شحم رقيق يغشّي الكرش والأمعاء.

استثناءٌ من الشحوم مُخرِّج لما علِق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم.

﴿**أو الحوايا**﴾ عطفٌ على ظهورهما أي ما حملته الحوايا[1] وهي جمعُ حاوية أو حاوِياء كقاصِعاء وقواصِعَ أو حَواية كسفينة وسفائن ﴿**أو ما اختلط بعظم**﴾ عطف على ما حمَلَتْ وهو شحمُ الأَلْيِة واختلاطُه بالعظم اتصالُه بعَجْب[2] الذنب، وقيل: هو كلُّ شحمٍ متصلٍ بالعظم من الأضلاع وغيرِها ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى الجزاء أو التحريم، فهو على الأول نُصب على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لما بعده وعلى الثاني على أنه مفعولٌ ثانٍ له أي ذلك التحريمُ ﴿**جزيناهم ببغيهم**﴾ بسبب ظلمِهم وهو قتلُهم الأنبياءَ بغير حق وأكلُهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلُهم أموالَ الناس بالباطل، كقوله تعالى: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم**﴾ [النساء، الآية ١٦٠] وكانوا كلما أتَوْا بمعصية عُوقبوا بتحريم شيءٍ مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدّعون أنها لم تزَلْ محرمةً على الأمم، فرُدَّ ذلك عليهم وأُكِّد بقوله تعالى: ﴿**وإنا لصادقون**﴾ أي في جميع أخبارِنا التي من جملتها هذا الخبرُ، ولقد ألقمهم الحجرَ قوله تعالى: ﴿**كلُّ الطعامِ كان حلًّا لبني إسرائيلَ إلا ما حرم إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنزَّلَ التوراةُ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾ [آل عمران، الآية ٩٣] روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسُروا أن يُخرِجوا التوراة، كيف وقد بُيِّن فيها جميعُ ما يحذرون أوضحَ بيان[3].

﴿**فإن كذبوك**﴾ قيل: الضمير لليهود لأنهم أقربُ ذِكرًا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك، وقيل: للمشركين، فالمعنى على الأول إن كذبتْك اليهودُ في الحكم المذكورِ وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قِدَم التحريم ﴿**فقل**﴾ لهم ﴿**ربكم ذو رحمة واسعة**﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي ويُمهلكم على بعضها ﴿**ولا يرد بأسه**﴾ بالكلية ﴿**عن القوم المجرمين**﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعضِ الطيبات عليكم عقوبةً وتشديدًا، وعلى الثاني فإن كذبك المشركون فيما فُصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم: ربُكم ذو رحمةٍ واسعة لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فإنه إمهالٌ لا إهمالٌ، وقيل: ذو رحمةٍ للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مُقامَه قوله تعالى: ﴿**ولا يرد بأسه**﴾ إلخ، لتضمنه التنبيهَ على إنزال البأسِ عليهم مع الدلالة على أنه لا حقّ بهم ألبتةَ من غير صارفٍ يصرِفه عنهم أصلًا.

---

(١) الحوايا: الأمعاء. (٢) العَجْبُ: مؤخَّرُ كل شيء.

(٣) ذكره البيضاوي في تفسيره (٢/ ٦٦).

﴿**سيقول الذين أشركوا**﴾ حكاية لفن آخرَ من كفرهم، وإخبارُه قبل وقوعِه ثم وقوعُه حسبما أُخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعِه: ﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء**﴾ [النمل، الآية ٣٥] صريحٌ في أنه من عند الله تعالى ﴿**لو شاء الله ما أشركنا**﴾ أي لو شاء خلافَ ذلك مشيئةَ ارتضاءٍ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿**ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء**﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حقٌّ مرضيٌّ عند الله تعالى لا الاعتذارَ من ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله تعالى إياها منهم حتى ينتهض ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿**كذلك كذَّب الذين من قبلهم**﴾ أي مثلَ ما كذّبك هؤلاءِ في أنه تعالى منَع من الشرك ولم يحرِّم ما حرموه كذّب متقدِّموهم الرسلَ فإنه صريحٌ فيما قلنا، وعطفُ (آباؤنا) على الضمير للفصل بـ (لا).

﴿**حتى ذاقوا بأسنا**﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿**قل هل عندكم من علم**﴾ من أمر معلوم يصِحّ الاحتجاجُ به على ما زعمتم ﴿**فتخرجوه لنا**﴾ أي فتُظهروه لنا ﴿**إن تتبعون إلا الظن**﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنَّ الباطلَ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿**وإن أنتم إلا تخرصون**﴾ تكذِبون على الله عز وجل وليس فيه دلالةٌ على المنع من اتباع الظنِّ على الإطلاق بل فيما يعارضه قطعي.

﴿**قل فللّه الحجة البالغة**﴾ الفاء جوابُ شرطٍ محذوفٍ أي وإذ قد ظهر ألا حجةَ لكم فللّه الحجةُ البالغة أي البينةُ الواضحة التي بلغت غايةَ المتانةِ والثباتِ أو بلغ بها صاحبُها صحةَ دعواه، والمرادُ بها الكتابُ والرسولُ والبيانُ، وهي من الحج بمعنى القصد كأنها تقصُد إثباتَ الحُكم وتطلُبه ﴿**فلو شاء**﴾ هدايتَكم جميعًا ﴿**لهداكم أجمعين**﴾ بالتوفيق لها والحملِ عليها ولكن لم يشأْ هدايةَ الكلِّ بل هدايةَ البعضِ الصارفين هِممَهم إلى سلوك طريقِ الحقِّ وضلالَ آخرين صرفوا اختيارَهم إلى خلاف ذلك من غير صارفٍ يَلْويهم ولا عاطفٍ يَثْنيهم.

﴿**قل هلمَّ شهداءكم**﴾ أي أحضِروهم وهو اسمُ فعلٍ لا يتصرَّف على لغة أهلِ الحجاز، وفعلٌ يؤنث ويُجمع على لغة بني تميم على رأي الجمهور وقد خالفهم البعض في فعليته وليس بشيء، وأصلُه عند البصريين هالُمّ من لَمّ إذا قصَد حُذفت الألفُ لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل وعند الكوفيين هلْ أُمَّ فحذفت الهمزةُ بإلقاء حركتِها على اللام وهو بعيد لأن هل تدخل على الأمر ويكون متعديًا كما في الآية ولازمًا كما في قوله تعالى: ﴿**هلم إلينا**﴾ [الأحزاب: ١٨] ﴿**الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا**﴾ وهم قدوتُهم الذين ينصُرون قولَهم وإنما أُمروا باستحضارهم ليُلزِمَهم الحجةَ ويظهر بانقطاعهم ضلالتَهم وأنه لا متمسَّكَ لهم كمن يقلدهم ولذلك قُيّد الشهداءُ بالإضافة

ووُصفوا بما يدل على أنهم شهداءُ معروفون بالشهادة لهم وبنُصرة مذهبهم **﴿فإن شهدوا﴾** بعد ما حضَروا بأن الله حرم هذا **﴿فلا تشهد معهم﴾** أي فلا تصدقْهم فإنه كذِبٌ بحتٌ وافتراءٌ صِرْفٌ وبيِّنْ لهم فسادَه فإن تسليمَه منهم موافقةٌ لهم في الشهادة الباطلة **﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾** من وضع المظهرِ مقامَ المضمرِ للدِلالة على أن من كذَّب بآياتِ الله تعالى وعدَل به غيرَه فهو متبعٌ لا غيرُ، وأن من اتبع الحجةَ لا يكون إلا مصدقًا بها **﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** كعبدة الأوثان، عطفٌ على الموصول الأولِ بطريق عطفِ الصفةِ على الصفة مع اتحاد الموصوفِ كما في قوله: [المتقارب]

إلى الماجد القَرْمِ وابنِ الهمامِ وليثِ الكتائبِ في المزدَحَمْ[(١)]

فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس **﴿وهم بربهم يعدلون﴾** أي يجعلون له عديلًا، عطفٌ على لا يؤمنون، والمعنى لا تتبع أهواءَ الذين يجمعون بين تكذيبِ آياتِ الله وبين الكفرِ بالآخرة وبين الإشراكِ به سبحانه. لكن لا على أن يكون مدارُ النهي الجمعُ المذكورُ بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها.

﴿قل تعالوا﴾ لما ظهر بُطلانُ ما ادعَوْا من أن إشراكَهم وإشراكَ آبائِهم وتحريمَ ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئتِه بظهور عجْزِهم عن إخراج شيءٍ يُتمسّك به في ذلك وإحضارِ شهداءَ يشهدون بما ادعَوْا في أمر التحريم بعد ما كُلّفوه مرةً بعد أخرى عجزًا بينًا أُمر رسولُ الله ﷺ بأن يبينَ لهم من المحرمات ما يقتضي الحالُ بيانَه على الأسلوب الحكيم إيذانًا بأن حقَّهم الاجتنابُ عن هذه المحرماتِ، وأما الأطعمةُ المحرمةُ فقد بُينت بقوله تعالى: **﴿قل لا أجد﴾** [الأنعام، الآية ١٤٥] الآية، وتعالَ أمرٌ من التعالي والأصلُ فيه أن يقوله من[(٢)] مكان عالٍ لمن هو في أسفلَ منه ثم اتُّسع فيه بالتعميم، كما أن الغنيمة في الأصل إصابةُ الغَنَم من العدو ثم استعملت في إصابة كلِّ ما يُصاب منهم اتساعًا ثم في الفوز بكل مطلبٍ من غير مشقة **﴿أتلُ﴾** جوابُ الأمر وقوله تعالى: **﴿ما حرّم ربكم﴾** منصوبٌ به على أن (ما) موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي اقرأْ الذي حرمه ربُّكم أي الآياتِ المشتمِلةَ عليه، أو مصدريةٌ أي الآياتِ المشتملة على تحريمه أو بـ (حرم) على أنها استفهاميةٌ، والجملةُ مفعولٌ لـ «أتلُ» لأن التلاوةَ من باب القول، كأنه قيل: أَقُلْ أيُّ شيءٍ حرم ربكم[(٣)] **﴿عليكم﴾** متعلقٌ بحرّم على كل حال، وقيل: بأتلُ والأول أنسبُ بمقام الاعتناءِ بإيجاب الانتهاءِ عن المحرمات المذكورةِ وهو السرُّ في

---

(١) تقدم.
(٢) زاد في المخطوط: في.
(٣) زاد في المخطوط: و.

العرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم، فإن تذكيرَ كونِه تعالى ربًّا لهم ومالكًا لأمرهم على الإطلاق من أقوى الدواعي إلى انتهائهم عما نهاهم عنه أشدَّ انتهاءٍ وأنْ في قوله تعالى: ﴿**ألا تشركوا به**﴾ مفسرةٌ لفعل التلاوةِ المعلَّقِ بما حرم، و(لا) ناهيةٌ كما ينبئ عنه عطفُ ما بعده من الأوامر والنواهي عليه، وليس من ضرورة كونِ المعطوفِ عليه تفسيرًا لتلاوة المحرمات بحسب منطوقه كونُ المعطوفاتِ أيضًا كذلك حتى يمتنع انتظامُ الأوامر في سلك العطفِ عليه بل يكفي في ذلك كونُها تفسيرًا لها باعتبار لوازمِها التي هي النواهي المتعلقةُ بأضداد ما تعلقت هي به، فإن الأمرَ بالشيء مستلزمٌ للنهي عن ضده بل هو عينُه عند البعض، كأن الأوامرَ ذُكرت وقُصد لوازمُها، فإن عطفَ الأوامرِ على النواهي الواقعةِ بعد أن المفسر[1] لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمورَ به لا يكون محرمًا، دليلٌ واضحٌ على أن التحريمَ راجعٌ إلى الأضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل: أتلُ ما حرم ربكم أن لا تشركوا ولا تُسيئوا إلى الوالدين خلا أنه قد أُخرج مُخرجَ الأمرِ بالإحسان إليهما بين النهيَين المكتنِفين له للمبالغة في إيجاب مراعاةِ حقوقِهما فإن مجرَّدَ تركِ الإساءةِ إليهما غيرُ كافٍ في قضاء حقوقِهما، ولذلك عُقّب به النهيُ عن الإشراك الذي هو أعظمُ المحرماتِ وأكبرُ الكبائرِ هاهنا في سائر المواقعِ، وقيل: (أن) ناصبةٌ ومحلُّها النصبُ بـ (عليكم) على أنه للإغراء، وقيل: النصبُ على البدلية (مما حرم) وقيل: من عائدها المحذوفِ على أن لا زائدة، وقيل: الجرُّ بتقدير اللام وقيل: الرفع بتقدير المتلُوِّ ألا تشركوا، أو المحرَّمُ أن لا تشركوا بزيادة لا وقيل: والذي عليه التعويلُ هو الأول لأمور من جملتها أن في إخراج المفسَّرِ على صورة النهي مبالغةً في بيان التحريمِ.

وقوله تعالى: ﴿**شيئًا**﴾ نُصب على المصدرية أو المفعولية أي لا تشركوا به شيئًا من الإشراك أو شيئًا من الأشياء ﴿**وبالوالدين**﴾ أي وأحسِنوا بهما ﴿**إحسانًا**﴾ وقد مرَّ تحقيقه ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾ تكليفٌ متعلق بحقوق الأولادِ عقّب به التكليفَ المتعلقَ بحقوق الوالدين أي لا تقتلوهم بالوأد ﴿**من إملاق**﴾ أي من أجل فقرٍ كما في قوله تعالى: ﴿**خشيةَ إملاق**﴾ [الإسراء، الآية ٣١] وقيل: هذا في الفقر الناجزِ وذا في المتوقَّع وقوله تعالى: ﴿**نحن نرزقكم وإياهم**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل النهي وإبطالِ سببيةِ ما اتخذوه سببًا لمباشرة المنهيِّ عنه وضمانٌ منه تعالى لأرزاقهم أي نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الفواحش**﴾ كقوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة**﴾ [الإسراء، الآية ٣٢] إلا أنه جيء هاهنا

---

(١) في المخطوط: المفسرة.

بصيغة الجمع قصدًا إلى النهي عن أنواعها ولذلك أُبدل عنها قولُه تعالى: ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾ أي ما يُفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأَبُ أراذلِهم وما يفعل سرًا باتخاذ الأخدانِ كما هو عادةُ أشرافِهم. وتعليقُ النهي بقُربانها إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها وإما لأن قربانَها داعٍ إلى مباشرتها، وتوسيطُ النهي عنها بين النهي عن قتل الأولادِ والنهي عن القتلِ مطلقًا كما وقع في سورة بني إسرائيلَ باعتبار أنها مع كونها في نفسها جنايةً عظيمةً في حكم قتلِ الأولادِ فإن أولادَ الزنا في حكم الأموات وقد قال ﷺ في حق العزلِ: «**إن ذاك وأدٌ خفيٌّ**»[١] ومن هاهنا تبين أن حملَ الفواحشِ على الكبائر مطلقًا وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فُسِّر به ظاهِرُ الإثمِ وباطنُه فيما سلف من قبيل الفصلِ بين الشجر ولِحائِه[٢].

﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله**﴾ أي حرم قتلَها بأن عصمَها بالإسلام أو بالعهد فيخرُج منها الحربيُّ وقوله تعالى: ﴿**إلا بالحق**﴾ استثناءٌ مفرّغٌ من أعم الأحوالِ أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حالَ ملابستِكم بالحق الذي هو أمرُ الشرعِ بقتلها، وذلك بالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، وقتلِ النفسِ المعصومةِ، أو من أعمِّ الأسباب أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحقِّ وهو ما ذكر، أو من أعمِّ المصادر أي لا تقتُلوها قتلًا ما إلا قتلًا كائنًا بالحق وهو القتلُ بأحد الأمور المذكورة ﴿**ذلكم**﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التكاليف الخمسةِ، وما في ذلك من معنى البُعد للإيذان بعلوّ طبقاتِها بين التكاليف الشرعية، و(ما) مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**وصاكم به**﴾ أي أمركم به ربكم أمرًا مؤكدًا خبرُه، والجملة استئنافٌ جيء به تجديدًا للعهد وتأكيدًا لإيجاب المحافظةِ على ما كُلِّفوه ولما كانت الأمورُ المنهيُّ عنها مما تقضي بديهةُ العقول بقُبحها فُصِّلت الآيةُ الكريمة بقوله تعالى: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ أي تستعملون عقولَكم التي تعقِل نفوسَكم وتحبِسُها عن مباشرة القبائحِ المذكورة.

﴿**ولا تقربوا مال اليتيم**﴾ توجيهُ النهي إلى قُربانه[٣] من المبالغة في النهي عن أكله ولإخراج القُربان النافعِ عن حكم النهي بطرق[٤] الاستثناءِ، أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿**إلا بالتي هي أحسنُ**﴾ إلا بالخَصلة التي هي أحسنُ ما يكون من الحِفظ والتثميرِ ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء والأوصياء لقوله تعالى: ﴿**حتى يبلُغ أشده**﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٦٧) كتاب النكاح، باب: جواز الغيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل، حديث (١٤١/ ١٤٤٢) من حديث عائشة عن جدامة بنت وهب الأسدية به.

(٢) أي من قبيل التعسُّف. ولحاء الشجر: قشرته التي تغلّفه.

(٣) زاد في المخطوط: لما مر.

(٤) في المخطوط: بطريق.

فإنه غايةٌ لما يُفهم من الاستثناء لا للنهي كأنه قيل: احفظوه حتى يصيرَ بالغًا رشيدًا فحينئذ سلّموه إليه كما في قوله تعالى: ﴿**فإن آنستم منهم رُشدًا فادفعوا إليهم أموالَهم**﴾ [النساء، الآية ٦] والأشُدُّ جمع شِدّة كنعمة وأنعم أو شَدّ ككلب وأكلُب أو شد كصر وآصر وقيل: هو مفرد كآنُك[١] ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط**﴾ أي بالعدل والتسوية ﴿**لا نكلف نفسًا إلا وسعها**﴾ إلا ما يسعُها ولا يعسُر عليها، وهو اعتراضٌ جيء به عَقيبَ الأمرِ بالأمر[٢] للإيذان بأن مراعاةَ العدلِ كما هو عسيرٌ كأنه قيل: عليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم ﴿**وإذا قلتم**﴾ قولًا في حكومة[٣] أو شهادة أو نحوِهما ﴿**فاعدِلوا**﴾ فيه ﴿**ولو كان**﴾ أي المقولُ له أو عليه ﴿**ذا قربىٰ**﴾ أي ذا قرابةٍ منكم ولا تميلوا نحوهم أصلا وقد مر تحقيق معنى (لو) في مثل هذا الموضعِ مرارًا ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾ أي ما عَهد إليكم من الأمور المعدودةِ، أو أيِّ عهدٍ كان فيدخُل فيه ما ذُكر دخولًا أوليًا أو ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنذور، وتقديمُه للاعتناء بشأنه ﴿**ذلكم**﴾ إشارةٌ إلى ما فُصِّل من التكاليف، ومعنى البُعد لما ذكر فيما قبل ﴿**وصاكم به**﴾ أمركم به أمرًا مؤكدًا ﴿**لعلكم تذكرون**﴾ تتذكرون ما في تضاعيفه وتعملون بمقتضاه، وقرئ[٤] بتشديد الذالِ وهذه أحكامٌ عشَرةٌ لا تختلف باختلاف الأممِ والأعصارِ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما (هذه آياتٌ محكماتٌ لم ينسَخْهن شيء من جميع الكتُب وهن محرماتٌ على بني آدم كلِّهم وهن أمُّ الكتابِ، من عمِل بهن دخلَ الجنة ومن تركهن دخلَ النار)[٥].

وعن كعب الأحبار: والذي نفسُ كعبٍ بيده إن هذه الآياتِ لأولُ شيءٍ في التوراة بسم الله الرحمٰن الرحيم قل: تعالَوا الآيات...

﴿**وأن هذا صراطي**﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر في الآيتين من الأمر والنهي، قاله مقاتل

---

(١) الآنُك: الرصاص الأسود، أو القصدير.

(٢) في المخطوط: بالعدل.

(٣) في المخطوط: حكمه.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٢٢٧) برقم (١٤١٥٧).

وقيل: إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في إثبات التوحيدِ والنبوة وبيانِ الشريعة، وقرئ[١] (صراطيَ) بفتح الياء، ومعنى إضافتِه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابُه إليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوكُ لا من حيث الوضعُ كما في صراط الله، والمرادُ بيانُ أن ما فُصِّل من الأوامر والنواهي غيرُ مختصةٍ بالمتلو عليهم بل متعلقةٌ به عليه الصلاة والسلام أيضًا وأنه ﷺ مستمرٌّ على العمل بها ومراعاتِها.

وقوله تعالى: ﴿**مستقيمًا**﴾ حالٌ مؤكدةٌ، ومحل أن مع ما في حيزها الجرُّ بحذف لام العلة أي ولأن هذا صراطي أي مسلكي مستقيمًا ﴿**فاتبعوه**﴾ كقوله تعالى: ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا**﴾ [الجن، الآية ١٨] وتعليلُ اتباعِه بكونه صراطَه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراطَ الله تعالى، مع أنه في نفسه كذلك من حيث[٢] سلوكُه ﷺ، فيه داعٍ للخلق إلى الاتّباع إذ بذلك يتضح عندهم كونُه صراطَ الله عز وجل، وقرئ[٣] بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرئ[٤] (أنْ هذا) مخففةً من أنّ، على أن اسمَها الذي هو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ وقرئ[٥] (سراطي) وقرئ[٦] (هذا

---

(١) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٤٥)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٧).

(٢) زاد في ط: أي.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٩٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٤٥)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣١)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٣).

(٤) قرأ بها: ابن عامر، وعبد الله بن إسحاق البصري، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٩٢)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٤٥)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣١)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٣٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٣).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وابن مجاهد، وقنبل، ورويس، وابن محيصن، والشنبوذي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٠٢)، وص (١٢٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٤٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٣)،والغيث للصفاقسي ص (٢٢٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٣)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٠).

(٦) قرأ بها: الأعمش، وعبد الله.

=

صراطي) وقرئ[(١)] (وهذا صراطُ ربِّكم) و(هذا[(٢)] صراطُ ربِّك) ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ الأديانَ المختلفةَ أو طرقَ البدع والضلالات ﴿فتفرَّقَ بكم﴾ بحذف إحدى التاءين، والباء للتعدية أي فتفرِّقَكم حسَبَ تفرُّقِها أياديَ[(٣)] سبأ فهو كما ترى أبلغُ من (تفرقكم) كما قيل من أن (ذهَبَ به)، لما فيه من الدلالة على الاستصحاب، أبلغُ من (أذهبه).

﴿عن سبيله﴾ أي سبيل الله الذي لا عِوَجَ فيه ولا حرج، وهو دين الإسلام الذي ذُكر بعضُ أحكامه وقيل: هو اتباعُ الوحي واقتفاءُ البرهان، وفيه تنبيهٌ على أن صراطَه عليه الصلاة والسلام عينُ سبيل الله تعالى ﴿ذلكم﴾ إشارةٌ إلى ما مر من اتباع سبيلِه تعالى وتركِ اتباعِ سائر السبل ﴿وصَّاكم به لعلكم تتقون﴾ اتباعَ سبُلِ الكفر والضلالة.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

= ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٠).

(١) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٠).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٨)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٢).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٨/ ٥٧).

القرآن مهيمن على الكتب

﴿**ثم آتينا موسى الكتابَ**﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى تقريرًا للوصية وتحقيقًا لها وتمهيدًا لما يعقُبه من ذكر القرآنِ المجيد كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوفٌ على مقدر يقتضيه المقامُ ويستدعيه النظامُ كأنه قيل بعد قوله تعالى: ﴿**ذلكم وصاكم به**﴾ [الأنعام، الآية ١٥١] بطريق الاستئنافِ تصديقًا له وتقريرًا لمضمونه: فعلنا ذلك ثم آتينا إلخ، كما أن قوله تعالى: ﴿**ونطبع على قلوبهم**﴾ [الأعراف، الآية ١٠٠] معطوف على ما يدل عليه معنى ﴿**أو لم يهد**﴾ [الأعراف، الآية ١٠٠] إلخ.

كأنه قيل: يغفُلون عن الهداية ونطبع إلخ، وأما عطفُه على (ذلكم وصاكم به) ونظمُه معه في سلك الكلامِ الملقّن كما أجمع عليه الجمهورُ فمما لا يليق بجزالة النظمِ الكريم فتدبر.

و(ثم) للتراخي في الإخبار كما في قولك: بلغني ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعتَ أمسِ أعجبُ، أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديمًا وحديثًا ثم أعظمُ من ذلك أنا آتينا موسى التوراةَ فإن إيتاءَها مشتملةً على الوصية المذكورةِ وغيرِها أعظمُ من التوصية بها فقط ﴿**تمامًا**﴾ للكرامة والنعمة أي إتمامًا لهما على أنه مصدرٌ من أتمّ بحذف الزوائد ﴿**على الذي أحسن**﴾ أي على مَنْ أحسن القيامَ به كائنًا مَنْ كان، ويؤيده أنه قرئ[1] (على الذين أحسنوا) وتمامًا على المحسنين أو على الذي أحسن تبليغَه وهو موسى عليه السلام أو تمامًا على ما أحسنه موسى عليه السلام أي أجاده من العلم والشرائعِ أي زيادةً على علمه على وجه التتميم، وقرئ[2] بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أي على الذي هو أحسنُ دينٍ وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تمامًا أي تامًّا كاملًا على أحسن ما يكون عليه الكتُب ﴿**وتفصيلًا لكل شيء**﴾ وبيانًا مفصلًا لكل ما يُحتاج إليه في الدين وهو عطفٌ على تمامًا ونصبُهما إما على العلية أو على المصدرية كما أشير إليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى: ﴿**وهدى ورحمة**﴾ وضميرُ ﴿**لعلهم**﴾ لبني

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٤٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩).

(٢) قرأ بها: الحسن، والأعمش، ويحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٥٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٤).

إسرائيلَ المدلولِ عليهم بذكر موسى وإيتاءِ الكتاب والباء في قوله تعالى: ﴿بلقاء ربهم﴾ متعلقةٌ بقوله تعالى: ﴿يؤمنون﴾ قدمت عليه محافظةً على الفواصل قال ابن عباس رضي الله عنهما: كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا بالثواب والعذاب.

﴿وهذا﴾ [أي][1] الذي تُليت عليكم أوامرُه ونواهيه أي القرآن ﴿كتاب﴾ عظيمُ الشأنِ لا يقادَر قدْرُه وقوله تعالى: ﴿أنزلناه مبارك﴾ أي كثيرُ المنافع دينًا ودنيا، صفتان لكتابٌ، وتقديمُ وصفِ الإنزال مع كونه غيرَ صريحٍ لأن الكلام مع منكريه، أو خبران آخران لاسم الإشارة أي أنزلناه مشتملًا على فنون الفوائدِ الدينية والدنيوية التي فُصِّلت عليكم طائفةٌ منها، والفاء في قوله تعالى: ﴿فاتبعوه﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن عِظَمَ شأنِ الكتابِ في نفسه وكونَه منزلًا من جنابه عز وجل مستتبعًا للمنافع الدينية والدنيوية موجبٌ لاتباعه أيَّ إيجاب ﴿واتقوا﴾ مخالفتَه ﴿لعلكم ترحمون﴾ بواسطة اتباعِه والعمل بموجبه ﴿أن تقولوا﴾ علةٌ لأنزلناه المدلولِ عليه بالمذكور لا لنفسه، للزوم الفصلِ حينئذ بين العامل والمعمولِ بأجنبيّ هو مباركٌ وصفًا كان أو خبرًا أي أنزلناه كذلك كراهةَ أن تقولوا يوم القيامة لو لم تُنْزِله ﴿إنما أنزل الكتاب﴾ الناطقُ بتلك الأحكام العامة لكل الأمم ﴿على طائفتين﴾ كائنتين ﴿من قبلنا﴾ وهما اليهودُ والنصارى، وتخصيصُ الإنزال بكتابيهما لأنهما الذي اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماويةِ بالاشتمال على الأحكام لا سيما الأحكامِ المذكورة ﴿وإن كنا﴾ إنْ هي المخففةُ من إنَّ واللام فارقةٌ بينهما وبين النافية وضميرُ الشأن محذوفٌ ومرادُهم بذلك دفعُ ما يَرِد عليهم من أن نزولَه عليهما لا ينافي عمومَ أحكامِه فلمَ لمْ تعملوا بأحكامه[2] العامة؟ أي وإنه كنا ﴿عن دراستهم لغافلين﴾ لا ندري ما في كتابهم إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقّى منه تلك الأحكامَ العامة ونحافظَ عليها وإن لم يكن منزلًا علينا، وبهذا تبيّن أن معذرتَهم هذه مع أنهم غيرُ مأمورين بما في الكتابين لاشتمالهما على الأحكام المذكورةِ المتناولةِ لكافة الأمم كما أن قطعَ تلك المعذرةِ بإنزال القرآنِ لاشتماله أيضًا عليها لا على سائر الشرائعِ والأحكام فقط.

﴿أو تقولوا﴾ عطفٌ على تقولوا وقرئ[3] كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب ﴿فاتبعوه واتقوا﴾.

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) في المخطوط: بأحكامها.

(٣) «الأول» قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والبحر المحيط (٤/٢٥٧)، والكشاف للزمخشري (٢/٤٩).

=

﴿لو أنا أنزل علينا الكتاب﴾ كما أنزل عليهم ﴿لكنا أهدى منهم﴾ إلى الحق الذي هو المقصِدُ الأقصى أو إلى ما في تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقِها لحِدّة أذهانِنا وثَقابةِ أفهامنا ولذلك تلقّفنا من فنون العلم، كالقصص والأخبار والخُطب والأشعار ونحوِ ذلك، طرفًا صالحًا ونحن أمّيون، وقوله تعالى: ﴿فقد جاءكم﴾ متعلقٌ بمحذوف ينبئ عنه الفاءُ الفصيحةُ إما معللٌ به أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم إلخ، وإما شرطٌ له أي إن صدقتم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزولِ الكتابِ عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم ﴿بينة﴾ أي[1] حجةٌ واضحة لا يُكتَنَهُ كنهها وقوله تعالى: ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفةٌ لبينة أي بينةٌ كائنةٌ منه تعالى وأيًّا ما كان ففيه دَلالةٌ على فضلها الإضافي كما أن في تنوينها التفخيميِّ دلالةٌ على فضلها الذاتي وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تأكيدٍ لإيجاب الاتباع ﴿وهدى ورحمة﴾ عطفٌ على بينةٌ وتنوينُهما أيضًا تفخيميٌّ عبّر عن القرآن بالبينة إيذانًا بكمال تمكنِهم من دراسته، ثم بالهدى والرحمة تنبيهًا على أنه مشتملٌ على ما اشتمل عليه التوراةُ من هداية الناس ورحمتِهم بل هو عينُ الهداية والرحمة.

﴿فمن أظلم﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجيءَ القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجبٌ لغاية أظلمية مَنْ يكذّبه، أي وإذا كان الأمرُ كذلك فمن أظلم ﴿ممن كذب بآيات الله﴾ وُضع الموصولُ موضعَ ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصًا على اتصافهم بما في حيز الصلةِ وإشعارًا بعلة الحُكم وإسقاطًا لهم عن رتبة الخطابِ، وعبّر عما جاءهم بآيات الله تهويلًا للأمر وتنبيهًا على أن تكذيبَ أي آيةٍ كانت من آيات الله تعالى كافٍ في الأظلمية فما ظنُّك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل، والمعنى إنكارُ أن يكون أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساويًا له وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرضًا لإنكار المساواةِ ونفيها، فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلان أو لا أفضلُ منه فالمرادُ به حتمًا بحكم العرف الفاشي والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل، وقد مر مرارًا.

﴿وصدف عنها﴾ أي صرَفَ الناس عنها فجمعَ بين الضلال والإضلالِ ﴿سنجزي الذين يصدفون﴾ الناسَ ﴿عن آياتنا﴾ وعيدٌ لهم ببيان جزاء إضلالِهم بحيث يُفهم منه

= «والثاني» قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩).

(١) في المخطوط: وأي بينه.

جزاءُ ضلالهم أيضًا، ووضعُ الموصول موضع المُضمر لتحقيق مناطِ الجزاء ﴿**سوء العذاب**﴾ أي العذابَ السيئ الشديدَ النكاية ﴿**بما كانوا يصدفون**﴾ أي بسبب ما كانوا يفعلون [من][1] الصَّدْف والصرْف على التجدد والاستمرارِ، وهذا تصريحٌ بما أَشعرَ به إجراءُ الحُكم على الموصول من عِلّية ما في حيز الصلة له.

﴿**هل ينظرون**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمانُ بإنزال ما ذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادي في المكابرة واقتراحِ ما ينافي الحكمةَ التشريعية من الآيات المُلجئة وأن الإيمانَ عند إتيانها مما لا فائدةَ له أصلًا مبالغةً في التبليغ والإنذار وإزاحةِ العلل والأعذار، أي ما ينتظرون ﴿**إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك**﴾ حسبما اقترحوا بقولهم: ﴿**لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نرى ربَّنا**﴾ [الفرقان، الآية ٢١] وبقولهم: ﴿**أو تأتيَ بالله والملائكةِ قَبيلًا**﴾ [الإسراء، الآية ٩٢] وبقولهم: ﴿**لولا أنزل عليه ملك**﴾ [الأنعام، الآية ٨] ونحو ذلك أو إلا أن تأتيهم ملائكةُ العذاب أو يأتيَ أمرُ ربك بالعذاب، والانتظارُ محمولٌ على التمثيل كما سيجيء، وقرئ[2] يأتيَهم بالياء لأن تأنيثَ الملائكة غيرُ حقيقي.

﴿**أو يأتيَ بعضُ آيات ربك**﴾ أي غيرُ ما ذكر كما اقترحوا بقولهم: ﴿**أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا**﴾ [الإسراء، الآية ٩٢] ونحوِ ذلك من عظائم الآياتِ التي علّقوا بها إيمانَهم، والتعبيرُ عنها بالبعض للتهويل والتفخيم، كما أَن إضافةَ الآياتِ في الموضعين إلى اسم الربِّ المنبئ عن المالكية الكليةِ لذلك، وإضافتَه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف، وقيل: المرادُ بالملائكة ملائكةُ الموت وبإتيانه سبحانه وتعالى إتيانُ كل آياتِه بمعنى آياتِ القيامةِ والهلاكُ الكليُّ بقرينة ما بعده من إتيان بعضِ آياتِه تعالى على أن المرادَ به أشراطُ الساعةِ التي هي (الدخانُ ودابةُ الأرضِ وخسفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسفٌ بجزيرة العرب والدجالُ وطلوعُ الشمس من مغربها ويأجوجُ ومأجوجُ ونزولُ عيسى عليه السلام ونارٌ تخرج من عَدَنَ) كما نطق به الحديثُ الشريفُ المشهورُ[3] وحيث لم يكن إتيانُ هذه الأمورِ مما

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢٥٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٥٢)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٢٥، ٢٢٢٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الآيات تكون قبل الساعة، حديث (٣٩، ٤٠، ٤١/ ٢٩٠١)، وأبو داود (٤/ ١١٤) كتاب الملاحم، باب: أمارات الساعة، حديث =

ينتظرونه كإتيان ما اقترحوه من الآيات فإن تعليقَ إيمانِهم بإتيانها انتظارٌ منهم له ظاهرًا، حُمل الانتظارُ على التمثيل المبني على تشبيه حالِهم في الإصرار على الكفر والتمادي في العناد إلى أن تأتيَهم تلك الأمورُ الهائلةُ التي لا بد لهم من الإيمان عند مشاهدتِها ألبتةَ بحال المنتظرين لها. وأنت خبيرٌ بأن النظمَ الكريمَ بسياقه المُنبئ عن تماديهم في تكذيب آياتِ الله تعالى وعدمِ الاعتدادِ بها وسياقِه الناطقِ بعدم نفع الإيمانِ عند إتيان ما ينتظرونه يستدعي أن يُحملَ ذلك على أمور هائلةٍ مخصوصةٍ بهم إما بأن تكونَ عبارةً عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبةٍ على جناياتهم كإتيان ملائكةِ العذاب وإتيانِ أمرِه تعالى بالعذاب وهو الأنسبُ لما سيأتي من قوله تعالى: **﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾** [الأنعام، الآية ١٥٨].

وأما حملُه على ما ذُكر من إتيان ملائكةِ الموتِ وإتيانِ كل آياتِ القيامةِ وظهورِ أشراطِ الساعة مع شمول إتيانِها لكل برّ وفاجر، واشتمالِ غائلتِها على كل مؤمن وكافرٍ فمما لا يساعده المقامُ على أن بعضَ أشراطِ الساعةِ ليس مما ينسدّ به بابُ الإيمان والطاعة، نعم يجوزُ حملُ بعضِ الآياتِ في قوله عز وجل: **﴿يوم يأتي بعضُ آيات ربك﴾** على ما يعم مقترحاتِهم وغيرَها من الدواعي[١] العظامِ السالبةِ للاختيار الذي عليه يدور فلكُ التكليفِ فإنه بمنزلة الكبرى من الشكل الأولِ فيتم التقريبُ عند وقوعِها بدخول ما ينتظرونه في ذلك دخولًا أوليًا، ويوم منصوب بقوله تعالى: **﴿لا ينفع﴾** فإن امتناعَ عملِ ما بعد (لا) فيما قبلها عند وقوعِها جوابَ القسم.

وقرئ[٢] (يومُ) بالرفع على الابتداء والخبرُ هو الجملةُ والعائدُ محذوفٌ أي لا تنفع[٣] فيه **﴿نفسًا﴾** من النفوس **﴿إيمانها﴾** حينئذ لانكشاف الحالِ وكون الأمرِ عيانًا، ومدارُ قَبولِ الإيمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى: **﴿فلم يك ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا﴾** [غافر، الآية ٨٥].

= (٤٣١١)، والترمذي (٤/ ٥٢) كتاب الفتن، باب: ما جاء في الخسف، حديث (٢١٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٨) كتاب الفتن، باب: الآيات، حديث (٤٠٥٥)، وأحمد (٤/ ٦، ٧)، والحميدي (٨٢٧)، والطيالسي (١٠٦٧)، وابن حبان (٦٧٩١) وغيرهم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) في المخطوط: الدواهي.

(٢) قرأ بها: زهير القروي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٦٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٦).

(٣) في المخطوط: لا ينفع.

وقرئ[1] (لا تنفع) بالتاء الفوقانية لاكتساب الإيمانِ من ملابسة المضاف إليه تأنيثًا.

وقوله تعالى: ﴿**لم تكن آمنت من قبل**﴾ أي من قبلِ إتيانِ بعضِ الآياتِ، صفةٌ لـ (نفسًا) فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوفِ ولا ضيرَ فيه لأنه غيرُ أجنبيٍّ منه لاشتراكهما في العامل.

وقوله تعالى: ﴿**أو كسبت في إيمانها خيرًا**﴾ عطفٌ على (آمنت) بإيراد الترديدِ على النفي المفيدِ لكفاية أحد النفيين في عدم النفعِ، والمعنى أنه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفسًا لم تقدّم إيمانَها أو قدّمتْه ولم تكسِبْ فيه خيرًا، ومن ضرورته اشتراطُ النفعِ بتحقق الأمرين، أي الإيمانِ المقدَّمِ والخيرِ المكسوب فيه معًا، بمعنى أن النافعَ هو تحققُهما والإيمانُ المؤخرُ لغوٌ وتحصيلٌ للحاصل لا أنه هو النافعُ، وتحققُهما شرطٌ في نفعه كما لو كان المقدَّمُ غيرَ المؤخرِ بالذات، فإن قولَك: لا ينفع الصومُ والصدقةُ مَنْ لم يؤمِنْ قبلَهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعِهما بعد الإيمان، وقد استدل به أهلُ الاعتزالِ على عدم اعتبار الإيمانِ المجردِ عن الأعمال، وليس بناهض ضرورةَ صحةِ حملِه على نفي الترديدِ المستلزِم لعمومه المفيدِ بمنطوقه لاشتراط عدمِ النفع بعدم الأمرين معًا وبمفهومه لاشتراط النفعِ بتحقق أحدِهما بطريق منع الخلوِّ دون الانفصالِ الحقيقي، فالمعنى أنه لا ينفع الإيمانُ حينئذ نفسًا لم يصدُرْ عنها من قبلُ أحدُ الأمرين، أما الإيمانُ المجردُ أو الخيرُ المكسوبُ فيه فيتحقق النفعُ بأيهما كان حسبما تنطِقُ به النصوصُ الكريمةُ من الآيات والأحاديث؛ وما قيل من أن عدمَ الإيمانِ السابقِ مستلزمٌ لعدم كسب الخيرِ فيه بالضرورة فيكون ذكرُه تكرارًا بلا فائدة على أن الموجبَ للخلود في النار هو العدمُ الأولُ من غير أن يكون للثاني دخلٌ ما في ذلك قطعًا، فيكون ذكرُه بصدد بيانِ ما يوجب الخلودَ لغوًا من الكلام لغو من الكلام - مبني على توهم أن المقصودَ بوصف النفسِ بالعدمين المذكورين مجردُ بيانِ إيجابِهما للخلود فيها وعدمِ نفع الإيمان الحادثِ في إنجائها عنه وليس كذلك، وإلا لكفىٰ في البيان أن يقال: لا ينفعُ نفسًا إيمانُها الحادثُ، بل المقصِدُ الأصليُّ من وصفها بذينك العدمين في أثناء بيانِ عدم نفعِ الإيمان الحادثِ تحقيقُ أن موجبَ النفع إحدى

---

(١) قرأ بها: ابن سيرين، وأبو العالية.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٩٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٣٦).

مَلَكتيهما، أعني الإيمانَ السابقَ والخيرَ المكسوبَ فيه بما ذكر من الطريقة والترغيبِ في تحصيلهما في ضمن التحذيرِ من تركهما، ولا سبيلَ إلى أن يقال: كما أن عدمَ الأولِ مستقلٌّ في إيجاب الخلودِ في النار فيلغو ذكرُ عدمِ الثاني، كذلك وجوده مستقل في إيجاب الخلاصِ عنها فيكون ذكرُ الثاني لغوًا لما أنه قياسٌ مع الفارق. كيف لا والخلود فيها أمرٌ لا يُتصوَّر فيه تعددُ العللِ، وأما الخلاصُ عنها مع دخولِ الجنةِ فله مراتبُ بعضُها مترتبٌ على نفس الإيمان وبعضُها على فروعه المتفاوتةِ كمًّا وكيفًا، وإنما لم يُقتصر على بيان ما يوجب أصلَ النفعِ وهو الإيمان السابق مع أنه وهو المقابلُ لما لا يوجبه أصلًا ـ أعني الإيمانَ الحادثَ ـ بل قرَنَ به ما يوجب النفعَ الزائدَ أيضًا، إرشادًا إلى تحرّي الأعلى وتنبيهًا على كفاية الأدنى وإقناطًا للكفرة عما علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ من أعمال البِرّ التي عمِلوها في الكفر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفك العُناةِ وإغاثةِ الملهوفين وقِرىٰ الأضيافِ وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغوٌ بحتٌ لابتنائه على غير أساسٍ حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿**والذين كفروا أعمالُهم كرمادٍ اشتدتْ به الريحُ**﴾ [إبراهيم، الآية ١٨] ونحوُ ذلك من النصوص الكريمة، وأن الإيمانَ الحادثَ كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالِهم السابقةِ واللاحقة، ولك أن تقول: المقصودُ بوصف النفسِ بما ذُكر من العدمين التعريضُ بحال الكفرة في تمردهم وتفريطِهم في كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوبُ أحدِهما منوطًا بالآخر كما في قوله عز وجل: ﴿**فلا صدّق ولا صلّى**﴾ [القيامة، الآية ٣١] تسجيلًا بكمال طغيانِهم وإيذانًا بتضاعف عقابِهم لما تقرر من أن الكفارَ مخاطَبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**وويل للمشركين الذين لا يُؤتون الزكاة**﴾ [فصلت، الآية ٦ و٧] إذا تحققت هذا وقفتَ على أن الآيةَ الكريمة أحقُّ بأن تكون حجةً على المعتزلة من أن تكون حجةً لهم. هذا وقد قيل: إنها من باب اللف التقديريِّ، أي لا ينفع نفسًا إيمانُها ولا كسبُها في الإيمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه، وليس بواضح فإن مبنىٰ اللفِّ التقديريِّ أن يكون المقدرُ من متمّمات الكلامِ ومقتَضيات المقام قد ترك ذكرَه تعويلًا على دِلالة الملفوظِ عليه واقتضائِه إياه كما مر في تفسير قوله عز وجل: ﴿**ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبرْ فسيحشُرهم إليه جميعًا**﴾ [النساء، الآية ١٧٢] فإنه قد طُوي في المفصل ذكرُ حشرِ المؤمنين ثقةً بإنباء التفصيل عنه أعني قوله تعالى: ﴿**فأما الذين آمنوا**﴾ [البقرة، الآية ٢٦] ولا ريب في أن ما قُدّر هاهنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى: ﴿**أو كسبت في إيمانها خيرًا**﴾ [الأنعام، الآية ١٥٨] ولا هو من

مقتضيات المقامِ لأنه ليس مما وُعِدوه وعلّقوه بإتيان ما ذكر من الآيات كالإيمان حتى يرِدَ عليهم ببيانَ عدمِ نفعِه إذ ذاك، على أن ذلك مشعرٌ بأن لهم بعد ما أصابهم من الدواهي ما أصابهم بقاءً على السلامة وزمانًا يتأتى منهم الكسبُ والعملُ فيه، وفيه من الإخلال بمقام تهويلِ الخطبِ وتفظيعِ الحال ما لا يخفى.

وقد أُجيب عن الاستدلال بوجوه أُخَرَ قُصارىٰ أمرِها إسقاطُ الآية الكريمةِ عن رتبة المعارضةِ للنصوص القطعيةِ المتونِ القويةِ الدلالةِ على ما ذُكر من كفاية الإيمان المجردِ عن العمل في الإنجاء من العذاب الخالدِ ولو بعد اللتيا والتي لِما تقرر من أن الظنيَّ بمعزل من معارضة القطعي.

﴿قل﴾ لهم بعد بيانِ حقيقةِ الحالِ على وجه التهديد **﴿انتظروا﴾** ما تنتظرونه من إتيان أحدِ الأمورِ الثلاثةِ لترَوا أيَّ شيء تنتظرون **﴿إنا منتظرون﴾** لذلك لنشاهدَ ما يحِلُّ بكم من سوء العاقبة، وفيه تأييدٌ لكون المرادِ بما ينتظرونه إتيانَ ملائكةِ العذابِ أو إتيانَ أمرِه تعالى بالعذاب كما أشير إليه، وعِدَةٌ ضمنيةٌ لرسول الله ﷺ والمؤمنين بمعاينتهم لما يَحيق بالكفرة من العقاب، ولعل ذلك هو الذي شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم.

﴿إن الذين فرقوا دينهم﴾ استئنافٌ لبيان أحوالِ أهلِ الكتابين إثرَ بيانِ حالِ المشركين أي بدّدوه وبعّضوه فتمسك بكل بعضٍ منه فِرقةٌ منهم، وقرئ[1] (فارقوا) أي باينوا، فإن تركَ بعضِه وإن كان بأخذ بعضٍ آخرَ منه تركٌ للكل ومفارقةٌ له **﴿وكانوا شيعًا﴾** أي فِرقًا تشيّع كلُّ فِرقةٍ إمامًا لها قال عليه الصلاة والسلام: «**افترقت اليهودُ والنصارى على إحدى وسبعين فرقةً كلهم في الهاوية إلا واحدة واقترفت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة**»[2] واستثناء الواحدة من فِرَق كلٍّ من أهل الكتابين إنما هو

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والحسن، وعلي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٥٤)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٦٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ١٩٧-١٩٨) كتاب السنة: باب شرح السنة حديث (٤٥٩٦)، والترمذي (٥/ ٢٥) كتاب الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة حديث (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢١) كتاب الفتن، باب افتراق الأمم حديث (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) وابن حبان (١٨٣٤-موارد)، والحاكم (١/ ٦، ١٢٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٣١٧) رقم (٥٩١٠)، والآجري في «الشريعة» (١/ ٢٥)؛ =

بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخِ وأما بعده فالكلُّ في الهاوية وإن اختلفت أسبابُ

= كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا وقال الترمذي: حسن صحيح.
وقال الحاكم في الموضع الأول: صحيح على شرط مسلم، قال: احتج مسلم بمحمد بن عمرو وتعقبه الذهبي، فقال: ما احتج مسلم بمحمد بن عمرو منفردًا، بل بانضمامه إلى غيره ا.هـ.
قلت: وهو الصواب إن شاء الله والعجب من الذهبي - رحمه الله- بعد أن قال ذلك في محمد بن عمرو، وتعقب الحاكم في تصحيحه على شرط مسلم نجده وافق الحاكم على هذا التصحيح في موضع آخر من المستدرك (١/ ١٢٨).
والحديث صححه أيضا العلامة أحمد شاكر في «تعليقه على المسند» (٨٣٧٧)، فقال: إسناده صحيح.
وفي الباب عن جماعة من الأصحاب، وهم أنس بن مالك، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن عوف، وعوف بن مالك، وأبو أمامة، وجابر.
حديث أنس بن مالك:
وله طرق:
الطريق الأول:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢) كتاب الفتن، باب افتراق الأمم حديث (٣٩٩٣) من طريق قتادة عن أنس مرفوعًا.
وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات.
الطريق الثاني:
أخرجه أبو يعلى (٧/ ١٥٤-١٥٦) رقم (٤١٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٥٢) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٤٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٦٥) من طريق يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعًا مطولًا ومختصرًا وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٢٩)، وقال: رواه أبو يعلى ويزيد الرقاشي ضعفه الجمهور، وفيه توثيق ولين، وبقية رجاله رجال الصحيح.
الطريق الثالث:
أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠) من طريق زياد بن عبد الله النميري عن أنس به.
الطريق الرابع:
أخرجه أحمد (٣/ ١٤٥) من طريق ابن لهيعة، ثنا خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن أنس بن مالك.
وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.
الطريق الخامس:
أخرجه الآجري في «الشريعة» (١/ ١٦) وابن بطة في «الإبانة» (٢٦٩) من طريق زيد بن أسلم عن أنس.
حديث معاوية بن أبي سفيان:
أخرجه أبو داود (٤/ ١٩٨) كتاب السنة: باب شرح السنة- حديث (٤٥٩٧)، والدارمي (٢/ ٢٤١) كتاب السير: باب في افتراق هذه الأمة، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والآجري في «الشريعة» (١/ ١٨)؛ كلهم من طريق صفوان عن أزهر بن عبد الله الهوزني عن أبي عامر عبد الله بن =

دخولِهم فمعنى قوله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرّضِ لمن يناصرك[1] منهم بالمناقشة والمؤاخذة، وقيل: من قتالهم في شيء سوى تبليغِ الرسالةِ وإظهارِ شعائرِ الدين الحقِّ الذي أُمرت بالدعوة إليه فيكون منسوخًا بآية السيف.

وقوله تعالى: ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ تعليلٌ للنفي المذكورِ أي هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم في الدنيا التي شاء ويأمر بقتالهم إذا أراد وقيل: المفرقون أهل البدع والأهواء الزائغة من هذه الأمة ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم في شيء حينئذ أنت بريء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور ﴿ثم ينبئهم﴾ أي يوم القيامة ﴿بما كانوا يفعلون﴾ عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهًا على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أي يظهر لهم على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء.

= لحي عن معاوية بن أبي سفيان به.
حديث عمرو بن عوف:
أخرجه الحاكم (١/ ١٢٨).
حديث عوف بن مالك:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢) كتاب الفتن، باب افتراق الأمم حديث (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٣) من طريق عباد بن يوسف ثنا صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك مرفوعًا.
حديث أبي أمامة:
أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٢٧-٣٢٨) رقم (٨٠٥١) من طريق أبي غالب عن أبي أمامة مطولًا، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٣٧)، قال: قلت: رواه ابن ماجه والترمذي باختصار. ورواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ.
والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٨٦-٨٧) رقم (٢٩٥٤)، وعزاه للحارث بن أبي أسامة في مسنده.
حديث جابر:
أخرجه بحشل في «تاريخ واسط»؛ كما في «تخريج الزيلعي» (١/ ٤٥٠).
حديث سعد بن أبي وقاص:
عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٨٨) إلى أبي بكر بن أبي شيبة في مسنده.

(١) في المخطوط: يعاصرك.

جزاء العاملين

وقوله تعالى: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**﴾ استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم. قال عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم: (يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات) أي من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلًا[١] من الله عز وجل وقرئ[٢] (عشر) بالتنوين و(أمثالها) بالرفع على الوصف وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل: المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ أي بالأعمال السيئة كائنًا من كان من العاملين ﴿**فلا يجزى إلا مثلها**﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿**قل إنني هداني ربي**﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يبين لهم ما هو عليه من الدين الحق الذي يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية؛ وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لمزيد تشريفه، أي قل لأولئك المفرقين: أرشدني ربي بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفسِ من الآيات التكوينية ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾ موصلٍ إلى الحق وقوله تعالى: ﴿**دينًا**﴾ بدلٌ من إلى صراط فإن محله النصبُ كما في قوله تعالى: ﴿**ويهديَك صراطًا مستقيمًا**﴾ [الفتح، الآية ٢] أو مفعولٌ لفعل مضمرٍ يدل عليه المذكورُ ﴿**قِيَمًا**﴾ مصدرٌ نُعت به مبالغةً والقياسُ قِوَمًا كعِوَض فاعل لإعلال فعلِه كالقيام وقرئ[٣] قيّمًا وهو فيْعلٌ[٤] من قام كسيّد من ساد وهو أبلغُ من المستقيم

---

(١) في المخطوط: فضلا.

(٢) قرأ بها: يعقوب، والحسن، والأعمش، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والقزاز، وعبد الوارث. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٩٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤، ١٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٥١)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٢، ١٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٨٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤، ١٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٥٢)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٨٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٤).

(٤) في المخطوط: فعيل.

باعتبار الزنة وإن كان هو أبلغَ منه باعتبار الصيغة ﴿**ملة إبراهيم**﴾ عطفُ بيانٍ لدينًا ﴿**حنيفًا**﴾ حالٌ من إبراهيمَ أي مائلًا عن الأديان الباطلةِ، وقوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرِّقون لدينه من عقْد وعَمَل أي ما كان منهم في أمر من أمور دينِهم أصلًا وفرعًا، صرّح بذلك ردًا على الذين يدّعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكةَ واليهودِ المشركين بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله والنصارى المشركين بقولهم: المسيحُ ابنُ الله.

﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾ أُعيد الأمرُ لِما أن المأثورَ[1] به متعلِّقٌ بفروع الشرائعِ وما سبق بأصولها، أي عبادتي كلِّها وقيل: وذبحي، جُمع بينه وبين الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿**فصلِّ لربك وانحر**﴾ [الكوثر، الآية ٢] وقيل: صلاتي وحجّي ﴿**ومحياي ومماتي**﴾ أي وما أنا عليه في حياتي وما أكونُ عليه عند موتي من الإيمان والطاعةِ أو طاعات الحياةِ والخيراتِ المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير، وقرئ[2] (محيايْ) بسكون الياء إجراءً للوصل مُجرى الوقفِ ﴿**لله رب العالمين**﴾.

﴿**لا شريك له**﴾ خالصةً له لا أُشرِك فيها غيرَه ﴿**وبذلك**﴾ إشارةٌ إلى الإخلاص، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعلو رتبتِه وبُعدِ منزلتِه في الفضل أي بذلك الإخلاصِ ﴿**أُمرت**﴾ لا بشيء غيرِه وقوله تعالى: ﴿**وأنا أول المسلمين**﴾ لبيان مسارعتِه عليه السلام إلى الامتثال بما أُمر به وأن ما أُمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكلُّ مأمورون به ويقتدي به عليه السلام مَنْ أسلم منهم.

﴿**قل أغير الله أبغي ربًّا**﴾ آخرَ فأُشرِكَه في العبادة ﴿**وهو رب كل شيء**﴾ جملةٌ حالية مؤكدةٌ للإنكار، أي والحالُ أن كل ما سواه مربوبٌ له مثلي فكيف يُتصوّر أن يكون شريكًا له في المعبودية ﴿**ولا تكسب كل نفس إلا عليها**﴾ كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلَنا ولنحمِلْ خطاياكم إما بمعنى لِيُكْتَبْ علينا ما عمِلتم من الخطايا لا عليكم وإما بمعنى لنحمِلْ يوم القيامة ما كُتب عليكم من الخطايا فهذا ردٌّ له بالمعنى الأول، أي لا تكونُ جنايةُ نفسٍ من النفوس إلا عليها ومُحالٌ أن يكون

---

(١) في المخطوط: المأمور.

(٢) قرأ بها: نافع، وورش، وقالون، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢١)، والإعراب للنحاس (١/ ٥٩٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٤، ١٥٥)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٦١)، والتيسير للداني ص (١٠٨، ١٠٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٩).

صدورُها عن شخص وقرارُها على شخص آخرَ حتى يتأتىٰ ما ذكرتم وقولُه تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ردٌّ له بالمعنى الثاني أي لا تحمِلُ يومئذ نفسٌ حاملةٌ حِمْلَ نفسٍ أخرى حتى يصِحّ قولُكم ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى الكل لتأكيد الوعدِ وتشديدِ الوعيد إلى مالك أمورِكم ورجوعِكم يوم القيامة ﴿فينبئكم﴾ يومئذ ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ ببيان الرُّشدِ من الغيِّ وتمييزِ الحق من الباطل.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ حيث خلفتم الأممَ السالفة أو يخلُف بعضُكم بعضًا أو جعلكم خلفاءَ الله تعالى في أرضه تتصرفون فيها، على أن الخطابَ عام ﴿ورفع بعضكم﴾ في الشرف والغنى ﴿فوق بعض درجات﴾ كثيرةٍ متفاوتة ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من المال والجاهِ أي ليعامِلَكم معاملةَ من يبتليكم لينظُرَ ماذا تعملون من الشكر وضدَّه ﴿إن ربك﴾ تجريدُ الخطابِ لرسول الله ﷺ مع إضافة اسم الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإبراز مزيدِ اللطفِ به عليه السلام ﴿سريع العقاب﴾ أي عقابُه سريعُ الإتيان لمن لم يُراعِ حقوقَ ما آتاه الله تعالى ولم يشكُرْه لأن كلَّ آتٍ قريبٌ أو سريعُ التمامِ عند إرادتِه لتعاليه عن استعمال المبادي والآلات ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن راعاها كما ينبغي. وفي جعل خبرِ هذه الجملةِ من الصفات الذاتيةِ الواردةِ على بناء المبالغةِ مؤكدًا باللام مع جعل خبرِ الأولى صفةً جاريةً على غير مَنْ هي له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغٌ فيهما فاعلٌ للعقوبة بالعَرَض مسامحٌ فيها ما لا يخفى والله أعلم.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورةُ الأنعام جملةً واحدةً يشيِّعها سبعونَ ألفَ ملكٍ لهم زَجَلٌ[1] بالتسبيح والتحميد[2] فمن قرأ الأنعامَ صلى عليه واستغفر له أولئك السبعونَ ألفَ ملك بعد كل آية من سورة الأنعام يومًا وليلة»[3] والله تعالى أعلم.

---

(١) أي لهم صوت رفيعٌ عال. والزَّجَل: الجلبة ورفع الصوت، وخُصَّ بها التطريب. وسحابٌ ذو زَجَل: أي ذو رعد. ونَبْتٌ زَجِل: صوَّتت فيه الريح.

(٢) في المخطوط: والتمجيد.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة الأعراف

مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿واسألهم﴾ [الاعراف: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ [الاعراف: ١٧١] وآيها مائتان وست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾﴿المص﴾ إما مسرودٌ على نمط التعديدِ بأحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورةِ البقرة فلا محلَّ له من الإعراب، وإما اسمٌ للسورة فمحلُّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، والتقديرُ هذا (ألمص) أي مسمّى به، وتذكيرُ اسم الإشارة مع تأنيث المسمَّى لما أن الإشارةَ إليه من حيث إنه مسمّى بالاسم المذكور لا من حيث إنه مسمّىً بالسورة. وإنما صحت الإشارةُ إليه مع عدم سبقِ ذكرِه لما أنه باعتبار كونِه بصدد الذكرِ صار في حكم الحاضِر المشاهَد وقوله عز وجل: ﴿كتابٌ﴾ على الوجه الأولِ خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ وهو ما ينبئ عنه تعديدُ الحروفِ كأنه قيل: المؤلَّفُ من جنس هذه الحروفِ مرادًا به السورةُ كتابٌ إلخ، أو اسمُ إشارةٍ أشير به إليه تنزيلًا لحضور المؤلَّفِ منه منزلةَ حضورِ نفسِ المؤلّف، أي هذا كتابٌ إلخ، وعلى الوجه الثاني خبرٌ بعد خبرٍ جيء به إثرَ بيانِ كونه مترجمًا [له][1] باسم بديع مُنبئٍ عن غرابته في نفسه إبانةً لجلالة محلِّه ببيان كونِه فردًا من أفراد الكتبِ الإلٰهيةِ حائزًا

(١) سقط في المخطوط.

للكمالات المختصَّة بها، وقد جُوّز كونُه خبرًا، وألمص مبتدأٌ أي المسمّى بـ (ألمص) كتابٌ. وقد عرفتَ ما فيه من أن ما يجعل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتسابِ إليه عند المخاطَب، وإذْ لا عهدَ بالتسمية قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها ﴿أنزل إليك﴾ أي من جهته تعالى بُني الفعلُ للمفعول جريًا على سَنن الكبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهورِ تعيُّنِه وهو السرُّ في ترك ذكرِ مبدأ الإنزال كما في قوله جل ذكره: ﴿بلِّغْ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة، الآية ٦٧] ونظائرِه، والجملةُ صفةٌ لكتابٌ مشرِّفةٌ له ولمن أُنزل إليه، وجعلُه خبرًا له على معنى: كتابٌ عظيمُ الشأنِ أُنزل إليك خلاف الأصل ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ أي شك كما في قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ [يونس، الآية ٩٤] خلا أنه عبّر عنه بما يلازمه من الحَرَج، فإن الشاكَّ يعتريه ضيقُ الصدرِ كما أن المتيقِّنَ يعتريه انشراحُه وانفساحُه مبالغةً في تنزيه ساحتِه عليه الصلاة والسلام، عن نسبته الشك إليه ولو في ضمن النهي، فإنه من الأحوال القلبية التي يستحيل اعتراؤها إياه - عليه السلام -[وما قد يقع من نسبته إليه][1] في ضمن النهي فعلى طريقةِ التهييج والإلهاب والمبالغة في التنفير والتحذيرِ بإيهام أن ذلك من القبح والشرِّية بحيث ينهىٰ عنه من لا يمكنُ صدورُه عنه أصلًا فكيف بمن يُمكن ذلك منه، والتنوينُ للتحقير والجرُّ في قوله تعالى: ﴿منه﴾ متعلقٌ بـ (حرَجٌ) يقال: حرِج منه أي ضاق به صدرُه، أو بمحذوف وقع صفةً به أي حرجٌ كائنٌ منه أي لا يكن فيك ما في حقِّيته أو في كونه كتابًا منزلًا إليك من عنده تعالى، فالفاءُ على الأول لترتيب النهي أو الانتهاء على مضمون الجملةِ فإنه مما يوجب انتفاءَ الشكِّ فيما ذُكر بالكلية وحصولَ اليقينِ به قطعًا، وأما على الثاني فهي لترتيب ما ذُكر على الإخبار بذلك لا على نفسه فتدبر. وتوجيه النهي إلى الحرَج مع أن المرادَ نهيُه عليه الصلاة والسلام عنه إما لما مر من المبالغة في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذُكر فإن النهيَ عن الشيء مما يوهم إمكانَ صدور المنهيِّ عنه عن المنْهيّ، وإما للمبالغة في النهي، فإن وقوعَ الشكِّ في صدره عليه الصلاة والسلام سببٌ لاتصافه عليه الصلاة والسلام به، والنهيُ عن السبب نهيٌ عن المسبَّب بالطريق البرهاني ونفيٌ له من[2] أصله بالمرة كما في قوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآنُ قومٍ﴾ [المائدة، الآية ٢] وليس هذا من قبيل لا أُرَيَنّك هاهنا فإن النهيَ هناك واردٌ على المسبب مرادٌ به النهيُ عن السبب فيكونُ المآلُ نهيَه عليه الصلاة والسلام عن تعاطي

(١) سقط في المخطوط. (٢) في المخطوط: عن.

ما يُورِثُ الحرَجَ فتأملْ. وقيل: الحرجُ على حقيقته أي لا يكنْ فيك ضيقُ صدرٍ من تبليغه مخافةَ أن يكذّبوك وأن تُقصّر في القيام بحقه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيبَ قومِه له وإعراضَهم عنه فكان يضيق صدرُه من الأداء ولا ينبسِطُ له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم، فالفاءُ حينئذ للترتيب على مضمون الجملةِ أو على الإخبار به فإن كلاً منهما موجبٌ للإقدام على التبليغ وزوالِ الخوفِ قطعًا وإن كان إيجابُه الثاني بواسطة الأول، وقولُه تعالى: ﴿**لتنذر به**﴾ أي بالكتاب المنزل متعلقٌ بأُنزل، وما بينهما اعتراضٌ توسّط بينهما تقريرًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده وحسمًا لتوهم أنَّ موردَ الشكِّ هو الإنزالُ للإنذار وقيل: متعلقٌ بالنهي فإن انتفاءَ الشكِّ في كونه منزلًا من عنده تعالى موجبٌ للإنذار به قطعًا وكذا انتفاءُ الخوفِ منهم أو لعلمُ بأنه موفقٌ للقيام بحقه موجبٌ للتجاسر على ذلك. وأنت خبيرٌ بأنه لا يتأتى على التفسير الأولِ لأن تعليلَ النهي عن الشك بما ذكر من الإنذار والتذكيرِ مع إيهامه لإمكان صدورِه عنه عليه الصلاة والسلام، مُشعرٌ بأن المنهيَّ عنه ليس محذورًا لذاته بل لإفضائه إلى فوات الإنذارِ والتذكير لا أقل من الإيذان بأن ذلك معظمُ غايته[1] ولا ريب في فساده، وأما على التفسير الثاني فإنما يتأتى التعليلُ بالإنذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتى يُجعل غايةً لانتفائه.

وقوله تعالى: ﴿**وذكرى للمؤمنين**﴾ في حيز النصبِ بإضمار فعلِه معطوفًا على تنذرَ أي وتذكّرَ المؤمنين تذكيرًا، أو الجرِّ عطفًا على محل أن تنذرَ أي للإنذار والتذكير، وقيل: مرفوعٌ عطفًا على كتابٌ أو خبرٌ لمبتدإ محذوفٍ، وتخصيصُ التذكيرِ[2] بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذارِ بالكفرة أي لتنذرَ به المشركين وتذكرَ المؤمنين، وتقديمُ الإنذار لأنه أهمُّ بحسب المقام.

﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم**﴾ كلامٌ مستأنفٌ خوطب به كافةُ المكلفين بطريق التلوينِ[3] وأُمروا باتباع ما أمر النبي ﷺ قبل تبليغِه[4] بطريق الإنذار والتذكيرِ، وجعلُه منزلًا إليهم بواسطة إنزالِه إليه عليه الصلاة والسلام إثرَ ذلك[5] ما يصححه من الإنذار

---

(١) في ط: غائلته.
(٢) في المخطوط: الذكر.
(٣) التَّلْوين: هو الانتقال من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر. وهو أعمُّ من الالتفات. والتلوين هنا هو الانتقال من مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام إلى مخاطبة المؤمنين أو كافة المكلفين.
(٤) في المخطوط: قبله بتبليغه.
(٥) في المخطوط: ذكر.

والتذكير، لتأكيد وجوبِ اتباعه.

وقولُه تعالى: ﴿من ربكم﴾ متعلقٌ بـ (أُنزل) على أن (من) لابتداء الغايةِ مجازًا أو بمحذوف وقع حالًا من الموصول أو من ضميره في الصلة، وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامتثال بما أُمروا به وتأكيدٌ لوجوبه، وجعلُ ما أنزل هاهنا عامًّا للسنة القولية والفعلية بعيدٌ. نعم يعمُّهما حكمُه بطريق الدِلالةِ لا بطريق العبادةِ؛ ولما كان اتباعُ ما أنزله الله تعالى اتباعًا له تعالى عُقّب الأمرُ بذلك بالنهي عن اتباع غيرِه تعالى فقيل: ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ أي من دون ربكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق، ومحلُّه النصبُ على أنه حالٌ من فاعل فعلِ النهي أي لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿أولياء﴾ من الجن والإنسِ بأن تقبلوا منهم ما يُلْقونه إليكم بطريق الوسوسةِ والإغواءِ من الأباطيل ليضلّوكم عن الحق ويَحمِلوكم على البدع والأهواءِ الزائغةِ أو مِنْ أولياءَ، قُدّم عليه لكونه نكرةً إذ لو أُخر عنه لكان صفةً له أي أولياءَ كائنةً غيرَه تعالى، وقيل: الضميرُ للموصول على حذف المضافِ في أولياء ولا تتبعوا من دون ما أَنزل أباطيلَ أولياءَ كأنه قيل: ولا تتبعوا من دون دينِ ربِّكم دينَ أولياءَ، وقرئ[1] (ولا تبتغوا) كما في قوله تعالى: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دينًا﴾ [آل عمران، الآية ٨٥].

وقولُه تعالى: ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيفِ الذال، وقرئ[2] بتشديدها على إدغام التاء المهموسةِ في الذال المجهورة، وقرئ[3] (يتذكرون) على صيغة الغَيبة، و(قليلًا) نُصب إما بما بعده على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ مقدَّم للقصر، أو لزمانٍ كذلك محذوفٍ و(ما) مزيدةٌ لتأكيد القِلة، أي تذكرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تذكرون لا كثيرًا حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دينَ الله تعالى

---

(١) قرأ بها: مالك بن دينار.
ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وخلف، وأبو الدرداء، وابن عباس. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٨).

(٣) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٨١)، والتيسير للداني ص (١٠٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٠٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٤)، وتفسير الرازي (٤/ ١٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٧).

وتتبعون غيرَه، ويجوز أن يُراد بالقلة العدمُ كما قيل في قوله تعالى: **﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾** [البقرة، الآية ٨٨] والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مسوقٌ لتقبيح حالِ المخاطَبين، والالتفاتُ على القراءة الأخيرةِ للإيذان باقتضاء سوءِ حالِهم في عدم الامتثالِ بالأمر والنهي على صرفِ الخطابِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرهم بطريق المباثّة[1]، وإما نُصبَ على أنه حالٌ من فاعل لا تتبعوا وما مصدريةٌ مرتفعةٌ به أي لا تتبعوا، من دونه أولياءَ قليلًا تذكّرُكم لكن لا على توجيه النهي إلى المقيد فقط كما في قوله تعالى: **﴿لا تقربوا الصَّلَاةَ وأنتم سُكَارى﴾** [النساء، الآية ٤٣] بل إلى المقيد والقيدِ جميعًا، وتخصيصُه بالذكر لمزيد تقبيحِ حالِهم بجمعهم بين المنكرين.

إنذار الكافرين

﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ شروعٌ في إنذارهم بما جرى على الأمم الماضيةِ بسبب إعراضِهم عن اتباع دينِ الله تعالى وإصرارِهم على اتباع دينِ أوليائِهم، وكم خبريةٌ للتكثير في موضع رفع على الابتداء كما في قولك: زيد ضربته، والخبرُ هو الجملةُ بعدها، ومن قرية تمييزٌ، والضميرُ في أهلكناها راجعٌ إلى معنى كم أي كثيرٌ من القرى أهلكناها أو في موضع نصب بأهلكناها كما في قوله تعالى: **﴿إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدَر﴾** [القمر، الآية ٤٩] والمرادُ بإهلاكها إرادةُ إهلاكِها كما في قوله تعالى: **﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾** [المائدة، الآية ٦] أي أردنا إهلاكَها **﴿فجاءها﴾** أي فجاء أهلَها **﴿بأسُنا﴾** أي عذابُنا **﴿بَيَاتًا﴾** مصدر بمعنى الفاعل واقعٌ موقعَ الحال أي بائتين كقوم لوطٍ **﴿أو هم قائلون﴾** عطفٌ عليه أي وقائلين من القيلولة نصفَ النهار كقوم شعيب، وإنما حُذفت الواو من الحال المعطوفةِ على أختها استثقالًا لاجتماع العاطفَين فإن واو الحال حرفُ عطفٍ قد استعيرت للوصل لا اكتفاءً بالضمير كما في جاءني زيد هو فارس فإنه غيرُ فصيح، وتخصيصُ الحالتين بالعذاب لما أن نزولَ المكروهِ عند الغفلة والدعَةِ أفظعُ وحكايتَه للسامعين أزجرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن والراحةِ، ووصفُ الكلِّ بوصفي البياتِ والقيلولة مع أن بعضَ المُهلَكين بمعزل منهما لا سيما القيلولةِ للإيذان بكمال غفلتِهم وأمنِهم.

﴿فما كان دعواهم﴾ أي دعاؤهم واستغاثتُهم ربَّهم أو ما كانوا يدّعونه من دينهم وينتحِلونه من مذهبهم **﴿إذ جاءهم بأسنا﴾** عذابُنا وعاينوا أَمارتَه **﴿إلا أن قالوا﴾** جميعًا **﴿إنا كنا ظالمين﴾** أي إلا اعترافَهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتَهم ببطلانه

---

(١) من قولهم: بثَّ فلاناً سرَّه أي أطلعه عليه.

تحسرًا عليه وندامةً وطمعًا في الخلاص، وهيهاتَ ولاتَ حينَ نجاةٍ **﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾** بيانٌ لعذابهم الأخرويِّ إثرَ بيانِ عذابِهم الدنيويِّ خلا أنه قد تعرض لبيان مبادي أحوالِ المكلفين جميعًا لكونه أدخلَ في التهويل، والفاءُ لترتيب الأحوالِ الأخرويةِ على الدنيوية ذِكرًا حسَبَ ترتبها عليها وجودًا، أي لنسألن الأممَ قاطبةً قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عما أُجيبوا قال تعالى: **﴿يوم يجمع الله الرسلَ فيقول ماذا أُجبتم﴾** [المائدة، الآية ١٠٩] والمرادُ بالسؤال توبيخُ الكفرة وتقريعُهم، والذي نُفيَ بقوله تعالى: **﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾** [القصص الآية: ٧٨] سؤالُ الاستعلامِ أو الأولُ في موقف الحساب والثاني في موقف العقاب **﴿فلنقص عليهم﴾** أي على الرسل حين يقولون: لا علم لنا إنك أنت علامُ الغيوب، أو عليهم وعلى المرسَل إليهم جميعًا ما كانوا عليه **﴿بعلم﴾** أي عالمين بظواهرهم وبواطنِهم أو بعلومنا منهم **﴿وما كنا غائبين﴾** عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيءٌ من أعمالهم وأحوالِهم، والجملةُ تذييلٌ مقرِّر لما قبلها.

﴿والوزن﴾ أي وزنُ الأعمالِ والتمييزُ بين راجحِها وخفيفِها وجيّدِها ورديئها، ورفعُه على الابتداء.

وقولُه تعالى: **﴿يومئذ﴾** خبرُه وقوله تعالى: **﴿الحق﴾** صفتُه، أي والوزنُ الحقُّ ثابتٌ يومَ إذ يكون السؤالُ والقَصّ.

وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ كأنه قيل: ما ذلك الوزن؟ فقيل: الحقُّ أي العدلُ السويُّ، وقرئ (القسطُ)، واختُلف في كيفية الوزن والجمهورُ على أن صحائفَ الأعمالِ هي التي توزن بميزان له لسانٌ وكِفّتان ينظُر إليه الخلائقُ إظهارًا للمَعْدلة وقطعًا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتُهم وجوارحُهم ويشهد عليهم الأنبياءُ والملائكةُ والأشهادُ وكما يُثبَتُ في صحائفهم فيقرءونها في موقف الحساب، ويؤيده ما رُوي (أن الرجلَ يؤتىٰ به إلى الميزان فيُنشر له تسعةٌ وتسعون سجِلًّا مدى البصر فيخرُج له بطاقةٌ فيها كلمتا الشهادة فتوضَع السجلاتُ في كِفة والبِطاقةُ في كفة فتطيش السجلاتُ وتثقُل البطاقةُ)[1] وقيل: يوزن الأشخاصُ لما روي عنه عليه الصلاة

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤، ٢٥) كتاب الإيمان، باب: فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧) كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، حديث (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١)، وعبد بن حميد (٣٣٩ - المنتخب)، وابن حبان =

والسلام: «**أنه ليأتي العظيمُ السمينُ يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة**»[١] وقيل: الوزنُ عبارة عن القضاء السويِّ والحُكم العادل وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك واختاره كثيرٌ من المتأخرين بناءً على أن استعمالَ لفظِ الوزنِ في هذا المعنى شائعٌ في اللغة والعُرفِ بطريق الكناية قالوا: إن الميزانَ إنما يُراد به التوصلُ إلى معرفة مقاديرِ الشيءِ، ومقاديرُ أعمالِ العباد لا يمكن إظهارُها بذلك لأنها أعراضٌ قد فَنِيَت وعلى تقدير بقائها لا تَقبل الوزن، وقيل: إن الأعمالَ الظاهرةَ في هذه النشأةِ بصور عرضيةٍ تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهريةٍ مناسبةٍ لها في الحسن والقبحِ حتى إن الذنوبَ والمعاصيَ تتجسم هناك وتتصور بصورة النار، وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ [التوبة، الآية ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿**الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا**﴾ [النساء، الآية ١٠] وكذا قولُه عليه الصلاة والسلام في حق مَنْ يشرب من إناء الذهب والفضةِ: «**إنما يُجرجِر في بطنه**[٢] **نارَ جهنم**» ولا بُعدَ في ذلك، ألا يُرى أن العلم يَظهر في عالم المثالِ على صورة اللبنِ كما لا يخفى على من له خِبرةٌ بأحوال الحضَراتِ الخمس.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يؤتىٰ بالأعمال الصالحة على صورٍ حسنةٍ وبالأعمال السيئة على صور قبيحةٍ فتوضع في الميزان. إن قيل: إن المكلّف يوم القيامةِ إما مؤمنٌ بأنه تعالى حكيمٌ منزَّهٌ عن الجَوْر فكيفيةُ حكمِه تعالى بكيفيات الأعمالِ وكمياتها [ظاهرةٌ][٣]، وإما منكِرٌ له فلا يسلمُ حينئذ أن رجحانَ بعضِ الأعمالِ على بعض لخصوصيات راجعةٍ إلى ذوات تلك الأعمالِ بل يُسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه فما الفائدةُ في الوزن؟ أجيب بأنه ينكشف الحالُ يومئذ وتظهر جميعُ الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالِها في أنفسها

= (٢٥٢٤ - موارد)، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم. وصححه ابن حبان.

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣٥١) كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾، برقم (٤٧٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة والجنة والنار، برقم (١٨/ ٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في المخطوط: بطونهم.
(٣) سقط في المخطوط.

من الحسن والقبحِ وغيرِ ذلك وتنخلع عن الصور المستعارةِ التي بها ظهرت في الدنيا فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها[١] شُبهةٌ في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقيةِ المستتبِعةِ لصفاته، ولا يخطُر بباله خلافُ ذلك والله تعالى أعلم.

﴿فمن ثقلت موازينه﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن، والموازينُ إما جمعُ ميزانٍ أو جمعُ موزونٍ على أن المرادَ به ما له وزنٌ وقدْرٌ وهو الحسنات، فإن رجحانَ أحدِهما مستلزم لرجحان الآخَر، أي فمَنْ رجَحت موازينُه التي توزن بها حسناتُه أو أعمالُه التي لها قدْرٌ وزنة، وعن الحسن البصري: وحُقّ لميزانٍ[٢] توضع فيه السيئاتُ أن يخِفّ ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بثقل الميزانِ، والجمعيةُ باعتبار معناه كما أن جمعَ الموازينِ لذلك، وأما ضميرُ (موازينِه) فراجعٌ إليه باعتبار لفظِه، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو طبقتِهم وبُعد منزلتهم في الفصل والشرف ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون بالنجاة والثوابِ، وهم إما ضميرُ فصلٍ يفصل بين الخبر والصفةِ ويؤكد النسبةَ ويفيد اختصاصَ المسندِ بالمسند إليه أو مبتدأٌ خبرُه (المفلحون) والجملةُ خبرٌ لأولئك، وتعريفُ المفلحون للدِلالة على أنهم الناسُ الذين بلغك أنهم مُفلحون في الآخرة، أو إشارةٌ إلى ما يعرِفه كلُّ أحد من حقيقة المفلحين وخصائصِهم ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي موازينُ أعمالِه أو أعمالُه التي لا وزن لها ولا اعتدادَ بها وهي أعْمالُه السيئة ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إليهم باعتبار اتصافِهم بتلك الصفة القبيحةِ، والجمعيةُ ومعنى البُعدِ لما مر آنفًا في نظيره وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي ضيّعوا الفطرةَ السليمةَ التي فُطروا عليها وقد أُيّدت بالآيات البينة[٣].

وقولُه تعالى: ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ متعلق بـ (خسروا)، وما مصدريةٌ، وبآياتنا متعلقٌ بـ (يظلمون) على تضمين معنى التكذيبِ قُدِّم عليه لمراعاة الفواصلِ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا أي فأولئك الموصوفون بخفة الموازينِ الذين خسروا أنفسَهم بسبب تكذيبِهم المستمر بآياتنا ظالمون.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا

---

(١) في المخطوط: شاهدها.
(٢) في المخطوط: الموازين.
(٣) في المخطوط: المبينة.

مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ لما أمر الله سبحانه أهلَ مكةَ باتباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبيّن لهم وخامةَ عاقبتِه بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلّد في الآخرة ذكّرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبةِ للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثرَ ترهيب أي جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها **﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾** المعايشُ جمعُ معيشةٍ وهي ما يُعاش به من المطاعم والمشاربِ وغيرِها، أو ما يُتوصَّل به إلى ذلك، والوجهُ في قراءته إخلاصُ[1] الياء وعن ابن عامرٍ أنه همزةٌ[2] تشبيهًا له بصحائف ومدائن، والجعلُ بمعنى الإنشاء والإبداع، أي أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعِكم فيها أسبابًا تعيشون بها، وكلٌّ واحد من الظرفين متعلقٌ به أو بمحذوف وقع حالًا من مفعوله المُنكّر، إذ لو تأخر لكان صفةً له وتقديمُهما على المفعول من أن حقهما التأخيرُ عنه لما مر غيرَ مرةٍ من الاعتناء بشأن المقدمِ والتشويقِ إلى المؤخر، فإن النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه

---

(١) أي اختيار القراءة بالياء لا بالهمزة.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، والأعرج، وزيد بن علي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٢)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٠٠)، والبحر المحيط (٤/ ٢٧١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٨١)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٧٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٣٩٩)، وتفسير الرازي (٤/ ١٨٣).

التقديمُ لا سيما عند كونِ المقدم منبئًا عن منفعة للسامع تبقىٰ مترقبةً لورود المؤخَّرِ فيتمكن فيها عند الورودِ فضلُ تمكّن، وأما تقديمُ اللامِ على في فلما أنه المنبىءُ عما ذُكر من المنفعة فالاعتناءُ بشأنه أتمُّ والمسارعةُ إلى ذكره أهمّ.

هذا[١] وقيل: إن الجعلَ متعدٍّ إلى مفعولين ثانيهما أحدُ الظرفين على أنه مستقر، قُدّم على الأول، والظرفُ الآخَرُ إما لغوٌ متعلقٌ بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالًا من المفعول الأولِ كما مر، وأنت خبيرٌ بأنه لا فائدةَ معتدٌّ[٢] بها في الإخبار بجعل المعايشِ حاصلةً لهم أو حاصلةً في الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿**قليلًا ما تشكرون**﴾ أي تلك النعمةَ، تذييلٌ مَسوقٌ لبيان سوءِ حالِ المخاطبين وتحذيرِهم وبقيةُ الكلامِ فيه عينُ ما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿**ما تذكرون**﴾ [الأعراف، الآية ٣].

العبرة في قصة آدم

﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم**﴾ تذكيرٌ لنعمة عظيمةٍ فائضةٍ على آدمَ عليه السلام ساريةٍ إلى ذريته موجبةٍ لشكرهم كافةً، وتأخيرُه عن تذكير ما وقع قبله[٣] من نعمة التمكينِ[٤] إما لأنها فائضةٌ على المخاطَبين بالذات وهذه بالواسطة، وإما للإيذان بأن كلا منهما نعمةٌ مستقلةٌ مستوجِبةٌ للشكر على حيالها، فإن رعايةَ الترتيبِ الوقوعيِّ ربما تؤدِّي إلى توهّم عدِّ الكلِّ نعمةً واحدةً كما ذكر في قصة آدمَ.

وتصديرُ الجملتين بالقسم وحرفِ التحقيقِ لإظهار كمالِ العناية بمضمونها، وإنما نُسب الخلقُ والتصويرُ إلى المخاطَبين مع أن المرادَ بهما خلقُ آدم عليه السلام وتصويرُه حتمًا توفيةً لمقام الامتنانِ حقَّه وتأكيدًا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظًّا من خلقه عليه السلام وتصويرِه لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكةِ له عليه السلام بل من الأمور الساريةِ إلى ذريته جميعًا إذ الكلُّ مخلوقٌ في ضمن خلقِه على نمطه ومصنوعٌ على شاكلته فكأنهم الذي تعلق به خلقُه وتصويرُه، أي خلقنا أباكم آدمَ طينًا غيرَ مُصوَّرٍ ثم صوَّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ[٥] سارَ إليكم جميعًا ﴿**ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾ صريحٌ في أنه ورد بعد خلقِه عليه الصلاة والسلام وتسويتِه ونفخِ الروحِ فيه أمرٌ مُنجَزٌ غيرُ الأمر المعلّق الواردِ

---

(١) زاد في المخطوط: وقد.
(٢) في المخطوط: يعتد.
(٣) في المخطوط: بعده.
(٤) زاد في المخطوط: في الأرض.
(٥) في المخطوط: تقدم.

قبل ذلك بقوله تعالى: ﴿**فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فقَعوا له ساجدين**﴾ [الأعراف، الآية ٣] وهو المراد بما حكي بقوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ**﴾ [البقرة: ٣٤ والإسراء: ٦١، والكهف: ٥٠ وطه: ١١٦] الآية، في سورة البقرة وسورةِ بني إسرئيلَ وسورةِ الكهف وسورةِ طه من غير تعرضٍ لوقته، وكلمة ثم هاهنا تقتضي تراخِيَه عن التصوير من غير تعرضٍ لبيان ما جرى بينهما من الأمور، وقد بينا في سورة البقرةِ أن ذلك ظهورُ فضلِ آدمَ عليه السلام بعد المحاورة المسبوقةِ بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به عز وجل: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾ [البقرة، الآية ٣٠] إلى قوله: ﴿**وما كنتم تكتمون**﴾ [البقرة، الآية ٣٣] فإن ذلك أيضًا من جملة ما نيط به الأمرُ المعلقُ من التسوية ونفخِ الروح، وعدمُ ذكرِه عند الحكايةِ لا يقتضي عدمَ ذكره عند وقوعِ المحكيّ كما أن عدم ذكرِ الأمرِ المنْجزِ لا يستلزمُ عدمَ مسبوقيتِه به فإن حكايةَ كلام واحدٍ على أساليبَ مختلفةٍ يقتضيها المقامُ ليست بعزيزة في الكلام العزيزِ، فلعله قد ألقى إلى الملائكة عليهم السلام أو إلى جميع ما يتوقفُ عليه الأمرُ المنجزُ إجمالًا بأن قيل مثلًا: إني خالقٌ بشرًا من طين[1] وجاعلٌ إياه خليفةً في الأرض فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي وتبيَّن لكم فضلُه فقَعوا له ساجدين، فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ما قالوا، أو ألقيَ إليهم خبرُ الخلافةِ بعد تحققِ الشرائطِ المذكورةِ بأن قيل إثرَ نفخِ الروحِ: إني جاعلٌ هذا خليفةً في الأرض فهنالك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الأسماءِ فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا فعند ذلك ورد الأمرُ المنْجزُ اعتناءً بشأن المأمور به وإيذانًا بوقته، وقد حُكيَ بعضُ الأمور المذكورة في بعض المواطنِ وبعضُها في بعضها اكتفاءً بما ذكر في كل موطنٍ عما تُرِك في موطن آخرَ.

والذي يرفع غشاوةَ الاشتباهِ عن البصائر السليمةِ أن ما في سورة (صٓ) من قوله تعالى: ﴿**إذ قال ربك للملائكة**﴾ [ص، الآية ٧١] الآيات، بدلٌ من قولِه: ﴿**إذ يختصمون**﴾ فيما قبله من قوله: ﴿**ما كان ليَ من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون**﴾ [ص، الآية ٦٩] أي بكلامهم عند اختصامِهم، ولا ريب في أن المرادَ بالملأ الأعلى الملائكةُ وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبق عليه جمهورُ المفسرين، وباختصامِهم ما جرى بينهم في شأن الخلافةِ من التقاول الذي[2] جملتُه ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء، ومن قضية البدلية وقوعُ الاختصام المذكورِ في

---

(١) في المخطوط: من كذا وكذا.

(٢) في المخطوط: من.

تضاعيف ما شُرح فيه مفصّلًا من الأمر المعلّق وما علق به من الخلق والتسويةِ ونفخِ الروحِ فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكةِ وعنادِ إبليسَ ولعنِه وإخراجِه من بين الملائكةِ وما جرى بعده من الأفعالِ والأقوالِ، وإذ ليس تمامُ الاختصامِ بعد سجود الملائكةِ وعنادِ إبليسَ ومكابرةِ إبليسَ وطردِه من البين، لما عرفت من أنه أحدُ المختصِمِين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة، فإذن هو بعد نفخِ الروحِ وقبل السجودِ بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم.

﴿**فسجدوا**﴾ أي الملائكةُ عليهم السلام بعد الأمرِ من غير تلعثم ﴿**إلا إبليسَ**﴾ استثناءٌ متصلٌ لما أنه كان جنيًّا مفردًا مغمورًا بألوف من الملائكة متَّصفًا بصفاتهم فغُلّبوا عليه في (فسجدوا) ثم استُثنِيَ استثناءَ واحدٍ منهم، أو لأن من الملائكة جنسًا يتوالدون يقال لهم: الجنُّ كما مر في سورة البقرة فقوله تعالى: ﴿**لم يكن من الساجدين**﴾ أي ممن سجد لآدمَ كلامٌ مستأنفٌ مُبينٌ لكيفية عدمِ السجود المفهوم من الاستثناء فإن عدمَ السجودِ قد يكون للتأمل ثم يقع السجودُ، وبه عُلم أنه لم يقعْ قطُّ.

وقيل: منقطعٌ فحينئذ يكون متصلًا بما بعده أي لكنْ إبليسِ لم يكن من الساجدين ﴿**قال**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدمِ سجوده، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه يظهر وجهُ الالتفاتِ إلى الغَيبة إذ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة، وفيه فائدةٌ أخرى هي الإشعارُ بعدم تعلقِ المحكيِّ بالمخاطَبين كما في حكاية الخلْقِ والتصوير ﴿**ما منعك ألَّا تسجد**﴾ أي أن تسجُد كما وقع في سورة ص، و(لا) مزيدةٌ مؤكدةٌ لمعنى الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى: ﴿**لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب**﴾ [الحديد، الآية ٢٩] منبّهةٌ على أن الموبَّخَ عليه تركُ السجود، وقيل: الممنوعُ عن الشيء مصروفٌ إلى خلافه فالمعنى ما صرفك إلى أن[(١)] تسجد ﴿**إذ أمرتك**﴾.

قيل: فيه دِلالةٌ على أن مُطلقَ الأمرِ للوجوب والفور، وفي سورة الحِجْر: ﴿**يا إبليسُ ما لك ألَّا تكونَ مع الساجدين**﴾ [الحجر: ٣٢] وفي سورة ص: ﴿**ما منعك أن تسجُد لما خلقتُ بيديَّ**﴾ [ص: ٧٥] واختلافُ العبارات عند الحكايةِ يدل على أن اللعينَ قد أدمج في معصية واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ مخالفةَ الأمرِ ومفارقةَ الجماعةِ والإباءِ عن الانتظام في سلك أولئك المقرّبين والاستكبارَ مع تحقير آدمَ عليه السلام، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحدة منها، لكن اقتُصر عند الحكاية في كل موطنٍ على ما ذكر فيه اكتفاءً بما ذكر

(١) زاد في المخطوط: لا.

في موطن آخرَ وإشعارًا بأن كلَّ واحدةٍ منها كافيةٌ في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه، وقد تُركت حكايةُ التوبيخِ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيلَ وسورة الكهفِ وسورة طه.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ كما سبق مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل: فماذا قال اللعينُ عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿**أنا خير منه**﴾ متجانفًا[1] عن تطبيق جوابِه على السؤال بأن يقول: منعني كذا مدّعيًا لنفسه بطريق الاستئنافِ شيئًا بيِّنَ الاستلزامِ لمنعه من السجود على زعمه، ومشعِرًا بأن مَنْ شأنُه هذا لا يحسُن أن يسجُدَ لمَن دونه فكيف يحسُن أن يؤمرَ به؟ كما ينبئ عنه ما في سورة الحجر من قوله: ﴿**لم أكن لأسجُدَ لبشر خلقتَه من صلصال من حمإٍ مسنون**﴾ [الحجر: ٣٣] فهو أولُ من أسس بنيانَ التكبر، واخترع القولَ بالحُسن والقُبح العقليَّين، وقولُه تعالى: ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ تعليلٌ لما ادعاه من فضله[2]، ولقد أخطأ اللعينُ حيث خَصّ الفضلَ بما من جهةِ المادةِ والعنصُر، وزل عنه ما من جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿**ما منعك أن تسجُد لما خلقتُ بيديَّ**﴾ [ص، الآية ٧٥] أي بغير واسطةٍ على وجه الاعتناءِ به وما من جهة الصورة كما نُبّه عليه بقوله تعالى: ﴿**ونفختُ فيه من روحي**﴾ [الحجر، الآية ٢٩] وما من جهة الغايةِ وهو مِلاكُ الأمرِ ولذلك أُمر الملائكةُ بالسجود له عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلمُ منهم بما يدور عليه أمرُ الخلافةِ في الأرض وأن له خواصَّ ليست لغيره، وفي الآية دليلٌ على الكون والفساد وأن الشياطينَ أجسامٌ كائنةٌ، ولعل إضافةَ خلق البشرِ إلى الطين، والشياطينِ إلى النار باعتبار الجُزءِ الغالب.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ كما سلف، والفاء في قوله تعالى: ﴿**فاهبط منها**﴾ لترتيب الأمرِ على ما ظهر من اللعين من مخالفة الأمرِ وتعليلِه بالأباطيل وإصرارِه على ذلك، أي فاهبِطْ من الجنة، والإضمار قبل ذكرِها لشهرة كونِه من سكانها قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في عدْنٍ لا في جنة الخلد، وقيل: من زمرة الملائكةِ المعزّزين فإن الخروجَ من زمرتهم هبوطٌ وأيُّ هبوط، وفي سورة الحجر: ﴿**فأخرج منها**﴾ وأما ما قيل من أن المرادَ الهبوطُ من السماء فيردّه أن وسوستَه لآدمَ عليه السلام كانت بعد هذا الطردِ فلا بد أن يُحمل على أحد الوجهين قطعًا، وتكونُ وسوستُه على الوجه الأول بطريق النداءِ من باب الجنة كما رُوي عن الحسن البصري، وقوله تعالى: ﴿**فما يكون لك**﴾ أي فما يصحّ ولا يستقيم لك ولا يليقُ بشأنك ﴿**أن تتكبر فيها**﴾ أي في

---

(١) تجانف عنه: عَدَل.

(٢) زاد في المخطوط: عليه.

الجنة أو في زمرة الملائكة، تعليلٌ للأمر بالهبوط فإن عدمَ صحةِ أن يتكبر فيها علةٌ للأمر المذكور، فإنها مكانُ المطيعين الخاشعين ولا دِلالة فيه على جواز التكبُّر في غيرها، وفيه تنبيه على أن التكبرَ لا يليق بأهل الجنةِ وأنه تعالى إنما طرده لتكبُّره لا لمجرد عصيانِه وقوله تعالى: ﴿**فاخرج**﴾ تأكيدٌ للأمر بالهبوط متفرِّعٌ على علته وقوله تعالى: ﴿**إنك من الصاغرين**﴾ تعليلٌ للأمر بالخروج مُشعرٌ بأنه لتكبره، أي من الأذلاء وأهلِ الهوانِ على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك. وعن عمر رضي الله عنه ([من][1] تواضَع لله رفع الله حكمتَه وقال: انتعش أنعشك[2] الله، ومن تكبر وعَدا طَوْرَه وهَصَه[3] الله إلى الأرض)[4].

﴿**قال**﴾ استئنافٌ كما مر مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قبله، كأنه قيل: فماذا قال اللعينُ بعد ما سمع هذا الطردَ المؤكد؟ فقيل: قال: ﴿**أنظرني**﴾ أي أمهلني ولا تُمِتْني ﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ أي آدمُ وذرّيتُه للجزاء بعد فنائِهم، وهو وقتُ النفخةِ الثانية، وأراد اللعينُ بذلك أن يجد فُسحةً لإغوائهم ويأخُذَ منهم ثأرَه وينجُوَ من الموت لاستحالته بعد البعث ﴿**قال**﴾ استئنافٌ كما سلف ﴿**إنك من المنظرين**﴾ ورودُ الجوابِ بالجملة الاسميةِ مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يُشعر بأن السائلَ تبَعٌ لهم في ذلك صريحٌ في أنه إخبارٌ بالإنظار المقدرِ لهم أزلًا لا إنشاءٌ لإنظار خاصٍّ به إجابةً لدعائه وأن استنظارَه كان طلبًا لتأخير الموتِ إذ به يتحقق كونُه من جملتهم لا لتأخير العقوبةِ كما قيل أي **إنك** من جملة الذين أخّرتُ آجالَهم أزلًا حسبما تقتضيه الحِكمةُ التكوينيةُ إلى وقت فناءٍ غيرَ ما[5] استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخةُ الأولى لا إلى وقت البعثِ الذي هو المسؤول، وقد تُرك التوقيتُ للإيجاز ثقةً بما وقع في سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكرُ النداء والفاءُ في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر فيهما بقوله عز وجل: ﴿**رب فأنظِرني إلى يوم يُبعثون * قال فإنك من المنظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨] وفي إنظاره ابتلاءٌ للعباد وتعريضٌ للثواب.

إن قلتَ لا ريبَ في أن الكلامَ المحكيَّ له عند صدورِه عن المتكلم حالةٌ مخصوصةٌ تقتضي ورودَه على وجه خاصٍّ من وجوه النظمِ بحيث لو أخل بشيء من

---

(١) سقط في المخطوط.
(٢) في المخطوط: نعشه.
(٣) في حاشية المخطوط: الوهص هو الوطء الشديد، وَهَص الشيء: رماه رمياً عنيفاً.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٩٦) رقم (٣٤٤٦١)، والبيهقي في المدخل (٦٠١) وفي شعب الإيمان (٨١٣٩) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٧٨) عن عمر بن الخطاب موقوفًا.
وقال الحافظ في الأمالي المطلقة (١/ ٨٨): موقوف صحيح الإسناد.
(٥) في المخطوط: من.

ذلك سقط الكلامُ عن رتبة البلاغةِ البتة، فالكلامُ الواحدُ المحكيُّ على وجوه شتى إن اقتضى الحالُ ورودَه على وجه معينٍ من تلك الوجوهِ الواردةِ عند الحكاية فذلك الوجهُ هو المطابقُ لمقتضى الحالِ والبالغُ إلى رتبة البلاغةِ دون ما عداه من الوجوه، إذا تمهّد هذا فنقولُ: لا يخفى أن استنظارَ اللعينِ إنما صدر عنه مرةً واحدةً لا غيرُ، فمقامُه إن اقتضى إظهارَ الضراعةِ وترتيبَ الاستنظار على ما حاق به من اللعن والطردِ على نهج استدعاءِ الجبْرِ في مقابلة الكسر كما هو المتبادرُ من قوله: رب فأنظرني حسبما حُكي عنه في السورتين، فما حكي هاهنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلًا عن العروج إلى معارج الإعجازِ، قلنا: مقامُ استنظاره مُقتضٍ لما ذُكر من إظهار الضراعةِ وترتيب الاستنظارِ على الحِرمان المدلولِ عليه بالطرد والرجم، وكذا مقامُ الإنظارِ مقتضٍ لترتيب الإخبارِ بالإنظار على الاستنظار وقد طُبّق الكلامُ عليه في تينك السورتين ووُفّي كلٌّ واحد من مقامَي الحكايةِ والمحكيِّ جميعًا حظَّه. وأما هاهنا فحيث اقتضى مقامُ الحكايةِ مجردَ الإخبار بالاستنظار والإنظارِ سيقت الحكايةُ على نهج الإيجاز والاختصارِ من غير تعرّضٍ لبيان كيفيةِ كل [واحدٍ][1] منهما عند المخاطبة والحِوار إن قلت: فإذن لا يكونُ ذلك نقلًا للكلام على ما هو عليه ولا مطابقًا لمقتضى المقامِ قلنا: الذي يجب اعتبارُه في نقل الكلامِ إنما هو أصلُ معناه ونفسُ مدلولِه الذي يفيده، وأما كيفيةُ إفادتِه له فليس مما يجب مراعاتُه عند النقل ألبتة، بل قد تُراعىٰ وقد لا تُراعىٰ حسب اقتضاءِ المقامِ، ولا يقدح في أصل الكلامِ تجريدُه عنها بل قد يُراعىٰ عند نقلِه كيفياتٍ وخصوصياتٍ لم يُراعِها المتكلمُ أصلًا ولا يُخلُّ ذلك بكون المنقولِ أصلَ المعنى، ألا يُرى أن جميعَ المقالات المنقولةِ في القرآن الكريمِ إنما تُحكىٰ بكيفيات واعتباراتٍ لا يُكاد يَقدِر على مراعاتها مَنْ تكلم بها حتمًا، وإلا لأمكن صدورُ الكلام المعجِزِ عن البشر فيما إذا كان المحكيُّ كلامًا، وأما عدمُ مطابقتِه لمقتضى الحالِ فمنشؤه الغفلةُ عما يجب توفيرُ مقتضاه من الأحوال، فإن مَلاكَ[2] الأمرِ هو مقامُ الحكايةِ، وأما مقام وقوعِ المحكيِّ فإن كان مقتضاه موافقًا لمقتضىٰ مقامِ الحكايةِ يُوفّى كلُّ واحدٍ من المقامين حقَّه كما في سورة الحجر وسورة ص، فإن مقامَ الحكايةِ فيهما لمّا كان مقتضيًا لبسط الكلامِ وتفصيلِه على الكيفيات التي وقع عليها رُوعيَ حقُّ المقامين معًا، وأما في هذه السورةِ الكريمةِ فحيث اقتضى

(١) سقط في المخطوط.

(٢) ملاك الأمر (بفتح الميم وكسرها): قوامه وخلاصته، أو عنصره الجوهري.

مقامُ الحكايةِ الإيجازَ رُوعيَ جانبُه. ألا يُرى أن المخاطبَ المنكِرَ إذا كان ممن لا يفهم إلا أصلَ المعنى وجب على المتكلم أن يجرِّد كلامَه عن التأكيد وسائرِ الخواصِّ والمزايا التي يقتضيها المقامُ ويخاطِبَه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصِدَ معنى زائدًا يفهمه سامعٌ آخرُ بليغٌ هو تجريدُه عن الخواصِّ رعايةً لمقتضىٰ حالِ المخاطَبِ في الفهم، وبذلك يرتقي كلامُه عن رتبة أصواتِ الحيواناتِ كما حُقِّق في مقامه فإذا وجب مراعاةُ مقامِ الحكايةِ مع إفضائها إلى تجريد الكلامِ عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنُّك بوجوب مراعاتِه [مع][1] تحلية الكلام بمزايا أُخَرَ يرتقي بها إلى رتبة الإعجازِ لا سيما إذا وُفِّيَ حقَّ مقامِ وقوعِ المحكيِّ في السورتين الكريمتين وكان هذا الإيجازُ مبنيًا عليه وثقة به؟

﴿قال﴾ استئنافٌ كأمثاله ﴿فبما أغويتني﴾ الباءُ للقسم كما في قوله تعالى: ﴿فبعزتك لأُغوِيَنّهم﴾ [ص، الآية ٨٢] فإن إغواءَه تعالى إياه أثرٌ من آثار قُدرتِه عز وجل وحُكمٌ من أحكام سلطانِه تعالى، فمآلُ الإقسامِ بهما واحدٌ، فلعل اللعينَ أقسم بهما جميعًا فحَكىٰ تارةً قسَمَه بأحدهما وأخرى بالآخر، والفاءُ لترتيب مضمونِ الجملةِ على الإنظار، و(ما) مصدريةٌ أي فأقسم بإغوائك إياي ﴿لأقعُدن لهم﴾ أو للسببية على أن الباءَ متعلقةٌ بفعل القسمِ المحذوفِ لا بقوله: ﴿لأقعدن لهم﴾ كما في الوجه الأول، فإن اللام تصُدّ عن ذلك أي فبسبب إغوائِك إياي لأجلهم أُقسم بعزتك لأقعُدّن لآدمَ وذرِّيتِه ترصّدًا بهم كما يقعُد القُطّاع للقطع على السابلة[2] ﴿صراطك المستقيم﴾ الموصِلَ إلى الجنة وهو دينُ الإسلام، فالقعودُ مجازٌ متفرِّعٌ على الكناية[3]، وانتصابُه على الظرفية كما في قوله: [الكامل]

.... كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[4]

---

(١) سقط في المخطوط.

(٢) في حاشية المخطوط: كما في سورة ص حذف هاهنا للإيجاز، والسابلة: الطريق المسلوك، والمارُّون عليه.

(٣) وهي استعارة تمثيلية ضربت مثلا لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق وقول أبي السعود مجاز متفرع على الكناية أي أن الأسلوب مجاز في «لأقعدن»، ثم «لآتينهم»، وفي عمومه كناية عن الملازمة والحرص في إغوائهم.
ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ٤٩)، والكناية شروح التلخيص (٤/ ٢٧٤) وما بعدها، وسر الفصاحة (٢٧١)، والطراز (١/ ٢٧٢، ٢٧٣)، والمثل السائر (٣/ ١٩، ٤٩).

(٤) جزء من عجز بيت وتمام البيت:
لَدْنٌ بهَزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنَهُ فيه .. ..

=

وقيل: على نزع الجارِّ تقديرُه على صراطك كقولك[1]: ضرب زيد الظهرَ والبطنَ ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أي من الجهات الأربعِ التي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها مثلُ قصدِه إياهم للتسويل والإضلال من أي وجهٍ يتيسر بإتيان العدوِّ من الجهات الأربعِ ولذلك لم يُذكر الفوقُ والتحتُ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما (مِنْ بَيْنِ أَيدِيهِمْ) من قِبَل الآخرةِ. و(من خلفهم) من جهة الدنيا، و(عن أيمانِهم وعن شمائلهم) من جهة حسناتِهم وسيئاتِهم. وقيل: من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدِرون على التحرز منه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيّقظهم واحتياطِهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك، وإنما عُدِّي الفعلُ إلى الأوَّلَيْن بحرف الابتداء لأنه منهما متوجهٌ إليهم وإلى الآخَرَين بحرف المجاوزة فإن الآتيَ منهما كالمنحرف المتجافي عنهم المارِّ على عَرضهم، ونظيرُه جلست عن يمينه.

﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي مطيعين وإنما قاله ظنًّا لقوله تعالى: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليسُ ظنَّه﴾ [سبأ، الآية ٢٠] لما رأى منهم مبدأ الشرِّ متعددًا ومبدأَ الخيرِ واحدًا، وقيل: سمعه من الملائكة عليهم السلام.

﴿قال﴾ استئناف كما سلف مرارًا ﴿اخرُجْ منها﴾ أي من الجنة أو من السماء أو من بينِ الملائكة ﴿مذءوما﴾ أي مذمومًا من ذَأَمه إذا ذمّه، وقرئ[2] (مَذومًا) كَمَسول في مسؤول، أو كَمَكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيمًا ﴿مدحورًا﴾ مطرودًا ﴿لمَنْ تبعك منهم﴾ اللامُ موطئةٌ للقسم وجوابه ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ وهو سادٌّ

= والبيت لساعدة بن جؤية الهذلي في تخليص الشواهد ص (٥٠٣)، وخزانة الأدب (٣/ ٨٣، ٨٦)، والدرر (٣/ ٨٦)، وشرح أشعار الهذليين ص (١١٢٠)، وشرح التصريح (١/ ٣١٢)، وشرح شواهد الإيضاح ص (١٥٥)، وشرح شواهد المغني ص(٨٨٥)، والكتاب (١/ ٣٦، ٢١٤)، ولسان العرب (وسط)، و(عسل)، والمقاصد النحوية (٢/ ٥٤٤)، ونوادر أبي زيد ص(١٥)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص (١٨٠)، وأوضح المسالك (٢/ ١٧٩)، وجمهرة اللغة ص(٨٤٢)، والخصائص (٣/ ٣١٩)، وشرح الأشموني (١/ ١٩٧)، ومغني اللبيب ص(١١)، وهمع الهوامع (١/ ٢٠٠).

(١) في المخطوط: كقوله.

(٢) قرأ بها: المطوعي، والزهري، وأبو جعفر، والأعمش، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٢)،الإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٧٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٧٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٠٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٣).

مسدَّ جوابِ الشرط، وقرئ[١] (لِمَنْ) تبعك بكسر اللام على أنه خبرُ (لأملأن) على معنى لِمَنْ تبعك هذا الوعيدُ، أو علةٌ لـ (اخرُجْ) و(لأملأن) جوابٌ[٢] محذوفٌ ومعنى (منكم) منك ومنهم على تغليب المخاطب.

﴿ويا آدم﴾ أي وقلنا كما وقع في سورة البقرة، وتصديرُ الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقّي المأمورِ به، وتخصيصُ الخطابِ به عليه السلام لَلإيذان بأصالته في تلقي الوحي وتعاطي المأمور به **﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾** هو من السكَن[٣] الذي هو عبارةٌ عن اللَّبْثِ والاستقرارِ والإقامةِ لا من السكون الذي هو ضدُّ الحركة، وأنت ضميرٌ أُكّد به المستكنُّ[٤] ليصحَّ العطفُ عليه، والفاءُ في قوله تعالى: **﴿فكلا من حيث شئتما﴾** لبيان المرادِ مما في سورة البقرة من قوله تعالى: **﴿وكلا منها رغدًا حيث شئتما﴾** [البقرة: ٣٥] من أن ذلك كان جمعًا مع الترتيب.

وقوله تعالى: **﴿من حيث شئتما﴾** في معنى منها حيث شئتما، ولم يُذكر هاهنا (رَغَدًا) ثقةً بما ذكر هناك، وتوجيهُ الخطابِ إليهما لتعميم التشريفِ والإيذانِ بتساويهما في مباشرة المأمورِ به فإن حوّاءَ أُسوةٌ له عليه السلام في حق الأكلِ بخلاف السكنِ[٥] فإنها تابعةٌ له فيه ولتعليق النهي بها صريحًا في قوله تعالى: **﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾** وقرئ (هذي) وهو الأصلُ لتصغيره على ذَيّا والهاءُ بدلٌ من الياء **﴿فتكونا من الظالمين﴾** إما جزمٌ على العطف أو نصبٌ على الجواب.

﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أي فعل الوسوسةَ لأجلهما أو تكلم لهما كلامًا خفيًّا متدارَكًا متكرّرًا، وهي في الأصل الصوتُ الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوَسَ الحَلْيُ وقد سبق بيانُ كيفيةِ وسوستِه في سورة البقرة.

﴿ليبديَ لهما﴾ أي ليُظهر لهما واللامُ للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءَهما بانكشاف عورتيهما[٦]، ولذلك عبّر عنهما بالسوأة وفيه دليلٌ على أن كشف العورةِ في الخلوة وعند الزوجِ من غير حاجة قبيحٌ مستهجَنٌ في الطباع **﴿ما ووري عنهما من سوآتهما﴾** ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما وكانا لا يَرَيانها من أنفسهما

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والجحدري.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٠٢)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦).
(٢) زاد في المخطوط: لقسم.
(٣) في المخطوط: السكنى.
(٤) زاد في المخطوط: اسكن.
(٥) في المخطوط: السكنى.
(٦) في المخطوط: عورتهما.

ولا أحدُهما من الآخر، وإنما لم تُقلب الواوُ المضمومةُ همزةً في المشورة كما قلبت في أويصِل: تصغير واصل لأن الثانيةَ مدةٌ، وقرئ (سَوَاتِهما)[1] بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الواو، وبقلبها واوًا وإدغام الواو الساكنة فيها[2] ﴿**وقال**﴾ عطف على وسوس بطريق البيان ﴿**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة**﴾ أي عن أكلها ﴿**إلا أن تكونا ملكين**﴾ أي إلا كراهةَ أن تكونا ملكين ﴿**أو تكونا من الخالدين**﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، وليس فيه دلالةٌ على أفضلية الملائكةِ عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائقَ لا تنقلب وإنما كانت رغبتُهما في أن يحصُل لهما أوصافُ الملائكةِ من الكمالات الفطريةِ والاستغناء عن الأطعمة والأشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الأفضلية بالمعنى المتنازَعِ فيه.

﴿**وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**﴾ أي أقسم لهما، وصيغةُ المغالبة للمبالغة، وقيل: أقسما له بالقَبول وقيل: قالا له: أتقسم بالله أنك لمن الناصحين؟ وأقسم لهما فجُعل ذلك مقاسمة ﴿**فدلاهما**﴾ فنزّلهما على الأكل من الشجرة، وفيه تنبيهٌ على أنه أهبطهما بذلك من درجة عاليةٍ فإن التدليةَ والإدلاءَ إرسالُ الشيء من الأعلى إلى الأسفل ﴿**بغرور**﴾ بما غرّهما به من القسم، فإنهما ظنا أن أحدًا لا يُقسِم بالله كاذبًا أو ملتبسين الغرور ﴿**فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما**﴾ أي فلما وجدا طعمَها آخِذَين في الأكل منها أخذْتهما العقوبةُ وشؤمُ المعصية فتهافت عنهما لباسُهما وظهرت لهما عوراتُهما، واختلف في أن الشجرة كانت السنبلةَ أو الكرْمَ أو غيرَهما وأن اللباسَ كان نورًا[3] أو ظفرًا ﴿**وطفقا يخصفان**﴾ طفِق من أفعال الشروعِ والتلبس كأخذ وجعل وأنشأ وعلِق وهَبَّ وانبرى أي أخذا يَرْقعَان ويُلزِقان ورقةً فوق ورقة ﴿**عليهما من ورق الجنة**﴾ قيل: كان ذلك ورقَ التينِ وقرئ[4] (يُخصِفان) من أخصف أي يخصفان أنفسَهما ويُخَصِّفان من التخصيف ويخصّفان أصله يختصفان.

﴿**وناداهما ربهما**﴾ مالكُ أمرِهما بطريق العتاب والتوبيخِ ﴿**ألم أنهكما**﴾ وهو

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٧٩).

(٢) قرأ بها: الحسن، وأبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن النصاح، وورش الزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٧٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧)، ومج (٢/ ٥٤٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٣).

(٣) النَّوْر: الزهر.

(٤) قرأ بها: الزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٨١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٥).

تفسيرٌ للنداء فلا محل له من الإعراب أو معمولٌ لقول محذوفٍ أي وقال أو قائلًا: ألم أنهَكُما؟ ﴿**عن تلكما الشجرة**﴾ ما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لما أنه إشارةٌ إلى الشجرة التي نُهي عن قُربانها ﴿**وأقل لكما**﴾ عطفٌ على أنهَكما أي ألم أقل لكما: ﴿**إن الشيطان لكما عدو مبين**﴾ وهذا عتابٌ وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدوِّ كما أن الأولَ عتابٌ على مخالفة النهي، قيل: فيه دليلٌ على أن مطلقَ النهي للتحريم، و(لكما)[1] متعلقٌ بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حالٌ من عدوٌّ، ولم يُحك هذا القولُ هاهنا، وقد حُكي في سورة طه بقوله تعالى: ﴿**إن هذا عدوٌّ لك ولزوجك**﴾ [طه، الآية ١١٧].

روي أنه تعالى قال لآدمَ: ألم يكنْ فيما منحتُك[2] من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى، وعزتك ولكن ما ظننتُ أن أحدًا من خلقك يحلِفُ بك كاذبًا، قال: فبعزتي لأُهبِطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيشَ إلا كدًّا فأُهبط وعُلّم صنعةَ الحديد وأُمر بالحَرْثِ فحرَثَ وسقَى وحصَد ودرس وذرَى وعجَن وخَبَز.

﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا**﴾ أي ضرّرناها بالمعصية والتعريضِ للإخراج من الجنة ﴿**وإن لم تغفر لنا**﴾ ذلك ﴿**وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ وهو دليلٌ على أن الصغائرَ يُعاقب عليها إن لم تُغفرْ، وقالت المعتزلةُ: لا يجوز المعاقبةُ عليها مع اجتناب الكبائرِ، ولذلك حمَلوا قولَهما ذلك على عادات المقربين في استعظام الصغيرِ من السيئات واستصغارِ العظيمِ من الحسنات.

﴿**قال**﴾ استئناف كما مر مرارًا ﴿**اهبطوا**﴾ خطابٌ لآدمَ وحواءَ وذريتِهما، أو لهما ولإبليسَ، كُرر الأمرُ تبعًا لهما ليعلمَ أنهم قرناءُ أبدًا، أو أُخبر عما قال لهم مفرّقًا كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات**﴾ [المؤمنون، الآية ٥١] ولم يُذكر هاهنا قَبولُ توبتِهما ثقةً بما ذكر في سائر المواضع ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ جملةٌ حالية من فاعل اهبطوا أي مُتعادِين ﴿**ولكم في الأرض مستقر**﴾ أي استقرارٌ أو موضعُ استقرارٍ ﴿**ومتاع**﴾ أي تمتعٌ وانتفاع ﴿**إلى حين**﴾ هو حينُ انقضاءِ آجالِكم.

﴿**قال**﴾ أُعيد الاستئنافُ إما للإيذان بعدم اتصالِ ما بعده بما قبله كما في قوله تعالى: ﴿**قال فما خطبُكم أيها المرسلون**﴾ [الحجر، الآية ٥٧] إثرَ قوله تعالى: ﴿**قال ومَنْ يقنَطُ من رحمة ربِّه إلا الضالون**﴾ [الحجر، الآية ٥٦] وقوله تعالى: ﴿**قال أرأيتَك**

---

(١) في المخطوط: وكما.

(٢) في حاشية المخطوط: يقال: لك عنه منحة أي سلعة.

هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ﴾ [الإسراء، الآية ٦٢] بعد قوله تعالى: **﴿قال أأسجُد لمن خلقتَ طينًا﴾** [الإسراء، الآية ٦١] وإما لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعده من قوله تعالى: **﴿فيها تَحيَوْن وفيها تموتون ومنها تُخرجون﴾** أي للجزاءِ كقوله تعالى: **﴿منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجُكم تارة أخرى﴾** [طه، الآية ٥٥].

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يا بني آدم﴾ خطابٌ للناس كافةً، وإيرادُهم بهذا العنوان مما لا يخفى سرُّه **﴿قد أنزلنا عليكم لباسًا﴾** أي خلقناه لكم بتدبيرات سماويةٍ وأسبابٍ نازلةٍ منها، ونظيرُه **﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾** [الزمر، الآية ٦] إلخ، وقوله تعالى: **﴿وأنزلنا الحديد﴾** [الحديد، الآية ٢٥] **﴿يواري سوآتكم﴾** التي قصد إبليسُ إبداءَها من أبويكم حتى اضطُروا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك. وروي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت. ولعل ذكر قصةِ آدمَ عليه السلام حينئذ للإيذان بأن انكشافَ العورة أولُ سوءٍ أصاب الإنسان من قِبَل الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم **﴿وريشًا﴾** ولباسًا تتجملون به، والريشُ الجمالُ وقيل: مالًا، ومنه تريّش الرجلُ أي تموّل.

وقرئ[1] (رياشًا) وهو جمعُ ريشٍ كشِعْب وشِعاب **﴿ولباس التقوى﴾** أي خشيةُ الله

---

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، والحسن البصري، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعثمان، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو رجاء، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، وزر بن حبيش.

=

تعالى، وقيل: الإيمانُ، وقيل: السمتُ الحسَنُ، وقيل: لباسُ الحرب، ورفعُه بالابتداء خبرُه جملةُ ﴿**ذلك خير**﴾ أو خبرٌ وذلك صفتُه كأنه قيل: ولباسُ التقوى المشارُ إليه خيرٌ.

وقرئ[1] (ولباسَ التقوى) بالنصب عطفًا على (لباسًا).

﴿**ذلك**﴾ أي إنزالُ اللباس ﴿**من آيات الله**﴾ دالةٌ على عظيم فضلِه وعميمِ رحمتِه ﴿**لعلهم يذكرون**﴾ فيعرِفون نعمتَه أو يتّعظون فيتورّعون عن القبائح.

﴿**يا بني آدم**﴾ تكريرُ النداءِ للإيذان بكمال الاعتناءِ بمضمون ما صدر به، وإيرادُهم بهذا العنوان مما لا يخفى سببُه ﴿**لا يفتننّكم الشيطان**﴾ أي لا يوقِعنّكم في الفتنة والمحنة بأن يمنعَكم من دخول الجنة ﴿**كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾ نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي لا يفتِننّكم فتنةً مثلَ إخراجِ أبويكم، وقد جُوّز أن يكون التقديرُ لا يُخرِجَنكم بفتنته إخراجًا مثلَ إخراجِه لأبويكم، والنهيُ وإن كان متوجهًا إلى الشيطان لكنه في الحقيقة متوجِّهٌ إلى المخاطبين كما في قولك: لا أُرَينّك هاهنا، وقد مر تحقيقُه مرارًا ﴿**ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما**﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج، وإسنادُ النزعِ إليه للتسبيب، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار الصورة، وقوله تعالى: ﴿**إنه يراكم هو وقبيله**﴾ أي جنودُه وذريتُه استئنافٌ لتعليل النهي وتأكيدِ التحذيرِ لا منه ﴿**من حيث لا ترونهم**﴾ (من) لابتداء غايةِ الرؤيةِ، وحيث ظرفٌ لمكان انتفاءِ الرؤية ولا ترَوْنهم في محل الجرِّ بإضافة الظرفِ إليه، ورؤيتُهم لنا من حيث لا نراهم لا تقتضي امتناعَ رؤيتِنا لهم مطلقًا واستحالةَ تمثّلِهم لنا.

﴿**إنا جعلنا الشياطين**﴾ جُعل قبيلُه من جملته فجُمع ﴿**أولياء للذين لا يؤمنون**﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينِهم من إغوائهم

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٦٠٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٢)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٦٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٨٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٦)، والمعاني للأخفش (٢/ ٢٩٧).

(١) قرأ بها: نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، والحسن، الشنبوذي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٠٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٣)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٠٦)، والتيسير للداني ص (١٠٩)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٠١)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٨٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٠، ٤٦١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٠٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

وحملِهم على ما سوّلوا لهم أولياءَ أي قُرناءَ مسلّطين عليهم، والجملة تعليلٌ آخرُ للنهي وتأكيدٌ للتحذير إثرَ تحذير.

﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ جملةٌ مبتدأة لا محل لها من الإعراب، وقد جُوّز عطفُها على الصلة، والفاحشةُ الفَعلةُ المتناهيةُ في القبح، والتاء لأنها مُجراةٌ على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية إلى الاسمية، والمرادُ بها عبادةُ الأصنامِ وكشفُ العورة في الطواف ونحوُهما.

﴿قالوا﴾ جوابًا للناهين عنها ﴿وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ محتجين بأمرين: تقليدِ الآباءِ والافتراءِ على الله سبحانه، ولعل تقديمَ المقدم للإيذان منهم بأن آباءَهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها على أن ضمير (أمرنا) لهم ولآبائهم، فحينئذ يظهر وجهُ الإعراض عن الأول في رد مقالتِهم بقوله تعالى: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ فإن عادتَه تعالى جاريةٌ على الأمر بمحاسن الأعمالِ والحثِّ على مراضي الخِصال، ولا دِلالةَ فيه على أن قبحَ الفعلِ، بمعنى ترتبِ الذم عليه عاجلًا والعقابِ آجلًا، عقلي فإن المرادَ بالفاحشة ما ينفِر عنه الطبعُ السليم ويستنقِصُه العقلُ المستقيم، وقيل: هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءَنا، فقيل: لمَ فعلها آباؤُكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها، وعلى الوجهين يُمنع التقليدُ إذا قام الدليلُ بخلافه لا مطلقًا.

﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ من تمام القولِ المأمورِ به، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه وتوجيهُ الإنكارِ والتوبيخِ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدورَه عنه تعالى، مع أن بعضَهم يعلمون عدمَ صدورِه عنه تعالى، مبالغةٌ في إنكار تلك الصورةِ فإن إسنادَ ما لم يُعلم صدوره عنه[١] تعالى إليه [تعالى][٢] إذا كان مُنكرًا فإسنادُ ما عُلم عدمُ صدورِه عنه إليه[٣] عز وجل أشدُّ قبحًا وأحقُّ بالإنكار.

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ بيانٌ للمأمور به إثرَ نفي ما أُسند أمرُه إليه تعالى من الأمور المنهيِّ عنها، والقسطُ العدلُ وهو الوسَطُ من كل شيء، المتجافي عن طرفي الإفراطِ والتفريط.

إرشادات للمؤمنين

﴿وأقيموا وجوهكم﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غيرَ عادلين إلى غيرها، أو

---

(١) في المخطوط: عن الله.
(٢) سقط في المخطوط.
(٣) في المخطوط: عن الله.

أقيموا وجوهَكم نحو القِبلة ﴿عند كل مسجد﴾ في كل وقت سجودٍ أو مكانِ سجودٍ وهو الصلاةُ أو في أي مسجدٍ حضَرتْكم الصلاةُ عنده ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿وادعوه﴾ واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي الطاعةَ فإن مصيرَكم إليه بالآخرة ﴿كما بدأكم﴾ أي أنشأكم ابتداءً ﴿تعودون﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم وإنما شُبه الإعادةُ بالإبداء تقريرًا لإمكانها والقدرةِ عليها[١]، وقيل: كما بدأكم من التراب تعودون إليه، وقيل: حفاةً عراة غُرْلًا تعودون إليه وقيل: كما بدأكم مؤمنًا وكافرًا يعيدكم ﴿فريقًا هدى﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾ بمقتضى القضاءِ السابقِ التابعِ للمشيئة المبنيةِ على الحِكَم البالغةِ، وانتصابُه بفعل مُضمرٍ يفسِّره ما بعده أي وخذل فريقًا ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليلٌ لخِذلانه أو تحقيقٌ لضلالتهم ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ فيه دِلالةٌ على أن الكافرَ المُخطِئ والمعانِدَ سواءٌ في استحقاق الذمِّ وللفارق أن يحمِلَه على المقصِّر في النظر.

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم﴾ أي ثيابَكم لمواراة عورتِكم ﴿عند كل مسجد﴾ أي طوافٍ أو صلاةٍ، ومن السنة أن يأخذ الرجلُ أحسنَ هيئتِه للصلاة وفيه دليل على وجوب سترِ العورة في الصلاة ﴿وكلوا واشربوا﴾ مما طاب لكم. روي أن بني عامرٍ كانوا في أيام حجِّهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا[٢] ولا يأكلون دسمًا يعظِّمون بذلك حجهم فهمّ المسلمون بمثله فنزلت ﴿ولا تسرفوا﴾ بتحريم الحلالِ أو بالتعدّي إلى الحرام أو بالإفراط في الطعامِ والشّرَه عليه، وعن ابن عباس[٣] رضي الله تعالى عنهما: كُلْ ما شئت والبَسْ ما شئت ما أخطأتْك خصلتانِ: سَرَفٌ ومَخِيلة[٤]. وقال علي بن الحسين بن واقد: (جمع الله الطبَّ في نصف آية) فقال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي لا يرتضي فعلَهم[٥].

﴿قل من حرم زينة الله﴾ من الثياب وما يُتجمَّل به ﴿التي أخرج لعباده﴾ من النبات كالقُطن والكتّان، والحيوانِ كالحرير والصوفِ، والمعادن كالدروع ﴿والطيبات من

(١) وهو من التشبيه المرسل المجمل، ويقصد الشيخ أن الغرض من التشبيه بيان إمكان المشبه، على حول قول المتنبي في سيف الدولة:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال.

ينظر: أسرار البلاغة (١٠٩)، ومفتاح العلوم (٣٤١)، والمطول (٣٣١).

(٢) أي لا يتناولون من الطعام إلا بمقدار ما يمسك الرمق.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ١٧١) برقم (٢٤٨٧٨).

(٤) المخيلة: الكِبْر.

(٥) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٢٣٠).

﴿الرزق﴾ أي المستلذاتِ من المآكل والمشارب، وفيه دليلٌ على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواعِ التجمُّلات الإباحةُ، لأن الاستفهامَ في مَنْ إنكاريٌّ ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فبِالتَّبع ﴿خالصةً يوم القيامة﴾ لا يشاركهم فيها غيرُهم وانتصابُه على الحالية.

وقرئ[1] بالرفع على أنه خبرٌ بعد خبر ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي مثلَ هذا التفصيلِ نفصِّلُ سائرَ الأحكامِ لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة.

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أي ما تفاحش قبحُه من الذنوب، وقيل: ما يتعلق منها بالفروج ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بدلٌ من الفواحش أي جهرَها وسرَّها ﴿والإثمَ﴾ أي ما يوجب الإثمَ وهو تعميمٌ بعد تخصيص، وقيل: هو شربُ الخمر ﴿والبغي﴾ أي الظلم أو[2] الكِبْر أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغي مؤكدٌ له معنى ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا﴾ تهكّمٌ بالمشركين وتنبيهٌ على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم: ﴿والله أمرنا بها﴾ [الأعراف، الآية ٢٨] وتوجيهُ التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعَه لا ما يعلمون عدمَ وقوعِه قد مر سرُّه.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم المُهلَكة ﴿أجل﴾ حدٌّ معينٌ من الزمان مضروبٌ لِمَهلِكهم ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ إن جعل الضميرُ للأمم المدلولِ عليها بكل أمة فإظهارُ الأجل مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصودِ الذي هو بلوغُ كلِّ أمةٍ أجلَها الخاصَّ بها ومجيئِه إياها بواسطة اكتسابِ الأجل بالإضافة عمومًا يفيده معنى الجمعية كأنه قيل: إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيء كلَّ واحدة من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها، وإن جُعل لكل أمةٍ خاصةً كما هو الظاهرُ فالإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقرير، والإضافةُ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٣)، الإعراب للنحاس(١/ ٦٠٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤١٦)، والتيسير للداني ص (١٠٩)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٠١)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٩٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦١)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٢) في خ: و.

إلى الضمير لإفادة أكملِ التمييزِ أي إذا جاءها[١] أجلُها الخاصُّ بها.

﴿**لا يستأخرون**﴾ عن ذلك الأجلِ ﴿**ساعةً**﴾ أي شيئًا قليلًا من الزمان فإنها مَثلٌ في غاية القلة منه أي لا يتأخرون أصلًا، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم وحِرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿**ولا يستقدمون**﴾ أي ولا يتقدمون عليه وهو عطفٌ على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاءِ التقدمِ مع إمكانه في نفسه كالتأخر، بل للمبالغة في انتفاء التأخّرِ بنظمه في سلك المستحيلِ عقلًا كما في قوله سبحانه: ﴿**وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضَر أحدَهم الموتُ قال إني تُبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ [النساء، الآية ١٨] فإن من مات كافرًا مع ظهور ألا توبةَ له رأسًا قد نُظم في عدم القبولِ في سلك مَنْ سوّفها إلى حضور الموتِ إيذانًا بتساوي وجودِ التوبة حينئذ وعدمِها بالمرة. وقيل: المرادُ بالمجيء الدنوُّ بحيث يمكن التقدمُ في الجملة كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ فيه[٢] وليس بذاك. وتقديمُ بيانِ انتفاءِ الاستئخار لما أن المقصودَ بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب، وأما ما في قوله تعالى: ﴿**ما تسبِقُ من أمة أجلَها وما يستأخِرون**﴾ [الحجر، الآية ٥] من سبْق السبْقِ في الذكر فلِما أن المرادَ هناك بيانُ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿**ذرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِم الأملُ فسوف يعلمون**﴾ [الحجر، الآية ٣] فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السبْق.

إرشاد للناس عامة

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ

---

(١) في خ: جاء.

(٢) في خ: منه.

ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿**يا بني آدمَ**﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى كافة الناس اهتمامًا بشأن ما في حيّزه ﴿**إما يأتينكم**﴾ هي إنْ الشرطيةُ ضُمَّت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط، ولذلك لزِمت فعلَها النونُ الثقيلةُ أو الخفيفةُ، [وفيه][1] تنبيه على أن إرسالَ الرسلِ أمرٌ جائزٌ لا واجبٌ عقلًا[2] ﴿**رسل منكم**﴾ الجارُّ متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ لرسلٌ أي كائنون من جنسكم.

---

(١) سقط في خ.

(٢) الصحيح عند المتكلمين وأهل السنة أن إرسال الرسل جائز عقلاً وليس بواجب كما يقول المعتزلة والفلاسفة.

وقول المعتزلة مبني على الصلاح والأصلح فيقولون النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على العموم في المعاش والمعاد لا يتم إلا ببعث الرسل، وكل ما هو كذلك فهو واجب على الله تعالى، ولكن هذه القاعدة باطلة؛ إذ لا يجب على الله شيء؛ لأنه هو الفاعل المختار: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

=

وقولُه تعالى: ﴿يقصّون عليكم آياتي﴾ صفةٌ أخرى لرسلٌ أي يبيِّنون لكم أحكامي وشرائعي، وقولُه تعالى: ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ جملةٌ شرطيةٌ وقعت جوابًا للشرط أي فمن اتقى منكم التكذيبَ وأصلح عملَه فلا خوف إلخ، وكذا قولُه تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ أي والذين كذبوا منكم بآياتنا، وإيرادُ الاتقاءِ في الأول للإيذان بأن مدارَ الفلاحِ ليس مجردَ عدمِ التكذيبِ بل هو الاتقاءُ والاجتنابُ عنه، وإدخالُ الفاءِ في الجزء الأولِ دون الثاني للمبالَغة في الوعد والمسامحةِ في الوعيد.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته﴾ أي تقوَّل عليه تعالى ما لم يقُلْه أو كذَّب ما قاله، أي هو أظلمُ من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارًا ﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه كما أن إفرادَ الفعلين باعتبار لفظِه، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بتماديهم في سوء الحالِ، أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الافتراء والتكذيب ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي مما كُتب لهم من الأرزاق والأعمارِ، وقيل: الكتابُ اللوحُ، أي ما أُثبت لهم فيه وأيًّا ما كان فمِن الابتدائيةُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا من نصيبهم، أي ينالُهم نصيبُهم كائنًا من الكتاب وقيل: نصيبُهم من العذاب وسوادِ الوجه وزُرقةِ العيون.

=

ومن يقل إن الصلاح وجبا على الإله فقد أساء الأدبا

ومبنى كلام الفلاسفة على التعليل، أو الطبع، فيقولون: إنه يلزم من وجود الله تعالى وجود العالم بالعلة أو الطبع، ويلزم من وجود العالم وجود من يصلحه، ويلزم من هذا القول أن يكون العالم صادرًا عن الله تعالى لا باختياره، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وبعضهم أسند هذا إلى الشيعة، وذكر أن الفلاسفة ينكرون الإرسال لأنهم ينفون أن الله مختار، ولكن هذا الذي ذكر هو ما في المقاصد، وهو مستحيل: ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾. ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾.

ومن يقل بالطبع أو بالعله فذاك كفر عند أهل الملّه

وكذلك ليس بمستحيل كما زعمت السمنية والبراهمة الذين زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم إذ العقل كاف فما حسنه العقل فعل، وما قبحه ترك؛ سواء أتت به الرسل أم لا، وما لم يكن حسنًا، ولا قبيحًا عند العقل فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه، وكل هذا ضلال مبين.

إذ العقل لا يستقل بشيء بل بعض الأمور لا مجال للعقل فيها قاطبة وبعضها وإن كان للعقل فيها مجال إلا أنه لا يستقل بها بل في حاجة إلى مرشد يرشده وقائد يهديه على أنه لا يوثق فيما يستقل به لاختلاف العقول والأغراض.

من هذا تبين أن إرسال الرسل جائز عقلاً فنؤمن بذلك ونصدقه بأن الله تعالى أرسل رسله لعباده مبشرين ومنذرين. ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

وعـن ابـن عباس رضي الله تعالى عنهما: كُتب لمن يفتري على الله سوادُ الوجهِ.

قال تعالى: ﴿**ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوهُهم مُسْودة**﴾ [الزمر: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿**حتى إذا جاءتهم رسلنا**﴾ أي ملكُ الموتِ وأعوانُه ﴿**يتوفّونهم**﴾ [الزمر: ٦٠] أي حالَ كونِهم مُتوفِّين لأرواحهم يؤيد الأول، فإن حتى وإن كانت هي التي يُبتدَأ بها الكلامُ لكنها غايةٌ لما قبلها فلا بد أن يكون نصيبُهم مما يتمتعون بها إلى حين وفاتِهم أي ينالهم نصيبُهم من الكتاب إلى أن يأتيَهم ملائكةُ الموتِ فإذا جاءتهم ﴿**قالوا**﴾ لهم ﴿**أين ما كنتم تدعون من دون الله**﴾ أي أين الآلهةُ التي كنتم تعبُدونها في الدنيا؟ و(ما) وقعت موصولةً بأين في خط المصحف وحقُّها الفصلُ لأنها موصولة ﴿**قالوا**﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من حكاية سؤالِ الرسل.

كأنه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿**ضلوا عنا**﴾ أي غابوا عنا أي لا ندري مكانَهم ﴿**وشهدوا على أنفسهم**﴾ عطفٌ على قالوا أي اعترفوا على أنفسهم ﴿**أنهم كانوا**﴾ أي في الدنيا ﴿**كافرين**﴾ عابدين لما لا يَستحِق العبادةَ أصلًا حيث شاهدوا حالَه وضلالَه ولعله أريد بوقت مجيءِ الرسل وحالِ التوفي الزمانُ الممتدُّ من ابتداء المجيءِ والتوفي إلى انتهائه يوم الجزاءِ بناءً على تحقق المجيءِ والتوفي في كل ذلك الزمان بقاءً وإن كان حدوثُهما في أوله فقط، أو قُصد بيانُ غاية سرعةِ وقوعِ البعثِ والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداءِ التوفي كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**من مات فقد قامت قيامتُه**»[1] وإلا فهذا السؤال والجوابُ وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النارِ وما جرى بين أهلها من التلاعُن والتقاولِ إنما يكون بعد البعثِ لا محالة ﴿**قال**﴾ أي الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿**ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم**﴾ أي كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم ﴿**من الجن والإنس**﴾ يعني كفارَ الأمم الماضيةِ من النوعين ﴿**في النّار**﴾ متعلقٌ بقوله: ﴿**ادخلوا**﴾ ﴿**كلما دخلت أمة**﴾ من الأمم السابقةِ واللاحقةِ فيها ﴿**لعنت أختها**﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ﴿**حتى إذا اداركوا فيها جميعًا**﴾ أي تداركوا وتلاحقوا في النار ﴿**قالت أخراهم**﴾ دخولًا أو منزلةً وهو الأتباعُ ﴿**لأولاهم**﴾ أي لأجلهم إذِ الخطابُ مع الله

---

(١) أخرجه الديلمي في فردوس الأخبار (١/ ٣٥٠) رقم (١١٢١)، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص (٤٢٨): له ذكر في: «أكثروا ذكر هادم اللذات»، ورواه الديلمي عن أنس مرفوعًا، ولفظه: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته»، وللطبراني من حديث زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: يقولون: «القيامة القيامة وإنما قيامة المرء موته»، ومن رواية سفيان بن أبي قيس قال: «شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال: «أما هذا فقد قامت قيامته».

تعالى لا معهم **﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾** سنّوا لنا الضلالَ فاقتدَيْنا بهم **﴿فآتهم عذابًا ضعفًا﴾** أي مضاعفًا **﴿من النار﴾** لأنهم ضلّوا وأضلوا **﴿قال لكلٍّ ضعف﴾** أما القادةُ فلِما ذُكر من الضلال والإضلالِ، وأما الأتباعُ فلكفرهم وتقليدِهم **﴿ولكن لا تعلمون﴾** أي ما لَكم وما لِكُلّ فريقٍ من العذاب وقرئ[1] بالياء **﴿وقالت أولاهم﴾** أي مخاطِبين **﴿لأخراهم﴾** حين سمعوا جوابَ الله تعالى لهم **﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾** أي فقد ثبت ألا فضلَ لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاقِ العذاب **﴿فذوقوا العذاب﴾** أي العذابَ المعهودَ المضاعفَ **﴿بما كنتم تكسبون﴾** من قول القادة.

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ مع وضوحها **﴿واستكبروا عنها﴾** أي عن الإيمان بها والعملِ بمقتضاها **﴿لا تفتّح لهم أبوابُ السماء﴾** أي لا تُقبل أدعيتُهم ولا أعمالُهم أو لا تعرُج إليها أرواحُهم كما هو شأنُ أدعيةِ المؤمنين وأعمالِهم وأرواحِهم والتاء في (تُفتّح) لتأنيث الأبواب[2] على أن الفعلَ للآيات، وبالياء على أنه لله تعالى **﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾** أي حتى يدخُلَ ما هو مثلُه في عِظَم الجِرْم فيما هو عَلَمٌ في ضيق المسلَك وهو ثُقبةُ الإبرة، وفي كون الجملِ مما ليس من شأنه الولوجُ في سمٍّ[3] الإبرة مبالغةٌ في الاستبعاد.

وقرئ (الجُمّل)[4] كالقمّل و(الجُمَل)[5] كالنُغَر و(الجُمل)[6] كالقُفل و(الجُمُل)[7]

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والمفضل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٢٧)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٢) في المخطوط: والتشديد لكثرتها، وقرئ بالتخفيف، وبالتخفيف والياء، وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب.

(٣) السمّ: كل ثقب ضيق كثقب الإبرة والأنف والأذن.

(٤) قرأ بها: عاصم، وأبان، وابن عباس، وشهر بن حوشب، ومجاهد، وابن يعمر، وأبو مجلز، والشعبي، وأبو رجاء، ومالك بن الشخير، وأبو رزين، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٢٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري، (٢/ ٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٩)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٦).

(٥) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، وسالم الأفطس، وعبد الكريم، وحنظلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، =

كالنصب و(الجَمْل)[(١)] كالحبل وهي الحبلُ الغليظ من القنب وقيل: حبلُ السفينة، و(سُمّ)[(٢)] بالضم والكسر.

وقرئ[(٣)] (في سَمّ المِخيط) وهو الخِياط أي ما يُخاط به كالحِزام والمحزم ﴿وكذلك﴾ أي ومثلَ ذلك الجزاءِ الفظيع ﴿نجزي المجرمين﴾ أي جنسَ المجرمين وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوليًا ﴿لهم من جهنم مهادٌ﴾ أي فراشٌ من تحتهم، والتنوينُ للتفخيم ومن تجريدية ﴿ومن فوقهم غواشٍ﴾ أي أغطيةٌ والتنوينُ للبدل عن الإعلال عند سيبويهِ وللصرْفِ[(٤)] عند غيره، وقرئ[(٥)] (غواش) على إلغاء المحذوف كما في قوله تعالى: ﴿وله الجوارِ المنشآتُ﴾ [الرحمٰن، الآية ٢٤] ﴿وكذلك﴾ ومثلَ ذلك الجزاءِ الشديد ﴿نجزي الظالمين﴾ عبّر عنهم بالمجرمين تارةً وبالظالمين أخرى إشعارًا بأنهم بتكذيبهم الآياتِ اتّصفوا بكل واحدٍ من ذيْنِك الوصفين القبيحين، وذكرُ الجُرم مع الحِرمان من دخول الجنةِ والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظمُ الجرائم والجرائرِ. ﴿والذين آمنوا﴾ أي بآياتنا أو بكل ما يجب أن يُؤمَنَ به فيدخُل فيه الآياتُ دخولًا أوليًا.

وقوله تعالى: ﴿وعمِلوا الصالحات﴾ أي الأعمالَ الصالحةَ التي شُرعت بالآيات،

= والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٩)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٦).

(٦) قرأ بها: عكرمة، وابن جبير.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٩).

(٧) قرأ بها: ابن عباس، وعطاء، والضحاك، والجحدري.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤١٧)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٦).

(١) قرأ بها: المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو السمال.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٩)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٦).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وقتادة، وأبو رزين، وطلحة بن مصرف، وابن سيرين.
ينظر: الإملاء للعكبري(١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبو رزين، وأبو مجلز.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢).

(٤) في خ: للتصرف.

(٥) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٢٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٢).

وهذا بمقابلة الاستكبارِ عنها ﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ اعتراضٌ وُسّط بين المبتدإِ الذي هو الموصولُ والخبرِ الذي هو جملةُ ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ للترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولةِ منالِه وتيسُّر تحصيلِه، وقرئ لا تُكَلَّف نفسٌ، واسمُ الإشارةِ مبتدأٌ، وأصحابُ الجنةِ خبرُه والجملةُ خبرٌ للمبتدإ الأولِ، أو اسمُ الإشارةِ بدلٌ من المبتدأ الأولِ الذي هو الموصولُ والخبرُ أصحابُ الجنة. وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببعد منزلتِهم في الفضلِ والشرف ﴿هم فيها خالدون﴾ حالٌ من أصحابِ الجنة وقد جوز كونُه حالًا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعاملُ معنى الإضافةِ أو اللام المقدرةِ أو خبرٌ [ثانٍ][1] لـ (أولئك) على رأي من جوّزه و(فيها) متعلقٍ بـ (خالدون).

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي نخرج من قلوبهم أسبابَ الغل أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التوادُّ. وصيغةُ الماضي للإيذان بتحققه وتقررِه، وعن علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[2] ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ زيادةٌ في لذتهم وسرورهم، والجملةُ حالٌ من الضمير في صدورهم والعاملُ إما معنى الإضافة وإما العاملُ في المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعاملُ نزعنا وقيل: هي مستأنفةٌ للإخبار عن صفة أحوالِهم ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ أي لِما جزاؤُه هذا ﴿وما كنا لنهتديَ﴾ أي لهذا المطلبِ الأعلى أو لمطلب من المطالب التي هذا من جملتها ﴿لولا أن هدانا الله﴾ ووفقنا له، واللام لتأكيد النفي وجوابُ لولا محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله عليه، ومفعولُ نهتدي وهدانا الثاني محذوفٌ لظهور المرادِ أو لإرادة التعميمِ كما أشير إليه، والجملةُ مستأنَفةٌ أو حالية.

وقرئ[3] (ما كنا لنهتديَ) إلخ، بغير واو على أنها مبيِّنة ومفسرةٌ للأولى.

﴿لقد جاءت رسل ربنا﴾ جوابُ قسمٍ مقدر قالوه تبجّحًا واغتباطًا بما نالوه

---

(١) سقط في خ.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٩٣) رقم (١٤٦٦٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٤) رقم (٣٧٨٢١) من طريق ربعي بن حراش عن علي.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٨٤) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن علي به.

(٣) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٩)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤١٩)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٠٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

وابتهاجًا بإيمانهم بما جاءتهم الرسلُ عليهم السلام والباء في قوله تعالى: ﴿بالحق﴾ إما للتعدية فهي متعلقةٌ بجاءت أو للملابسة فهي متعلقةٌ بمقدرٍ وقع حالًا من الرسل أي والله لقد جاءوا بالحق أو لقد جاءوا ملتبسين بالحق ﴿ونودوا﴾ أي نادتهم الملائكةُ عليهم السلام ﴿أن تلكم الجنة﴾ أنْ مفسرةٌ لما في النداء من معنى القولِ أو مخففةٌ من أنّ وضمير الشأنِ محذوفٌ، ومعنى البُعدِ في اسم الإشارةِ إما لأنهم نُودوا عند رؤيتِهم إياها من مكان بعيد، وإما لرفع منزلتِها وبُعدِ رتبتِها، وإما للإشعار بأنها تلك الجنة التي وُعدوها في الدنيا ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحةِ أي أُعطيتموها بسبب أعمالِكم أو بمقابلة أعمالِكم والجملةُ حال من الجنة والعاملُ معنى الإشارةِ على أن (تلكم الجنةُ) مبتدأٌ وخبرٌ، أو الجنةُ صفةٌ والخبرُ (أورثتموها).

محاورة بين أهل الجنة وأهل النار

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ تبجحًا بحالهم وشماتةً بأصحاب النار وتحسيرًا لهم لا لمجرد الإخبارِ بحالهم والاستخبارِ عن حال مخاطَبيهم ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا﴾ حيث نلنا هذا المنالَ الجليلَ ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا﴾ حُذف المفعولُ من الفعل الثاني إسقاطًا لهم عن رتبة التشريفِ بالخطاب عند الوعدِ، وقيل: لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصًا بهم وعدًا كالبعث والحسابِ ونعيم أهل الجنة، فإنهم قد وجدوا جميعَ ذلك حقًا وإن لم يكن وعدُه مخصوصًا بهم ﴿قالوا نعم﴾ أي وجدناه حقًا.

وقرئ[١] بكسر العين وهي لغةٌ فيه ﴿فأذن مؤذن﴾ قيل: هو صاحبُ الصُّور ﴿بينهم﴾ أي بين الفريقين ﴿أن لعنةُ الله على الظالمين﴾ بأنْ المخفَّفةِ أو المفسِّرةِ.

وقرئ[٢] بأنّ المشددةِ ونصْبِ (لعنةُ) وقرئ[٣] (إنّ) بكسر الهمزة على إرادة القولِ

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وابن وثاب، والأعمش، والشنبوذي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٤)، الإعراب للنحاس(١/ ٦١٣)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٣٥)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٤٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٩)، والحجة لابن خالويه (١٥٤، ١٥٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٢، ٤٦٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٢١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، وابن عامر، والكسائي،والبزي، وابن شنبوذ، وقنبل، والقواس، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٦١٣)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٣٥)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٤٧)، والحجة =

أو إجراء (أذّن) مُجرى قال.

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ صفةٌ مقرِّرةٌ للظالمين، أو رفعٌ على الذم أو نصْبٌ عليه ﴿ويبغونها عوجًا﴾ أي يبغون لها عِوَجًا بأن يصفوها بالزيغ والميلِ عن الحق وهو أبعدُ شيء منهما والعِوَجُ بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصبًا وبالفتح ما كان في المنتصِب كالرُّمحِ والحائط ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ غيرُ معترفين.

﴿وبينهما حجاب﴾ أي بين الفريقين كقوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور﴾ [الحديد، الآية ١٣] أو بين الجنة والنار ليمنعَ وصولُ أثرِ إحداهما إلى الأخرى ﴿وعلى الأعراف﴾[١] أي على أعراف الحجابِ وأعاليه وهو السورُ المضروبُ بينهما جمعُ عُرف مستعار من عُرف الفرس وقيل: العرف ما ارتفع من الشيء فإنه بظهوره أعرفُ من غيره ﴿رجال﴾ طائفةٌ من الموحدين قصّروا في العمل فيجلسون بين الجنة والنارِ حتى يقضيَ الله تعالى فيهم ما يشاء[٢]، وقيل: قومٌ عَلَت درجاتُهم كالأنبياء والشهداء والأخيارِ والعلماءِ من المؤمنين، أو ملائكةٌ يُرَون في صور الرجال ﴿يعرفون كلاًّ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجهِ وسوادِه، فِعْلىٰ من سام إبِلَه إذا أرسلها في المرعى مُعْلَمةً، أو مِنْ وَسَم، بالقلب، كالجاه من الوجه، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو بتعليم الملائكة ﴿ونادوا﴾ أي رجالُ الأعراف ﴿أصحاب الجنة﴾ حين رأوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ بطريق الدعاءِ والتحية أو بطريق الإخبارِ بنجاتهم من المكارة ﴿لم يدخلوها﴾ حالٌ من فاعل نادَوْا أو من مفعوله وقوله تعالى: ﴿وهم يطمعون﴾ حال من فاعل يدخلوها أي نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له، أي لم يدخلوها وهم في وقت عدمِ الدخول طامعون.

= لابن خالويه ص (١٥٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٤)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٢، ٤٦٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٢١)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٢٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٣) قرأ بها: الأعمش، وعصمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦١٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٩)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٤).

(١) ثبت في حاشية خ: قال ابن عباس والمفسرون هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فمنعتهم حسناتهم من النار ومنعتهم سيئاتهم من الجنة فيقومون على سور الجنة ثم يدخلهم الله الجنة برحمته وهم آخر من يدخل الجنة «تفسير الواحدي».

(٢) سيعود المؤلف إلى استبعاد هذا التأويل بعد قليل.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ أي إلى جهتهم، وفي عدم التعرضِ لتعلق أنظارِهم بأصحاب الجنةِ والتعبيرِ عن تعلق أبصارِهم بأصحاب النارِ بالصرف إشعارٌ بأن التعلقَ الأولَ بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه ﴿قالوا﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالِهم ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ أي في النار، وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوءِ الحال الذي هو الموجبُ للدعاء إشعارٌ بأن المحذورَ عندهم ليس نفيَ العذابِ فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم.

﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ كرر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير ﴿رجالًا﴾ من رؤساء الكفارِ حين رأَوْهم فيما بين أصحابِ النار ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ الدالةِ على سوء حالِهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا ﴿قالوا﴾ بدلٌ من نادى ﴿ما أغنى عنكم﴾ (ما)[1] استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية ﴿جمعكم﴾ أي أتباعُكم وأشياعُكم أو جمعُكم للمال ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ ما مصدريةٌ أي ما أغنى عنكم جمعُكم واستكبارُكم المستمرُّ عن قَبول الحقِّ، أو على الخلق وهو الأنسبُ بما بعده.

وقرئ[2] ﴿تستكثرون﴾ من الكثرة أي من الأموال والجنود.

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ من تتمة قولِهم للرجال، والإشارةُ إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرةُ يحتقرونهم في الدنيا ويحلِفون صريحًا أنهم لا يدخُلون الجنةَ أو يفعلون ما ينبئ عن ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زوال﴾ [إبراهيم، الآية ٤٤].

﴿ادخلوا الجنة﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى أولئك المذكورين أي ادخُلوا الجنة على رُغم أنوفِهم ﴿لا خوف عليكم﴾ بعد هذا ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ أو قيل لأصحاب الأعراف: ادخُلوا الجنةَ بفضل الله تعالى بعد أن حُبسوا وشاهدوا أحوالَ الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا.

والأظهرُ ألا يكون المرادُ بأصحاب الأعرافِ المقصِّرين في العمل لأن هذه المقالاتِ وما تتفرع هي عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعيّنْ حالُه بعدُ، وقيل: لما عيّروا أصحابَ النار أقسموا أن أصحابَ النار أقسموا أن أصحابَ الأعرافِ لا

---

(١) في خ: إما.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٠٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥).

يدخُلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكةُ ردًا عليهم: ﴿أهؤلاء﴾ إلخ، وقرئ (أدخلوا)[١] و(دَخَلوا)[٢] على الاستئناف وتقديرُه دخلوا الجنةَ مقولًا في حقهم لا خوفٌ عليكم.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرارُ واطمأنت به الدار ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ أي صُبّوه، وفيه دَلالةٌ على أن الجنة فوق النار ﴿أو مما رزقكم الله﴾ من سائر الأشربةِ ليُلائِمَ الإفاضة، أو من الأطعمة على أن الإفاضةَ عبارةٌ عن الإعطاء بكثرة ﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾ أي منعهما منهم منعًا كليًّا فلا سبيل إلى ذلك قطعًا ﴿الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا﴾ كتحريم البَحيرة والسائبةَ ونحوِهما والتصديةِ[٣] حولَ البيت، واللهوُ صرفُ الهمِّ إلى ما لا يحسُن أن يُصْرفَ إليه، واللعبُ طلبُ الفرحِ بما لا يحسن أن يُطلب ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها العاجلةِ ﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسيِّ من عدم الاعتدادِ بهم وتركِهم في النار تركًا كليًا، والفاء في فاليوم فصيحةٌ وقوله تعالى: ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ، أي ننساهم نسيانًا مثلَ نسيانِهم لقاءَ يومِهم هذا حيث لم يُخطِروه ببالهم ولم يعتدّوا[٤] له، وقولُه تعالى: ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ عطفٌ على ما نسوا أي وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى إنكارًا مستمرًّا.

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أي بيّنا معانيَه من العقائد والأحكام والمواعظ، والضميرُ للكفرة قاطبةً والمرادُ بالكتاب الجنسُ أو للمعاصِرين منهم والكتابُ هو القرآن ﴿على علم﴾ حالٌ من فاعل فصلناه أي عالمين بوجه تفصيلِه حتى جاء حكيمًا أو من مفعوله أي مشتملًا على علم كثير.

---

(١) قرأ بها: الحسن، وابن هرمز.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٠٤).

(٢) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦١٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٤٩).

(٣) التصدية: التصفيق باليدين. ومنه قوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ [الأنفال: ٣٥].

(٤) في خ: يستعدوا.

وقرئ[١] ﴿فضلناه﴾ أي على سائر الكتب عالمين بفضله ﴿هدى ورحمة﴾ حال من المفعول ﴿لقوم يؤمنون﴾ لأنهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما ينتظر هؤلاءِ الكفرةُ بعدم إيمانِهم به إلا ما يؤول إليه أمرُه من تبيّن صدقِه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يوم يأتي تأويله﴾ وهو يومُ القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوه تركَ المنسيِّ من قبل إتيانِ تأويلِه ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي قد تبين أنهم قد جاءوا بالحق ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿أو نردُّ﴾ أي هل نرد إلى الدنيا.

وقرئ[٢] بالنصب عطفًا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤولُ أحدُ الأمرين، إما الشفاعةُ لدفع العذاب أو الرد إلى الدنيا وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاءُ إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد ﴿فنعمل﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثاني.

وقرئ[٣] بالرفع أي فنحن نعمل.

﴿غير الذي كنا نعمل﴾ أي في الدنيا ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ بصرف أعمارِهم التي هي رأسُ مالِهم إلى الكفر والمعاصي ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ظهر بطلانُ ما كانوا يفترونه من أن الأصنامَ شركاءُ الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن، وعاصم، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٥)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥).

(٢) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، وأبو حيوة.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥).

(٣) قرأ بها: الحسن.

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرضَ في ستة أيام﴾ شروعٌ في بيان مبدأ الفطرةِ إثْرَ بيانِ معادِ الكفَرة أي إن خالقَكم ومالكَكم الذي خلق الأجرامَ العلوية والسفليةَ في ستة أوقات كقوله تعالى: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ [الأنفال، الآية ١٦] أو في مقدار ستةِ أيامٍ فإن المتعارفَ أن اليومَ زمانُ طلوعِ الشمسِ إلى غروبها، ولم تكن هي حينئذ وفي خلق الأشياء مدرجًا مع القدرة على إبداعها دفعة دليلٍ على الاختيار واعتبارٌ للنُّظّار وحثٌّ على التأني في الأمور ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي استوى أمرُه واستولى وعن أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفة الله[1] تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزهًا عن الاستقرار والتمكن، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملِك فإن الأمورَ والتدابير تنزِل منه وقيل: الملك.

﴿يُغشي الليل النهار﴾ أي يغطّيه به ولم يُذكر العكسُ للعلم به أو لأن اللفظَ يحتملهما ولذلك قرئ[2] بنصب (الليلَ) ورفع (النهار) وقرئ[3] بالتشديد للدلالة على التكرار ﴿يطلبه حثيثًا﴾ أي يعقُبه سريعًا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحثيثُ فعيل من الحث وهو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أو حال من الفاعل[4] أو من المفعول بمعنى [حاثًا أو][5] محثوثًا ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي خلقهن حال كونهِن مسخراتٍ بقضائه وتصريفِه، وقرئ[6] كلُّها بالرفع على الابتداء والخبر

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٦١٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢١٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٢).

(١) في خ: لله.

(٢) قرأ بها: حميد بن قيس.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٠٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٣)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٢٧).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وأبو بكر، ويعقوب، والحسن، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٥)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٥١)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢١)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٢٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٤) في خ: بمعنى حاثا.

(٥) سقط في خ.

(٦) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٦١٧)، والبحر المحيط (٤/ ٣٠٩)، =

﴿ألا له الخلق والأمر﴾ فإنه الموجد للكل والمتصرِّف فيه على الإطلاق **﴿تبارك الله رب العالمين﴾** أي تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظّم بالتفرد في الربوبية.

وتحقيقُ الآية الكريمةِ والله تعالى أعلم أن الكفرةَ كانوا متخذين أربابًا فبيّن لهم أن المستحِقَّ للربوبية واحدٌ هو الله تعالى لأنه الذي له الخلقُ والأمرُ فإنه تعالى خلق العالَمَ على ترتيب قويم وتدبيرٍ حكيم فأبدع الأفلاكَ ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار إليه بقوله تعالى: **﴿فقضاهن سبعَ سمواتٍ في يومين﴾** [فصلت، الآية ١٢] وعمَد إلى الأجرام السفليةِ فخلق جسمًا قابلًا للصور المتبدّلةِ والهيئاتِ المختلفة ثم قسمها لصور نوعيةٍ متباينةِ الآثار والأفعالِ وأشار إليه بقوله تعالى: **﴿خلق الأرض في يومين﴾** [فصلت: ٩] أي ما في جهة السُّفلِ في يومين ثم أنشأ أنواعَ المواليدِ الثلاثةِ بتركيب موادِّها أولًا وتصويرِها ثانيًا كما قال بعد قوله تعالى: **﴿خلق الأرض في يومين﴾** [فصلت: ٩]: **﴿وجعل فيها رواسيَ من فوقِها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ﴾** [فصلت: ١٠] أي مع اليومين الأولين لِما فُصّل في سورة السجدة ثم لمّا تم له عالمُ المُلك عمَد إلى تدبيره، كالملك الجالس على سريره، فدبر الأمرَ من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاكِ وتسيير الكواكبِ وتكويرِ الليالي والأيام، ثم صرّح بما هو فذلكةُ التقريرِ ونتيجتُه فقال تعالى: **﴿ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك الله ربُّ العالمين﴾** ثم أمر بأن يدعوُه مخلِصين متذلّلين فقال: **﴿ادعوا ربكم﴾** الذي قد عَرَفتم شؤونَه الجليلة **﴿تضرعًا وخفية﴾** أي ذوي تضرّعٍ وخُفية فإن الإخفاءَ دليلُ الإخلاص **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** أي لا يحب[1] دعاءَ المجاوزين لما أُمروا به في كل شيء، فيدخُل فيه الاعتداءُ في الدعاء دخولًا أوليًا، وقد نُبّه به على أن الداعيَ يجب أن لا يطلُب ما لا يليق به كرتبة الأنبياءِ والصعودِ إلى السماء، وقيل: هو الصياحُ في الدعاء والإسهابُ فيه.

وعن النبي ﷺ: «**سيكونُ قومٌ يعتدون في الدعاء وحسْبُ المرءِ أن يقول: اللهم إني أسألُك الجنةَ وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل**» ثم [قرأ] «**إنَّهُ لا يحبُّ المعتدين**»[2].

= والتبيان للطوسي (٤/ ٤٥١)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والحجة لابن خالويه (١٥٦، ١٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٥)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٢٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(١) في خ: يجيب.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٧) كتاب الصلاة: باب الدعاء حديث (١٤٨٠)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٣)، =

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ ببعث الأنبياء عليهم السلام وشَرْعِ الأحكام ﴿وادعوه خوفًا وطمعًا﴾ أي ذوي خوفٍ نظرًا لقصور[١] أعمالِكم وعدمِ استحقاقِكم، وطمَعٍ نظرًا إلى سَعة رحمتِه ووفورِ فضلِه وإحسانِه ﴿إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾ في كل شيء، ومن الإحسان في الدعاء أن يكون مقرونًا بالخوف والطمع، وتذكيرُ قريبٌ لأن الرحمةَ بمعنى الرحم أو لأنه صفةٌ لمحذوف أي أمرٌ قريبٌ أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول أو الذي هو مصدر كالنقيض والصهيل، أو للفرق بين القريب من النسَب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكيرَ من المضاف إليه كما أن المضافَ يكتسب التأنيثَ من المضاف إليه.

﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ عطفٌ على الجملة السابقةِ.

وقرئ[٢] (الريحَ).

﴿بُشرًا﴾ تخفيف بُشُر جمعُ بشير أو مبشّرات، وقرئ[٣] بفتح الباءِ على أنه مصدرُ (بَشَره)، بمعنى باشرات أو للبِشارة، وقرئ[٤] (نُشُرًا) بالنون المضمومة جمع (نَشور) أي ناشرات و(نَشْرًا)[٥] على أنه مصدرٌ في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعولٌ

= وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٥،٥٦) من حديث سعد بن أبي وقاص به.

(١) في ط: إلى قصور.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥١)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٥٧)، والتيسير للداني (٧٨/ ١١٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٣٠)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٣٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(٣) قرأ بها: عاصم، والسلمي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦١٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٣٩).

(٤) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، والحسن ، والسلمي، وأبو رجاء، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى بن عمر، وأبو يحيى الأعرابي، وأبو نوفل، والأعرابي، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦١٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٦)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٥، ٤٦٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٣٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٠١)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٣٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(٥) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعبد الله، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦١٩)، والإملاء للعكبري (١/ =

مطلقٌ، فإن الإرسالَ والنَّشرَ متقاربان ﴿بين يدي رحمته﴾ قُدّامَ رحمتِه التي هي المطرُ فإن الصَّبا[١] تُثير السحابَ والشَّمالَ تجمعُه والجَنوبَ تدُرّه والدَّبورَ[٢] تفرّقه ﴿حتى إذا أقلت﴾ أي حملت، واشتقاقُه من القِلة فإن المُقِلَّ للشيء يستقِلّه ﴿سحابًا ثقالًا﴾ بالماء، جَمَعه لأنه بمعنى السحائب ﴿سقناه﴾ أي السحاب، وإفرادُ الضميرِ لإفراد اللفظ ﴿لبلد ميت﴾ أي لأجله ولمنفعته أو لإحيائه أو لسقيه وقرئ[٣] (ميْتٍ).

﴿فأنزلنا به الماء﴾ أي بالبلد أو بالسحاب أو بالسَّوْق أو بالريح، والتذكيرُ بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به﴾ ويحتمل أن يعود الضميرُ إلى الماء وهو الظاهرُ، وإذا كان للبلد فالباءُ للإلصاق في الأول والظرفية في الثاني وإذا كان لغيره فهي للسببية ﴿من كل الثمرات﴾ أي من كل أنواعها (وألوانها) ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ الإشارةُ إلى إخراج الثمراتِ أو إلى إحياء البلدِ الميتِ، أي كما نحييه بإحداث القوةِ الناميةِ فيه[٤] وتطريتِها بأنواعِ النباتِ والثمراتِ نخرج الموتى من الأجداث ونحييها بردّ النفوسِ إلى موادّ أبدانِها بعد جَمعِها وتطريتها بالقُوى والحواسّ ﴿لعلكم تذكّرون﴾ بطرح إحدى التاءين أي تتذكرون فتعلمون أن مَنْ قدَرَ على ذلك قدَرَ على هذا من غير شبهة.

﴿والبلد الطيب﴾ أي الأرضُ الكريمةُ التربة ﴿يخرج نباته بإذن ربه﴾ بمشيئته وتيسيرِه، عبَّر عن كثرة النباتِ وحسنِه وغزارةِ نفعه لأنه أوقعه في مقابلة قولِه تعالى:

= ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٥٩)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤).

(١) الصَّبا: ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار. وهي أيضاً القبول.

(٢) الدبور: ريح تهبُّ من المغرب، وتقابل القبول التي هي ريح الصبا.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٥٢)، والتيسير للداني ص (٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٦).

(٤) إشارة إلى أن الآية من قبيل التشبيه، والتشبيه عندما تكون أداته كذلك، يكون ما بعدها مشبها، وما قبلها مشبّهًا به، ومعلوم أن الكاف للتشبيه وأن اسم الإشارة للإحالة على المشبه به، والتشبيه من التشبيه المرسل المجمل عند البلاغيين، والمقصود منه بيان إمكان وقوع المشبه (الإحياء بعد الإماتة).
ينظر: أسرار البلاغة (١٠٨) وما بعدها، وشروح التلخيص (٣/ ٢٩٨) وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني (٣٢٠) وما بعدها.

﴿**والذي خبُث**﴾ من البلاد كالسبخة[١] والحرَّة ﴿**لا يخرج إلا نكدًا**﴾ قليلًا عديمَ النفع، ونصبُه على الحال.

والتقديرُ والبلدُ الذي خبُث لا يخرُج نباتُه إلا نكِدًا، فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه فصار مرفوعًا مستترًا.

وقرئ[٢] (لا يُخرِج إلا نكدًا) أي لا يخرجه البلدُ إلا نكدًا فيكون (إلا نكدًا) مفعولَه.

وقرئ[٣] (نَكَدًا) على المصدر أي ذا نَكَدٍ، و(نَكْدًا)[٤] بالإسكان للتخفيف ﴿**كذلك**﴾ أي مثلَ ذلك التصريفِ البديعِ ﴿**نصرف الآيات**﴾ أي نرددها ونكررها ﴿**لقوم يشكرون**﴾ نعمةَ الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، وهذا كما ترى مثلٌ لإرسال الرسلِ عليهم السلام بالشرائع التي هي ماءُ حياةِ القلوبِ إلى المكلَّفين المنقسِمين إلى المقتبِسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارِها، وقد عُقّب ذلك بما يحققه ويقرّره من قصص الأممِ الخاليةِ بطريق الاستئناف فقيل:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ

---

(١) الأرض السبخة: أرضٌ ذات ملح ونزّ لا تكاد تنبت.
والحرَّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت.

(٢) قرأ بها: ابن وردان، والفضل.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر بن القعقاع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٢٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٦٢)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٣٠)، والمعاني للفراء (١/ ٣٨٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٤٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(٤) قرأ بها: ابن محيصن، وطلحة بن مصرف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٢٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٩)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧).

كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ
لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ
ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ
فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي
مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ
فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ
عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ
ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ
مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ
وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي
وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ
فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ
وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ
فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

نوح وقومه

﴿لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ هو جوابُ قسم محذوفٍ أي والله لقد أرسلنا إلخ، واطّرادُ استعمالِ هذه اللام مع قد لكون مدخولِها مَظِنّةً للتوقع الذي هو معنى قد، فإن الجملة القسَمية إنما تُساق لتأكيد الجملةِ المُقسَم عليها، ونوحٌ هو ابنُ لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريسُ النبيُّ عليهما السلام. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بُعث عليه السلام على رأس أربعين سنةً من عمره ولبِث يدعو قومه تسعَمِائةٍ وخمسين سنةً وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً فكان عمرُه ألفًا ومائتين وأربعين سنة.

وقال مقاتل: بعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وقيل: وهو ابنُ مائتين وخمسين سنةً ومكث يدعو قومَه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمُرُه ألفًا وأربَعمِائةٍ وخمسين سنة ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي اعبدوه وحدَه، وتركُ التقييدِ به للإيذان بأنها العبادةُ حقيقةً، وأما العبادةُ بالإشراك فليست من العبادة في شيء.

وقوله تعالى: ﴿ما لكم من إله غيرُه﴾ أي من مستحِقٍّ للعبادة، استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل العبادةِ المذكورةِ أو الأمرِ بها، وغيرُه بالرفع صفةٌ لـ (إلٰهٍ) باعتبار محلِّه الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية، وقرئ[1] بالجر باعتبار لفظه، وقرئ[2] بالنصب على الاستثناء وحكمُ ﴿غيرٍ﴾ حكمُ الاسم الواقع بعد (إلا) أي ما لكم من إلٰه إلا إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيدًا أو[3] غيرَ زيدٍ، فمن إلٰهٍ إن جعل مبتدأً فلكم خبرُه، أو خبرُه محذوفٌ ولكم للتخصيص والتبيين أي ما لكم في الوجود أو في العالم إلٰهٌ غيرُ الله.

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وأبو جعفر، والمطوعي، وابن محيصن، ويحيى بن وثاب، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٢١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٢٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٦٤)، والتيسير للداني ص (١١٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٣١)، وتفسير الرازي ص (٢٤٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن، وعيسى بن عمر، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، الإعراب للنحاس(١/ ٦٢١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٢٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧).

(٣) في خ: و.

﴿إني أخاف عليكم﴾ أي إن لم تعبُدوه حسْبما أُمرت به ﴿عذاب يوم عظيم﴾ هو يومُ القيامة أو يومُ الطوفان، والجملةُ تعليلٌ للعبادة ببيان الصارفِ عن تركها إثْرَ تعليلِها ببيان الداعي إليها، ووصفُ اليومِ بالعِظَم لبيان عظيمِ ما يقع فيه وتكميلِ الإنذار.

﴿قال الملأ من قومه﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية قولِه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل: فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام في مقابلة نصحِه؟ فقيل: قال الرؤساءُ من قومه والأشرافُ الذين يملأون صدورَ المحافل بأجرامهم والقلوبَ بجلالهم وهيبتِهم والأبصارَ بجمالهم وأُبّهتهم ﴿إنا لنراك في ضلال﴾ أي ذهاب عن طريق الحقِّ والصواب، والرؤيةُ قلبيةٌ ومفعولاها الضميرُ والظرفُ ﴿مبين﴾ بيّنٌ كونُه ضلالًا.

﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿يا قوم﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالةً لقلوبهم نحو الحق ﴿ليس بي ضلالة﴾ أي شيء ما من الضلال، قصد عليه الصلاة والسلام تحقيقَ الحق في نفي الضلالِ عن نفسه ردًّا على الكفرة حيث بالغوا في إثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرًّا في الضلال الواضِحِ كونُه ضلالًا.

وقوله تعالى: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزِمه من كونه في أقصى مراتبِ الهداية، فإن رسالةَ ربِّ العالمين مستلزِمةٌ لا محالة، كأنه قيل: ليس بي شيءٌ من الضلال ولكني في الغاية القاصيةِ من الهداية.

و(من) لابتداء الغايةِ مجازًا متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لرسولٌ مؤكدةٌ لما يفيده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافيةِ أي رسولٌ، وأيُّ رسولٍ، كائنٌ من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير رسالتِه وتفصيلِ أحكامِها وأحوالِها وقيل: صفة أخرى لرسولٌ على طريقة: [الرجز]

أنا الذي سمّتني أمي حيدَرَهْ[1]

وقرئ[2] (أبْلِغُكم) من الإبلاغ، وجمعُ الرسالاتِ لاختلاف أوقاتِها أو لتنوّع

---

(١) الرجز للإمام علي بن أبي طالب في ديوانه، ص (٧٧)، ولسان العرب (٤/ ١٧٤) (حدر)، وتاج العروس (٣/٤٩٩) (غيب) (١٣/ ٤١٢) (قسر)، وأساس البلاغة (قسر)، والدرر (١/ ٢٨٠)، وأدب الكاتب ص (٧١)، وخزانة الأدب (٦/ ٦٢)، وبلا نسبة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٠٧٨)، وهمع الهوامع (١/ ٨٦).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٢١)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٦٨)، =

معانيها، أو لأن المرادَ بها ما أوحيَ إليه وإلى النبيين من قبله عليه السلام، وتخصيصُ ربوبيتِه تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيانِ عمومِها للعالمين للإشعار بعلة الحُكمِ الذي هو تبليغُ رسالتِه تعالى إليهم فإن ربوبيتَه تعالى به عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثالِه بأمره تعالى بتبليغ رسالتِه تعالى إليهم ﴿**وأنصح لكم**﴾ عطفٌ على (أبلّغُكم) مبينٌ لكيفية أداءِ الرسالةِ، وزيادةُ اللام مع تعدّي النُصحِ بنفسه للدلالة على إمحاض النصيحةِ لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتِهم خاصةً، وصيغةُ المضارعِ للدِلالة على تجدد نصيحتِه لهم كما يعرف عنه قوله تعالى: ﴿**ربِّ إني دعوتُ قومي ليلًا نهارًا**﴾ [نوح، الآية ٥].

وقولُه تعالى: ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ عطفٌ على ما قبله وتقريرٌ لرسالته عليه الصلاة والسلام، أي أعلم من جهة الله تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتيةِ، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرتِه القاهرةِ وبطشِه الشديدِ على أعدائه وأن بأسَه لا يُردّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمون.

قيل: كانوا لا يسمعون بقوم حل بهم العذابُ قبلَهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علِمه نوحٌ عليه السلام بالوحي.

﴿**أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم**﴾ جوابٌ ورد لمّا اكتُفيَ عن ذكره بقولهم: ﴿**إنا لنراك في ضلال مبين**﴾ [الأعراف، الآية ٦٠] من قولهم: ﴿**ما نراك إلا بشرًا مثلَنا**﴾ [هود، الآية ٢٧] وقولِهم: ﴿**ولو شاء الله لأنزل ملائكة**﴾ [المؤمنون، الآية ٢٤] والهمزةُ للإنكار والواوُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ كأنه قيل: استبعدتم وعجِبتم من أن جاءكم ذكرٌ أي وحيٌ أو موعظةٌ من مالك أموركم ومربّيكم ﴿**على رجل منكم**﴾ أي على لسان رجلٍ من جنسكم كقوله تعالى: ﴿**ما وعدتنا على رسلك**﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقلتم لأجل ذلك ما قلتم من أن الله تعالى لو شاء لأنزل ملائكة ﴿**لينذركم**﴾ علةٌ للمجيء أي ليحذرَكم عاقبةَ الكفر والمعاصي ﴿**ولتتقوا**﴾ عطفٌ على العلة الأولى مترتبةٌ عليها ﴿**ولعلكم ترحمون**﴾ عطف على العلة الثانية مترتبةٌ عليها، أي ولتتعلق بكم الرحمةُ بسبب تقواكم.

= والتيسير للداني ص (١١١)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٦٧، ٦٨)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٧)، والمجمع للطبرسي (١/ ٤٣١)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٤٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

وفائدةُ حرفِ الترجّي التنبيه على عزة المطلبِ وأن التقوى غيرُ موجبةٍ للرحمة بل هي منوطةٌ بفضل الله تعالى وأن المتقيَ ينبغي ألا يعتمد على تقواه ولا يأمنَ عذابَ الله عز وجل.

﴿**فكذبوه**﴾ أجمعوا على تكذيبه في دعوى النبوةِ وما نزل عليه من الوحي الذي بلّغه إليهم وأنذرهم بما في تضاعيفه، واستمرّوا على ذلك هذه المدةَ المتطاولةَ بعد ما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوةَ مرارًا، فلم يزدهم دعاؤُه إلا فرارًا حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿**رب إني دعوتُ قومي ليلًا ونهارًا**﴾ [نوح، الآية ٥]، إذ هو الذي يعقُبه الإنجاءُ والإغراقُ لا مجرَّدُ التكذيب ﴿**فأنجيناه والذين معه**﴾ من المؤمنين، قيل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأةً وقيل: تسعةً: أبناؤُه الثلاثة وستةٌ ممّن آمن به.

وقوله تعالى: ﴿**في الفلك**﴾ متعلقٌ بالاستقرار في الظرف أي استقروا في الظرف، أي استقروا معه في الفلك أو صحِبوه فيه، أو بفعل الإنجاء أي أنجيناهم في السفينة، ويجوز أن يتعلق بمُضْمر وقع حالًا من الموصول أو من ضميره في الظرف ﴿**وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا**﴾ أي استمروا على تكذيبها، وليس المرادُ بهم الملأَ المتصدِّين للجواب فقط بل كلَّ من أصرّ على التكذيب منهم ومن أعقابهم، وتقديمُ ذكرِ الإنجاءِ على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذانِ بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الذاتِ، وتقدُّمِها على الغضب الذي يظهر أثرُه بمقتضى جرائمِهم ﴿**إنهم كانوا قومًا عمين**﴾ عُمْيَ القلوبِ غيرَ مستبصرين. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: عمِيَتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيد والنبوةِ والمعاد[١]، وقرئ[٢] (عامِينَ) والأولُ أدلُّ على الثبات والقرار.

﴿**وإلى عاد**﴾ متعلقٌ بمضمر معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿**أرسلنا**﴾ في قصة نوح عليه السلام وهو الناصبُ لقوله تعالى: ﴿**أخاهم**﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحدًا منهم في النسَب لا في الدين كقولهم: يا أخا العرب، وقيل: العاملُ فيهما الفعلُ المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحًا والأولُ أدنى وأيًا ما كان فلعل تقديمَ المجرورِ هاهنا على المفعول الصريح للحِذار عن الإضمار قبل الذكر يرشدك إلى ذلك ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿**ولوطًا**﴾ إلخ، فإن قومَه لمّا لم يُعهدوا باسمٍ

---

(١) ذكره فخر الدين الرازي في تفسيره (١٤/ ١٢٥).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٨)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٤٦).

معروف يقتضي الحالُ ذكرَه عليه السلام مضافًا إليهم، كما في قصة عادٍ وثمودَ ومدينَ، خولف في النظم الكريم بين قصتِه عليه السلام وبين القصصِ الثلاثِ.

وقولُه تعالى: ﴿هودًا﴾ عطفُ بيانٍ لـ (أخاهم) وهو هودُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ رباحِ بن الخلودِ بنِ عاذِ بنِ عوصٍ بنِ إرَمَ بنِ سام بنِ نوحٍ عليه السلام، وقيل: هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ابن عم أبي عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله في صدقه وأمانتِه وأقربُ إلى اتباعه ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية إرسالِه عليه السلام إليهم كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي وحده كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ما لكم من إلٰه غيرُه﴾ فإنه استئنافٌ جارٍ مَجرى البيانِ للعبادة المأمورِ بها. والتعليلُ لها أو للأمر بها كأنه قيل: خُصّوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئًا إذ ليس لكم إلٰهٌ سواه. وغيرُه بالرفع صفةٌ لـ (إلٰهٍ) باعتبار محلِّه، وقرئ[1] بالجر حملًا له على لفظه ﴿أفلا تتقون﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لعدم اتقائِهم عذابَ الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوحٍ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ أي ألا تتفكرون أو أتغفُلون فلا تتقون، فالتوبيخُ على المعطوفين معًا أو أتعلمون ذلك فلا تتقون! فالتوبيخُ على المعطوف فقط وفي سورة هودٍ: ﴿أفلا تعقلون﴾ [هود: ٥١] ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتُفي بحكاية كلٍّ منهما في موطن عن حكايته في موطن آخرَ كما لم يذكر هاهنا ما ذكر هناك من قوله تعالى: ﴿إن أنتم إلا مُفترون﴾ [هود، الآية ٥٠] وقِسْ على ذلك حالَ بقيةِ ما ذُكر وما لم يُذكر من أجزاء القصةِ بل حالَ نظائرِه في سائر القصصِ لا سيما في المحاورات الجاريةِ في الأوقات المتعددة والله أعلم.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ استئنافٌ كما مر وإنما وُصف الملأُ بالكفر إذْ لم يكن كلُّهم على الكفر كملأ قومِ نوحٍ بل كان منهم من آمن به[2] عليه السلام ولكن كان يكتُم إيمانَه كمرثد بن سعد، وقيل: وُصفوا به لمجرد الذم ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي متمكنًا في خِفّة عقلٍ راسخًا فيها حيث فارقتَ دينَ آبائِك، ألا إنهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون.

﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي فيما ادعيْتَ من الرسالة، قالوه لعراقتهم في التقليد وحِرمانِهم من النظر الصحيح ﴿قال﴾ مستعطفًا لهم ومستميلًا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاءِ الموجبةِ لتغليظ القولِ والمشافهةِ بالسوء ﴿يا

---

(١) تقدمت هذه القراءة.
(٢) في خ: له.

قوم ليس بي سفاهة﴾ أي شيءٌ منها ولا شائبةٌ من شوائبها **﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾** استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه من كونه في الغاية القصوىٰ من الرُّشد والأناةِ والصدقِ والأمانة، فإن الرسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنه قيل: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه ولكني في غاية ما يكون الرشدُ والصِّدقُ. ولم يصرِّحْ بنفي الكذِب اكتفاءً بما في حيز الاستدراك. و(من) لابتداء الغايةِ مجازًا متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لرسولٌ مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وقولُه تعالى: **﴿أبلغكم رسالات ربي﴾** استئنافٌ سيق لتقرير رسالتِه وتفصيلِ أحوالِها، وقيل: صفةٌ أخرى لرسولٌ والكلامُ في إضافة الربِّ إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى العالمين وكذا في جمع الرسالاتِ كالذي مر في قصة نوحٍ عليه السلام، وقرئ[١] (أُبْلِغُكم) من الإبلاغ **﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾** معروفٌ بالنصح والأمانةِ مشهورٌ بين الناس بذلك، وإنما جيء بالجملة الاسميةِ دِلالةً على الثبات والاستمرار وإيذانًا بأن من هذا حالُه لا يحوم حولَه شائبةُ السفاهةِ والكذب.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ الكلامُ فيه كالذي مر في قصة نوح عليه السلام **﴿على رجل منكم﴾** أي من جنسكم **﴿لينذركم﴾** ويحذرَكم عاقبةَ ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي حتى نسبتموني إلى السفاهة والكذبِ، وفي إجابة الأنبياءِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين من يشافِهُهم بما لا خير فيه من أمثال تلك الأباطيلِ، بما حُكيَ عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمالِ الشفقةِ والرأفة، من الدلالة على حيازتهم القدحَ المُعلَّى[٢] من مكارم الأخلاق، ما لا يخفى مكانُه.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء﴾ شروعٌ في بيان ترتيبِ أحكامِ النصح[٣] والأمانةِ والإنذارِ وتفصيلِها، و(إذ) منصوبٌ بـ (اذكروا) على المفعولية دون الظرفية، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات

---

(١) سبق في قصة سيدنا نوح.

(٢) حاز القدح المعلَّى: حاز النصيب الأوفر والحظ الأوفى. والقدح في الأصل قطعة من الخشب تعرَّض قليلاً وتسوَّى وتكون في طول الفتر أو دونه قليلاً، وتُخَطُّ فيه حزوز تميز كل قدح بعدد من الحزوز، وكان يستعمل في الميسر. والمعلَّى من القداح هو سابع سهام الميسر، له سبعة أنصباء عند الفوز وعليه سبعة إن لم يفز.

(٣) في ط: للنصح.

للمبالغة في إيجاب ذكرِها لما أن إيجابَ ذكرِ الوقت إيجابٌ لذكر ما فيه بالطريق البرهاني، ولأن الوقتَ مشتملٌ عليها، فإذا استُحضر كانت هي حاضرةً بتفاصيلها كأنها مشاهَدةٌ عيانًا، ولعله معطوفٌ على مقدر كأنه قيل: لا تعجبوا من ذلك أو تدبروا في أمركم واذكروا وقتَ جعْلِه تعالى إياكم خلفاءَ ﴿من بعد قوم نوح﴾ أي في مساكنهم أو الأرض بأن جعلكم ملوكًا، فإن شدادَ بنَ عاد ممن ملك معمورةَ الأرضِ من رمل عالِج[1] إلى شجر عمان ﴿وزادكم في الخلق﴾أي في الإبداع والتصوير أو في الناس ﴿بسطةً﴾ قامةً وقوةً فإنه لم يكن في زمانهم مثلُهم في عِظَم الأجرام[2]، قال الكلبي والسدي كانت قامةُ الطويلِ منهم مائةَ ذراعٍ وقامةُ القصير ستين ذراعًا ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ التي أنعم بها الله عليكم من فنون النَّعماءِ التي هذه من جملتها. وهذا تكريرٌ للتذكير لزيادة التقرير، وتعميمٌ إثرَ تخصيص ﴿لعلكم تفلحون﴾ كي يؤديَكم ذلك إلى الشكر المؤدّي إلى النجاة من الكروب والفوزِ بالمطلوب ﴿قالوا﴾ مجيبين عن تلك النصائحِ العظيمة ﴿أجِئتنا لنعبد الله وحده﴾ أي لنخُصّه بالعبادة ﴿ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أنكروا عليه عليه السلام مجيئَه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراضِ عن عبادة الأوثان انهماكًا في التقليد وحبًا لما ألِفوه وألِفوا أسلافَهم عليه.

ومعنى المجيء إما مجيئُه عليه السلام مِنْ مُتَعَبَّده ومنزلِه وإما من السماء على التهكم وإما القصدُ والتصدّي مجازًا كما يقال في مقابلِه: ذهب يشتمني من غير إرادةِ معنى الذهاب ﴿فأتِنا بما تعدنا﴾ من العذاب المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿أفلا تتقون﴾ ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي في الإخبار بنزول العذابِ، وجوابُ (إن) محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه أي فائتِ به.

﴿قال قد وقع عليكم﴾ أي وجب وحق أو نزل بإصراركم هذا بناءً على تنزيل المتوقَّع منزلةَ الواقعِ كما في قوله تعالى: ﴿أتى أمرُ الله﴾ [النحل، الآية ١] ﴿من ربكم﴾ أي من جهته تعالى. وتقديمُ الظرف الأولِ على الثاني مع أن مبدأ الشيءِ متقدمٌ على منتهاه للمسارعة إلى بيان إصابةِ المكروهِ لهم، وكذا تقديمُه على الفاعل الذي هو قوله تعالى: ﴿رجس﴾ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخّر، ولأن فيه نوعَ طولٍ بما عُطف عليه من قوله تعالى: ﴿وغضبٌ﴾ فربما يُخِل تقديمُها بتجاوب النظم الكريم، والرجسُ العذابُ من الارتجاس الذي هو الاضطرابُ، والغضب إرادةُ

---

(١) عالج: رملة بالبادية بين فَيْد والقريات وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة في مسيرة أربع ليال. (معجم البلدان).

(٢) الأجرام: جمع جِرْم وهو الجسم.

الانتقامِ، وتنوينُهما للتفخيم والتهويل ﴿**أتجادلونني في أسماء**﴾ عاريةٍ عن المسمّىٰ ﴿**سميتموها**﴾ أي سميتم بها ﴿**أنتم وآباؤكم**﴾ إنكارٌ واستقباح لإنكارهم مجيئَه عليه السلام داعيًا لهم إلى عبادة الله تعالى وحده وتركِ عبادةِ الأصنام أي أتجادلونني في أشياءَ سمَّيتموها آلهةً ليست هي إلا محضُ الأسماءِ من غير أن يكون فيها من مصداق الإلٰهيةِ شيءٌ ما لأن المستحِقَّ للمعبوديَّة بالذات ليس إلا من أوجد الكلَّ وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى إما بإنزال آيةٍ أو نصبِ حُجةٍ وكلاهما مستحيلٌ، وذلك قوله تعالى: ﴿**ما نزل الله بها من سلطان**﴾ وإذ ليس ذلك في حيز الإمكانِ تحققَ بُطلانُ ما هم عليه ﴿**فانتظروا**﴾ مترتبٌ على قوله تعالى: ﴿**قد وقع عليكم**﴾ أي فانتظروا ما تطلُبونه بقولكم: فائتنا بما تعدنا، إلخ ﴿**إني معكم من المنتظرين**﴾ لما يَحِلُّ بكم. والفاء في قوله تعالى: ﴿**فأنجيناه**﴾ فصيحةٌ كما في قوله تعالى: ﴿**فانفجرت**﴾ [البقرة، الآية ٦٠] أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿**والذين معه**﴾ أي في الدين ﴿**برحمة**﴾ أي عظيمةٍ لا يقادَر قدرُها، وقوله تعالى: ﴿**منا**﴾ أي من جهتنا متعلقٌ بمحذوف هو نعتٌ لرحمةٍ مؤكِّدٌ لفخامتها الذاتية، المنفهمةِ من تنكيرها، بالفخامة الإضافية ﴿**وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا**﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿**وما كانوا مؤمنين**﴾ عطفٌ على كذبوا داخلٌ معه في حكم الصلةِ، أي أصرّوا على الكفر والتكذيبِ ولم يرعووا عن ذلك أبدًا، وتقديمُ حكايةِ الإنجاءِ على حكاية الإهلاكِ قد مر سرُّه، وفيه تنبيهٌ على أن مناطَ النجاةِ هو الإيمانُ بالله تعالى وتصديقُ آياتِه كما أن مدارَ البوارِ هو الكفرُ والتكذيب. وقصتُهم أن عادًا قومٌ كانوا باليمن بالأحقاف، وكانوا قد تبسّطوا في البلاد ما بين عُمان إلى حضْرَمَوتَ، وكانت لهم أصنامٌ يعبُدونها صدًا وصمود والهبا فبعث الله تعالى إليهم هودًا نبيًا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبًا فكذبوه وازدادوا عُتوًّا وتجبّرًا فأمسك الله عنهم القطرَ ثلاثَ سنينَ حتى جهَدوا[1] وكان الناس إذا نزل بهم بلاءٌ طلبوا إلى الله الفرجَ منه عند بيتِه الحرامِ مسلِمُهم ومشركُهم، وأهلُ مكةَ [كانوا] إذ ذاك العماليقَ أولادَ عمليقَ بنِ لاوذَ بنِ سَامِ بنِ نوح وسيدُهم معاويةُ بنُ بكرٍ فجهزّت عادٌ إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلًا منهم قَيلُ بنُ عنز ومَرثدُ بن سعد الذي كان يكتُم إسلامَه فلما قدِموا نزلوا على معاويةَ بنِ بكر وهو بظاهر مكة خارجًا عن[2] الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخوالَه وأصهارَه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمرَ وتغنّيهم قينتا معاوية فلما

(١) جهدوا: بلغوا المشقَّة.

(٢) في خ: من.

رأى طولَ مقامِهم وذهولَهم باللهو عما قدموا له أهمّه ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه وكان يستحيي أن يكلمهم خشيةَ أن يظنوا به ثِقَلَ مُقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعرًا نغنيهم به لا يدرون مَنْ قاله، فقال معاوية: [الوافر]

ألا يا قِيلُ ويحكَ قم فهينِمْ لعل الله يسقينا غماما[1]

فيسقي أرضَ عادٍ إن عادًا قَدَ امسَوْا لا يُبينون الكلاما

فلما غنتا به قال[2]: إن قومَكم يتغوّثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخُلوا الحرَم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثدُ بن سعد: والله لا تُسقَون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله تعالى سُقِيتم وأظهر إسلامَه فقالوا لمعاوية: احبِس عنا مرثدًا لا يقدَمَن معنا فإنه قد اتبع دينَ هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسقِ عادًا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحاباتٍ ثلاثًا: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ ثم ناداه منادٍ من السماء: يا قيلُ اختر لنفسك ولقومك فقال: اخترت السوداءَ فإنها أكثرُهن ماءً فخرجت على عاد من واد يقال له: المغيث فاستبشَروا بها وقالوا: هذا عارضٌ مُمطرُنا فجاءتهم منها ريحٌ عقيمٌ فأهلكتهم ونجا هودٌ والمؤمنون معه فأتَوا مكةَ فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا.

[صالح وقومه]

﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا﴾ عطف على ما سبق من قوله تعالى: **﴿وإلى عاد أخاهم هودًا﴾** موافقٌ له في تقديم المجرورِ على المنصوب، وثمودُ قبيلةٌ من العرب سُمُّوا باسم أبيهم الأكبرِ ثمودَ بنِ عابرِ بن إرَمَ بنِ سام بنِ نوح عليه السلام وقيل: إنما سُمُّوا بذلك لقلة مائِهم من الثمْدُ وهو الماء القليل، وقرئ[3] بالصرف بتأويل الحيّ وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى وأخوةُ صالح عليه السلام لهم من حيث النسبُ كهودٍ عليه السلام فإنه صالحُ بنُ عبيد بنِ أسف بنِ ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، ولما كان الإخبارُ بإرساله عليه السلام إليهم مَظِنةً لأن يُسأل ويقال: فماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئناف **﴿قال يا قوم**

(١) ينظر: كتاب العين (٤/ ٦٠). (٢) في خ: فقال.

(٣) قرأ بها: الأعمش، ويحيى بن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٢٣)، والبحر المحيط (٤/ ٣٢٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٧٠)، وتفسير الرازي (٤، ٢٥٠).

اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾ وقد مر الكلامُ في نظائره **﴿قد جاءتكم بينة﴾** أي آيةٌ ومعجزةٌ ظاهرة شاهدةٌ بنبوّتي، وهي من الألفاظِ الجاريةِ مَجرىٰ الأبطحِ والأبرق في الاستغناء عن ذكر موصوفاتِها حالةَ الإفراد، والجمع كالصالح إفرادًا وجمعًا وكذلك الحسنةُ والسيئة سواءٌ كانتا صفتين للأعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة، ولذلك أُولِيَت العوامل .

وقوله تعالى: **﴿من ربكم﴾** متعلّقٌ بجاءتكم أو بمحذوف هو صفةٌ لـ (بينةٌ) كما مر مرارًا، والمرادُ بها الناقةُ وليس هذا الكلام منه عليه السلام أولَ ما خاطبهم إثرَ دعوتِهم إلى التوحيد، بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكّرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامَه وكذبوه، ألا يُرى إلى ما في سورة هود من قوله تعالى: **﴿هو أنشأكم من الأرض واستعْمَركم فيها﴾** [هود: ٦١] إلى آخر الآيات. روي أنه لما أُهلكت عادٌ عَمَرت ثمودُ بلادَها وخلفوهم في الأرض وكثُروا وعُمِّروا أعمارًا طِوالًا حتى إن الرجلَ كان يبني المسكن المُحْكَم فينهدمُ في حياته فنحتوا البيوتَ من الجبال وكانوا في سعة ورخاءٍ من العيش فعتَوْا على الله تعالى وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثانَ فبعث الله تعالى إليهم صالحًا وكانوا قومًا عربًا وصالحٌ من أوسطهم نسبًا، فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يتبعْه إلا قليلٌ منهم مستضعَفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال: أيةَ آيةٍ تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلومٍ لهم من السنة فتدعو إلٰهَك وندعو آلهتنا[1] فإن[2] استُجيب لنا اتبعتَنا[3] فقال صالحٌ عليه السلام: نعم، فخرج معهم ودعَوْا أوثانَهم وسألوا الإجابة فلم تُجبْهم ثم قال سيدهم جندعُ بن عمرو وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة[4]: أخرِجْ لنا من هذه الصخرةِ ناقةً مخترِجةً جوفاءَ وبراءَ، والمخترِجةُ التي شاكلت البُخْت، فإن فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق: لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُن ولتُصدِّقُنّ قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخّضت الصخرةُ تمخّض النَتوجِ[5] بولدها فانصدعت عن ناقة عُشَراءَ[6] جوفاء وبراءٍ كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون ثم نُتِجت ولدًا مثلَها في العِظَم، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه ومنع أعقابَهم ناسٌ من رؤوسهم أن يؤمنوا فمَكثت الناقةُ مع ولدها ترعى الشجرَ وتشرب الماءَ

---

(١) زاد في خ: فإن استجيب لك اتبعناك.
(٢) في خ: وإن.
(٣) في خ: اتبعنا.
(٤) في خ: الكاثبة.
(٥) ناقة نَتُوج: ولود، أي تنتج.
(٦) ناقة عُشَراء: مضى على حملها عشرة أشهر. والجمع عِشار. ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا العِشارُ عُطِّلت﴾. والجوفاء: ذات الجوف الواسع.

وكانت تردُ غِبًا، فإذا كان يومها وضعتْ رأسَها في البئر فما ترفعها حتى تشربَ كلَّ ما فيها ثم تتفحج[١] فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدّخرون وكانت إذا وقع الحرُّ تصيّفت بظهر الوادي فيهرب منها أنعامُهم فتهبِط إلى بطنه، وإذا وقع البردُ تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزيَّنَت عَقرَها لهم امرأتانِ عنيزةُ أمُّ غنم وصدفةُ بنتُ المختار لِما أضرَّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سَقْبُها[٢] حتى رقيَ جبلًا اسمُه قارةُ فرَغا ثلاثًا وكان صالح عليه السلام قال لهم: أدركوا الفصيلَ عسى أن يرفع عنكم العذابَ فلم يقدروا عليه فانفجت الصخورُ بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح: تُصبحون غدًا ووجوهُكم مصفرّة، وبعد غد ووجوهُكم محمرةٌ واليوم الثالث ووجوهكم مُسودة ثم يصبّحكم العذاب فلما رأوا العلاماتِ طلبوا أن يقتُلوه فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلَسطينَ، ولما كان اليومُ الرابع وارتفع الضحى تحنّطوا بالصَّبر[٣] وتكفنوا بالأنْطاع[٤] فأتتهم صيحةٌ من السماء ورجفةٌ من الأرض فتقطّعت قلوبُهم فهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿**هذه ناقة الله لكم آية**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان البينة وإضافةُ الناقةِ إلى الاسم الجليلِ لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودةٍ ووسائطَ معتادة ولذلك كانت آيةً وأيَّ آية، ولكم بيانٌ لمن هي آيةٌ له، وانتصابُ آيةً على الحالية والعاملُ فيها معنى الإشارة، ويجوز أن يكون (ناقةُ الله) بدلًا من هذه أو عطفَ بيانٍ له أو مبتدأ ثانيًا، ولكم خبرًا عاملًا في آية ﴿**فذروها**﴾ تفريعٌ على كونها آيةً من آيات الله تعالى فإن ذلك مما يوجب عدم التعرّضِ لها ﴿**تأكل في أرض الله**﴾ جوابُ الأمر أي الناقةُ ناقةُ الله والأرضُ أرضُ الله تعالى فاتركوها تأكلْ ما تأكلُ في أرض ربِّها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها. وقرئ[٥] (تأكلُ) بالرفع على أنه في موضع الحالِ أي آكلةً فيها، وعدمُ التعرض للشرب إما للاكتفاء عنه بذكر الأكلِ أو لتعميمه له أيضًا كما في قوله: [الرجز]

علفتُها تِبْنًا وماءً باردًا[٦]

---

(١) تفحَّجت الناقة: وسَّعت ما بين رجليها لتُحْتلب.

(٢) في خ: سقيهما، والسَّقْب: ولد الناقة الذكر ساعة يولد.

(٣) الصَّبِر (بكسر الباء) عصارة شجر مرّ، واحدته صَبِرة.

(٤) الأنطاع: جمع نِطْع، وهو بساط من الجلد.

(٥) قرأ بها: أبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٢٨).

(٦) تقدم.

وقد ذكرتُ[١] ذلك في قوله تعالى: ﴿لها شِرْبٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ نُهي عن المس الذي هو مقدمةُ الإصابةِ بالشرّ الشامل لأنواع الأذيةِ ونُكّر السوءُ مبالغةً في النهي، أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلًا ولا تطرُدوها ولا تُريبوها إكرامًا لآية الله ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ جوابٌ للنهي.

ويُروى أن رسول الله ﷺ حين مر بالحِجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «**لا يدخُلنّ أحدٌ منكم القريةَ ولا تشربوا من مائها ولا تدخُلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبَكم مثلُ الذي أصابهم**»[٢] وقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «**يا علي أتدري من أشقى الأولين؟**» قال: الله ورسولُه أعلم، قال: «**عاقرُ ناقةِ صالح، أتدري من أشقى الآخِرين؟**» قال: الله ورسولُه أعلم، قال: «**قاتلُك**»[٣].

﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**﴾ أي خلفاءَ في الأرض أو خلَفًا لهم كما مر ﴿**وبوأكم في الأرض**﴾ أي جعل لكم مَباءةً ومنزلًا في أرض الحِجْر بين الحجازِ والشام ﴿**تتخذون من سهولها قصورًا**﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية التبوئةِ أي تبنون في سهولها قصورًا رفيعةً أو تبنون من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص[٤]

---

(١) في خ: ذكر.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٦٣١) كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٣٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥، ٢٢٨٦) كتاب الزهد، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر.

(٣) روي من حديث عمار بن ياسر، ومن حديث جابر بن سمرة، ومن حديث صهيب، ومن حديث علي.
أما حديث عمار: فأخرجه النسائي في سننه الكبرى (٥/ ١٥٣) رقم (٨٥٣٨)، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٢، ١٣) وأحمد (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤)،والحاكم (٣/ ١٤٠-١٤١) وابن هشام في سيرته (٢/ ٢٥٣). وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
وأما حديث جابر بن سمرة: فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢/ ٢٤٧) رقم (٢٠٣٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٥) إلى النسائي في كتاب الكنى، وإلى أبي نعيم في كتابه دلائل النبوة. وأما حديث صهيب:
فقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى وفيه رشدين بن سعد وقد وثق، وبقية رجاله ثقات.
وأما حديث علي: فقد عزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٦) رقم (٤٦٧) إلى ابن مردويه في تفسيره.

(٤) الرهص: الطين الذي يجعل بعضه على بعض فيبنى به.

واللبن والآجُرّ ﴿وتنحِتون الجبال﴾ أي الصخورَ وقرئ[1] ﴿تنحَتون﴾ بفتح الحاء و﴿تنحاتون﴾ بإشباع الفتحة كما في قوله: [الكامل]

ينباعُ من ذِفْرَي أسيلٍ حرّةٍ ....[2]

والنحتُ نجْرُ الشيءِ الصُّلب، فانتصابُ الجبالِ على المفعولية وانتصابُ قوله تعالى: ﴿بيوتًا﴾ على أنها حالٌ مقدرةٌ منها كما تقول: خِطْتُ هذا الثوبَ قميصًا، وقيل: انتصابُ الجبالِ على إسقاط الجار أي من الجبال وانتصابُ بيوتًا على المفعولية، وقد جوّز أن يُضمَّن النحتُ معنى الاتخاذِ فانتصابُهما على المفعولية، وقيل: كانوا يسكُنون السهولَ في الصيف والجبالَ في الشتاء ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ التي أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميعَ آلائِه التي هذه من جملتها ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فإن حقَّ آلائِه تعالى أن تُشكَرَ ولا تُهملَ ولا يُغْفلَ عنها فكيف بالكفر والعِثيِّ في الأرض بالفساد.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي عتَوْا وتكبروا، استئنافٌ كما سلف وقرئ بالواو عطفًا على ما قبله من قوله تعالى: ﴿يا قوم﴾ إلخ، واللامُ في قوله تعالى: ﴿للذين استضعفوا﴾ للتبليغ وقوله تعالى: ﴿لمن آمن منهم﴾ بدلٌ من الموصول بإعادة العاملِ بدلَ الكلِّ إن كان ضميرُ منهم لقومه، وبدلَ البعضِ إن كان للذين استُضعفوا على أن مِن المستضعفين مَنْ لم يؤمن، والأولُ هو الوجهُ، إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطابِ أولًا إلى جميع المستضعفين مع أن المجاوبةَ مع المؤمنين منهم على أن الاستضعافَ مختصٌّ بالمؤمنين، أي قالوا للمؤمنين الذين استَضْعفوهم واسترذلوهم: ﴿أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه﴾ وإنما قالوه بطريق الاستهزاءِ بهم ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ عدَلوا عن الجواب الموافِقِ لسؤالهم بأن يقولوا: نعم أو نعلم أنه مرسلٌ منه تعالى مسارعةً إلى تحقيق الحقِّ وإظهارِ ما لهم من الإيمان

---

(١) قرأ بها الحسن. ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٢٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٧١).

(٢) صدر بيت وعجزه:

.... مشدودةٍ مثل الفنيق المُقْرمِ

ويروى: «غضوب جسرة» بدل «أسيل حرَّة». والبيت لعنترة في ديوانه ص (٢٠٤)، والإنصاف (١/ ٢٦)، وخزانة الأدب (١/ ١٢)، والخصائص (٣/ ١٢١)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٣٨٨)، وشرح شواهد الشافية، ص (٢٤)، والمحتسب (١/ ٢٥٨، ٣٤٠)، ولسان العرب (غضب، بوع، نبع)، وبلا نسبة في الخصائص (٣/ ١٩٣)، ورصف المباني، ص (١١)، وشرح شافية ابن الحاجب (١/ ٧٠)، ومجالس ثعلب (٢/ ٥٣٩)، والمحتسب (١/ ٧٨، ١٦٦، ٢٥٨).

الثابتِ المستمرِّ الذي تنبئ عنه الجملةُ الاسميةُ وتنبيهًا على أن أمرَ إرسالِه من الظهور بحيث لا ينبغي أن يُسألَ عنه، وإنما الحقيقُ بالسؤال عنه هو الإيمانُ به **﴿قال الذين استكبروا﴾** أعيد الموصولُ مع صلته مع كفاية الضميرِ إيذانًا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتُوِّ والاستكبار **﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾** وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون إظهارًا لمخالفتهم إياهم وردًّا لمقالتهم **﴿فعقروا الناقة﴾** أي نحروها، أُسند العقرُ إلى الكل مع أن المباشِرَ بعضُهم للملابسة أو لأن ذلك لما كان برضاهم فكأنه فَعلَه كلُّهم، وفيه من تهويل الأمرِ وتفظيعِه بحيث أصابت غائلتُه الكلَّ ما لا يخفى **﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾** أي استكبروا عن امتثاله وهو ما بلّغهم صالح عليه السلام من الأمر والنهي.

﴿وقالوا﴾ مخاطِبين له عليه السلام بطريق التعجيزِ والإفحام على زعمهم **﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾** أي من العذاب، والإطلاقُ للعلم به قطعًا **﴿إن كنت من المرسلين﴾** فإن كونَك من جملتهم يستدعي صدقَ ما تقول من الوعد والوعيد **﴿فأخذتهم الرجفة﴾** أي الزلزلةُ لكن لا إثرَ ما قالوا بل بعد ما جرىٰ عليهم من مبادئ العذابِ في الأيام الثلاثةِ حسبما مر تفصيلُه **﴿فأصبحوا في دارهم﴾** أي صاروا في أرضهم وبلدِهم أو في مساكنهم **﴿جاثمين﴾** خامدين موتىٰ لا حَراكَ بهم، وأصلُ الجثومِ البروكُ، يقال: الناسُ جثومٌ أي قعود لا حَراكَ بهم ولا ينبِسون نبْسةً، قال أبو عبيدة: الجثومُ للناس والطير، والبروكُ للإبل، والمرادُ كونُهم كذلك عند ابتداءِ نزولِ العذابِ بهم من غير اضطرابٍ ولا حركة كما يكون عند الموت المعتاد، ولا يخفى ما فيه من شدة الأخذِ وسرعةِ البطش.

اللهم إنا بك نعوذ من نزول سخطِك وحُلولِ غضبِك[1].

و(جاثمين) خبرٌ لـ (أصبحوا) والظرفُ متعلقٌ به، ولا مساغ لكونه خبرًا و(جاثمين) حالًا لإفضائه إلى كون الإخبارِ بكونهم في دارهم مقصودًا بالذات وكونِهم جاثمين قيدًا تابعًا له غيرَ مقصودٍ بالذات. قيل: حيث ذُكرت الرجفةُ وُحِّدت الدارُ، وحيث ذُكرت الصيحةُ جمعت لأن الصيحةَ كانت من السماء فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ من الزلزلة فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليقُ به **﴿فتولى عنهم﴾** إثرَ ما شاهد ما جرى عليهم تولى مغتمًّا متحسّرًا على ما فاتهم من الإيمان متحزنًا عليهم **﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾** بالترغيب والترهيبِ وبذلتُ فيكم وُسْعي ولكن لم تقبلوا مني ذلك

---

(١) عبارة: «اللهم... غضبك» تعقيبيّة من قبل المؤلف ولا تدخل في سياق التفسير.

وصيغةُ المضارع في قوله تعالى: ﴿**ولكن لا تحبون الناصحين**﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ أي شأنُكم الاستمرارُ على بغض الناصحين وعداوتِهم، خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطابَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام أهلَ قَلِيبِ بدرٍ حيث قال: «**إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**»[(١)] وقيل: إنما تولى عنهم قبل نزولِ العذاب بهم عند مشاهدتِه عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهبًا عنهم منكرًا لإصرارهم على ما هم عليه.

وروي أن عَقرَهم الناقةَ كان يوم الأربِعَاءِ ونزل بهم العذابُ يوم السبت، وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخانَ ساطعًا فعلم أنهم قد هلَكوا وكانوا ألفًا وخمسمائةِ دارٍ، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارَهم.

لوط وقومه

﴿**ولوطًا**﴾ منصوبٌ بفعل مضمر معطوف على ما سبق، وعدمُ التعرُّضِ للمرسل إليهم مقدمًا على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحِق قد مر بيانُه في قصة هودٍ عليه السلام، وهو لوطُ بنُ هارانَ بن تارح ابن أخي إبراهيمَ كان من أرض بابلَ من العراق مع عمه إبراهيمَ فهاجر إلى الشام فنزل فلسطينَ وأنزل لوطًا الأردُنّ وهي كورةٌ بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سَدومَ وهي بلدٌ بحِمْصَ، وقوله تعالى: ﴿**إذ قال لقومه**﴾ ظرفٌ للمضمر المذكورِ أي أرسلنا لوطًا إلى قومه وقت قولِه لهم إلخ، ولعل تقييدَ إرسالِه عليه السلام بذلك لما أن إرسالَه إليهم لم يكن في أول وصولِه إليهم.

وقيل: هو بدلٌ من (لوطًا) بدلَ اشتمالٍ على أن انتصابَه بـ (اذكر)، أي اذكرْ وقتَ قولِه عليه السلام لقومه: ﴿**أتأتون الفاحشة**﴾ بطريق الإنكارِ التوبيخيِّ التقريعيِّ أي أتفعلون تلك الفعلةَ المتناهيةَ في القبح المتماديةِ في الشرية والسوء ﴿**ما سبقكم بها**﴾ ما عمِلها قبلكم على أن الباء للتعدية [«كما في قوله عليه الصلاة والسلام سبقك بها عكاشة[(٢)] من قولك سبقته بالكره أي ضربتها قبله ومن» في قوله تعالى][(٣)]: ﴿**من**

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، برقم (٧٧/ ٢٨٧٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٣١٢): كتاب الرقاق: باب: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، حديث (٦٤٧٢)، ومسلم (٢/ ٩٢-٩٣- النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤/ ٢٢٠) من طريق عبد الله بن عباس به.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩٠-٩١ - النووي): كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٦٧-٣٦٨/ ٢١٦) من طريق أبي هريرة به.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩١ - النووي): كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين =

أحد﴾ مزيدةٌ لتأكيد النفي وإفادةِ معنى الاستغراقِ، وفي قوله تعالى: **﴿من العالمين﴾** للتبعيض، والجملةُ مستأنفةٌ مسوقة لتأكيد النكيرِ وتشديدِ التوبيخِ والتقريعِ، فإن مباشرةَ القبيحِ قبيحٌ واختراعَه أقبحُ، ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولًا إتيانَ الفاحشةِ ثم وبخهم بأنهم أولُ من عمِلها فإن سبكَ النظمِ الكريمِ وإن كان على نفي كونِهم مسبوقين من غير تعرّضٍ لكونهم سابقين، لكن المرادَ أنهم سابقون لكل مَنْ عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارًا في نحو قوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾** [الأنعام، الآية ٢١ والآية ٩٣] أو مسوقةٌ جوابًا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل بيانًا للعلة وإظهارًا للزاجر: ما سبقكم بها أحدٌ لغاية قُبْحِها وسوءِ سبيلها فكيف تفعلونها؟ قال عمرو بن دينار: ما نزَا ذكرٌ على ذكر حتى كان قومُ لوط[1]. قال محمد بنُ إسحاق: كانت لهم ثمارٌ وقُرى لم يكن في الدنيا مثلُها فقصدهم الناسُ فآذَوْهم فعرض لهم إبليسُ في صورة شيخٍ فقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا نجَوْتم منهم فأبَوْا فلما ألحّ الناسُ عليهم قصدوهم فأصابوا غِلْمانًا صِباحًا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك، قال الحسن: كانوا لا يفعلون ذلك إلا بالغرباء، وقال الكلبي: أول من فُعل به ذلك الفعلُ إبليسُ الخبيثُ حيث تمثل لهم في صورة شابٍ جميل فدعاهم إلى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل.

﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ خبرٌ مستأنفٌ لبيان تلك الفاحشةِ وقرئ بهمزتين صريحتين[2] وبتليين[3] الثانيةِ بغير مدٍّ وبمد[4] أيضًا على أنه تأكيدٌ للإنكار السابقِ

= الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧١-٣٧٢/ ٢١٨) من طريق عمران بن حصين به.
وأخرجه أبو يعلى (٩/ ٢٣١-٢٣٢) رقم (٥٣٣٩)، وابن حبان (٢٦٤٤-موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٦-٧) رقم (٩٧٦٦، ٩٧٦٧، ٩٧٦٩)، من طريق قتادة عن الحسن عن عمران عن عبد الله بن مسعود به.

(٣) سقط في ط.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (٢٠/ ٢٨) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٥٤) برقم (١٧٢٦٨).

(٢) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٢٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٤٨٧، ٤٨٨)، والتيسير للداني (٣٢، ١١١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٤٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٨).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، وورش.
ينظر: الحجة لأبي زرعة، ص (٢٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: مجمع البيان للطبرسي (٢/ ٤٤٤)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٥٣).

وتشديدٍ للتوبيخ، وفي زيادة إنّ واللامِ مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ، وكان ذلك أمرٌ لا يتحقق صدورُه عن أحد فيؤكد تأكيدًا قويًا، وفي إيراد لَفظِ الرجَالِ دون الغِلمان والمُرْدان ونحوِهما مبالغةٌ في التوبيخ وقوله تعالى: ﴿شهوة﴾ مفعول له أو مصدرٌ في موقع الحالِ، وفي التقييد بها وصفُهم بالبهيمية الصِّرْفة وتنبيهٌ على أنّ العاقلَ ينبغي له أن يكون الداعيَ له المباشرَ طلبُ الولد وبقاءُ النوعِ لا قضاءُ الشهوةِ. ويجوز أن يكون المرادُ الإنكارَ عليهم وتقريعَهم على اشتهائهم تلك الفعلةَ الخبيثةَ المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿من دون النساء﴾ أي متجاوزين النساءَ اللاتي هن محلُّ الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿هن أطهرُ لكم﴾ [هود، الآية ٧٨].

﴿بل أنتم قَوْمٌ مسرفون﴾ إضرابٌ عن الإنكار المذكورِ إلى الإخبار بحالهم التي أفضَتْهم إلى ارتكاب أمثالِها وهي اعتيادُ الإسرافِ في كل شيءٍ أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبِهم، أو عن محذوف أي لا عذرَ لكم فيه بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسراف.

﴿وما كان جواب قومه﴾ أي المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهي المتصدِّين للعقد والحل وقوله تعالى: ﴿إلا أن قالوا﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء أي ما كان جوابًا من جهة قومِه شيءٌ من الأشياء إلا قولُهم أي لبعضهم الآخرين المباشِرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿أخرجوهم﴾ أي لوطًا ومن معه من أهله المؤمنين ﴿من قريتكم﴾ أي إلا هذا القولُ الذي يستحيل أن يكون جوابًا لكلام لوطٍ عليه السلام. وقرئ[1] برفع جواب على أنه اسمُ كان و(إلا أن قالوا) . . . إلخ، خبرُها وهو أظهرُ وإن كان الأولُ أقوى في الصناعة لأن الأعرفَ أحقُّ بالاسمية.

وأيًّا ما كان فليس المرادُ أنه لم يصدُرْ عنهم بصدد الجوابِ عن مقالات لوطٍ عليه السلام ومَواعظِه إلا هذه المقالةُ الباطلةُ كما هو المتسارعُ إلى الأفهام بل أنه لم يصدُرْ عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلا هذه الكلمةُ الشنيعةُ، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثيرٌ من الترَّهات حسبما حُكي عنهم في سائر السورِ الكريمة وهذا هو الوجهُ في نظائره الواردةِ بطريق القصر، وقوله تعالى: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ تعليلٌ للأمر بالإخراج، ووصفُهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخارِ بما هم فيه من القذارة

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦١)، والبحر المحيط (٤/ ٣٣٤).

كما هو ديدنُ الشُّطّار[١] والدُّعّار.

﴿فأنجيناه وأهله﴾ أي المؤمنين منهم ﴿إلا امرأته﴾ استثناءٌ من أهله فإنها كانت تُسِرّ بالكفر ﴿كانت من الغابرين﴾ أي الباقين في ديارهم الهالِكين فيها، والتذكيرُ للتغليب ولبيان استحقاقِها لما يستحقه المباشِرون للفاحشة، والجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الإنجاءِ، كأنه قيل: فماذا كان حالُها؟ فقيل: كانت من الغابرين ﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾ أي نوعًا من المطر عجيبًا وقد بينه قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل﴾ [الحجر، الآية ٧٤] قال أبو عبيدة: مُطر في الرحمة وأُمطِر في العذاب. وقال الراغب: مطر في الخير وأمطر في العذاب، والصحيح أن أَمطَرنا بمعنى أرسلنا عليهم إرسالَ المطر.

قيل: كانت المؤتَفِكةُ[٢] خمسَ مدائن، وقيل: كانوا أربعةَ آلافٍ بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكِبريتَ والنارَ، وقيل: خَسَف بالمقيمين منهم وأُمطرت الحجارةُ على مسافريهم وشُذّاذهم، وقيل: أُمطر عليهم ثم خُسِف بهم. ورُوي أن تاجرًا منهم كان في الحرَم فوقف الحجرُ له أربعين يومًا حتى قضى تجارتَه وخرج من الحرم فوقع عليه، وروي أن امرأتَه التفتت نحوَ ديارِها فأصابها حَجَرٌ فماتت ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾ خطابٌ لكل من يتأتى منه التأملُ والنظرُ تعجيبًا من حالهم وتحذيرًا من أعمالهم.

[شعيب وقومه]

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وإلى عاد أخاهم هودًا﴾ [الأعراف، الآية ٦٥] وما عُطف عليه، وقد روعيَ هاهنا ما في المعطوف عليه في تقديم المجرورِ على المنصوب، أي وأرسلنا إليهم وهم أولادُ مدينَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام شعيب بن ميكائيلَ بنِ يشجَر بنِ مدينَ، وقيل: شعيبُ بنُ ثويبِ بنِ مدينَ، وقيل: شعيبُ بنُ يثرونَ بنِ مدينَ، وكان يقال له: خطيبُ الأنبياء لحسن مراجعتِه قومَه وكانوا أهلَ بخسٍ للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ عن حكاية إرسالِه إليهم كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه﴾ مر تفسيرُه مرارًا ﴿قد جاءتْكم بينةٌ﴾ أي معجزةٌ.

وقوله تعالى: ﴿من ربكم﴾ متعلقٌ بـ (جاءتْكم) أو بمحذوف هو صلةٌ لفاعله مؤكدةٌ

---

(١) الشاطر: الخبيث الفاجر.

(٢) المؤتفكة: هي مدائن قوم لوط.

لفخامته الذاتيةِ المستفادةِ من تنكيره بفخامته الإضافيةِ، أي بينةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ كائنةٌ من ربكم ومالِك أمورِكم ولم يُذكرْ معجزتُه عليه السلام في القرآن العظيم كما لم يُذكر أكثرُ معجزاتِ النبي ﷺ فمنها ما روي من محاربة عصا موسى عليه السلام التّنّينَ حين دفع إليه غنمَه ومنها ولادةُ الغنم الدرعَ خاصة حين وعد أن يكون له الدرعُ[1] من أولادها، ومنها وقوعُ عصا آدمَ عليه السلام على يده في المرات السبعِ لأن كلَّ ذلك كان قبل أن يُستنبأ موسى عليه السلام. وقيل: البينةُ مجيئُه عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿**يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي**﴾ [هود: ٣٨ - ٨٨] أي حجةٌ واضحةٌ وبرهانٌ نيِّرٌ، عبّر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة ﴿**فأوفوا الكيلَ**﴾ أي المكيالَ كما وقع في سورة هودٍ ويؤيده قولُه تعالى: ﴿**والميزان**﴾ فإن المتبادرَ منه الآلةُ وإن جاز كونُه مصدرًا كالمعيار وقيل: آله الكيل والوزن على الإضمار، والفاءُ لترتيب الأمرِ على مجيء البينةِ ويجوز أن تكون عاطفةً على اعبدوا فإن عبادةَ الله تعالى موجبةٌ للاجتناب عن المناهي التي معظمُها بعد الكفرِ البخْسِ الذي كانوا يباشرونه ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ التي تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أيَّ شيءٍ كان وأيَّ مقدارٍ كان، فإنهم كانوا يبخسون الجليلَ والحقيرَ والقليلَ والكثيرَ، وقيل: كانوا مكّاسين لا يدَعون شيئًا إلا مكَسوه، قال زهير: [الطويل]

أفــي كــل أســواقِ الــعــراقِ إِتــاوةٌ وفي كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ درهمِ[2]؟

﴿**ولا تفسدوا في الأرض**﴾ أي بالكفر والحيف ﴿**بعد إصلاحها**﴾ بعد ما أصلح أمرَها وأهلَها الأنبياءُ وأتابعُهم بإجراء الشرائع، أو أصلحوا فيها وإضافتُه إليها كإضافة مكرِ الليلِ والنهار ﴿**ذلكم خير لكم**﴾ إشارةٌ إلى العمل بما أمرَهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيريةِ إما الزيادةُ مطلقًا أو في الإنسانية وحسنِ الأُحدوثة وما يطلُبونه من التكسب والربح لأن الناسَ إذا عرفوهم بالأمانة رغِبوا في معاملتهم ومُتاجَرتِهم ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي مصدّقين لي في قولي هذا.

﴿**ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**﴾ أي بكل طريقٍ من طرق الدِّين كالشيطان.

---

(١) غنم دُرْعٌ: سود المآخير بيض المقاديم، أو العكس. الواحدة درعاء، والذكر أدْرَع.

(٢) البيت لجابر بن حني التغلبي في لسان العرب (مكس)، والتنبيه والإيضاح (٢/ ٣٠٤)، وأساس البلاغة (أتي)، وتاج العروس (مكس)، (أتو)، وشعراء النصرانية ص(١٨٩)، ولحني بن جابر التغلبي في لسان العرب (أتي)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة (١٠/ ٩٠)، (١٤/ ٣٥٢)، وجمهرة اللغة ص(٨٥٥)، ومجمل اللغة (١/ ١٦٤)، (٤/ ٣٤٣)، والمخصص (٣/ ٧٧، ١٢/ ٢٥٣)، وكتاب العين (٥/ ٣١٧).

وصراطُ الحقِّ وإن كان واحدًا لكنه يتشعب إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ وكانوا إذا رأَوْا أحدًا يشرَع في شيء منها منعوه. وقيل: كانوا يجلِسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبًا إنه كذابٌ لا يفتنَنَّك عن دينك ويتوعّدون لمن آمن به وقيل: يقطعون الطريق ﴿**وتصدون عن سبيل الله**﴾ أي السبيلِ الذي قعَدوا عليه فوقع المُظهرُ موقعَ المضمرِ بيانًا لكل صراطٍ ودلالةً على عِظم ما يصدون عنه وتقبيحًا لما كانوا عليه، أو الإيمانِ بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى: ﴿**من آمن به**﴾ مفعول تصدون على إعمال الأقربِ، ولو كان مفعولَ توعِدون لقيل: وتصُدونهم، وتوعِدون حالٌ من الضمير في تقعدوا ﴿**وتبغونها عوجًا**﴾ أي وتطلبون لسبيل الله عوجًا بإلقاء الشُّبَهِ أو بوصفها للناس بأنها مُعْوجةٌ وهي أبعدُ شيءٍ من شائبة الاعوجاج.

﴿**واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم**﴾ بالبركة في النسل والماء ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ من الأمم الماضيةِ كقوم نوحٍ ومَنْ بعدهم من عاد وثمودَ وأضرابِهم واعتبِروا بهم ﴿**وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به**﴾ من الشرائع والأحكام ﴿**وطائفة لم يؤمنوا**﴾ أي به أو لم يفعلوا الإيمان ﴿**فاصبروا حتى يحكم الله بيننا**﴾ أي بين الفريقين بنصر المُحقّين على المبطلين فهو وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ إذ لا معقِّبَ لحكمه ولا حَيْفَ فيه.

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه**﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ينساق إليه المقالُ كأنه قيل: فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظَ من شعيبٍ عليه السلام؟ فقيل: قال أشرافُ قومِه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غيرَ مكتفِين بمجرد الاستعصاءِ عليه والامتناعِ من الطاعة له بل بالغين من العُتوّ والاستكبارِ إلى أن قصَدوا استتباعَه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعَه المؤمنين واجترءوا على إكراههم عليه بوعيد النفي وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيدِ القسمي: ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا**﴾ بنسبة الإخراجِ إليه عليه السلام أولًا وإلى المؤمنين ثانيًا بعطفهم عليه تنبيهًا على

أصالته عليه السلام في الإخراج وتبعيتِهم له فيه كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿معك﴾ فإنه متعلقٌ بالإخراج لا بالإيمان وتوسيطُ النداءِ باسمه العَلَميِّ بين المعطوفَين لزيادة التقريرِ والتهديدِ الناشئةِ من غاية الوقاحةِ والطغيان، أي والله لَنُخرجنّك وأتباعَك ﴿من قريتنا﴾ بغضًا لكم ودفعًا لفتنتكم المترتبةِ على المساكنة والجِوارِ.

وقوله تعالى: ﴿أو لتعودُنّ في ملتنا﴾ عطفٌ على جواب القسم، أي والله ليكونن[1] أحدُ الأمرين البتة، على أن المقصِدَ الأصليَّ هو العَوْدُ، وإنما ذُكر النفيُ والإجلاءُ لمحض القسر والإلجاءِ كما يُفصِحُ عنه عدمُ تعرُّضِه عليه السلام لجواب الإخراجِ كأنهم قالوا: لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخُلوا في ملتنا، وإدخالُهم له عليه السلام في خطاب العَوْدِ مع استحالة كونِه عليه السلام في ملتهم قبل ذلك إنما هو بطريق تغليبِ الجماعةِ على الواحد وإنما لم يقولوا: أو لَنُعيدنّكم على طريقة ما قبله لِما أن مُرادَهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعيةِ حِذارَ الإخراجِ باختيار أهونِ الشرَّين لا إعادتُهم بسائر وجوهِ الإكراهِ والتعذيب.

﴿قال﴾ استئنافٌ كما سبق أي قال عليه السلام ردًّا لمقالتهم الباطلةِ وتكذيبًا لهم في أَيْمانهم الفاجرة: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ على أن الهمزةَ لإنكار الوقوعِ ونفيِه لا لإنكار الواقعِ واستقباحِه كالتي في قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَو جِئْتُك بشيء مبين**﴾ [الشعراء: ٣٠] ويجوز أن يكون الاستفهامُ فيه باقيًا على حاله وقد مر مرارًا أن كلمةَ لو في مثل هذا المقامِ ليست لبيان انتفاءِ الشيءِ في الزمن الماضي لانتفاء غيرِه فيه فلا يلاحظ لها جوابٌ قد حذف تعويلًا على دِلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديةً إلا عند القصدِ إلى بيان الإعرابِ على القواعد الصناعيةِ بل هي لبيان تحققِ ما يفيده الكلامُ السابقُ بالذات أو بالواسطة من الحُكم الموجَب[2] أو المنفي على كل حال مفروضٍ من الأحوال المقارنةِ له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهر بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولويةِ لِما أن الشيءَ متى تحقق مع المنافي القويِّ فلأَن يتحققَ مع غيره أولى ولذلك لا يُذكرُ معه شيءٌ من سائر الأحوال ويُكتفى عنه بذكر الواو العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها الشاملةِ لجميع الأحوالِ المغايرةِ لها عند تعدّدِها، وهذا معنى قولِهم: إنها لاستقصاء الأحوالِ على سبيل الإجمالِ، وهذا المعنى ظاهرٌ في الخبر الموجَبِ والمنفيِّ والأمرِ والنهي كما في

---

(١) في ط: ليكون.

(٢) ثبت في حاشية خ: كما في الخبر الموجب والمنفي والأمر والنهي وموجود أيضا «كما فيما نحن فيه؛ فإن إفادته له بواسطة الفعل المقدر كما سيأتي».

قولك: فلانٌ جوادٌ يعطي ولو كان فقيرًا أو بخيلٌ لا يعطي ولو كان غنيًّا، وكقولك: أحسنْ إليه ولو أساء إليك ولا تُهِنْه ولو أهانك لبقائه على حاله سالمًا عما يغيّره، وأما فيما نحنُ فيه ففيه نوعُ خفاءٍ لتغيّره بورود الإنكارِ عليه، لكن الأصلَ في الكل واحدٌ إلا أن كلمةَ لو في الصور المذكورةِ متعلقةٌ بنفس الفعل المذكورِ قبلها وأن ما يُقصد بيانُ تحققِه على كل حال هو نفسُ مدلولِه وأن الجملةَ حالٌ من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما في حيز لو مقرّرٌ على ما هو عليه من الاستبعاد، بخلاف ما نحن فيه، لما أن كلمةَ لو متعلقةٌ فيه بفعل مقدرٍ يقتضيه المذكورُ وأن ما يُقصد بيانُ تحققِه على كل حال هو مدلولُه لا مدلولُ المذكورِ وأن الجملةَ حالٌ من ضميره لا من ضمير المذكورِ كما سيأتي أو المقصودُ الأصلي إنكارُ مدلولِه من حيث مقارنتُه للحالة المذكورةِ، وأما تقديرُ مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرةِ وأن ما في حيز (لو) لا يقصد استبعادُه في نفسه بل يقصد الإشعارُ بأنه أمرٌ مقرّرٌ إلا أنه أُخرج مُخرَجَ الاستبعادِ مبالغةً في الإنكار من جهة أن العودَ مما يُنكر عند كونِ الكراهةِ أمرًا مستعدًا فكيف به عند كونِها أمرًا محققًا ومعاملةً مع المخاطَبين على معتقدَهم لاستنزالهم من رتبة العِناد؟ وليس المرادُ بالكراهة مجردَ كراهةِ المؤمنين للعود في ملة الكفرِ ابتداءً حتى يقال إنها معلومةٌ لهم فكيف تكون مستبعدةً عندهم بل إنما هي كراهتُهم له بعد وعيدِ الإخراجِ الذي جُعل قرينًا للقتل في قوله تعالى: **﴿ولو أنا كتبنا﴾** [النساء، الآية ٦٦] فإنهم كانوا يستبعدونها ويطمَعون في أنهم حينئذ يختارون العَوْدَ خشيةَ الإخراجِ، إذ رُب مكروهٍ يُختار عند حلولِ ما هو أشدُّ منه وأفظعُ، والتقديرُ: أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غيرَ مبالين بالإكراه؟

فالجملةُ في محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدرِ حسبما أُشير إليه، إذ مآلُه: أنعود فيها حالَ عدمِ الكراهةِ، وحالُ الكراهةِ إنكارٌ لما تفيده كلمتُهم الشنيعةُ بإطلاقها من العَوْد على أي حالة كانت، غيرَ أنه اكتُفِيَ بذكر الحالة الثانيةِ التي هي أشدُّ الأحوالِ منافاةً للعود وأكثرُها بُعدًا منه تنبيهًا على أنها هي الواقعةُ في نفس الأمر، وثقةً بإغنائها عن ذكر الأولى إغناءً واضحًا لأن العودَ الذي تعلق به الإنكارُ حين تحققَ مع الكراهة على ما يوجبه كلامُهم فلأن يتحققَ مع عدمها أولى.

إن قلتَ: النفيُ المستفادُ من الاستفهام الإنكاريّ فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفي ولا ريب في أن الأولويةَ هناك معتبرةٌ بالنسبة إلى النفي، ألا يُرى أن الأولى بالتحقق فيما ذُكر من مثال النفي عند الحالةِ المسكوتِ عنها أعني عدمَ الغِنى هو عدمُ الإعطاءِ لا نفسُه فكان ينبغي أن يكون الأولى بالتحقيق فيما نحن فيه عند عدمِ الكراهةِ عدمُ العَوْدِ لا نفسُه، إذ هو الذي يدل عليه قولُنا: أنعود؟ لأنه في معنى لا نعود، فلمَ

اختلف الحالُ بينهما؟ قلتُ: لِما أن مناطَ الأولويةِ هو الحكمُ الذي أريد بيانُ تحققِه على كل حالٍ وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاءِ المستفادِ من الفعل المنفي المذكور، وأما فيما نحن فيه فهو نفسُ العودِ المستفادِ من الفعل المقدرِ إذ هو الذي يقتضيه الكلامُ السابقُ أعني قولَهم: (لتعودُن) وأما الاستفهامُ فخارجٌ عنه واردٌ عليه لإبطال ما يفيده ونفيِ ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما في صورة النفي، وتوضيحُه أن بين النفيين فرقًا معنويًا تختلف به أحكامُهما التي من جملتها ما ذُكر من اعتبار الأولوية في أحدهما بالنسبة إلى نفسه، وفي الآخر بالنسبة إلى متعلَّقه ولذلك لا تستقيم إقامةُ أحدِهما مُقامَ الآخَر على وجه الكلية، ألا يُرى أنك لو قلت مكانَ أنعود فيها إلخ، لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختلَّ المعنى اختلالًا فاحشًا، لأن مدلولَ الأولِ نفيُ العَوْد المقيدِ بحال الكراهة ومدلولَ الثاني تقييدُ العودِ المنفيِّ بها وذلك لأن حرفَ النفي يباشر نفسَ الفعلِ وينفيه، وما يُذكر بعده يرجِعُ إليه من حيث هو منفيٌّ. وأما همزةُ الاستفهامِ فإنها تباشر الفعلَ بعد تقيُّدِه بما بعده، لما أن دِلالتَها على الإنكار والنفي ليست بدلالة وضعيةٍ كدِلالة حرفِ النفي حتى يتعلقَ معناها بنفس الفعلِ الذي يليها، ويكونَ ما بعده راجعًا إليه من حيث هو منفيٌّ، بل هي دِلالةٌ عقليةٌ مستفادةٌ من سياق الكلامِ فلا بد أن يكون ما يُذكر بعد الفعلِ من موانعه ودواعي إنكارِه ونفيِه حتمًا ليكون قرينةً صارفةً للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الإنكارِ والنفي، ثم لما كان المقصودُ نفيَ الحُكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعضٍ منها مغنٍ عن ذكر ما عداها لاستلزام تحقّقِه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حالُ الكراهةِ عند كونها قيدًا لنفس العَوْدِ كذلك أي مغنيًا عن ذكر سائرِ الأحوالِ ضرورة أن تحققَ العَوْدِ في حال الكراهةِ مستلزمٌ لتحققه في حال عدمِها ألبتةَ، وعند كونِها قيدًا لنفيه بخلاف ذلك أي غيرُ مغنٍ عن ذكر غيرِها ضرورة أن نفيَ العودِ في حال الكراهةِ لا يستلزم بقية في غيرها بل الأمرُ بالعكس فإن نفيَه في حال الإرادةِ مستلزمٌ لنفيه في حال الكراهةِ قطعًا.

استقام[1] الأول لإفادته[2] نفيَ العودِ في الحالتين مع الاقتصار على ذِكْر ما هو مغنٍ عن ذكر الآخر، ولم يستقم [الثاني][3] لعدم إفادتِه إياه على الوجه المذكور. إن قيل: فما وجهُ استقامتِهما جميعًا عند ذكرِ المعطوفَيْن معًا حيث يصِحّ أن يقال: لا نعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال: أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدّر في حكم الملفوظِ قلنا: وجهُها أن كلاً

(١) في خ: استفهام. (٢) في خ: لافاده. (٣) سقط في خ.

منهما يفيد معنىً صحيحًا في نفسه لا أن معنى أحدِهما عينُ معنى الآخر أو متلازمان متفقانِ في جميع الأحكام، كيف لا ومدلولُ الأولِ أن العودَ منتفٍ في الحالتين ومدلولُ الثاني أن العودَ في الحالتين منتفٍ وكلا المعنيين صحيحٌ في نفسه مصحِّحٌ لنفي العَوْدِ في الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الأول فإنه مصحِّحٌ لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالةِ الإرادة.

﴿**قد افترينا على الله كذبًا**﴾ أي كذبًا عظيمًا لا يُقادَر قدرُه ﴿**إن عُدنا في ملتكم**﴾ التي هي الشركُ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدِلالة ما قبله عليه أي إن عدنا في ملتكم ﴿**بعد إذ نجانا الله منها**﴾ فقد افترينا على الله كذبًا عظيمًا حيث نزعُم حينئذ أن لله[(١)] تعالى نِدًّا وليس كمثله شيءٌ وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الإسلام باطلٌ وأن ما كنتم عليه من الكفر حقٌّ وأيُّ افتراءٍ أعظمُ من ذلك؟ وقيل: إنه جوابُ قسمٍ حذف عنه اللامُ تقديره والله لقد افترينا إلخ ﴿**وما يكون لنا**﴾ أي وما يصِحّ وما يستقيم لنا ﴿**أن نعود فيها**﴾ في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات ﴿**إلا أن يشاء الله**﴾ أي إلا حالَ مشيئةِ الله تعالى أي[(٢)] وقتَ مشيئتِه تعالى لعَوْدنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**ربنا**﴾ فإن التعرضَ لعنوان ربوبيتِه تعالى لهم مما ينبئ عن استحالة مشيئتِه تعالى لارتدادهم قطعًا وكذا قوله تعالى: ﴿**بعد إذ نجانا الله منها**﴾ فإن تنجيتَه تعالى لهم منها من دلائل عدمِ مشيئتِه لعَودِهم فيها وقيل: معناه إلا أن يشاء الله خِذلانَنا. وقيل: فيه دليلٌ على أن الكُفرَ بمشيئته تعالى وأيًّا ما كان فليس المرادُ بذلك بيانَ أن العودَ فيها في حيز الإمكانِ وخطرِ الوقوعِ بناءً على كون مشيئتِه تعالى كذلك بل بيانُ استحالةِ وقوعِها كأنه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا وهيهاتَ ذلك بدليل ما ذُكر من موجبات عدم مشيئتِه تعالى له ﴿**وسع ربنا كل شيء علمًا**﴾ فهو محيطٌ بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التي من جملتها أحوالُ عبادِه وعزائمُهم ونياتُهم وما هو اللائقُ بكل واحدٍ منهم فمُحالٌ من لطفه أن يشاء عَودَنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصةً حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿**على الله توكلنا**﴾ أي في أن يثبتَنا على ما نحن عليه من الإيمان ويُتمَّ علينا نعمتَه بإنجائنا من الإشراك بالكلية، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ للمبالغة في التضرع والجُؤار[(٣)].

---

(١) في ط: الله.

(٢) في خ: أو.

(٣) جأَرَ جأراً وجؤاراً: رفع صوته. وجأر إلى الله: تضرَّع واستغاث.

وقوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ إعراضٌ عن مقاولتهم إثرَ ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعِناد بحيث لا يُتصور منهم الإيمانُ أصلًا، وإقبالٌ على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه [وبينهم][1] بما يليق بحال كلٍّ من الفريقين أي احكم بيننا بالحق، والفَتاحَةُ الحكومة، أو أظهرْ أمرنا حتى ينكشِفَ ما بيننا وبينهم ويتميز المُحقُّ من المبطِل من فتَحَ المُشكلَ إذا بيّنه ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله على المعنيين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ عطفٌ على قال الملأ الذين إلخ، ولعل هؤلاء غيرُ المستكبرين ودونهم في الرتبة شأنُهم الوساطةُ بينهم وبين العامةِ والقيامُ بأمورهم حسبما يراه المستكبرون، ويجوز أن يكون عينَ الأولين[2]، وتغييرُ الصلةِ لما أن مدارَ قولِهم هذا هو الكفرُ كما أن مناطَ قولِهم السابقِ هو الاستكبارُ أي قال أشرافُهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابةَ شعيبٍ عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومَهم تثبيطًا لهم عن الإيمان به وتنفيرًا لهم عنه على طريقة التوكيدِ القسَمي والله ﴿لئن اتبعتم شعيبًا﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دينَ آبائِكم ﴿إنكم إذًا لخاسرون﴾ أي في الدين لاشترائكم الضلالةَ بهداكم أو في الدنيا لفوات ما يحصُل لكم بالبخْس والتطفيف، وإذن حرفُ جوابٍ وجزاء معترِضٌ بين اسم إن وخبرِها والجملةُ سادةٌ مسدَّ جوابي الشرطِ والقسمِ الذي وطّأته اللام ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة﴾ أي الزلزلة وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ﴾ [هود، الآية ٩٤] أي صيحةُ جبريلَ عليه السلام، ولعلها من مبادئ الرجفةِ فأُسند هلاكُهم إلى السبب القريبِ تارةً وإلى البعيد أخرى ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي في مدينتهم، وفي سورة هودٍ؛ في ديارهم، ﴿جاثمين﴾ أي ميّتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها.

﴿الذين كذبوا شعيبًا﴾ استئنافٌ لبيان ابتلائِهم بشؤم قولِهم فيما سبق: ﴿لنُخرجنك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ [الأعراف، الآية ٨٨] وعقوبتِهم بمقابلته، والموصولُ مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿كأن لم يغنَوا فيها﴾ أي استُؤصِلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلًا أي عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المُخرَجين من القرية إخراجًا لا دخولَ بعده أبدًا.

وقوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين﴾ استئنافٌ آخرُ لبيان

---

(١) سقط في ط.
(٢) في خ: الأول.

ابتلائِهم بعقوبة قولِهم الأخيرِ، وإعادةُ الموصولِ والصلةِ كما هي لزيادة التقريرِ والإيذانِ بأن ما ذكر في حيز الصلةِ هو الذي استوجب العقوبتين أي الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الأخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام، وبهذا القصر اكتُفي عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع في سورة هود من قوله تعالى: **﴿ولما جاء أمرُنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه﴾** [هود، الآية ٩٤] إلخ.

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفًا بهم لشدة حزنِه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال: **﴿فكيف آسى﴾** أحزن حزنًا شديدًا **﴿على قوم كافرين﴾** أي مُصِرِّين على الكفر ليسوا أهلَ حزنٍ لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذارًا عن عدم شدة حزنِه عليهم، والمعنى لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلتُ وُسعي في النصح والإشفاقِ فلم تُصدِّقوا قولي فكيف آسى عليكم وقرئ[1] (إيسي) بإمالتين.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

[الأمم مع الأنبياء بوجه عام]

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ إشارةٌ إجمالية إلى بيان أحوالِ سائرِ الأمم إثرَ بيان أحوالِ الأممِ المذكورة تفصيلًا، ومِنْ مزيدةٌ لتأكيد النفي والصفةُ محذوفةٌ أي من نبي

---

(١) قرأ بها: يحيى بن وثاب، الأعمش، وابن مصرف.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٥٢٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٧٧).

كُذِّب أو كذَّبه أهلُها ﴿إلا أخذنا أهلها﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم الأحوالِ، وأخذنا في محل النصب من فاعل أرسلنا والفعلُ الماضي لا يقع بعد «إلا» [إلا][١] بأحد شرطين إما تقديرِ قد كما في هذه الآية أو مقارَنةِ قد، كما في قولك: ما زيد إلا قد قام، والتقديرُ وما أرسلنا في قرية من القرى المُهلَكة نبيًا من الأنبياء في حال من الأحوال إلا حالَ كونِنا آخذين أهلَها ﴿بالبأساء﴾ بالبؤس والفقرِ ﴿والضراء﴾ بالضُّرّ والمرض، لكن لا على معنى أن ابتداءَ الإرسالِ مقارنٌ للأخذ المذكورِ بل على أنه مستتبعٌ له غيرُ منفكٍّ عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيِّهم وتعزُّزِهم عليه حسبما فعلت الأممُ المذكورة.

﴿لعلهم يضّرعون﴾ كي يتضرعوا ويتذللوا ويحُطّوا أرديةَ الكِبْر والعزةِ عن أكتافهم كقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراءِ لعلهم يتضرعون﴾ [الأنعام، الآية ٤٢] ﴿ثم بدلنا﴾ عطفٌ على أخذنا داخلٌ في حكمه ﴿مكان السيئة﴾ التي أصابتهم للغاية المذكورةِ ﴿الحسنةَ﴾ أي أعطيناهم بدلَ ما كانوا فيه من البلاء والمحنةِ الرخاءَ والسعةَ كقوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئاتِ﴾ [الأعراف، الآية ١٦٨] ﴿حتى عفَوْا﴾ أي كثُروا عَددًا وعُددًا من عفا النباتُ إذا كثر وتكاثف وأبطرتْهم النعمة ﴿وقالوا﴾ غيرَ واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاءٌ من الله سبحانه ﴿قد مس آباءنا الضراءُ والسراءُ﴾ كما مسّنا ذلك، وما هو إلا من عادة الدهرِ يعاقِب في الناس بين الضراءِ والسراء من غير أن يكون هناك داعيةٌ تؤدي إليهما أو تِبعةٌ تترتب عليهما، ولعل تأخيرَ السراءِ للإشعار بأنها تعقُب الضراءَ فلا ضيرَ فيها ﴿فأخذناهم﴾ إثرَ ذلك ﴿بغتة﴾ فجأةً أشدَّ الأخذِ وأفظعَه ﴿وهم لا يشعرون﴾ بذلك ولا يخطِرُ ببالهم شيئًا من المكاره كقوله تعالى: ﴿حتى إذا فرِحوا بما أوتوا﴾ [الأنعام، الآية ٤٤]، وليس المرادُ بالأخذ بغتةً إهلاكَهم طرفة عينٍ كإهلاك عادٍ وقومِ لوطٍ بل ما يعُمّه وما يمضي بين الأخذ وإتمام الإهلاكِ أيامًا كدأب ثمود.

﴿ولو أن أهل القرى﴾ أي القرى المُهلَكة المدلولَ عليها بقوله تعالى: ﴿في قرية﴾ وقيل: هي مكةُ وما حولها من القُرى المنتظمةِ[٢] لما ذكر هاهنا انتظامًا أوليًّا ﴿آمنوا﴾ بما أوحيَ إلى أنبيائهم معتبِرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ﴿واتقوا﴾ أي الكفرَ والمعاصيَ أو اتقَوْا ما أُنذروا به على ألسنة الأنبياءِ ولم يُصِرّوا على ما فعلوا من القبائح ولم يحمِلوا ابتلاءَ الله تعالى على عادات الدهر؛ وقال ابن

---

(١) سقط في ط.

(٢) في خ: وقيل جنس القرى المنتظمة.

عباس رضي الله تعالى عنهما: وحّدوا الله واتقَوا الشر[١] **﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض﴾** لوسّعنا عليهم الخيرَ ويسّرناه لهم من كل جانبٍ مكانَ ما أصابهم من فنون العقوباتِ التي بعضُها من السماء وبعضُها من الأرض.

وقيل: المرادُ المطرُ والنباتُ وقرئ[٢] (لفتّحنا) بالتشديد للتكثير **﴿ولكن كذبوا﴾** أي ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتُفي بذكر الأولِ لاستلزامه للثاني **﴿فَأَخَذْنَاهُم بما كانوا يكسبون﴾** من أنواع الكفرِ والمعاصي التي من جملتها قولُهم: قد مس آباءَنا إلخ، وهذا الأخذُ عبارةٌ عما في قوله تعالى: **﴿فأخذناهم بغتةً﴾** لا عن الجدب والقَحطِ كما قيل فإنهما قد زالا بتبديل الحسنةِ مكانَ السيئة.

﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي أهلُ القرى المذكورةِ، على وضع المُظهرِ موضِعَ المُضمر للإيذان بأن مدارَ التوبيخِ أمْنُ كلِّ طائفةٍ ما أتاهم من البأس لا أمنُ مجموعِ الأمم، فإن كلَّ طائفةٍ منهم أصابهم بأسٌ خاصٌّ بهم لا يتعداهم إلى غيرهم كما سيأتي، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه لا لإنكار الوقوعِ ونفيِه كما قاله أبو شامةَ وغيرُه لقوله تعالى: **﴿فلا يأمن مكرَ الله إلا القومُ الخاسِرون﴾** [الأعراف، الآية ٩٩] والفاءُ للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراضٌ توسّط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الأخذَ المذكورَ مما كسبتْه أيديهم والمعنى أبعدَ ذلك الأخذِ أمِنَ أهلُ القرى **﴿أن يأتيهم بأسنا بياتًا﴾** أي تبييتًا أو وقتَ بياتٍ أي مَبيتًا أو مبيتين وهو في الأصل مصدرٌ بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييتِ كالسلام بمعنى التسليم **﴿وهم نائمون﴾** حالٌ من ضميرهم البارزِ أو المستترِ في بياتًا **﴿أوَ أمن أهل القرى﴾** إنكارٌ بعد إنكارٍ للمبالغة في التوبيخ والتشديدِ ولذلك لم يقل: أفأمن أهلُ القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون أو ضحىً وهم يلعبون، وقرئ[٣] أوْ بسكون الواوِ على الترديد.

---

(١) في خ: الشرك.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وعيسى الثقفي، وأبو عبد الرحمن، ورويس، وابن جماز، وابن وردان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٧)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٠٨)، والتيسير للداني ص (١٠٢، ١١١)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٦)، والكشف للقيسي (١/ ٤٣٢).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٢٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٠٩)، والتيسير للداني ص (١١١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٥٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٨).

﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ أي ضحوةَ النهارِ وهو في الأصل ضوءُ الشمسِ إذا ارتفعت ﴿وهم يلعبون﴾ أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ تكريرٌ للنكير لزيادة التقريرِ، ومكرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراجه[1] العبدَ وأخذِه من حيث لا يحتسب، والمرادُ به إتيانُ بأسِه تعالى في الوقتين المذكورين ولذلك عُطف الأولُ والثالثُ بالفاء فالإنكارُ فيهما متوجهٌ إلى ترتب الأمنِ على الأخذ المذكور، وأما الثاني فمن تتمة الأولِ ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أي الذين خسِروا أنفسَهم وأضاعوا فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها والاستعدادَ القريبَ المستفادَ من النظر في الآيات.

﴿أوَ لم يهد للذين يرِثون الأرضَ من بعد أهلها﴾ أي يخلُفون مَنْ خلا قبلهم من الأمم المُهلَكة ويرثون ديارَهم والمرادُ بهم أهلُ مكةَ ومَنْ حولها، وتعديةُ فعل الهداية باللام إما لتنزيلها منزلةَ اللازم كأنه قيل: أغفلَوا ولم يُغفل الهداية لهم؟ إلخ، وإما لأنها بمعنى التبيينِ والمفعولُ محذوفٌ والفاعلُ على التقديرين هو الجملةُ الشرطية أي أوَلَمْ يبيَّن لهم مآلُ أمرِهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي أن الشأنَ لو نشاء أصبْناهم بجزاء ذنوبِهم أو بسبب ذنوبِهم كما أصبنا مَنْ قبلهم وقرئ[2] (نَهدِ) بنون العظمة فالجملة مفعولُه ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ عطفٌ على ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿أو لم يهد﴾ كأنه قيل: لا يهتدون أو يغفُلون عن الهداية أو عن التفكر والتأمل، أو منقطعٌ عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفُه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لإفضائه إلى نفي الطبْعِ عنهم لأنه في سياق جوابِ لو ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي أخبارَ الأممِ المهلَكة فضلًا عن التدبر والنظرِ فيها والاغتنامِ بما في تضاعيفها من الهداية.

﴿تلك القرى﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جاريةٌ مجرى الفذلكةِ لما قبلها من القِصص منبئةٌ عن غاية غوايةِ الأمم المذكورة وتماديهم فيها بعد ما أتتهم الرسلُ بالمعجزات الباهرة، وتلك إشارةٌ إلى قرى الأمم المُهلَكة على أن اللامَ للعهد وهو مبتدأٌ وقوله

---

(١) أي هي استعارة تمثيلية تشبه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر، أو على سبيل المشاكلة وقد مضى تفصيل القول في المصطلحين.
ينظر: في المشاكلة شروح التلخيص (٤/ ٣١١، ٣١٢)، وحاشية الدسوقي (٤/ ٣٠٩)، والمصباح لابن مالك (٢١)، والإشارات والتنبيهات (٢٦٧)، والمطول (٤٢٣)، والإيضاح (٤/ ٢٢).

(٢) قرأ بها: مجاهد، ويعقوب، وقتادة، وأبو عبد الرحمن السلمي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٢٧)، والإملاء للعكبري(١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٥٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٧٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٥٤)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٦٢).

تعالى: ﴿نقص عليك من أنبائها﴾ خبرُه، وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاءِ القصة بعد، ومِنْ للتبعيض، أي بعضُ أخبارها التي فيها عظةٌ وتذكيرٌ.

وقيل: تلك مبتدأ والقرى خبرُه وما بعده حالٌ أو خبرٌ بعد خبرٍ عند من يجوز كون الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فإذا هي حيةٌ تسعى﴾ [طه: ٢٠] وتصديرُ الكلام بذكر القرى وإضافةُ الأنباء إليها مع أن المقصوصَ أنباءُ أهلِها والمقصودُ بيانُ أحوالهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿ولقد جَاءَتْهُم رسلهم بالبينات﴾ لما أن حكايةَ هلاكِهم بالمرة على وجه الاستئصالِ، بحيث يشمل أماكنَهم أيضًا بالخسف بها والرجفةِ وبقائِها خاويةً معطلةً، أهولُ وأفظعُ.

والباء في قوله تعالى: ﴿بالبينات﴾ متعلقةٌ إما بالفعل المذكور على أنها للتعدية وإما بمحذوف وقع حالًا من فاعله أي ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصةٍ به معينةٍ حسبَ اقتضاءِ الحكمة، فإن مراعاة انقسامِ الآحاد[1] إنما هي فيما بين الرسل وضميرِ الأمم، والجملةُ مستأنفةٌ مبينةٌ لكمالِ عُتوِّهم وعنادِهم أي وبالله لقد جاء كلَّ أمةٍ من تلك الأممِ المُهلَكة رسولُهم الخاصُّ بهم بالمعجزات البيّنةِ المتكثرة المتواردةِ عليهم الواضحةِ الدِلالةِ على صحة رسالتِه الموجبةِ للإيمان حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانِهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرارِ إيمانِهم، وترتيبُ حالتِهم[2] هذه على مجيءِ الرسلِ بالبينات بالفاء لما أن الاستمرارَ على فعل من الأفعال بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه في الحقيقة، لكنه بحسب العنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ نحوُ: وعظتُه فلم ينزجِرْ ودعوتُه فلم يُجب، واللامُ لتأكيد النفي أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوامِ في وقت من الأوقات أن يؤمنوا بكل[3]، وكان ذلك ممتنعًا منهم إلى أنْ لَقوُا ما لقوُا لغاية عتوِّهم وشدةِ شكيمتِهم في الكفر والطغيانِ، ثم إن كان المحكيُ عنهم آخرَ حالِ كلِّ قوم منهم فالمرادُ بعدم إيمانِهم المذكور هاهنا إصرارُهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿بما كذبوا من قبل﴾ تكذيبُهم من لدن مجيءِ الرسل إلى وقت الإصرارِ والعناد، وإنما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأول بل جُعل صلةً للموصول إيذانًا بأنه بيّنٌ بنفسه، وإنما المحتاجُ إلى البيان عدمُ إيمانِهم بعد تواترِ البينات الظاهرةِ وتظاهُر المعجزاتِ الباهرةِ التي كانت تَضْطرُّهم إلى

---

(١) زاد في خ: الا الاحاد.

(٢) في خ: حالهم.

(٣) في خ: بل.

القَبول لو كانوا من أصحاب العقولِ، والموصولُ الذي تعلق به الإيمانُ والتكذيبُ سلبًا وإيجابًا عبارةٌ عن جميع الشرائعِ التي جاء بها كلُّ رسولٍ أصولِها وفروعِها، وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوالِ كل قوم منهم فالمرادُ بما ذكر أولًا كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسل . . .إلخ، وبما أشير إليه آخِرًا تكذيبُهم قبل مجيئِهم فلا بد من جعل الموصولِ المذكورِ عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسلُ قاطبةً ودعَوا أُمَمهم إليها آثِرَ ذي أثيرٍ[1] لاستحالة تبدّلِها وتغيّرِها، مثلُ ملةِ التوحيد ولوازمِها، ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيءِ رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهليةِ بحيث لم يسمعوا كلمةَ التوحيد قط بل كانت كلُّ أمةٍ من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا مَنْ قبلهم فيكذّبونها، ثم كانت حالتُهم بعد مجيءِ رسلِهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعثْ إليهم أحدٌ، وتخصيصُ التكذيب وعدمُ الإيمان بما ذُكر من الأصول لظهور حالِ الباقي بدِلالة النصِّ، فإنهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافةُ الرسلِ فلألَّا يؤمنوا بما تفرَّد به بعضُهم أولى، وعدمُ جعلِ[2] التكذيبِ مقصودًا بالذات لما أن ما عليه يدور فلكُ العذابِ والعقابِ هو التكذيبُ الواقعُ بعد الدعوةِ حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿**وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولًا**﴾ [الإسراء، الآية ١٥].

وإنما ذُكر ما وقع قبلها بيانًا لعراقتهم في الكفر والتكذيب، وعلى كلا التقديرين فالضمائرُ الثلاثة متوافقةٌ في المرجِع، وقيل: ضميرُ كذبوا راجعٌ إلى أسلافهم، والمعنى فما كان الأبناءُ ليؤمنوا بما كذب به الآباءُ، ولا يخفى ما فيه من التعسف، وقيل: المرادُ ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد إهلاكِهم ورددناهم إلى دار التكليفِ بما كذبوا من قبلُ كقوله تعالى: ﴿**ولو رُدوا لعادوا لما نُهوا عنه**﴾ [الأنعام، الآية ٢٨] وقيل: الباء للسببية وما مصدريةٌ أي بسبب تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ وتمرّنِهم عليه قبل بعثةِ الرسلِ، ولا يرِدُ عليه هاهنا ما ورد في سورة يونُسَ من مخالفة الجمهورِ بجعل ما المصدريةِ من قبيل الأسماء كما هو رأيُ الأخفشِ وابنِ السرّاج ليرجِعَ إليه الضميرُ في به.

﴿**كذلك**﴾ أي مثلَ ذلك الطبعِ الشديدِ المُحكَم ﴿**يطبع الله على قلوب الكافرين**﴾ أي من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآياتُ والنذرُ، وفيه تحذير للسامعين، وإظهارُ الاسم الجليلِ بطريق الالتفاتِ لتربية المهابة وإدخالِ الروعة.

﴿**وما وجدنا لأكثرهم**﴾ أي أكثرِ الأممِ المذكورين، واللامُ متعلقةٌ بالوُجدان كما

---

(١) آثر ذي أثير: أولاً. يقال: افعلْ هذا آثراً ما وآثِرَ ذي أثير بمعنى.
(٢) زاد في خ: هذا.

في قولك: ما وجدتُ له مالًا أي ما صادفت له مالًا ولا لقِيته، أو بمحذوف وقع حالًا من قوله تعالى: ﴿**من عهد**﴾ لأنه في الأصل صفةٌ للنكرة فلما قُدّمت عليها انتصبت حالًا، والأصلُ ما وجدنا عهدًا كائنًا لأكثرهم[1] ومِنْ وفاء عهدٍ فإنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساسِ البأساء والضراءِ قائلين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنّ من الشاكرين، فتخصيصُ هذا الشأنِ بأكثرهم ليس لأن بعضَهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضَهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون، وقيل: المرادُ بالعهد ما عهِد الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوىٰ بنصب الآياتِ وإنزالِ الحُجج، وقيل: ما عهِدوا عند خطابِ ﴿**ألست بربكم**﴾ [الأعراف: ١٧٢] فالمرادُ بأكثرهم كلِّهم، وقيل: الضميرُ للناس والجملةُ اعتراضٌ فإن أكثرَهم لا يوفون بالعهد بأي معنى كان ﴿**وإن وجدنا أكثرهم**﴾ أي أكثرُ الأمم أي علِمناهم كما في قولك: وجدتُ زيدًا ذا حِفاظ وقيل: الأول أيضًا كذلك، وإن مخففةٌ من إنّ وضميرُ الشأن محذوفٌ أي إن الشأنَ وجدناهم ﴿**لفاسقين**﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود، وعند الكوفيين أنّ إنْ نافيةٌ واللامُ بمعنى إلا، أي ما وجدناهم إلا فاسقين.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ

(١) زاد في خ: ومن مزيدة للاستغراق؛ أي: وما وجدنا لأكثرهم من.

لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

[موسى وفرعون]

﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى**﴾ أي أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين[١] أو من بعد هلاكِ الأممِ المحكيةِ، والتصريحُ بذلك مع دِلالة (ثم) على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سَنن السنةِ الإلٰهية من إرسال الرسلِ تترى، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر ﴿**بآياتنا**﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا من مفعول بعثنا، أو صفةٌ لمصدره أي بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسًا بآياتنا أو بعثناه بَعْثًا ملتبسًا بها، وهي الآياتُ التِّسعُ المُفَصَّلاتُ التي هي: العصا، واليدُ البيضاء، والسِّنونَ، ونقصُ الثمرات، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمّلُ، والضفادِعُ، والدم، حسبما سيأتي على التفصيل ﴿**إلى فرعون**﴾ هو لقبٌ لكل من ملَك مِصْرَ من العمالقة كما أن كِسرى

(١) زاد في خ: عليهم السلام.

لقبٌ لكل من ملك فارسَ، وقيصرَ لكل مَنْ ملك الروم واسمُه قابوسُ، وقيل: الوليدُ بنُ مصعبِ بن الريان ﴿وملائه﴾ أي أشرافِ قومِه، وتخصيصُهم بالذكر مع عموم رسالتِه عليه الصلاة والسلام لقومه كافةً حيث كانوا جميعًا مأمورين بعبادة ربِّ العالمين عزَّ سلطانُه، وتركِ العظيمةِ الشنعاءِ التي كان يدّعيها الطاغيةُ [وتقبلها منه][١] فئتُه الباغية لأصالتهم في تدبير الأمور واتباعِ غيرِهم لهم في الورود والصدور ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا بها، أُجري الظلمُ مُجرى الكفرِ لكونهما من واد واحدٍ، أو ضُمّن معنى الكفرِ أو التكذيبِ أي ظلموا كافرين بها أو مكذِّبين بها، أو كفروا بها مكان الإيمانِ الذي هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وُضع ظلَموا موضِعَ كفروا وقيل: ظلموا أنفسَهم بسببها بأن عرّضوها للعذاب الخالد، أو ظلموا الناسَ بصدهم عن الإيمان بها، والمرادُ به الاستمرارُ على الكفر بها إلى أن لقُوا من العذاب ما لقُوا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فكما أن ظلمهم بها مستتبعٌ لتلك العاقبةِ الهائلةِ كذلك حكايةُ ظلمِهم بها مستتبعٌ للأمر بالنظر إليها، و(كيف) خبرُ كان قُدّم على اسمها لاقتضائه الصدارةَ والجملةُ في حيز النصب بإسقاط الخافضِ أي فانظر بعين عقلِك[٢] إلى كيفية ما فعلنا بهم، ووضعُ المفسدين موضعَ ضميرِهم للإيذان بأن الظلم مستلزِمٌ للإفساد.

﴿وقال موسى﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتفصيل ما أُجمل فيما قبله من كيفية إظهار الآياتِ وكيفيةِ عاقبة المفسدين ﴿يا فرعون إني رسول﴾ أي إليك ﴿من رب العالمين﴾ على الوجه الذي مر بيانه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ جوابٌ عما ينساق إليه الذهنُ من حكاية ظلمِهم بالآيات من تكذيبه إياه عليه الصلاة والسلام في دعوى الرسالةِ وكان أصلُه حقيقٌ علي أن لا أقول . . . إلخ، كما هو قراءة[٣] نافع فقلب للأمن من الإلباس كما في قول من قال: [الطويل]

. . . .   وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحُمُرِ[٤]

---

(١) في خ: ويقبلها من.
(٢) في خ: قلبك.
(٣) قرأ بها أيضًا: الحسن.
إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٧)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٢٨)، والبحر المحيط (٤/ ٣٥٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٢٠)، والتيسير للداني ص (١١١)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٥٩).
(٤) عجز بيت وصدره:
ونركبُ خيلًا لا هوادةَ بينها   ....

=

أو لأن ما لزِمك فقد لزِمتَه، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى واجبٌ عليّ القولُ الحقُّ أن أكون أنا قائله لا يَرضَى إلا بمثلي ناطقًا به، أو ضُمّن حقيقٌ معنى حريص، أو وُضِعَ على موضعَ الباءِ لإفادة التمكنِ كقولهم: رميتُ على القوس وجئتُ على حال حسنةٍ، ويؤيده قراءة أُبَيّ بالباء وقرئ حقيق أن لا أقول وقوله تعالى: ﴿**قد جئتكم ببينة من ربكم**﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من كونه رسولًا من رب العالمين وكونِه حقيقًا بقول الحقِّ ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام وما بعده من جواب فرعون إثرَ ما ذكر هاهنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكيةِ بقوله تعالى: ﴿**قال فمن ربكما**﴾ [طه: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿**وما رب العالمين**﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقد طُوي هاهنا ذكرُه للإيجاز، ومِنْ متعلقة إما بجئتُكم على أنها لابتداء الغايةِ مجازًا وإما بمحذوف وقع صفةً لبينة مفيدةً لفخامتها الإضافية المؤكدةِ لفخامتها الذاتية المستفادةِ من التنوين التفخيمي، وإضافةُ اسمِ الرب إلى المخاطبين بعد إضافتِه فيما قبله إلى العالمين لتأكيد وجوبِ الإيمان بها.

﴿**فأرسل معي بني إسرائيل**﴾ أي فخلّهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسةِ التي هي وطنُ آبائِهم وكان قد استعبدهم بعد انقراضِ الأسباطِ يستعملهم ويكلفهم الأفاعيلَ الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذي دخل يوسفُ مصرَ واليومِ الذي دخله موسى عليهما السلام أربعُمائة عام، والفاءُ لترتيب الإرسالِ أو الأمرِ به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئِه بالبينة.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلامُ كأنه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السلام حين قال له ما قال؟ فقيل: قال: ﴿**إن كنت جئت بآية**﴾ أي من عند مَنْ أرسلك كما تدعيه ﴿**فأت بها**﴾ أي فأحضِرْها حتى تُثبت[1] بها رسالتَك ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ في دعواك، فإن كونَك من جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهارَ الآيةِ لا محالة ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**﴾ أي ظاهرٌ أمرُه لا يُشك في كونه ثعبانًا وهو الحيةُ العظيمةُ، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ للدِلالة على كمال سرعةِ الانقلاب وثباتِ وصفِ الثُعبانية فيها كأنها في الأصل كذلك. وروي أنه لما ألقاها صارت ثعبانًا أشعَرَ فاغرًا فاه بين لَحْيَيهِ ثمانون ذراعًا وَضع لَحيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سور القصرِ، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناسُ

= والبيت لخداش بن زهير في الأضداد، ص (١٥٣)، وأمالي المرتضى (١/ ٤٦٦)، ولسان العرب (ضطر)، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب (١/ ٣٢٣)، والصاحبي في فقه اللغة، ص (٢٠٣).

(١) في خ: يثبت.

مزدحمين فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا فصاح فرعونُ: يا موسى أنشُدك بالذي أرسلك خُذْه وأنا أؤمن بك وأرسلُ معك بني إسرائيلَ فأخذه فعاد عصا.

﴿ونزع يده﴾ أي من جيبه أو من تحت إبطِه **﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** أي بيضاءُ بياضًا نورانيًّا خارجًا عن العادة يجتمع عليه النَّظارةُ تعجبًا من أمرها، وذلك ما يروى أنه أرى فرعونَ يدَه وقال: ما هذه؟ فقال: يدُك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرّعةُ صوفٍ ونزعها فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيًّا غلب شعاعُه شعاعَ الشمس وكان عليه السلام آدمَ[١] شديدَ الأدَمةِ، وقيل: بيضاء للناظرين لا أنها كانت بيضاءَ في جِبِلّتها.

﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أي الأشرافُ منهم وهم أصحابُ مشورتِه **﴿إن هذا لساحر عليم﴾** أي مبالغٌ في علم السحر ماهرٌ فيه، قالوه تصديقًا لفرعون وتقريرًا لكلامه فإن هذا القولَ بعينه مَعْزيٌّ في سورة الشعراء إليه **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾** أي من أرض مصرَ **﴿فماذا تأمرون﴾** بفتح النون وما في (ماذا) في محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار، والأولُ محذوف والتقديرُ بأي شيء تأمرونني، وهذا من كلام فرعونَ كما في قوله تعالى: **﴿ذلك ليعلمَ أني لم أخنه بالغيب﴾** [يوسف: ٥٢] أي فإذا كان كذلك فماذا تشيرون عليّ في أمره؟

وقيل: قاله الملأ بطريق التبليغِ إلى العامة فقوله تعالى: **﴿قالوا أرجه وأخاه﴾** على الأول وهو الأظهرُ حكايةً لكلام الملأ الذين شاورهم فرعونُ وعلى الثاني لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطابَ لفرعون وأن المشاورةَ ليست وظائفَهم أي أخِّرْه وأخاه، وعدمُ التعرض لذكره لظهور كونِه معه حسبما تنادي به الآياتُ الأُخَرُ، والمعنى أخِّرْ أمرَهما وأصدِرْهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبرَ شأنهما، وقرئ (أرجِئْه)[٢] و(أرجِهِ)[٣] من أرْجَأَه وأرْجاه.

﴿وأرسل في المدائن حاشرين﴾ قيل: هي مدائنُ صعيدِ مصرَ وكان رؤساءُ السحرةِ ومَهَرتُهم بأقصى مدائنِ الصعيد. وعن ابن عباس (رضي الله تعالى عنهما)

---

(١) الآدم: شديد السمرة.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وهشام، والداجوني، وشعبة، ويعقوب، واليزيدي، والحسن، وعيسى بن عمر، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٢٧، ٢٢٨)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٣٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٢٦)، والتيسير للداني ص (١١١)، وتفسير الطبري (١٣/ ٣٧).

(٣) قرأ بها: نافع، وقالون، وابن وردان، وابن هارون، وهبة الله، وأبو جعفر.
ينظر: العنوان ص (٨٢).

أنهم كانوا سبعين ساحرًا أخذوا السحرَ من رجلين مجوسيين من أهل نينَوى مدينةِ يونسَ عليه السلام بالمَوْصِلِ، ورُد ذلك بأن المجوسيةَ ظهرت بزرادَشْت وهو إنما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أي ماهرٍ في السحر، وقرئ[1] (بكل سحّار عليم)، والجملةُ جوابُ الأمر.

﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعد ما أرسل إليهم الحاشرين وإنما لم يصرَّح به حسبما في قوله تعالى: ﴿فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين﴾ [الشعراء، الآية ٥٣] للإيذان بمسارعة فرعونَ إلى الإرسال ومبادرةِ الحاشرين والسحرة إلى الامتثال.

﴿قالوا﴾ استئنافٌ منوطٌ بسؤال نشأ من مجيء السحرةِ كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئِهم إياه؟ فقيل: قالوا مذْلين بما عندهم واثقين بغلبتهم: ﴿إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين﴾ بطريق الإخبارِ بثبوت الأجرِ وإيجابِه كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر عظيم حينئذ، أو بطريق الاستفهامِ التقريري بحذف الهمزة وقرئ[2] بإثباتها، وقولُهم: (إن كنا) لمجرد تعيينِ مناطِ ثبوتِ الأجرِ لا لترددهم في الغلبة، وتوسيطُ الضميرِ وتحليةُ الخبر باللام للقصر أي إن كنا نحن الغالبين لا موسى ﴿قال نعم﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ عطف على محذوف سد مسدَّه حرفُ الإيجابِ كأنه قال: إن لكم لأجرًا وإنكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة في الترغيب. روي أنه قال لهم: تكونون أولَ من يدخُل مجلسي وآخِرَ من يخرُج منه.

﴿قالوا﴾ استئنافٌ كما مر كأنه قيل: فماذا فعلوا بعد ذلك؟ فقيل: قالوا متصدّين لشأنهم مخاطِبين لموسى عليه السلام: ﴿يا موسى إما أن تلقيَ﴾ ما تلقي أولًا ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ أي لِما نُلقي أولًا، أو الفاعلين للإلقاء أولًا، خيّروه عليه السلام بالبدء بالإلقاءِ مراعاةً للأدب وإظهارًا للجلادة وأنه لا يختلف حالُهم بالتقديم والتأخير، ولكن كانت رغبتُهم في التقديم كما ينبئ عنه تغييرُهم للنظم بتعريف الخبر، وتوسيطُ ضميرِ الفصل وتأكيدِ الضمير المتصل ﴿قال ألقوا﴾ غيرَ مبالٍ بأمرهم أي ألقوا

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٨)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٣٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٠)، والتيسير للداني ص (١١٢).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٢٧، ٢٢٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦١، ١٦٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٣٠)، والتيسير للداني ص (٣٢، ١١١، ١١٢)، وتفسير القرطبي ٧/ ٨٤٥، ٢٥٨)، والحجة لابن خالويه (١٥٨، ١٦١)، والحجة لأبي زرعة (٢٨٨، ٢٩٢).

ما تُلقُون ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقَوْا ﴿سحروا أعين الناس﴾ بأن خيّلوا إليهم ما لا حقيقةَ له ﴿واسترهبوهم﴾ أي بالغوا في إرهابهم ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾ في بابه. روي أنهم ألقَوا حِبالًا غلاظًا وخشَبًا طِوالًا كأنها حياتٌ ملأت الواديَ وركِبَ بعضُها بعضًا.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ الفاءُ فصيحة أي فألقاها فصارت حيةً فإذا هي الآية وإنما حُذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعةِ الانقلاب كأن لقْفَها لما يأفكون قد حصل متصلًا بالأمر بالإلقاء، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار صورةِ اللقْفِ الهائلةِ والإفك الصّرْفِ والقلب عن الوجه المعتاد، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ والعائدُ محذوفٌ أي ما يأفِكونه ويزوّرونه، أو مصدريةٌ وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي أنها لما تلقّفت مِلءَ الوادي من الخشب والحِبال ورفعها موسى فرجعت عصًا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرةِ تلك الأجرامَ العظامَ أو فرّقها أجزاءً لطيفةً قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقِيَتْ حبالُنا وعِصِيُّنا ﴿فوقع الحق﴾ أي فثبت لظهور أمره ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ أي ظهر بطلانُ ما كانوا مستمرِّين على عمله ﴿فغلبوا﴾ أي فرعونُ وقومُه ﴿هنالك﴾ أي في مجلسهم ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي صاروا أَذِلاءَ مبهوتين أو رجَعوا إلى المدينة أَذِلاءَ مقهورين، والأولُ هو الظاهرُ لقوله تعالى: ﴿وأُلقي السحرة ساجدين﴾ فإن ذلك كان بمحضر من فرعون قطعًا أي خروا سجدًا كأنما ألقاهم مُلْقٍ لشدة خرورِهم كيف لا وقد بهرهم الحقُّ واضْطَرّهم إلى ذلك ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ أبدلوا الثانيَ من الأول لئلا يُتوهم أن مرادَهم فرعون. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما آمنت السحرةُ اتبع موسى من بني إسرائيلَ ستُّمائةِ ألف.

﴿قال فرعون﴾ منكِرًا على السحرة موبِّخًا لهم على ما فعلوه: ﴿آمنتم به﴾ بهمزة واحدة إما على الإخبار المحضِ المتضمِّنِ للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخيِّ بحذف الهمزةِ كما مر في (إن لنا لأجرًا)، وقد قرئ[1] بتحقيق الهمزتين معًا وبتحقيق[2]

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وقالون، والأزرق، والبزي، وابن ذكوان، وهشام، والداجوني، وأبو جعفر، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٥)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٤٠)، والتيسير للداني ص (١١٢)، والحجة لابن خالويه (١٦١، ١٦٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٣).

الأولىٰ وتسهيلِ الثانية بيْنَ بيْنٍ أي آمنتم بالله تعالى ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي بغير أن آذنَ لكم كما في قوله تعالى: ﴿لنفِد البحرُ قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ [الكهف: ١٠٩] لا أن الإذنَ منه ممكنٌ في ذلك.

﴿إن هذا لمكر مكرتموه﴾ يعني أن ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحالُ صدورَه عنكم لقوة الدليلِ وظهور المعجزة بل هو حيلةٌ احتملتموها مع مواطأة موسى ﴿في المدينة﴾ يعني مصرَ قبل أن تخرجوا إلى الميعاد. روي أن موسى عليه الصلاة والسلام وأميرَ السحرةِ التقيا فقال له موسى: أرأيتَك إن غلبتُك[1] أتؤمن بي وتشهد أن ما جئتُ به الحقُّ، فقال الساحرُ: والله لئن غلبتَني لأومننَّ بك وفرعونُ يسمعهما[2]، وهو الذي نشأ عنه هذا القول ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي القِبْطَ وتخلُصَ هي لك ولبني إسرائيلَ، وهاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوامِّ القِبطِ عند معاينتهم لارتفاع أعلامِ المعجزةِ ومشاهدتِهم لخضوع أعناقِ السحرةِ لها وعدم تمالُكِهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الإيمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام بإراءة أن إيمانَ السحرةِ مبنيٌّ على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضَهم بذلك إخراجُ القوم من المدينة وإبطالُ مُلْكِهم، ومعلومٌ أن مفارقةَ الأوطانِ المألوفةِ والنعمةِ المعروفةِ مما لا يُطاق به فجمع اللعينُ بين الشبهتين تثبيتًا للقِبطَ على ما هم عليه وتهييجًا لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليُريَهم أن له قوةً وقدرةً على المدافعة فقال: ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيدٌ ساقه بطريق الإجمالِ للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي من كل شقٍّ طرَفًا ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ تفضيحًا لكم وتنكيلًا لأمثالكم. وقيل: هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقُطّاع الطريق تعظيمًا لجُرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربةً لله ورسوله.

﴿قالوا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجواب عن سؤال ينساق إليه الذهنُ كأنه قيل: فماذا قال السحرةُ عندما سمِعوا وعيدَ فرعونَ؟ هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين؟ فقيل: قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي بالموت لا محالة فسواءٌ كان ذلك من قِبَلك أو لا فلا نبالي بوعيدك أو إنا إلى رحمة ربنا وثوابِه منقلبون إن فعلتَ بنا ذلك كأنهم استطابوه شَغَفًا على لقاء الله تعالى أو إنا جميعًا إلى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك ﴿وما تنقم منا﴾ أي وما تُنكر وتَعيب منا

---

(١) زاد في خ: الا.

(٢) في ط: يسمعها.

﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ وهو خيرُ الأعمال وأصلُ المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدولُ عنه طلبًا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته إظهارًا لما في قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريرًا له ففزِعوا إلى الله عز وجل وقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صَبْرًا﴾ أي أفِضْ علينا من الصبر ما يغمُرنا كما يغمرُ الماءُ أو صُبّ علينا ما يُطَهّرنا من أوضار الأوزار وأدناسِ الآثام وهو الصبرُ على وعيد فرعون ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على ما رزقنا[١] من الإسلام غيرَ مفتونين من الوعيد. قيل: فَعل بهم ما أوعدهم به وقيل: لم يقدر عليه لقوله تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾[٢] [القصص: ٣٥].

﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ مخاطِبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ أي في أرض مصرَ بتغيير الناسِ عليك وصرفِهم عن متابعتك ﴿ويذَرَك﴾ عطفٌ على يُفسدوا، أو جوابُ الاستفهام بالواو[٣] كما في قول الحطيئة: [الوافر]

ألم أكُ جارَكم ويكونَ بيني وبينكمُ المودةُ والإخاءُ[٤]

أي أيكونُ منك تركُ موسى ويكون تركُه إياك؟ وقرئ[٥] بالرفع عطفًا على أنذرُ أو استئنافًا أو حالًا، وقرئ[٦] بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذرْك كقوله تعالى:

---

(١) في خ: رزقتنا.

(٢) اعلم أنه ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت في الأخبار.

(٣) زاد في خ: و.

(٤) البيت في ديوانه ص (٥٤)، والدرر (٤/ ٨٨)، والردّ على النحاة ص (١٢٨)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٧٣)، وشرح شذور الذهب، ص (٤٠٣)، وشرح شواهد المغني ص (٩٥٠)، ومغني اللبيب، ص (٦٦٩)، والكتاب (٣/ ٤٣)، والمقاصد النحوية (٤/ ٤١٧)، وشرح ابن عقيل، ص (٥٧٤)، وبلا نسبة في جواهر الأدب، ص (١٦٨)، وشرح الأشموني (٣/ ٥٦٧)، ورصف المباني، ص (٤٧)، والمقتضب (٢/ ٢٧).

(٥) قرأ بها: الحسن، ونعيم بن ميسرة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٧)، وتفسير الطبري (١٣/ ٣٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٦٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٦).

(٦) قرأ بها: الأشهب العقيلي، والحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٦٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٥٦)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٧٤).

﴿فأصدَّقَ وأكنْ﴾ [المنافقون، الآية ١٠] ﴿وآلهتك﴾ ومعبوداتِك، قيل: إنه كان يعبد الكواكبَ وقيل: صنع لقومه أصنامًا وأمرهم بأن يعبُدوها تقربًا إليه ولذلك قال: أنا ربكم الأعلى، وقرئ[١] (وإِلٰهَتَك) أي عبادتَك ﴿قال﴾ مجيبًا لهم ﴿سنقتّل أبناءهم ونستحي نساءهم﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبلُ ليُعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبةِ ولا يُتَوَهّم أنه المولودُ الذي حكم المنجمون والكهنةُ بذهاب مُلكِنا على يديه، وقرئ[٢] (سنقتل) بالتخفيف ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ كما كنا لم يتغير حالُنا أصلًا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك ﴿قال موسى لقومه﴾ تسليةً لهم وعِدةً بحسن العاقبة حين سمعوا قولَ فرعون وتضجّروا منه ﴿استعينوا بالله واصْبِرُوا﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلةِ ﴿إن الأرض لله﴾ أي أرضَ مصرَ أو جنسَ الأرض وهي داخلةٌ فيها دخولًا أوليًا ﴿يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ الذين أنتم منهم وفيه إيذانٌ بأن الاستعانةَ بالله تعالى والصبرَ من باب التقوى وقرئ[٣] (والعاقبةَ) بالنصب عطفًا على اسم إن.

﴿قالوا﴾ أي بنو إسرائيلَ ﴿أوذينا﴾ أي من جهة فرعونَ ﴿من قبل أن تأتينا﴾ أي بالرسالة، يعنون بذلك قتلَ أبنائِهم قبل مولدِ موسى عليه الصلاة والسلام وبعدَه ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ أي رسولًا، يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتلِ الأبناءِ وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجَوْر والظلم والعذاب، وأما ما كانوا يُستعبَدون به ويُمتهنون فيه من أنواع الخَدَم والمِهَن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثيرُ ملابسة بالمقام ﴿قال﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدةَ جَزَعِهم مما شاهدوه مسليًا لهم بالتصريح بما لَوَّح به في قوله:

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن، والحسن، ومجاهد، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأنس، وابن مالك، والضحاك، وعلقمة، والجحدري، وأبو طالوت، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٧)، وتفسير الطبري (١٣/ ٣٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٦٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والبحر المحيط (٤/ ٣٦٨)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٤٤)، والتيسير للداني ص (١١٢)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٤).

(٣) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٦٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨٣).

إن الأرض لله، إلخ ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعّدكم بإعادته ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ أي يجعلَكم خلفاءَ في أرض مصرَ ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أحسنًا أم قبيحًا فيجازيَكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، وفيه تأكيدٌ للتسلية وتحقيقٌ للأمر. قيل: لعل الإتيانَ بفعل الطمع لعدم الجزمِ منه عليه السلام بأنهم هم المستخلَفون بأعيانهم أو أولادهم، فقد روي أن مصرَ إنما فتحت في زمن داودَ عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى: ﴿وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضْعفون مشارق الأرض ومغاربَها﴾ [الأعراف، الآية ١٣٧] فإن المتبادرَ استخلافُ أنفسِ المستضعفين لا استخلافُ أولادِهم، وإنما مجيءُ فعلِ الطمعِ للجري على سنن الكبرياء.

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ شروعٌ في تفصيل مبادي الهلاكِ الموعودِ وإيذانٌ بأنه تعالى لم يُمهِلْهم بعد ذلك ولم يكونوا في خفْضٍ ودَعَةٍ بل رُتّبت أسبابُ هلاكِهم فتحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذابُ الاستئصالِ، وتصديرُ الجملة بالقسم لإظهار الاعتناءِ بمضمونها، والسنونَ جمعُ سنة والمرادُ بها عامُ القحطِ وفيها لغتانِ أشهرُهما إجراؤها مُجرى المذكرِ السالمِ فيرفع بالواو ويُنصَب ويُجرُّ بالياء ويحذف نونُه بالإضافة.

واللغةُ الثانية إجراءُ الإعراب على النون ولكن مع الياء خاصةً إما بإثبات تنوينِها أو بحذفه. قال الفراء: هي في هذه اللغةِ مصروفةٌ عند بني عامرٍ وغيرُ مصروفةٍ عند بني تميم، ووجهُ حذف التنوينِ التخفيفُ وحينئذ لا يُحذف النونُ للإضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر: [الطويل]

دعانيَ من نجدٍ فإن سنينَه لعِبْنَ بنا شيبًا وشيَّبْننا مُرْدا[1]

وجاء الحديث: اللهم اجعلْها عليهم سنينَ كسِني يوسُفَ[2]، وسنينَ كسنينِ يوسف

---

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشيري في تخليص الشواهد ص (٧١)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٧٦)، وشرح التصريح (١/ ٧٧)، وشرح شواهد الإيضاح ص(٥٩٧)، وشرح المفصل (٥/ ١١-١٢)، والمقاصد النحوية (١/ ١٦٩)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ٥٧)، وجواهر الأدب ص (١٥٧)، وشرح الأشموني (١/ ٣٧)، وشرح ابن عقيل ص (٣٩)، ولسان العرب (نجد)، (سنه)، ومجالس ثعلب ص (١٧٧، ٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤/ ٣٢١) كتاب الإكراه، برقم (٦٩٤٠)، ومسلم (١/ ٤٦٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، برقم (٢٩٤/ ٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باللغتين ﴿ونقص مِنَ الثمرات﴾ بإصابة العاهات. عن كعبٍ يأتي على الناس زمانٌ لا تحمل النخلةُ إلا ثمرةً[١]، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أما السنونَ فكانت لباديتهم وأهلِ ماشيتِهم وأما نقصُ الثمرات فكان في أمصارهم[٢].

﴿لعلهم يذَّكرون﴾ كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقِفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العُتوِّ والعناد.

قال الزجاج: إن أحوالَ الشدةِ ترقِّقُ القلوب وترغّب فيما عند الله عز وجل وفي الرجوع إليه تعالى، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وإذا مسه الشرُّ فذو دعاءٍ عريض﴾ [فصلت: ٥١] وقد مر تحقيقُ القول في لعل وفي محلها في تفسير قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١] في أوائل سورة البقرة وقوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ . . . إلخ، بيانٌ لعدم تذكّرِهم وتماديهم في الغي أي فإذا جاءتهم السعةُ والخِصْبُ وغيرُهما من الخيرات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي لأجلنا واستحقاقنا لها ﴿وإن تصبْهم سيئة﴾ أي جذْبٌ وبلاء ﴿يطيّروا بموسى ومن معه﴾ أي يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتنا إلا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهدٌ بكمال قساوةِ قلوبِهم ونهايةِ جهلِهم وغباوتِهم فإن الشدائدَ ترقّقُ القلوبَ وتُلين العرائِكَ لا سيما بعد مشاهدةِ الآياتِ وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيءٌ منها بل ازدادوا عتوًّا وعِنادًا، وتعريفُ الحسنةِ وذِكرُها بأداة التحقيقِ للإيذان بكثرة وقوعِها وتعلقِ الإرادةِ بها بالذات كما أن تنكيرَ السيئةِ وإيرادَها بحرف الشكِّ للإشعار بنُدرة وقوعِها وعدم تعلّقِ الإرادةِ بها إلا بالعَرَض.

وقوله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ استئنافٌ مَسوقٌ من قِبَله تعالى لرد مقالتِهم الباطلةِ وتحقيقِ الحقِّ في ذلك، وتصديرُه بكلمة التنبيهِ لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونه، أي ليس سببُ خيرِهم إلا عنده تعالى وهو حكمُه ومشيئتُه المتضمنةُ للحِكَم والمصالحِ، أوليس شؤمهم، وهو أعمالُهم السيئةُ، إلا عنده تعالى أي مكتوبةٌ لديه فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها، وقرئ[٣] (إنما طَيرُهم) وهو اسمُ جمعُ طائرٍ وقيل: جمعٌ له ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك فيقولون ما يقولون مما حُكي عنهم، وإسنادُ عدمِ العلمِ إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضَهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشرِّ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٤٦) برقم (١٤٩٨٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٤٢) برقم (٨٨٣٩) من قول قتادة رضي الله عنه.

(٣) قرأ بها: الحسن.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٣٣)، الإملاء للعكبري (١/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦٦)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٦٦).

من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس إلا بما كسبتْ أيديهم ولكن لا يعملون بمقتضاه عِنادًا واستكبارًا.

﴿**وقالوا**﴾ شروعٌ في بيان بعضٍ آخَرَ مما أُخذ به آلُ فرعونَ من فنون العذاب التي هي في أنفسها آياتٌ بيناتٌ. وعدمُ ارعوائِهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما أرادوا ما أرادوا من شأن العصا والسنينَ ونقصِ الثمرات: ﴿**مهما تأتنا به**﴾ كلمةُ مهما تستعمل للشرط والجزاءِ وأصلُها ما الجزائية ضُمت إليها ما المزيدةُ للتأكيد كما ضُمّت إلى أين وإن في ﴿**أينما تكونوا**﴾ [النساء، الآية ٧٨] ﴿**إما نذهبن بك**﴾ [الزخرف، الآية ٤١] خلا أن ألِفَ الأولى قُلبت هاءً حذَرًا من تكرير المتجانسين. هذا هو الرأيُ السديدُ، وقيل: مه كلمةٌ يصوِّتُ بها الناهي ضُمّت إليها ما الشرطيةُ ومحلُّها الرفعُ بالابتداء أو النصبُ بفعل يفسره ما بعدها، أي أيُّ شيءٍ تظهره لدينا وقوله تعالى: ﴿**من آية**﴾ بيانٌ لـ (مهما)، وتسميتُهم إياها آيةً لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائِهم بها وللإشعار بأن عنوانَ كونِها آيةً لا يؤثر فيهم وقوله تعالى: ﴿**لتسحرنا بها**﴾ إظهارٌ لكمال الطغيانِ والغلوّ فيه وتسميةِ الإرشادِ إلى الحق بالسحر وتسكير الأبصار، والضميران المجروران راجعان إلى مهما وتذكيرُ الأولِ لمراعاة جانب اللفظِ لإبهامه، وتأنيثُ الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بـ (آية) كما في قوله تعالى: ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسِكَ لها وما يُمْسِكْ فَلَا مُرسِلَ له**﴾ [فاطر: ٢].

﴿**فما نحن لك بمؤمنين**﴾ بمصدِّقين لك ومؤمنين لنبوتك ﴿**فأرسلنا عليهم**﴾ عقوبةً لجرائمهم لا سيما لقولهم هذا ﴿**الطوفانَ**﴾ أي الماءَ الذي طاف بهم وغشِيَ أماكنَهم وحروثَهم من مطر أو سَيل، وقيل: هو الجُدَريّ. وقيل: المَوَتان. وقيل: الطاعون ﴿**والجراد والقمل**﴾ قيل: هو كبارُ القردان وقيل: أولادُ الجراد قبل نباتِ أجنحتِها ﴿**والضفادع والدم**﴾ رُوي أنهم مُطروا ثمانيةَ أيام في ظلمة شديدةٍ لا يستطيع أن يخرُج أحدٌ من بيته ودخل الماءُ بيوتَهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ منه قطرةٌ وهي في خلال بيوتِهم وفاض الماءُ على أرضهم وركدَ فمنعَهم من الحرْث والتصرّف ودام ذلك سبعةَ أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام: ادعُ لنا ربك يكشفْ عنا ونحن نؤمنُ بك فدعا فكُشف عنهم فنبت من العشب والكلأ ما لم يُعهَدْ قبله، ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجرادَ فأكل زروعَهم وثمارَهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابَهم ففزِعوا إليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرقِ والمغربِ فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القُمّلَ

فأكل ما أبقته الجرادُ وكان يقع في أطعمتهم ويدخُل بين ثيابهم وجلودِهم فيمُصّها ففزِعوا إليه ثالثًا فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحرٌ ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوبٌ ولا طعام إلا وجدت فيه وكانت تمتلئ منها مضاجعُهم وتثب إلى قدروهم وهي تغلي وإلى أفواههم عند التكلم ففزعوا إليه رابعًا وتضرعوا فأخذ عليهم العُهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهدَ فأرسل الله عليهم الدمَ فصارت مياههم دماءً حتى كان يجتمع القِبطيُّ والإسرائيليُّ على إناء فيكون ما يليه دمًا وما يلي الإسرائيليّ ماءً على حاله ويمص من فم الإسرائيليِّ فيصير دمًا في فيه، وقيل: سلط الله عليهم الرُّعاف.

﴿آيات﴾ حال من المنصوبات المذكورة ﴿مفصلات﴾ مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل: مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعًا وقيل: إنه عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿فاستكبروا﴾ أي عن الإيمان بها ﴿وكانوا قومًا مجرمين﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي العذاب المذكور على التفصيل فاللامُ للجنس المنتظمِ لكل واحدةٍ من الآيات المفصلة، أي كلما وقع عليهم عقوبةٌ من تلك العقوبات قالوا في كل مرة ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي بعهده عندك وهو النبوةُ أو بالذي عهِد إليك أن تدعوَه فيجيبَك كما أجابك في آياتك، وهو صلةٌ لـ (ادْعُ) أو حالٌ من الضمير فيه، بمعنى ادعُ الله متوسلًا إليه بما عهد عندك، أو متعلقٌ بمحذوف دل عليه التماسُهم، مثلُ أسعِفْنا إلى ما نطلب بحق ما عندك أو قسم أجيب بقوله تعالى: ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ الذي وقع علينا ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ أي أقسَمْنا بعهد الله عندك لئن كشفت . . . إلخ.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذَّبون بعده أو مُهلَكون ﴿إذا هم ينكثون﴾ جوابُ لمّا أي فلما كشفنا عنهم فاجأوا النّكْثَ من غير تأمل وتوقف ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي فأردنا أن ننتقم منهم لِما أسلفوا من المعاصي والجرائم، فإن قوله تعالى: ﴿فأغرقناهم﴾ عينُ الانتقام منهم فلا يصح دخولُ الفاء بينهم ويجوزُ أن يكون المرادُ مطلقَ الانتقام منهم والفاءُ تفسيرية كما في قوله تعالى: ﴿ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ﴾ [هود، الآية ٤٥] إلخ ﴿في اليم﴾ في البحر الذي لا يُدرك قعرُه وقيل: في لُجّته ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ تعليلٌ للإغراق أي كان إغراقُهم بسبب تكذيبِهم بآياتِ الله تعالى وإعراضِهم عنها وعدمِ تفكرِهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية، والفاءُ وإن دلت على ترتبِ

الإغراقِ على ما قبله من النكْثِ لكنه صرّح بالتعليل إيذانًا بأن مدارَ جميعِ ذلك تكذيبُ آياتِ الله تعالى والإعراضُ عنها ليكون ذلك مَزْجرةً للسامعين عن تكذيب الآياتِ الظاهرةِ على يد رسولِ الله ﷺ والإعراضِ عنها.

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون﴾ أي بالاستبعاد وذبحِ الأبناءِ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدِلالة على استمرار الاستضعافِ وتجدّدِه وهم بنو إسرائيلَ ذُكروا بهذا العُنوانِ إظهارًا لكمال لُطفِه تعالى بهم وعظيمِ إحسانِه إليهم في رفعهم من حضيض المذلةِ إلى أوْج العزة ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ أي جانبيها الشرقيَّ والغربيَّ حيث ملَكها بنو إسرائيلَ بعد الفراعنةِ والعمالقةِ وتصرّفوا في أكنافها الشرقيةِ والغربية كيف شاؤوا، وقوله تعالى: ﴿التي باركنا فيها﴾ أي بالخِصْب وسَعةِ الأرزاقِ، صفةٌ للمشارق والمغارب، وقيل: للأرض وفيه ضعفٌ للفصل بين الصفةِ والموصوفِ بالمعطوف كما في قولك: قام أم هند وأبوها العاقلةُ.

﴿وتمت كلمة ربك الحسنى﴾ وهي وعدُه تعالى إياهم بالنصر والتمكين كما ينبئ عنه قوله تعالى: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾** [القصص: ٥] وقرئ[1] (كلماتُ) لتعدد المواعيدِ ومعنى تمت مضَت واستمرت ﴿على بني إسرائيل بما صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرِهم على الشدائد التي كابدوها من جهة فرعونَ وقومِه ﴿ودمّرنا﴾ أي خرّبنا وأهلكنا ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من العِمارات والقصورِ أي ودمرنا الذي كان فرعونُ يصنعه على أن فرعونَ اسمُ كان ويصنع خبرٌ مقدمٌ والجملة الكونيةُ صلةُ ما والعائدُ محذوفٌ، وقيل: اسمُ كان ضميرٌ عائدٌ إلى (ما) الموصولةِ ويصنع مُسندٌ إلى فرعون والجملة خبرُ كان والعائدُ محذوف أيضًا والتقدير ودمرنا الذي كان هو يصنعُه فرعونُ . . . إلخ.

وقيل: كان زائدةٌ وما مصدريةٌ والتقديرُ ما يصنع فرعون إلخ، وقيل: كان زائدةٌ كما ذكر وما موصولةٌ اسميةٌ والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذي يصنعه فرعون إلخ أي صُنعَه، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البُنيان كصرح هامانَ وقرئ[2]

---

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، والحسن.
ينظر: الإعراب للنحاس(١/ ٦٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧٦).

(٢) قرأ بها: عاصم، وابن عامر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٣٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٥٨)، والتيسير للداني ص (١١٣)، =

(يعرُشون) بضم الراءِ والكسرُ أفصح وهذا آخرُ قصةِ فرعونَ وقومه.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

[بنو إسرائيل وموسى]

وقوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ شروعٌ في قصة بني إسرائيلَ وشرحِ ما أحدثوه من الأمور الشنيعةِ بعد أن أنقذهم الله عز وجل من مَلَكة فرعون ومنّ عليهم من النعم العظامِ الموجبةِ للشكر وأراهم من الآيات الكبارِ ما تخِرّ له شمُّ[1] الجبال تسليةً لرسول الله ﷺ وإيقاظًا للمؤمنين حتى لا يغفُلوا عن محاسبة أنفسِهم ومراقبةِ أحوالِهم. وجاوز بمعنى جاز، وقرئ[2] (جوّزنا) بالتشديد وهو أيضًا بمعنى جاز فعُدّي بالباء أي قطعنا بهم البحر. روي أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم

= وتفسير الطبري (١٣/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٧٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٨).

(١) في خ: صم.

(٢) قرأ بها: الحسن، وإبراهيم، وأبو رجاء، ويعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٨٧)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٨٠).

عاشوراءَ بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكرًا لله[١] عز وجل **﴿فأتوا﴾** أي مروا **﴿على قوم﴾** قيل: كانوا من لَخْمٍ، وقيل: من العمالقة الكنعانيين الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم.

﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ أي يواظبون على عبادتها ويلازمونها، وقرئ[٢] بكسر الكاف، قال ابن جريج: كانت أصنامُهم تماثيلَ بقرٍ وهو أولُ شأن العجل **﴿قالوا﴾** عندما شاهدوا أحوالَهم **﴿يا موسى اجعل لنا إلٰهًا﴾** مثالًا نعبُده **﴿كما لهم آلهة﴾** الكافُ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لـ (إلٰهًا) وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا إلٰهًا كائنًا كالذي استقر هو لهم **﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾** تعجب عليه السلام من قولهم هذا إثرَ ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزةِ العُظمى فوصفهم بالجهل المطلقِ إذ لا جهل أعظمُ مما ظهر منهم، وأكده بقوله: **﴿إن هؤلاء﴾** يعني القومَ الذين يعبدون تلك التماثيلَ **﴿متَّبر﴾** أي مُدمّرٌ مكسَّرٌ **﴿ما هم فيه﴾** أي من الدين الباطلِ أي يُتبِّر الله تعالى ويهدِم دينَهم الذي هم عليه عن قريب ويحطّم أصنامَهم ويتركها رُضاضًا، وإنما جيء بالجملة الاسميةِ للدلالةِ على التحقق **﴿وباطل﴾** أي مضمحلٌّ بالكلية **﴿ما كانوا يعملون﴾** من عبادتها وإن كان قصدُهم بذلك التقريبَ إلى الله تعالى فإنه كفرٌ محضٌ، وليس هذا كما في قوله تعالى: **﴿وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾** [الفرقان، الآية ٢٣] كما تُوهم فإن المرادَ به أعمالُ البرِّ التي عمِلوها في الجاهلية فإنها في أنفسها حسناتٌ لو قارنت الإيمانَ لاستتبعت أجورَها وإنما بطَلت لمقارنتها الكفرَ، وفي إيقاع (هؤلاءِ) اسمًا لـ (إن) وتقديمِ الخبر من الجملة الواقعةِ خبرًا لها وسْمٌ لعبدة الأصنام بأنهم هم المُعرَّضون للتبار وأنه لا يعدوهم ألبتةَ وأنه لهم ضربةُ لازبٍ ليحذّرهم عاقبةَ ما طلبوا ويُبغِضَ إليهم ما أحبوا **﴿قال أغير الله أبغيكم إلٰهًا﴾** شروعٌ في بيانِ شؤونِ الله تعالى الموجبةِ لتخصيص العبادةِ به تعالى بعد بيانِ أن ما طلبوا عبادتَه مما لا يمكن طلبُه أصلًا لكونه هالكًا باطلًا، ولذلك وسّط بينهما قال مع كونِ كلٍّ منهما كلامَ موسى عليه الصلاة والسلام، والاستفهامُ للإنكار والتعجب والتوبيخِ وإدخالُ الهمزةِ على غير للإيذان بأن المنكرَ هو

---

(١) زاد في خ: تعالى.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، والوراق، وخلف، والمطوعي، وابن مقسم، ورويس، والحسن، والأعمش، وعبد الوارث.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧٧)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٦١)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٧٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٤).

كونُ المبْغيِّ غيرَه تعالى لما أنه لاختصاص الإنكار بغيره تعالى دون إنكارِ الاختصاصِ بغيره تعالى، وانتصابُ غير على أنه مفعولُ أبغي بحذف اللام أي أبغي لكم أي أطلب لكم غيرَ الله تعالى، وإلٰهًا إما تمييزٌ أو حال أو على الحالية من (إلٰهًا) وهو المفعولُ لأبغي على أن الأصلَ أبغي لكم إلٰهًا غيرَ الله (فغيرَ الله) صفةٌ لـ (إلٰهًا) فلما قُدّمت صفةُ النكرةِ انتصبت حالًا.

﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أي والحالُ أنه تعالى خصكم بنعم لم يُعطِها غيرَكم، وفيه تنبيهٌ على ما صنعوا من سوء المعاملةِ حيث قابلوا تخصيصَ الله تعالى إياهم من بين أمثالِهم بما لم يستحقوه تفضلًا بأن عمَدوا إلى أخسّ شيءٍ من مخلوقاته فجعلوه شريكًا له تعالى. تبًّا لهم ولما يعبدون.

﴿وإذ أنجيناكم﴾ تذكيرٌ لهم من جهته سبحانه بنعمة الإنجاءِ من ملَكة فرعون وقرئ[1] (نجّيناكم) من التنجية، وقرئ[2] (أنجاكم) فيكون مَسوقًا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أي واذكروا وقت إنجائِنا إياكم ﴿من آل فرعون﴾ من ملَكتهم لا بمجرد تخليصِكم من أيديهم وهم على حالهم في المَكِنة والقدرة بل بإهلاكهم بالكلية وقوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ من سامه خسفًا أي أولاه إياه أو كلفه إياه، وهو إما استئنافٌ لبيان ما أنجاهم منه أو حالٌ من المخاطَبين أو من آل فرعون أو منهما معًا لاشتماله على ضميريهما.

وقوله تعالى: ﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ بدلٌ من يسومونكم مُبين أو مفسّرٌ له ﴿وفي ذلكم﴾ الإنجاءِ أو سوءِ العذاب ﴿بلاء﴾ أي نعمةٌ أو محنة ﴿من ربكم﴾ من مالك أمرِكم فإن النعمةَ والنقِمةَ كلتاهما منه سبحانه وتعالى ﴿عظيم﴾ لا يقادَر قدرُه ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيلَ وهم بمصرَ إن أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتاب فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعونُ سأل موسى عليه السلام ربه الكتابَ فأمره بصوم ثلاثين يومًا وهو شهرُ ذي القَعدة فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوفَ فيه[3] فتسوّك فقالت الملائكةُ: كنا نشم

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٧٩).

(٢) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٢٩)، والبحر المحيط (٤/ ٣٧٩)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٦٣)، والتيسير للداني ص (١١٣)، والحجة لابن خالويه (١٦٢، ١٦٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٨).

(٣) أي أنكر رائحة فمه. وخَلَف - خُلُوفاً وخُلُوفة - فمُ الصائم: تغيَّرت رائحته ومنه الحديث: «نومة الضحى مَخْلَفَةٌ للفم».

من فيك رائحةَ المسك فأفسدته بالسواك، وقيل: أوحىٰ الله تعالى إليه: أما علمتَ أن ريحَ فمِ الصائمِ أطيبُ عندي من ريح المِسْك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرةَ أيام من ذي الحِجّة لذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وأتممناها بعشر﴾ والتعبير عنها بالليالي لأنها غُرَرُ الشهور، وقيل: أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله تعالى، ثم أنزلت عليه التوراةُ في العشر وكلم فيها، وقد أُجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة وفُصِّل هاهنا.

و(واعدنا) بمعنى وعدْنا وقد قرئ[1] كذلك وقيل: الصيغةُ على بابها بناءً على تنزيل قَبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعدِ، وثلاثين مفعولٌ ثانٍ لـ (واعدنا) بحذف المضافِ أي إتمامَ ثلاثين ليلةً ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ أي بالغًا أربعين ليلة ﴿وقال موسى لأخيه هرون﴾ حين توجه إلى المناجاة حسبما أُمر به ﴿اخلفني﴾ أي كن خليفتي ﴿في قومي﴾ وراقِبْهم فيما يأتون وما يذرون ﴿وأصلح﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمورهم أو كن مصلحًا ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي لا تتبع مَنْ سلك الإفسادَ ولا تُطِعْ من دعاك إليه ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتناه، واللامُ للاختصاص، أي اختَصَّ مجيئُه بميقاتنا ﴿وكلمه ربه﴾ من غير واسطةٍ كما يكلم الملائكة عليهم السلام، وفيما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهةٍ تنبيهٌ على أن سماعَ كلامِه عز وجل ليس من جنس سماعِ كلام المحدّثين ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ أي أرني ذاتَك بأن تمكّنني من رؤيتك أو تتجلى لي فأنظرَ إليك وأراك. هو دليلٌ على أن رؤيتَه تعالى جائزةٌ في الجملة لما أن طلبَ المستحيلِ مستحيلٌ من الأنبياء لا سيما ما يقتضي الجهلَ بشؤون الله تعالى ولذلك رده بقوله: لن تراني دون لن أُرىٰ ولن أُرِيَك ولن تنظُرَ إليّ تنبيهًا على أنه قاصرٌ عن رؤيته لتوقفها على معد[2] في الرائي ولم يوجد فيه ذلك بعدُ، وجعلُ السؤالِ لتبكيت قومِه الذين قالوا: أرنا الله جهرةً خطأٌ إذ لو كانت الرؤيةُ ممتنعةً لوجب أن يُجهِّلَهم ويُزيحَ شبهتَهم كما فعل ذلك حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلٰهًا﴾ وألا يتبعَ سبيلَهم كما قال لأخيه: ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين، والاستدلالُ بالجواب على استحالتها أشدُّ خطأً إذ لا يدل الإخبارُ بعدم رؤيتِه إياه على أنه لا يراه أبدًا وأنه لا يراه غيرُه أصلًا فضلًا عن أن يدل

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، واليزيدي، وابن محيصن، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٩)، وتفسير الرازي (٤/ ٢٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

(٢) أي أن الرؤية متوقفة على وجود استعداد وتهيئة لدى الرائي.

على استحالتها ودعوى الضرورةِ مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل: فماذا قال ربُّ العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال؟ فقيل: قال: ﴿**لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**﴾ استدراكٌ لبيان أنه لا يُطيق بها، وفي تعليقها باستقرار الجبلِ أيضًا دليلٌ على الجواز ضرورةَ أن المعلَّق بالممكن ممكنٌ، والجبلُ قيل: هو جبل أردن ﴿**فلما تجلى ربه للجبل**﴾ أي ظهرت له عظمتُه وتصدّى له اقتدارُه وأمرُه وقيل: أُعطي الجبلُ حياةً ورؤيةً حتى رآه ﴿**جعله دكًا**﴾ مدكوكًا مُفتّتًا، والدكُّ والدقُّ أخَوَان كالشك والشق وقرئ[١] دكاء[٢] أي أرضًا مستويةً ومنه ناقةٌ دكاءُ للتي لا سنامَ لها، وقرئ[٣] دُكًا جمعُ دكّاءَ أي قطعًا ﴿**وخر موسى صعقًا**﴾ مغشيًا عليه من هول ما رآه.

﴿**فلما أفاق**﴾ الإفاقةُ رجوعُ العقلِ والفهم إلى الإنسان بعد ذهابِهما بسبب من الأسباب ﴿**قال**﴾ تعظيمًا لما شاهده ﴿**سبحانك**﴾ أي تنزيهًا لك من أن أسألك شيئًا بغير إذنٍ منك ﴿**تبت إليك**﴾ أي من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿**وأنا أول المؤمنين**﴾ أي بعظمتك وجلالِك وقيل: أولُ من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا وقيل: بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك.

﴿**قال يا موسى**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الإجابةِ إلى سؤال الرؤيةِ كأنه قيل: إن منعتُك الرؤيةَ فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعْطِ أحدًا من العالمين فاغتنِمْها وثابرْ على شكرها ﴿**إني اصطفيتك**﴾ أي اخترتُك واتخذتُك صفوةً وآثرتُك ﴿**على الناس**﴾ أي المعاصِرين لك. وهارونُ وإن كان نبيًّا كان مأمورًا باتباعه وما كان كَليمًا ولا صاحبَ شرعٍ ﴿**برسالاتي**﴾ أي بأسفار التوراةِ وقرئ[٤] (برسالتي) ﴿**وبكلامي**﴾ وبتكليمي أياك بغير واسطة ﴿**فخذ ما آتيتك**﴾ من

---

(١) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٠)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٣٦)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٨٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٦٦)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٠٠).

(٢) في ط: دكا.

(٣) قرأ بها: يحيى بن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩١).

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وروح، وأبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٠)، والبحر المحيط (٤/ ٣٨٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٧١)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٨٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٣).

شرف النبوةِ والحكمة ﴿**وكن من الشاكرين**﴾ على ما أُعطيت من جلائل النعم، قيل: كان سؤالُ الرؤيةِ يوم عرفةَ وإعطاءُ التوراةِ يومَ النحر ﴿**وكتبنا له في الألواحَ من كل شيء**﴾ أي مما يحتاجون إليه من أمور دينِهم ﴿**موعظة وتفصيلًا لكل شيء**﴾ بدلٌ من الجارّ والمجرور أي كتبنا له كلَّ شيءٍ من المواعظ وتفصيلِ الأحكام، واختُلف في عدد الألواحِ وفي جوهرها ومقدارِها فقيل: إنها كانت عشَرةَ ألواحٍ وقيل: سبعةً وقيل: لوحين وأنها كانت من زُمُرُّذةٍ جاء بها جبريلُ عليه السلام وقيلَ: من زَبَرْجَدةٍ خضراءَ أو ياقوتةٍ حمراءَ. وقيل: أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صمّاءَ ليَّنها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه.

وعن الحسن رضي الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراةُ وأن طولَها كان عشَرةَ أذرُع. وقيل: أُنزلت التوراةُ وهي سبعون وِقْرَ بعيرٍ[1] يقرأ الجزءُ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعةُ نفرٍ: موسى ويوشعُ وعُزيرٌ وعيسى عليهم السلام. وعن مقاتل رضي الله عنه كُتب في الألواحِ إني أنا الله الرحمٰنُ الرحيم لا تشرِكوا بي شيئًا ولا تقطعوا السبيلَ ولا تزْنوا ولا تعقُّوا الوالدين ﴿**فخذها**﴾ على إضمار قولٍ معطوف على كتبنا أي فقلنا خذها ﴿**بقوة**﴾ بجدٍّ وعزيمة وقيل: هو بدلٌ من قوله تعالى: ﴿**فخذ ما آتيتك**﴾ والضميرُ للألواح أو لكل شيءٍ لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة.

﴿**وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾ أي بأحسنِ ما فيها كالعفو والصبر بالإضافة إلى الاقتصاص والانتصارِ على طريقة الندبِ والحثِّ على اختيار الأفضل كما في قوله تعالى: ﴿**واتبعوا أحسنَ ما أُنزل إليكم من ربكم**﴾ [الزمر: ٥٥] أو بواجباتها فإنها أحسنُ من المباح.

وقيل: المعنى يأخذوا بها، و(أحسن) صلةٌ. قال قُطرُب: أي بحسَنها وكلُّها حسنٌ كقوله تعالى: ﴿**ولذكرُ الله أكبرُ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقيل: هو أن تُحمل الكلمةُ المحتملةُ لمعنيين أو لمعان على أشبه محتمَلاتِها بالحق وأقربِها إلى الصواب ﴿**سأريكم دار الفاسقين**﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفاتِ حملًا لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به، إما على نهج الوعيدِ والترهيب، على أن المرادَ بدار الفاسقين أرض مصرَ وديارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم فإن رؤيتها وهي خاليةٌ عن أهلها خاويةٌ على عروشها موجبةٌ للاعتبار والانزجارِ عن مثل أعمالِ أهلِها كيلا يحِلَّ بهم ما حل بأولئك، وإما على

(١) أي حِمْلَ بعير.

نهج الوعدِ والترغيبِ على أن المرادَ بدار الفاسقين إما أرضُ مصرَ خاصةً أو مع أرض الجبابرةِ والعمالقةِ بالشام فإنها أيضًا مما أتيح لبني إسرائيلَ وكُتب لهم حسبما ينطِق به قولُه عز وجل: **﴿يا قومِ ادخُلوا الأرضَ المقدسة التي كتب الله لكم﴾** [المائدة، الآية ٢١] ومعنى الإراءةِ الإدخالُ بطريق الإيراثِ، ويؤيده قراءةُ[1] مَنْ قرأ سأُورِثكم بالثاء المثلثة كما في قوله تعالى: **﴿وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها﴾** [الأعراف، الآية ١٣٧] وقرئ[2] (سأُوريكم) ولعله من أورَيْتُ الزندَ أي سأبيِّنُها لكم.

وقوله تعالى: **﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾** استئنافٌ مَسوقٌ لتحذيرهم عن التكبر الموجبِ لعدم التفكرِ في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراةِ من المواعظ والأحكامِ أو ما يعمُّها وغيرَها من الآيات التكوينيةِ التي من جملتها ما وعد إراءَته من الفاسقين ومعنى صرفِهم عنها الطبعُ على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبَهم﴾** [الصف، الآية ٥] وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع أن في المؤخَّرِ نوعَ طُولٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الجليلِ أي سأطبع على قلوب الذين يعدّون أنفسَهم كُبراءَ ويرَوْن لهم على الخلقِ مزيةً وفضلًا فلا ينتفعون بآياتي التنزيليةِ والتكوينيةِ ولا يغتنمون مغانمَ آثارِها، فلا تسلُكوا مسلكَهم فتكونوا أمثالَهم.

وقيل: المعنى سأصرِفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعونُ في إبطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى إلا إحقاقَ الحقِّ وإزهاقَ الباطل، وعلى هذا فالأنسبُ أن يُرادَ بدار الفاسقين أرضُ الجبابرةِ والعمالقةِ المشهورين بالفسق والتكبر في الأرض وبإراءتها للمخاطَبين إدخالُهم الشامَ وإسكانُهم في مساكنهم ومنازلِهم حسبما نطَق به قولُه تعالى: **﴿يا قومِ ادخُلوا الأرضَ المقدسةَ التي كتب الله لكم﴾** [المائدة الآية ٢١].

ويكون قولُه تعالى: **﴿سأصرف عن آياتي﴾** ... إلخ، جوابًا عن سؤال مقدر

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، وقسامة بن زهير.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٨٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٣).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٨٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٥).

ناشئ من الوعد بإدخال الشام على أن المرادَ بالآيات ما تُلي آنفًا ونظائرُه، وبصرفهم عنها إزالتُهم عن مَقام معارضَتِها وممانعتِها لوقوع أخبارِها وظهور أحكامِها وآثارِها بإهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التّيهِ بمن بقيَ من بني إسرائيلَ أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين إلى أريحا ويوشعُ بنُ نونٍ في مقدمته ففتحها واستقر بنو إسرائيلَ بالشام وملكوا مشارقَها ومغاربَها كأنه قيل: كيف يرون دارهم وهم فيها؟ فقيل: سأُهلِكُهم، وإنما عدل إلى الصَرْف ليزدادوا ثقةً بالآيات واطمئنانًا بها.

وقوله تعالى: ﴿بغير الحق﴾ إما صلةٌ للتكبر أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينُهم الباطلُ وظلمُهم المُفْرِطُ أو متعلق بمحذوف هو حالٌ من فاعله أي يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ عطفٌ على يتكبرون داخلٌ معه في حُكم الصلةِ والمرادُ بالآية إما المنزلةُ فالمرادُ برؤيتها مشاهدتُها بسماعها أو ما يعمُّها من المعجزات فالمرادُ برؤيتها مطلقُ المشاهَدةِ المنتظمةِ للسماع والإبصار، أي وإن يشاهِدوا كلَّ آيةٍ من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفي لا على نفي العُموم أي كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائِهم إياها كما هي وهذا كما ترى يؤيد كونَ الصرفِ بمعنى الطبع.

وقوله تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه أي لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلُكون سبيله أصلًا لاستيلاء الشيطنةِ عليهم ومطبوعيّتِهم على الانحراف والزيغ، وقرئ[(١)] بفتحتين وقرئ[(٢)] (الرشادِ) وثلاثتُها لغات كالسُّقْم والسقام ﴿وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلَكًا مستمرًا لا يكادون يعدِلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلةِ وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من تكبُّرهم وعدم إيمانهم بشيء من الآيات وإعراضِهم عن سبيل الرشدِ وإقبالِهم التامّ إلى سبيل الغيِّ، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿بأنهم﴾ أي حاصلٌ بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ الدالةِ على بطلان ما اتصفوا

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٠)، الإعراب للنحاس (١/ ٦٣٧)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣٩٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٣٩٠)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٧٤)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ١١٥).

(٢) قرأ بها: أبو عبد الرحمن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٣).

به من القبائح وعلى حقية أضدادِها ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ لا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الأباطيل، ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما ذُكر من الصرف ولا يمنعُه الإشعارُ بعلّية ما في حيز الصلةِ كيف لا وقد مر أن ذلك في قوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا﴾ [البقرة، الآية ٦١. وسورة المائدة، الآية ٧٨] يجوزُ أن يكون إشارةً إلى ضرب الذلةِ والمسكنةِ والبَوْءِ بالغضب العظيمِ مع كون ذلك معللًا بالكفر بآيات الله صريحًا.

وقيل: محلُّ اسمِ الإشارةِ النصبُ على المصدر، أي سأصرفهم ذلك الصَّرْفَ بسبب تكذيبِهم بآياتنا وغفلتِهم عنها.

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي وبلقائهم الدارَ الآخرةَ أو لقائهم ما وعده الله تعالى في الآخرة من الجزاء، ومحلُّ الموصولِ الرفعُ على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿حبطت أعمالهم﴾ خبرُه أي ظهر بُطلانُ أعمالِهم التي كانوا عمِلوها من صلة الأرحامِ وإغاثةِ الملهوفين ونحوِ ذلك، أو حبطت بعد ما كانت مرجُوَّةَ النفع على تقدير إيمانهم بها ﴿هل يجزون﴾ أي لا يُجزون ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ أي الأجزاءَ ما كانوا يعمَلونه من الكفر والمعاصي.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ
أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ۙ
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ
تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ
لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم
بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا
يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ
فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

[فضائح بني إسرائيل]

﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي من بعد ذهابه إلى الطور **﴿من حُلِيِّهم﴾** متعلقٌ

باتخذ كالجارِّ الأول لاختلاف معنييهما فإن الأولَ للابتداء والثاني للتبعيض أو للبيان، أو الثاني متعلقٌ بمحذوف وقع حالًا مما بعده إذ لو تأخر لكان صفةً له وإضافةُ الحُلِيِّ إليهم مع أنها كانت للقِبْط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قُبيل الغرقِ فبقِيَتْ في أيديهم. وأما أنهم ملكوها بعد الغرقِ، فذلك منوطٌ بتملك بني إسرائيلَ غنائمَ القِبطِ وهم مستأمَنون فيما بينهم، فلا يساعده قولُهم: ﴿حُمِّلْنا أوزارًا من زينة القوم﴾ [طه: ٨٧] والحلي بضم الحاء وكسر اللام جمعُ حَلْيٍ كثَدْيٍ وثُدِيّ وقرئ[١] بكسر الحاء بالإتباع كدِلِيّ وقرئ (حَلْيِهم)[٢] على الإفراد وقوله تعالى: ﴿عجلًا﴾ مفعولُ اتخذ أُخِّر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم.

وقيل[٣]: هو متعدٍّ إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثاني محذوفٌ أي إلٰهًا وقوله تعالى: ﴿جسدًا﴾ بدلٌ من عجلًا أي جُثةً ذاتَ دمٍ ولحم أو جسدًا من ذهب لا روحَ معه وقوله تعالى: ﴿له خوار﴾ أي صوتُ بقر، وقرئ[٤] بالجيم والهمزة وهو الصياح نعتٌ لـ (عجلًا).

روي أن السامريَّ لما صاغ العجلَ ألقىٰ في فمه ترابًا من أثر فرسِ جبريلَ عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلْقِ البحر أو عند توجُّهِه إلى الطور، فصار حيًّا.

وقيل: صاغه بنوع من الحيل فيدخُلُ الريحُ في جوفه فيصوِّت، والأنسبُ بما في سورة طه هو الأولُ وإنما نُسبَ اتخاذُه إليهم وهو فعلُه إما لأنه واحدٌ وإما لأنهم رضُوا به فكأنهم فعلوه وإما لأن المرادَ بالاتخاذ اتخاذُهم إياه إلٰهًا لا صنعُه وإحداثُه ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريعهم وتشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم وتسفيهِهم

---

(١) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن، وعبد الله، ويحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٢)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٧٧)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ١١٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٨٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٦).

(٢) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٠) والإعراب للنحاس (١/ ٦٣٨)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٧٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٢٧٩).

(٣) زاد في خ: قال أبو البقاء.

(٤) قرأ بها: علي، وأبو السمال.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٤).

فيما أقدموا عليه من المنكر الذي هو اتخاذُه إلٰهًا.

أي ألم يرَوا أنه ليس فيه شيءٌ من أحكام الألوهية حيث لا يكلمهم ﴿ولا يهديهم سبيلًا﴾ بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه إلٰهًا وقوله تعالى: ﴿اتخذوه﴾ أي فعلوا ذلك ﴿وكانوا ظالمين﴾ أي واضعين للأشياء في غير موضعِها فلم يكن هذا أولَ منكرٍ فعلوه، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ وتكريرٌ اتخذوه لتثنية التشنيعِ وترتيبِ الاعتراض عليه.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندِموا على ما فعلوا غايةَ الندم فإن ذلك كنايةٌ عنه لأن النادمَ المتحسِّرَ يعَضُّ يدَه غمًّا فتصير يدُه مسقوطًا فيها، وقُرئ[١] (سقَطَ) على البناء للفاعل بمعنى وقع العضُّ فيها فاليدُ حقيقةٌ، وقال الزجاج: معناه سقَط الندمُ في أنفسهم إما بطريق الاستعارةِ بالكناية أو بطريق التمثيل[٢] ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذ العجلِ أي تبيّنوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأَوْه بأعينهم، وتقديمُ ذكرِ ندمِهم على هذه الرؤيةِ مع كونه متأخرًا عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعارِ بغاية سُرعتِه كأنه سابقٌ على الرؤية.

﴿قالوا﴾ والله ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾ بإنزال التوبةِ المكفرة ﴿ويغفرْ لنا﴾ ذنوبَنا بالتجاوز عن خطيئتنا، وتقديمُ الرحمةِ على المغفرة مع أن التخليةَ حقُّها أن تقدمَ على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصودُ الأصليّ وإما لأن المرادَ بالرحمة مطلقُ إرادةِ الخير بهم وهو مبدأٌ لإنزال التوبةِ المكفرة لذنوبهم، واللامُ في لئن موطئةٌ للقسم كما أشير إليه وفي قوله تعالى: ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ لجواب القسمِ، وما حُكي عنهم من الندامة والرؤية والقولِ وإن كان بعد ما رجَع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم كما ينطِق به الآياتُ الواردة في سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكايةُ ما صدر عنهم من القول والفعلِ في موضع واحد.

---

(١) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٤).

(٢) وهي كلمة نظمت على إيجاز بديع وكناية واستعارة، فإن اليد تستعار للقوة والنصرة إذ بها يضرب بالسيف والرمح، ولذلك حين يدعون على أنفسهم بالسوء يقولون: شلت من يدي الأنامل، وهي آلة القدرة، قال تعالى: ﴿ذا الأيد﴾ ويقال: ما لي بذلك يد، أوما لي بذلك يدان أي: لا أستطيعه، والمرء إذا حصل له شلل في عضو ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال: سقط في يده ساقط، أي نزل به نازل. وقد استعمل في الآية بمعنى الندم وتبين الخطأ لهم فهو تمثيل لحالهم بحال من سقط في يده حين العمل، قال الزجاج هو نظم لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب.
ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١١٢).

﴿ولما رجع موسى إلى قومه﴾ شروعٌ في بيان ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعِه من الميقات إثرَ بيانِ ما وقع من قومه بعده، وقولُه تعالى: ﴿غضبان أَسِفًا﴾ حالان من موسى عليه السلام أو الثاني من المستكنّ في غضبانَ والآسِفُ الشديدُ الغضبِ وقيل: الحزين ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي بئسما فعلتم من بعد غَيْبتي حيث عبدتم العجلَ بعد ما رأيتم فعلي من توحيد الله تعالى ونفيِ الشركاءِ عنه وإخلاصِ العبادةِ له أو من حملكم على ذلك وكفِّكم عما طمَحَت نحوه أبصارُكم حيث قلتم: اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ ومن حق الخلفاءِ أن يسيروا بسيرة المستخلِفِ فالخطابُ للعبَدَة من السامريِّ وأشياعِه، أو بئسما قمتم مَقامي ولم تراعوا عهدي حيث لم تكفوا العبَدَةَ عما فعلوا، فالخطابُ لـ (هارونَ) ومن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قال يا هارونُ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنِ أفعصَيْتَ أمري﴾ [طه، الآية ٩٢، ٩٣] ويجوز أن يكون الخطابُ للكل على أن المرادَ بالخليفة ما يعم الأمرين المذكورين، وما نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرةٌ لفاعل بئس المستكنِّ فيه والمخصوصُ بالذم محذوفٌ تقديره بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتُكم.

﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ أي تركتموه غيرَ تام على تضمين عجِلَ معنى سبَق، يقال: عجِل عن الأمر إذا تركه غيرَ تام أو أعجِلتم وعدَ ربِّكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدّرتم موتي وغيّرتم بعدي كما غيرت الأممُ بعد أنبيائِهم ﴿وألقى الألواح﴾ طرحها من شدة الغضبِ وفرطِ الضجر حميةً للدين. روي أن التوراةَ كانت سبعةَ أسباعٍ في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستةُ أسباعِها التي كان فيها تفصيلُ كلِّ شيءٍ وبقي سُبعٌ كان فيه المواعظُ والأحكامُ ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ بشعر رأسِه عليهما السلام ﴿يجره إليه﴾ حال من[1] (أخذ)، فعلَه عليه السلام توهمًا أنه قصّر في كفهم، وهارونُ كان أكبرَ منه عليهما السلام بثلاث سنينَ وكان حَمولًا[2] ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل.

﴿قال﴾ أي هارون لموسى عليهما السلام ﴿ابن أم﴾ بحذف حرف النداءِ، وتخصيصُ الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حقّ الأمِّ أعظمُ وأحقُّ بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنةً وقد قاست فيه المخاوفَ والشدائد، وقرئ[3] بكسر الميم بإسقاط

---

(١) زاد في خ: ضمير. (٢) الحمول: الحليم الصبور.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣١)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٣٩)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٥)، والبحر المحيط (٤/ ٣٩٦)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٩).

الياءِ تخفيفًا كالمنادى لمضافٍ إلى الياء وقراءةُ الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسةَ عشرَ ﴿**إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾ إزاحةً لتوهم التقصيرِ في حقه، والمعنى بذلتُ جُهدي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي ﴿**فلا تشمت بي الأعداء**﴾ أي فلا تفعلْ بي ما يكون سببًا لشماتتهم بي ﴿**ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾ أي معدودًا في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير، وهذا يؤيد كونَ الخطابِ للكل، أو لا تعتقد أني واحدٌ من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية اعتذارِ هارونَ عليه السلام كأنه قيل: فماذا قال موسى عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿**رب اغفر لي**﴾ أي ما فعلتُ بأخي من غير ذنبٍ مقرَّرٍ من قِبَله ﴿**ولأخي**﴾ إن فرَطَ منه تقصيرٌ ما في كفهم عما فعلوه من العظيمة، استغفرَ عليه السلام لنفسه ليُرضِيَ أخاه ويُظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتُهم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاجٌ إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلَهم ﴿**وأدخلنا في رحمتك**﴾ بمزيد الإنعامِ بعد غُفران ما سلف منا ﴿**وأنت أرحم الراحمين**﴾ فلا غَرْوَ في انتظامنا في سلك رحمتِك الواسعةِ في الدنيا والآخرة، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله.

﴿**إن الذين اتخذوا العجل**﴾ أي تمّوا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامريِّ وأشياعِه من الذين أُشربوه في قلوبهم كما يُفصح عنه كونُ الموصولِ الثاني عبارةً عن التائبين فإن ذلك صريحٌ في أن الموصولَ الأولَ عبارةٌ عن المصِرّين ﴿**سينالهم**﴾ أي في الآخرة ﴿**غضب**﴾ أي عظيمٌ لا يقادر قدرُه مستتبعٌ لفنون العقوباتِ لما أن جريمتَهم أعظمُ الجرائم وأقبحُ الجرائر.

وقوله تعالى: ﴿**من ربهم**﴾ أي مالكِهم، متعلقٌ بـ (ينالُهم) أو بمحذوف هو نعتٌ لغضب مؤكد لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافية، أي كائنٌ من ربهم ﴿**وذِلّةٌ في الحياة الدنيا**﴾ هي ذلةُ الاغترابِ التي تُضرب بها الأمثالُ والمسكنةُ المنتظمةُ لهم ولأولادهم جميعًا، والذلةُ التي اختص بها السامريُّ من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مِساس[1]. يروى أن بقاياهم اليومَ يقولون ذلك، وإذا مس أحدَهم أحدٌ غيرُهم حُمَّا جميعًا في الوقت، وإيرادُ ما نالهم في حيز السين مع مُضِيِّه بطريق تغليب حالِ الأخلافِ على حال الأسلاف.

وقيل: المرادُ بهم التائبون، وبالغضب ما أُمروا به من قتل أنفسِهم، واعتُذر عن

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة طه، الآية ٩٧: ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي لا أَمَسُّ أُمَسُّ طول الحياة.

السين بأن ذلك حكايةٌ عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومِه واتخاذِهم العجلَ بأنه سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ فيكون سابقًا على الغضب، وأنت خبيرٌ بأن سباقَ النظم الكريم وسياقَه نابيان عن ذلك نُبوًّا ظاهرًا، كيف لا وقوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ ينادي على خلافه فإنهم شهداءُ تائبون فكيف يمكن وصفُهم بعد ذلك بالافتراء؟ وأيضًا ليس يجزي الله تعالى كلَّ المفترين بهذا الجزاءِ الذي ظاهرُه قهرٌ وباطنُه لطفٌ ورحمة.

وقيل: المرادُ بهم أبناؤهم المعاصِرون لرسول الله ﷺ فإن تعييرَ الأبناءِ بأفاعيلِ الآباء مشهورٌ معروفٌ، منه قولُه تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا﴾ [البقرة، الآية ٧٢] وقولُه تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ [البقرة، الآية ٥٥ و٦١] والمرادُ بالغضب الغضبُ الأخرويُّ وبالذلة ما أصابهم من القتل والإجلاءِ وضربِ الجزية عليهم.

وقيل: المرادُ بالموصول المتّخِذون حقيقةً وبالضمير في (ينالُهم) أخلافُهم ولا ريب في أن توسيطَ حالِ هؤلاء في تضاعيف بيانِ حالِ المتخِذين من قبيل الفصل بين الشجرِ ولِحائه.

﴿والذين عملوا السيئات﴾ أيَّ سيئةٍ كانت ﴿ثم تابوا﴾ عن تلك السيئات ﴿من بعدها﴾ أي من بعد عملها ﴿وآمنوا﴾ إيمانًا صحيحًا خالصًا واشتغلوا بإقامة ما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحةِ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا كالطائفة الأولى ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي من بعد تلك التوبةِ المقرونةِ بالإيمان ﴿لغفور﴾ للذنوب وإن عظُمت وكثُرت ﴿رحيم﴾ مبالِغٌ في إفاضة فنونِ الرحمةِ الدنيويةِ والأخروية، والتعرّضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شروعٌ في بيان بقيةِ الحكايةِ إثرَ ما بيّن تحزب القوم إلى مصر وتائب والإشارةِ إلى مآل كلٍّ منهما إجمالًا أي لما سكن عنه الغضبُ باعتذار أخيه وتوبةِ القوم، وهذا صريحٌ في أن ما حُكي عنهم من الندم وما يتفرّع عليه كان بعد مجيءِ موسى عليه الصلاة والسلام، وفي هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغةِ بتنزيل الغضبِ الحاملِ له على ما صدر عنه من الفعل والقولَ منزلةَ الآمرِ بذلك المُغري عليه بالتحكم والتشديد والتعبيرِ عن سكوته بالسكوت ما لا يخفى، وقرئ (سَكَن)(١) و(سكت) و(أسكتَ)(٢) على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو

---

(١) قرأ بها: معاوية بن قرة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٦).

(٢) قرأ بها: حفصة.

التائبون ﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها ﴿وفي نسختها﴾ أي فيما نُسخ فيها وكُتب، فُعلة بمعنى مفعول كالخُطبة وقيل: فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة ﴿هدىً﴾ أي بيانٌ للحق ﴿ورحمةً﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخيرُ والصلاح ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ اللامُ الأولى متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لـ (رحمة) أي كائنةٌ لهم أو هي لامُ الأجَل أي هدى ورحمةٌ لأجلِهم، والثانيةُ لتقوية عمل الفعلِ المؤخّر كما في قوله تعالى: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف، الآية ٤٣] أو هي أيضًا لامُ العلة والمفعولُ محذوفٌ أي يرهبون المعاصيَ لأجل ربهم لا للرياء والسمعة.

﴿واختار موسى قومه﴾ شروعٌ في بيان كيفية استدعاءِ التوبةِ وكيفية وقوعِها، واختار يتعدّى إلى اثنين ثانيهما مجرورٌ بمن أي اختار من قومه بحذف الجارّ [والمجرور][1] وإيصالِ الفعل إلى المجرور كما في قوله: [البسيط]

اختاركَ النـاسَ إذْ رثَّتْ خلائِقُهم واعتلّ مَنْ كان يُرجَى عنده السُّولُ[2]

أي اختارك من الناس ﴿سبعين رجلًا﴾ مفعولٌ[3] لـ (اختار) أُخِّر عن الثاني لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر ﴿لميقاتنا﴾ الذي وقتناه بعد ما وقع من قومه ما وقع لا لميقاتِ الكلام الذي ذكر قبل ذلك كما قيل. قال السدي: أمره الله تعالى بأن يأتيَه في ناس من بني إسرائيلَ يعتذرون إليه من عبادة العجلِ ووعدهم موعدًا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلًا. وقال محمد بن إسحاقَ: اختارهم ليتوبوا إليه تعالى مما صنعوه ويسألوه التوبةَ على مَنْ تركوهم وراءهم من قومهم، قالوا: اختار عليه الصلاة والسلام من كل سِبطٍ ستةً فزاد اثنانِ فقال: ليتخَلَّفْ منكم رجلان فتشاحّوا فقال عليه الصلاة والسلام: إن لمن قعد مثلَ أجرِ من خرج فقعد كالبُ ويوشَعُ[4] وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويُطهِّروا ثيابهم فخرج بهم إلى طور سَيْنا[5] فلما دنَوا من الجبل غشِيَه غمامٌ فدخل موسى بهم الغمامَ وخرّوا سُجّدًا فسمِعوه تعالى يكلم موسى يأمرُه وينهاه حسبما يشاءُ وهو الأمرُ بقتل أنفسِهم توبةً.

= ينظر: البحر المحيط (٤/ ٣٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٦).

(١) سقط في خ.

(٢) البيت للراعي النميري في ديوانه، ص (١٩٤)، ولسان العرب (سول)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٦٧)، وتاج العروس (سول).

(٣) زاد في خ: أول.

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٢٨٨).

(٥) يروى بكسر السين وفتحها.

﴿فلما أخذتهم الرَّجفةُ﴾ مما اجترأوا عليه من طلب الرؤيةِ فإنه يُروىٰ أنه لما انكشف الغمامُ أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتهم الرجفةُ أي الصاعقةُ[١] أو رجفةُ الجبل فصُعِقوا منها أي ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم: لن نؤمنَ لك: لن نصدِّقك في أن الآمِرَ بما سمعنا[٢] الأمر بقتلِ أنفسِهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيتَه تعالى على سماع كلامِه قياسًا فاسدًا.

فحين شاهد موسى تلك الحالةَ الهائلة. ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أي حين فرّطوا في النهي عن عبادة العجلِ وما فارقوا عبَدَتَه حين شاهدوا إصرارَهم عليها ﴿وإياي﴾ أيضًا حين طلبتُ منك الرؤيةَ أي لو شئتَ إهلاكَنا بذنوبنا لأهلكتَنا حينئذ، أراد به عليه السلام تذكيرَ العفوِ السابقِ لاستجلاب العفوِ اللاحقِ فإن الاعترافَ بالذنب والشكرَ على النعمة مما يربِط[٣] العتيدَ ويستجلب المزيد، يعني إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدمُ مشيئتِك إياه فحيث لطَفْتَ بنا وعفوتَ عنا تلك الجرائمَ فلا غروَ في أن تعفوَ عنا هذه الجريمةَ أيضًا، وحملُ الكلام على التمني يأباه قوله تعالى: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ أي الذين لا يعلمون تفاصيلَ شؤونِك ولا يتثبتون[٤] في المداحض، والهمزةُ إما لإنكار وقوعِ الإهلاكِ ثقةً بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الأنباري أو للاستعطاف كما قاله المبردُ أي لا تهلكنا.

﴿إن هي إلا فتنتك﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله واعتذارٌ عما صنعوا ببيان منشأ غلطِهم أي ما الفتنةُ التي وقع فيها السفهاءُ وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة إلا فتنتُك أي محنتُك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامَك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا[٥] فطمِعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد.

وقوله تعالى: ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ إما استئنافٌ مبينٌ لحُكم الفتنةِ أو حالٌ من فتنتك أي حالَ كونِها مضِلاً بها ... إلخ، أي تُضل بسببها من تشاء إضلالَه فلا يهتدي إلى التثبت وتهدي من تشاء هِدايتَه إلى الحق فلا يتزلزل في أمثالها فيقوىٰ بها إيمانُه ﴿أنت ولينا﴾ أي القائمُ بأمورنا الدنيويةِ والأخرويةِ وناصرُنا وحافظُنا لا غيرُك[٦] ﴿فاغفر لنا﴾ ما قارفناه من المعاصي والفاءُ لترتيب الدعاءِ على ما قبله من الولاية كأنه قيل: فمن شأن الوليِّ المغفرةُ والرحمةُ، وقيل: إن إقدامَه عليه الصلاة

---

(١) في خ: الصائقة.
(٢) زاد في خ: من.
(٣) في خ: يرتبط.
(٤) في خ: يثبتون.
(٥) في خ: يثبتوا.
(٦) في خ: غير.

والسلام على أن يقول: إن هي إلا فتنتُك . . . إلخ، جراءةٌ عظيمةٌ فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوزَ عنها ﴿**وارحمنا**﴾ بإفاضةِ آثارِ الرحمةِ الدنيويةِ والأخروية علينا ﴿**وأنت خير الغافرين**﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله من الدعاء، وتخصيصُ المغفرةِ بالذكر لأنها الأهمُّ بحسب المقام.

﴿**واكتب لنا**﴾ أي عيِّنْ لنا وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبتْ ﴿**في هذه الدنيا حَسَنَةً**﴾ أي نعمةً وعافيةً أو خَصلة حسنةً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اقبَلْ وِفادتَنا ورُدَّنا بالمغفرة والرحمة ﴿**وفي الآخرة**﴾ أي واكتبْ لنا فيها أيضًا حسنةً وهي المثوبةُ الحسنى والجنة ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ أي تُبْنا وأنبْنا إليك، من هاد يهودُ إذا رجَع وقرئ[1] بكسر الهاء من هاده يهيدُه إذا حرَّكه وأماله ويحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل أو للمفعول بمعنى أمَلْنا أنفسَنا أو أمِلْنا إليك، وتجويزُ أن تكون القراءةُ المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول: عودَ المريضُ مع كونها لغةً ضعيفةً مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل، والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل الدعاءِ فإن التوبةَ مما يوجب قَبولَه بموجَب الوعدِ المحتوم، وتصديرُها بحرف التحقيقِ لإظهار كمالِ النشاطِ والرغبةِ في التوبة، والمعنى إنا تُبنا ورجَعْنا عما صنعنا من المعصية العظيمةِ التي جئناك للاعتذار عنها وعما وقع هاهنا من طلب الرؤية، فبعيدٌ من لطفك وفضلك ألا تقبل توبة التائبين. قيل: لما أخذتْهم الرجفةُ ماتوا جميعًا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله تعالى حتى أحياهم، وقيل: رجَفوا وكادت تَبينُ مفاصلُهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلامُ كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى عند دعاءِ موسى عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿**عذابي أصيب به من أشاء**﴾ لعله عز وجل حين جعل توبةَ عبدةِ العجلِ بقتلهم أنفسَهم ضمّن موسى عليه السلام دعاءَه التخفيفَ والتيسير حيث قال: واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي خَصلةً حسنةً عاريةً عن المشقة والشدة فإن في قتل أنفسهم من العذاب والتشديد ما لا يخفى، فأجاب تعالى بأن عذابي شأنُه أن أُصيبَ به من أشاء تعذيبَه من غير دخل لغيري فيه وهم ممن تناولَتْه مشيئتي، ولذلك جُعلت توبتُهم مشوبةً بالعذاب الدنيوي.

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي، وأبو وجزة السعدي.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٠).

﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ أي شأنُها أن تسَعَ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ بل كلَّ ما يدخل تحت الشيئية[١] من المكلفين وغيرِهم وقد نال قومَك نصيبٌ منها في ضمن العذاب الدنيوي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبةِ السعةِ إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمةَ مقتضى الذاتِ وأما العذابُ فبمقتضى معاصي العباد، والمشيئةُ معتبرةٌ في جانب الرحمةِ أيضًا وعدمُ التصريحِ بها للإشعار بغاية الظهور، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿**فسأكتبها**﴾ أي أُثبتها وأعيِّنُها فإنه متفرعٌ على اعتبار المشيئةِ كأنه قيل: فإذا كان الأمرُ كذلك أي كما ذكر من إصابة عذابي وسَعةِ رحمتي لكل من أشاء فسأكتبُها كَتْبةً كائنة كما دعوتَ بقولك: واكتب لنا في هذه إلخ، أي سأكتبها خالصةً غيرَ مشوبةٍ بالعذاب الدنيوي ﴿**للذين يتقون**﴾ أي الكفر والمعاصي إما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين فيكفيهم ما قدر لهم من الرحمة وإن كانت مقارنة للعذاب الدنيوي ﴿**ويؤتون الزكوة**﴾ وفيه أيضا تعريضٌ بهم حيث كانت الزكاةُ شاقةً عليهم، ولعل الصلاةَ إنما لم تذكَرْ مع إنافتها على سائر العبادات اكتفاءً عنها بالاتقاء الذي هو عبارةٌ عن فعل الواجبات بأسرها وتركِ المنكرات عن آخرها، وإيرادُ إيتاءِ الزكاة لما مر من التعريض ﴿**والذين هم بآياتنا**﴾ جميعًا ﴿**يؤمنون**﴾ إيمانًا مستمرًا من غير إخلالٍ بشيء منها، وفيه تعريضٌ بهم وبكفرهم بالآيات العظامِ التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البيناتِ كتظليل الغمامِ وإنزالِ المنِّ والسلوى وغيرِ ذلك.

وتكريرُ الموصول مع أن المرادَ به عينُ ما أريد بالموصول الأولِ دون أن يقال: ويؤمنون بآياتنا عطفًا على يؤتون الزكاة كما عُطف هو على يتقون لما أشير إليه من القَصْر بتقديم الجار والمجرور أي هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض.

﴿**الذين يتبعون الرسول**﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًا به ﴿**النبي**﴾ أي صاحبَ المعجزة، وقيل: عنوانُ الرسالةِ بالنسبة إليه تعالى وعنوانُ النبوة بالنسبة إلى الأمة ﴿**الأمي**﴾ بضم الهمزة نسبةً إلى الأم، كأنه باقٍ على حالته التي وُلد عليها من أمّه، أو إلى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمةٌ لا نحسُب ولا نكتب»[٢] أو

---

(١) في خ: المشيئة.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٦٢٣) كتاب الصوم، باب: قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب»، برقم (١٩١٣)، ومسلم (٢/ ٧٦١) كتاب الصيام، باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، برقم (١٥/ ١٠٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

إلى أم القرى، وقرئ بفتح الهمزة[(١)] أي الذي لم يمارس القراءةَ والكتابة وقد جمع مع ذلك علومَ الأولين والآخِرين، والموصولُ بدلٌ من الموصول الأولِ بدلَ الكلِّ أو منصوبٌ على المدح أو مرفوع عليه أي أعني الذين، أو هم الذين، وأما جعلُه مبتدأً على أن خبرَه (يأمرُهم) أو (أولئك هم المفلحون) فغيرُ سديد.

﴿**الذي يجدونه مكتوبًا**﴾ باسمه ونعوتِه بحيث لا يشكّون أنه هو؛ ولذلك عدل عن أن يقال: يجدون اسمَه[(٢)] أو وصفه مكتوبًا ﴿**عندهم**﴾ زيد هذا لزيادة التقريرِ وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضرٌ عندهم لا يَغيب عنهم أصلًا ﴿**في التوراة والإنجيل**﴾ اللذيْن تعبِّد بهما بنو إسرائيلَ سابقًا ولاحقًا والظرفان متعلقان بـ (يجدونه) أو بـ(مكتوبًا) وذكرُ الإنجيلِ قبل نزولِه من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي عليه الصلاة والسلام والقرآنِ الكريم قبل مجيئِهما ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**﴾ كلامٌ مستأنفٌ لا محل له من الإعراب قاله الزجاج متضمنٌ لتفصيل بعض أحكامِ الرحمةِ التي وعد فيما سبق بكتبها إجمالًا، فإن ما بُيّن فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلالِ الطيبات وتحريم الخبائث وإسقاطِ التكاليف الشاقةِ كلُّها من آثار رحمتِه[(٣)] الواسعة، وقيل: في محل النصبِ على أنه حال مقدرةٌ من مفعول (يجدونه) أو من (النبي) أو من المستكن في (مكتوبًا)، أو مفسِّرٌ لمكتوبًا أي لما كُتب ﴿**ويُحل لهم الطيبات**﴾ التي حُرِّمت عليهم بشؤم ظلمِهم ﴿**ويحرم عليهم الخبائث**﴾ كالدم ولحمِ الخِنزيرِ والربا والرشوة ﴿**ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ أي يخفف عنهم ما كُلّفوه من التكاليف الشاقةِ التي هي من قَبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبةِ بقتل النفسِ وتعيين القصاصِ في العمد والخطأ من غير شرعِ الدية، وقطع الأعضاءِ الخاطئةِ وقرضِ موضعِ النجاسة من الجلد والثوب وإحراقِ الغنائم وتحريم السبت. وعن عطاء أنه كانت بنو إسرائيلَ إذا قاموا يصلون لبِسوا المُسوحَ وغلّوا أيديَهم إلى أعناقهم، وربما ثقَبَ الرجلُ تَرْقُوتَه وجعل فيها طرف السلسلةِ وأثقلها إلى السارية يحبِس نفسه على العبادة، وقرئ[(٤)] (آصارَهم)، أصلُ الإصرِ الثقلُ الذي

---

(١) قرأ بها: يعقوب، وابن رومي.
ينظر:الإملاء للعكبري (١/ ١٦٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٠).

(٢) في خ: اسمها. (٣) في خ: الرحمة.

(٤) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣١)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٤)، والتبيان للطوسي (٤/ ٥٩٣)، والتيسير للداني ص (١١٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠١).

يأسِرُ[١] صاحبه من الحَراك.

﴿فالذين آمنوا به﴾ تعليمٌ لكيفية اتّباعِه عليه الصلاة والسلام وبيانٌ لعلو رتبةِ متّبعيه واغتنامِهم مغانمَ الرحمةِ الواسعةِ في الدارين إثرَ بيانِ نعوتِه الجليلة والإشارةِ إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إياهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلالِ الطيبات وتحريم الخبائث، أي فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه في أوامره ونواهيه **﴿وعزّروه﴾** أي عظّموه ووقّروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرئ (بالتخفيف) وأصلُه المنعُ ومنه التعزير **﴿ونصروه﴾** على أعدائه في الدين **﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾** أي مع نبوته وهو القرآنُ، عبّر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرًا بنفسه ومُظهِرًا لغيره أو مظهِرًا للحقائق كاشفًا عنها لمناسبة الاتّباعِ، ويجوزُ أن يكون معه متعلقًا بـ (اتّبعوا) أي واتّبعوا القرآنَ المنزلَ مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمَر به ونهىٰ عنه أو اتبعوا القرآنَ مصاحبين له في اتباعه.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من حيث اتصافُهم بما فُصّل من الصفات الفاضلةِ للإشعار بعلّيتها للحُكم، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذان بعلو درجتِهم وسُموِّ طبقتِهم في الفضل والشرفِ أو أولئك المنعوتون بتلك النعوتِ الجليلة **﴿هم المفلحون﴾** أي هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرُهم من الأمم فيدخُل فيهم قومُ موسى عليه الصلاة والسلام دخولًا أوليًا حيث لم ينجُوا عما في توبتهم من المشقة الهائلةِ وبه يتحقق التحقيقُ ويتأتّى التوفيقُ والتطبيقُ بين دعائِه عليه الصلاة والسلام وبين الجوابِ لا بمجرد ما قيل من أنه لما دعا لنفسه ولبني إسرائيلَ أجيب بما هو منطوٍ على توبيخ بني إسرائيلَ على استجازتهم الرؤيةَ على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظامِ التي أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرّض بذلك في قوله تعالى: **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** [الأعراف: ١٥٦] وأريد أن يكون استماعُ أوصافِ أعقابِهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به كعبد اللّٰه بن سلام وغيرِه من أهل الكتابين لطفًا بهم وترغيبًا في إخلاص الإيمانِ والعمل الصالح.

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم﴾ لما حُكي ما في الكتابين من نعوت رسولِ الله ﷺ وشرف مَنْ يتّبعه من أهلهما ونيلِهم لسعادة الدارين أُمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلكَ السعادةَ غيرُ مختصةٍ بهم بل شاملةٌ لكل من يتبعه كائنًا مَنْ كان ببيان عمومِ رسالتِه للثقلين مع اختصاص رسالةِ سائرِ الرسلِ عليهم السلام بأقوامهم

---

(١) في خ: يأصر.

وإرسالِ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئِه بالآيات التسعِ إنما كان لأمرهم بعبادة ربِّ العالمين عز سلطانُه وتركِ العظيمةِ التي كان يدّعيها الطاغيةُ ويقبلها منه فئتُه الباغيةُ وبإرسال بني إسرائيلَ من الأسر والقسرِ، وأما العملُ بأحكام التوراةِ فمختصٌّ ببني إسرائيل **﴿جميعًا﴾** حالٌ من الضمير في إليكم **﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾** منصوبٌ أو مرفوعٌ على المدح أو مجرورٌ على أنه صفةٌ للجلالة وإن حيل بينهما بما هو[1] متعلقٌ بما أضيف إليه[2] فإنه في حكم المتقدّمِ عليه.

وقوله تعالى: **﴿لا إلٰه إلا هو﴾** بيانٌ لما قبله فإن مَنْ ملَك العالمَ كان هو الإلٰهَ لا غيرُه وقوله تعالى: **﴿يحيي ويميت﴾** لزيادة[3] ألوهيتِه والفاءُ في قوله تعالى: **﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾** لتفريع الأمرِ على ما تمهّد وتقرّر من رسالته عليه الصلاة والسلام، وإيرادُ نفسِه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ على طريقة الالتفاتِ إلى الغَيْبة للمبالغة في إيجاب الامتثالِ بأمره، ووصفُ الرسول بقوله: **﴿النبي الأمي﴾** لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقريرِ أمرِه وتحقيقِ أنه المكتوبُ في الكتابين، ووصفُه بقوله تعالى: **﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾** أي ما أنزل إليه وإلى سائر الرسلِ عليهم السلام من كُتُبه ووحيِه لحمل أهلِ الكتابين على الامتثال بما أُمروا به.

والتصريحُ بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الإيمانَ به تعالى لا ينفك عن الإيمان بكلماته ولا يتحقق إلا به، وقرئ وكلمتِه على إرادة الجنسِ أو القرآنِ تنبيهًا على أن المأمورَ به هو الإيمانُ به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآنُ لا من حيثيةٍ أخرى، أو على أن المرادَ بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضًا باليهود وتنبيهًا على أن من لم يؤمن به لم يُعتدَّ بإيمانه **﴿واتبعوه﴾** أي في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين **﴿لعلكم تهتدون﴾** علةٌ للفعلين أو حالٌ من فاعليها[4] أي رجاءً لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له، وفي تعليقه بهما إيذانٌ بأن من صدّقه ولم يتبعْه بالتزام أحكام شريعتِه فهو بمعزل من الاهتداء مستمرٌّ على الغي والضلالة.

﴿ومن قوم موسى﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لدفع ما عسى يُوهِمه تخصيصُ كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بالآيات بمتّبعي رسولِ الله ﷺ من حِرمانِ أسلافِ قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيانِ أن كلَّهم ليسوا كما حُكيت أحوالُهم بل منهم **﴿أمة يهدون﴾** أي الناسَ **﴿بالحق﴾** أي ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق **﴿وبه﴾** أي بالحق

---

(١) زاد في خ: رسول.
(٢) زاد في خ: أي إلى الاسم الجليل.
(٣) زاد في خ: تقرير.
(٤) في خ: فاعلهما.

﴿يعدلون﴾ أي في الأحكام الجاريةِ فيما بينهم، وصيغةُ المضارعِ في الفعلين لحكاية الحالِ الماضيةِ.

وقيل: هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ ويأباه أنه قد مر ذكرُهم فيما سلف، وقيل: إن بني إسرائيلَ لما بالغوا في العتُوّ والطغيان حتى اجترأوا على قتل الأنبياءِ عليهم السلام تبرّأ سِبطٌ منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه سنةً ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين، وهم اليوم هنالك حنفاءُ مسلمون يستقبلون قِبلتَنا وقد ذكر عن النبي ﷺ أن جبريلَ عليه السلام ذهب به ليلة الإسراءِ نحوَهم فكلمهم فقال جبريلُ عليه السلام: هل تعرِفونَ من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد النبي الأمي، فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا مَنْ أدرك منكم أحمدَ فليقرأ[1] مني عليه السلام فرد محمدٌ على موسى السلام عليهما السلامَ ثم أقرأهم عشرَ سورٍ من القرآن نزلت بمكةَ ولم تكن[2] نزلت يومئذ فريضةٌ غير الصلاة والزكاة و[3] أمرهم أن يُقيموا مكانهم وكانوا يسْبِتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا[4] السبْتَ هذا.

وأنت خبيرٌ بأن تخصيصَهم بالهداية من بين قومِه عليه السلام مع أن منهم مَنْ آمن بجميع الشرائعِ لا يخلو عن بعد.

[من سلوك بني إسرائيل]

﴿وقطعناهم﴾ أي قومَ موسى لا الأمةَ المذكورةَ منهم، وقرئ[5] بالتخفيف وقوله تعالى: ﴿اثنتي عشرة﴾ ثاني مفعولي (قطع) لتضمّنه معنى التصيير، والتأنيثُ للحمل على الأمة أو القِطعة، أي صيرناهم اثنتي عشْرةَ أمةً أو قطعةً متميزًا بعضُها من بعض، أو حالٌ من مفعوله أي فرقناهم معدودين هذا العددَ، وقوله تعالى: ﴿أسباطًا﴾ بدلٌ منه ولذلك جُمع، أو مميزٌ له على أن [كل][6] واحدة من اثنتي عشرةَ قطعةً أسباطٌ لا سبطٌ وقرئ (عشِرة) بكسر الشين وقوله تعالى: ﴿أممًا﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعتٌ لـ (أسباطًا) وعلى الثاني بدل من أسباطًا ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ حين استولى عليهم العطشُ في التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعِهم لا بمجرد

---

(١) في خ: فليقرئه.
(٢) في خ: يكن.
(٣) سقط في ط.
(٤) في خ: يترك.
(٥) قرأ بها: عاصم، وأبان بن تغلب. ينظر: البحر المحيط (٤/٤٠٦).
(٦) سقط في خ.

استسقائِهم إياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى: **﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾** [البقرة، الآية ٦٠].

وقولُه تعالى: **﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾** مفسرٌ لفعل الإيحاءِ وقد مر بيانُ شأنِ الحَجَر في تفسير سورة البقرة **﴿فانبجست﴾** عطفٌ على مقدر ينسحب عليه الكلامُ قد حذف تعويلًا على كمال الظهورِ وإيذانًا بغاية مسارعتِه عليه السلام إلى الامتثال وإشعارًا بعدم تأثير الضربِ حقيقةً وتنبيهًا على كمال سرعةِ الانبجاسِ وهو الانفجارُ كأنه حصل إثرَ الأمر قبل تحقق الضربِ كما في قوله تعالى: **﴿اضرب بعصاك البحرَ فانفلق﴾** [الشعراء، الآية ٦٣] أي فضرب فانبجست **﴿منه اثنتا عشرة عينًا﴾** بعدد الأسباطِ وأما ما قيل من أن التقديرَ فإن ضربت فقد انبجست فغيرُ حقيقٍ بجزالة النظمِ التنزيلي، وقرئ (عشِرة) بكسر الشين وفتحها[1].

﴿قد علم كل أناس﴾ كلُّ سبطٍ، عبّر عنهم بذلك إيذانًا بكثرة كل واحدٍ من الأسباط **﴿مشربهم﴾** أي عينَهم الخاصةَ بهم **﴿وظللنا عليهم الغمام﴾** أي جعلناها بحيث تُلقي عليهم ظلَّها تسير في التيه بسيرهم وتسكُن بإقامتهم وكان ينزل بالليل عمودٌ من نار يسيرون بضوئه.

﴿وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾ أي الترنجين والسُّمانىٰ. قيل: كان ينزل عليهم المنُّ مثلَ الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسانٍ صاعٌ وتبعث الجَنوبُ عليهم السُّمانى فيذبح الرجل منهم ما يكفيه **﴿كلوا﴾** أي وقلنا لهم: كلوا **﴿من طيبات ما رزقناكم﴾** أي مستلذاته، وما موصولةً كانت أو موصوفةً عبارةٌ عن المن والسلوى **﴿وما ظلمونا﴾** رجوعٌ إلى سنن الكلام الأولِ بعد حكايةِ خطابِهم، وهو معطوفٌ على جملة محذوفةٍ للإيجاز والإشعارِ بأنه أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح [به][2] أي فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلةِ وما ظلمونا بذلك **﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** إذ لا يتخطاهم ضررُه، وتقديمُ المفعولِ لإفادة القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السابقُ وفيه ضربٌ من التهكم بهم، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدِلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر.

﴿وإذ قيل لهم﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام وإيرادُ الفعلِ على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى، كما يفصِحُ عنه ما وقع في سورة

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦١).

(٢) سقط في خ.

البقرة من قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا﴾ [البقرة، الآية ٣٤ و٥٨] للجري على سنن الكبرياء والإيذان بالغِنى عن التصريح به لتعين الفاعلِ، وتغييرُ النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ أي اذكر لهم وقت قولِه تعالى لأسلافهم: ﴿اسكنواْ هذه القرية﴾ منصوب على المفعولية، يقال: سكنت الدارَ وقيل: على الظرفية اتساعًا، وهي بيتُ المقدس وقيل: أريحا وهي قريةُ الجبارين وكان فيها قومٌ من بقية عادٍ يقال لهم: العمالقةُ [على][١] رأسهم عوجُ بنُ عنقٍ وفي قوله تعالى: ﴿اسكنوا﴾ إيذانٌ بأن المأمورَ به في سورة البقرة هو الدخولُ على وجه السُّكنى والإقامة، ولذلك اكتُفي به عن ذكر رغدًا[٢] في قوله تعالى: ﴿وكلوا منها﴾ أي من مطاعمها وثمارِها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية.

﴿حيث شئتم﴾ أي من نواحيها من غير أن يزاحمَكم فيها أحدٌ فإن الأكلَ المستمرَّ على هذا الوجه لا يكون إلا رغدًا واسعًا، وعطفُ كلوا على اسكُنوا بالواو لمقارنتهما زمانًا بخلاف الدخولِ فإنه مقدمٌ على الأكل ولذلك قيل هناك: فكلوا ﴿وقولوا حطة﴾ أي مسألتُنا أو أمرُك حِطةٌ لذنوبنا وهي فِعلة من الحَطّ كالجِلسة ﴿وادخلوا الباب﴾ أي بابَ القرية ﴿سجدًا﴾ أي متطامنين مُخبتين[٣] أو ساجدين شكرًا على إخراجهم من التيه، وتقديمُ الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة غيرُ مُخلٍّ بهذا الترتيب لأن المأمورَ به هو الجمعُ بين الفعلين من غير اعتبارِ الترتيبِ بينهما ثم إن كان المرادُ بالقرية أريحاءَ فقد روي أنهم دخلوها حيث سار إليها موسى عليه السلام بمن بقي من بني إسرائيلَ أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر في سورة المائدة، وأما إن كان بيتَ المقدس فقد رُوي أنهم لم يدخُلوه في حياة موسى عليه السلام فقيل: المرادُ بالباب بابُ القُبة التي كانوا يصلّون إليها.

﴿نغفر لكم خطيآتكم﴾ وقرئ[٤] (خطاياكم) كما في سورة البقرة، و(تُغفَرْ لكم

---

(١) سقط في خ.

(٢) وهو ما ورد في الآية ٥٨ من سورة البقرة: ﴿وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾.

(٣) خبت: خشع وتواضع. وتطامن: سكن وانخفض.

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، واليزيدي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٠)، والتيسير للداني ص (١١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٢٩٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٥).

خطيئاتُكم)[١] و(خطاياكم) و(خطيئتُكم)[٢] على البناء للمفعول ﴿سنزيد المحسنين﴾ عِدةٌ بشيئين بالمغفرة وبالزيادة، وطرح الواو ههنا لا يُخِل بذلك لأنه استئنافٌ مترتبٌ على تقدير سؤال نشأ من الإخبار بالغفران كأنه قيل: فماذا لهم بعد الغفرانِ؟ فقيل: سنزيد وكذلك زيادةٌ منهم زيادةَ بيان.

﴿فبدل الذين ظلموا منهم﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفارِ حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعَه ﴿قولًا﴾ آخرَ مما لا خيرَ فيه. روي أنهم دخلوه زاحفين على استاههم وقالوا مكانَ حطةٌ: حنطةٌ وقيل: قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطةً حمراءَ استخفافًا بأمر الله تعالى واستهزاءً بموسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿غير الذي قيل لهم﴾ نعتٌ لقولًا، صرّح بالمغايرة مع دِلالة التبديلِ عليها قطعًا تحقيقًا للمخالفة وتنصيصًا على المغايرة من كل وجه ﴿فأرسلنا عليهم﴾ إثرَ ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير، وفي سورة البقرة ﴿على الذين ظلموا﴾ [البقرة، الآية ٥٩] والمعنى واحدٌ والإرسالُ من فوق فيكون كالإنزال ﴿رجزًا من السماء﴾ عذابًا كائنًا منها والمراد الطاعون.

روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفًا.

﴿بما كانوا يظلمون﴾ بسبب ظلمِهم المستمرِّ السابق واللاحقِ حسبما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ لا بسبب التبديلِ فقط كما يُشعر به ترتيبُ الإرسالِ عليه بالفاء، والتصريحُ بهذا التعليل لما أن الحُكم هاهنا مترتبٌ على المضمر دون الموصولِ بالظلم كما في سورة البقرة، وأما التعليلُ بالفسق بعد الإشعارِ بعلّية الظلمِ فقد مر وجهُه هناك والله تعالى أعلم.

﴿واسألهم﴾ عطف على المقدر في إذ قيل أي واسأل اليهودَ المعاصرين لك سؤالَ تقريعٍ وتقرير كفرَهم وتجاوزَهم لحدود الله تعالى وإعلامًا لهم بأن ذلك مع كونه من علومِهم الخفيةِ التي لا يقف عليها إلا من مارس كتبَهم قد أحاط به النبيُّ عليه الصلاة والسلام خُبْرًا، وإذ ليس ذلك بالتلقي من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، ومحبوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣١)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ١١)، والتيسير للداني ص (١١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٥).

(٢) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣١)، والبحر المحيط (٤/ ٤٠٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٠،١١)، والتيسير للداني ص (١١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

ذلك تعين أنه من جهة الوحي الصريح ﴿عن القرية﴾ أي عن حالها وخبرِها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياءِ وهي أَيْلَةُ، قريةٌ بين مدْيَنَ والطور، وقيل: هي مدينُ وقيل: طبرية، والعرب تسمي المدينةَ قرية ﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي قريبةً منه مشرفةً على شاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يتجاوزون حدودَ الله تعالى بالصيد يوم السبت، و(إذ) ظرفٌ للمضاف المحذوفِ أو بدلٌ منه، وقيل: ظرفٌ لـ (كانت) أو (حاضرة)، وليس بذاك إذ لا فائدةَ في تقييد الكونِ أو الحضور بوقت العُدوان، وقرئ[1] (يعدّون) وأصله يعتدون و(يُعِدّون)[2] من الإعداد حيث كانوا يُعِدّون آلاتِ الصيدِ يوم السبت وهم منهيّون عن الاشتغال فيه بغير العبادة.

﴿إذ تأتيهم حيتانُهم﴾ ظرفٌ لـ (يَعْدون) أو بدلٌ بعد بدلٍ والأولُ هو الأولى لأن السؤالَ عن عُدوانهم أدخلُ في التقريع، والحيتانُ جمعُ حوتٍ قُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلها كنونٍ ونينانٍ لفظًا ومعنى، وإضافتُها إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفرادِ الجنس من الخواصّ الخارقةِ للعادة، أو لأن المرادَ بها الحيتانُ الكائنةُ في تلك الناحيةِ وأن ما ذكر من الإتيان وعدمِه لاعتيادها أحوالَهم في عدم التعرّض يوم السبت ﴿يوم سبتهم﴾ ظرفٌ لتأتيهم أي تأتيهم يومَ تعظيمِهم لأمر السبت وهو مصدرُ سَبَتت اليهودُ إذا عظّمت السبْت بالتجرد للعبادة، وقيل: اسمٌ لليوم، والإضافةُ لاختصاصهم بأحكام فيه ويؤيد الأولَ قراءةُ[3] من قرأ يوم أسباتِهم وقوله تعالى: ﴿شرّعًا﴾ جمعُ شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف، وهو حالٌ من حيتانِهم أي تأتيهم يوم سبْتِهم ظاهرةً على وجه الماء قريبةً من الساحل ﴿ويوم لا يسبِتون﴾ أي لا يراعون أمرَ السبتِ لكن لا بمجرد عدم المراعاةِ مع تحقق يوم السبتِ كما هو المتبادرُ بل مع انتفائهما معًا أي لا سبت ولاَ مراعاة كما في قوله: [السريع]

.... ولا ترى الضبَّ بها ينجحِرْ[4]

(١) قرأ بها: شهر بن حوشب، وأبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (١/ ١٦٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٩١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٤).

(٢) قرأ بها: أبو نهيك.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤١٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٩٩).

(٣) قرأ بها: عمر بن عبد العزيز.
بحر (٤/ ٤١١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٠).

(٤) عجز بيت وصدره:

=

وقرئ[1] (لا يُسبتون) من أسبت (ولا يُسبَتون)[2] على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت ولا يُدار عليهم حكمُ السبتِ ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ﴿**لا تأتيهم**﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذار من صيدهم، وتغييرُ السبك حيث لم يقل: ولا تأتيهم يوم لا يسبتون لما أن الإخبارَ بإتيانها يوم سبْتهم مظِنةُ أن يقال: فماذا حالُها يوم لا يسبتون؟ فقيل: يوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴿**كذلك نبلوهم**﴾ أي مثلَ ذلك البلاءِ العجيب الفظيعِ نعاملهم معاملةَ من يختبرهم ليُظهِرَ عداوتَهم ونؤاخذهم به، وصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتها والتعجيبِ منها ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾ أي بسبب فسقِهم المستمرِّ المدلولِ عليه بالجمع بين صيغتي الماضي والمستقبلِ لكن لا في تلك المادةِ فإن فسقَهم فيها لا يكون سببًا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون وما يذرون، وقيل: (كذلك) متصلٌ بما قبله أي لا تأتيهم مثلَ ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملةُ بعده حينئذ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال عن حكمة اختلافِ حال الحيتانِ بالإتيان تارة وعدمِه أخرى.

﴿**وإذ قالت**﴾ عطفٌ على إذ يعدون مَسوقٌ لتماديهم في العدوان وعدمِ انزجارِهم عند بعد العظاتِ والإنذارات ﴿**أمة منهم**﴾ أي جماعةٌ من صلحائهم الذين ركبوا في عِظتهم متن كلِّ صعبٍ وذَلول حتى يئسوا من احتمال القبولِ لآخرين لا يُقلِعون عن التذكير رجاءً للنفع والتأثير مبالغةً في الإعذار وطمعًا في فائدة الإنذار ﴿**لمَ تعظون قومًا الله مهلكهم**﴾ أي مخترِمُهم[3] بالكلية ومطهرٌ الأرض منهم ﴿**أو معذبهم عذابًا شديدًا**﴾ دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم في الدنيا أو معذبُهم في الآخرة لعدم إقلاعِهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيانِ، والترديد لمنع الخلوِّ دون منع الجمعِ فإنهم مهلَكون في الدنيا ومعذَّبون في الآخرة، وإيثارُ صيغةِ اسمِ الفاعل، مع

= لا تُـفـزِعُ الأرنـبَ أهـوالُـهـا ....

وهو لابن أحمر في ديوانه ص (٦٧)، وأمالي المرتضى (١/ ٢٢٩)، وخزانة الأدب (١٠/ ١٩٢)، وبلا نسبة في الخصائص (٣/ ١٦٥).

(١) قرأ بها: عاصم، والحسن، وعلي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤١١)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٨٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٤٩١).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٠).

(٣) اخترمته المنيَّة: أخذته.

أن كلاً من الإهلاك والتعذيب مترقَّبٌ، للدِلالة على تحققهما وتقرُّرِهما ألبتةَ، كأنهما واقعان وإنما قالوه مبالغةً في أن الوعظَ لا ينجع فيهم أو ترهيبًا للقوم أو سؤالًا عن حكمة الوعظِ ونفعِه، ولعلهم إنما قالوه بمحضر من القوم حثًا لهم على الاتعاظ، فإن بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم مما يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشيةَ، وقيل: المرادُ طائفةٌ من الفِرقة الهالكةِ أجابوا به وُعّاظَهم ردًا عليهم وتهكمًا بهم وليس بذاك كما ستقف عليه.

﴿**قالوا**﴾ أي الوعاظُ ﴿**معذرة إلى ربكم**﴾ أي نعظُهم معذرةً إليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولِهم لمَ تعِظون، أو نعتذر معذرةً على أنه مصدرٌ لفعل محذوفٍ، وقرئ[1] بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، أي موعظتُنا معذرةٌ إليه تعالى حتى لا نُنسَبَ إلى نوع تفريطٍ في النهي عن المنكر، وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطَبين نوعُ تعريضٍ بالسائلين ﴿**ولعلهم يتقون**﴾ عطفٌ على (معذرةً) أي ورجاءً لأن يتقوا[2] بعضَ التقاة، وهذا صريحٌ في أن القائلين: (لمَ تعظون) . . . إلخ، ليسوا من الفِرقة الهالكةِ وإلا لوجب الخطاب.

﴿**فلما نسوا ما ذكروا به**﴾ أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضًا كليًّا بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلًا ﴿**أنجينا الذين ينهون عن السوء**﴾ وهم الفريقان المذكورانِ، وإخراجُ إنجائِهم مُخرجَ الجوابِ الذي حقُّه الترتبُ على الشرط وهو نِسيانُ المعتدين المستتبعُ لإهلاكهم لما أن ما في حيز الشرط شيآنِ: النسيانُ والتذكيرُ كأنه قيل: فلما تَذَكّرَ المذكورون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخَرين، وأما تصديرُ الجواب بإنجائهم فلما مر مرارًا من المسارعة إلى بيان نجاتِهم من أول الأمرِ مع ما في المؤخر من نوع طُول ﴿**وأخذنا الذين ظلموا**﴾ بالاعتداء ومخالفةِ الأمر ﴿**بعذاب بئيس**﴾ أي شديدٍ وزنًا ومعنى، من بَؤُس يبؤُس بأسًا إذا اشتد، وقرئ[3] (بَيْئِس) على وزن فيعل بفتح العين

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم بن أبي النجود، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٤٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٥)، والتيسير للداني ص (١١٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠٧).

(٢) في خ: يتقول.

(٣) قرأ بها: عاصم، وأبو بكر، وعيسى بن عمر، والأعمش، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٤٧)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٢، ٤١٣).

وكسرِها، وبِئْس[١] على تخفيف العين ونقلِ حركتِها إلى الفاء ككَبِد في كبد وبِيسٍ[٢] بقلب الهمزة ياءً كذيب في ذئب و(بيّس)[٣] كريّس بقلب همزةِ بئيس ياءً وإدغام الياء فيها و(بَيْسٍ)[٤] على تخفيف بيّس كهَيْن في هيّن، وتنكيرُ العذاب للتفخيم والتهويل.

﴿بما كانوا يفسقون﴾ متعلقٌ بأخذنا كالباء الأولى ولا ضيرَ فيه لاختلافهما معنى أي أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم في الفسق الذي هو الخروجُ عن الطاعة وهو الظلمُ والعدوانُ أيضًا، وإجراءُ الحكم على الموصول، وإن أشعرَ بعلّية ما في حيز الصلة له، لكنه صرّح بالتعليل المذكورِ إيذانًا بأن العلةَ هو الاستمرارُ على الظلم والعدوان مع اعتبار كونِ ذلك خروجًا عن طاعة الله عز وجل لا نفسُ الظلم والعدوان، وإلا لما أخّروا عن ابتداء المباشرة ساعة، ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصالِ فلم يُقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا في الغي فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه﴾ أي تمرّدوا وتكبروا وأبَوا أن يترُكوا ما نُهوا عنه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذِلاَّءَ بُعَداءَ عن الناس، والمرادُ بالأمر هو الأمرُ التكوينيُّ لا القولي، وترتيبُ المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للإيذان بأنه ليس لخصوصية الحوتِ بل العُمدةُ في ذلك هو مخالفةُ الأمر والاستعصاءُ عليه تعالى.

وقيل: المرادُ بالعذاب البئيس هو المسخُ والجملةُ الثانية تقريرٌ للأولى. روي أن اليهودَ أُمروا باليوم الذين أُمرنا به وهو يومُ الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿إنما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه﴾ [النحل، الآية ١٢٤] فابتُلوا به وحُرّم عليهم الصيدُ فيه وأُمروا بتعظيمه فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبت كأنها المخاضُ لا يُرى وجهُ الماء لكثرتها ولا تأتيهم في سائر الأيامِ فكانوا على ذلك برهةً من الدهر ثم جاءهم إبليسُ فقال لهم: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، وعاصم (بخلاف)، وابن ذكوان، وهشام، والداجوني، والسلمي، ويحيى، والأعمش، وعيسى الهمداني، وزيد بن ثابت.
ينظر: المصادر السابقة.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وزيد، والداجوني، وهشام، وشيبة، وأبو عبد الرحمن، والحسن.
ينظر: المصادر السابقة.

(٣) قرأ بها: نصر بن عاصم.
ينظر: المصادر السابقة.

(٤) قرأ بها: نافع، وخارجة، وطلحة، والحسن.
ينظر: المصادر السابقة.

حياضًا سهلةَ الورودِ صعبةَ الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتانَ إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتًا وربط في ذنبه خيطًا إلى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جارُه ريحَ السمك فتطلع في تنّوره فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يَرَه عُذّب أخذ في يوم السبت القابلِ حُوتين فلما رأوا أن العذابَ لا يعاجلُهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا فصار أهلُ القرية أثلاثًا ثلثٌ استمروا على النهي، وثلثٌ ملُّوا التذكير وسئِموه وقالوا للواعظين: لم تعِظون إلخ، وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون: نحن لا نساكنُكم فقسموا القريةَ بجدار، للمسلمين بابٌ وللمعتدين باب ولعنهم داودُ عليه السلام فأصبح الناهون ذاتَ يوم في مجالسهم ولم يخرُجْ من المعتدين أحد فقالوا: إن لهم لشأنًا فعَلَوا الجدارَ فنظروا فإذا هم قردةٌ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القِردةُ أنسباءَهم من الإنس وهم لا يعرفونها فجعل القردُ يأتي نسيبَه فيشم ثيابه فيبكي فيقول له نسيبُه: ألم ننهَكم؟ فيقول القردُ برأسه: بلى، ثم ماتوا عن ثلاث، وقيل: صار الشبانُ[1] قردةً والشيوخُ خنازير، وعن مجاهد رضي الله عنه: مُسخت قلوبُهم[2].

وقال الحسن البصري: أكلوا والله أوخَمَ أكلةٍ أكلها أهلُها أثقلُها خزيًا في الدنيا وأطولُها عذابًا في الآخرة، هاه[3] وأيمُ الله ما حوتٌ أخذه قومٌ فأكلوه أعظمُ عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدًا والساعةُ أدهى وأمرّ.

﴿وإذ تأذن ربك﴾ منصوب على المفعولية بمضمر معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿واسألهم﴾ وتأذّن بمعنى آذن كما أن توعّد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فإن العازمَ على الأمر يحدث به نفسه، وأُجري مُجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة﴾ أي واذكر لهم وقت إيجابِه تعالى على نفسه أن يسلِّط على اليهود البتة ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ كالإذلال وضربِ الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمانَ عليه السلام بُختَ نَصّر فخرّب ديارهم وقتل مقاتِلتَهم وسبىٰ نساءَهم وذرارِيَهم وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدّونها إلى المجوس حتى بُعث النبي عليه الصلاة والسلام ففعل

---

(١) في خ: الشباب.

(٢) أخرجه ابن أبي خيثمة في أخبار المكيين (١/ ٢٦٢)، وابن جرير الطبري (٢/ ١٧٣) برقم (١١٤٤)، وابن أبي حاتم (١/ ١٣٣) برقم (٦٧٢).

(٣) هاه: كلمة وعيد.

ما فعل ثم ضرب الجزيةَ عليهم فلا تزال مضروبةً إلى آخر الدهر ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ يعاقبهم في الدنيا ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن منهم.

﴿وقطعناهم﴾ أي فرقنا بني إسرائيلَ ﴿في الأرض﴾ وجعلنا كل فِرقةٍ منهم في قُطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحيةٌ منها منهم تكملةً لأدبارهم حتى لا تكون لهم شوكةٌ، وقوله تعالى: ﴿أممًا﴾ إما مفعولٌ ثانٍ لـ (قطّعنا) أو حال من مفعوله ﴿منهم الصالحون﴾ صفةٌ لـ (أممًا) أو بدلٌ منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي ناسٌ دون ذلك الوصفِ أي منحطّون عن الصلاح وهم كَفرتُهم وفَسَقتُهم ﴿وبَلَوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿فخلف من بعدهم﴾ أي من بعد المذكورين ﴿خلْف﴾ أي بدلُ سوءٍ، مصدرٌ نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: جمع وهو شائعٌ في الشر والخَلَفُ بفتح اللام في الخير، والمرادُ به الذين كانوا في عصر رسولِ الله ﷺ ﴿ورثوا الكتاب﴾ أي التوراةَ من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتِهم إياه أي يأخذون حُطامَ هذا الشيءِ الأدنى أي الدنيا من الدنو أو الدناءة، والمرادُ به ما كانوا يأخذونه من الرِّشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل: حال من واو ورثوا ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ ولا يؤاخذُنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه، والجملةُ تحتمل العطفَ والحالية، والفعلُ مسندٌ إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون.

﴿وإن يأتهم عرضٌ مثلُه يأخذوه﴾ حال من الضمير في لنا أي يرجون المغفرةَ والحال أنهم مُصِرّون على الذنب عائدون إلى مثله غيرَ تائبين عنه ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ أي الميثاقُ الواردُ في الكتاب ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ عطفُ بيانٍ للميثاق أو متعلقٌ به أي بألا يقولوا . . . إلخ، والمرادُ به الردُّ عليهم والتوبيخُ على بتّهم القولَ بالمغفرة بلا توبةٍ والدِلالةُ على أنها افتراءٌ على الله تعالى وخروجٌ عن ميثاق الكتاب ﴿ودرسوا ما فيه﴾ عطفٌ على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى فإنه تقريرٌ أو على ورِثوا وهو اعتراض ﴿والدارُ الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما فعل هؤلاء، ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدّي إلى العقاب بالنعيم المخلّد، وقرئ[1] بالياء وفي الالتفات تشديدٌ للتوبيخ.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر.

=

﴿والذين يمسّكون بالكتاب﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم، يقال: مسَك بالشيء وتمسّك به. قال مجاهد: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأصحابِه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرّفوه ولم يكتُموه ولم يتخذوه مأكلةً[١]، وقال عطاء: هم أمةُ محمد عليه الصلاة والسلام وقرئ[٢] يُمْسِكون من الإمساك وقرئ[٣] (تمسَّكوا) و(استمسكوا)[٤] موافقًا لقوله تعالى: **﴿وأقاموا الصَّلاة﴾** ولعل التغييرَ في المشهورة للدلالة على أن التمسّك بالكتاب أمرٌ مستمرٌ في جميع الأزمنة بخلاف إقامةِ الصلاة فإنها مختصةٌ بأوقاتها، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها، ومحلُّ الموصولِ إما الجرُّ نسقًا على الذين يتقون، وقولُه: أفلا تعقلون اعتراضٌ مقرر لما قبله، وإما الرفعُ على الابتداء والخبر قوله تعالى: **﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾** والرابطُ إما الضميرُ المحذوفُ كما هو رأيُ جمهورِ البصْريين، والتقديرُ أجرُ المصلحين منهم، وإما الألفُ واللامُ كما هو رأيُ الكوفيين فإنه في حكم مُصلحيهم كما في قوله تعالى: **﴿فإن الجنةَ هي المأوى﴾** [النازعات، الآية ٤١] أي مأواهم وقوله تعالى: **﴿مفتّحةً لهم الأبوابُ﴾** [ص، الآية ٥٠] أي أبوابُها، وإما العمومُ في مصلحين فإنه من الروابط، ومنه نعم الرجلُ زيدٌ على أحد الوجوه. وقيل: الخبرُ محذوفٌ والتقديرُ: والذين يمسّكون بالكتاب مأجورون أو مثابرون وقوله تعالى: **﴿إنا لا نُضيع﴾** إلخ، اعتراضٌ مقرر لما قبله.

﴿وإذ نتقنا الجبلَ فوقهم﴾ أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم **﴿كأنه ظلة﴾** أي سقيفةٌ وهي كلُّ ما أظلك **﴿وظنوا﴾** أي تيقنوا **﴿أنه واقع بهم﴾** ساقطٌ عليهم لأن الجبلَ لا يثبُت في الجو لأنهم كانوا يُوعَدون به، وإطلاقُ الظنِّ في الحكاية لعدم

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٦)، والتيسير للداني ص (١٠٢، ١١٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٠).

(١) المأكلة: الطعمة والمرتزق.

(٢) قرأ بها: عاصم، وأبو بكر، وأبو العالية، وعمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والإعراب للنحاس ص (٦٤٨)، والإملاء للعكبري، ص (١٦٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٧)، والتيسير للداني ص (١١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٦، ١٦٧).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤١٨).

(٤) قرأ بها: عبد الله، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢).

وقوعِ متعلَّقِه وذلك أنهم أبَوْا أن يقبلوا أحكامَ التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطورَ وقيل لهم: إن قبِلتم ما فيها وإلا ليقعَنَّ عليكم ﴿خذوا ما ءاتيناكم﴾ أي وقلنا أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة على تحمل مشاقِّه وهو حالٌ من الواو ﴿واذكروا ما فيه﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسيِّ ﴿لعلكم تتقون﴾ بذلك قبائحَ الأعمالِ ورذائلَ الأخلاق أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

[نقض اليهود للميثاق العام]

﴿وإذ أخذ ربك﴾ منصوبٌ بمضمر معطوفٌ على ما انتصب به (إذ نتقنا) مَسوقٌ للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاقِ العام المنتظمِ للناس قاطبةً وتوبيخِهم بنقضه إثرَ

الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاقِ الطورِ، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانُه مرارًا أي واذكر لهم (وقتَ) أخذ ربك ﴿من بني آدم﴾ المرادُ بهم الذين وَلَدَهم(١) كائنًا من كان نسلًا بعد نسلٍ سوى مَنْ لم يولدْ له بسبب من الأسباب كالعُقم وعدمِ التزوج والموتِ صغيرًا، وإيثارُ الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذِ لما فيه من الإنباء عن الاجتباء والاصطفاءِ وهو السببُ في إسناده إلى اسم الربِّ بطريق الالتفاتِ مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي، وإضافتُه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى: ﴿من ظهورهم﴾ بدلٌ من بني آدمَ بدلَ البعضِ بتكرير الجار كما في قوله تعالى: ﴿للذين استُضعِفوا لِمن آمن منهم﴾ [الأعراف: ٧٥] و(من) في الموضعين ابتدائيةٌ وفيه مزيدُ تقريرٍ لابتنائه على البيان بعد الإبهام، والتفصيلُ غِبَّ الإجمالِ تنبيهٌ على أن الميثاقَ قد أُخذ منهم وهم في أصلاب الآباءِ ولم يُستودَعوا في أرحام الأمهات، وقوله تعالى: ﴿ذريتهم﴾ مفعولُ أخذَ أُخِّر عن المفعول بواسطة الجارِّ لاشتماله على ضمير راجعٍ إليه، ولمراعاة أصالتِه ومنشئيّتِه، ولما مرّ مرارًا من التشويق إلى المؤخّر، وقرئ (ذرّياتِهم)(٢) والمرادُ بهم أولادُهم على العموم فيندرج فيهم اليهودُ المعاصِرون لرسول الله ﷺ اندراجًا أوليًا كما اندرج أسلافُهم في بني آدم كذلك، وتخصيصُهما باليهود سلفًا وخلفًا مع أن ما أريد بيانُه من بديع صنعِ الله تعالى عز وجل شاملٌ للكل كافة مُخِلٌّ بفخامة التنزيلِ وجزالةِ التمثيل ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أي أشهد كل واحدةٍ من أولئك الذرياتِ المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرًا لهم بربوبيته التامةِ وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغيرِ ذلك من أحكامها وقوله تعالى: ﴿ألست بربكم﴾ على إرادة القولِ، أي قائلًا: ألست بربكم ومالكَ أمرِكم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخلٌ في شأن من شؤونكم؟ فينتظم استحقاقُ المعبودية ويستلزم اختصاصَه به تعالى.

﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل: فماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا: ﴿بلى شهدنا﴾ أي على أنفسنا بأنك ربُّناوإلٰهُنا لا ربَّ لنا غيرُك كما ورد

---

(١) في خ: ولد لهم.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٢١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣١)، والتيسير للداني ص (١١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٨).

في الحديث الشريف[١] وهذا تمثيلٌ لخلقه تعالى إياهم جميعًا في [مبدأ] الفطرةِ مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ المؤدية إلى التوحيد والإسلامِ كما ينطِق به قوله عليه الصلاة والسلام: «**كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة**»[٢] الحديث، مبنيٌّ على تشبيه الهيئةِ المنتزَعَةِ من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيتِه بعد تمكينِهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصبَ لهم في الآفاق والأنفسِ من الدلائل تمكينًا تامًا، ومن تمكّنهم تمكنًا كاملًا وتعرّضِهم لها تعرضًا قويًا بهيئة منتزعةٍ من حمله تعالى إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمرِ ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلًا من غير أن يكون هناك أخذٌ وإشهادٌ وسؤالٌ وجواب كما في قوله تعالى: ﴿**فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا قالتا أتينا طائعين**﴾ [فصلت: ١١].

وقوله تعالى: ﴿**أن تقولوا**﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفِه عن رسول الله ﷺ إلى معاصريه من اليهود تشديدًا في الإلزام، أو إليهم وإلى متقدّميهم بطريق التغليبِ لكن لا من حيث إنهم مخاطَبون بقوله تعالى: ﴿**ألستُ بربكم**﴾ قالوا بلى فإنه ليس من الكلام المحكي، وقرئ[٣] بالياء على أن الضمير للذرية، وأيًّا ما كان فهو مفعولٌ له لما قبله من الأخذ والإشهاد أي فعلنا ما فعلنا كراهةَ أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرةُ أو يقولوا هم ﴿**يوم القيامة**﴾ عند ظهور الأمرِ ﴿**إنا كنا عن هذا**﴾ عن وحدانية الربوبيةِ وأحكامِها ﴿**غافلين**﴾ لم ننبَّه عليه، فإنهم حيث جُبلوا على ما ذكر من التهيؤ التامِّ لتحقيق الحقِّ والقوة القريبةِ من الفعل صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٣٩)، والطبري (٩/ ١١٥)، واللالكائي في السنة (٢/ ٥٥٩)، وابن منده في «الرد على الجهمية»، ص (٥٩)، والحاكم (٢/ ٣٢٣)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١١٥٨، ١١٥٩) من حديث أبي بن كعب وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٤، ٢٥) وقال: رواه عبد الله بن أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالي وهو مستور وبقية رجاله رجال الصحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٠) وزاد نسبته إلى ابن مردويه وعبد بن حميد وأبي الشيخ والبيهقي في «الأسماء والصفات» وابن عساكر.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٣) كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات حديث (١٣٥٨، ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة،حديث (٢٢/ ٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وابن محيصن، واليزيدي، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، وعبدالله بن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٣)، الإعراب للنحاس (١/ ٦٥١)، والبحر المحيط (٤/ ٤٢١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٣).

لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذُكر من خلقهم على الفطرة السليمةِ، وقوله تعالى: ﴿**أو تقولوا إنما أشرك ءاباؤنا**﴾ عطفٌ على تقولوا و﴿أو﴾ لمنع الخلوّ دون الجمع، أي هم اخترعوا الإشراكَ وهم سنّوه ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل زمانِنا ﴿**وكنا**﴾ نحن ﴿**ذرية من بعدهم**﴾ لا نهتدي إلى السبيل ولا نقدِر على الاستدلال بالدليل ﴿**أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ من آبائنا المُضلّين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبدادِ بالرأي؟ أو أتؤاخذنا فتهلكنا . . . إلخ؟ فإن ما ذكر من استعدادهم الكاملِ يسُدّ عليهم بابَ الاعتذار بهذا أيضًا فإن التقليدَ عند قيامِ الدلائلِ والقدرةِ على الاستدلال بها مما لا مساغَ له أصلًا.

هذا وقد حُملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روي عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسحَ ظهرَه فأخرج منه كلَّ نَسَمةٍ هو خالقُها إلى يوم القيامة فقال: ﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾ فنودي يومئذ جَفّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة(١).

وقد روي عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال: سمعت رسولَ الله ﷺ سُئل عنها فقال: «**إن الله تعالى خلق آدمَ ثم مسحَ ظهرَه بيمينه فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهلِ الجنة يعملون، ثم مسح ظهرَه فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهلِ النار يعملون**»(٢)، وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكلَّ من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءَه الصُّلبية ومن ظهرهم أبناءَهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهرُ الأصليُّ ظهرَه عليه الصلاة والسلام وكان مَساقُ الحديثين الشريفين بيانَ حال الفريقين إجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسائطِ غرضٌ على نسب إخراجَ الكلِّ إليه، وأما الآيةُ الكريمة فحيث كانت مسوقةً للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ وبيانِ عدم إفادةِ الاعتذارِ بإسناد الإشراكِ إلى آبائهم، اقتضى الحالُ نسبةَ إخراجِ كل واحدٍ منهم إلى ظهر أبيهم من غير تعرّضٍ لإخراج الأبناءِ الصلبيةِ لآدم عليه السلام من ظهره قطعًا، وعدمُ بيان الميثاقِ في حديث عمرَ رضى الله تعالى عنه ليس بيانًا لعدمه ولا مستلزِمًا له، وأما ما قالوا من أن أخذَ الميثاق لإسقاط عذرِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٢٢٨) برقم (١٥٣٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤)، وأبو داود (٢/ ٦٣٩) كتاب السنة، باب: القدر، برقم (٤٧٠٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٦) كتاب تفسير القرآن، باب:سورة الأعراف، برقم (٣٠٧٥)، وابن حبان (١٤/ ٣٧) برقم (٦١٦٦)، من حديث عمر رضي الله عنه.

الغفلةِ حسبما ينطِق به قوله تعالى: **﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾** [الأعراف، الآية ١٧٢] ومعلوم أنه غيرُ دافع[1] لغفلتهم في دار التكليفِ إذ لا فرْدَ من أفراد البشر يذكُر ذلك - فمردودٌ، لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائلَ على وحدانيته وصدقِ رسلهِ فيما أَخبروا به فمن أنكره كان معاندًا ناقضًا للعهد ولزِمتْه الحُجة، ونسيانُهم وعدمُ حفظهم لا يُسقط الاحتجاجَ بعد إخبار المخبِرِ الصادقِ بل بأن قوله تعالى: **﴿أن تقولوا﴾** إلخ، ليس مفعولًا له لقوله تعالى: **﴿وأشهدهم﴾** وما يتفرع عليه من قولهم: (بلى شهِدنا) حتى يجب كونُ ذلك الإشهادِ والشهادة محفوظًا لهم في إلزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلامُ والمعنى: فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاقِ وبيانِه كراهةَ أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرةُ يوم القيامة: إنا كنا غافلين عن ذلك[2] الميثاقِ لم نُنَبَّه عليه في دار التكليفِ وإلا لعمِلنا بموجبه.

هذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة بالياء[3] فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العاملِ في (إذ أخذ)، والمعنى اذكُرْ لهم الميثاقَ المأخوذَ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباءِ، هذا على تقدير كونِ قوله تعالى: **﴿شهدنا﴾** من كلام الذرية وهو الظاهرُ، فأما على تقدير كونِه من كلامه تعالى فهو العامل في ﴿أن تقولوا﴾ ولا محذور أصلًا، إذ المعنى شهِدنا قولَكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة إلخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ.

﴿وكذلك﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعل المذكور بعده، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو شأنِ المشار إليه وبُعد منزلتِه، والكافُ مقحمةٌ مؤكدةٌ لما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة، والتقديمُ على الفعل لإفادة القصْر ومحلُّه النصبُ على المصدرية أي ذلك التفصيلَ البليغَ المستتبعَ للمنافع الجليلة **﴿نفصل الآيات﴾** المذكورةَ لا غيرَ [ذلك] **﴿ولعلهم يرجعون﴾** وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليدِ الآباء نفعل التفصيلَ المذكورَ. قالوا: و(أن) ابتدائيتان، ويجوز أن تكون الثانيةُ عاطفةً على مقدر مترتبٍ على التفصيل أي و﴿كذلك﴾ نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغّبات والزواجر وليرجعوا... إلخ.

﴿واتل عليهم﴾ عطفٌ على المضمر العاملِ في ﴿إذ أخذ﴾ واردٌ على نمطه في

---

(١) في خ: واقع.
(٢) في خ: هذا.
(٣) تقدم.

الإنباء عن الحَوْر بعد الكَوْر[١] والضلالةِ بعد الهدى أي واتل على اليهود ﴿نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ أي خبَره الذي له شأنٌ وخطر، وهو أحدُ علماءِ بني إسرائيلَ. وقيل: هو بلعمُ بنُ باعوراءَ أو بلعامُ بنُ باعر من الكنعانيين أوتي علمَ بعضِ كتبِ الله تعالى، وقيل هو أُميةُ بنُ أبي الصَّلْت[٢] وكان قد قرأ الكتبَ وعلم أن الله تعالى مرسِلٌ في ذلك الزمان رسولًا، ورجا أن يكون هو الرسولَ فلما بعث الله تعالى النبي ﷺ حسَده وكفر به، والأولُ هو الأنسبُ بمقام توبيخ اليهود بهَناتهم ﴿فانسلخ منها﴾ أي من تلك الآيات انسلاخَ الجلد من الشاة ولم يُخطِرْها بباله أصلًا أو أُخرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهرِه، وأيًّا ما كان فالتعبيرُ عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيطِ بالمُحاط خلقةً وعن عدم الملاقاة بينهما أبدًا للإيذان بكمال مباينتِه للآيات بعد أن كان بينهما كمالُ الاتصال ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي تبعه حتى لحِقه وأدركه فصار قرينًا له وهو المعنى على قراءة (فاتّبعه) من الافتعال، وفيه تلويحٌ بأنه أشدُّ من الشيطان غوايةً أو أتبعه خُطُواتِه ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين، وروي أن قومه طلبوا إليه أن يدعوا على موسى عليه السلام فقال: كيف أدعو على مَنْ معه الملائكة؟ فلم يزالوا به حتى فعل، فبقُوا في التيه، ويرده أن التيهَ كان لموسى عليه السلام رَوْحًا وراحة، وإنما عُذب به بنو إسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر في سورة المائدة.

﴿ولو شئنا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان مناطِ ما ذُكر من انسلاخه من الآيات ووقوعِه في مهاوي الغواية، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ على القاعدة المستمرة، أي ولو شئنا رفعَه ﴿لرفعناه﴾ أي إلى المنازل العاليةِ للأبرار العالمين بتلك الآياتِ العاملين[٣] بموجبها، لكن لا بمحض مشيئتِنا من غير أن يكون له دخلٌ في ذلك أصلًا فإنه منافٍ للحكمة التشريعية المؤسسةِ على تعليق الأجزيةِ بالأفعال الاختيارية للعباد، بل مع مباشرته للعمل المؤدِّي إلى الرفع بصرف اختيارِه إلى تحصيله كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿بها﴾ أي بسبب تلك الآياتِ بأن عمِل بموجبها فإن اختيارَه وإن لم يكن مؤثرًا في حصوله ولا في ترتب الرفعِ عليه بل

---

(١) الحَوْر: النقص. والكور: الزيادة. يقال: نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

(٢) هو: أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، قال الأصمعي: ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة، توفي سنة ٥ هـ.
ينظر: خزانة البغدادي (١/ ١١٩)، الأغاني (٤/ ١٢٠).

(٣) في خ: العالمين.

كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقَه تعالى مَنوطٌ بذلك ألبتةَ حسب جَريان العادةِ الإلٰهية، وقد أشير إلى ذلك في الاستدراك بأن أُسند ما يؤدي إلى نقيض التالي إليه حيث قيل: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ مع أن الإخلادَ إليها أيضًا مما لا يتحقق عند صرف اختيارِه إليه إلا بخلقه[١] تعالى كأنه قيل: لو شئنا رفعَه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التي هي أقوى أسبابِ الرفع ولكن لم نشأْه لمباشرته لسبب نقيضِه فتُرِكَ في كلٍّ من المقامين ما ذكر في الآخر تعويلًا على إشعار المذكورِ بالمطويّ كما في قوله تعالى: ﴿وإن يمسَسْك الله بضر فلا كاشفَ له إلا هو وإن يُرِدْك بخير فلا رآدَّ لفضله﴾ [يونس: ١٠٧] وتخصيصُ كلٍّ من المذكورين بمقامه للإيذان بأن الرفعَ مرادٌ له تعالى بالذات وتفضّلٌ محضٌ عليه لا دخلَ فيه لفعله حقيقةً، كيف لا وجميعُ أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضّلاته، وإن نقيضَه إنما أصابه بسوء اختيارِه على موجب الوعيدِ لا بالإرادة الذاتيةِ له سبحانه كما قيل في وجه ذكرِ الإرادةِ مع الخير، والمسِّ مع الضرّ في الآية المذكورةِ وهو الشرُّ في جريان السنة القرآنيةِ على إسناد الخيرِ إليه تعالى وإضافةِ الشرِّ إلى الغير كما في قوله تعالى: ﴿وإذا مَرِضْتُ فهو يشفينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ونظائرِه، والإخلادُ إلى الشيء الميلُ إليه مع الاطمئنان به والمرادُ بالأرض الدنيا وقيل: السفالة، والمعنى ولكنه آثرَ الدنيا الدنيةَ على المنازل السنية، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرِفعة والجلالة ﴿واتبع هواه﴾ مُعرِضًا عن تلك الآياتِ الجليلة فانحط أبلغَ انحطاط وارتد أسفلَ سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى: ﴿فمثَلُه كمثل الكلب﴾ لما أنه أخسُّ الحيوانات وأسفلُها، وقد مُثّل حالُه بأخس أحوالِه وأذلِّها حيث قيل: ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي فحالُه التي هي مَثَلٌ في السوء كصفته في أرذل أحوالِه[٢] وهي حالةُ دوامِ اللهَثِ به في حالتي التعبِ والراحة فكأنه

---

(١) في خ: بخلق الله.

(٢) ولقد كشف برهان الدين عن مناسبة هذا التمثيل لما قبله فقال: ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه، وأتبعه الميثاق العام الذي قطع به الأعذار، وأتبعهما بيان ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات، فأسقطه الله من ديوان العداء، فأمره ﷺ أن يتلو ذلك عليهم؛ لأنه مع الوفاء من أدلة نبوته الموجبة عليهم إيقاعه، فذكرهم ما وقع له في نبذ العهد والانسلاخ من الميثاق بعد أن كان قد أعطي الآيات، وأفرغ عليه من الروح فقال (واتل...) وهذا المثل في غاية الخسة والرداءة، قال النبي ﷺ: «ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»، ولما ذكر أن تحمل عليه في شق الحالة المشبهة بها تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في قوة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة طرده وضربه، تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد أغفل هذا الذين فسروا هذه الآية، فقرروا التمثيل بتشبيه حالة بسيطة بحالة بسيطة في مجرد التشويه، أو الخسة، =

قيل: فتردّى إلى ما لا غايةَ وراءَه في الخسة والدناءة، وإيثارُ الجملةِ الاسمية على الفعلية بأن يقال: فصار مثلُه كمثل الكلب . . . إلخ للإيذان بدوام اتصافِه بتلك الحالةِ الخسيسة وكمالِ استمراره عليها، والخطابُ في فعل الشرطِ لكل أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطاب فإنه أدخلُ في إشاعة فظاعةِ حالِه، واللهَثُ إدلاعُ اللسانِ بالتنفس الشديد، أي هو ضيِّقُ الحال مكروبٌ دائمُ اللهَثِ سواءٌ هيّجتَه وأزعجتَه بالطرد العنيف أو تركته على حاله فإنه في الكلاب طبعٌ لا تقدِر على نفض الهواءِ المتسخّن وجلبِ الهواءِ البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادِها بخلاف سائر الحيواناتِ فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد ولا يلحقها الكربُ والمضايقةُ إلا عند التعب والإعياءِ، والشرطيةُ مع أختها تفسيرٌ لما أُبهم في المثل وتفصيلٌ لما أُجمل فيه وتوضيحٌ للتمثيل ببيان وجهِ الشبهِ، لا محلَّ له من الإعراب على منهاج قوله تعالى: **﴿خلقَه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** [آل عمران: ٥٩] إثرَ قوله تعالى: **﴿إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدمَ﴾** [آل عمران: ٥٩] وقيل: هي في محل النصبِ على الحالية من الكلب بناءً على خروجهما من حقيقة الشرطِ وتحوّلِهما إلى معنى التسوية حسب تحولِ الاستفهامين المتناقضين إليه في مثل قوله تعالى: **﴿أأنذَرْتهم أم لم تنذِرْهم﴾** [البقرة، الآية ٦] كأنه قيل: لاهثًا في الحالتين وأيًّا ما كان فالأظهرُ أنه تشبيهٌ للهيئة المنتزَعَة مما اعتراه بعد الانسلاخِ من سوء الحالِ واضطرامِ القلب ودوامِ القلق والاضطراب وعدمِ الاستراحة بحال من الأحوال بالهيئة المنتزعةِ مما ذكر من حال الكلب. وقيل: لما دعا بلعم

= فيؤول إلى أن الغرض من تشبيهه بالكلب إظهار خسة المشبه كما درج عليه في الكشاف، ولو كان هذا هو المراد لما كان لذكر ﴿إن تحمل عليه يلهث﴾ كبير جدوى، بل يقتصر على أنه لتشويه الحالة المشبه بها لتكتسب الحالة المشبهة تشويهًا، وذلك تقصير في حق التمثيل، وقد أرانا بناء الآية التباسه بالآيات والتباسها به، فإن تركها بعد ذلك يكون كالمنسلخ منها وجاءت هذه الاستعارة التبعية (فانسلخ) لتنهض بما لا ينهض به الأسلوب الحقيقي، وتصور لك قوة اللحمة التي كانت بينه وبين الآيات، وليس لشيء من الحيوان حالة يصلح للتشبيه به في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث، لأنه يلهث إذا أتعب، وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقته وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن، فإن اللهث حالة قد تكون بحرج الكلب من جراء عسر نفسه عن اضطراب باطنه إلم يكن لاضطراب باطنه سبب آت من غيره، فمعنى إن تحمل عليه: إن تطارده وتهاجمه مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله، وهو يلهث إذا أتعب، أو اشتد عليه الحر ويلهث بدون ذلك، لأن في خلقته ضيقًا في مجاري النفس ترتاح له باللهث، والغرض من هذا المثيل بيان حال من أوتي علمًا فضل عنه، ونبذه وراء ظهره مع تقبيح المشبه بتشبيهه بمشبه به مثل في الخسة والرداءة.

ينظر: الكشاف (٢/ ١٢٩)، ونظم الدرر للبقاعي (٨/ ١٥٦)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢/ ٢٧٥)، والتحرير والتنوير (٩/ ١٧٧).

على موسى عليه السلام خرج لسانُه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب إلى أن هَلَك.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الحالة الخسيسةِ منسوبةٌ إلى الكلب أو إلى المنسلخ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِها في الخسة والدناءة أي ذلك المثلُ السيءُ ﴿مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهم اليهودُ حيث أُوتوا من نعوت النبي عليه الصلاة والسلام وذِكرِ القرآن المُعجز وما فيه فصدقوه وبشروا الناسَ باقتراب مبعثِه وكانوا يستفتِحون به فلما جاءهم ما عرَفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فاقصُص القصص﴾ القَصصُ مصدرٌ وسُمّي به المفعولُ كالسلْب واللامُ للعهد والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا تحقق أن المثل المذكورَ مثلُ هؤلاء المكذبين فاقصُصه عليهم حسبما أوحي إليك ﴿لعلهم يتفكرون﴾ فيقفون على جلية الحالِ وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلالِ ويعلمون أنك قد علِمتَه من جهة الوحي فيزدادون إيقانًا بك. والجملةُ في محل النصب على أنها حالٌ من ضمير المخاطَب أو على أنها مفعولٌ له أي فاقصُص القصص راجيًا لتفكرهم أي أو رجاءً لتفكرهم.

﴿ساء مثلًا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان كمالِ قبحِ حالِ المكذبين بعد بيانِ كونِه كحال الكلبِ أو المنسلخ، وساء بمعنى بئس وفاعلُها مضمرٌ فيها و﴿مثلًا﴾ تمييزٌ مفسرٌ له والمخصوصُ بالذم قوله تعالى: ﴿القومُ الذين كذبوا بآياتنا﴾ وحيث وجب التصادقُ بينه وبين الفاعلِ والتمييز وجب المصيرُ إلى تقدير مضافٍ إما إليه وهو الظاهرُ أي ساء مثلًا مَثَلُ القومِ إلخ، أو إلى التمييز أي ساء أصحابُ مثلِ القوم إلخ، وقرئ (ساء مثلُ القوم)[1]، وإعادةُ القومِ موصوفًا بالموصول مع كفاية الضميرِ بأن يقال: ساء مثلًا مثلُهم للإيذان بأن مدارَ السوء ما في حيز الصلة ولربط قولِه تعالى: ﴿وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾ به فإنه إما معطوفٌ على كذبوا داخلٌ معه في حكم الصلةِ بمعنى جمعوا بين تكذيبِ آياتِ الله بعد قيام الحجةِ عليها وعلْمِهم بها وبين [ظلمهم لأنفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما][2] ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وبالَه لا يتخطاها. وأيًّا ما كان ﴿ففي يظلمون﴾ لمحٌ إلى أن تكذيبَهم بالآيات متضمنٌ للظلم بها وأن ذلك أيضًا معتبرٌ في القصر المستفادِ من تقديم المفعول.

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش، وعاصم الجحدري.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٢٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٤).

(٢) سقط في ط.

﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ لما أُمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقُصَّ قصصَ المنسلخِ على هؤلاء الضالين الذين مثلُهم كمثله ليتفكروا فيه ويترُكوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ويهتدوا إلى الحق عقّب ذلك بتحقيق أن الهدايةَ والضلالةَ من جهة الله عز وجل وإنما العِظةُ والتذكيرُ من قِبَل[1] الوسائطِ العادية في حصول الاهتداءِ من غير تأثير لها فيه سوى كونِها دواعيَ، إلى صرف العبدِ اختيارَه نحو تحصيلِه حسبما نيط به خلقُ الله تعالى إياه كسائر أفعالِ العباد، فالمرادُ بهذه الهدايةِ ما يوجب الاهتداءَ قطعًا لكن لا لأن حقيقتَها الدلالةُ الموصلةُ إلى البُغية ألبتة، بل لأنها الفردُ الكاملُ من حقيقة الهدايةِ التي هي الدلالةُ إلى ما يوصل إلى البغية أي ما من شأنه الإيصالُ إليها كما سبق تحقيقُه في تفسير قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة، الآية ٢]. وليس المرادُ مجردَ الإخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يُتوهّم عدمُ الإفادةِ بحسب الظاهِر لظهور استلزام هدايتِه تعالى للاهتداء، ويُحمل النظمُ الكريمُ على تعظيم شأن الاهتداءِ والتنبيه على أنه في نفسه كمالٌ جسيمٌ ونفعٌ عظيمٌ لو لم يحصُل له غيرُه لكفاه بل هو قصرُ الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريفُ الخبرِ، فالمعنى من يهدِه الله أي يخلقْ فيه الاهتداء على الوجه المذكور، فهو المهتدي لا غيرُ كائنًا من كان ﴿ومن يضلل﴾ بأن لم يخلُقْ فيه الاهتداءَ بل خلق فيه الضلالة لصرف اختيارِها نحوَها ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخُسران لا غير، وإفرادُ المهتدي نظرًا إلى معناها للإيذان باتحاد منهاجِ الهُدى وتفرّقِ طرقِ الضلال.

[صفات أصحاب النار]

﴿ولقد ذرأنا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبله بطريق التذييلِ أي خلقنا ﴿لجهنم﴾ أي لدخولها والتعذيبِ بها، وتقديمُه على قوله تعالى: ﴿كثيرًا﴾ أي خلقًا كثيرًا مع كونه مفعولًا به لما في توابعه من نوع طولٍ يؤدي توسيطُه بينهما وتأخيرُه عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى: ﴿من الجن والإنس﴾ متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ لـ ﴿كثيرًا﴾ أي كائنًا منهما وتقديمُ الجنِّ لأنهم أعرقُ من الإنس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثرُ عددًا وأقدمُ خلقًا، والمرادُ بهم الذين حقت عليهم الكلمةُ الأزليةُ بالشقاوة لكن لا بطريق الجبرِ من غير أن يكون مِنْ قِبَلهم ما يؤدي إلى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارَهم نحوَ الحقِّ أبدًا بل يُصِرُّون على

(١) في خ: قبيل.

الباطل من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبارِ جُعل خلقُهم مُغيًّا[١] بها كما أن جميعَ الفريقين باعتبار استعدادِهم الكامِل الفطري للعبادة وتمكنِهم التامِّ منها جُعل خلقُهم مغيًّا بها كما نطق به قوله تعالى: ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدونِ**﴾ [الذاريات، الآية ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿**لهم قلوب**﴾ في محل النصبِ على أنه صفةٌ أخرى لـ ﴿كثيرًا﴾[٢] ﴿**لا يفقهون بها**﴾ في محل الرفعِ على أنه صفةٌ لـ ﴿قلوبٌ﴾ مؤكدةٌ لما يفيده تنكيرُها وإبهامُها من كونها غيرَ معهودةٍ مخالِفةً لسائر أفرادِ الجنس فاقدةً لكماله بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقةً بل بسبب امتناعِهم عن صرفها إلى تحصيله، وهذا وصفٌ لها بكمال الإغراقِ في القساوة فإنها حيث لم يَتأتَّ منها الفقهُ بحال فكأنها خلقت غيرَ قابلةٍ له رأسًا وكذا الحالُ في أعينهم وآذانِهم، وحذفُ المفعول للتعميم أي لهم قلوبٌ ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئًا مما مِنْ شأنه أن يُفقَه، فيدخلُ فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائلِه دخولًا أوليًّا، وتخصيصُه بذلك مُخلٌّ بالإفصاح عن كُنه حالِهم ﴿**ولهم أعين لا يبصرون بها**﴾ الكلامُ فيه كما فيما عطف هو عليه، والمرادُ بالأبصار والسمع المنفيَّيْن ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفةُ الثقلين لا ما يتناول مجردَ الإحساسِ بالشبَح والصوتِ كما هو وظيفة الأنعام، أي لا يبصرون بها شيئًا من المبصَرات فيندرج فيه الشواهدُ التكوينيةُ الدالةُ على الحق اندراجًا أوليًا ﴿**ولهم آذان لا يسمعون بها**﴾ أي شيئًا من المسموعات فيتناول الآياتِ التنزيلية تناولًا أوليًا، وإعادةُ الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظامِ الكلامِ بأن يقال: وأعينٌ لا يبصرون بها وآذانٌ لا يسمعون بها لتقرير سوءِ حالِهم، وفي إثبات المشاعر الثلاثةِ لهم ثم وصفِها بعدم الشعورِ دون سلبِها عنهم ابتداءً، بأن يقال: ليس لهم قلوبٌ يفقهون بها ولا أعينٌ يبصرون بها ولا آذانٌ يسمعون بها من الشهادة بكمالِ رسوخِهم في الجهل والغواية، ما لا يخفى ﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار اتصافِهم بما ذكر من الصفات، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلِتهم في الضلال أي أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿**كالأنعام**﴾ أي في انتفاء الشعورِ على الوجه المذكورِ، أو في أن مشاعرَهم متوجهةٌ إلى أسباب التعيشِ مقصورةٌ عليها ﴿**بل هم أضل**﴾ فإنها تدرِكُ ما من شأنها أن تُدركَه من المنافع والمضارِّ فتجتهد في جلبها وسلبِها غايةَ جهدِها مع كونها بمعزل من الخلود، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا

(١) أي لتلك الغاية.

(٢) في خ: وقوله تعالى.

يميِّزون بين المنافعِ والمضارِّ بل يعكسون الأمرَ فيتركون النعيمَ المقيمَ ويُقْدِمون على العذاب الخالد، وقيل: لأنها تعرِف صاحبَها وتذكرُه وتُطيعه، وهؤلاء لا يعرِفون ربَّهم ولا يذكُرونه ولا يطيعونه وفي الخبر: «كلُّ شيءٍ أطوعُ لله من ابن آدم»[1].

﴿أولئك﴾ المنعوتون بما مرّ من[2] مِثْلية الأنعامِ والشرِّيَّة منها **﴿هم الغافلون﴾** الكاملون في الغفلة المستحِقّون لأن يُخَصَّ بهم الاسمُ ولا يطلقَ على غيرهم، كيف لا وإنهم لا يعرِفون من شؤون الله عز وجل ولا من شؤون ما سواه شيئًا فيشركون به سبحانه، وليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، أصنامَهم التي هي من أخسّ مخلوقاتهِ تعالى؟!

[ذكر الله سبحانه]

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تنبيهٌ للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملةِ مع المُخِلّين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور وما لا يليق به إثرَ بيانِ غفلتِهم التامةِ وضلالتِهم الطامة.

و﴿الحسنى﴾ تأنيثُ الأحسن أي الأسماءُ التي هي أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفِها **﴿فادعوه بها﴾** أي فسمُّوه بتلك الأسماء **﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** الإلحادُ واللحدُ: الميلُ والانحرافُ يقال: لحَد وألحَد إذا مال عن القصد.

وقرئ (يَلحَدون)[3] من الثلاثي أي يَميلون في شأنها عن الحق إلى الباطل، إما بأن يسمّوه تعالى بما لا توقيفَ[4] فيه أو بما يوهم معنى فاسدًا كما في قول أهل البدو: يا أبا المكارم يا أبيضَ الوجه يا سخيّ ونحوُ ذلك، فالمرادُ بالترك المأمور به: الاجتنابُ عن ذلك، وبأسمائه: ما أطلقوه عليه تعالى وسمَّوْه به على زعمهم لا أسماؤُه تعالى حقيقةً وعلى ذلك يُحمل تركُ الإضمارِ بأن يقال: يلحدون فيها، وإما

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٠) دون إسناد وكذا أبوحيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٢٦). ولم أجده عند غيرهما والله أعلم.

(٢) في خ: في.

(٣) قرأ بها: حمزة، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وطلحة، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٥٣)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٨).

(٤) أي ما ليس موقوفاً عليه تعالى.

بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائِه الكريمة كما قالوا: وما الرحمٰنُ؟ ما نعرِف سوى رحمانِ اليمامة. فالمرادُ بالترك الاجتنابُ أيضًا وبالأسماء أسماؤُه تعالى حقيقةً فالمعنى سمُّوه تعالى بجميع أسمائِه الحسنى واجتنبوا إخراجَ بعضِها من البين، وإما بأن يُطلقوها على غيره تعالى كما سمَّوا أصنامَهم آلهة، وإما بأن يشتقوا من بعضها أسماءَ أصنامِهم كما اشتقوا اللاتَ من الله تعالى والعُزّى من العزيز، فالمراد بالأسماء أسماؤُه تعالى حقيقةً كما في الوجه الثاني. والإظهارُ في موقع الإضمارِ مع التجريد عن الوصف في الكل للإيذان بأن إلحادَهم في نفس الأسماءِ من غير اعتبار الوصفِ، وليس المرادُ بالترك حينئذ الاجتنابَ عن ذلك إذ لا يتوهم صدورُ مثلِ هذا الإلحادِ عن المؤمنين ليُؤمَروا بتركه بل هو الإعراضُ عنهم وعدمُ المبالاة بما فعلوا ترقبًا لنزول العقوبةِ بهم عن قريب كما هو المتبادرُ من قوله: ﴿**سيجزون ما كانوا يعملون**﴾ فإنه استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من الأمر بعدم المبالاةِ والإعراض عن المجازاة، كأنه قيل: لم لا نبالي بإلحادهم ولا نتصدىّ لمجازاتهم؟ فقيل: لأنه سيُنزِل بهم عقوبتَه وتتشفَّوْن بذلك عن قريب. وأما على الوجهين الأولين فالمعنى اجتنبوا إلحادَهم كيلا يُصيبَكم ما أصابهم فإنه سينزِل بهم عقوبةُ إلحادهم.

﴿**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحال مَنْ عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذُكر من الضلال والإلحادِ عن الحق، ومحلُّ الظرفِ الرفعُ على أنه مبتدأ، إما باعتبار مضمونِه أو بتقدير الموصوفِ وما بعده خبرُه كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿**ومن الناس**﴾ ... إلخ، أي وبعضُ مَنْ خلقنا أو وبعضٌ ممن خلقنا أمةٌ أي طائفةٌ كثيرةٌ يهدون الناسَ ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحقِّ ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات الجاريةِ فيما بينهم ولا يجورون فيها. عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: **هذه لكم وقد أُعْطي القوم بين أيديكم مثلها**. ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ الآية[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «**إن من أمتي قومًا على الحق حتى ينزل عيسى**»[2] وروي: «**لا تزال من أمتي طائفةٌ على**

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٣/ ٢٨٦) برقم (١٥٤٦٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: (٤/ ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٧) عن عمران بن حصين به.
وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده: (٤/ ٥٩-٦٠) رقم (٣١٣/ ٢٠٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٤٥ - ٣٨٤) عن جابر فذكره.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٢)، وعزاه الزيلعي (١/ ٤٧٤)، برقم (٤٧٨) إلى البخاري في تاريخه الأوسط في ترجمة عبيد الله الطفاوي عن جابر به.
كما عزاه إلى الثعلبي في تفسيره عن الربيع بن أنس به.

الحق إلى أن يأتي أمرُ الله»[١] وروي: **«لا تزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله لا يضرُهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم ظاهرون»**[٢] وفيه من الدلالة على صحة الإجماعِ ما لا يخفى.

والاقتصارُ على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح به ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ شروعٌ في تحقيق الحقِّ الذي به يهدي الهادون وبه يعدِل العادلون، وحملُ الناسِ على الاهتداء به على وجه الترهيب، ومحلُّ الموصولِ الرفعُ على أنه مبتدأ خبرُه ما بعده من الجملة الاستقبالية، وإضافةُ الآياتِ إلى نون العظمةِ لتشريفها واستعظامِ الإقدام على تكذيبها، أي والذين كذبوا بآياتنا التي هي معيارُ الحقِّ ومصداقُ الصدقِ والعدل.

﴿سنستدرجهم﴾ أي نستدنيهم ألبتةَ إلى الهلاك شيئًا فشيئًا، والاستدراجُ استفعالٌ من درَجَ إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل نقل تدريجيٍّ سواءٌ كان بطريق الصعودِ أو الهبوط أو الاستقامة، وإما بمعنى مشىٰ مشيًا ضعيفًا، وإما بمعنى طوَى، والأولُ هو الأنسبُ بالمعنى المرادِ الذي هو النقلُ إلى أعلى درجاتِ المهالكِ ليبلُغ أقصى مراتبِ العقوبة والعذاب، ثم استعير لطلب كل نقل تدريجيٍّ من حال إلى حال من الأحوال الملائمةِ للمنتقل الموافقةِ لهواه بحيث يزعُم أن ذلك ترقٍّ في مراقي منافعِه مع أنه في الحقيقة تردٍّ في مهاوي مصارعِه، فاستدراجُه سبحانه إياهم أن يواترَ عليهم بالنعم مع انهماكهم في الغيّ فيحسَبوا أنها لُطفٌ لهم منه تعالى فيزدادوا بطرًا وطغيانًا لكن لا على أن المطلوبَ تدرُّجُهم في مراتب النعم بل هو تدرجُهم في مدارج المعاصي إلى أن يحِقَّ عليهم كلمةُ العذاب على أفظع حالٍ وأشنعها، والأولُ وسيلةٌ إليه.

وقوله تعالى: ﴿من حيث لا يعلمون﴾ متعلقٌ بمضمر وقع صفةً لمصدر الفعلِ المذكور، أي سنستدرجهم استدراجًا كائنًا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسَبون أنه أثَرةٌ من الله عز وجل وتقريبٌ منه، وقيل: لا يعلمون ما يراد بهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥/ ٤٠٦) كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه﴾، برقم (٧٤٥٩)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣) كتاب الإمارة، باب: قوله «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٧١/ ١٩٢١)، من حديث المغيرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥/ ٤٠٦) كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه﴾ برقم (٧٤٦٠)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤) كتاب الإمارة، باب: قوله «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٧٤/ ١٠٣٧)، من حديث معاوية ابن أبي سفيان -رضي الله عنهما.

﴿وأُملي لهم﴾ عطفٌ على (سنستدرجهم) غيرُ داخلٍ في حكم السين، لِما أن الإملاءَ الذي هو عبارةٌ عن الإمهال والإطالةِ ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصلِ في نفسه شيئًا فشيئًا، بل هو فعلٌ يحصُل دفعةً، وإنما الحاصلُ بطريق التدريج آثارهُ وأحكامهُ لا نفسُه كما يلوح به تغييرُ التعبيرِ بتوحيد الضميرِ مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناءِ بمضمون الكلامِ لابتنائه على تجديد القصدِ والعزيمة، وأما أن ذلك للإشعار بأنه بمحض التقديرِ الإلٰهيِّ والاستدراجِ بتوسط المدبّرات فمبْناه دِلالةُ نونِ العظمةِ على الشركة وأنى ذلك، وإلا لاحتُرز عن إيرادها في قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نُملي لهم﴾ [آل عمران: ١٧٨] الآية، بل إنما إيرادُها في أمثال هذه المواردِ بطريق الجَرَيانِ على سَنَنِ الكبرياء ﴿إن كيدي متين﴾ تقريرٌ للوعيد وتأكيدٌ له أي قويٌّ لا يُدافع بقوة ولا بحيلة، والمرادُ به إما الاستدراجُ والإملاءُ مع نتيجتهما التي هي الآخذُ الشديدُ على غِرّة فتسميتُه كيدًا لما أن ظاهرَه لطفٌ وباطنَه قهرٌ، وإما نفسُ ذلك الأخذِ فقط فالتسميةُ لكون مقدماتِه كذلك، وأما أن حقيقةَ الكيدِ، هو الأخذُ على خفاء من غير أن يُعتبر فيه إظهارُ خلافِ ما أبطنه فمما لا تعويلَ عليه مع عدم مناسبتِه للمقام ضرورةَ استدعائِه لاعتبار القيدِ المذكورِ حتمًا.

[توبيخ الكفار على جهلهم بالنبي ﷺ]

﴿أوَ لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لإنكار عدمِ تفكرهم في شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حالِه الموجبةِ للإيمان به وبما أنزل عليه من الآيات التي كذبوا بها، والهمزةُ للإنكار والتعجيبِ والتوبيخ، والواوُ للعطف على مقدر يستدعيه سِياقُ النظمِ الكريم وسياقُه، و(ما) إما استفهاميةٌ إنكاريةٌ في محل الرفعِ بالابتداء والخبرُ (بصاحبهم)، وإما نافيةٌ اسمُها جِنةٌ وخبرُها (بصاحبهم)، والجِنةُ من المصادر التي يُراد بها الهيئةُ كالرِّغبة والجِلْسة، وتنكيرُها للتقليل والتحقير، والجملةُ معلقةٌ لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلُها على الوجهين النصبُ على نزع الجارِّ أي أكذّبوا بها ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائنٍ بصاحبهم الذي هو أعظمُ الأمةِ الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات، أو في أنه ليس بصاحبهم شيءٌ من جِنّة حتى يؤدِّيَهم التفكرُ في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحةِ نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات.

وقيل قد تم الكلامُ عند قوله تعالى: ﴿أو لم يتفكروا﴾ أي أكذّبوا بها ولم يفعلوا التفكرَ؟ ثم ابتُدئ فقيل: أيُّ شيءٍ بصاحبهم من جنة ما على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيءٌ منها، والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام

بصاحبهم للإيذان بأن طولَ مصاحبتِهم له عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيدٌ للنكير وتشديدٌ له، والتعرضُ لنفي الجنونِ عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالةِ ثبوتِه له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلمَ بما هو خارقٌ لقضية العقولِ والعادات لا يصدُر إلا عمن به مسُّ الجنونِ كيفما اتفق من غير أن يكون له أصلٌ ومعنى، أو عمن له تأييد إلٰهيٌّ يخبر به عن الأمور الغيبية، وإذ ليس به عليه السلام شائبةُ الأولِ تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيدٌ من عند الله تعالى.

وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلًا فجعل يدعو قريشًا فخِذًا فخِذًا يحذّرهم بأسَ الله تعالى فقال قائلُهم: إن صاحبَكم هذا لمجنونٌ بات يهوِّت[1] إلى الصباح فنزلت[2]. فالتصريحُ بنفي الجنونِ حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاءِ، والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم واردٌ على شاكلة كلامِهم مع ما فيه من النكتة المذكورة.

وقوله تعالى: **﴿إن هو إلا نذير مبين﴾** جملةٌ مقررة لمضمون ما قبلها ومبينةٌ لحقيقة حالِه عليه الصلاة والسلام [على منهاج قوله تعالى: **﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾** [يوسف: ٣١] بعد قوله تعالى: **﴿ما هذا بشرًا﴾** أي ما [هو][3] ﷺ إلا مبالغٌ في الإنذار مظهرٌ له غايةَ الإظهار إبرازًا لكمال الرأفةِ ومبالغةً في الإعذار.

وقوله تعالى: **﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾** استئناف آخرُ مسوقٌ للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينيةِ المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ الشاهدةِ بصحة مضمونِ الآيات المنزلةِ إثرَ ما نُعي عليهم إخلالُهم بالتفكر في شأنه عليه الصلاة والسلام، والهمزةُ لما ذكر من الإنكار والتعجب والتوبيخ، والواوُ للعطف على المقدر المذكورِ أو على الجملة المنفيةِ بـ (لم)، والملكوتُ الملكُ العظيم، أي أكذبوا بها أو ألم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظرَ تأملٍ فيما تدل عليه السمواتُ والأرض من عِظَم المُلك وكمالِ القدرة **﴿وما خلق الله﴾** أي وفيما خلق فيهما على أنه عطفٌ على ملكوت، وتخصيصُه بهما لكمال ظهورِ عِظَم المُلك فيهما، أو وفي ملكوت ما خلق على أنه عطفٌ على السموات والأرض، والتعميمُ لاشتراك الكل في الدِلالة على عظم الملكِ في الحقيقة وعليه قوله تعالى: **﴿فسبحان الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء﴾** [يس: ٨٣].

---

(١) هوَّت وهيَّت: صاح. وهوَّت بهم: ناداهم.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٣٦) عن قتادة قال: ذكر لنا فذكر الحديث.
(٣) سقط في ط.

وقوله تعالى: ﴿من شيء﴾ بيانٌ لما خلق مفيدٌ لعدم اختصاص الدِلالة المذكورة بجلائل المصنوعاتِ دون دقائِقها، والمعنى أولم ينظُروا في ملكوت السموات والأرض وما خُلق فيهما من جليل ودقيقٍ مما ينطلق عليه اسمُ الشيءِ ليدلَّهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شؤونِه التي ينطِق بها تلك الآياتُ فيؤمنوا بها لاتحادهما في المدلول فإن كلَّ فردٍ من أفراد الأكوانِ مما عزَّ وهانَ دليلٌ لائحٌ على الصانع المجيد وسبيلٌ واضحٌ إلى عالم التوحيد، وقوله تعالى: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ عطف على ملكوت، وأن مخففةٌ من أنّ، واسمُها ضميرُ الشأن وخبرُها عسى مع فاعلها الذي هو (أن يكون)، واسمُ يكون أيضًا ضميرُ الشأن، والخبرُ (قد اقترب أجلُهم) والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن عسى أن يكون الشأنُ قد اقترب أجلُهم.

وقد جوز أن يكون اسمُ يكون (أجلُهم) وخبرُها (قد اقترب) على أنها جملةٌ من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكمًا، وأيًا ما كان فمناطُ الإنكارِ والتوبيخِ تأخيرُهم للنظر والتأمل أي لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينيةِ الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنيةِ، وقد جوز أن يكون الأجلُ عبارةً عن الساعة والإضافةُ إلى ضميرهم لملابستهم لها من جهة إنكارِهم لها وبحثِهم عنها.

وقوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ قطعٌ لاحتمال إيمانِهم رأسًا ونفيٌ له بالكلية مترتبٌ على ما ذكر من تكذيبهم بالآيات وإخلالِهم بالتفكر والنظر، والباءُ متعلقةٌ بـ (يؤمنون) وضميرُ بعده للآيات على حذفِ المضاف المفهومِ من كذبوا والتذكيرُ باعتبار كونِها قرآنًا أو بتأويلها بالمذكور وإجراءِ الضمير مُجرى اسمِ الإشارة، والمعنى: أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوالِ المصنوعاتِ فبأي حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثلُ هذه الشواهدِ القويةِ كلا وهيهات.

وقيل: الضميرُ للقرآن والمعنى: فبأي حديث بعد القرآنِ يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهايةُ في البيان.

وقيل هو إنكارٌ وتبكيتٌ لهم مترتبٌ على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمل فيما ذُكر كأنه قيل: لعل أجلَهم قد اقترب فما لهم لا يبادِرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفَوْتِ، وماذا ينتظرون بعد وضوحِ الحقِّ! وبأي حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا؟ وقيل: الضميرُ لـ (أجَلهم)، والمعنى فبأي حديثٍ بعد انقضاءِ أجلِهم يؤمنون؟ وقيل: للرسول

عليه الصلاة والسلام على حذف مضافٍ أي فبأي حديثٍ بعد حديثِه يؤمنون وهو أصدقُ الناس!

وقوله تعالى: ﴿**من يضلل الله فلا هادي له**﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله منبئ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى: ﴿**ويذرهم في طغيانهم**﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أي وهو يذرُهم، وقرئ بنون العظمةِ[١] على طريقة الالتفات، أي ونحن نذرهم، وقرئ بالياء[٢] والجزمِ عطفًا على محل فلا هاديَ له كأنه قيل: من يُضللِ الله لا يهدِهِ أحدٌ ويذرْهم، وقد روي الجزمُ بالنون عن نافع وأبي عمرو[٣] في الشواذ وقوله تعالى: ﴿**يعمهون**﴾ أي يتردّدون ويتحيرون، حالٌ من مفعول يذرُهم، وتوحيدُ الضمير في حيز النفي نظرًا إلى لفظ مَنْ وجمعُه في حيز الإثبات نظرًا إلى معناها للتنصيص على شمول النفي والإثباتِ للكل.

[من ألوان ضلال الكفار]

﴿**يسألونك عن الساعة**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان بعضِ أحكامِ ضلالِهم وطغيانِهم أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقُها عليها إما لوقوعها بغتةً أو لسرعة ما فيها من الحساب، أو لأنها ساعةٌ عند الله تعالى مع طولها في نفسها. قيل: إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمدُ أخبرنا متى الساعةُ إن كنت نبيًّا؟ فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريشٌ وقوله تعالى: ﴿**أيّان مُرساها**﴾ بفتح الهمزة وقد قرئ بكسرها[٤] وهو ظرفُ زمانٍ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وقتادة، والأعرج، وابن محيصن، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٥٣)، والتيسير للداني ص (١١٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٧)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٠٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن مصرف، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٣)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٥٤)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٣)، والتيسير للداني ص (١١٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٧)، والكشف للقيسي (١/ ٤٨٥).

(٣) قرأ بها أيضًا: خارجة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٣٣).

(٤) قرأ بها: السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٨).

متضمِّنٌ لمعنى الاستفهام، ويليه المبتدأُ أو الفعلُ المضارعُ دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما، قيل: اشتقاقُه من أيّ فَعْلانَ منه لأن معناه أيّ وقتٍ وهو من أويتُ إلى الشيء لأن البعضَ آوٍ إلى الكل متساندٌ إليه، ومحلُّه الرفعُ على أنه خبرٌ مقدمٌ ومرساها مبتدأٌ مؤخرٌ أي متى إرساؤُها أي إثباتُها وتقريرُها، فإنه مصدرٌ ميميٌّ من أرساه إذا أثبته وأقره، ولا يكاد يُستعمل إلا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى: ﴿**والجبالَ أرساها**﴾ [النازعات: ٣٢] ومنه مرساةُ السفن، ومحلُّ الجملة قيل: الجرُّ على البدلية من الساعة.

والتحقيقُ أن محلها النصبُ بنزع الخافضِ لأنها بدلٌ من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل: يسألونك عن الساعة عن أيان مُرساها، وفي تعليق السؤالِ بنفس الساعةِ أولًا وبوقت وقوعِها ثانيًا تنبيهٌ على أن المقصِدَ الأصليَّ من السؤال نفسُها باعتبار حلولِها في وقتِها المعين لا وقتُها باعتبار كونِه محلًا لها وقد سُلك هذا المسلكُ في الجواب الملقن أيضًا حيث أُضيف العلمُ المطلوبُ بالسؤال إلى ضميرها فأخبرها باختصاصه به عز وجل حيث قيل: ﴿**قل إنما علمها**﴾ أي علمُها بالاعتبار المذكور ﴿**عند ربي**﴾ ولم يقل إنما علمُ وقتِ إرسائِها، ومن لم يتنبّه لهذه النُكتهِ حمل النظمَ الكريمَ على حذف المضافِ، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للإيذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد، ومعنى كونِه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبِرْ به أحدًا من ملك مقرّبٍ أو نبيٍّ مرسل وقوله تعالى: ﴿**لا يجليها لوقتها إلا هو**﴾ بيانٌ لاستمرار تلك الحالةِ إلى حين قيامِها وإقناطٌ كليٌّ عن إظهار أمرها بطريق الإخبارِ من جهته تعالى أو من جهة غيرِه لاقتضاء الحكمةِ التشريعيةِ إياه فإنه أدعىٰ إلى الطاعة وأزجرُ عن المعصية، كما أن إخفاءَ الأجل الخاصِّ للإنسان كذلك، والمعنى لا يَكشِفُ عنها ولا يُظهر للناس أمرَها الذي تسألونني عنه إلا هو بالذات من غير أن يُشعِرَ به أحدًا من المخلوقين فيتوسّط في إظهاره لهم لكن لا بأن يُخبرَهم بوقتها قبل مجيئِه كما هو المسؤولُ بل بأن يُقيمَها فيشاهدوها عِيانًا كما يفصح عنه التجليةُ المُنبئةُ عن الكشف التامِّ المزيلِ للإبهام بالكلية، وقوله تعالى: ﴿**لوقتها**﴾ أي في وقتها، قيْدٌ للتجلية بعد ورودِ الاستثناء عليها لا قبلَه كأنه قيل: لا يجلّيها إلا هو في وقتها، إلا أنه قُدّم على الاستثناء للتنبيه من أول الأمرِ على أن تجليتَها ليست بطريق الإخبارِ بوقتها، بل بإظهار عينِها في وقتها الذي يسألون عنه وقوله تعالى: ﴿**ثقلت في السموات والأرض**﴾ استئنافٌ كما قبله مقررٌ لمضمون ما قبله أي كبُرت وشقتْ على أهلهما من الملائكة والثقلين كلٌّ منهم أهمّه خفاؤُها وخروجُها عن دائرة

العقولِ وقيل: عظُمت عليهم حيث يُشفقون منها ويخافون شدائدَها وأهوالَها وقيل: ثقلت فيهما إذ لا يُطيقها منهما ومما فيهما شيءٌ أصلًا، والأولُ هو الأنسبُ بما قبله وبما بعده من قوله تعالى: ﴿**لا تأتيكم إلا بغتة**﴾ فإنه أيضًا استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبله فلا بد من اعتبار الثِقَل من حيث الخفاءُ أي لا تأتيكم إلا فجأةً على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الساعةَ تهيجُ بالناس والرجلُ يُصلح حَوضَه والرجلُ يسقي ماشيتَه والرجلُ يقوّم سلعتَه في سوقه والرجلُ يخفِض ميزانه ويرفَعُه**»[١].

﴿**يسألونك كأنك حفي عنها**﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان خطئِهم في توجيه السؤالِ إلى رسول الله ﷺ بناءً على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالمٌ بالمسؤول عنه أو أن العلمَ بذلك من مواجب الرسالةِ إثرَ بيانِ خطئهم في أصل السؤال بإعلام شأنِ المسؤولِ عنه، والجملةُ التشبيهيةُ في محل النصبِ على أنها حالٌ من الكاف جيء بها بيانًا لما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم وإشعارًا بخطئهم في ذلك أي يسألونك مُشبّهًا حالُك عندهم بحال من هو حفيٌّ عنها أي مبالغٌ في العلم بها فعيلٌ من حفيَ، وحقيقتُه كأنك مبالغٌ في السؤال عنها فإن ذلك في حكم المبالغةِ في العلم بها لِما أن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحثِ عنه استحكم علمُه به، ومبنىٰ التركيبِ على المبالغة والاستقصاءِ، ومنه إحفاءُ الشاربِ واحتفاءُ البقل أي استئصالُه والإحفاءُ في المسألة أي الإلحافُ فيها، وقيل: (عن) متعلقةٌ بـ (يسألونك) وقولُه تعالى: ﴿**كأنك حفيٌّ**﴾ معترض، وصلةُ حفيٌّ محذوفة أي حفي بها وقد قرئ[٢] كذلك وقيل: هو من الحَفاوة بمعنى البرِّ والشفقة فإن قريشًا قالوا له عليه الصلاة والسلام: إن بيننا وبينك قرابةً فقل لنا متى الساعة؟ والمعنى يسألونك كأنك حفيٌّ تتحفّى بهم فتخصّهم بتعليم وقتِها لأجل القرابة وتَزْوي أمرَها عن غيرهم، ففيه تخطئةٌ لهم من جهتين، وقيل: هو من حفِيَ بالشيء بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرِحٌ بالسؤال عنها تحبّه مع أنك كارِهٌ له، لِما أنه تعرُّضٌ لحُرَم الغيبِ الذي استأثر الله عز وجل بعلمه.

﴿**قل إنما علمها عند الله**﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بإعادة الجوابِ الأول تأكيدًا للحكم وتقريرًا له وإشعارًا بعلته على الطريقة البرهانيةِ بإيراد اسمِ الذات المُنبئ عن استتباعها لصفات الكمالِ التي من جملتها العلمُ وتمهيدًا للتعريض بجهلهم بقوله

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٣/ ٢٩٧) برقم (١٥٤٧٩).

(٢) قرأ بها: عبدالله بن مسعود، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٩).

تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ما ذُكر من اختصاص علمِها به تعالى فبعضُهم ينكرونها رأسًا فلا يعلمون شيئًا مما ذكر قطعًا وبعضُهم يعلمون أنها واقعةٌ ألبتةَ ويزعُمون أنك واقفٌ على وقت وقوعِها فيسألونك عنه جهلًا، وبعضُهم يدّعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالةِ فيتخذون السؤالَ عنه ذريعةً إلى القدح في رسالتك، والمستثنىٰ من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحالِ من المؤمنين، وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحانِ فهم منتظِمون في سلك الجاهلين حيث لم يعمَلوا بعلمهم.

وقوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا﴾ شروعٌ في الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها إثرَ بيانِ عجزِ الكلِ عنه وإبطالُ زعمِهم الذي بنَوْا عليه سؤالَهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها، وإعادةُ الأمر لإظهار كمالِ العنايةِ بشأن الجوابِ والتنبيهِ على استقلاله ومغايرتِه للأول، والتعرضُ لبيان عجزه عما ذُكر من النفع والضُرِّ لإثبات عجزِه عن علمها بالطريق البرهاني، واللامُ إمَا متعلقٌ بـ (أملك) أو بمحذوف وقع حالًا من (نفعًا) أي لا أقدر لأجل نفسي على جلب نفعٍ ما ولا على دفع ضرٍّ ما ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن أملِكَه من ذلك بأن يُلْهِمنيه فيُمكِنَني منه ويُقدِرَني عليه أو لكنْ ما شاء الله من ذلك كائنٌ، فالاستثناءُ منقطعٌ وهذا أبلغُ في إظهار العجز ﴿ولو كنت أعلم الغيْبَ﴾ أي جنسَ الغيبِ الذي من جملته ما بين الأشياء من المناسبات المصححةِ عادةً للسببية والمسبّبة، ومن المباينات المستتبعةِ للممانعة والمدافعةِ ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أي لحصّلتُ كثيرًا من الخير الذي نيط تحصيلُه بالأفعال الاختياريةِ للبشر بترتيب أسبابِه ودفعِ موانِعه ﴿وما مسني السوء﴾ أي السوءُ الذي يمكن التقصّي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعةِ بموانعه لا سوءٌ ما فإن منه ما لا مدفعَ له.

﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أي ما أنا إلا عبدٌ مرسَلٌ للإنذار والبشارة شأني حيازةُ ما يتعلق بهما من العلوم الدينيةِ والدنيوية لا الوقوفُ على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الأحكامِ والشرائع وقد كشفتُ من أمر الساعةِ ما يتعلق به[1] الإنذارُ من مجيئها لا محالة واقترابِها، وأما تعيينُ وقتِها فليس مما يستدعيه الإنذارُ بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن إبهامَه أدعىٰ إلى الانزجار عن المعاصي وتقديمُ النذيرِ على البشير لما أن المقامَ مَقامُ الإنذار.

(١) زاد في خ: من.

وقوله تعالى: ﴿لقوم يؤمنون﴾ إما متعلقٌ بهما جميعًا لأنهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبشارة، وإما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير للكافرين أي الباقين على الكفر، وبشيرٌ لقوم يؤمنون أي في أيّ وقتٍ كان ففيه ترغيبٌ للكفرة في إحداث الإيمانِ وتحذيرٌ عن الإصرار على الكفر والطغيان.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

﴿**هو الذي خلقكم**﴾ استئناف سيق لبيان كمالِ عِظَم جنايةِ الكَفرةِ في جراءتهم على الإشراك بتذكير مبادئ أحوالِهم المنافيةِ له، وإيقاعُ الموصول خبرًا لتفخيم شأنِ المبتدأ، أي هو ذلك العظيمُ الشأنِ الذي خلقكم جميعًا وحدَه من غير أن يكون لغيره مدخلٌ في ذلك بوجه من الوجوه ﴿**من نفس واحدة**﴾ هو آدمُ عليه الصلاة والسلام، وهذا نوعُ تفصيلٍ لما أشير إليه في مطلع السورةِ الكريمة إشارةً إجماليةً من خلقهم وتصويرِهم في ضمن خلق آدمَ[(١)] وتصويرِه وبيانٌ لكيفيته ﴿**وجعل**﴾ عطف على خلقكم داخلٌ في حكم الصلة، ولا ضيرَ في تقدمه عليه وجودًا لِما أن الواوَ لا تستدعي الترتيبَ في الوجود ﴿**منها**﴾ أي من جنسها كما في قوله تعالى: ﴿**جعل لكم من أنفسكم أزواجًا**﴾ [النحل، الآية ٧٢] [أو][(٢)] من جسدها لما يُروى أنه تعالى خلقَ حوّاءَ من ضِلع من أضلاع آدمَ عليه الصلاة والسلام، والأولُ هو الأنسُب إذِ الجنسيةُ هي المؤديةُ إلى الغاية الآتيةِ لا الجزئيةُ، والجعلُ إما بمعنى التصيير فقوله تعالى: ﴿**زوجَها**﴾ مفعولُه الأولُ والثاني هو الظرفُ المقدّم، وإما بمعنى الإنشاءِ والظرفُ

---

(١) زاد في خ: عليه السلام.
(٢) سقط في ط.

متعلقٌ بـ (جعل) قُدّم على المفعول الصريحِ لما مر مرارًا من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر، أو بمحذوف هو حالٌ من المَفعول والأولُ هو الأولى.

وقوله تعالى: ﴿**ليسكن إليها**﴾ علةٌ غائيةٌ للجعل باعتبار تعلُّقِه بمفعولِه الثاني أي ليستأنسَ بها ويطمئِنّ إليها اطمئنانًا مصححًا للازدواج كما يلوح به تذكيرُ الضميرِ ويُفصح عنه قوله تعالى: ﴿**فلما تغشاها**﴾ أي جامعها ﴿**حملت حملًا خفيفًا**﴾ في مبادئ الأمرِ فإنه عند كونه نطفةً أو علقةً أو مضغة أخفُّ عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب[١] لذكر خِفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إياهم متدرجين في أطوار الخلقِ من العدم إلى الوجود ومن الضَّعف إلى القوة ﴿**فمرت به**﴾ أي فاستمرّت به كما كانت قبل حيث قامتْ وقعدت وأخذت وتركت، وعليه قراءةُ ابن عباس[٢] رضي الله تعالى عنه وقرئ (فمَرَتْ)[٣] بالتخفيف و(فمارَتْ)[٤] من المور وهو المجيءُ والذهابُ أو من المِرْية فظنت الحملَ وارتابت به، وأما ما قيل من أن المعنى حملت حملًا خفّ عليها ولم تلْقَ منه ما يلقىٰ بعضُ الحبَالىٰ من حملهن من الكرب والأذّية ولم تستثقِلْه كما يستثقِلْنَه فمرّت به أي فمضَت به إلى ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق فيرده قوله تعالى: ﴿**فلما أثقلت**﴾ إذ معناه فلما صارت ذاتَ ثِقلٍ لكبر الولدِ في بطنها، ولا ريب في أن الثقلَ بهذا المعنى ليس مقابلًا للخفة بالمعنى المذكور إنما يقابلها[٥] الكربُ الذي يعتري بعضَهن من أول الحمل إلى آخره دون بعضٍ أصلًا، وقرئ أُثقِلت[٦] على البناء للمفعول أي أثقلها حملُها ﴿**دعَوَا الله**﴾ أي آدمُ وحواءُ عليهما السلام لمّا دَهِمهما أمرٌ لم يعهَداه ولم يعرِفا مآله فاهتما به وتضرّعا إليه عز وجل وقوله تعالى: ﴿**ربهما**﴾ أي مالكَ أمرِهما الحقيقَ بأن يُخَصَّ به الدعاءُ

---

(١) زاد في خ: والتعرض.

(٢) قرأ بها: سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، والضحاك.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٠).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر، وأيوب، والنقاش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٣٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٥٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٦٩).

(٤) قرأ بها: عبد الله بن عمرو بن العاص، والجحدري.
ينظر:الإملاء للعكبري ص (١٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٠).

(٥) في خ: مقابلها.

(٦) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٤٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، والمعاني للأخفش ص (٣١٦).

إشارةٌ إلى أنهما قد صدّرا به دعاءَهما كما في قولهما: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا**﴾ [الأعراف، الآية ٢٣] الآية، ومتعلَّقُ الدعاءِ محذوفٌ تعويلًا على شهادة الجملةِ القَسَمية به، أي دَعَواه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا ووعدا بمقابلته الشكرَ على سبيل التوكيدِ القَسَميِّ وقالا أو قائلين:

﴿**لئن آتيتنا صالحًا**﴾ أي ولدًا من جنسنا سويًا ﴿**لنكونن**﴾ نحن ومن يتناسل من ذريتنا ﴿**من الشاكرين**﴾ الراسخين في الشكر على نعمائك التي من جملتها هذه النعمةُ، وترتيبُ هذا الجوابِ على الشرط المذكورِ لما أنهما قد علما أن ما علّقا به دعاءَهما أُنموذَجٌ لسائر أفرادِ الجنسِ ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً وجودُه مستتبعٌ لوجودها وصلاحُه مستلزِمٌ لصلاحها فالدعاءُ في حقه متضمنٌ للدعاء في حق الكل مستتبِعٌ له كأنهما قالا: لئن آتيتنا وذريتَنا أولادًا صالحة، وقيل: إن ضميرَ آتيتَنا أيضًا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجهُ ظاهرٌ.

وأنت خبيرٌ بأن نظمَ الكل في سلك الدعاءِ أصالةً يأباه مقام المبالغةِ في الاعتناء بشأن ما هما بصدده، وأما جعلُ ضميرِ (لنكونن) للكل فلا محذورَ فيه لأن توسيعَ دائرةِ الشكر غيرُ مُخِلٍّ بالاعتناء المذكور بل مؤكدٌ له. وأيًا ما كان فمعنى قوله تعالى: ﴿**فلما آتاهما صالحًا**﴾ لما آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا من الولد وولد الولدِ ما تناسلوا فقوله تعالى: ﴿**جعلا**﴾ أي جعل أولادُهما ﴿**له**﴾ تعالى ﴿**شركاء**﴾ على حذف المضافِ وإقامةِ المضاف إليه مُقامه ثقةً بوضوح الأمرِ وتعويلًا على ما يعقُبه من البيان وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿**فيما آتاهما**﴾ أي فيما آتى أولادَهما من الأولاد حيث سمَّوْهم بعبد مناف وعبدِ العزّى ونحوِ ذلك وتخصيصُ إشراكِهم هذا بالذكر في مقام التوبيخِ مع أن إشراكَهم بالعبادة أغلظُ منه جنايةً وأقدمُ وقوعًا لِما أن مَساقَ النظمِ الكريمِ لبيان إخلالِهم بالشكر في مقابلة نعمةِ الولدِ الصالِح، وأولُ كفرِهم في حقه إنما هو تسميتُهم إياه بما ذُكر، وقرئ شِرْكًا[1] أي شركةً أو ذوي شركةٍ أي شركاءَ.

إن قيل ما ذُكر من حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه إنما يصار إليه فيما يكون للفعل ملابسةٌ ما بالمضاف إليه أيضًا بسرايته إليه حقيقةً أو حكمًا وتتضمن نسبتُه

---

(١) قرأ بها: نافع، وعاصم، وأبو بكر، وأبو جعفر، وابن محيصن، وابن عباس، وشيبة، وعكرمة، ومجاهد، وأبان بن تغلب، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٠٨)، والمعاني للفراء (١/ ٤٠٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٣).

إليه صورةً مزيةً يقتضيها المقامُ كما في[1] قوله تعالى: ﴿**وإذ نجّيناكم من آل فرعون**﴾ [البقرة: ٤٩] فإن الإنجاءَ منهم مع أن تعلّقه حقيقةً ليس إلا بأسلاف اليهودِ قد نُسب إلى أخلافهم بحكم سرايتِه إليهم توفيةً لمقام الامتنانِ حقَّه، وكذا في قوله تعالى: ﴿**قل فلم تقتُلون أنبياءَ الله**﴾ [البقرة: ٩١]، فإن القتلَ حقيقة مع كونه من جناية آبائِهم قد أُسند إليهم بحكم رضاهم به أداءً لحق مقامِ التوبيخِ والتبكيت، ولا ريب في أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سرايةِ الجعلِ المذكورِ إليهما بوجه من الوجوه، فما وجهُ إسنادِه إليهما صورةً؟ قلنا: وجهُه الإيذانُ بتركهما الأَوْلى حيث أقدما على نظم أولادِهما في سلك أنفسِهما والتزما شكرَهم في ضمن شكرِهما وأقسما على ذلك قبل تعرُّف أحوالِهم ببيان أن إخلالَهم بالشكر الذي وعداه وعدًا مؤكدًا باليمين بمنزلة إخلالِهما بالذات في استيجاب الحِنْثِ والخُلْف مع ما فيه من الإشعار بتضاعف جنايتِهم ببيان أنهم بجعلهم المذكورِ أوقعوهما في ورطة الحِنثِ والخُلفِ وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجنايةِ على الله تعالى والجنايةِ عليهما عليهما السلام.

﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ تنزيهٌ فيه معنى التعجبِ، والفاءُ لترتيبه على ما فصل من أحكام قدرتِه تعالى وآثارِ نعمتِه الزاجرةِ عن الشرك الداعيةِ إلى التوحيد، وصيغةُ الجمعِ لما أشير إليه من تعين الفاعلِ وتنزيهِ آدمَ وحواءَ عن ذلك و(ما) في (عما) إما مصدريةٌ أي عن إشراكهم أو موصولةٌ أو موصوفةٌ أي عما يشركونه به سبحانه، والمرادُ بإشراكهم إما تسميتُهم المذكورةُ أو مطلقُ إشراكِهم المنتظمِ لها انتظامًا أوليًا، وقرئ تشركون[2] بتاء الخِطاب بطريق الالتفاتِ.

وقيل: الخطابُ لآل قصيٍّ من قريش، والمرادُ بالنفس الواحدةِ نفسُ قصيّ فإنهم خُلقوا منه وكان له زوجٌ من جنسه عربيةٌ قرشيةٌ وطلبا من الله تعالى ولدًا صالحًا فأعطاهما أربعةَ بنينَ فسمَّياهم عبدَ مناف وعبدَ شمسٍ وعبدَ قُصيٍّ وعبدَ الدار، وضمير (يشركون) لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وأما ما قيل: من أنه لما حملت حواءُ أتاها إبليسُ في صورة رجل فقال لها: ما يُدريك ما في بطنك لعله بهيمةٌ أو كلبٌ أو خنزيرٌ وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدمَ فأهمّهما ذلك ثم عاد

---

(١) زاد في خ: مثل.
(٢) قرأ بها: السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٤٠).

إليها وقال: إني من الله تعالى بمنزلة فإن دعوتُه أن يجعله خلقًا مثلَك ويسهّل عليك خروجَه تسمّيه عبد الحارث وكان اسمُه حارثًا في الملائكة فقبِلت فلما ولدتْه[1] سمتْه عبدَ الحارثِ فمما لا تعويلَ عليه، كيف لا وأنه عليه الصلاة والسلام كان علَمًا في علم الأسماءِ والمسميات فعدمُ علمِه بإبليسَ واسمِه واتباعُه إياه في مثل هذا الشأن الخطيرِ أمرٌ قريبٌ من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿**أيشركون**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتوبيخ كافةِ المشركين واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاق وإبطالِه بالكلية ببيان شأنِ ما أشركوه به سبحانه، وتفصيلِ أحوالِه القاضيةِ ببطلان ما اعتقدوه في حقه أي أيشركون به تعالى ﴿**ما لا يخلق شيئًا**﴾ أي لا يقدر على أن يخلُق شيئًا من الأشياء أصلًا ومن حق المعبودِ أن يكون خالقًا لعابده لا محالة، وقولُه تعالى: ﴿**وهم يخلقون**﴾ عطفٌ على (لا يخلق) وإيرادُ الضميرين بجمع العقلاءِ مع رجوعهما إلى (ما) المعبّرِ بها عن الأصنام إنما هو بحسب اعتقادِهم فيها وإجرائِهم لها مُجرى العقلاءِ وتسميتِهم لها آلهةً، وكذا حالُ سائر الضمائرِ الآتيةِ ووصفُها بالمخلوقية بعد وصفِها بنفي الخالقيةِ لإبانة كمالِ منافاةِ حالِها لما اعتقدوه في حقها وإظهارِ غايةِ جهلِهم، فإن إشراكَ ما لا يقدِرُ على خلق شيءٍ ما بخالقه وخالقِ جميع الأشياء مما لا يمكن أن يسوّغه من له عقلٌ في الجملة وعدمُ التعرضِ لخالقها للإيذان بتعينه والاستغناءِ عن ذكره.

﴿**ولا يستطيعون لهم**﴾ أي لِعبَدَتهم إذا حزبهم أمرٌ مهمّ وخطبٌ مُلِمٌّ ﴿**نصرًا**﴾ أي نصرًا ما بجلب منفعةٍ أو دفعِ مضرة ﴿**ولا أنفسهم ينصرون**﴾ إذا اعتراهم حادثةٌ من الحوادث أي لا يدفعونها عن أنفسهم، وإيرادُ النصر للمشاكلة، وهذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديةِ والعدميةِ إلى عبدتهم وأنفسِهم بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم وإلى أنفسهم، خلا أنهم وُصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلًا لها وهاهنا لم يوصفوا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلًا لها. وقوله تعالى: ﴿**وإن تدعوهم إلى الهدى**﴾ بيانٌ لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفيِّ عنهم وأيسرُ، وهو مجردُ الدلالةِ على المطلوب والإرشادِ إلى طريق حصولِه من غير أن يحصّله الطالب، والخطابُ للمشركين بطريق الالتفاتِ المنبئ عن مزيد الاعتناءِ بأمر التوبيخِ والتبكيتِ أي إنْ تدعوهم أيها المشركون إلى أن يَهدوكم إلى ما تحصِّلون به المطالبَ أو تنجون به عن المكاره

---

(١) في خ: ولدت.

﴿لا يتبعوكم﴾ إلى مرادكم وطِلْبَتِكم، وقرئ بالتخفيف(١).

وقوله تعالى: ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبله ومبينٌ لكيفية عدمِ الاتباع، أي مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دعاؤُكم لهم وسكوتُكم البحثُ فإنه لا يتغير حالُكم في الحالين كما لا يتغير حالُهم بحكم الجمادية.

وقوله تعالى: ﴿أم أنتم صامتون﴾ جملةٌ اسميةٌ في معنى الفعليةِ معطوفةٌ على الفعلية لأنها في قوة (أمْ صَمَتّم)، عُدل عنها للمبالغة في عدم إفادةِ الدعاءِ ببيان مساواتِه للسكوت الدائم المستمر، وما قيل من أن الخطابَ للمسلمين والمعنى وإن تدعوا المشركين إلى الهَدى أي الإسلام لا يتبعوكم إلخ، مما لا يساعده سباقُ النظمِ الكريم وسياقُه أصلًا على أنه لو كان كَذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ [البقرة: ٦] فإن استواءَ الدعاءِ وعدمَه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا بالنسبة إلى الداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ تقريرٌ لما قبله من عدم اتباعِهم لهم أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمّونهم آلهةً ﴿عباد أمثالكم﴾ أي مماثلةٌ لكم لكن لا من كل وجهٍ بل من حيث إنها مملوكةٌ لله عز وجل مسخَّرةٌ لأمره عاجزة عن النفع والضررِ وتشبيهُها بهم في ذلك مع كون عجزِها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسِهم وادّعائِهم لقدرتها عليهما إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانةِ بها.

وقوله تعالى: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ تحقيقٌ لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتِهم أي فادعوْهم في جلب نفعٍ أو كشف ضُرٍّ ﴿إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

وقوله تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ إلخ تبكيتٌ إثرَ تبكيتٍ مؤكدٌ لما يفيده الأمرُ التعجيزيُّ من عدم الاستجابةِ ببيان فُقدانِ آلاتِها بالكلية فإن الاستجابةَ من الهياكل الجُسمانية إنما تُتصوّر إذا كان لها حياةٌ وقُوىً محرّكة ومُدركة وما ليس له شيءٌ من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة كأنه قيل: ألهم هذه الآلاتُ التي بها تتحقق الاستجابةُ حتى يمكن استجابتُهم لكم؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدةٍ من هذه الآلات الأربعِ على حدة تكريرًا للتبكيت وتثنيةً للتقريع وإشعارًا بأن انتفاءَ كلِّ

---

(١) قرأ بها: نافع والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٤٤١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٩٩).

واحدةٍ منها بحيالها كافٍ في الدلالة على استحالةِ الاستجابة، ووصفُ الأرجلِ بالمشي بها للإيذان بأن مدارَ الإنكارِ هو الوصفُ وإنما وُجّه إلى الأرجلِ لا إلى الوصف بأن يقال: أيمشون بأرجلهم؟ لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجلِ فهي ليست بأرجل في الحقيقة وكذا الكلامُ فيما بعده من الجوارح الثلاثِ الباقية، وكلمةُ أم في قوله تعالى: **﴿أم لهم أيد يبطِشون بها﴾** منقطعةٌ، وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والإلزام و(بل) للإضراب المفيدِ للانتقال من فنّ من التبكيت بعد تمامِه إلى فن آخرَ منه لما ذُكر من المزايا، والبطشُ الأخذُ بقوة، وقرئ (يبطُشون)[1] بضم الطاء وهي لغة فيه والمعنى: بل ألهم أيدٍ يأخُذون بها ما يريدون أخذَه؟ وتأخيرُ هذا عما قبله لما أن المشيَ حالُهم في أنفسهم والبطشَ حالُهم بالنسبة إلى الغير، وأما تقديمُه على قوله تعالى: **﴿أم لهم أعينٌ يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾** مع أن الكل سواءٌ في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير فلمراعاة المقابلةِ بين الأيدي والأرجل، ولأن انتفاءَ المشي والبطشِ أظهرُ والتبكيتَ بذلك أقوى، وأما تقديمُ الأعينِ فلما أنها أشهرُ من الآذان وأظهرُ عينًا وأثرًا.

هذا وقد قرئ (إنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالَكم)[2] على إعمال إنْ النافية عملَ ما الحجازية أي ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادًا أمثالَكم بل أدنى منكم فيكونُ قوله تعالى: **﴿ألهم﴾** إلخ، تقريرًا لنفي المماثلةِ بإثبات القصورِ والنُقصان **﴿قل ادعوا شركاءكم﴾** بعد ما بُيّن أن شركاءَهم لا يقدرون على شيء ما أصلًا أُمر رسولُ الله ﷺ بأن يناصِبَهم للمُحاجّة ويكررَ عليهم التبكيتَ وإلقام الحجرِ، أي ادعوا شركاءَكم واستعينوا بهم عليّ **﴿ثم كيدون﴾** جميعًا أنتم وشركاؤكم وبالِغوا في ترتيب ما تقدِرون عليه من مبادئ الكيدِ والمكر **﴿فلا تُنظرون﴾** أي فلا تُمهلوني ساعةً بعد ترتيبِ مقدمات الكيدِ فإني لا أبالي بكم أصلًا **﴿إن وليّي الله الذي نزل الكتاب﴾** تعليلٌ لعدم المبالاةِ المنفهم من السَّوْق انفهامًا جليًا، ووصفُه تعالى بتنزيل الكتابِ للإشعار بدليل الولايةِ والإشارةِ إلى علة أخرى لعدم المبالاةِ كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم لأن وليّيَ هو الله الذي أنزل الكتابَ الناطقَ بأنه وليِّي وناصري وبأن

---

(١) قرأ بها: نافع، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٥٨)، والبحر المحيط (٤/ ٤٤٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ٦٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٤٣)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥١١).

(٢) قرأ بها: سعيد بن جبير.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٥٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٤٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٠).

شركاءَكم لا يستطيعون نصرَ أنفسِهم فضلًا عن نصركم، وقوله تعالى: ﴿**وهو يتولى الصالحين**﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله أي ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصُرَهم ولا يخذُلَهم ﴿**والذين تدعون**﴾ أي تعبدونهم ﴿**من دونه**﴾ تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم عليّ حسبما أمرتُكم به ﴿**لا يستطيعون نصركم**﴾ أي في أمر من الأمور أو في خصوص الأمرِ المذكور ﴿**ولا أنفسَهم ينصرون**﴾ إذا نابتْهم نائبةٌ ﴿**وإن تدعوهم إلى الهدى**﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصّلون به مقاصدَكم على الإطلاق أو في خصوص الكيدِ المعهود ﴿**لا يسمعوا**﴾ أي دعاءَكم فضلًا عن المساعدة والإمدادِ، وهذا أبلغُ من نفي الاتباعِ، وقوله تعالى: ﴿**وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾ بيانٌ لعجزهم عن الإبصار بعد بيانِ عجزِهم عن السمع وبه يتم التعليلُ فلا تكرارَ أصلًا، والرؤيةُ بصريةٌ.

وقوله تعالى: ﴿**ينظرون إليك**﴾ حالٌ من المفعول، والجملةُ الاسميةُ حالٌ من فاعل (ينظرون)، أي وترى الأصنامَ رأيَ العين يُشبهون الناظرين إليك ويخيّل إليك بأنهم يُبْصِرونك لما أنهم صنعوا لها أعينًا مركبةً بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوّروها بصورة مَنْ قلبَ حدَقتَه إلى الشيء ينظُر إليه، والحالُ أنهم غيرُ قادرين على الإبصار، وتوحيدُ الضمير في تراهم مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخِطابِ إلى كل واحد واحد منهم لا إلى الكل من حيث هو كلٌّ كالخطابات السابقةِ تنبيهًا على أن رؤية الأصنامِ على الهيئة المذكورةِ لا تتسنّى للكل معًا بل لكل من يواجهها، وقيل: ضميرُ الفاعلِ في (تراهم) لرسول الله ﷺ وضميرُ المفعولِ على حاله، وقيل: للمشركين على أن التعليلَ قد تم عند قوله تعالى: ﴿**لا يسمعوا**﴾ أي وترى المشركين ينظُرون إليك والحال أنهم لا يبصِرونك كما أنت عليه.

وعن الحسن أن الخِطابَ في قوله تعالى: ﴿**وإن تدعوا**﴾ للمؤمنين على أن التعليلَ قد تم عند قوله تعالى: ﴿**ينصُرون**﴾ أي وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام لا يلتفتوا إليكم، ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريدِ بأنك تراهم ينظُرون إليك والحالُ أنهم لا يُبصرونك حقَّ الإبصار تنبيهًا على أن ما فيه عليه السلام من شواهد النبوةِ ودلائلِ الرسالةِ من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين.

[من أخلاق النبي ﷺ]

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ

تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿خذ العفو﴾ بعد ما عُدّ من أباطيلِ المشركين وقبائحِهم ما لا يطاق تحمُّله أُمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارمِ الأخلاق التي من جملتها الإغضاءُ عنهم، أي خذْ ما عفا لك من أفعال الناسِ وتسهل ولا تكلِّفْهم ما يشُقُّ عليهم، من العفو الذي هو ضدُّ الجَهدِ، أو خذ العفوَ من المذنبين أو الفضلَ من صدقاتهم وذلك قبل وجوبِ الزكاة ﴿وأمرْ بالعرف﴾ بالجميل المستحسَن من الأفعال فإنها قريبةٌ من قَبول الناس من غير نكير ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ من غير مماراةٍ ولا مكافأة، قيل: (لما نزلت سأل رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام فقال: لا أدري حتى أسأل ثم رجع فقال: يا محمدُ إن ربك أمرك أن تصِل مَنْ قطعك وتعطيَ من حَرَمك وتعفُوَ عمّن ظلمك)[1] وعن جعفرٍ الصادقِ: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وروي أنه لما نزلت الآيةُ الكريمةُ قال عليه الصلاة والسلام: «**كيف يا ربّ والغضبُ متحقق؟**»[2] فنزل قوله تعالى: ﴿وإما ينزغَنَّك من الشيطان نزغ﴾ النزغُ والنسْغُ والنخْسُ: الغرزُ شُبّهت وسوستُه للناس وإغراؤه[3] لهم على المعاصي بغَرْز السائق لما يسوقه، وإسنادُه إلى النزغ من قَبيل جَدّ جِدُّه أي وإما يحمِلنّك من جهته وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرتَ به من اعتراء غضبٍ أو نحوه ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجِئ إليه تعالى من شره ﴿إنه سميع﴾ يسمع استعاذتَك به قولًا ﴿عليم﴾ يعلم تضرُّعَك إليه قلبًا في ضمن القولِ أو بدونه فيعصمُك من شره.

وقد جُوّز أن يرادَ بنزغ الشيطانِ اعتراءُ الغضبِ على نهج الاستعارة كما[4] في قول

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٥٤) رقم (١٥٥٥٨-١٥٥٥٩)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٨٠)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٧٧) رقم (٤٨٢) إلى ابن مردويه في تفسيره.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٥٥) رقم (١٥٥٦٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٨٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٨١) رقم (٤٨٤) إلى الثعالبي في تفسيره، وإلى الواحدي في تفسيره الوسيط.

(٣) في خ: إغرائه.

(٤) وذلك حيث شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزع الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة، وهي استعارة تبعية تصريحية. =

الصديقِ رضي الله عنه: إن لي شيطانًا يعتريني[١]. ففيه زيادةُ تنفيرٍ عنه وفرطُ تحذيرٍ عن العمل بموجبه، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويلٌ لأمره وتنبيهٌ على أنه من الغوائل الصعبةِ التي لا يُتخَلّص من مَضَرَّتها إلا بالالتجاء إلى حرَم عصمتِه عز وجل، وقيل: يعلم ما فيه صلاحُ أمرِك فيحملك عليه، أو (سميعٌ) بأقوال مَنْ آذاك (عليمٌ) بأفعاله فيجازيه عليها.

﴿**إن الذين اتقوا**﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبله ببيان أن ما أمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنةٌ مسلوكةٌ للمتقين والإخلالُ بها ديدنُ الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسِهم عما يضُرّها ﴿**إذا مسهم طائف من الشيطان**﴾ أدنىٰ لمّةٍ منه، على أن تنوينَه للتحقير وهو اسمُ فاعلٍ[٢] (يطوف)، كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقِعَ بهم، أو من طاف به الخيالُ يطيفُ طيفًا أي ألَمَّ وقرئ (طيفٌ)[٣] على أنه مصدر، أو تخفيفٌ من (طيِّف) من الواوي أو اليائي كهيّن وليّن، والمرادُ الشيطان الجنسُ ولذلك جُمع ضميرُه فيما سيأتي ﴿**تذكروا**﴾ أي الاستعاذةَ به تعالى والتوكلَ عليه ﴿**فإذا هم**﴾ بسبب ذلك التذكّرِ ﴿**مبصرون**﴾ مواقِعَ الخطأ ومكايدَ الشيطانِ فيحترزون عنها ولا يتبعونه.

﴿**وإخوانهم**﴾ أي إخوانُ الشياطين وهم المنهمِكون[٤] في الغي المعرضون عن وقاية أنفسِهم عن المضار ﴿**يمدونهم في الغي**﴾ أي يكون الشياطين مددًا لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحملِ عليه، وقرئ (يُمِدّونهم)[٥] من الإمداد و(يُمادّونهم)[٦]

= ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٣٣٦) برقم (٢٠٧٠١).

(٢) زاد في خ: من طاف.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، واليزيدي، والشنبوذي، وإبراهيم النخعي. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٤)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٦٠)، والإملاء للعكبري (١/ ١٦٨)، والبحر المحيط (٤/ ٤٤٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٧٥)، والتيسير للداني ص (١١٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٦٨، ١٦٩).

(٤) في ط: المنهكون.

(٥) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٥)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٦١)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٧٧)، والتيسير للداني ص (١١٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٩).

(٦) قرأ بها: عاصم الجحدري.

=

كأنهم يُعينونهم بالتسهيل والإغراء[١]، وهؤلاء بالاتباع والامتثال **﴿ثم لا يقصرون﴾** [أي لا يمسكون عن الإغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يرعون عن الغي ولا يقصرون][٢] كالمتقين، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجعُ الضميرُ إلى الجاهلين فيكون الخبرُ جاريًا على من هو له.

﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ من القرآن عند تراخي الوحي أو بآية مما اقترحوه **﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾** اجتبىٰ الشيءَ بمعنى جباه لنفسه، أي هلاّ جمعتَها من تلقاء نفسِك تقوّلًا، يرون بذلك أن سائرَ الآياتِ أيضًا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاءً **﴿قل﴾** ردا عليهم **﴿إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي﴾** من غير أن يكون لي دخلٌ ما في ذلك أصلًا على معنى تخصيص حالِهِ عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحىٰ إليه بتوجيه للقصر[٣] المستفادِ من كلمة (إنما) إلى نفس الفعلِ بالنسبة إلى مقابله الذي كلفوه إياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيصِ اتباعِه عليه الصلاة والسلام بما يوحىٰ إليه بتوجيه القصرِ إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخرَ كما هو الشائع في موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه في قوله تعالى **﴿إنْ اتّبع إلا ما يُوحىٰ إلي﴾** [الأنعام: ٥٠. ويونس: ١٥. والأحقاف: ٩] كأنه قيل: ما أفعل إلا اتباعَ ما يوحىٰ إلي منه تعالى. وفي التعرض لوصف الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائقِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيهِ على تأييده ما لا يخفى.

﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى القرآن الكريم المدلولِ عليه بـ (ما يوحىٰ إلي) **﴿بصائر من ربكم﴾** بمنزلة البصائرِ للقلوب بها تُبصِر الحقَّ وتدرك الصواب، وقيل: حججٌ بينةٌ وبراهينُ نيِّرةٌ. و(من) متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لـ (بصائرَ) مفيدةٌ لفخامتها أي بصائرُ كائنةٌ منه تعالى، والتعّرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوبِ الإيمانِ بها.

وقوله تعالى: **﴿وهدى ورحمة﴾** عطفٌ (على بصائرُ)، وتقديمُ الظرفِ عليهما وتعقيبُهما بقوله تعالى: **﴿لقوم يؤمنون﴾** للإيذان بأن كونَ القرآنِ بمنزلة البصائرِ

= ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١١)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥١٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧١).

(١) في ط: الإزواء.
(٢) سقط في ط.
(٣) في خ: القصر.

للقلوب متحققٌ بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع، وأما كونُه هدى ورحمةً فمختصٌّ بالمؤمنين به إذ هم المقتبِسون من أنواره والمغتنِمون بآثاره، والجملةُ من تمام القولِ المأمورِ به.

﴿**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له**﴾ إرشادٌ إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلةِ التي ينطوي عليها القرآن، أي وإذا قرئ القرآنُ الذي ذُكرت شؤونُه العظيمةُ فاستمعوا له استماعَ تحقيقٍ وقَبول ﴿**وأنصتوا**﴾ أي واسكُتوا في خلال القراءةِ وراعوها إلى انقضائها تعظيمًا له وتكميلًا للاستماع ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ أي تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراتِه. وظاهرُ النظم الكريمِ يقتضي وجوبَ الاستماعِ والإنصاتِ عند قراءةِ القرآن في الصلاة وغيرِها وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسولُ القرآنَ عند نزولِه فاستمعوا له، وجمهورُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه في استماع المؤتمِّ، وقد روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فأُمروا باستماع قراءةِ الإمام والإنصاتِ له. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قرأ في المكتوبة[١] وقرأ أصحابُه خلفه فنزلت[٢]، وأما خارج الصلاة فعامةُ العلماءِ على استحبابهما والآيةُ إما من تمام القولِ المأمورِ به أو استئنافٌ من جهته تعالى.

﴿**واذكر ربك في نفسك**﴾ على الأول عطفٌ على (قل) وعلى الثاني فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو عام في الأذكار كافةً فإن الإخفاءَ أدخلُ في الإخلاص وأقربُ من الإجابة ﴿**تضرعًا وخيفة**﴾ أي متضرعًا وخائفًا ﴿**ودون الجهر من القول**﴾ أي ومتكلمًا كلامًا دون الجهر فإنه أقرب إلى حسن التفكر ﴿**بالغدو والآصال**﴾ متعلقٌ بـ (اذكر) أي اذكره في وقت الغُدوات والعشيات وقرئ (والإيصال)[٣] وهو مصدر (آصَلَ) أي دخل في الاصيل موافقٌ للغدو ﴿**ولا تكن من الغافلين**﴾ عن ذكر الله تعالى ﴿**إن الذين عند ربك**﴾ وهم الملائكةُ عليهم السلام ومعنى كونِهم عنده سبحانه وتعالى قربُهم من رحمته وفضلِه لتوفرهم على طاعته تعالى ﴿**لا يستكبرون عن عبادته**﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿**ويسبحونه**﴾ أي ينزّهونه عن

---

(١) أي في أثناء الصلاة المكتوبة المفروضة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٣٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ عن أبي العالية أن النبي ﷺ فذكره.

(٣) قرأ بها: أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١١).

كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿وله يسجدون﴾ أي يخُصّونه بغاية العبوديةِ والتذللِ لا يشركون به شيئًا وهو تعريضٌ بسائر المكلفين ولذلك شُرع السجود عند قراءته.

عن النبي ﷺ: «**إذا قرأ ابنُ آدمَ آيةَ السجدة فسجد اعتزل الشيطانُ يبكي فيقول: يا ويله**[١] **أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنةُ، وأُمرت بالسجود فعصَيت فلي النار**»[٢] وعنه عليه الصلاة والسلام: «**من قرأ سورةَ الأعرافِ جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين إبليسَ سترًا وكان آدمُ عليه السلام شفيعًا له يوم القيامة**»[٣].

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

وأوله: تفسير سورة الأنفال

---

(١) جاء في لسان العرب (ويل) أن إبليس عدل عن قول «يا ويلي» وأضاف الويل إلى ضمير الغائب كراهية أن يُضيف الويل إلى نفسه. قلت: وليس المراد يا ويل ابن آدم.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٧) كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، (١٣٣/ ٨١) من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم تخريجه.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

تفسير سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN

by

Al-qāḍi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi

Edited by

Ḫālid Abdul-Ǧani Maḥfūẓ

Volume III

